

[illegible]

رسالة ابن بطوطه

المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار
وعجائب الأسفار

الجزء الأول

سنة ١٩٥٨ م — سنة ١٣٧٧ هـ

رُوجِعَتْ وَصَحِّحَتْ عَلَى عَدَدِهِ نَسَخَ صَحِيحَةٍ
بِمَعْرِفَةِ لَجْنَةِ مِنَ الْأَدَبَاءِ

يَطْلُبُ مِنْ
المكتبة التجارية الكبرى
بمصر ص.ب. ٥٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الفقيه العالم الثقة الناسك الأبر وفد الله المعتمر شرف الدين المعتمد في سياحته على رب العالمين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي ثم الطنجي المعروف بابن بطوطه رحمه الله ورضي عنه وكرمه آمين .

الحمد لله الذي ذلل الأرض لعباده ليسلكوا منها سبيلا فجاء . وجعل منها وإليها تاراتهم الثلاث نباتا وإعادة وإخراجا . دحاها بقدرته فكانت مهادا للعباد . وأرسلها بالأعلام الراسيات والأطواد ورفع فوقها سمك السماء بغير عمد . وألهم السكواكب هداية في ظلمات البر والبحر . وجعل النور نورا والشمس سراجا . ثم أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد الممات . وأنبت فيها من كل الثمرات . وفطر أقطارها بصنوف النبات وفجر البحرين عذبا فراتا . وملأها أجاجا . وأكمل على خلقه الأنعام بتدليل مطايا الأنعام . وتسخير المنشئات كالأعلام لتمتطوا من صهوة الفقر ومتن البحر أثباجا وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذي أوضح للخلق منهاجا . وطلع نور هدايته وهاجا . بعشه الله تعالى رحمة للعالمين واختاره خاتما للنبيين وأمكن صوارمه من رقاب المشركين حتى دخل الناس في دين الله أفواجا ، وأيده بالمعجزات الباهرات وألطق بتصديقه الجمادات وأحيا بدعوته الذمم الباليات وفجر من بين أنامله ماء ثجاجا ، ورضى الله تعالى عن المتشرفين بالانتماء إليه أصحابا وآلا وأزواجا ، المقيمين تقاة الدين فلا تخشى بعدهم اعوجاجا ، فهم الذين ازروه على جهاد الأعداء وظاهروا على إظهار الملة البيضاء وقاموا بحقوقها الكريمة من الهجرة والنصرة والايواء واقترحموا دونه نار البأس حامية وخاضوا بحر الموت عجاجا ، ونستوهب الله تعالى لمولانا الامام الخليفة أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين المجاهد في سبيل الله المؤيد بنصر الله - أبي عثمان فارس ابن موالينا الأئمة المهتدين الخلفاء الراشدين نصرا يوسع الدنيا

وأهلها ابتهاجا * وسعدا يكون لزمانة الزمان علاجا * كما وهبه الله بأسا وجودا لم يدع
 طاغيا ولا محتاجا * وجعل بسيفه وسيفه لكل ضيقة انقراجا (وبعد) فقد قضت العقول
 وحكم المعقول والمنقول ه بأن هذه الخلافة العلية . المجاهدة المتوكة الفارسية . هي
 ظل الله الممدود على الأنام وحبلة الذي به الاعتصام وفي سلك طاعته يجب الانتظام
 فهي التي أبرأت الدين عند اعتلاله وأغمدت سيف العدوان عند انسلاله وأصلحت
 الأيام بعد فسادها ونفقت سوق العلم بعد كسادها وأوضحت طرق البر عند انهاجها
 وسكنت أقطار الأرض عند ارتجاجها وأحييت مدن المسكارم بعد ممانتها وأماتت رسوم
 المظالم بعد حياتها وأخمدت نار الفتنة عند اشتعالها وانقضت حكام البغي عند استقلالها
 وشادت مباني الحق على عماد التقوى واستمسكت من النوكل على الله بالسبب الأقوى
 قلها العز الذي عقد تاجه على مفرق الجوزاء والمجد الذي جر أذياله على مجرة السماء
 والسعد الذي رد على الزمان غض شبابه والعدل الذي على أهل الإيمان مديد أطنا به
 والجود الذي قطر سحابه اللجين والنضار والباس الذي فيه غمامه الدر الموار والنصر
 الذي تفيض كتائبه الأجل والتأييد الذي يعرض غنائمه الدول والبطش الذي سبق
 سيفه العدل والأناة التي لا يمل عندها الأمل والحزم الذي يسد على الأعداء وجوه
 المسارب والعزم الذي يفل جموعها قبل قراع الكتائب والحلم الذي يجنى العفو من
 ثمر الذنوب والرفق الذي جمع على محبته بنات القلوب والعلم الذي يجلو نوره دياجي
 المشكلات والعمل المقيد بالاخلاص والأعمال بالنيات .

(ولما كانت حضرة العلية) مطمح الآمال ومسرح همم الرجال ومخطر حال الفضائل
 ومثابة أمن الخائف ومنية السائل توخى الزمان خدمتهما ببدايع تحفه ورائع طرفه
 فاثقال عليها العلماء انديال جودها على الصفات وتسابق إليها الأدباء تسابق عزوماتها
 إلى العادات وجمع العارفون حرما الشريف وقصد السائحون استطلاع معناها المنيف
 ولجأ الخائفون إلى الامتناع بعز جنابها واستجارت الملوك بخدمة أبوابها فهي القطب
 الذي عليه مدار العالم وفي القطع بتفضيلها تساوت بديهة عقل الجاهل والعالم وعن مآثرها
 الفائقة بسند صحاح الآثار كل مسلم وبأكمال محاسنها الرائقة يفصح كل معلم وكان ممن
 وفد على بابها السامى وتعدى أوشال البلاد إلى بحرها الطامى الشيخ الفقيه السائح الثقة
 الصدوق جوال الأرض ومخترق الأقاليم بالطول والعرض أبو عبد الله محمد بن عبد الله
 ابن محمد بن إبراهيم اللواتى المعروف بابن بطوطه المعروف في بلاد الشرقية بشمس
 الدين وهو الذى طاف الأرض معتبرا وهاوى الأمصار مختبرا وباحث فرقا الأهم وسبر

سير العرب والعجم ثم ألقى عصا التسيار بهذه الحضرة العليا لما علم أن لها مزية الفضل دون شرط ولا ثنيا وهوى المشارق إلى مطلع بدرها بالغرب وآثرها على الأقطار إشار التبر على التبر اختيارا بعد طول اختبار البلاد والخلق ورغبة اللحاق بالطائفة التي فغمره من إحسانه الجزيل وامتنانه الحفي الحفيل ما أنساه الماضي بالحال وأغناه عن طول الترحال وحقر عنده ما كان من سواه يستعظمه وحقق لديه ما كان من فضله يتوهمه ففسى ما كان ألفه من جولان البلاد وظفر بالمرعى الخصب بعد طول الارتياح ونفذت الإشارة السكرية بأن يملى ما شاهده في رحلته من الأمصار وما علق بحفظه من نوادر الأخبار ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار وأولياؤها الأبرار فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر . وبهجة المسامع والنواظر . من كل غريبة أفاد باجتماعها . وعجيبة أطراف بانتجاتها . وصدر الأمر العالي لعبد مقامهم الكريم المنقطع إلى بابهم المتشرف بخدمة جنابهم . محمد بن محمد بن جزي السكبي أعانه الله على خدمتهم . وأوزعه شكر نعمتهم أن يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله من ذلك مشتملا في تصنيف يكون على قوائمه مشتملا . ولئيل مقاصده مكمل متوخيا تنقيح الكلام وتهذيبه معتمدا لإيضاحه وتقريبه ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ويعظم الانتفاع بدرها عند تجريد من الصدف ، فامثل ما أمر به مبادرا وشرع في منله ليكون بمعونة الله عن توفية الغرض منه صادرا ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بالفاظ موفية للمقاصد التي قصدها موضحة للمناحي التي اعتمدها ، وربما أوردت لفظه على وضعه فلم أخل بأصله ولا فرع ، وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ولم أعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار ، على أنه سلك في إسناد صحاحها أفوم المسالك وخرج عن عهد سائر ما بها يشعر من الألفاظ بذلك وقيد المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ليكون أنفع في التصحيح والضبط وشرحت ما أمكنني شرحه من الأسماء العجمية لأنها تلتبس بعجمتها على الناس ويخطيء في فك معانيها معهود القياس وأنا أترجو أن يقع ما قصده من المقام العلى أيده الله بمحل القبول وأبلغ من الأعضاء عن تقصيره المأمول فعواتهم في السماح جميلة ، ومكارمهم بالصفح عن المفوات كفيفة والله تعالى يديم لهم عادة النصر والتمكين ويعرفهم عوارف التأيد والفتح المبين .

(قال الشيخ أبو عبد الله) كان خروجي من طنجة مسقط رأسى في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمدا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر

الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام . منفردا عن رفيق آنس بصحبته وراكبا كون
في جملة لباعث على النفس شديد العزائم وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم .
فجزمت أمرى على هجر الأحباب من الأناث والذكور . وفارقت وطنى مفارقة الطيور
للوكور . وكان والدى بقاء الحياة فتحمالت لبعدهما وصبا ولقيت كما لقيما من الفراق نصبا
وسنى يومئذ ثلثان وعشرون سنة قال ابن جزى أخبرنى أبو عبد الله بمدينة غرناطة
أن مولده بطنجة في يوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبع مائة .

(رجع) وكان ارتحالى في أيام أمير المؤمنين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب
العالين الذى رويت أخبار جوده موصولة الإسناد بالاسناد ، وشهرت آثار كرمه شهرة
واضحة الإشهاد . وتحملت الأيام بحلى فضله . ورتع الأنام فى ظل رفقته وعدله . الإمام
المقدس أبو سعيد ابن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين الذى فلحدا لشرك صدق عزائم
وأطفأت نار الكفر جداول صارمه . وفككت بعباد الصليب كتابته . وكرمت فى
إخلاص الجهاد مذاهبه . الإمام المقدس أبو يوسف بن عبد الحق جدد الله عليهم رضوانه
وسقى ضرائحهم المقدسة من صوب الحيا طله وتنهانه . وجزاهم أفضل الجزاء عن الاسلام
والمسلمين . وأبقى الملك فى عقبهم إلى يوم الدين فوصلت مدينة تلمسان وسلطانها يومئذ
أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمر أسن بن زيان . ووافقت بها رسولى ملك
لقرية السلطان أبي يحيى رحمه الله وهما قاضى الأنكحة بمدينة تونس أبو عبد الله محمد بن أبى
بكر بن على بن إبراهيم النفزواى . والشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله
القرشى الزبيدى - بضم الزاى نسبة إلى قرية بساحل المهدية - وهو أحد الفضلاء وفاته عام
أربعين وفى يوم وصولى إلى تلمسان خرج عنها الرسولان المذكوران فأشار على بعض
الاخوان بمرافقتهم فاستخرت الله عز وجل فى ذلك وأقامت بتلمسان ثلاثا فى قضاء
مآربى وخرجت أجد السير فى آثارهما فوصلت مدينة مليانة وأدركتهما بها
وذلك فى إبان القيظ فلحق الفقهاء مرض أقمنا بسببه عشرا ثم ارتحلنا وقد
اشتد المرض بالقاضى منهما فأقمنا ببعض المياه على مسافة أميال من مليانة ثلاثا
وقضى القاضى تحبه ضحى اليوم الرابع فعاد ابنه أبو الطيب ورفيقه أبو عبد الله
الزبيدى إلى مليانة فقبروه بها وتركتهما هنالك وارتحلت مع رفقة من تجار تونس
منهم الحاج مسعود بن المنتصر والحاج العدولى ومحمد بن الحجر فوصلنا مدينة
الجزائر وأقمنا بخارجها أياما إلى أن قدم الشيخ أبو عبد الله وابن القاضى فتوجهنا جميعا
على منبجة جبل الزان ثم وصلنا إلى مدينة بجاية فنزل الشيخ أبو عبد الله بدار قاضيه أبى عبد الله

الزواوي ونزل أبو الطيب ابن القاضي بدار الفقيه أبي عبد الله المفسر وكان أمير بجاية
إذذاك أبا عبد الله محمد بن سيد الناس الحاجب وكان قد توفي من تجار تونس الذين
صحبته من مليانة محمد بن الحاجر الذي تقدم ذكره وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب
وأوصى به الرجل من أهل الجزائر يعرف بابن حديدة ليوصيها إلى ورثته بتونس فانتهي
خبره لابن سيد الناس المذكور فانتزعها من يده وهذا أول ما شاهدته من ظلم عمال
الموحدين وولاتهم ، ولما وصلنا إلى بجاية كما ذكرناه أصابتني الحمى فأشار على أبو
عبد الله الزبيدي بالاقامة فيها حتى يتمكن البرء مني فأبيت وقلت إن قضى الله عز وجل
بالموت فمتكون وفاتي بالطريق وأنا قاصد أرض الحجاز فقال لي أما إن عزمتم
فبيع دابتك وثقل المتاع وأنا أعيرك دابة وخياء وتصحبنا خفيفا فاننا نجد السير
خوف غارة العرب في الطريق ففعلت هذا وأعارني ما وعد به جزاه الله خيرا وكان ذلك
أول ما ظهر لي من الاطراف الالهية في تلك الوجهة الحجازية وسرنا إلى أن وصلنا
مدينة قسطنطينة فنزلنا خارجها وأصابنا مطر جود اضطربنا إلى الخروج عن الاخبية
ليلا إلى دور هنالك فلما كان من الغد تلقانا حاكم المدينة وهو من الشرفاء الفضلاء
يسمى بأبي الحسن فنظر إلى ثيابي وقد لوثها المطر فأمر بغسلها في داره وكان الاحرام
منها خلقا فبعث مكانه إحراما بعلبكيا وصر في أحد طرفيه دينارين من الذهب فكان
ذلك أول ما فتح به علي وجهي ورحلنا إلى أن وصلنا مدينة بونة ونزلنا بداخلها وأقمنا
بها أياما ثم تركنا بها ما كان في صحبتنا من التجار لأجل الخسوف في الطريق وتجر دننا
للسير وواصلنا الجد وأصابتني الحمى فسكنت أشد نفسي بهامة فوق السرج خوفا
السقوط بسبب الضعف ولا يمكنني النزول من الخوف إلى أن وصلنا إلى مدينة تونس
فبرز أهلها للقاء الشيخ أبي عبد الله الزبيدي ولقاء أبي الطيب ابن القاضي أبي عبد الله
النفزاوي فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ولم يسلم علي أحد لعدم معرفتي
بهم فوجدت من ذلك النفس مالم أملك معه سوابق العبرة واشتد بكائي فشهري بحالي
بعض الحجاج فأقبل علي بالسلام والاليناس وما زال يؤنسني بحديثه حتى دخلت
المدينة ونزلت منها بمدرسة الكتبيين — قال ابن جزي أخبرني شيخني قاضي الجماعة
أخطب الخطباء أبو البركات محمد بن محمد إبراهيم السلي هو ابن الحاج البلفيقي أنه
جري له مثل هذه الحكاية قال قصدت مدينة بلش من بلاد الأندلس في ليلة عيد
برسم رواية الحديث المسلسل بالعيد عن أبي عبد الله ابن السكاد وحضرت المصلي
مع الناس فلما فرغت الصلاة والخطبة أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام وأنا

في ناحية لا يسلم على احد فقصد الى شيخ من اهل المدينة المذكورة واقبل على بالسلام والايناس وقال نظرت إليك فرأيتك منتبذا عن الناس لا يسلم عليك احد فعرفت انك غريب فأحببت إيناسك جزاء الله خيرا (رجع)

(ذكر سلطان تونس)

وكان سلطان تونس عند دخولي اليها السلطان أبا يحيى ابن السلطان ابى زكريا يحيى ابن السلطان ابى اسحاق ابراهيم ابن السلطان ابى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن ابى حفص رحمه الله. وكان بتونس جماعة من اعلام العلماء منهم قاضى الجماعة بها ابو عبد الله محمد بن قاضى الجماعة ابى العباس احمد بن محمد بن محمد بن حسن بن محمد الأنصارى الخزرجى البلبسى الأصل ثم التونسي هو ابن الغماز ، ومنهم الخطيب أبو اسحق ابراهيم بن حسين ابن على بن عبد الرفيح وولى ايضا قضاء الجماعة فى خمس دول ومنهم الفقيه ابو على عمر ابن على بن قداح الهوارى وولى ايضا قضاءها وكان من اعلام العلماء ومن عوائده انه يستند كل يوم جمعة بعد صلاتها إلى بعض اساطين الجامع الأعظم المعروف بجامع الزيتونة ويستفتيه الناس فى المسائل فلما افترق فى اربعين مسألة انصرف عن مجلسه ذلك واظانى بتونس عيد الفطر فحضرت المصلى وقد احتفل الناس لشهود عيدهم وبرزوا فى اجمل هيئة واكمل شارة ووافى عيد السلطان ابو يحيى المذكور راكبا وجميع اقاربه وخواصه وخدم مملوكته مشاة على اقدامهم فى ترتيب عجيب وصليت الصلاة وانقضت الخطبة وانصرف الناس إلى منازلهم وبعد مدة تعين لركب الحجاز الشريف شيخه يعرف بأبى يعقوب السوسى من اهل اقل من بلاد إفريقية واكثره المصادمة فقدموا فى قاضيا بينهم وخرجنا من تونس فى اواخر شهر ذى القعدة سالكين طريق الساحل فوصلنا إلى بلدة سوسة وهى صغيرة حسنة مبنية على شاطئ البحر بينها وبين مدينة تونس اربعون ميلا ثم وصلنا إلى مدينة صفاقس وبخارج هذه البلدة قبر الإمام ابو الحسن اللخمى المالكي مؤلف كتاب التبصرة فى الفقه قال ابن جزى فى بلدة صفاقس يقول على بن حبيب التتوخي

(كامل)

سقيا لأرض صفاقس ذات المصانع والمصلى
محمى القصير إلى الخليج فقصرها السامى المعلى
بلد يكاد يقول حين تزوره اهلا وسهلا
وكأنه والبحر يحسب نارة عنه ويميلا

صب يريد زيارة فاذا رأى الرقباء ولى
وفى عكس ذلك يقول الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن أبي تميم وكان من المجيدين
المسكثرين (رجز)

صفافس لاصفا عيش لسا كنها ولا سقى أرضها غيث إذا انسكبا
ناهيك من بلدة حل ساحتها عانى بها العاديين الروم والعربا
كم ضل في البر مسلوبا بضاعته وبات في البحر يشكو الأسر والمطبا
فدعاين البحر من لوم لقاطنها فسكما هم أن يدنو لها هربا

(رجع) ثم وصلنا إلى مدينة قابس ونزلنا بداخلها وأقمنا بها عشرة اثنى عشر
الأمطار قال ابن جزى في ذكر قابس يقول بعضهم (رجز)
لهفى على طيب ليال خلت بجانب البطحاء من قابس
كان فلبى عند تذكارها جذوة نار بيد قابس

(رجع) ثم خرجنا من مدينة قابس قاصدين طرابلس وصحبنا في بعض المراحل
إليها نحو مائة فارس أو يزيد وكان بالركب قوم رماة فها بهم العرب وتحامت مكانهم
وعصمنا الله منهم وأظلمنا عيد الأضحى في بعض تلك المراحل وفي الرابع بعده وصلنا
إلى مدينة طرابلس فأقمنا بها مدة وكنت عقدت بصفاقس على بنت لبعض أمراء تونس
فبنيت عليها بطرابلس ثم خرجت من طرابلس أواخر شهر المحرم من عام ستة وعشرين
ومعى أهلى وفي صحبتى جماعة من المصامدة وقدرت العلم وتقدمت عليهم وأقام الركب
في طرابلس خوفا من البرد والمطر وتجاوزنا مسلاتة ومسراتة وقصور سرت... وهنالك
أرادت طوائف العرب الايقاع بنا ثم صرفتهم القدرة وحالت دون مراموه من إذابتنا
ثم توسطنا الغابة وتجاوزناها إلى قصر برصيصا العابد إلى قبة سلام وأدركنا هنالك
الركب الذين تخلفوا بطرابلس ووقع بينى وبين صهرى مشاجرة أوجبت فراق بنته
وتزوجت بنتا لبعض طلبة فاس وبنيت بها بقصر الزعافية وأولمت ولية حبست لها
الركب يوما وأطعمتهم ثم وصلنا في أول جمادى الأولى إلى مدينة الإسكندرية حرسها الله
وهى الثغر المحروس والفطر المأنوس العجيبة الشأن الأصيلة البنيان بها ما شئت من
تحسين وتحصين وما أوردنيا ودين ؛ كرمت مغانيها ولطفت معانيها وجمعت بين الضخامة
والاحكام مبانيها ، فهى الفريدة فى تجلى سناها ، والخريدة تجلى فى حلالها ، الزاهية بجهاها
المغرب والجامعة لمفرق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب ، فكل بديعة بها اختلاؤها

وكل طريقة فإليها انتهأوها . وقد وصفها الناس فأطنبوا . وصنفوا في عجائبها فأغربوا وحسب المشرف إلى ذلك ما سطره أبو عبيد في كتاب المسالك .

(ذكر أبوابها ومرساها)

ولمدينة الاسكندرية أربعة أبواب . باب السدرة واليه يشرع طريق المغرب . وباب رشيد . وباب البحر . والباب الأخضر وليس يفتح إلا يوم الجمعة فيخرج الناس منه إلى زيارة القبور ولها المرسى العظيم الشأن ولم أر في مرسى الدنيا مثله إلا ما كان من مرسى كولم وقاليقوط ببلاد الهند ومرسى الكفار بسراق ببلاد الأتراك ومرسى الزيتون ببلاد الصين وسيقع ذكرها .

(ذكر النار)

قصدت المنار في هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدماً . وصفته أنه بناء مربع ذاهب في الهواء وبابه مرتفع على الأرض وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها إلى بابه فإذا أزيلت لم يكن له سبيل وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار وداخل المنار بيوت كثيرة وعرض الممر بداخله تسعة أشبار وعرض الحائط عشرة أشبار وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبراً وهو على تل مرتفع . ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد في بر مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات إلى أن يتصل البحر بسور البلد فلا يمكن التوصل إلى المنار في البر إلا من المدينة وفي هذا البر المتصل بالمنار مقبرة الاسكندرية وقصدت المنار عندي عودى إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه . وكان الملك الناصر رحمه الله قد شرع في بناء منار مثله بإزائه فعاقه الموت من إتمامه .

(ذكر عمود السوارى)

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذى بخارجها المسمى عندهم بعمود السوارى وهو متوسط في غابة نخل وقد امتاز عن شجراتها سمواً وارتفاعاً وهو قطعة واحدة محكمة النحت قد أقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين العظيمة ولا تعرف كيفية وضعه هنالك ولا يتحقق من وضعه . قال ابن جزى أخبرني بعض أشياخى الرحالين أن أحد الرمال بالاسكندرية صعد إلى أعلى ذلك العمود ومعه قوسه وكنانته واستقر هنالك وشاع خبره فاجتمع الجم الغفير لمشاهدته وطال العجب منه وخفي على الناس وجهه احتياله وأظنه كان خائفاً أو طالب حاجة فأنج له فعله الوصول

إلى قصده لغرابة ما أتى به . وكيفية احتياله في صعوده أنه رمى بنشابة قد عقد فوقها خيطاً طويلاً وعقد بطرف الخيط حبلاً وثيقاً فتجاوزت النشابة أعلى العمود معترضة عليه ووقعت من الجهة الموازية للرأى فصار الخيط معترضا على أعلى العمود فجذبه حتى توسط الحبل أعلى العمود مكان الخيط فأوسطه من إحدى الجهتين في الأرض وتعلق به صاعداً من الجهة الأخرى واستقر بأعلامه وجذب الحبل واستصحب من احتمله فلم يمتد الناس لحيلته وعجبوا من شأنه (رجع) وكان أمير الاسكندرية في عهد وصولها يسمى بصلاح الدين وكان فيها أيضاً في ذلك العهد سلطان أفريقية المخلوع وهو ذكر ياء أويحيى بن أحمد بن أبي حفص المعروف باللاحيانى وأمر الملك الناصر بإزالته بدار السلطنة من اسكندرية وأجرى له مائة درهم في كل يوم . وكان معه أولاده عبد الواحد ومصرى واسكندرية وحاجبيه أبو زكريا بن يعقوب ووزيره أبو عبدالله بن ياسين . وبالاسكندرية توفي اللحياني المذكور وولده الاسكندري وبقي المصري بها . قال ابن جزى من الغريب ما اتفق من صدق الزجر في اسمي ولدى اللحياني الاسكندري والمصري فمات الاسكندري بها وعاش المصري دهرأ طويلاً بها وهي من بلاد مصر (رجع) وتحول عبد الواحد لبلاد الأندلس والمغرب وأفريقية وتوفي هنالك بجزيرة جربة

ذكر بعض علماء الاسكندرية

فمنهم قاضها عماد الدين السكندى إمام من أئمة علم اللسان وكان يعتم بعامة خرقت المعتاد للعلماء لم أر في مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها رأيتها يوماً قاعداً في صدر محراب وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب ومنهم نخر الدين بن الريعى وهو أيضاً من القضاة بالاسكندرية فاضل من أهل العلم

(حكاية)

يذكر أن جد القاضى نخر الدين الريعى من أهل ريغة واشتغل بطلب العلم ثم رحل إلى الحجاز فوصل الاسكندرية بالعشى وهو قليل ذات اليد فأحب أن لا يدخلها حتى يسمع فالأ حسناً فقعده قريباً من بابها إلى أن دخل جميع الناس وجاء وقت سد الباب ولم يبق هنالك سواه فاغتاظ الموكل بالباب من إبطائه وقال متهمكاً أدخل يا قاضى فقال قاض إن شاء الله ودخل إلى بعض المدارس وألزم القراءة وسلك طريق الفضلاء فعظم صيته وشهر اسمه وعرف بازهد والورع واتصلت أخباره بملك مصر واتفق أن توفي قاضى الاسكندرية وبها إذ ذاك الجهم الغفير من الفقهاء والعلماء وكلهم متشوف المولاية وهو من بينهم لا يتشوف لذلك فبعث إليه السلطان بالتقليد وهو ظهير القضاء وأناه البريد بذلك

فأمر خديمه أن ينادى في الناس من كانت له خصومة فليحضر لها وقعد للفصل بين الناس فاجتمع الفقهاء وسواهم إلى رجل منهم كانوا يظنون أن القضاء لا يتعداه وتفاوضوا في مراجعة السلطان في أمره ومخاطبته بأن الناس لا يرتضونه وحضر لذلك أحد الخذاق من المنجمين فقال لهم لا تفعلوا ذلك فاني عدلت طالع ولايته وحقيقته فظهر لي أنه يحكم أربعين سنة فأضربوا عما هموا به من المراجعة في شأنه وكان أمره على ما ظهر للمنجم وعرف في ولايته بالعدل والنزاهة ومنهم وجيه الدين الصنهاجي من قضاتها مشتهر بالعلم والفضل ومنهم شمس الدين ابن بنت التتيسي فاضل شهير الذكر ومن الصالحين بها الشيخ أبو عبد الله الفاسي من كبار أولياء الله تعالى يذكر أنه كان يسمع رد السلام عليه إذا سلم من صلاته ومنهم الإمام العالم الزاهد الخاشع الورع (خليفة) صاحب المكاشفات (كرامة له)

أخبرني بعض الثقات من أصحابه قال رأى الشيخ خليفة رسول الله ﷺ في النوم فقال يا خليفة زرنا فرحل إلى المدينة الشريفة وأتى المسجد الكريم فدخل من باب السلام وحيا المسجد وسلم على رسول الله ﷺ وقعد مستنداً إلى بعض سواري المسجد ووضع رأسه على ركبتيه وذلك يسمى عند المتصوفة الترفيق فلما رفع رأسه وجد أربعة أرغفة وآنية فيها لبن وطبقا فيه تمر فأكل هو وأصحابه وانصرف عائداً إلى الاسكندرية ولم يحج تلك السنة. ومنهم الامام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج من كبار الزهاد وأفراد العباد لقيته أيام مقامي بالاسكندرية وأقيمت في ضيافته ثلاثا

(ذكر كرامة له)

دخلت عليه يوما فقال لي أراك تحب السياحة والجولان في البلاد فقلت له نعم إنني أحب ذلك ولم يكن حينئذ بخاطري التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين فقال لا بد لك إن شاء الله من زيارة أخى فريد الدين بالهند وأخى ركن الدين زكرياء بالسند وأخى برهان الدين بالصين فاذا بلغتهم فأبلغهم مني السلام فعميت من قوله وألقي في روعي التوجه إلى تلك البلاد ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه ولما وادعته زودني دراهم لم تزل عندي محوطة ولم أحتاج بعد إلى إنفاقها إلى أن سلمها مني كفار الهند فيما سلموه لي في البحر ومنهم الشيخ ياقوت الحبشي من أفراد الرجال وهو تلميذ أبي العباس المرسى وأبو العباس المرسى تلميذ ولي الله تعالى أبي الحسن الشاذلي الشهير ذى الكرامات الجليلة والمقامات العالية

(كرامة لأبي الحسن الشاذلي) أخبرني الشيخ ياقوت عن شيخه أبي العباس المرسى

أن أبا الحسن كان يحج في كل سنة ويجعل طريقه على صعيد مصر ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده إلى انقضاء الحج ويزور القبر الشريف ويعود على الدرب الكبير إلى بلده فلما كان في بعض السنين وهي آخر سنة خرج فيها قال لخدمته استصحب فاسا وقفة وحنوطا وما يحجز به الميت فقال له الخديم ولم ذا يا سيدي فقال له في حميثرا سوف ترى وحميثرا في صعيد مصر في صحراء عذاب وبها عين ماء زعاق وهي كثيرة الضباع فلما بلغا حميثرا اغتسل الشيخ أبو الحسن وصلى ركعتين وقبضه الله عز وجل في آخر سجدة من صلاته ودفن هناك وقد زرت قبره وعليه تبرية مكتوب فيها اسمه ونسبه متصلا بالحسن بن علي رضي الله عنه .

(ذكر حزب البحر المنسوب إليه) كان يسافر في كل عام كما ذكرناه على صعيد مصر وبحر جدة فكان إذا ركب السفينة يقرؤه في كل يوم وتلامذته إلى الآن يقرؤنه في كل يوم وهو هذا - يا الله يا علي يا عظيم يا حليم يا عليم أنت ربى وعليك حسبي فنعلم الرب ربى . ونعم الحسب حسبي تنصر من تشاء وأنت العزيز الرحيم . نسألك العصمة في الحركات والسكنات والكلمات والإرادات والخطرات من الشكوك والظنون والأوهام الساترة للقلوب عن مطاعة الغيوب فقد ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ليقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا فثبتنا وانصرنا وسخر لنا هذا البحر كما سخرت البحر لموسى عليه السلام وسخرت النار لإبراهيم عليه السلام وسخرت الجبال والحديد لداود عليه السلام وسخرت الريح والشياطين والجن لسلیمان عليه السلام وسخر لنا كل بحر هو لك في الأرض والسما والملك والممالك وببحر الدنيا وبحر الآخرة وسخر لنا شيء يامن بيده ملكوت كل شيء كما يصعصعهم عسق انصرنا فإياك خير الناصرين وافتح لنا فإياك خير الفاتحين واغفر لنا فإياك خير الغافرين وارحمنا فإياك خير الراحمين وارزقنا فإياك خير الرازقين واهدنا ونجنا من القوم الظالمين وهب لنا ريحا طيبة كما هي في عليك انشرها علينا من خزائن رحمتك واجعلنا بها جمل السكراة مع السلامة والعافية في الدين والدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير اللهم يسر لنا أمورنا مع الراحة لقلوبنا وأبداننا والسلامة والعافية في ديننا ودنيانا وكن لنا صاحبنا في سفرنا وخليفة في أهلنا لاطمس على وجوه أعدائنا وامسحهم على مكانتهم فلا يستطيعون المضى ولا المجئ إلينا ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فاني يبصرون ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون يس إلى فهم لا يبصرون شاهت الوجوه وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما طس طسم حم عسق مرج البحرين يلتقيان بينهما

وما جرى بمدينة الاسكندرية سنة سبع وعشرين وبلغنا خبر ذلك بمكة شرفها الله
أنه وقع بين المسلمين وتجار النصارى مشاجرة وكان والى الاسكندرية رجلا يعرف بالكركى
فذهب إلى حماية الروم وأمر المسلمين فحضرُوا بين فصيلي باب المدينة وأغلق دونهم
الأبواب نكالا لهم فأنكر الناس ذلك وأعظموه وكسروا الباب وثاروا إلى منزل والى
فتحصن منهم وقَاتلهم من أعلاه وطير الحمام بالخبر إلى الملك الناصر فبعث أميراً يعرف
بالجمالى ثم اتبعه أميراً يعرف بطوغان جبار قاسى القلب متهم فى دينه يقال أنه كان
يعبد الشمس فدخل الاسكندرية وقبض على كبار أهلها وأعيان التجار بها كأولاد الكوبك
وسواهم وأخذ منهم الأموال الطائلة وجعلت فى عنق عماد الدين القاضى جماعة حديد
ثم أن الأميرين قتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلاً وجعلوا كل رجل قطعتين وصلبوهم
صفين وذلك فى يوم جمعة وخرج الناس على عادتهم بعد الصلاة لزيارة القبور وشاهدوا
مصارع القوم فمظمت حسرتهم وتضاعفت أحزانهم وكان فى جملة أولئك المصلوبين
تاجر كبير الفدر يعرف بابن رواحة وكان له قاعة معدة للسلاح فتى كان خوف أو قتال
جهز منها المائة والمائتين من الرجال بما يكفهم من الأسلحة وبالمدينة قاعات على هذه الصورة
لكثير من أهلها فزل لسانه وقال للأميرين أنا أضمن هذه المدينة وكل ما يحدث فيها أطالب به
وأحوظ على السلطان مرتبات العساكر والرجال فأنكر الأميران قوله وقالاً إنما تريد
الثورة على السلطان وقتلاه وإنما كان قصده رحمه الله إظهار النصيح والخدمة للسلطان فكان
فيه حنقه وكنت سمعت أيام إقامتى بالاسكندرية بالشيخ الصالح العابد المنقطع المنفق من
السكون أبى عبد الله المرشدى وهو من كبار الأولياء المكشفين أنه منقطع بمنية بنى مرشد

له هنالك زاوية هو منفرد فيها لا خديم له ولا صاحب ويقصده الأمراء والوزراء وتأتيه الوفود من طوائف الناس في كل يوم فيطعمهم الطعام وكل واحد منهم ينوي أن يأكل عنده طعاما أو فاكهة أو حلوى فيأتي لكل واحد بما نواه وربما كان ذلك في غير إبانته ويأتيه الفقهاء اطالب الخطبة فيولى ويعزل وذلك كله من أمر مستفيض متواتر وقد قصده الملك الناصر مرات بموضعه فخرجت من مدينة الاسكندرية قاصداً هذا الشيخ نفعا الله به ووصلت قرية تروجه (وضبطها بفتح الفاء الفوقية وواو وجم مفتوحة) وهى على مسيرة نصف يوم من مدينة الاسكندرية قرية كبيرة بها قاض ووال وناظر ولأهلها مكارم أخلاق ومروءة صحبت قاضها صفي الدين وخطيبها نحر الدين وفاضلا من أهلها يسمى بمبارك وينعت زين الدين ونزلت بها على رجل من العباد الفضلاء كبير القدر يسمى عبدالوهاب وأضافنى ناظرها زين الدين بن الواعظ وسألنى عن بلدى وعن مجباه فأخبرته أن مجباه نحو اثني عشر ألفا من دينار الذهب فعجب وقال لى رأيت هذه القرية فإن مجباها اثنان وسبعون ألف دينار ذهباً وإنما عظمت مجابى ديار مصر لأن جميع أملاكها أبيت المال ثم خرجت من هذه القرية فوصلت مدينة دمنهور وهى مدينة كبيرة جبايتها كثيرة ومحاسنها أثيرة أم مدن البحيرة بأسرها وقطبها الذى عليه مدار أمرها (وضبطها بدال مهملة وميم مفتوحتين ونون ساكنة وهاء مضمومة وواو وراء) وكان قاضها فى ذلك العهد نحر الدين بن مسكين من فقهاء الشافعية وتولى قضاء الاسكندرية لما عزل عنها عماد الدين الكندى بسبب الواقعة التى قصصناها وأخبرنى الثقة أن ابن مسكين أعطى خمسة وعشرين ألف درهم وصرفها من دنانير الذهب الفدينار على ولاية القضاء بالاسكندرية ثم رحلنا إلى مدينة فوا وهذه المدينة عجيب المنظر حسنة النحر بها البساتين الكثيرة والفوائد الخطيرة الأثيرة (وضبطها بالفاء والواو المفتوحين مع تشديد الواو) بها قبر الشيخ الولى أبى النجاة الشهير الاسم خبير تلك البلاد وراوية الشيخ أبى عبد الله المرشدى الذى قصده بمقربة من المدينة يفصل بينها خليج هنالك فلما وصلت تعديتها ووصلت إلى زاوية الشيخ المذكور قبل صلاة العصر وسلمت عليه ووجدت عنده الأمير سلف الدين يللك وهو من الخاصكية وأول اسمه ياء وآخر الحروف ولامه الأولى مسكنة والثانية مفتوحة مثل الميم والعامية تقول فيه الملك فيخطئون ونزل هذا الأمير بعسكره خارج الزاوية ولما دخلت على الشيخ رحمه الله قام إلى وعانقنى وأحضر طعاما فواكفنى وكانت عليه جبة صوف سوداء فلما حضرت صلاة العصر قدمنى للصلاة

إماما وكذلك لكل ما حضرني عنده حين إقامتي معه من الصلاة ولما أردت النوم قال لي اصعد إلى سطح الزاوية فثم هنالك وذلك اوان القيظ فقلت للامير بسم الله فقال لي وما منا إلا له مقام معلوم فصعدت السطح فوجدت به حصيرا ونظعا وآنية للوضوء وجرة ماء وقدحا للشرب فنمت هناك

(كرامة لهذا الشيخ) رأيت ليلتي تلك وأنا نائم بسطح الزاوية كأنني على جناح طائر عظيم يطير بي في سمت القبلة يتيامن ثم يشرق ثم يذهب في ناحية الجنوب ثم يبعد الطير ان في ناحية الشرق وينزل في أرض مظلمة خضراء ويتركني بها فعجبت من هذه الرؤيا وقلت في نفسي إن كاشفني الشيخ برؤياي فهو كما يحكي عنه فلما غدوت لصلاة الصبح قدمني إماما لهذا ثم أناه الامير يملك فوادعه وانصرف ووادعه من كان هناك من الزوار وانصرفوا أجمعين من بعد أن زودهم كعيكات صفاراً ثم سبحت سباحة الضحى ودعاني وكاشفني برؤياي فقصصتها عليه فقال سوف تحج وتزور النبي ﷺ وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وتبقى بها مدة طويلة وستلقى بها دلشاد الهندي ويخلصك من شدة تقح فيها ثم زودني كعيكات وذراهم ووادعته وانصرفت ومنذ فارقت لم ألق في أسفاري إلا خيرا وظهرت علي بركاته ثم لم ألق فيمن لقيته مثله إلا الولي سيدي محمد الموله بأرض الهند ثم رحلنا إلى مدينة النحرارية وهي رحبة الفناء حديثة البناء أسواقها حسنة الرؤيا (وضبطها بفتح النون وحاء مهمل مسكن وراءين) وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدي وولده في خدمة ملك الهند وسند كره وقاضيه صدر الدين سليمان المالكي من كبار المالكية سافر عن الملك الناصر إلى العراق وولى قضاء البلاد الغربية وله هيئة جميلة وصورة حسنة وخطيبها شرف الدين السخاوي من الصالحين ورحلت منها إلى مدينة ابيار وهي قديمة البناء أرجة الأرجاء كثيرة المساجد ذات حسن زائد (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان الباء الموحدة وياء آخر الحروف والفاء وراء) وهي بمقربة من النحرارية ويفصل بينهما النيل وتصنع بابيار ثياب حسان تعلو قيمتها بالشام والعراق ومصر وغيرها ومن الغريب قرب النحرارية منها والشياب التي تصنع بها غير معتبرة ولا مستحسنة عند أهلها ولقيت بابيار قاضيه عز الدين المليجي الشافعي وهو ريم الشمائل كبير القدر حضرت عنده مرة يوم الركبة وهم يسمون ذلك يوم ارتقاب هلال رمضان وعادتهم فيه أن يجمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضي ويقف على الباب نقيب المتعلمين وهو ذو شارة وهيئة حسنة فاذا أتى أحد الفقهاء أو الوجوه تلقاه ذلك

النقيب ومشى بين يديه قائلا بسم الله سيدنا فلان الدين فيسمع القاضي ومن معه فيقومون له ويجلسه النقيب في موضع يليق به فاذا تكاملوا هنالك ركب القاضي وركب من معه أجمعين وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان وينتھون إلى موضع مرتفع خارج المدينة وهو مرتقب الهلال عندهم وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش فينزل فيه القاضي ومن معه فيرتقبون الهلال ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس ويوقد أهل الخوانيت بحوانيتهم الشمع ويصل الناس مع القاضي إلى داره ثم ينصرفون هكذا فعلمهم في كل سنة ثم توجهت إلى مدينة المحلة الكبيرة وهي جميلة المقدار حسنة الآثار كثير أهلها جامع بالمحاسن شمالها واسمها بين وهذه المدينة قاضي القضاة والى الولاية وكان قاضي قضاتها أيام وصولي إليها في فراش المرض ببستان له على مسافة فرسخين من البلد وهو عز الدين بن الأشمرين فقصدت زيارته صحبة نائبه الفقيه أبي القاسم بن بنون المالكي التونسي وشرف الدين الدميري قاضي محلة منوف وأقمنا عنده يوماً وسمعت منه وقد جرى ذكر الصالحين أن على مسيرة يوم من المحلة الكبيرة بلاد البراس ونسترو وهي بلاد الصالحين وبها قبر الشيخ مرزوق صاحب المكاشفات فقصدت تلك البلاد ونزلت بزاوية الشيخ المذكور وتلك البلاد كثيرة النخل والثمار والطير البحري والحوت المعروف بالبوري ومدينتهم تسمى ملطين وهي على ساحل البحيرة المجتمعة من ماء النيل وماء البحر المعروفة ببحيرة تنيس ونسترو بمقربة منها نزلت هنالك بزاوية الشيخ شمس الدين القلوي من الصالحين وكانت تنيس بلدا عظيما شهيرا وهي الآن خراب قال ابن جزي (تنيس بكسر التاء المشناة والنون المشددة وياء وسين مهملة) وإليه ينسب الشاعر المجيد أبو الفتح بن وكيع وهو القائل في خليجها (بسيط)

قم فاسقني والخليج مضطرب والريح ثنى ذوائب القصب
كانها والرياح تعطفها صب قنا سندسية العذب
والجو في حلة ممسكة قد طرزتها البروق بالذهب

(ونسترو بفتح النون واسكان السين وراء مفتوحة وواو مسكن) — والبراس بياء موحدة وراء وآخره سين مهملة وقيد به بعضهم بضم حروفه الأول الثلاث وتشديد اللام وقيد به أبو بكر بن نقطة بفتح الأولين — وهو على البحر ومن غريب ما اتفق به ما حكاه أبو عبد الله الرازي عن أبيه أن قاضي البراس وكان رجلا صالحا خرج ليلة إلى النيل فبينما اسبغ الوضوء وصلى على ماشاء أن يصلي إذ سمع قائلا يقول :

لولا رجال لهم سرديصومونا وآخرون لهم ورد يقومونا
 ازالت أرضكم من تحتكم سحرا لأنكم قوم سوء لا تبالونا
 قال فتجوزت في صلاتي وأدريت طرفي فما رأيت أحدا ولا سمعت حسا فعلت أن ذلك
 زاجر من الله تعالى (رجع) ثم سافرت في أرض رملة إلى مدينة دمياط وهي مدينة فسيحة
 الأقطار متنوعة الثمار عجيبه الترتيب آخذة من كل حسن بنصيب والناس يضبطون اسمها بهم
 بأعجام الذال وكذلك ضبطه الامام أبو محمد عبد الله بن علي الرشاطي وكان شرف الدين
 الامام العلامة أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي امام المحدثين يضبطها باهمال الدال
 ويقبض ذلك بأن يقول خلاف الرشاطي وغيره وهو أعرف بضبط اسم بلده ومدينة
 دمياط على شاطئ النيل وأهل الدور الموالية يستقون منه الماء بالدلاء وكثير من دورها
 بها دركات ينزل فيها إلى النيل وشجر الموز بها كثير يحمل ثمره إلى مصر في المراكب
 وغنمها سائمة هملا بالليل والنهار ولهذا يقال في دمياط سورها حلوى وكلابها غنم وإذا
 دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج عنها إلا بطابع الوالي فمن كان من الناس معتبرا طسع
 له في قطعة كاغد يستظهر به لحراس بابها وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به والطيور
 البحرية بهذه المدينة كثير متناهى السمن وبها الألبان الجاموسية التي لا مثل لها في
 عذوبة الطعم وطيب المذاق وبها الخوت البوري يحمل منها إلى الشام وبلاد الروم ومصر
 وبخارجها جزيرة بين البحرين والنيل تسمى البرزخ بها مسجد وزاوية اقيمت بها شيخها
 المعروف بابن قفل وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه جماعة من الفقراء الفضلاء المتعبدين
 الأخيار قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة وذكرًا ، ودمياط هذه حديثة البناء والمدينة
 القديمة هي التي خربها الافرنج على عهد الملك الصالح وبها زاوية الشيخ جمال الدين
 الساوي قدوة الطائفة المعروفة بالقرندرية وهم الذين يخلقون لحاهم وحواجبهم
 ويسكن الزاوية في هذا العهد الشيخ فتح التكروري

(حكاية)

يذكر أن السبب الداعي للشيخ جمال الدين الساوي إلى حلق لحيته وحاجبيه أنه كان جميل
 الصورة حسن الوجه فعلمت به امرأة من أهل ساوة وكانت ترأسه وتعارضه في الطرق
 وتدعوه لنفسها وهو يمتنع ويتهاون فلما أعيها أمره دست له عجوزا تصدت له أزاء دار على
 طريقه إلى المسجد ويدها كتاب مختوم فلما مر بها قالت له ياسيدي أتحسن القراءة قال
 نعم قالت له الكتاب وجهه إلى ولدي وأحب أن تقرأه علي فقال لها نعم فلما فتح
 الكتاب قالت له ياسيدي ان لو لذي زوجة وهي باسطوان الدار فلو تفضلت بقراءته بين
 (٢ - رحلة - أول)

باني الدار بحيث تسمعها فأجابها لذلك فلما توسط بين البابين غلقت العجوز الباب وأخرجت المرأة جواربها فتعلقن به وأدخلنه إلى داخل الدار وراودته المرأة عن نفسه فلما رأى أن لا خلاص له قال لها اني حيث تريدن فاريني بيت الخلاء فأرته إياه فأدخل معه الماء وكانت عنده موسى جديدة فحلق لحيته وحاجبيه وخرج عليها فاستقبحت هيئته واستنكرت فعله وأمرت بإخراجه وعصمه الله بذلك فبقى على هيئته فيما بعد وصار كل من يسلك طريقته أن يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه

(كرامة لهذا الشيخ) يذكر أنه لما قصد مدينة دمياط لزم مقبرتها وكان بها قاض يعرف بابن العميد فخرج يوما إلى جنازة بعض الأعيان فرأى الشيخ جمال الدين بالمقبرة فقال له أنت الشيخ المبتدع فقال له وأنت القاضي الجاهل تمر بدابتك بين القبور وتعلم أن حرمة الانسان ميتا كحرمة حيا فقال له القاضي وأعظم من ذلك حلقك للحيتك فقال له إياي تعني وزعق الشيخ ثم رفع رأسه فاذا هو ذو لحية سوداء عظيمة فمجب القاضي ومن معه ونزل اليه عن بغلته ثم زعق ثانيا فاذا هو ذو لحية بيضاء حسنة ثم زعق ثالثا ورفع رأسه فاذا هو بلا لحية كهيئته الأولى فقبل القاضي يده وتلمذ له وبني له الزاوية حسنة وصحبه أيام حياته حتى مات الشيخ فدفن بزاويته ولما حضرت القاضي وفاته أوصى أن يدفن بباب الزاوية حتى يكون كل داخل إلى زيارة الشيخ يطأ قبره ، وبخارج دمياط المزار المعروف بشهنا (بفتح الشين المعجمة والطاء المهملة) وهو ظاهر البركة يقصده أهل الديار المصرية وله أيام في السنة معلومة لذلك وبخارجها أيضا بين بساينها موضع يعرف بالمنية فيه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان قصدت زاويته وبت عنده وكان بدمياط أيام إقامتي بها وال يعرف بالمحسن من ذوى الإحسان والفضل بنى مدرسة على شاطئ النيل بها كان نزولي في تلك الأيام وتأكدت بيني وبينه مودة ثم سافرت إلى مدينة فارسكور وهي مدينة على ساحل النيل (والسكاف الذى اسمها مضموم) ونزلت بخارجها ولحقني هنالك فارس وجهه إلى الأمير المحسن فقال لي إن الأمير سأل عنك وعرف بسيرتك فبعث إليك بهذه النفقة ودفع إلى جملة دراهم جزاء الله خيرا ثم سافرت إلى مدينة أشمون الرمان (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان الشين المعجم) ونسبت إلى الرمان لكثرة بها ومنها يحمل إلى مصر وهي مدينة عتيقة كبيرة على خليج من خلج النيل ولها قلعة خشب ترسو المراكب عندها فاذا كان العصر رفعت تلك الخشب وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة وبهذه البلد قاضى القضاة ووالى الولاية ثم سافرت عنها إلى مدينة سمندود وهي على شاطئ

النيل كثيرة المراكب حسنة الأسواق وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ (وضبط
 اسمها بفتح السين المهملة والميم وتشديد النون وضمها وواو ودال مهمل) ومن هذه
 المدينة ركبت النيل مصعداً إلى مصر ما بين مدائن وقرى منتظمة المتصل بعضها ببعض
 ولا يفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد لأنه مهما أراد النزول بالشاطئ نزل للوضوء
 والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك والأسواق متصلة من مدينة الاسكندرية إلى مصر ومن
 مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد ثم وصلت إلى مدينة مصر هي أم البلاد وقرارة
 فرعون ذى الأوتاد ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة المتناهية في كثرة
 العمارة المتناهية بالحسن والنضارة ومجمع الوارد والصادر ومحط رحل الضعيف
 والقادر وبها ما شئت من عالم وجاهل وجاد وهازل وحليم وسفيه ووضع ونبيه
 وشريف ومشروف ومنكر ومعروف تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم
 على سعة مكانها وإمكانها شبابها يجد على طول العهد وكوكب تعديله لا يبرح عن
 منزل السعد قهرت قاهرته الأمم وتمسكت ملوكها نواصي العرب والعجم ولها
 خصوصية النيل الذى جل خطرها وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها وأرضها
 مسيرة شهر لمجد السير كريمة التربة مؤنسة لذوى الغربة قال ابن جزى وفيها يقول
 الشاعر :

لعمرك ما مصر بمصر وإنما هي الجنة الدنيا لمن يتبصر
 فأولادها الولدان والخور عينها وروضها الفردوس والنيل كوثر

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض :

شاطيء مصر جنة ما مثله من بلد
 لا سيما مذ زخرفت بنبيلها المطرد
 وللرياح فوقه سوابغ من زرد
 مسرودة ما مسها داودها بمبرد
 سائلة هواؤها يرعد عارى الجسد
 والفلك كالأفلاك بين حادر ومصعد

(رجع) ويقال أن بمصر من السقائين على الجمال اثني عشر ألف سقاء وأن بها ثلاثين
 ألف مكار وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفا للسلطان والرعية تمر صاعدة إلى
 الصعيد ومنحدرة إلى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق وعلى ضفة النيل

بما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة وهو مكان النزعة والتفرج وبه البساتين
الكثيرة الحسنة وأهل مصر ذو طرب وسرور ولهو شاهدت بهامرة فرجة بسبب بره
الملك الناصر من كسر أصاب يده فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوائيتهم الحلل
والحلى وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياما

(ذكر مسجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستانات والزوايا)

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر شهير الذكر تقام فيه الجمعة والطريق
يعترضه من شرق إلى غرب وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الامام أبو عبد الله الشافعي
وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها - وأما المارستان الذي بين القصرين
عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الوصف عن محاسنه وقد أعد فيه من المرافق
والادوية ما لا يحصر - يذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم - وأما الزوايا فكثيرة وهم
يسمونها الخوانق واحدها خانقة والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا وكل زاوية
بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعاجم وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف
ولكل زاوية شيخ وحارس وترتيب أمورهم عجيب * ومن عوائدهم في الطعام أنه يأتي
خديم الزاوية إلى الفقراء وصباحا فيعين له كل واحد ما يشتهي من الطعام فاذا اجتمعوا
للاكل جعلوا لكل إنسان خبزة ومرة في إناء على حدة لا يشاركة فيه أحد وطعامهم مرتان في
اليوم ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهري من ثلاثين درهما للواحد في الشهر إلى
عشرين ولهم الحلاوة من السكر في كل ليلة الجمعة والصابون لغسل أثوابهم والأجرة لدخول
الحمام والزيت للاستصباح وهم أعزب وللتزوجين زوايا على حدة ومن المشرط عليهم
حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزاوية واجتماعهم بقبة داخل الزاوية * ومن عوائدهم
أن يحلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به وإذا صلا صلاة الصبح قرأوا سورة الفتح
وسورة الملك وسورة عم يوتي بنسخ من القرآن العظيم مجزأة فيأخذ كل فقير جزأ أو يخطمون
القرآن ويندكرون ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر *
ومن عوائدهم مع القادم أنه يأتي باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط وعلى كاهله سجادة
وبيمينه العكاز ويسراه الابر يق فيعلم البواب خديم الزاوية بمكانه فيخرج اليه ويسأله من
أى البلاد أتى وبأى الزوايا نزل في طريقة ومر شيخه فاذا عرف صحة قوله أدخله الزاوية وفرش
له سجادته في موضع يليق به وأراه موضع الطهارة فيجدد الوضوء وبأى إلى سجادته فيحل
وسطه ويصلي ركعتين ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم * ومن عوائدهم أنهم إذا

كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم فيذهب بها المسجد ويفرشها لهم هنالك ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم فيأتون المسجد ويصلي كل واحد على سجاده فاذا فرغوا من الصلاة قرؤوا القرآن على عادتهم ثم ينصرفون مجتمعين إلى الزاوية ومعهم شيخهم .

﴿ ذكر قرافة مصر ومزاراتها ﴾

ولمصر القرافة العظيمة الشأن في التبرك بها وقد جاء في فضلها أثر أخرجه القرطبي وغيره لأنها من جملة الجبل المقطم الذي وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور ويبنون بها البيوت ويرتبون القراء يقرؤن ليلاً ونهاراً بالأصوات الحسان ومنهم من يبنى الزاوية والمدرسة إلى جانب التربة ويخرجون كل ليلة جمعة إلى المبيت بأولادهم ونسائهم ويطوفون على الأسواق بصنوف الماء كل . ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس العظيم الشأن حيث رأس الحسين بن علي عليهما السلام وعليه رباط ضخم عجيب البناء على أبوابه حلق الفضة وصفاثمها أيضاً كذلك وهو موفى الحق من الإجلال والتعظيم ومنها تربة السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور بن علي بن الحسين بن علي عليهم السلام وكانت مجابة الدعوة مجتهدة في العبادة وهذه التربة أنيقة البناء مشرقة الضياء عليها رباط مقصود ومنها تربة الامام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه وعاشها رباط كبير ولها جراية ضخمة وبها القبة الشهيرة البديعة الإتيقان العجيبة البنيان المتناهية الاحكام المفردة السمو وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعاً وبقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين مالا يضبطه الحصر وبها عدد جم من الصحابة وصـدور السلف والخلف رضي الله تعالى عنهم مثل عبد الرحمن بن القاسم وأشهب بن عبد العزيز وأصبغ بن الفرج وابني عبد الحكم وأبي القاسم بن شعبان وأبي محمد عبد الوهاب لكن ليس لهم بها اشتهار ولا يعرفهم إلا من بهم عناية والشافعي رضي الله عنه ساعده الجـد في نفسه وأتباعه وأصحابه في حياته ومماته فظهر من أمره مصداق قوله (كامل)

الجديد في كل أمر شائع والجديد يفتح كل باب مغلق

﴿ ذكر نيل مصر ﴾

ونيل مصر يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاق واتساع قطر وعظم منفعة والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ليس في المعمور مثلاً ولا يعلم نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل

وليس في الارض نهر يسمى بغيره قال الله تعالى فاذا خفت عليه فالقيه في اليم فسماء يما وهو البحر وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ وصل ليلة الاسراء الى سدرة المنتهى فاذا في أصلها أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فسأل عنها جبريل عليه السلام فقال أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات وفي الحديث أيضا النيل والفرات وسيحون وجيحون كل من أنهار الجنة ويجري النيل من الجنوب إلى الشمال خلافا لجميع الأنهار ومن عجائبه ان ابتداء زيادته في شدة الحر عند نقص الأنهار وجفوفها وابتداء نقصه حين زيادة الأنهر وفيضها ونهر السند مثله في ذلك وسيأتي ذكره وأول ابتداء زيادته في حزيران وهو يونيه فاذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعا تم خراج السلطان فان زاد ذراعا كان الخصب في العام والصلاح التام فان باخ ثمانية عشر ذراعا أضر بالاضياح وأعقب الوباء وان نقص ذراعا عن ستة عشر نقص خراج السلطان وان نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار وهي النيل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون وتماثلها أنهار خمسة أيضا نهر السند ويسمى ينجاب ونهر الهند ويسمى السكنك واليه تهب الهنود واذا حرقوا أمواتهم رموا برماهم فيه ويقولون هو من الجنة ونهر الجون بالهند أيضا ونهر اتل بصحراء قفجق وعلى ساحله مدينة السرا ونهر السرو بأرض الخطا وعلى ضفته مدينة خان باق ومنها ينحدر إلى مدينة الخنسا ثم إلى مدينة الزيتون بأرض الصين وسيند كر ذلك كله في مواضعه ان شاء الله والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ولا يعبر نهر منها إلا في السفن شتاء وصيفا وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل فاذا مدأترعها فاضت على المزارع .

(ذكر الأهرام والبراني)

وهي من العجائب المذكورة على مر الدهور وللناس فيها كلام كثير وخوض في شأنها وأولية بنائها ويزعمون أن العلوم التي ظهرت قبل الطوفان أخذت من هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى ويسمى اخنوخ وهو ادريس عليه السلام وانه أول من تكلم في الحركات الفلسفية والجواهر العلوية وأول من بنى الهيكل ومجد الله تعالى فيها وانه أنذر الناس بالطوفان وخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع فبنى الأهرام والبراني وصور فيها جميع الصنائع والآلات ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة ويقال ان دار العلم والملك بمصر مدينة منف وهي على بريد من الفسطاط فلما بنيت الاسكندرية انتقل الناس إليها وصارت دار العلم والملك إلى أن أتى الاسلام فاختلف عمرو بن العاص رضي الله

عنه مدينة الفسطاط فهي قاعدة مصر إلى هذا العهد والاهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت متناهي السمو مستدير متسع الأسفل ضيق الأعلى كالشكل المخروط ولا أبواب لها ولا تعلم كيفية بنائها ومما يذكر في شأنها أن ملكاً من ملوك مصر قبل الطوفان رأى رؤياها لله وأوجبت عنده أنه بنى تلك الاهرام بالجانب الغربي من النيل لتكون مستودعاً للعلوم واجتة الملوك وأنه سال المنجمين هل يفتح منها موضع فاخبروه أنها تفتح من الجانب الشمالي وعينوا له الموضع الذي تفتح منه ومبلغ الإنفاق في فتحه فأمر أن يجعل بذلك الموضع من المال قدر ما أخبروه أنه ينفق في فتحه واشتد في البناء فأتته في ستين سنة كتب عليها بنينا هذه الاهرام في ستين سنة فليهدمها من يريد ذلك في ستمائة سنة فان الهدم أيسر من البناء فلما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها فأشار عليه بعض مشايخ مصر أن لا يفعل فليج في ذلك وأمر أن تفتح من الجانب الشمالي فكانوا يوقدون عليها النار ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالمنجنيق حتى فتحت الثلمة التي بها إلى اليوم ووجدوا بإزاء النقب مالا أمر أمير المؤمنين بوزنه فحصر ما أنفق في النقب فوجدوا سواء فطال عجبهم من ذلك ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعاً .

(ذكر سلطان مصر)

وكان سلطان مصر على عهد دخولي إليها الملك الناصر أبو الفتح محمد بن المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى وكان قلاوون يعرف بالآلاني لأن الملك الصالح اشتراه بالف دينار ذهباً وأصله من قفجق و للملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة والفضائل العظيمة وكفاه شرفاً انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج من الجبال التي تحمل الزاد والماء للمقطعين والضعفاء وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشى في الدربين المصرى والشامى وبني زاوية عظيمة بسرياقص خارج القاهرة لكن الزاوية التي بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين وكهف الفقراء والمساكين خليفة الله في أرضه القائم من الجهاد بنفله وفرضه أبو عنان أيد الله امره وظهره وسنى له الفتح المبين ويسره بخارج حضرته العلية المدينة البيضاء حرسها الله لا نظير لها في المعمور في إتقان الوضع وحسن البناء والنقش في الجص بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله وسيأتى ذكر ما عمره أيد الله من المدارس والمرستان والزوايا ببلاده حرسها الله وحفظها بدوام ملكه .

(ذكر بعض أمراء مصر)

منهم ساقى الملك الناصر وهو الأمير بكتمور (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة وكاف مسكن وتاء معلولة مضمومة وآخره راء) وهو الذى قتله الملك الناصر بالسم وسيد كر ذلك ، ومنهم نائب الملك الناصر ارغون الدودار وهو الذى يلى بكتمور فى المنزلة (وضبط اسمه بفتح الهمزة واسكان الراء وضم الفين المعجمة) ومنهم طشط المعروف بمحمص أخضر (واسمه بطاين مهملين مضمومين وبينهما شين معجم) وكان من خيار الأمراء وله الصدقات الكثيرة على الأيتام من كسوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن وله الإحسان العظيم للحرافيش وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجاه ودعارة . وسجنه الملك الناصر مرة فاجتمع من الحرافيش آلاف ووقفوا بأسفل القلعة ونادوا بلسان واحد يا أعرج النحاس يعنون الملك الناصر أخرجه فأخرجه من محبسه وسجنه مرة أخرى ففعل الأيتام مثل ذلك فأطلقه * ومنهم وزير الملك الناصر يعرف بالجمال بفتح الجيم . ومنهم بدر الدين بن البابه . ومنهم جمال الدين نائب السكر . ومنهم تقزدمور (واسمه بضم التاء المعلولة وضم القاف وزاء مسكن ثم دال مضموم وميم مثله وآخره راء) ودمور بالتركية الحديد . ومنهم بهادر الحجازى (واسمه بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهمل وآخره راء) ومنهم قوصون (واسمه بفتح القاف وصاد مهمل مضموم) . ومنهم بشتك (واسمه بفتح الباء الموحدة واسكان الشين المعجم وتاء معلولة مفتوحة) وكل هؤلاء يتنافسون فى أفعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا . ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه فخر الدين القبطى وكان نصرانيا من القبط فاسلم وحسن إسلامه وله المسكارم العظيمة والفضائل التامة ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر وله الصدقات الكثيرة والاحسان الجزيل . ومن عاداته أن يجلس عشى النهار فى مجلس له باسطوان داره على النيل ويليه المسجد فإذا حضر المغرب صلى فى المسجد وعاد إلى مجلسه وأوتى بالطعام ولا يمنع حينئذ أحد من الدخول كائنا من كان فمن كان ذا حاجة تكلم فيها فقضاها له ومن كان طالب صدقة أمر مملوكا له يدعى بدر الدين واسمه أوأو يصحبه إلى خارج الدار وهناك خازنه معه صرر الدراهم فيعطيه ما قدر له ويحضر عنده فى ذلك الوقت الفقهاء ويقرأ بين يديه كتاب البخارى فإذا صلى العشاء الأخيرة انصرف الناس عنه

(ذكر القضاة بمصر فى عهد دخول إليها)

فمنهم قاضى القضاة الشافعية وهو أعلام منزلة وأكبرهم قدرا واليه ولاية القضاة بمصر وعزله وهو القاضى الإمام العالم بدر الدين بن جماعة وابنه عز الدين هو الآن متولى ذلك

* ومنهم قاضى القضاة المالكية الامام الصالح تقي الدين الاخنائى . ومنهم قاضى القضاة الحنفية الامام العالم شمس الدين الحريرى وكان شديد السطوة لا تأخذه فى الله لومة لائم وكانت الأمراء تخافه ولقد ذكر لى ان الملك الناصر قال يوما لجلسائه إني لا أخاف من أحد إلا من شمس الدين الحريرى . ومنهم قاضى القضاة الحنبلية ولا أعرفه الآن إلا أنه كان يدعى بعز الدين .

(حكاية)

كان الملك الناصر رحمه الله يقعد للنظر فى المظالم ورفع قصص المتشكين كل يوم اثنين وخميس ويقعد القضاة الأربعة عن يساره وتقرأ القصص بين يديه ويعين من يسأل صاحب القصة عنها وقد سلك مولانا أمير المؤمنين ناصر الدين أيدى الله فى ذلك مسلكا لم يسبق إليه ولا مزيد فى العدل والتواضع عليه وهو سؤاله بذاته الكريمة لكل متظلم وعرضه بين يديه المستقيمة أى الله أن يحضرها سواء أدام الله أيامه . وكان رسم القضاة المذكورين أن يكون أعلاهم منزلة فى الجلوس قاضى الشافعية ثم قاضى الحنفية ثم قاضى المالكية ثم قاضى الحنبلية فلما توفى شمس الدين الحريرى وولى مكانه برهان الدين عبد الحق الحنفى أشار الأمراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكية فوقه وذكروا أن العادة جرت بذلك قديماً إذ كان قاضى المالكية زين الدين بن مخلوف يلي قاضى الشافعية تقي الدين بن دقيق العيد فأمر الناصر بذلك فلما علم به قاضى الحنفية غاب عن شهود المجلس أنفة من ذلك فأنكر الملك الناصر مغيبه وعلم ما قصده فأمر بإحضاره فلما مثل بين يديه أخذ الحاجب بيده وأقعده حيث نفذ أمر السلطان مما يلي قاضى المالكية واستمر حاله على ذلك

(ذكر بعض علماء مصر وأعيانها)

فمنهم شمس الدين الاصبهانى إمام الدنيا فى المعقولات ومنهم شرف الدين الزواوى المالكية ومنهم برهان الدين بن بنت الشاذلى نائب قاضى القضاة بجامع الصالح ومنهم ركن الدين بن القوبيع التونسى من الأئمة فى المعقولات ومنهم شمس الدين بن عدلان كبير الشافعية ومنهم بهاء الدين بن عقيل فقيه كبير ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغرناطى وهو أعلمهم بالنحو ومنهم الشيخ الصالح بدر الدين عبد الله المنوفى ومنهم برهان الدين الصفاقسى ومنهم قوام الدين الكرماني وكان سكنه على سطح الجامع الأزهر وله جماعة من الفقهاء والقراء يلزمونه ويدرسون فنون العلم ويفتى فى المذاهب وإبائهم عبادة صوف خشنة وعمامة صوف سوداء ومن عاداته أن يذهب بعد صلاة العصر إلى موضع الفرج والنزاهات منفرداً عن أصحابه ومنهم السيد الشريف شمس الدين بن بنت الصاحب تاج الدين

ابن حناء ومنهم شيخ شيوخ القراء بديار مصر مجد الدين الاقصراني نسبة إلى أقصر من بلاد الروم ومسكنه سرياقص ومنهم الشيخ جمال الدين الحويزاني والحويزا على مسيرة ثلاثة أيام من البصرة ومنهم تقيب الاشراف بديار مصر السيد الشريف المعظم بدر الدين الحسيني من كبار الصالحين ومنهم وكيل بيت المال المدرس بقبة الامام الشافعي مجد الدين بن حرمي ومنهم المحتسب بمصر نجم الدين السهرقي من كبار الفقهاء وله بمصر رئاسة عظيمة وجاه

(ذكر يوم الحمل)

وهو يوم دوران الحمل يوم مشهود وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب فيه القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب وقد ذكرنا جميعهم ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ويقصدون جميعاً باب القلعة دار الملك الناصر فيخرج إليهم الحمل على جمل وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز في تلك السنة ومعه عسكره والسقاؤون على جمالهم ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ثم يطوفون بالحمل وجميع من ذكرنا معه بمدينة القاهرة ومصر والحداة يحدون أمامهم ويكون ذلك في رجب فعند ذلك تهيج العزيمات وتنبعث الأشواق وتتحرك البواعث ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباد الله فيأخذون في التاهب لذلك والاستعداد ثم كان سفرى من مصر على طريق الصعيد برسم الحجاز الشريف فبعت ليلة خروجى بالرباط الذى بناه صاحب تاج الدين بن حناء بدير الطين وهو رباط عظيم بناء على مفاخر عظيمة واثار كريمة ودعها فيه وهى قطعة من قصعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والميل الذى كان يكتحل به والدرفش وهو الاشفا الذى كان يخصف به نعله ومصحف امير المؤمنين على بن ابي طالب الذى بخط يده رضى الله عنه ويقال ان صاحب اشترى ما ذكرناه من الآثار الكريمة النبوة بمائة الف درهم وبني الرباط وجعل فيه الطعام الوارد والصادر والجراية لخدام تلك الآثار الشريفة نفقه الله تعالى بقصده المبارك ثم خرجت من الرباط المذكور ومررت بمنية القائد وهى بلدة صغيرة على ساحل النيل ثم سرت منها إلى مدينة بوش (وضبطها بضم الباء الموحدة واحدة شين معجم) وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كثانا ومنها يجلب إلى سائر الدنيا المصرية وإلى إفريقية ثم سافرت منها فوصلت إلى مدينة دلاص (وضبط اسمها بفتح الدال المهملة وآخره صاد مهملة) وهذه المدينة كثيرة السكتان أيضاً كمثل التى ذكرناها قبلها ويحمل أيضاً منها إلى ديار مصر وإفريقية ثم سافرت منها إلى مدينة بنا (وضبط اسمها بباء ين موحدتين أو لاهما مكسورة) ثم سافرت منها إلى مدينة البهنسا وهى مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة (وضبط

اسمها بفتح الموحدة وإسكان الهاء وفتح النون والسين) وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف
الجيدة ومن لقيته بها قاضيا العالم شرف الدين وهو كريم النفس فاضل ولقيت بها
الشيخ الصالح أبا بكر العجمي ونزلت عنده وأضافني ثم سافرت منها إلى مدينة منية ابن
خصيب وهي مدينة كبيرة الساحة متسعة المساحة مبنية على شاطئ النيل وحق حقيق
لها على بلاد الصعيد التفضيل بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد وكانت في القديم
منية عامل مصر الخصيب

(حكاية خصيب)

يذكر أن أحد الخلفاء من بني العباس رضى الله عنهم غضب على أهل مصر فآلى أن
يولى عليهم أحقر عبده وأصغرهم شأنا قصدا لإرذالهم والتكليل بهم وكان خصيب
أحقرهم إذ كان يتولى تسخين الحمام فخلع عليه وأمره على مصر وظنه أنه يسير فيهم سيرة
سوء ويقصدهم بالاذية حسبا هو المأمور ممن ولى عن غير عهد بالعز فلما استقر خصيب
بمصر سار في أهلها أحسن سيرة وشهر بالكرم والإيثار فكان أقارب الخلفاء وسواهم
يقصدونه فيجزل العطاء لهم ويعودون إلى بغداد شاكرين لما أولاهم وأن الخليفة افتقد
بعض العباسيين وغاب عنه مدة ثم أتاه فسأله عن مغيبه فأخبره أنه قصد خصيبا وذكر له
ما أعطاه خصيب وكان عطاء جزيلاً فغضب الخليفة وأمر بسمل عيني خصيب وإخراجه من
مصر إلى بغداد وأن يطرح في أسواقها فلما ورد الأمر بالقبض عليه حيل بينه وبين دخوله
متزله وكانت بيده ياقوتة عظيمة الشأن نخبها عنده وخاطها في ثوب له ليلا وسملت عيناه
وطرح في أسواق بغداد فر به بعض الشعراء فقال له يا خصيب إنى كنت قصدك من بغداد
إلى مصر مادحا لك بقصيدة فوافقت انصرافك عنها وأحب أن تسمعها فقال كيف
بسماعها وأنا على ما تراه فقال إنما قصدى سماعك لها وأما العطاء فقد أعطيت الناس
وأجزلت جزاك الله خيرا قال فافعل فأنشد (كامل)

أنت الخصيب وهذه مصر فتدققا فكلكما بحس

فلما أتى على آخرها قال له افترق هذه الخياطة ففعل ذلك فقال له خذ الياقوتة فأنى فأقسم
عليه أن يأخذها فأخذها وذهب بها إلى سوق الجوهريين فلما عرضها عليهم قالوا له إن
هذه لا تصالح إلا للخليفة فرفعوا أمرها إلى الخليفة فأمر الخليفة بإحضار الشاعر واستفهمه
عن شأن الياقوتة فأخبره بخبرها فتأسف على ما فعله بخصيب وأمر بمثوله بين يديه
وأجزل له العطاء وحكمه فيما يريد فرغب أن يعطيه المنية ففعل ذلك وسكنها خصيب
إلى أن توفى وأورثها عقبه إلى أن انقرضوا وكان قاضى هذه المنية أيام دخول اليها

نفر الدين النويرى المالكى ووالها شمس الدين أمير خير كريم دخلت يوما الحمام بهذه
البلدة فرأيت الناس بها لا يستترون فعظم ذلك على وائتته فأعلمته بذلك فأمرنى لأأبرح
وأمر بإحضار المسكنين للحمامات وكتبت عليهم العقود انه متى دخل أحد الحمام دون
مئزر فإنهم يؤخذون على ذلك واشتد عليهم أعظم الاشتداد ثم انصرفت عنه وسافرت
من منية ابن خصيب إلى مدينة منلوى وهى صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل
(وضبط اسمها بفتح الميم وإسكان النون وفتح اللام وكسر الواو) وقاضيا الفقيه شرف
الدين الدميرى (بفتح الدال المهملة وكسر الميم) الشافعى وكبارها قوم يعرفون ببني
فضيل بنى احدثهم جامعا أنفق فيه صميم ماله وبهذه المدينة إحدى عشرة معصرة للسكر
ومن عوائدهم أنهم لا يمنعون فقيرا من دخول معصرة منها فيأتى الفقير بالخبزة الحارة
فيطرحها فى القدر التى يطبخ السكر فيها ثم يخرجها وقد امتلأت سكرأ فينصرف بها
وسافرت من منلوى المذكورة إلى مدينة منفلوط وهى مدينة حسن وواؤها مؤنق
بناؤها على ضفة النيل شهيرة البركة (وضبط اسمها بفتح الميم وإسكان النون وفتح الفاء
وضم اللام وآخرها طاء مهملة)

(حكاية) أخبرنى أهل هذه المدينة أن الملك الناصر رحمه الله أمر بعمل منبر عظيم
محكم الصنعة بديع الانشاء برسم المسجد الحرام زاده الله شرفا وتعظيما فلما تم عمله أمر
أن يصعد به فى النيل ليجاز إلى بحرجدة ثم إلى مكة شرفها الله فلما وصل المركب الذى
احتمله إلى منفلوط وحاذى مسجد الجوامع وقف وامتنع من الجرى مع مساعدة الريح
فعجب الناس من شأنه أشد العجب وأقاموا أياما لا ينهض بهم المركب فكتبوا بخبره
إلى الملك الناصر رحمه الله فأمر أن يجعل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط ففعل ذلك وقد
عائنته بها ويصنع فى هذه المدينة شبه العسل يستخرجه من القمح ويسمونه النيداء يباع بأسواق
مصر وسافرت من هذه المدينة إلى مدينة أسيوط وهى مدينة رفيعة أسواقها بديعة (وضبط
اسمها بفتح الهمزة والسين المهملة والباء آخر الحروف وواو وطاء مهملة) وقاضيا شرف
الدين ابن عبد الرحيم الملقب (بحاصل ماثم) لقب اشتهر به وأصله ان القضاة بديار مصر
والشام بأيديهم الأوقاف والصدقات لأبناء السبيل فإذا أتى فقير لمدينة من المدن قصد
القاضى بها فيعطيه ما قدر له فكان القاضى إذا أناه الفقير يقول له حاصل ماثم أى لم
يبق من المال الحاصل شيء فللقب بذلك ولزمه وبها من المشايخ الفضلاء الصالح شهاب الدين
ابن الصياغ أضلافتى بزائوته وسافرت منها إلى مدينة اخميم وهى مدينة عظيمة أصيلة
البنيان عجيبة الشأن بها البري المعروف باسمه وهو مبنى بالحجارة فى داخله نقوش وكتابة

للاوائل لا تفهم في هذا العهد وصور الأفلاك والكواكب ويزعمون أنها بنيت والنسر الطائر ببرج العقرب وبها صور الحيوانات وسواها وعند الناس في هذه الصور أكاذيب لا يخرج عليها وكان باخيم رجل يعرف بالخطيب أمر على هدم بعض هذه البرابي وابتقى بجارتها مدرسة وهو رجل موسر معروف باليسار ويزعم حساده أنه استفاد ما بيده من المال من ملازمته لهذه البرابي ونزلت من هذه المدينة بزواية الشيخ أبي العباس بن عبد الظاهر وبها تربة جده عبد الظاهر وله من الأخوة ناصر الدين ومحمد الدين وواحد الدين ومن عاداتهم أن يجتمعوا جميعاً بعد صلاة الجمعة ومعهم الخطيب نور الدين المذكور وأولاده وقاضى المدينة الفقيه مخلص وسائر أهلها فيجتمعون للقرآن ويذكرون الله إلى صلاة العصر فإذا صلوا قرأوا سورة الكهف ثم انصرفوا وسافرت من اخيم إلى مدينة (هو) مدينة كبيرة بساحل النيل (وضبطها بضم الهاء) نزلت منها بمدرسة تقي الدين بن السراج ورأيتهم يقرأون بها في كل يوم بعد صلاة الصبح حزباً من القرآن ثم يقرأون أورد الشيخ أبي الحسن الشاذلي وحزب البحر وبهذه المدينة السيد الشريف أبو محمد عبد الله الحسنى من كبار الصالحين (كرامة له) دخلت إلى هذا الشريف متبركاً برؤيته والسلام عليه فسألتني عن قصدي فأخبرته إنى أريد البيت الحرام على طريق جدة فقال لى لا يحصل لك هذا فى هذا الوقت فارجع وإنما تحج أول حجة على الدرب الشامى فانصرفت عنه ولم أعمل على كلامه ومضيت فى طريقى حتى وصلت إلى عيذاب فلم يتمكن لى السفر فعدت راجعاً إلى مصر ثم إلى الشام وكان طريقى فى أول حجائى على الدرب الشامى حسبما أخبرنى الشريف نفع الله به ثم سافرت إلى مدينة قنا وهى صغيرة حسنة الأسواق (وضبط اسمها بقاف مكسورة ونون) وبها قبر الشريف الصالح الولي صاحب البراهين العجيبة والكرامات الشهيرة عبد الرحيم القناوى رحمة الله عليه ورأيت بالمدرسة السيفية حفيدة شهاب الدين احمد وسافرت من هذا البلد إلى مدينة قوص (وهى بضم القاف) مدينة عظيمة لها خيرات عميمة بساكناتها موزقة وأسواقها موزقة ولها المساجد الكثيرة والمدارس الأثيرة وهى منزل ولادة الصعيد وبخارجها زاوية الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار وزاوية الافرم وبها اجتماع الفقراء المتجردين فى شهر رمضان من كل سنة ومن علمائها القاضى جمال الدين بن السديد والخطيب بها فتح الدين بن دقيق العيد أحد الفصحاء البلغاء الذين حصل لهم السبق فى ذلك لم أر من يماثله إلا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبرى وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين الشاطلى وسبق ذكرهما ومنهم الفقيه بهاء الدين عبد العزيز المدرس بمدرسة المالكية ومنهم الفقيه برهان الدين ابراهيم الأندلسى له زاوية عالية ثم

سافرت إلى مدينة الأقصر (وضبط اسمها بفتح الهمزة وضم الصاد المهمل) وهي صغيرة حسنة وبها قبر الصالح العابد أبي الحجاج الأقصري وعليه زاوية وسافرت منها إلى مدينة أرمنت (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الراء وميم مفتوحة ونون ساكنة وتاء فوقية) وهي صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل أضافني قاضيها وأنسيت اسمه ثم سافرت منها إلى مدينة أسنا (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان السين المهمل ونون) مدينة عظيمة متسعة الشوارع ضخمة المنافع كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع لها أسواق حسان وبساتين ذات أفنان قاضيها قاضي القضاة شهاب الدين بن مسكين أضافني وأكرمني وكتب إلى نوابه بإكرامي وبها من الفضلاء الشيخ صالح نور الدين علي والشيخ الصالح عبد الواحد المسكناسي وهو على هذا العهد صاحب زاوية بقوص ثم سافرت منها إلى مدينة أدفو (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان الدال المهمل وضم الغاء) وبينها وبين مدينة أسنا مسيرة يوم وليلة في صحراء ثم جزنا النيل مدينة أدفو إلى مدينة العطوان ومنها أكثرينا الجمال وسافرنا مع طائفة من العرب تعرف بدغيم (بالعين المعجمة) في صحراء لا عمارة بها إلا أنها آمنة السيل وفي بعض منازلنا حميثرا حيث قبر ولي الله أبي الحسن الشاذلي وقد ذكرنا كرامته في أخباره أنه يموت بها وأرضها كثيرة الضباع ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضباع ولقد قصدت رحلي ضبع منها فزقت عدلا كان به واجتزت منه جراب تمر وذهبت به فوجدنا ما أصبحنا بمزقاً كولا معظم ما كان فيه ثم لما سرنا خمسة عشر يوماً وصلنا إلى مدينة عيذاب وهي مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن ويحمل إليها الزرع والتمر من صعيد مصر وأهلها البهجة وهم سود الألوان يلتحفون بملاحف صفراء ويشدون على رؤسهم عصائب يكون عرض العصابة أصبعاً وهم لا يوروثون البنات وطلعهم ألبان الإبل ويركبون المهارى ويسمونهم الصهب وثلث المدينة الملك الناصر وثلثاه لملك البهجة وهو يعرف بالحدري (بفتح الحاء المهمل وإسكان الدال وراء مفتوحة وباء موحدة وياء) ويمدنة عيذاب مسجد ينسب للقسطلاني شهير البركة رأيتُه وتبركت به وبها الشيخ الصالح موسى والشيخ المسن محمد المراكشي زعم أنه ابن المرتضى ملك مراکش وأن سنة خمس وتسعون سنة ولما وصلنا إلى عيذاب وجدنا الحدري سلطان البهجة يحارب الأتراك وقد خرق المراكب وهرب الترك أمامه فتعذر سفرنا في البحر فبقينا ما كنا أعدداً من الزاد وعدنا مع العرب الذين أكثرينا الجمال منهم إلى صعيد مصر فوصلنا إلى مدينة قوص التي تقدم ذكرها وانحدروا منها في

النيل وكان أوان مده فوصلنا بعد مسيرة ثمان من قوص إلى مصر فبت بمصر ليلة واحدة وقصدت بلاد الشام وذلك في منتصف شعبان سنة ست وعشرين فوصلت إلى مدينة بلبيس (وضبط اسمها بفتح الموحدة الأولى وفتح الثانية ثم ياء آخر الحروف مسكنة وسين مهملة) وهي مدينة كبيرة ذات بساتين كثيرة ولم ألق بها من يجب ذكره ثم وصلت إلى الصالحية ومنها دخلنا الرمال ونزلنا منازلها مثل السوادة والورادة والمطيلاب والعريش والخروبة بكل منزل منها فندق وهم يسمونه الخان ينزله المسافرون بدوا بهم وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشتري منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته ومن منازلها قطيا المشهورة وهي (بفتح القاف وسكون الطاء وياء آخر الحرف مفتوحة وألف والناس يبدلون ألفها هاء تأنيث وبها تؤخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم ويبحث عما لديهم أشد البحث وفيها الدواوين والعمال والكتاب، والشهود ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا براءة من مصر ولا إلى مصر إلا براءة من الشام احتياطاً على أموال الناس وتوقيفاً من الجواسيس العراقيين وطريقها في ضمان العرب قد وكلوا بحفظه فإذا كان الليل مسحوا على الرمل حتى لا يبقى به أثر ثم يأتي الأمير صباحاً فينظر إلى الرمل فإن وجد به أثر طالب العرب بإحضار مؤثره فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم فيأتون به الأمير فيعاتبه بما شاء وكان بها في عهد وصولي إليها عز الدين أستاذ الداراقماری من خيار الأمراء أضافني وأكرمني وأباح الجواز لمن كان معي وبين يديه عبد الجليل المغرقي والوقاف وهو يعرف المغاربة وبلادهم فيسأل من ورد منهم من أي البلاد هو لئلا يلبس عليهم فإن المغاربة لا يعترضون جوازهم على قطيا. ثم سرنا حتى وصلنا إلى مدينة غزه وهي أول بلاد الشام مما يلي مصر متسعة الأفطار كثيرة العمارة حسنة الأسواق بها المساجد العديدة والأسوار عليها وكان بها جامع حسن والمسجد الذي تقام الآن به الجمعة فيها بناء الأمير المعظم الجاولي وهو أنيق البناء محكم الصنعة ومنبره من الرخام الأبيض وقاضى غزة بدر الدين السلخى الحوراني ومدرسها علم الدين ابن سالم وبنو سالم كبراء هذه المدينة ومنهم شمس الدين قاضى القدس ثم سافرت من غزة إلى مدينة الخليل صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليماً وهي مدينة صغيرة الساحة كبيرة المقدار مشرقة الأنوار حسنة المنظر عجيبه الخبز في بطن واد ومسجدها أنيق الصنعة محكم العمل بديع الحسن سامى الارتفاع مبنى بالصخر المنحوت في أحد أركانه صحرة أحد أفطارها سبعة وثلاثون شهراً ويقال إن سليمان عليه السلام أمر الجن ببنائه

وفي داخل المسجد الغار المسكر المقدس فيه قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب صلوات الله على نبيينا وعليهم وبقايا قبور ثلاثة هي قبور أزواجهم وعن يمين المنبر بلصق جدار القبلة موضع مهبط منه على درج رخام محكمة العمل إلى مسلك ضيق يفضي إلى ساحة مفروشة بالرخام فيها صور القبور الثلاثة ويقال إنها محاذية لها وكان هنالك مسلك إلى الغار المبارك وهو الآن مسدود وقد نزلت بهذا الموضع مرات وبما ذكره أهل العلم دليلا على صحة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك ما نقله من كتاب علي بن جعفر الرازي الذي سماه المسفر للقلوب عن صحة قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب أسند فيه إلى أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسرى بي إلى بيت المقدس مر بي جبريل على قبر ابراهيم فقال انزل فصل ركعتين فإن هنا قبر أبيك ابراهيم ثم مر بي على بيت لحم وقال انزل فصل ركعتين فإن هنا ولد أخوك عيسى عليه السلام ثم أتني الصخرة وذكر بقية الحديث ولما لقيت بهذه المدينة المدرس الصالح المعمر الإمام الخطيب برهان الدين الجعيري أحد الصالحاء المرضين والأئمة المشهورين سألته عن صحة كون قبر الخليل عليه السلام هنالك فقال لي كل من لقيته من أهل العلم يصححون أن هذه القبور قبور ابراهيم واسحاق ويعقوب على نبيينا وعليهم السلام وقبور زوجاتهم ولا يطعن في ذلك إلا أهل البدع وهو نقل الخلف عن السلف لا يشك فيه * ويذكر أن بعض الأئمة دخل إلى الغار ووقف عند قبر سارة فدخل شيخ فقال له أي هذه القبور هو قبر ابراهيم فأشار له إلى قبره المعروف ثم دخل شاب فسأله كذلك فأشار له إليه ثم دخل صبي فسأله أيضا فأشار له إليه فقال الفقيه أشهد أن هذا قبر ابراهيم عليه السلام لا شك ثم دخل إلى المسجد فصلى به وارتحل من الغد وبداخل هذا المسجد أيضا قبر يوسف عليه السلام وبشرقي حرم الخليل تربة لوط عليه السلام وهي تل مرتفع يشرف منه غور الشام وعلى قبره أبنته حسنة وهو في بيت منها حسن البناء مبيض ولا ستور عليه وهنالك بحيرة لوط هي أجاج يقال أنها موضع ديار قوم لوط بمقربة من تربة لوط ومسجد اليقين وهو على تل مرتفع له نور وإشراق ليس لسواه ولا يجاوره إلا دار واحدة يسكنها قيمة وفي المسجد بمقربة من بابه موضع منخفض في حجر صلد قد هيء فيه صورة محراب لا يسع إلا مصليا واحدا ويقال أن ابراهيم سجد في ذلك الموضع شكر الله تعالى عند هلاك قوم لوط فتحرك موضع سجوده وساخ في الأرض قليلا وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين بن علي عليهما السلام وبأعلى القبر وأسفله لوحان من الرخام في أحدهما مكتوب منقوش بخط بديع بسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء وله ما ذرأ وبرأ وعلى خلقه كتب الفناء وفي رسول الله أسوة هذا قبر أم سلمة فاطمة بنت الحسين رضي الله عنه

وفي اللوح الآخر منقوش صنعه محمد بن أبي سهل النقاش بمصر وتحت ذلك هذه الابيات
 اسكنت من كان في الاحشاء مسكنه بالرغم منى بين التراب والحجر
 يا قبر فاطمة بنت ابن فاطمة بنت الأئمة بنت الانجم الزهر
 يا قبر مافيك من دين ومن ورع ومن عفاف ومن صون ومن خفر
 ثم سافرت من هذه المدينة إلى القدس فزرت في طريق اليه تربة يونس عليه السلام وعليها
 بنية كبيرة ومسجد وزرت ايضا بيت لحم موضع ميلاد عيسى عليه السلام وبه اثر جذع
 النخلة وعليه عمارة كثيرة والنصارى يعظمونه اشد التعظيم ويضيفون من نزل به ثم وصلنا
 إلى بيت المقدس شرفه الله ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل ومصدر رسول الله صلى
 الله عليه وسلم تسليما ومعرجه إلى السماء والبلدة كبيرة منيفة بالصخر المنحوت وكان
 الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب جزاه الله عن الاسلام خيرا لما فتح
 هذه المدينة هدم بعض سورها ثم استنقض الملك الظاهر هدمه خوفا ان يقصدها الروم
 فيتمنعوا بها ولم يكن بهذه المدينة نهريا تقام وجلب لها الماء في هذا العهد الامير سيف
 الدين تكتيز امير دمشق .

(ذكر المسجد المقدس)

وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفاتحة الحسن يقال إنه ليس على وجه الارض مسجدا كبر
 منه وان طوله من شرق إلى غرب سبع مائة وثلثان وخمسون ذراعا بالذراع المالكية وعرضه
 من القبلة إلى الجوف اربع مائة ذراع وخمس وثلثون ذراعا وله ابواب كثيرة في جهاته
 الثلاث واما الجهة القبليّة منه فلا أعلم بها إلا بابا واحدا وهو الذي يدخل منه
 الامام والمسجد كله فضاء وغيره مسقف الا المسجد الاقصى فهو مسقف في النهاية من احكام
 لفعل واتقان الصنعة عموه بالذهب والاصبغة الرائقة وفي المسجد مواضع سواه مسقفة

(ذكر قبة الصخرة)

هي من أعجب المباني وأتقنها وأغربها شكلا قد توفر حظها من المحاسن وأخذت من كل
 ديدة بطرف وهي قائمة على نشز في وسط المسجد يصعد اليها في درج رخام ولها أربعة
 بواب والداثر بها مفروش الرخام أيضا محكم الصنعة وكذلك داخلها وفي ظاهرها وباطنها
 ن أنواع الزواقة ورائق الصنعة ما يعجز الوصف واكثر ذلك مغشى بالذهب فهي
 لا تلاحق نوار أو تلح لمعان البرق يحار بصير متأملها في محاسنها ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها
 في وسط القبة الصخرة الكريمة التي جاء ذكرها في الآثار فان النبي صلى الله عليه وسلم

عرج منها إلى السماء وهي صخرة صماء ارتفاعها نحو قامة وتحتها مغارة مقدار بيت صغير ارتفاعها نحو قامة أيضا ينزل إليها على درج وهناك شكل محراب وعلى الصخرة شبا كان اثنان يحكما العمل بفلقان عليها أحدهما وهو الذي يلي الصخرة من حديد بديع الصنعة والثاني من خشب وفي القبة درقة كبيرة من حديد معلقة هناك والناس يزعمون أنها درقة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه .

(ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف)

فمنها بعدوة الوادى المعروف بوادى جهنم فى شرقى البلدة على تل مرتفع هناك بنية يقال انها مصعد عيسى عليه السلام إلى السماء ومنها أيضا قبر رابعة البدوية منسوبة إلى البادية وهي خلاف رابعة العدوية الشهيرة وفى بطن الوادى المذكور كنيسة يعظمها النصارى ويقولون أن قبر مريم عليها السلام بها وهناك أيضا كنيسة أخرى معظمة يحجها النصارى وهي التى يكذبون عليها ويعتقدون أن قبر عيسى عليه السلام بها وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين وضروب من الإهانة يتحملها على رغم انفه وهناك موضع مهد عيسى عليه السلام يتبرك به

(ذكر بعض فضلاء القدس)

فمنهم قاضيه العالم شمس الدين محمد بن سالم الغزى (بفتح الغين) وهو من أهل غزة وكبرائها ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابلسى ومنهم المحدث المفتى شهاب الدين الطبرى ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقاه الكريمة أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطى نزىل القدس ومنهم الشيخ الزاهد أبو على حسن المعروف بالمحجوب من كبار الصالحين ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراقى ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن ابن مصطفى من أهل ارز الروم وهو من تلامذه تاج الدين الرفاعى صحبته ولبست منه خرقة التصوف ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة نغر عسقلان وهو خراب قد عاد رسوما طامسة واطلالا دارسة وقل بلد جمع من المحاسن ما جمعه عسقلان اتقاننا وحسن وضع واصله مكان وجمعا بين مرافق البر والبحر وبها المشهد الشهير حيث كان رأس الحسين ابن على عليه السلام قبل أن ينقل إلى القاهرة وهو مسجد عظيم سامى العلو فيه جب للماء أمر ببنائه بعض العبيد وكتب ذلك على بابه وفى قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر لم يبق منه الا حيطانه وفيه أساطين رخام لا مثل لها فى الحسن وهي ما بين قائم وحصيد ومن جملة ما استطوانة حمرام عجيبة يزعم الناس أن النصارى احتملوا إلى بلادهم ثم فقدوها فوجدت فى موضعها بعسقلان وفى القبلة من هذا المسجد بئر تعرف ببئر إبراهيم عليه السلام ينزل إليها فى

درج متسعة ويدخل منها إلى بيوت وفي كل ناحية من جهاتها الأربع تخرج من أسراب مطوية بالحجارة وماؤها عذب وليس بالغزير ويذكر الناس من فضائلها كثيرا وبظاهر عسقلان وادى النمل ويقال انه المذكور في السكتاب العزيز وبجبانة عسقلان من قبور الشهداء والاولياء ما لا يحصر لكثرة أوقفنا عليهم قيم المزار المذكور وله جارية يجريها له ملك مصر مع ما يصل اليه من صدقات الزوار ثم سافرت منها إلى مدينة الرملة وهي فلسطين مدينة كبيرة كثيرة الخيرات حسنة الأسواق وبها الجامع الأبيض ويقال إن في قبلته ثلاثمائة من الأنبياء مدفونين عليهم السلام وفيها من كبار الفقهاء مجد الدين النابلسي ثم خرجت منها إلى مدينة نابلس وهي مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطردة الأنهار من أكثر بلاد الشام زيتونا ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق وبها تصنع حلواء الخروب وتجلب إلى دمشق وغيرها (وكيفية عملها) أن يطبخ الخروب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الرب فتصنع منه الحلواء ويجلب ذلك الرب أيضا إلى مصر والشام وبها البطيخ المنسوب اليها وهو طيب عجيب والمسجد الجامع في نهاية من الاتقان والحسن وفي وسطه بركة ماء عذب ثم سافرت منها إلى مدينة عجلون (وهي بفتح العين المهملة) وهي مدينة حسنة لها أسواق كثيرة وقلعة خطيرة ويشقها نهر ماؤه عذب ثم سافرت منها بقصد اللاذقية فررت بالغور وهو واديين قلل به قبر أبي عبيدة بن الجراح أمين هذه الأرض رضى الله عنه زناه وعليه زاوية فيها الطعام لا بناء السبيل - وبتنا هنا لك ليلة - ثم وصلنا إلى القصير وبه قبر معاذ بن جبل رضى الله عنه تبركت أيضا بزيارته ثم سافر على الساحل فوصلت إلى مدينة عمة وهي خراب وكانت عكة قاعدة بلاد الفرنج باشام ومرسى سفنهم وتشبه قسطنطينية العظمى وبشرقيها عين ماء تعرف بعين البقر يقال إن الله تعالى أخرج منها البقر لادم عليه السلام وينزل اليها في درج وكان عليها مسجد بقي منه محرابه وبهذه المدينة قبر صالح عليه السلام ثم سافرت منها إلى مدينة صور وهي خراب وبخارجها قرية معمورة وأكثر أهلها أرفاض ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء فأتى بعض أهل تلك القرية ليتوضأ فبدأ بغسل وجهه ثم غسل وجهه ولم يتمضمض ولا استنشق ثم مسح بعض رأسه فاخذت عليه في فعله فقال لي إن البناء إنما يكون ابتداءه من الأساس ومدينة صور هي التي يضرب بها المثل في الحصانة والمنعة لان البحر يحيط بها من ثلاث جهاتها ولها بابان أحدهما للبر والثاني للبحر ولها الذي يشرع للبر أربعة فصلات كلها في ستائر محيطة بالباب وأما الباب الذي للبحر فهو بين برجين عظيمين وبنائها ليس في بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شأنا

منه لان البحر محيط بها من ثلاث جهاتها وعلى الجهة الرابعة سور تدخل السفن تحت السور وترسو هنالك وكان فيما تقدم بين البرجين سلسلة حديد معترضة لاسبيل إلى الداخل هنالك ولا إلى الخارج إلا بعد حطها وكان عليها الحراس والأمناء فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج إلا على علم منهم وكان لعسكة أيضا ميناء مثلها والسكنها لم تسكن تحمل إلا السفن الصغار - ثم سافرت منها إلى مدينة صيدا وهى على ساحل البحر حسنة كثيرة الفواكه يحمل منها التين والزبيب والزيت إلى بلاد مصر نزلت عند قاضيها كمال الدين الأشموني المصرى وهو حسن الأخلاق كريم النفس - ثم سافرت منها إلى مدينة طبرية وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة ولم يبق منها الا رسوم تنبىء عن ضخامتها وعظم شأنها وبها الحمامات العجيبة لها بيتان أحدهما للرجال والثانى للنساء وماؤها شديد الحرارة ولها البحيرة الشهيرة طولها نحو ستة فراسخ وعرضها ازيد من ثلاثة فراسخ وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الأنبياء فيه قبر شعيب عليه السلام وبنته زوج موسى الكليم عليه السلام وقبر سليمان عليه السلام وقبر يهودا وقبر روبيل صلوات الله وسلامه على نبيينا وعليهم وقصدنا منها زيارة الحب الذى اتى فيه يوسف عليه السلام وهو فى صحن مسجد صغير وعليه زاوية والحب كبير عميق شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر وأخبرنا قديمه أن الماء ينبع منه أيضا ثم سرنا إلى مدينة بيروت وهى صغيرة حسنة الاسواق وجامعها بديع الحسن ويحاطب منها إلى ديار مصر الفواكه وقصدنا منها زيارة أبى يعقوب يوسف الذى يزعمون أنه من ملوك المغرب وهو بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز وعليه زاوية يطعم بها الوارد ويقال أن السلطان صلاح الدين وقف عليها الاوقاف وقيل السلطان نور الدين وكانوا من الصالحين ويندكرانه كان ينسج الحصر ويقتات بثمنها .

(حكاية أبى يعقوب يوسف المذكور)

يحكى أنه دخل مدينة دمشق فرض بها مرضا شديدا وأقام مطروحا بالأسواق فلما برى من مرضه خرج إلى ظاهر دمشق ليلتمس بستانا يكون حارسا له فاستقجر لحراسة بستان للملك نور الدين وأقام فى حراسته ستة أشهر فلما كان فى أوان الفاكهة أتى السلطان إلى ذلك البستان وأمر وكيل البستان أبا يعقوب أن يأتى برمان يأكل منه السلطان فأتاه برمان فوجده حامضا فأمره أن يأتى بغيره ففعل ذلك فوجده أيضا حامضا فقال له الوكيل أتكون فى حراسة هذا البستان منذ ستة أشهر ولا تعرف الحلو من الحامض فقال إنما أستأجرنى على الحراسة لا على الأكل فأتى الوكيل إلى الملك فأعلمه بذلك فبعث اليه الملك

وكان قد رأى في المنام انه يجتمع مع أبي يعقوب وتحصل له منه فائدة ففهرس انه هو فقال له أنت أبو يعقوب قال نعم فقام اليه وعانقه اجلسه إلى جانبه ثم احتمله إلى مجلسه فاضافه بضيافة من الخلال المسكتسب بكد يمينه وأقام عنده أياما ثم خرج من دمشق فارأ بنفسه في أوان البرد الشديد فأتى قرية من قراها وكان بها رجل من الضعفاء فعرض عليه النزول عنده ففعل وصنع له مرققة وذبح دجاجة فأتاه بها وبخبز شعير فاكل من ذلك ودعا للرجل وكان عنده جملة أولاد منهم بنت قد آن بناء زوجها عليها ومن عواندهم في تلك البلادان البنات يحزنها أبوها ويكون معظم الجهاز أواني النحاس وبه يتفاخرون وبه يتبايعون فقال أبو يعقوب للرجل هل عندك شيء من النحاس قال نعم قد اشتريت منه لتجهيز هذه البنت قال انتنى به فأتاه به فقال له استعمر من جيرانك ما أمسكتك منه ففعل وأحضر ذلك بين يديه فاوقد عليه النيران وأخرج صرة كانت عنده فيها الاكسير فطرح منه على النحاس فعماد كله ذهباً وتركه في بيت مقفل وكتب كتابا إلى نور الدين ملك دمشق يعلمه بذلك ويطلبه على بناء مارستان للبرضى من الغرباء ويوقف عليه الاوقاف ويبنى الزوايا بالطرق ويرضى أصحاب النحاس ويعطى صاحب البيت كفايته وقال له في آخر الكتاب وان كان ابراهيم ابن أدهم قد خرج عن ملك خراسان فانا قد خرجت من ملك المغرب وعن هذه الصنعة والسلام وفر من حينه وذهب صاحب البيت بالكتاب إلى الملك نور الدين فوصل الملك إلى تلك القرية واحتمل الذهب بعد أن أَرْضَى أصحاب النحاس وصاحب البيت وطلب أباً يعقوب فلم يجد له أثراً ولا وقع له على خبر فعماد إلى دمشق وبني المارستان المعروف باسمه الذي ليس في المعمور مثله — ثم وصلت إلى مدينة طرابلس وهي إحدى قواعد الشام وبلدانها الضخام تخترقها الانهار وتحفها البساتين والأشجار ويكتنفها البحر بمرافقة العميمة والبربخيرات المقيمة . ولها الاسواق العجيبة . والمسارح الخصيبة . والبحر على ميلين منها وهي حديثة البناء وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر وتملكها الروم زماناً فلما استرجعها الملك الظاهر خربت واتخذت هذه الحديثة وهذه المدينة نحو أربعين من أمراء الأتراك وأميرها طيلان الحاجب المعروف بملك الأمراء ومسكنه منه بالدار المعروفة بدار السعادة ومن عوانده أن يركب في كل يوم اثنين وخميس ويركب معه الأمراء والعساكر ويخرج إلى ظاهر المدينة فإذا عاد إليها وقارب الوصول إلى منزله ترجل الأمراء ونزلوا عن دوابهم ومشوا بين يديه حتى يدخل منزله وينصرفون وتضرب الطبل بخانة عند دار كل أمير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم وتوقد المشاعل ويمن كان بها من الاعلام كانت السر بها

الدين بن غانم أحد الفضلاء الحسباء معروف بالسخاء والكرم وأخوه حسام الدين هو شيخ
القدس الشريف وقد ذكرناه وأخوهما علاء الدين كاتب السريد دمشق . ومنهم وكيل بيت
المال قوام الدين بن مكين من أكابر الرجال . ومنهم قاضى قضاتها شمس الدين بن النقيب
من اعلام علماء الشام وبهذه المدينة حمامات حسان منها حمام القاضى القرى وحمام سندمور
وكان سندمور أمير هذه المدينة ويدكر عنه أخبار كثيرة فى الشدة على أهل الجنايات
منها ان امرأة شككت اليه بأن أحد مماليكه الخواص تعدى عليها فى ابن كانت تبيعه
فشربه ولم تسكن لها بيعة فامر به فوسط فخرج اللبن من مصراته . وقد اتفق مثل هذه الحكاية
للعتريس أحد أمراء الملك الناصر أيام إمارته على عذاب واتفق مثلها للملك كبك سلطان
تركستان - ثم سافرت من طرابلس إلى حصن الاكراد وهو بلد صغير كثير الاشجار والانهار
بأعلى تل وبه زاوية تعرف بزاوية الابراهيمى نسبة إلى بعض كبراء الامراء ونزلت عند
قاضيا ولا أحق الآن اسمه - ثم سافرت إلى مدينة حمص وهى مدينة مليحة أرجاؤها مونة
واشجارها مورقة وانهارها متدفقة واسواقها فسيحة الشوارع وجامعها متميز بالحسن
الجامع وفى وسطه ماء وأهل حمص عرب لهم فضل وكرم وبخارج هذه المدينة قبر خالد
ابن الوليد سيف الله ورسوله وعليه زاوية ومسجد وعلى القبر كسوة سوداء وقاضى هذه
المدينة جمال الدين الشريشى من أجمل الناس صورة وأحسنهم سيرة ثم سافرت منها إلى
مدينة حماة إحدى أمهات الشام الرفيعة ومدائنها البديعة ذات الحسن الرائق والجمال
الفائق تحفها البساتين والجنات عليها النواعير كالافلاك الدائرات يشقها النهر العظيم المسمى
بالعاصى ولها ربض سمي بالمنصورية اعظم من المدينة فيه الاسواق الخافلة والحمامات
الحسان وبحماة الفواكه الكثيرة ومنها المشمش اللوزى إذا كسرت نواته وجدت فى
داخلها لوزة حلوة قال ابن جزى وفى هذه المدينة ونهرها ونواعيرها وبساتينها يقول
الاديب الرحال نور الدين ابو الحسن على بن موسى بن سعيد العيسى العمارى الفرائضى
نسبة لعمار بن ياسر رضى الله عنه

(طويل)

وقفت عليها السمع والفكر والطرفا	حمى الله من حماة مناظرا
وتزهى مباني تمنع الواصف الوصفنا	تغنى حمام أو تميل نخائل
وأطيع الكأس واللهم والقصفنا	يلومنى أن أعصى الصون والنهى
أحاكيه عصيانا وأشربها صرفا	إذا كان فيها النمر عاص فكيف لا
وأغلبها رقصاً وأشبهها غرقا	وأشد ولدى تلك النواعر شدوها

تئن وتندى دمعها فكانها نهم بمرآها وتسألها العطفاً

ولبعضهم في نواكيرها ذاهبا مذهب التورية (طويل)

وناعورة رقت لعظم خطيئتي وقد عاينت قصدي من المنزل القاصي

بكيت رحمة لي ثم باحت بشجوها وحسبك ان الخشب تبكي على العاصي

ولبعض المتأخرين فيها ايضاً من التورية (كامل)

ياسادة سكنوا حماة وحقكم ما حلت عن تقوى وعن اخلاص

والطرف بعدكم اذا اذكر اللقا يجري المدامح طائعا كالعاصي

(رجع) - ثم سافرت إلى مدينة المعرة التي ينسب اليها الشاعر أبو العلاء المعري وكثير سواه من الشعراء قال ابن جزى وإنما سميت بمعرة النعمان لأن النعمان بن بشير الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي له ولد أيام امارته على حمص فدفنه بالمعرة فعرفت به وكانت قبل ذلك تسمى ذات القصور وقيل ان النعمان جبل مطل عليها سميت به (رجع) - والمعرة مدينة كبيرة حسنة أكثر شجرها التين والفسق وعنها يحمل إلى مصر والشام ويخارجها على فرسخ منها قبر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ولا زاوية عليه ولا خديم له * وسبب ذلك أنه وقع في بلاد صنف من الرافضة ارجاس يبغضون العشرة من الصحابة رضي الله عنهم ولعن مبغضهم ويبغضون كل من اسمه عمر وخصوصاً عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما كان من فعله في تعظيم علي رضي الله عنه - ثم سرنا منها إلى مدينة سرمين وهي حسنة كثيرة البساتين وأكثر شجرها الزيتون بها يصنع الصابون الأجرى ويحلب إلى مصر والشام ويصنع بها أيضاً الصابون المطيب لغسل الأيدي ويصبغونه بالحرمة والصفرة ويصنع بها ثياب قطن حسان تنسب اليها واهلها سبابون يبغضون العشرة ومن العجب انهم لا يذكرون لفظ العشرة وينادي سماسرهم بالاسواق على السلع فإذا بلغوا إلى العشرة قالوا تسعة وواحد وحضر بها بعض الأتراك يوماً فسمع سمساراً ينادي تسعة وواحد فضر به بالدبوس على رأسه وقال قل عشرة بالدبوس وبها مسجد جامع فيه تسع قبائل ولم يجعلوها عشرة قياماً بمذهبهم القبيح - ثم سرنا إلى مدينة حلب المدينة الكبرى والقاعدة العظمى قال أبو الحسين بن جبيرة في وصفها قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير خطاياها من الملوك كثير ومحلها من النفوس اثير فكم حاجت من كفاح وسل عليها من بيض الصفاح لها قلعة شهيرة الامتاع بائنة الارتفاع تنزهت حصانة من ان يرام أو تستطاع منحوتة الاجزاء موضوعة على نسبة اعتدال واستواء قد طاوالت الايام

والاعوام ووسعت الخواص والعوام اين امرؤها الحمدانيون وشعرؤها فني جميعهم
ولم يبق إلا بناؤها فيا عجبا لبلاد تبق ويذهب ملاكها ويهلكون ولا يقضى هلاكها
وتخطب بعدهم فلا يتعذر املاكها وترام فيتيسر بأهون شيء ادراكها هذه حلب كم
ادخلت ملوكها في خبر كان ونسخت صرف الزمان بالمسكان انث اسمها فتحت بحماية
الغوان واثت بالعذر فيمن دان وانجحت عروسا بعد سيف دولتها ابن حمدان هيهات
سيهرم شبابها ويعدم خطابها ويسرع فيها بعد حين خرابها وقلعة حلب تسمى الشهباء
وبداخها جبالان ينبع منهما الماء فلانخاف الظما ويطيف بها سوران وعليها خندق عظيم
ينبع منه الماء وسورها متداني الابراج وقد انتظمت بها العلالي العجيبة المفتحة
الطيقان وكل برج منها مسكون والطعام لا يتغير بهذه القلعة على طول العهد وبها مشهد
يقصده بعض الناس يقال ان الخليل عليه السلام كان يتعبد به وهذه القلعة تشبه قلعة رحية
مالك ابن طوق التي على الفرات بين الشام والعراق ولما قصد قازان طاغية التتر مدينة حلب
حاصر هذه القلعة اياما ونكص عنها خائبا قال ابن جزي وفي هذه القلعة يقول الخالدي
شاعر سيف الدولة

وخرقاء قد قامت على من يرومها
يحر عليها الحواجيب غمامة
إذا ما سرى برق بدت من خلاله
فكم من جنود قد ماتت بغصة
بمراقبها العالي وجانبها الصعب
ويلبثها عقدا بانجمه الشهب
كما لاحت العذراء من خلل السحب
وذى سطوات قد أبانت على عقب

وفيهما يقول أيضاً وهو من بديع النظم (بسيط)

وقلعة عائق العنقاء سافلها
لا تعرف القطر إذ كان الغمام لها
إذا الغمامة راحت غاض ساكنها
يعد من انجم الافلاك مراقبها
وجاز منطقة الجوزاء عاليها
أرضا توطأ قطريه مواشيتها
حياضها قبل ان تهوى عواليها
لأنه كان يجري في مجاريها
ردت مكائد اقوام مكائدها
ونصرت لدواهيهم دواهيها

وفيهما يقول جمال الدين علي بن ابي المنصور (كامل)

كادت لبون سموها وعلوها
وردت قواطنها المجرة منها
ويظل صرف الدهر منها خائفا
وتستوقف الفلك المحيط الدائرا
ورعت سوابقها النجوم زواها
وجلا فما يمسى لديها حاضرا

(رجع) ويقال في مدينة حلب حلب إبراهيم لأن الخليل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه كان يسكنها وكانت له الغنم الكثيرة فكان يسقى الفقراء والمساكين والوارد والصادر من البانها فكانوا يجتمعون ويسألون حلب إبراهيم فسميت بذلك وهي من أعز البلاد التي لا نظير لها في حسن الوضع وإتقان الترتيب واتساع الأسواق وانتظام بعضها ببعض وأسواقها مسقفة بالخشب فأهلها دائماً في ظل ممدود وقيساريته لا تماثل حسنا وكبراً وهي تحيط بمسجدها وكل سماء منها محاذ لباب من أبواب المسجد ومسجدها الجامع من أجمل المساجد في صحته بركة ماء ويطيف به بلاط عظيم الاتساع ومنبرها بديع العمل مرصع بالعاج والآبنوس وقرب جامعها مدرسة مناسبة له في حسن الوضع وإتقان الصنعة ينسب لأمرأى بنى حمدان وبالبلد سواها ثلاث مدارس وبها مارستان وأما خارج المدينة فهو بسيط أفيع عريض به المزارع العظيمة وشجرات الأعناب منتظمة به والبساتين على شاطئ نهرها وهو النهر الذي يمر بجها ويسمى العاصي وقيل أنه سمي بذلك لأنه يخيل لناظره أن جريانه من أسفل إلى علو والنفس تجرد في خارج مدينة حلب انشراحاً وسروراً ونشاطاً لا يكون في سواها وهي من المدن التي تصلح للخلافة قال ابن جزى اطنبت الشعراء في وصف محاسن حلب وذكر دخلها وخارجها وفيها يقول أبو عبادة البحتري (كامل)

يأبرق أسفر عن فوق مطالي حلب فاعلى القصر من بطياس
عن منبت الورد المعصر صيغة في كل ضاحية وبجنى الآس
أرض إذا استوحشتكم بنذكر حشدت على فأكثر أينا سي
وقال فيها الشاعر المجيد أبو بكر الصنوبري (مقارب)

سقى حلب المزن مغنى حلب فكم وصلت طرباً بالطرب
وكم مستطاب من العيش لذ بها إذ بها العيش لم يستط
إذا نشر الزهر أعلامه بها ومطارفه والعذب
غدا وحواشيه من فضة تروق وأوساطه من ذهب

وقال فيها أبو العلاء المعري :

(خفيف)

حلب للوارد جنة عدن وهي للغادرين نار سمير
والعظيم العظيم يكبر في عينيه منها قدر الصغير الصغير
ففويق في انفس القوم بحر وحصة منه مكان ثبير

وقال فيها أبو الفتيان بن جبوس :

يا صاحبي إذا أعيانا كما سقمي فلقيناني نسيم الريح من حلب
من البلاد التي كان الصبا سكنها فيها وكان الهوا العزري من أربي

وقال فيها أبو الفتح كشاجم : (متقارب)

وما أمتعت جارها بلدة كما أمتعت حلب جارها
بها قد تجمع ما تشتهي فزرها فطوبى لمن زارها

وقال فيها أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي العنسي . (خفيف)

حادي العيس كم تذبذب المطايا سق بروحي من بعدهم في سباق
حلب إنها مقر غرامى ومرامى وقبلة الأشواق
لك خلا جوشن بطيئاس والعبد ومن كل وابل غيداق
كم بها مرتع لطرف وقلب فيه سقى المنى بكاس دهاق
وتغنى طيورها لارتياح وتثنى غصونها للعناق
وعلو الشهباء حيث استدارت انجم الأفق حولها كالنطاق

(رجع) وبحلب ملك الأمراء أرغون الدوادار أكبر أمراء الملك الناصر وهو من الفقهاء
موصوف بالعدل لكنه بخيل والقضاة بحلب أربعة المذاهب الأربعة فمنهم القاضي كمال
الدين بن الزملي كان شافعي المذهب عالي الهمة كبير القدر كريم النفس حسن الأخلاق متفنن
بالعلوم وكان الناصر قد بعث إليه ليواليه قضاء القضاة بحضرة ملكه فلم يرض له ذلك وتوفي
ببلييس وهو متوجه إليها ولما ولي قضاء حلب قصده الشعراء من دمشق وسواها وكان فيمن
قصده شاعر الشام شهاب الدين أبو بكر محمد بن الشيخ المحدث شمس الدين أبي عبد الله محمد بن
نباتة القرشي الأموي الفارقي فامتدحه بقصيدة حاوية حافلة أولها (كامل)

اسفت لفقدك جاق الفيحاء وتباشرت لقدمك الشهباء
وعلى دمشق وقدرحات كابة وعلا ربا حلب سنا وسناء
قد أشرقت دار سكنت فناءها حتى غدت ولنورها الآلاء
ياسائر اسقى المكارم والعلی بمن يبتخل عنده الكرماء
هذا كمال الدين لذ بجنابه تنعم فم الفضل والنعماء
قاضي القضاة أجل من أيامه تعنى بها الآيتام والفقراء
قاض زكا أصلا وفرعا فاعتلى شرفت به الأدباء والأبناء
من الاله على بنى حلب به لله وضع الفضل حيث يشاء

كشف المعنى فهمه وبيانه فكأنما ذاك الذكاء ذكاء
ياحكم الأحكام قدرك سابق عن أن تسرك رتبة شماء
إن المناصب دون همتك التي في الفضل دون محلها الجوزاء
لك في العلوم فضائل مشهورة كالصبح شق له الظلام ضياء
ومناقب شهد العدو بفضلها والفضل ماشهدت به الأعداء

وهي أزيد من خمسين بيتا وأجازه عليها بكسوة ودراهم وانتقد عليه الشعراء ابتداءه
بلفظ اسفت قال ابن جزى وليس كلامه في هذه القصيدة بذلك وهو في المقطعات أجود
منه في القصائد وإليه انتهت الرئاسة في الشعر على هذا العهد في جميع بلاد المشرق وهو
من ذرية الخطيب أبي يحيى عبد الرحيم بن نباتة من مشي الخطب الشميرة ومن بديع مقطعاته
في التورية قوله
(كامل)

علقتها غيداء حالية العلى تجنى على عقل المحب وقلبه
بخلت بلؤلؤ ثغرها عن لائم فعدت مطوقة بما بخلت به
(رجع) ومن قضاة حلب قاضى قضاة الحنفية الامام المدرس ناصر الدين بن العديم
حسن الصورة والسيرة أصيل مدينة حلب
(كامل)
تراه إذا ماجسته متمللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله

ومنهم قاضى قضاة المالكية لأذكره كان من الموثقين بمصر وأخذ الخطة عن غير
استحقاق ومنهم قاضى قضاة الحنابلة لأذكر اسمه وهو من أهل صالحة دمشق ونقيب
الأشراف بحلب بدر الدين بن الزهراء ومن فقهاء شرف الدين بن العجمي وأقاربهم
كبراء مدينة حلب - ثم سافرت منها إلى مدينة تبريز وهي على طريق قنسرين (وضبط
اسمها بقاء معلومة مكسورة وياء مد وزاى مكسورة وياء مد ثانية ونون) وهي حديثة اتخذها
التركان واسواقها حسان ومساجدها في نهاية من الاتقان وقاضيا بدر الدين العسقلاني
وكانت مدينة قنسرين قديمة كبيرة ثم خربت ولم يبق إلا رسومها ثم سافرت إلى مدينة
انطاكية وهي مدينة عظيمة أصلية وكان عليها سور محكم لا نظير له في أسوار بلاد الشام
فلما فتحها الملك الظاهر هدم سورها وانطاكية كثيرة العمارة ودورها حسنة البناء كثيرة
الأشجار والمياه وبخارجها نهر العاصي وبها قبر حبيب النجار رضى الله عنه وعليه زاوية
فيها الطعام للوارد والصادر شيخها الصالح المعمر محمد بن على سنة ينفى على المائة وهو تمتع
بقوته دخلت عليه مرة في بستان له وقد جمع خطبا ورفع على كاهله لياتى به منزله بالمدينة

ورأيت ابنه قد أناف على الثمانين إلا أنه محدودب الظهر لا يستطيع النهوض ومن يراهما يظن الوالد منهما ولدا والولد والدا — ثم سافرت إلى حصن بغراس (وضبط اسمه بباء موحدة مضمومة وغين معجمة مسكنة وراء وآخره سين مهملة) وهو حصن منيع لا يرام عليه البساتين والمزارع ومنه يدخل إلى بلاد سيس وهي بلاد كفار الأرمن وهم رعية للملك الناصر يؤدون إليه مالا ودراهم فضة خالصة تعرف بالغالية وبها تصنع الثياب الديزية وأمير هذا الحصن صارم الدين بن الشيباني وله ولد فاضل اسمه علاء الدين وابن أخ اسمه حسام الدين فاضل كريم يسكن الموضع المعروف بالرصص (بضم الراء والصاد المهمل الأول) ويحفظ الطريق إلى بلاد الأرمن.

(حكاية)

شكا الأرمن مرة إلى الملك ناصر من الأمير حسام الدين وزوروا عليه أمور لا تليق فنفذ أمره لأمير الأمراء بحلب أن يخنقه فلما توجه الأمير بلغ ذلك صديقاله من كبار الأمراء فدخل على الملك الناصر وقال ياخوندان الأمير حسام الدين هو من خيار الأمراء ينصح المسلمين ويحفظ الطريق وهو من الشجعان والأرمن يريدون الفساد في بلاد المسلمين فيمنعهم ويقهرهم وإنما أرادوا إضعاف شوكة المسلمين بقتله ولم يزل به حتى انفذ أمر اثنانيسراحه والخاع عليه وردده لموضعه ودعا الملك الناصر بريديا يعرف بالآفوش وكان لا يبعث إلا في مهم أمره بالأسراع والجد في السير فسار من مصر إلى حلب في خمس وهي مسيرة شهر فوجد أمير حلب قد أحضر حسام الدين وأخرجه إلى الموضع الذي يخنق به الناس فخلصه الله تعالى وعاد إلى موضعه ولقيت هذا الأمير ومعه قاضي بغراس شرف الدين الحموي بموضع يقال له العمق متوسط بين انطاكية وتيزين وبغراس ينزله التركان بمواشيهم لخصبه وسعته ثم سافرت إلى حصن القصير تصغير قصر وهو حصن حسن أميره علاء الدين السكردي وقاضيه شهاب الدين الأرمني من أهل الديار المصرية — ثم سافرت إلى حصن الشجر بكاس (وضبط اسمه بضم الشين المعجم وإسكان العين المعجم وضم الراء والباء الموحدة وآخره سين مهملة) وهو منيع في الرأس شاهق أميره سيف الدين الطنطاش فاضل وقاضيه جمال الدين بن شجرة من اصحاب ابن تيمية — ثم سافرت إلى مدينة صهيون وهي مدينة حسنة بها الأنهار المطردة والأشجار المورقة ولها قلعة جيدة وأميرها يعرف بالابراهيمى وقاضيه يحيى الدين الحمصي وبخار جهازاوية في وسط بستان فيها الطعام للوارد والصادر وهي على قبر الصالح العابد عيسى البدوي رحمه الله وقد زرت قبره ثم سافرت منها فمررت بحصن القدموس (وضبط اسمه بفتح القاف وإسكان الدال المهمل

وضم الميم وآخره سين مهملة (ثم بحصن المينقة (وضبط اسمه بفتح الميم واسكان الياء وفتح النون والقاف) ثم بحصن العليقة واسمه على لفظ واحدة العليق ثم بحصن مصياف (وصاده مهملة) ثم بحصن السكف وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الاسماعيلية ويقال لهم القداوية ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم وهم سهام الملك الناصر بهم يصيب من يعدو عنه من أعدائه بالعراق وغيرها ولهم المرتبات وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاه ديته فان سلم بعد تأتي ما يراد منه فهمي له وإن أصيب فهمي لولده ولهم سكاكين مسمومة يضربون بها من بعثوا إلى قتلهم وبما لم تصح حيلهم فقتلوا كما جرى لهم مع الأمير قراسنقور فانه لما هرب إلى العراق بعث إليه الملك الناصر جملة منهم فقتلوا ولم يقدرُوا عليه لآخذه بالحزم .

(حكاية)

كان قراسنقور من كبار الامراء ومن حضر قتل الملك الاشرف أخى الملك الناصر وشارك فيه ولما تمهد الملك للملك الناصر وقربه القرار واشتدت اواخى سلطانه جعل يتتبع قتلة أخيه فيقتلهم واحدا واحدا إظهاراً للأخذ بثأر أخيه وخوفاً أن يتجاسروا عليه بما تجاسروا على أخيه وكان قراسنقور أمير الامراء بحلب فسكتب الملك الناصر إلى جميع الامراء أن ينفروا بعساكرهم وجعل لهم ميعادا يكون فيه اجتماعهم بحلب ونزولهم عليها حتى يقبضوا عليه فلما فعلوا ذلك خاف قراسنقور على نفسه وكان له ثمانمائة مملوك فركب فيهم وخرج على العساكر صباحاً فاخترقهم وأعجزهم سبقاً وكانوا في عشرين الفاً وقصد منزل أمير العرب مهنابن عيسى وهو على مسيرة يومين من حلب وكان مهنابن في قنص له فقصد بيته ونزل عن فرسه وألقى العمامة في عنق نفسه ونادى الجوار يا أمير العرب وكانت هناك أم الفضل زوج مهنابن وبنت عمه فقالت له قد اجرناك واجرنا من معك فقال إنما أطلب أولادى ومالى فقالت له لك ماتحب فانزل في جوارنا ففعل ذلك واتى مهنابن فحسن نزله وحكمه في ماله فقال إنما أحب أهلى ومالى الذى تركته بحلب فدعا مهنابن باخوته وبني عمه فشاورهم في امره فمنهم من أجابه إلى ما اراد ومنهم من قال كيف نحارب الملك الناصر ونحن في بلاده بالشام فقال لهم مهنابن أما أنا فافعل لهذا الرجل ما يريد واذهب معه إلى سلطان العراق وفى اثناء ذلك ورد عليهم الخبر بان أولاد قراسنقور سيروا على البريد إلى مصر فقال مهنابن قراسنقور اما أولادك فلاحيلة فيهم واما مالك فنجتهد في خلاصه فركب فيمن أطاعه من أهله واستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين الفاً وقصدوا حلب فاحرقوا باب قلعتها وتغلبوا عليها واستخلصوا منها مال قراسنقور ومن بقى من أهله ولم

يتعدوا إلى سوى ذلك وقصدوا ملك العراق وصحبهم أمير حمص الأفرم ووصلوا إلى الملك محمد خدا بنده سلطان العراق وهو بموضع مصيفه تسمى قرا باغ (بفتح القاف والراء والباء الموحدة والغين المعجمة) وهو ما بين السلطانية وتبريز فأكرم نزلهم وأعطى منها عراق العرب وأعطى قرا سنقور مدينة مراغة من عراق العجم وتسمى دمشق الصغيرة وأعطى الأفرم همدان وأقام عنده مدة مات فيها الأفرم وعاد منها إلى الملك الناصر بعد موافيق وعمودا أخذها منه وبقي قرا سنقور على حاله وكان الملك الناصر يبعث له الفداوية مرة بعد مرة فمنهم من يدخل عليه داره فيقتل دونه ومنهم من يرمى بنفسه عليه وهو راكب فيضربه وقتل بسببه من الفداوية جماعة وكان لا يفارق الدرع أبدا ولا ينام إلا في البيت العود والحديد فلما مات السلطان محمد وولى ابنه أبو سعيد وقع ما سئد كره من أمر الجوبان كبير أمرائه وفرار ولده الدمر طاش إلى الملك الناصر ووقعت المراسلة بين الملك الناصر وبين أبي سعيد وانفقا على أن يبعث أبو سعيد إلى الملك الناصر برأس قرا سنقور ويبعث إليه الملك الناصر برأس الدمر طاش فبعث الملك الناصر برأس الدمر طاش إلى أبي سعيد فلما وصله أمر بحمل قرا سنقور إليه فلما عرف قرا سنقور بذلك أخذ خاتما كان له بجوفا في داخله سم نافع فنزع فسه وامتص ذلك السم فمات لحينه فعرف أبو سعيد بذلك الملك الناصر ولم يبعث له برأسه ثم سافرت من حصون الفداوية إلى مدينة جبلة وهي ذات أنهار مطردة وأشجار البحر على نحو ميل منها وبها قبر الولي الصالح الشهير إبراهيم بن آدم رضى الله عنه وهو الذى نبذ الملك وانقطع إلى الله تعالى حسبا شهر ذلك ولم يكن إبراهيم من بيت ملك كما يظنه الناس إنما ورث الملك عن جده أى أمه وأما أبوه آدم فكان من الفقراء الصالحين السائحين المتبعدين الورعين المنقطعين

(حكاية آدم)

يذكر أنه مر ذات يوم ببساتين مدينة بخارى وتوضأ من بعض الأنهار التى تتخللها فإذا بتفاحة يحملها ماء النهر فقال هذه لا خطر لها فأكلها ثم وقع في خاطره من ذلك وسواس فعزم على أن يستحل من صاحب البستان فقرع باب البستان فخرجت إليه جارية فقال أدعى لى صاحب المنزل فقالت أنه لا امرأة فقال استأذنى لى عاها ففعلت فأخبر المرأة بخبر التفاحة فقالت له إن هذا البستان نصفه لى ونصفه للسلطان والسلطان يومئذ يباغ وهو على مسيرة عشرة من بخارى وأحاطته المرأة من نصفها وذهب إلى باغ فاعترض السلطان فى موكبه فأخبره الخبر واستحله فأمره أن يعود إليه من الغد وكان للسلطان بنت بارعة الجمال قد خطبها أبناء الملوك فتمنعت

وحببت إليها العبادة وحب الصالحين وهي تحب أن تتزوج من ورع زاهد في الدنيا فلما عاد السلطان إلى منزله أخبر ابنته بخبر أدهم وقال ما رأيت أروع من هذا يأتي من بخارى إلى بلخ لأجل نصف تفاحة فرغبت في تزوجه فلما أتاه من الغد قال لأهلك إلا أن تتزوج ببنتي فأنقاد لذلك بعد استعصاء وتمنع فتزوج منها فلما دخل عليها وجدها متزينة والبيت مزين بالفرش وسواها فعمد إلى ناحية من البيت وأقبل على صلاته حتى أصبح ولم يزل كذلك سبع ليال وكان السلطان ما أحله قبل فبعث إليه أن يحمله فقال لأهلك حتى يقع اجتماعك بزوجتك فلما كان الليل واقعها ثم اغتسل وقام إلى الصلاة فصاح صيحة وسجد في مصلاه فوجد ميتا رحمه الله وحملت منه فولدت لإبراهيم ولم يكن لجدته ولد فأسند الملك إليه وكان من تخليه عن الملك ما اشتهر وعلى قبر إبراهيم بن أدهم زاوية حسنة فيها بركة ماء وبها الطعام للصادر والوارد وخادمها إبراهيم الجحى من كبار الصالحين والناس يقصدون هذه الزاوية ليلة النصف من شعبان من سائر أقطار الشام وقيّمون بها ثلاثا ويقوم بها خارج المدينة سوق عظيم فيه من كل شيء ويقدم الفقراء المتجردون من الآفاق بحضور هذا الموسم وكل من يأتي من الزوار لهذه التربة يعطى لخادمها شعبة فيجتمع من ذلك قناطير كثيرة وأكثر أهل هذه السواحل هم الطائفة النصيرية الذين يعتقدون أن علي ابن أبي طالب إله وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يصومون وكان الملك الظاهر الزمهم ببناء المساجد بقراهم فبنوا بكل قرية مسجدا بعيدا عن العماراة ولا يدخلونه ولا يعمرونه وربما أوت إليه مواشيهم ودوابهم وربما وصل الغريب إليهم فينزل بالمسجد ويؤذن إلى للصلاة فيقولون لا تنهق عليك يأتيك وعددهم كثير

(حكاية)

ذكر لي أن رجلا مجهولا وقع ببلاد هذه الطائفة فادعى الهداية وتكاثروا عليه فوعدهم بتملك البلاد وقسم بينهم بلاد الشام وكان يعين لهم البلاد بامرهم بالخروج إليها ويعطيهم من ورق الزيتون ويقول لهم استظفروا بها فإنها كالأوامر لكم فإذا خرج أحدهم إلى بلد حضره أميرها فيقول له إن الإمام المهدي أعطاني هذا البلد فيقول له أين الأمر فيخرج ورق الزيتون فيضرب ويحبس ثم إن أمرهم بالتجهيز لقتال المسلمين وإن يبدأوا بمدينة جبلة وأمرهم أن يأخذوا عوض السيوف قضبان الآس ووعدهم أنها تصير في أيديهم سيوفاً عند القتال فغدروا مدينة جبلة وأهلها في صلاة الجمعة فدخلوا الدور وهتكوا الحريم ونار المسلمون من مسجدهم فأخذوا السلاح وقتلوهم كيف شاءوا وتصل الخبر باللاذقية فأقبل أميرها يهادر عبيد الله

بعساكره وطيرت الحمام إلى طرابلس فاني أمير الأمراء بعساكره واتبعوه حتى قتلوا منهم نحو عشرين الفا وتحصن الباقيون بالجبال وراسلوا ملك الأمراء والتزموا أن يعطوه دينارا عن كل رأس ان هو حاول ابقاءهم وكان الخبر قد طير به الحمام إلى الملك الناصر وصدر جوابه ان يحمل عليهم السيف فراجعهم ملك الأمراء والقي له انهم عمال المسلمين في حراثة الأرض وانهم ان قتلوا ضعف المسلمون لذلك فامر بالابقاء عليهم - ثم سافرت إلى مدينة اللاذقية وهي مدينة عتيقة على ساحل الحذر يزعمون أنها مدينة الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا وكنت إنما قصدتها لزيارة الولي الصالح عبد المحسن الأسكندري فلما وصلتها وجدته غائبا بالحجاز الشريف فلقيت من أصحابه الشيخين الصالحين سعيد البجائي ويحيى السلاوي وهما بمسجد علاء الدين ابن البهاء أحد فضلاء الشام وكبرائها صاحب الصدقات والمكارم وكان قد عمر لها زاوية بقرب المسجد وجعل بها الطعام للوارد والصادر وقاضها الفقيه الفاضل جلال الدين عبد الحق المصري المالكي فاضل كريم تعلق بطيلان ملك الأمراء فولاه قضاءها

(حكاية)

كان باللاذقية رجل يعرف بابن المؤيد هجاء لا يسلم احد من لسانه متهم في دينه مستخف يتكلم بالقبايح من الاتحاد فعرضت له حاجة عند طيلان ملك الأمراء فلم يقضها له فقصد مصر وتقول امورا اشيعة وعاد إلى اللاذقية فكتب طيلان إلى القاضي جلال الدين ان يتحيل في قتله بوجه شرعي فدعاه القاضي إلى منزله وبأخيه واستخرج كما من الحادة فتكلم بعظائم ايسرها يوجب القتل وقد اعد القاضي الشهود وخلف الحجاب ليكتبوا عقدا بمقاله وثبت عند القاضي وسجن واعلم ملك الأمراء بقضيته ثم اخرج من السجن وخنق على بابه ثم لم يلبث ملك الأمراء طيلان ان عزل عن طرابلس ووايها الحاج قرطية من كبار الأمراء ومن تقدمت له فيها الولاية وبينه وبين طيلان عداوة فجعل يتبع سقطاته وقام لديه أخوة ابن المؤيد شاكين القاضي جلال الدين فامر به وبالشهود الذين شهدوا على ابن المؤيد فاحضروا أوامر بخنقه واخرجوا إلى ظاهر المريثة حيث يخنق الناس واجلس كل واحد تحت مخنقه ونزعت عما ثمهم ومن عادة أمراء تلك البلاد انه متى امر احدهم بقتل احد من الناس يمر الحاكم من مجلس الأمير سبقا على فرسه إلى حيث المأمور بقتله ثم يعود إلى الأمير فيكررا استدنا نه يفعل ذلك ثلاثا فاذا كان بعد الثلاث انفذ الأمر فلما فعل الحاكم ذلك قامت الأمراء في المرة الثالثة وكشفوا رؤسهم وقالوا ايها الأمير هذه سبة في الاسلام يقتل القاضي والشهود فقبل الأمير شفاعتهم وخلي سيبلهم

وبخارج اللاذقية الدير المعروف بدير الفاروص وهو أعظم دير بالشام ومصري سكنه
الرهبان ويقصده النصارى من الافاق وكل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيقونه
وطعامهم الخبز والخبز والزيتون والخل والبكر وميناء هذه المدينة عليها سلسلة بين برجين
لا يدخلها أحد ولا يخرج منها حتى تحيط له السلسلة وهي من أحسن المراسى بالشام - ثم
سافرت إلى حصن المرقب وهو من الحصون العظيمة يماثل حصن الكرك وميناء على جبل
شامخ وخارجة ربض ينزله الغرباء ولا يدخلون قلعته وافتتحه من يدى الروم الملك
المنصور قلاوون وعليه ولد ابنه الملك الناصر وكان قاضيه برهان الدين المصرى من
أفاضل القضاة وكرمائهم ثم سافرت إلى الجبل الاقارع وهو أعلى جبل بالشام وأول
ما يظهر منها من البحر وسكانه التركمان وفيه العيون والأنهار وسافرت منه إلى جبل لبنان
وهو من أخصب جبال الدنيا فيه أصناف الفواكه وعيون الماء والظلال الوافرة ولا يخلو
من المنقطعين إلى الله تعالى والزهاد والصالحين وهو شهر بذلك ورأيت به جماعة من
الصالحين قد انقطعوا إلى الله تعالى فمن لم يشتهر اسمه

(حكاية)

أخبرني بعض الصالحين الذين لقيتهم به قال كنا بهذا الجبل مع جماعة من الفقراء
أيام البرد الشديد فأوقدنا نارا عظيمة وأحدقنا بها فقال بعض الحاضرين يصلح لهذه
النار ما يشوى فيها فقال أحد الفقراء ممن تزدرى الأعين ولا يعبأ به إنى كنت عند
صلاة العصر بمتعبد لإبراهيم بن أدهم فرأيت بمقربة منه حمار وحش قد أحدق الشالج به
من كل جانب وأظنه لا يقدر على الحراك فلو ذهبتم اليه لقد رتم عليه وشويتم لحمه في
هذه النار قال فقمنا اليه في خمسة رجال فلقيناه كما وصف اليينا فقبضناه وأتيناه به أصحابنا
وذبحناه وأشويناه لحمه في تلك النار وطلبنا الفقير الذى نبه عليه فلم نجده ولا وقعنا له
على أثر فطال عجبنا منه ثم وصلنا من جبل لبنان إلى مدينة بعلبك وهي حسنة قديمة
من أطيب مدن الشام تحديق بها البساتين الشريفة والجنان المنيفة وتخرق أرضها الأنهار
الجارية وتضاهى دمشق في خيراتها المتناهية وبها من حب الملوك ما ليس في سواها وبها
يصنع الدبس المنسوب اليها وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب ولحم تربة يضعونها
فيه فيجمدو وتسكس القلة التى يكون بها فيبقى قطعة واحدة وتصنع منه الحلواء ويجعل
فيها الفستق واللوز ويسمونها حلواء بالملبن ويسمونها أيضا بجلد الفرس وهي كثيرة
الألبان وتجلب منها إلى دمشق وبينهما مسيرة يوم للمجد وأما الرفاق فيخرجون من
بعلبك فيبيتون ببلدة صغيرة تعرف بالزبداني كثيرة الفواكه ويغدون منها إلى دمشق *

ويصنع بعلبك الثياب المنسوبة اليها من الاحرام وغيره ويصنع بها أواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد وهم يسمون الصحف بالدسوت وربما صنعوا الصحيفة وصنعوا صحيفة أخرى تسع في جوفها وأخرى في جوفها إلى أن يبلغوا العشرة يخيل لرائيها أنها صحيفة واحدة وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرة واحدة في جوف واحدة ويصنعون لها غشاء من جلد ويمسكها الرجل في حزامه وإذا حضر طعاما مع أصحابه أخرج ذلك فيظن رائيه أنها ملعقة واحدة ثم يخرج من جوفها تسعة وكان دخولي لبلبك عشية النهار وخرجت منها بالغد ولفرط اشتياقي إلى دمشق وصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم عام ستة وعشرين إلى مدينة دمشق الشام فنزلت منها بمدرسة المالكية المعروفة بالشرابية ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسنا وتقدمها جمالا وكل وصف وإن طال فهو قاصر عن محاسنها ولا أبداع مما قاله أبو الحسين ابن جبير رحمه الله تعالى في ذكرها قال وأما دمشق فهي جنة المشرق ومطلع نورها المشرق وخاتمة بلاد الاسلام متى استقر بناها . وعروس المدن التي اجتلبناها . قد تحلت بأزاهير الرياحين وتجلت في حال سندسية من البساتين . وحلت موضع الحسن بالمسكان المسكين . وتزينت في منصتها أجمل تزيين . وتشرفت بأن آوى المسيح عليه السلام وأمه منها إلى ربوة منها ذات قرار معين . وظل ظليل . وماء سلسيل . تنساب مذابه انسياب الأرقام بكل سبيل . ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل . تنبرج لناظريها بمجتلى صقيل وتناديهم هادوا إلى معرس للحسن ومقيل . وقد سثمت أرضها كثرة الماء . حتى اشتاقت إلى الظاء . فتكاد تناديك بها الصم والصلاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب وقد احدثت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر والآكام بالثر . وامتدت بشرقها غوطتها الخضراء امتداد البصر . وكل موضع لحظت بجانبها الأربع نضرتة اليانعة قيد البصر . والله صدق القائلين عنها . ان كانت الجنة في الأرض فدمشق لاشك فيها . وإن كانت في السماء فهي تسامها وتحاذيها ، قال ابن جزى وقد نظم بعض شعرائها في هذا المعنى فقال :

ان تسكن جنة الخلود بأرض فدمشق ولا تكون سواها
أو تسكن في السماء فهي عالمها قد أبدت هواها وهواها
بلد طيب ورب غفور فاغتنمها عشية وضحاها

وذكرها شيخنا المحدث الرحال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر بن حسان القيسي الوادي أشي نزيل تونس ونص كلام ابن جبير ثم قال ولقد أحسن فيما وصف

منها وأجاد ، وتوق الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد . هذا وإن لم تكن له بها إقامة .
 فيهرب عنها بحقيقة علامة . ولا وصف ذهبيات أصيلها . وقد حان من الشمس غروبها
 ولا أزمان جفولها المنوعات ، ولا أوقات شرورها المنهات ، وقد اختص من قال الفيتها
 كما تصف الألسن . وفيها ما تشتهيبه الأنفس وتلذ الأعين . قال ابن جزي والذي قالته
 الشعراء في وصف محاسن دمشق لا يحصر كثرة وكان والذي رحمه الله كثيرا ما ينشد في
 وصفها هذه الأبيات وهي لشرف الدين بن محسن رحمه الله تعالى (طويل)

دمشق بنا شوق إليها مبرح وإن لج واش أو ألح عذول
 بلادها الخصباء درر وترها عبير وأنفاس الشمال شمول
 تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق وصح نسيم الروص وهو عليل

وهذا من النظم العالي من الشعر وقال فيها عرقله الدمشقي السكبي (كامل)
 الشام شامة وجنة الدنيا كما لإنسان مقلتها الغضبيضة جلاق
 من آسها لك جنة لا تنقضي ومن الشقيق جهنم لا تحرق
 وقال أيضا فيها :

أما دمشق فجنات معجلة للطالبيين بها الولدان والخور
 ما صاح فيها على أوتاره قر إلا يغنيه قمرى وشحرورى
 يا حبذا ودروع الماء تنسجها أنامل الريح إلا أنها زور

وله فيها أشعار كثيرة سوى ذلك وقال فيها أبو الوحش سبع بن خلف الأسدي (رجز)

سقى دمشق الله غيثا محسنا من مستهل ديمة دهاقها
 مدينة ليس يضاهي حسنها فى سائر الدنيا ولا آفاقها
 تود زوراء العراق أنها منها ولا تعزى الى عراقها
 فأرضها مثل السماء بهجة وزهرها كالزهر فى اشراقها
 نسيم روضها متى ما قد سرى فانك اخا الموم من وثاقها
 قد رتع الربيع فى ربوعها وسيقت الدنيا الى أسواقها
 لا تسام العيون والأنوف من رؤيتها يوما ولا استنشقها

ومما يناسب هذا للقاضى الفاضل عبد الرحمن البيسانى فيها من قصيدة وقد نسبت
 أيضا لابن المنير (كامل)

يا برق هل لك فى احتمال تحية عذبت فصارت مثل مائك ساسلا

باكر دمشق بمشق الحيا زهر الرياض مرصعاً ومكلا
 واجر ريجيرون ذبولك واختصص مغنى تآزر بالعلل وتسربلا
 حيث الحيا الربعى محلول الحيا والوايل الربعى مغرى الكلا
 وقال فيها أبو الحسن علي بن موسى سعد العنسى الغرناطى المدعو نور الدين (بسيط)

دمشق منزلنا حيث النعم بدا مكلا وهو فى الآفاق مختصر
 القصب راقصة والطير صادحة والزهر مرتفع والماء منحدر
 وقد تجلت من اللذات أوجمها لسكنها بظلال الدوح تستتر
 وكل واد به موسى يفجره وكل روض على حافات الخضر

وقال أيضا فيها

خيم بجلق بين الكاس والوتر فى جنة هى ملء السمع والبصر
 ومتع الطرف فى مرأى محاسنه وروض الفكر بين الروض والنهر
 وانظر إلى ذهبيات الأصيل بها واسمع الى نغمت الطير فى الشجر
 وقل لمن لام فى لذاته بشرا دعنى فانك عندى من سوقة البشر

وقال أيضا فيها

(كامل)

أما دمشق فجنة ينسى بها الوطن الغريب
 لله أيام السبوت بها ومنظرها العجيب
 انظر بعينك هل ترى الا محبسا أو حبيب
 فى موطن غنى الحمام به على رقص القصيب
 وغدت أزاهر روضه تختال فى فرح وطيب

وأهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملا انما يخرجون إلى المتنزهات وشطوط الأنهار
 ودوحات الأشجار بين البساتين النضرة والمياه الجارية فيسكونون بها يومهم الى الليل
 وقد طال بنا الكلام فى محاسن دمشق فليرجع إلى كلام الشيخ أبى عبد الله

(ذكر جامع دمشق المعروف بجامع بنى أمية)

وهو اعظم مساجد الدنيا احتفالا واتقنها صناعة وابدعها حسنا وبهجة وكما لا يعلم له
 نظير ولا يوجد له شبيهه وكان الذى تولى بناءه وإتقانه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن
 مروان ووجه الى ملك الروم بقسطنطينية يأمره ان يبعث اليه الصناع فيبعث اليه اثني عشر
 ألف صانع وكان موضع المسجد كنيسة فلما افتتح المسلمون دمشق دخل خالد بن الوليد

رضى الله عنه من إحدى جهاتها بالسيف فانتهى إلى نصف الكنيسة ودخل أبو عبيدة ابن الجراح رضى الله عنه من الجهة الغربية صلحا فانتهى إلى نصف الكنيسة فصنع المسلمون من نصف الكنيسة الذى دخلوه عنوة مسجداً وبقي النصف الذى صالحوا عليه كنيسة فلما عزم الوليد على زيادة الكنيسة فى المسجد طلب من الروم ان يبيعوا له كنيستهم تلك بما شاءوا من عوض فأبوا عليه فانتزعها من ايديهم وكانوا يزعمون ان الذى يهدمها يجن فذكروا ذلك للوليد فقال انا اول من يجن فى سبيل الله وأخذ الفأس وجعل يهدم بنفسه فلما رأى المسلمون ذلك تناهوا على الهدم واكذب الله زعم الروم وزين هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسفساء تخالطها أنواع الاصبغة الغربية الحسن وذرع المسجد فى الطول من الشرق إلى الغرب مائتا خطوة وهى ثلاثائة ذراع وعرضه من القبلة الى الجوف مائة وحس وثلاثون خطوة وهى مائتا ذراع وعدد شمسات الزجاج الملونة التى فيه أربع وسبعون وبلاطاته ثلاثة مستطيلة من شرق إلى غرب سعة كل بلاط منها ثمان عشرة خطوة وقد قامت على أربع وخمسين سارية وثمانى أرجل حصىة تتخللها وست أرجل مرخمة مرصعة بالرخام الملون قد صرر فيها أشكال محاريب وسواها وهى ثقل قبة الرصاص التى أمام المحراب المسماة بقبة النسر كأنهم شبهوا المسجد نسرا طائراً والقبة رأسه وهى من أعجب مباني الدنيا .

ومن أى جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ذاهبة فى الهواء منيفة على جميع مباني البلد وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من جهاته الشرقية والغربية والجوفية سعة كل بلاط منها عشر خطاً وبها من السوارى ثلاث وثلاثون ومن الأرجل أربع عشرة وسعة الصحن مائة ذراع وهو من أجمل المناظر وأتمها حسناً وبها يجتمع اهل المدينة بالعشايا فمن فارىء ومحدث ذاهب ويكون انصرافهم بعد العشاء الأخيرة وإذا لقى أحد كبارهم من الفقهاء وسواهم صاحباً له اسرع كل منهما نحو صاحبه وحيط رأسه وفى هذا الصحن ثلاث من القباب إحداها فى غربيه وهى اكبرها وتسمى قبة عائشة ام المؤمنين وهى قائمة على ثمان سوار من الرخام مزخرفة بالفصوص والاصبغة الملونة مسقفة بالرصاص .

ويقال ان مال الجامع كان يختزن بها وذكر لى ان فوائد مستغلات الجامع وجبايته نحو خمسة وعشرين ألف دينار ذهباً فى كل سنة والقبة الثانية من شرقى مصحن على هيئة الأخرى إلا انها اصغر منها قائمة على ثمان من سوارى الرخام وتسمى قبة زين العابدين والقبة الثالثة فى وسط الصحن وهى صغيرة مشتمة من رخام عجيب محكم الاصاق قائمة على أربع سوارى من الرخام الناصع وتحتها شبالك حديد فى وسطه انبوب

نحاس يمج الماء إلى علو فيرتفع ثم ينثني كأنه قضيب لجين وهم يسمونهم قفص الماء ويستحسن الناس وضع أفواههم فيه للشرب وفي الجانب الشرقى من الصحن باب يفهى إلى مسجد بديع الوضع يسمى مشهد على بن أبو طالب رضى الله عنه ويقابله من الجهة الغربية حيث يلتقى البلاطان الغربى والجوفى موضع يقال ان عائشة رضى الله عنها سمعت الحديث هنالك .

وفي قبة المسجد المقصورة العظمى التى يؤم فيها امام الشافعية وفى الركن الشرقى منها إزاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذى وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى الشام وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على ائتم ذلك المصحف الكريم وهنالك يحلف الناس غراماً هم ومن ادعوا عليه شيئاً وعن يسار المقصورة محراب الصحابة ويذكر أهل التاريخ انه أول محراب وضع فى الاسلام وفيه يؤم امام المالكية وعن يمين المقصورة محراب الحنفية وفيه يؤم امامهم ويليه محراب الحنابلة وفيه يؤم امامهم ولهذا المسجد ثلاث صوامع إحداها بشرقيه وهى من بناء الروم وبابها داخل المسجد وبأسفلها مطهرة وبيوت للوضوء يغتسل فيها المعتكفون والملتزمون بالمسجد ويتوضئون .

والصومعة الثانية بغربيه وهى أيضاً من بناء الروم .

والصومعة الثالثة بشماله وهى من بناء المسلمين وعدد المؤذنين به سبعون مؤذناً وفى شرقى المسجد صومعة كبيرة فيها صريح ماء وهى لطائفة الزيا لعة السودان وفى وسط المسجد قبر زكريا عليه السلام وعليه تابوت معترض بين اسطوانتين مكسو بثوب حرير أسود معلم فيه مكتوب بالابيض (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى) وهذا المسجد شهير الفضل وقرأت فى فضائل دمشق عن سفيان الثورى ان الصلاة فى مسجد دمشق بثلاثين الف صلاة وفى الأثر عن النبى ﷺ أنه قال يعبد الله فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة ويقال ان الجدار القبلى منه وضعه نبى الله هود عليه السلام وان قبره به وقد رأيت على مقربة من مدينة ظفار اليمن بموضع يقال له الأحقاف بنية فيها قبر مكتوب عليه هذا قبر هود بن عابر ﷺ ومن فضائل هذا المسجد انه لا يخلو عن قراءة القرآن والصلاة إلا قليلاً من الزمان كما سئذ كره والناس يجتمعون به كل يوم أثر صلاة الصبح فيقرأون سبعاً من القرآن ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية يقرأون فيها من سورة الكوثر إلى آخر القرآن وللمجتمعين على هذه القراءة مرتبات تجرى لهم وهم نحو ستائة انسان ويدور عليه كاتب الغيبة فمن غاب منهم قطع له عند دفع المرتب بقدر غيبته وفى هذا المسجد جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه مقبلون على الصلاة والقراء والذكر لا يفترون

عن ذلك ويتوضئون من المطاهر التي بداخل الصومعة الشرقية التي ذكرناها وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيئاً من ذلك ، وفي هذا المسجد أربعة أبواب باب قبلي يعرف بباب الزيادة وبأعلاه قطعة من الرمح الذي كانت فيه راية خالد بن الوليد رضى الله عنه ، ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين وغيرهم ومنه يذهب إلى دار الخيل وعن يسار الخارج منه سماط الصغارين وهي سوق عظيمة تمتد مع جدار المسجد القبلي من أحسن أسواق دمشق وبموضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه ودور قومه وكانت تسمى الخضراء فهدمها بنو العباس رضى الله عنهم وصار مكانها سوقاً ، وباب شرقي وهو أعظم أبواب المسجد ويسمى بباب جيرون وله دهليز عظيم يخرج منه إلى بلاط عظيم طويل أمامه خمسة أبواب لها ستة أعمدة طوال وفي جهة اليسار منه مشهد عظيم كان فيه رأس الحسين رضى الله عنه وبازائه مسجد صغير ينسب إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وبه ماء جار وقد انتظمت أمام البلاط درج ينحدر فيها إلى الدهليز وهو كالخندق العظيم يتصل بباب عظيم الارتفاع تحته أعمدة كالجدوع طوال وبجانب هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين وغيرهم وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتببيين وصناع أواني الزجاج العجيبة وفي الرحبة المتصلة بالباب الأول دكاكين لكبار الشهود ، منها دكانا للشافعية وسائرهما لأصحاب المذاهب يكون في الدكان منها الخمسة والستة من العدول والعافد للانسكحة من قبل القاضي وسائر الشهود مفترقون في المدينة وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون السكاغد والأقلام والمداد وفي الدهليز المذكور حوض من الرخام كبير مستدير عليه قبة لاسقف لها ثقلها أعمدة رخام وفي وسط الحوض أبواب نحاس يزعج الماء بقوة فيرتفع في الهواء أزيد من قامة الإنسان يسمونه الفوارة منظره عجيب وعن يمين الخارج من باب جيرون وهو باب الساعات غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتحة لها أبواب على عدد ساعات النهار والأبواب مصبوغ باطها بالخضرة وظاهرها بالصفرة فإذا ذهببت ساعة من النهار انقلب الباطن الأخضر ظاهراً والظاهر الأصفر باطناً ويقال أن بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عند مضي الساعات والباب الغربي يعرف بباب البريد وعن يمين الخارج منه مدرسة الشافعية وله دهليز فيه حوانيت للشامعين وسماط لبيع الفواكه وبأعلاه باب يصعد إليه في درج له أعمدة سامية في الهواء وتحت الدرج سقائتان عن يمين وشمال مستديرتان والباب الجنوبي يعرف بباب

النفطانيين واه دهليز عظيم وعن يمين الخارج منه خانقاة تعرف بالشميعانية في وسطها صهريج ماء ولها مظاهر بحرى فيها الماء ويقال أنها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وعلى كل باب من أبواب المسجد الأربعة دار وضوء يكون فيها نحو مائة بيت تجرى فيها المياه الكثيرة .

(ذكر الأئمة بهذا المسجد)

وأئمة ثلاثة عشر إماما أولهم الشافعية وكان في عهد دخولى إليها إمامهم قاضى القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى من كبار الفقهاء وهو الخطيب بالمسجد وسكنه بدار الخطابة ويخرج من باب الحديد إزاء المقصورة وهو الباب الذى كان يخرج منه معاوية وقد تولى جلال الدين بعد ذلك قضاء القضاة بالديار المصرية بعد أن أدى عنه الملك الناصر نحو مائة ألف درهم كانت ديناً عليه بدمشق وإذا سلم إمام الشافعية من صلاته أقام للصلاة إمام مشهد على ثم إمام مشهد الحسين ثم إمام مشهد الكلابة ثم إمام مشهد أبى بكر ثم إمام مشهد عثمان رضى الله عنهم أجمعين ثم إمام المالكية وكان إمامهم فى عهد دخولى إليها الفقيه أبو عمر بن الوليد بن الحاج التجيبى القرطبى الأصل الفرناطى المولد نزيل دمشق وهو يتناوب الإمامة مع أخيه رحمهما الله ثم إمام الحنفية وكان إمامهم فى عهد دخولى إليها الفقيه عماد الدين الحنفى المعروف بابن الرومى وهو من كبار الصوفية وله شياخة الخانقاه الخانوتية وله أيضا خانقاه بالشرف الأعلى ثم إمام الحنابلة وكان ذلك العهد الشيخ عبد الله السكفيىف أحد شيوخ القراء بدمشق ثم بعد هؤلاء خمسة أئمة لقضاء الفوائت فلانزال الصلاة فى هذا المسجد من أول النهار إلى ثلث الليل وكذلك قراءة القرآن وهذا من مفاخر الجامع المبارك .

(ذكر المدرسين والمعلمين به)

ولهذا المسجد حلقات للتدريس فى فنون العلم والمحدثون يقرءون كتب الحديث على كراسى مرتفعة وقراء القرآن يقرءون بالأصوات الحسنة صباحا ومساء وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سوارى المسجد يلقي الصبيان ويقرئهم وهم لا يكتبون القرآن فى الألواح تنزيها لكتاب الله تعالى وإنما يقرءون القرآن تلقينا ومعلم الخط غير معلم القرآن يعلمهم بكتب الأشعار وسواها فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب وبذلك جاد خطه لأن المعلم للخط لا يعلم غيره ومن المدرسين بالمسجد المذكور العالم الصالح برهان الدين بن الفركاح الشافعى ومنهم العالم الصالح نور الدهن أبو اليسر بن الصائغ من المشتهرين بالفضل والصلاح ولما ولي القضاء بمصر

جلال الدين القزويني وجهه إلى أبي اليسر الخلعة والأمر بقضاء دمشق فامتنع من ذلك ومنهم الإمام العالم شهاب الدين ابن جهيل من كبار العلماء هرب من دمشق لما امتنع أبو اليسر من قضائها خوفاً من أن يقلد القضاء فاتصل ذلك بالملك الناصر فولى قضاء دمشق شيخ الشيوخ بالديار المصرية قطب العارفين لسان المتكلمين علاء الدين القونوي وهو من كبار الفقهاء ومنهم الإمام الفاضل بدر الدين علي السخاوي رحمة الله عليهم أجمعين

(ذكر قضاة دمشق)

قد ذكرنا قاضي القضاة الشافعي بها جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني وأما قاضي المالكية فهو شرف الدين خطيب الفيوم حسن الصورة والهيئة من كبار الرؤساء وهو شيخ شيوخ الصوفية والنائب عنه في القضاء شمس الدين بن القفصي ومجلس حكمه بالمدرسة الصمصامية وأما قاضي قضاة الحنفية فهو عماد الدين الخوراني وكان شديد السطوة وإليه يتحاكم النساء وأزواجهن وكان الرجل إذا سمع اسم القاضي الحنفي انصف من نفسه قبل الوصول إليه وأما قاضي الحنابلة فهو الإمام الصالح عز الدين بن مسلم من خيار القضاة ينصرف على حمار له ومات بمدينة رسول الله ﷺ لما توجه للحجاز الشريف

(حكاية)

وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقي الدين بن تيمية كبير الشام يتكلم في الفنون إلا أن في عقله شيا وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم ويعظمهم على المنبر وتكلم مرة بأمر أنكره الفقهاء ورفعوه إلى الملك الناصر فأمر بأشخاصه إلى القاهرة وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر وتكلم شرف الدين الزواوي المالكي وقال إن هذا الرجل قال كذا وكذا وعدد ما أنكر على ابن تيمية وأحضر العقود بذلك ووضعها بين يدي قاضي القضاة وقال قاضي القضاة لابن تيمية ما تقول قال لا إله إلا الله فأعاد عليه فأجاب بمثل قوله فأمر الملك الناصر بسجنه فسجن أعواماً وصنف في السجن كتاباً في تفسير القرآن سماه البحر المحيط في نحو أربعين مجلداً ثم إن أمه تعرضت للملك الناصر وشكت إليه فأمر بإطلاقه إلى أن وقع منه مثل ذلك ثانية وكنت إذ ذاك بدمشق فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم فكان من جملة كلامه أن قال إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا ونزل درجة من درج المنبر فعارضه فقيه مالكي يعرف بابن الزهراء وأنكر ما تكلم به فقامت العامة إلى هذا الفقيه وضربوه بالأيدي والنعال ضرباً كثيراً حتى سقطت عمامته وظهر على راسه شاشية

حرير فأنكروا عليه لباسها واحتملوه إلى دار عز الدين بن مسلم قاضى الحنابلة فأمر بسجنه وعزله بعد ذلك فأنكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره ورفعوا الأمر إلى ملك الأمراء سيف الدين تنكيز وكان من خيار الأمراء وصلحائهم فكتب إلى الملك الناصر بذلك وكتب عقداً شرعياً على ابن تيمية بأمر منسكرة ، منها أن المطلق بالثلاث في كلمة واحدة لا يلزمه إلاطلاق واحدة ومنها المسافر الذى ينوى بسفره زيارة القبر الشريف زاده الله طيباً لا يقصر الصلاة وسوى ذلك ما يشبهه وبعث العقد إلى الملك الناصر فأمر بسجن ابن تيمية بالقلعة فسجن بها حتى مات فى السجن .

(ذكر مدارس دمشق)

اعلم أن للشافعية بدمشق جملة من المدارس أعظمها العادلية وبها يحكم قاضى القضاة وتقابلها المدرسة الظاهرية وبها قبر الملك الظاهر وبها جلوس نواب القاضى ومن نوابه نحر الدين القبطى وكان والده من كتاب القبط وأسلم ومنهم جمال الدين بن جملة وقد تولى قضاء قضاة الشافعية بعد ذلك وعزل لأمر أوجب عزله.

(حكاية)

كان بدمشق الشيخ الصالح ظهير الدين العجمى وكان سيف الدين تنكيز ملك الأمراء يتلذذه ويعظمه فحضر يوماً بدار العدل عند ملك الأمراء وحضر القضاة الأربعة فحكى قاضى القضاة جمال الدين بن جملة حكاية فقال له ظهير الدين كذبت فأنف القاضى من ذلك وامتعض له فقال للامير كيف يكذبنى بحضرتك فقال له الأمير احكم عليه وسلمه اليه وظنه أنه يرضى بذلك فلأيناله بسوء فأحضره القاضى بالمدرسة العادلية وضربه مائتى سوطوطيف به على حمار فى مدينة دمشق ومناد ينادى عليه فتى فرغ من ندائه ضربه على ظهره ضربة وهكذا العادة عندهم فباغ ذلك ملك الأمراء فأنكره أشد الإنكار وأحضر القضاة والفقهاء فأجمعوا على خطأ القاضى وحكمه بغير مذهبه فإن التعزير عند الشافعى لا يبالغ به الحد وقال قاضى المالكية شرف الدين قد حكى بتفسيره فكتب إلى الملك الناصر بذلك فعزله وللحنفية مدارس كثيرة وأكبرها مدرسة السلطان نور الدين وبها يحكم قاضى الحنفية والمالكية بدمشق ثلاث مدارس إحداها الصمصامية وبها سكن قاضى قضاة المالكية وقعوده للاحكام والمدرسة النورية عمرها السلطان نور الدين محمود بن زنكى والمدرسة الشراشبية عمرها شهاب الدين الشراشبي التاجر وللحنابلة مدارس كثيرة أعظمها النجمية .

« (ذكر ابواب دمشق) »

ولمدينة دمشق ثمانية أبواب منها باب الفراديس ومنها باب الجابية ومنها الباب الصغير وفيها بين هذين البابين مقبرة فيها العدد الجهم من الصحابة والشهداء فمن بعدهم قال محمد بن جزي لقد أحسن بعض المتأخرين من أهل دمشق في قوله

دمشق في أوصافها جنة خلد راضيه
أما ترى أبوابها قد جعلت ثمانية

(ذكر بعض المشاهد والمزارات بها)

فمنها بالمقبرة التي بين باس الجابية والباب الصغير قبر أم حنيفة بنت أبي سفيان أم المؤمنين وقبر أخيها أمير المؤمنين معاوية وقبر بلال مؤذن رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين وقبر أويس القرني وقبر كعب الأحبار رضي الله عنهما ووجدت في كتاب المعلم في شرح صحيح مسلم للقرطبي أن جماعة من الصحابة صحبهم أويس القرني من المدينة إلى الشام فتوفي في أثناء الطريق في بركة لأعمارة فيها ولا ماء فتحيروا في أمره فنزلوا فوجدوا حنوطا وكفنوا وماء فعجبوا من ذلك وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ثم ركبوا فقال بعضهم كيف ترك قبره بغير علامة فعادوا للموضع فلم يجدوا للقبر من أثر قال ابن جزي ويقال أن أويسا قتل بصفين مع علي عليه السلام وهو الأصح إن شاء الله ويلى باب الجابية باب شرقي عنده جبانة فيها قبر أبي بن كعب صاحب رسول الله ﷺ وفيها قبر العابد الصالح أرسلان المعروف بالبايز الأشهب .

« (حكاية في سبب تسميته بذلك) »

يحكى أن الشيخ الوالي أحمد الرفاعي رضي الله عنه كان مسكنه بأمر عبيدة بمرية من مدينة واسط وكانت بين ولي الله تعالى أبي مدين شعيب بن الحسين وبينه مؤاخاة ومراسلة ويقال إن كل واحد منهما كان يسلم على صاحبه صباحا ومساء فإرد عليه الآخر وكانت للشيخ أحمد نخيلات عند زاويته فلما كان في إحدى السنين جذها على عادته وترك عذقا منها وقال هذا برسم أخى شعيب فحج الشيخ أبو مدين تلك السنة واجتمعوا بالموقف الكريم بعرفة ومع الشيخ أحمد خديمه أرسلان فتفاوضا الكلام وحكى الشيخ حكاية العذق فقال له أرسلان عن أمرك ياسيدي آتية به فأذن له فذهب من حينه وأتاه به ووضع به بين أيديهما فاخبر أهل الزاوية أنهم رأوا عشبية يوم عرفة بازأ أشهب قد انقض على النخلة فقطع ذلك العذق وذهب به في الهواء وبغري دمشق جبانة تعرف بقبور الشهداء فيها قبر أبي الدرداء وزوجه أم الدرداء وقبر فضالة بن عبيد وقبر وائلة بن الأسقع وقبر سهل بن حنظلة من

الذين بايعوا تحت الشجرة رضى الله عنهم أجمعين وبقرية تعرف المنبيحة شرق دمشق وعلى أربعة أميال منها قبر سعد بن عباد رضى الله عنه وعليه مسجد صغير حسن البناء وعلى رأسه حجر مكتوب هذا قبر سعد بن عباد رأس الخزرج صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وبقره قبلى البلد وعلى فرسخ منها مشهد أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب من فاطمة عليهم السلام ويقال ان اسمها زينب وكنياها النبي ﷺ أم كلثوم لشبهها بخالتها أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ وعليه مسجد كبير وحوله مساكن وله أوقاف ويسميه أهل دمشق قبر الست أم كلثوم وقبر آخر يقال انه قبر سكينه بنت الحسين بن علي عليه السلام وبجامع النيرب من قرى دمشق في بيت بشرقية قبر يقال انه قبر أم مريم عليها السلام وبقرية تعرف بداريا غرب البلد وعلى أربعة أميال منها قبر أبي مسلم الخولاني وقبر أبي سليمان الداراني رضى الله عنهما ومن مشاهد دمشق الشهيرة البركة مسجد الاقدام وهو في قبلى دمشق على ميلين منها على قارعة الطريق الأعظم الآخذ إلى الحجاز الشريف والبيت المقدس وديار مصر وهو مسجد عظيم كثير البركة وله أوقاف كثيرة ويعظمه أهل دمشق تعظيما شديدا والاقدام التي ينسب اليها هي أقدام مصورة في حجر هناك يقال انها أثر قدم موسى عليه السلام وفي هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه كان بعض الصالحين يرى المصطفى ﷺ في النوم فيقول له ها هنا قبر أخى موسى عليه السلام وبقرية من هذا المسجد موضع يعرف بالكثيب الأخضر وبقرية من بيت المقدس واريحاء موضع يعرف بالكثيب الأحمر تعظمه اليهود .

(حكاية)

شاهدت أيام الطاعون الأعظم بدمشق في أواخر ربيع الثاني سنة تسع وأربعين من تعظيم أهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه وهو أن ملك الأمراء نائب السلطان أرغون شاه أمر مناديا ينادى بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام ولا يطبخون بالسوق فصام الناس ثلاثة أيام متوالية كان آخرها يوم الخميس ثم اجتمع الأمراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها في الجامع حتى غص بهم وباتوا ليلة الجمعة ما بين مصل وذاكر وداع — ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعا على أقدامهم وبأيديهم المصاحف والأمراء حفاة وخرج جميع أهل البلد ذكورا وإناثا صغارا وكبارا وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم ومعهم النساء والولدان وجميعهم باكون متضرعون إلى

الله بكتبه وأنبيائه وقصدوا مسجد الاقدام وأقاموا به في تضرعهم ودعاتهم إلى قرب الزوال وعادوا إلى البلد وصلوا الجمعة وخفف الله تعالى عنهم ما انتهى عدد الموتي إلى ألفين في اليوم الواحد وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر إلى أربعة وعشرين ألفا في يوم واحد وبالباب الشرقي من دمشق منارة بيضاء يقال انها التي ينزل عيسى عليه السلام عندها حسبما ورد في صحيح مسلم .

(ذكر أرباض دمشق)

وتدور بدمشق من جهاتها ماعدا الشرقية أرباض فسيحة الساحات دواخلها أملح من داخل دمشق لأجل الضيق الذي في سككها وبالجبهة الشمالية منها ربض الصالحية وهي مدينة عظيمة لها سوق لا نظير لحسنه وفيها مسجد جامع ومارستان وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر موقوفة على من أراد أن يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والسكران وتجري لهم ولبن يعلهم كفايتهم من المآكل والملابس وبداخل البلد أيضا مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجا وأهل الصالحية كلهم على مذهب الامام احمد بن حنبل رضي الله عنه

(ذكر قاسيون ومشاهده المباركة)

وقاسيون جبل في شمال دمشق والصالحية في سفحه وهو شهير بالبركة لأنه مصعد الانبياء عليهم السلام ومن مشاهده السكرية الغار الذي ولد فيه ابراهيم عليه السلام وهو غار مستطيل ضيق عليه مسجد كبير وله صومعة عالية ومن ذلك الغار رأى السكوكب والقمر والشمس حسبما ورد في السكتاب العزيز وفي ظهر الغار مقامه الذي كان يخرج اليه وقد رأيت ببلاذ العراق قرية تعرف ببرص (بضم الباء الموحدة وآخرها صاد مهملة) ما بين الحلة وبغداد يقال ان مولد ابراهيم عليه السلام كان بها وهي بمقربة من بلد ذي الكفل عليه السلام وبها قبره ومن مشاهده بالغرب منه مغارة الدم وفوقها بالجبل دم هابيل بن آدم عليه السلام وقد أبقى الله منه في الحجارة أثرا حمرا وهو الموضع الذي قتله أخوه به واجتره الى المغارة ويذكر أن نلك المغارة صلى فيها ابراهيم وموسى وعيسى وأيوب ولوط صلى الله عليهم أجمعين وعليها مسجد متقن البناء يصعد اليه على درج وفيه بيوت ومرافق للسكنى ويفتح في كل يوم اثنين وخميس والشمع والسرر تودق في المغارة ومنها كهف بأعلى الجبل ينسب لآدم عليه السلام وعليه بناء وأسفل منه مغارة تعرف بمغارة الجوع يذكر أنه آوى اليها سبعون من الانبياء عليهم السلام وكان عندهم رغيف قلم يزل يدور عليهم وكل منهم يؤثر صاحبه به حتى ماتوا جميعاً صلى الله عليهم وعلى هذه المغارة مسجد

مبنى والسرّج توقدفيه ليلا ونهارا ولكل مسجد من هذه المساجد أوقاف كثيرة معينة
ويذكر أن فيا بين باب الفرديس وجامع قاسيون مدفن سبعمائة نبي وبعضهم يقول سبعمين
ألفا وخارج المدينة المقبرة العتيقة وهي مدفن الأنبياء والصالحين وفي طرفها مما يلي
البساتين أرض منخفضة غاب عليها الماء يقال انها مدفن سبعمين نبيا وقد عادت قرارا للماء
ونزهت من أن يدفن فيها أحد

(ذكر الربوة والقرى التي تواليها)

وفي آخر جبل قاسيون الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله ذات القرار المعين وماوى
المسيح عيسى عليهما السلام وهي من أجمل مناظر الدنيا ومنتزهاتها وبها القصور المشيدة
والمباني الشريفة والبساتين البديعة والمأوى المبارك مغارة صغيرة في وسطها كالبيت
الصغير وازاءها بيت يقال انه مصلى الخضر عليه السلام يبادر الناس إلى الصلاة فيها
والمأوى باب حديد صغير والمسجد يدور به وله شوارع دائرة وساقية حسنة ينزل لها
الماء من علو وينصب في شاذروان في الجدار يتصل بحوض من رخام ويقع فيه الماء
ولا نظير له في الحسن وغرابة الشكل وبقرب ذلك مظاهر للوضوء يجرى فيها الماء وهذه
الربوة المباركة هي رأس بساتين دمشق وبها منابع مياهها وينقسم الماء الخارج منها على
سبعة أنهار كل نهر أخذ في جهة ويعرف ذلك الموضع بالمقاسم وأكبر هذه الأنهار
النهر المسمى بتورة وهو يشق تحت الربوة وقد نحت له مجرى في الحجر الصلد كالغار
الكبير وربما انغمس ذو الجسارة من العوامين في النهر من أعلى الربوة واندفع في
الماء حتى يشق مجراه ويخرج من أسفل الربوة وهي مخاخرة عظيمة وهذه الربوة تشرف
على البساتين الدائرة بالبلد ولها من الحسن واتساع مسرح الأبصار ما ليس لسواها وتلك
الأنهار السبعة تذهب في طرق شتى فتجار الأعين في حسن اجتماعها واقتراقها واندفاعها
وانصبابها وجمال الربوة وحسنها التام أعظم من أن يحيط به الوصف ولها الأوقاف
الكثيرة من المزارع والبساتين والرباع تقام منها وظائفها الإمام والمؤذن والصادر
والوارد وبأسفل الربوة قرية الثيرب وقد تكاثرت بساتينها وتكاثفت ظلالها وتدانى
أشجارها فلا يظهر من بنائها إلا ما سما ارتفاعه ولها حمام مليح ولها جامع بديع مفروش
صحنه بفصوص الرخام وفيه سقاية رائعة الحسن ومطهره فيها بيوت عدة يجرى فيها
الماء وفي القبلى من هذه القرية قرية المزة وتعرف بمزة كلب نسبة إلى قبيلة كلب بن وبرة بن
ثعلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وكانت أقطاعا لهم واليها ينسب الإمام حافظ
الدنيا جمال الدين يوسف بن الزكي الكلبى المزى وكثير سواه من العلماء وهي من أعظم

قرى دمشق بها جامع كبير عجيب وسقاية معينة وأكثر قرى دمشق فيها الحمامات والمساجد الجامعة والأسواق وسكانها كأهل الحاضرة في مناحيهم وفي شرق البلد قرية تعرف ببليت الالهية وكانت فيها كنيسة يقال إن آزر كان يجلب فيها الأصنام فيكسرها الخليل عليه السلام وهي الآن مسجد جامع بديع مزين بقصوص الرخام الملونة المنظمة بأعجب نظام وأزين التثام

(ذكر الأوقاف بدمشق وبعض فضائل أهلها وعوائدهم)

والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن وهي اللواتي لا قدرة لاهلن على تجهيزهن ومنها أوقاف لفكك الأسارى ومنها أوقاف لا بناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليهما المترجلون ويمر الركبان بين ذلك ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير

(حكاية)

مررت يوما ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صحيفة من الغنخار الصينى وهم يسمونها الصحن فتسكرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم اجمع شقفهم واحملهم معك لصاحب أوقاف الاوانى فجمعهما وذهب الرجل معه اليه فأراه إياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن وهذا من أحسن الاعمال فان سيد الغلام لا بد له أن يضرب به على كسر الصحن أو ينهره وهو أيضا ينكسر قلبه ويتغير لاجل ذلك فكان هذا الوقف جبرا للقلوب جزى الله خيرا من تسامت همته فى الخير إلى مثل هذا وأهل دمشق يتنافسون فى عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد وهم يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون اليهم بالاموال والاهلين والاولاد وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد أن يتأتى له وجه من المعاش من إمامة مسجد أو قراءة مدرسة أو ملازمة مسجد يجىء اليه فيه رزقه أو قراءة القرآن أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجرى له النفقة والكسوة فمن كان بها غريبا على خير لم يزل مصونا عن بذل وجهه محفوظا عما يزرى بالمرودة ومن كان من اهل المهنة والخدمة فله أسباب آخر من حراسة بستان أو أمانة طاحونة أو كفالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح ومن اراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك ومن فضائل أهل دمشق انه لا يفطر أحد منهم فى ليالى رمضان وحده البتة فمن كان من الامراء والقضاة

والكبراء فانه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك ومن كان الضعفاء والبادية فانهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم أو في مسجد ويأتى كل أحد بما عنده فيفطرون جميعا ولما وردت دمشق وقعت بيني وبين نور الدين السخاوى مدرس المالكية صحبة فرغب منى أن أفطر عنده في ليالى رمضان فحضرت عنده أربع ليالى ثم أصابتنى الحمى فغبت عنه فبعث فى طلبى فاعتذرت بالمرض فلم يسعنى عذرا فرجعت اليه وبث عنده فلما أردت الانصراف بالغد منعنى من ذلك وقال لى احسب دارى كأنها دارك أودار أبيك وأخيك وأمر بإحضار طبيب وأن يصنع لى بداره كل ما يشتهي الطبيب من دواء أو غذاء وأقمت كذلك عنده إلى يوم العيد وحضرت المصلى وشفانى الله تعالى عما أصابنى .

وقد كان ما عندى من النفقة نفد فعلم بذلك فاكثر لى جمالا وأعطانى الزاد وسواه وزادنى دراهم وقال لى تكون لما عسى أن يعتربك من أمر مهم جزاه الله خيرا وكان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر يسمى عماد الدين القيسرانى من عاداته انه متى سمع أن مغربيا وصل إلى دمشق بحث عنه وأضافه وأحسن اليه فان عرف منه الدين والفضل أمره بملازمته وكان يلزمه منهم جماعة وعلى هذه الطريقة أيضا كاتب السر الفاضل علاء الدين بن غانم وجماعة غيره

وكان بها فاضل من كبرائها وهو صاحب عز الدين القلانسى له آثار ومكارم وفضائل وإيثار وهو ذو مال عريض وذكروا ان الملك الناصر لما قدم دمشق أضافه وجميع أهل دولته ومماليكه وخواصه ثلاثة أيام فسماه إذ ذاك بالصاحب وما يؤثر من فضايلهم ان احد ملوكهم السالفين لما نزل به الموت أوصى ان يدفن بقبلة الجامع المسكرم ويخفى قبره وعين أوقافا عظيمة لقراء يقرأون سبعا من القرآن الكريم فى كل يوم لأثر صلاة الصبح بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضى الله عنهم حيث قبره فصارت قراءة القرآن على قبره لا تنقطع أبدا وبقي ذلك الرسم الجميل بعده مخلدا ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد أنهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرفه فيقفون بصحون المساجد كبيت المقدس وجامع بنى أمية وسواها ويقف بهم أئمتهم كاشفى رؤسهم داعين خاضعين خاشعين ملتزمين البركة ويتوخون الساعة التى يقف فيها وفد الله تعالى وحجاج بيته بعرفات ولا يزالون فى خضوع ودعاء وابتهاال وتوسل إلى الله تعالى بحجاج بيته الى أن تغيب الشمس فينفرون كما ينفر الحاج باكين على ما حرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات داعين الى الله تعالى ان يوصلهم اليها ولا يخيبهم من بركة القبول فيما فعلوه ولهم أيضا فى اتباع الجنائز رتبة عجيبة وذلك أنهم يمشون

أمام الجنائز والقراء يقرؤون القرآن بالأصوات الحسنة والتلاحين المبكية التي تكاد النفوس تطير لها رقة وهم يصلون على الجنائز بالمسجد الجامع قبالة المقصورة فإن كان الميت من أئمة الجامع أو مؤذنيه أو خدامه أدخلوه بالقراءة إلى موضع الصلاة عليه وإن كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد وادخلوا الجنائز وبعضهم يجتمع له بالبلاط الغربي من الصحن بمقربة من باب البريد فيجلسون وإمامهم ربعات القرآن يقرءون فيها ويرفعون أصواتهم بالثناء لكل من يصل للعزاء من كبار البلدة وأعيانها ويقولون بسم الله فلان الدين من كمال وجمال شمس وبدر وغير ذلك فإذا أتموا القراءة قام المؤذنون فيقولون افتسكروا واعتبروا صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم ويصفونه بصفات من الخير ثم يصلون عليه ويذهبون به إلى مدفنه ولاهل الهند رتبة عجيبة في الجنائز أيضا زائدة على ذلك وهي أنهم يجتمعون بروضة الميت صبيحة الثالث من دفنه وتفرش الروضة بالثياب الرفيعة ويكسى القبر بالأكسية الفاخرة وتوضع حوله الرياحين من الورد والنسرين والياسمين وذلك النوار لا ينقطع عندهم ويأتون بأشجار الليمون والأترج ويجعلون فيها حبوبها إن لم تكن فيها ويجعلون صيوان يظلل الناس نحوه ويأتي القضاة والأمراء ومن يماثلهم فيقعدون ويقام بهم القراء ويؤتى بالربعات السكرام فيأخذ كل واحد منهم جزءا فإذا تمت القراءة من القراء بالأصوات الحسان يدعو القاضي ويقوم قائما ويخطب خطبة معدة لذلك ويذكر فيها الميت ويرثيه بأبيات شعر ويذكر أقرار به ويعزيهم عنه ويذكر السلطان داعياله وعند ذكر السلطان يقوم الناس ويحيطون رؤسهم إلى سمت الجهة التي بها السلطان ثم يقعد القاضي ويأتون بماء الورد فيصب على الناس صبا يبدأ القاضي ثم من يليه كذلك إلى أن يعم الناس أجمعين ثم يؤتى بأواني السكر وهو الجلاب محلولا بالماء فيسقون الناس منه ويبدؤن بالقاضي ومن يليه ثم يؤتى بالتنبول وهم يعظمونه ويكرمونه من يأتي لهم به فإذا أعطى السلطان أحدا منه فهو أعظم من إعطاء الذهب والخلع وإذا مات الميت لم يأكل أهله التنبول إلا في ذلك اليوم فيأخذ القاضي أو من يقوم مقامه أوراقا منه فيعطونها لولى الميت فيأكلها وينصرفون حينئذ وسيأتي ذكر التنبول إن شاء الله تعالى .

(ذكر سماعي بدمشق ومن اجازني من أهلها)

سمعت بحامع بنى أمية عمره الله بذكره جميع صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن اسمعيل الجعفي للبخاري رضى الله عنه على الشيخ المعمر رحلة الافاق ملحق الأصاغر بالاكابر شهاب الدين أحمد بن أبي طالب بن أبي النعمان بن حسن بن علي بن بيان الدين (٥ - رحلة أول)

مقرى. الصالحى المعروف بابن الشحنة الحجازى فى اربعة عشر مجلساً اولها يوم الثلاثاء
من نصف شهر رمضان المعظم سنة ست وعشرين وسبعمائة وآخرها يوم الاثنين الثامن
والعشرين منه بقراءة الإمام الحافظ مؤرخ الشام علم الدين أبى محمد القاسم بن محمد بن
يوسف البرزالى الاشبيلى الأصل الدمشقى فى جماعة كبيرة كتب اسماءهم محمد بن طغر بل
ابن عبد الله بن الغزال الصيرفى سماع الشيخ أبى العباس الحجازى لجميع الكتّاب من الشيخ
الإمام سراج الدين أبى عبد الله الحسين بن أبى بكر المبارك بن محمد بن يحيى بن على بن
المسيح بن عمران الربيعى البغدادى الزبيدى الحنبلى فى أواخر شوال وأوائل ذى القعدة
من سنة ثلاثين وستمائة بالجامع المظفرى بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق وباجازته فى
جميع الكتّاب من الشيخين أبى الحسن محمد بن أحمد بن عمر بن الحسين بن الخلف
القطيعى المؤرخ وعلى بن أبى بكر بن عبد الله بن روبة القلانسى العطار البغدادى ومن
باب غير النساء ووجهن إلى آخر الكتّاب من أبى المنجا عبد الله بن عمر بن على بن
زيد بن اللتى الخزاعى البغدادى بسماع اربعتهم من الشيخ شديد الدين أبى الوقت عبد
الاول بن عيسى بن شعيب بن ابراهيم السجزى الهروى الصوفى فى سنة ثلاث وخمسين
وخمسمائة ببغداد قال اخبرنا الإمام جمال الإسلام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر
ابن محمد بن داود بن أحمد بن معاذ بن سهل بن الحكم الدوادى قراءة عليه وانا اسمع
ببوشنج سنة خمس وستين واربعمائة قال اخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حوية بن
يوسف بن ايمن السرخسى قراءة عليه وانا اسمع فى صفر سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة
قال اخبرنا عبد الله بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر بن ابراهيم الفربى قراءة
عليه وناسمع سنة ست عشرة وثلاثمائة بفرب قال اخبرنا الإمام أبو عبد الله بن محمد بن
اسماعيل البخارى رضى الله عنه سنة ثمان واربعين ومائتين بفرب ومرة ثانية وبعدها سنة
ثلاث وخمسين ومن اجازنى من اهل دمشق اجازة عامة الشيخ أبو الباس الحجازى
المذكور سبق إلى ذلك وتلفظلى به - ومنهم الشيخ الإمام شهاب الدين أحمد بن عبد الله
ابن أحمد بن محمد المقدسى ومولده فى ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين وستمائة - ومنهم
الشيخ الإمام الصالح عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن النجدى - ومنهم امام
الأئمة جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الزكى عبد الرحمن بن يوسف المازنى السكلى
حافظ الحفاظ ومنهم الإمام علاء الدين على بن يوسف بن محمد بن عبد الله
الشافعى والشيخ الإمام الشريف محيى الدين بن يحيى بن على العلوى ومنهم الشيخ

الإمام المحدث مجد الدين القاسم بن عبد الله بن أبي عبد الله بن المعلى الدمشقي ومواده سنة أربع وخمسين وستائة . ومنهم الشيخ الإمام العالم شهاب الدين أحمد بن إبراهيم بن فلاح بن محمد الاسكندري . ومنهم الشيخ الإمام ولي الله تعالى شمس الدين بن عبد الله ابن تمام والشيخان الإخوان شمس الدين محمد وكال الدين عبد الله ابنا إبراهيم بن عبد الله بن أبي عمر المقدسي والشيخ العابد شمس الدين محمد بن أبي الزهراء بن سالم الهكاري ، والشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم بن سلامة الجرائي . والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كال الدين أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي كل هؤلاء اجازني إجازة عامة في سنة ست وعشرين بدمشق ولما استهل شوال من السنة المذكورة خرج الراكب الحجازي إلى خارج دمشق ونزلوا القرية المعروفة بالكسوة فاخذت في الحركة معهم وكان أمير الراكب سيف الدين الجوبان من كبار الأمراء وقاضيه شرف الدين الأذرعى الحوراني وحج في تلك السنة مدرس المالكية صدر الدين العماري وكان سفرى مع طائفة من العرب تدعى العجارمة أميرهم محمد بن رافع كبير القدر في الأمراء وارتحلنا من الكسوة إلى قرية تعرف بالسنمين عظيمة ثم ارتحلنا منها إلى بلدة زرعة وهي صغيرة من بلاد حوران نزلنا بالقرب منها ثم ارتحلنا إلى مدينة بصرى وهي صغيرة ومن عادة الراكب ان يقيم بها اربعا ليلاحق بهم من تخلف بدمشق لقضاء ما آربه وإلى بصرى وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعث في تجارة خديجة وبها مبرك ناقته قد بنى عليه مسجد عظيم ويجتمع أهل حوران لهذه المدينة ويتزود الحاج منها ثم يرحلون إلى بركة زيرة (زيرا) ويقومون عليها يومئذ يرحلون إلى اللجون وبها الماء الجارى ثم يرحلون إلى حصن الكرك وهو من اعجب الحصون وأمنعها وأشهرها ويسمى بحصن الغراب والوادى يطيف به من جميع جهاته وله باب واحد قد نحت المدخل اليه في الحجر الصلد ومدخل دهليزه كذلك وبهذا الحصن يتحصن الملوك واليه يلجئون في النوائب وله لجأ الملك الناصر لأنه ولى الملك وهو صغير السن فاستولى على التدبير بملوكه سلاار النائب عنه فظاهر الملك الناصر أنه يريد الحج ووافقه الأمراء على ذلك فتوجه إلى الحج فلما وصل عقبة أبله لجأ إلى الحصن واقام به اعواما إلى ان قصده امراء الشام واجتمعت عليه المماليك وكان الملك في تلك المدة بمبرس الششمكبير وهو أمير الطعام وتسمى بالملك المظفر وهو الذى بنى الخانقاه البيبرسية بمقربة من خانقاه سعيد السعداء التى بناها صلاح الدين بن أيوب فقصده الملك الناصر بالامساك ففر بمبرس إلى الصحراء فتبعته العساكر وقبض عليه وأتى به إلى الملك الناصر

فأمر بقتله فقتل وقبض على سلا وحبس في جب حتى مات جوعاً ويقال أنه أكل جيفة من الجوع نعوذ بالله من ذلك واقام الركب بخارج الكرك أربعة أيام بموضع يقال له الثانية وتجهزوا لدخول البرية . ثم ارتحلنا إلى معان وهو آخر بلاد الشام ونزلنا من عقبة الصوان إلى الصحراء التي يقال فيها داخلها مفقود وخارجها مولود وبعد مسيرة يومين نزلنا ذات حرج وهي حسيان لاعمارة بها . ثم إلى وادي بلدح ولأما به . ثم إلى تبوك وهو الموضع الذي غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها عين ماء كانت تبض بشيء من الماء فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوضأ منها جادت بالماء المعين ولم يزل إلى هذا العهد ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن عادة حجاج الشام إذا وصلوا منزل تبوك أخذوا أسلحتهم وجردوا سيوفهم وحملوا على المنزل وضربوا النخل بسيوفهم ويقولون هكذا دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وينزل الركب العظيم على هذه العين فيروى منها جميعهم ويقيمون أربعة أيام للراحة وإرواء الجمال واستعداد الماء للبرية المخوفة التي بين العلا وتبوك ومن عادة السقائين أنهم ينزون على جوانب هذه العين ولهم أحواض مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام يسقون منها الجمال ويملئون الروايا والقرب والسكل أمير أو كبير حوض يسقي منه جماله وجمال أصحابه ويملأ رواياهم وسواهم من الناس يتفق مع السقائين على سقي جملة ومليء قربته بشيء معلوم من الدراهم ثم يرحل الركب من تبوك ويجدون السير ليلاً ونهاراً خفافاً من هذه البرية وفي وسطها الوادي الأخضر كأنه وادي جهنم أعادنا الله منها وأصاب الحجاج به في بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التي تهب فانتشفت المياه وانتهت شربة الماء إلى ألف دينار ومات مشربها وبائعها وكتب ذلك في بعض صخر الوادي ومن هنالك ينزلون بركة المعظم وهي ضخمة نسبتها إلى الملك المعظم من أولاد أيوب ويجتمع بها ماء المطر في بعض السنين وربما جف في بعضها وفي الخامس من أيام رحيلهم عن تبوك يصلون إلى بئر الحجر حبر ثمود وهي كثيرة الماء ولكن لا يردها أحد من الناس مع شدة عطشهم اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بها في غزوة تبوك فأسرع براجلته وأمر أن لا يسقي منها أحد ومن عجن به أطعمه الجمال وهنالك ديار ثمود في جبال من الصخر الأحمر منحوتة لها عتب منقوشة يظن رائيها أنها حديثة الصنعة وعظامهم نخرة في داخل تلك البيوت إن في ذلك لعبرة ومبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلي هنالك وبينهما أثر مسجد يصلي الناس فيه وبين الحجر والعلا نصف يوم أو دونه والعلا قرية كبيرة حسنة لها بساتين

النخل والمياه المعينة يقيم بها الحجاج أربعا يتزودون ويغسلون ثيابهم ويدعون بها ما يكون عندهم من فضل زاد ويستصحبون قدر الكفاية وأهل هذه القرية أصحاب أمانة والها ينتهي تجار نصارى الشام لا يتعدونها ويبايعون الحجاج الزاد وسواه ثم يرحل الركب من العلا فينزلون في غد رحيلهم الوادى المعروف بالعطاس وهو شديد الحر تهب فيه السموم المهلكة هبت السنين على الركب فلم يخلص منها إلا اليسير وتعرف تلك السنة سنة الأمير الجالقي ومنه ينزلون هدية وهى حسيان ماء بواد يحفرون به فيخرج الماء وهو زعاق وفي اليوم الثالث ينزلون بظاهر البلد المقدس الكريم الشريف .

(طيبة مدينة رسول الله ﷺ وشرف وكرم)

وفي عشي ذلك اليوم دخلنا الحرم الشريف وانتهينا إلى المسجد الكريم فوقفنا بباب السلام مسلمين وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذى حن الى رسول الله ﷺ وهى ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة وأدينا حق السلام على سيد الاولين والآخرين وشفيع العصاة والمذنبين الرسول النبى الهاشمى الأبطحى محمد ﷺ تسليما وشرف وكرم وحق السلام على ضجيعيه وصاحبيه أبى بكر الصديق وأبى حفص عمر الفاروق رضى الله عنهما وانصرفنا إلى رحلتنا مسرورين بهذه النعمة العظمى مستبشرين بنيل هذه المنة الكبرى حامدين الله تعالى على الباوغ إلى معاهد رسوله الشريفة ومشاهده العظيمة المنيفة داعين ان لا يجعل ذلك آخر عهدنا بها وأن يجعلنا ممن قبلت زيارته وكتبت في سبيل الله سفرته .

(ذكر مسجد رسول الله ﷺ وروضته الشريفة)

المسجد المعظم مستطيل تحفه من جهاته الأربع بلاطات دائرية به ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل ويدور بالمسجد الشريف شارع مباط بالحجر المنحوت والروضة المقدسة صلوات الله وسلامه على ساكنها فى الجهة القبلىة مما يلى الشرق من المسجد الكريم وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله وهى منورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت قد علاها تضميخ المسك والطيب مع طول الازمان وفى الصفة القبلىة منها مسارجضة هو قبالة الوجه الكريم وهنالك يقف الناس مستقبليين الوجه الكريم مستدبرين القبلة فيسلمون وينصرفون يميننا الى وجه أبى بكر الصديق ورأس أبى بكر رضى الله عنه عند قدمى رسول الله ﷺ ثم ينصرفون الى عمر بن الخطاب ورأس عمر عند كتفى أبى بكر رضى الله عنهما

وفى الجوفى من الروضة المقدسة زادها الله طيبا حوض صغير مرخم فى قبلته شكل محراب يقال انه كان بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تسليما ويقال أيضا هو قبرها والله أعلم وفى وسط المسجد الكريم دفة مطبقة على وجه الأرض مقفلة على سرداب له مدرج يفضى إلى دار أبى بكر رضى الله عنه خارج المسجد وعلى ذلك السرداب كان طريق عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها إلى داره ولا شك أنه هو الخوخة التى ورد ذكرها فى الحديث وأمر النبي ﷺ بإبقائها وسد ما سواها وبازاء دار أبو بكر رضى الله عنه دار عمر ودار ابنه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما وبشرقي المسجد الكريم دار امام المدينة أبى عبد الله مالك بن أنس رضى عنه وبمقربة من باب السلام سقاية ينزل إليها على درج ماؤها معين وتعرف بالعين الزرقاء .

(ذكر ابتداء بناء المسجد الكريم)

قدم رسول الله ﷺ تسليما المدينة الشريفة دار الهجرة يوم الاثنين ليلة الثالث عشر من شهر ربيع الاول فنزل على بنى عمرو بن عوف وأقام عندهم ثنتين وعشرين ليلة وقيل أربع عشرة ليلة وقيل أربع ليال ثم توجه إلى المدينة فنزل على بنى النجار بدار أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه وأقام عنده سبعة أشهر حتى بنى مساكنه ومسجده وكان موضع المسجد مر بذا سهل وسهيل ابني رافع بن أبى عمر بن عائد بن ثعلبة بن غانم بن مالك بن النجار وهما يتييمان فى حجر أسعد بن زرارة رضى الله عنهما أجمعين وقيل كانا فى حجر أبى أيوب رضى الله عنه فابتاع رسول الله ﷺ ذلك المر بذا وقيل بل أرضاهما أبو أيوب عنه وقيل انهما وهباه لرسول الله ﷺ فبنى رسول الله ﷺ المسجد وعمل فيه مع أصحابه وجعل عليه حائطا ولم يجعل له سقفا ولا أساطين وجعله مربعا طوله مائة ذراع وعرضه مثل ذلك وقيل ان عرضه كان دون ذلك وجعل ارتفاع حائطه قدر القامة فلما اشتد الحر تكلم أصحابه فى تسقيفه فأقام له أساطين من جذوع النخل وجعل سقفه من جريدها فلما أمطرت السماء وكف المسجد فكلم أصحاب رسول الله ﷺ رسول الله ﷺ فى عمله بالطين فقال كلا عريش كعريش موسى أو ظلة كظلة موسى والأمر أقرب من ذلك .

قيل : وما ظلة موسى قال ﷺ كان إذا قام أصاب السقف رأسه .

وجعل المسجد ثلاثة أبواب ثم سد باب الجنوب منها حين حولت القبلة وبقي المسجد على حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وحياة أبى بكر رضى الله

عنه فلما كانت أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه زاد في مسجد رسول الله ﷺ وقال لولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول ينبغى أن نزيد في المسجد ما زدت فيه فأنزل أساطين الخشب وجعل مكانها أساطين اللبن وجعل الأساس حجارة إلى القامة وجعل الأبواب ستة منها في كل جهة ماعدا القبلة بابان وقال في باب منها ينبغى أن يترك هذا للنساء فمضى فيه حتى اتى الله عز وجل وقال لو زدنا في هذا المسجد حتى يبلغ الجبانة لم يزل مسجد رسول الله ﷺ وأراد عمر أن يدخل في المسجد موضعا للعباس عثم رسول الله ﷺ ورضى عنهما ، فنهه منه وكان فيه ميزاب يصب في المسجد فنزعه عمر وقال انه يؤذى الناس فنازعه العباس وحكما بينهما أنى بن كعب رضى الله عنهما فأتيا داره فلم يأذن لهما إلا بعد ساعة ثم دخلا اليه فقال كانت جاريتي تغسل رأسى فذهب عمر ليتكلم فقال له أنى دع ابا الفضل يتكلم لمكانه من رسول الله ﷺ فقال العباس خبطة خطها لى رسول الله ﷺ وبنيها معه وما وضعت الميزاب إلا ورجلاى على عاتق رسول الله ﷺ فجاء عمر فطرحه وأراد إدخالها في المسجد فقال ابى إن عندى من هذا علما سمعت رسول الله ﷺ يقول أراد داود عليه السلام أن يبنى بيت الله المقدس وكان فيه بيت ليعقوبين فراودهما على البيع فأبيا ثم راودهما فباعاه ثم قاما بالغين فردا البيع واشتراه منهما ثم ردا كذلك فاستعظم داود الثمن فأوحى الله اليه إن كنت تعطى من شىء هو لك فأنت أعلم وإن كنت تعطى من رزقنا فأعطها حتى يرضيا وإن اغنى البيوت عن مظلمة بيت هو لى وقد حرمت عليك بناءه .

قال يا رب فأعظه سليمان فأعطاه سليمان عليه السلام فقال عمر من لى بأن رسول الله ﷺ قاله نخرج أى لى قوم من الأنصار فأثبتوا له ذلك فقال عمر رضى الله عنه إما أنى لو لم أجد غيرك أخذت قولك واسكننى احببت ان اثبت ثم قال للعباس رضى الله عنه والله لا ترد الميزاب إلا وقدماك على عاتقى ففعل العباس ذلك ثم قال إما إذا اثبتت لى فهى صدقة لله ، فهدمها عمر وادخلها في المسجد ثم زاد فيه عثمان رضى الله عنه وبناءه بقوة وباشره بنفسه فكان يظل فيه نهاره وبيضه واثقن محله بالحجارة المنقوشة ووسعه من جهاته إلا جهة الشرق منها وجعل له سوارى حجارة مثبتة بأعمدة الحديد والرصاص وسقفه بالساج وصنع له محراباً .

وقيل إن مروان هو اول من بنى المحراب وقيل عمر بن عبد العزيز فى خلافة الوليد — ثم زاد فيه الوليد بن عبد الملك تولى ذلك عمر بن عبد العزيز فوسعه

وحسنه وبالغ في اتقانه وعمله بالرخام والساج المذهب وكان الوليد بعث إلى ملك الروم أريد أن ابني مسجد نبينا ﷺ فاعنى فيه فبعث إليه الفعلة وثمانين ألف مثقال من الذهب وأمر الوليد بإدخال حجر ازواج النبي ﷺ فيه فاشترى عمر من الدور ما زاد في ثلاث جهات من المسجد فلما صار إلى القبلة امتنع عبيد الله بن عبد الله بن عمر من من بيع دار حفصة ودار بينهما الكلام حتى ابتاعها عمر على أن لهما بقى منها وعلى أن يخرجوا من باقيها طريقا إلى المسجد وهي الخوخة التي في المسجد وجعل عمر المسجد أربع صوامع في أربعة أركانه وكانت إحداها مطلة على دار مروان فلما حج سليمان بن عبد الملك نزل بها فأطل عليه المؤذن حين الأذان فأمر بهدمها وجعل عمر المسجد محرابا.

ويقال هو أول من أحدث المحراب ثم زاد فيه المهدي بن أبي جعفر المنصور وكان أمرهم بذلك ولم يقض له وكتب إليه الحسن بن زيد يرغبه في الزيارة فيسه من جهة الشرق ويقول أنه إن زيد في شرقيه توسطت الروضة الكريمة المسجد الكريم فاتممه أبو جعفر بأنه إنما أراد هدم دار عثمان رضى الله عنه فكتب إليه إنى قد عرفت الذى أردت فأكفف عن دار عثمان وأمر أبو جعفر أن يظل الصحن أيام القيظ يستور تنشر على جبال ممدودة على خشب تكون في الصحن لتسكن المصلين من الحر وكان طول المسجد في بناء الوليد مائتي ذراع فبلغه المهدي إلى ثلاثمائة ذراع وسوى المقصورة بالأرض وكانت مرتفعة عنها بمقدار ذراعين وكتب اسمه على مواضع من المسجد ثم أمر الملك المنصور قلاوون ببناء دار للوضوء عند باب السلام فتولى بناءها الأمير الصالح علاء الدين المعروف بالأقمر وأقامها متسعة الغناء تستدير بها البيوت وأجرى إليها الماء وأراد أن يبني بمكة شرفها الله تعالى مثل ذلك فلم يتم له فبناه ابنه الملك الناصر بين الصفا والمروة وسيدكر إن شاء الله قبلة مسجد رسول الله ﷺ قبلة قطع لأنه ﷺ أقامها وقيل أقامها جبريل عليه السلام وقيل كان يشير جبريل له إلى سمتها وهو يقيسها وروى أن جبريل عليه السلام أشار إلى الجبال فتواضعت فتنهجت حتى بدت الكعبة فكان ﷺ يبني وهو ينظر إليها عيانا وبكل اعتبار فهي قبلة قطع وكانت القبلة أول ورود النبي ﷺ المدينة إلى بيت المقدس ثم حوت إلى الكعبة بعد ستة عشر شهرا وقيل بعد سبعة عشر شهرا.

(ذكر المنبر الكريم)

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما كان يخطب إلى جذع نخلة

بالمسجد فلما صنع له المنبر وتحول اليه حن الجذع حنين الناقة إلى حوارها وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً نزل اليه فالتزمه فسكن وقال لو لم التزمه لحن إلى يوم القيامة واحتلفت الروايات فيمن صنع المنبر الكريم فروى ان تميا الدارى رضى الله عنه هو الذى صنعه وقيل ان غلاما للعباس رضى الله عنه صنعه وقيل غلام لامرأة من الانصار وورد ذلك فى الحديث الصحيح وصنع من طرفاء الناقة وقيل من الاثل وكان له ثلاث درجات فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد على علياهن ويضع رجله على الكريمتين فى وسطاهن فلماولى ابو بكر الصديق رضى الله عنه قعد على وسطاهن وجعل رجله على اولاهن فلماولى عمر رضى الله عنه جالس على اولاهن وجعل رجله على الارض وفعل ذلك عثمان رضى الله عنه صدرا من خلافته ثم ترقى الى الثالثة ولما ان صار الامر الى معاوية رضى الله عنه اراد نقل المنبر إلى الشام فضج المسلمون وعصفت ريح شديدة وخسفت الشمس وبدأت النجوم نهارا واطلمت الارض فكان الرجل يصادم الرجل ولا يتبين مسلك فلما رأى ذلك معاوية تركه وزاد فيه ست درجات من اسفله فبلغ تسع درجات .

(ذكر الخطيب والامام بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم)
 وكان الامام بالمسجد الشريف فى عهد دخولى إلى المدينة بهاء الدين بن سلامة من كبار اهل مصر وينوب عنه العالم الصالح الزاهد بغية المشايخ عز الدين الواسطى نفع الله به وكان يخطب قبله ويقضى بالمدينة الشريفة سراج الدين عمر المصرى (حكاية)
 يذكر ان سراج الدين هذا اقام فى خطة القضاء بالمدينة والخطابة بهانحو اربعين سنة ثم انه اراد الخروج بعد ذلك إلى مصر فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ثلاث مرات فى كل مرة يهاجم عن الخروج منها واخبره باقتراب اجله فلم ينته عن ذلك وخرج فمات بموضع يقال له سويس على مسيرة ثلاث من مصر قبل ان يصل اليها فعوذ بالله من سوء الخاتمة وكان بنوب عنه الفقيه أبو عبد الله محمد بن فرحون رحمة الله وابتاؤه الآن بالمدينة الشريفة أبو محمد عبد الله مدرس المالكية ونائب الحكم وأبو عبد الله محمد واصحابهم من مدينة تونس ولهم بها حسب واصالة وتولى الخطابة والقضاء بالمدينة الشريفة بعد ذلك جمال الدين الأسيوطى من اهل مصر وكان قبل ذلك قاضيا بحصن السكرك .

(ذكر نخدام المسجد الشريف والمؤذنين به)

ونخدام هذا المسجد الشريف وسدنته فتيان من الاحابيش وسواهم وهم على هيات

حسان وصور نظاف وملابس ظراف وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام وهو في هيئة الامراء الكبار ولهم المرتبات بديار مصر والشام ويؤتى اليهم بها في كل سنة ورئيس المؤذنين بالحرام الشريف الإمام المحدث الفاضل جمال الدين المطري من مطرية قرية بمصر وولده الفاضل عفيف الدين عبد الله والشيخ المجاور الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد الغرناطي المعروف بالتراس قدبهم المجاورة وهو الذي جيب نفسه خوفا من الفتنة (حكاية)

يذكر أن أبا عبد الله الغرناطي كان خديما لشيخ يسمى عبد الحميد العجمي وكان الشيخ حسن الظن به يطمئن اليه بأهله ويتركه متى سافر بداره فسافر مرة وتركه على عادته بمنزله فعلمت به زوجة الشيخ عبد الحميد وراودته عن نفسه فقال أني أخاف الله ولا أخون من أتمنى على أهله وماله فلم تزل تراوده وتعارضه حتى خاف على نفسه الفتنة فجيب نفسه وغشى عليه ووجده الناس على تلك الحالة فمالجوه حتى برىء وصار من خدام المسجد الكرام ومؤذنا به ورأس الطائفين وهو باق بقيد الحياة إلى هذا العهد .

(ذكر المجاورين بالمدينة الشريفة)

منهم الشيخ الصالح الفاضل أبو العباس أحمد بن محمد مرزوق كثير العبادة والصوم والصلاة بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما صابرا محتسبا وكان ربما جاور بمكة المعظمة رأيتها في سنة ثمان وعشرين وهو أكثر الناس طوافا وكنت أعجب من ملازمته الطواف مع شدة الحر بالمطاف والمطاف مفروش بالحجارة السود ويصير بحر الشمس كأنها الصفائح المحماة ولقد رأيت السقائين يصبون الماء عليها فما يجاوز الموضع الذي يصب فيه الا ويلتهب الموضع من حينه وأكثر الطائفين في ذلك الوقت يلبسون الجوارب وكان أبو العباس بن مرزوق بطوف حافي القدمين ورأيت يوم ما يطوف فاحبت أن أطوف معه فوصلت المطاف وارتدت استلام الحجر الاسود فليحقتي لهب تلك الحجارة وارتدت الرجوع بعد تقبيل الحجر فما وصلته إلا بعد جهد عظيم ورجعت فلم أطف ورجعت أجعل نجادي على الأرض وأمشي عليه حتى بلغت الرواق وكان في ذلك العهد بمكة وزير غرناطة وكبيرها أبو القاسم محمد ابن محمد بن الفقيه أبي الحسن سهل بن مالك الأزدي وكان يطوف كل يوم سبعين أسبوعا ولم يكن يطوف في وقت القائلة لشدة الحر وكان ابن مرزوق يطوف في شدة القائلة زيادة عليه ومن المجاورين بالمدينة كرمها الله الشيخ الصالح العابد سعيد المراكشي الكفيف ومنهم أبو مهدي بمكة عيسى بن حزرون المسكناسي .

(حكاية)

جاور الشيخ أبو مهدي بمكة سنة ثمان وعشرين وخرج إلى جبل حراء مع جماعة

من المجاورين فلما صعدوا الجبل ووصلوا لمتعب النبي صلى الله عليه وسلم تسليماً ونزلوا عنه تأخر أبو مهدي عن الجماعة ورأى طريقاً في الجبل فظنه قاصراً فسلط عليه ووصل أصحابه إلى أسفل الجبل فانتظروه فلم يات فتطلعوا فيما جوله فلم يروا له أثراً فظنوا أنه سبقهم فمضوا إلى مكة شرفها الله تعالى ومر عيسى على طريقه فأفضى به إلى جبل آخر وتاه عن الطريق وأجهده العطش والحرق وتمزقت نعله فكان يقطع من ثيابه ويلف على رجله إلى أن ضعف عن المشي واستظل بشجرة أم غيلان فبعث الله أعرابياً على جمل حتى وقف عليه فأعلمه بحاله فأركبه وأوصله إلى مكة وكان على وسطه هميان فيه ذهب فسلبه إليه وأقام نحو شهر لا يستطيع القيام على قدميه وذهبت جلدهما ونبئت لهما جملدة أخرى وقد جرى مثل ذلك لصاحبلي أذكره إن شاء الله من المجاورين بالمدينة الشريفة أبو محمد الشروي من القراء المحسنين وجاور بمكة في السنة المذكورة وكان يقرأ بها كتاب الشفاء للقاضي عياض بعد الظهر وأم في التراويح وبها من المجاورين الفقيه أبو العباس الفاسي مدرس المالكية بها وتزوج ببنت الشيخ الصالح شهاب الدين الزرندى * (حكاية) * يذكر أن أبا العباس الفاسي تكلم يوماً مع بعض الناس فأنهى به الكلام إلى أن تكلم بعظيمة ارتكب فيها بسبب جهله بعلم النسب وعدم حفظه للسانه مركباً صعباً عفا الله عنه فقال الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام لم يفتح يعقوب كلامه إلى أمير المدينة طفيل ابن منصور بن جواز الحسني فأنكر كلامه وبحق إنكاره وأراد قتله فكلّم فيه فنقاه عن المدينة ويذكر أنه بعث من اغتاله وإلى الآن لم يظهر له أثر نعوذ بالله من عثرات اللسان وزله

*(ذكر أمير المدينة الشريفة) *

كان أمير المدينة كبيشي بن منصور بن جواز وكان قد قتل عمه مقبلاً ويقال أنه توضأ بدمه ثم أن كبيشاً خرج سنة سبع وعشرين إلى الفلاة في شدة إلى الحر ومعه أصحابه فادركتهم القائلة في بعض الأيام فتفرقوا تحت ظلال الأشجار فما راعهم إلا وابناء مقبل في جماعة من عبدهم ينادون بالاثارات مقبل فقتلوا كبيش بن منصور صبراً لعمه وادمه وتولى بعده أخوه طفيل بن منصور الذي ذكرنا أنه نفي أبا العباس الفاسي .

*(ذكر بعض المشاهد السكرية بخارج المدينة الشريفة) *

فمنها بقية الغرق وهو بشرقي المدينة المسكرمة ويخرج إليه على باب يعرف بباب البقيع فأول ما يلقى الخارج إليه على يساره عند خروجه من الباب قبر صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنهما وهي عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً وأم الزبير بن العوام رضي الله عنه

وأمامها قبر امام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس رضى الله عنه وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء وأمامه قبر السلالة الطاهرة المقدسة النبوية الكريم ابراهيم بن رسول الله ﷺ وعليه قبة بيضاء وعن يمينها تربة عبد الرحمن بن نعيم بن الخطاب رضى الله عنهما وهو المعروف بأبي شحمة وبازاته قبر عقييل بن ابي طالب رضى الله عنه وقبر عبد الله بن ذى الجناحين جعفر بن أبي طالب رضى الله عنهما وبازاتهم روضة قبور أمهات المؤمنين بها رضى الله عنهن ويليهما روضة فيها قبر العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وقبر الحسن بن علي بن ابي طالب عليهم السلام وهى قبة ذاهبة فى الهواء بديعة الاحكام عن يمين الخارج من باب البقيع ورأس الحسن إلى رجل العباس عليهما السلام وقبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان مغشيان بالواح بديعة الالتصاق مرصعة بصفايح الصفر البديعة العمل وبالبقيع قبور المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة رضى الله عنهم إلا انها لا يعرف أكثرها وفى آخر البقيع قبر أمير المؤمنين ابي عمر عثمان بن عفان رضى الله عنه وعليه قبة كبيرة وعلى مقربة منه قبر فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي بن ابي طالب رضى الله عنهما وعن ابنها .

ومن المشاهد الكريمة قباء وهو قبلى المدينة على نحو ميلين منها والطريق بينهما فى حدائق النخل وبه المسجد الذى أسس على التقوى والرضوان وهو مسجد مربع فيه صومعة بيضاء طويلة تظهر على البعد وفى وسطه مبرك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم يتبرك الناس بالصلاة فيه ، وفى الجهة القبالية من صحته بحراب على مصطبة هو أول موضع ركع فيه النبي ﷺ وفى قبلى المسجد دار كانت لأبي أيوب الأنصارى ويلها دور تنسب لأبي بكر وعمر وفاطمة وعائشة رضى الله عنهم وبازاته بشر اريس وهى التى عاد ماؤها عذبا لما تفل فيه النبي ﷺ بعد أن كان اجاجا وفيها وقع الخاتم الكريم من عثمان رضى الله عنه .

ومن المشاهد فيه حجر الزيت بخارج المدينة الشريفه يقال أن الزيت رشع من حجر هنالك للنبي ﷺ . وإلى جهة الشمال منه بشر بضاعة . وبازاتها جبل الشيطان حيث صرخ يوم احد وقال قد قتلت نبيكم وعلى شفيع الخندق الذى حفره رسول الله ﷺ عند تحزب الأحزاب حصن خرب يعرف بحصن العرب يقال أن عمر بن الخطاب المدينة وأمامه إلى جهة الغرب بشر رومه التى اشترى امير المؤمنين عثمان رضى الله عنه نصفها بعشرين ألفا ، ومن المشاهد الكريمة أحد وهو الجبل المبارك الذى قال فيه رسول الله ﷺ تسليما لى أحدنا جبل يحبنا ونحبه وهو بجوار

المدينة الشريفة على نحو فرسخ منها وبازائه الشهداء المسكرون رضى الله عنهم وهناك
 قبر حمزة عم رسول الله ﷺ ورضى الله عنه وحوله الشهداء المستشهدون في احد
 رضى الله عنهم وقبورهم لقبلى أحد وفي طريق احد مسجد ينسب لعلى بن أبى طالب
 رضى الله عنه ومسجد ينسب إلى سلمان الفارسي رضى الله عنه ومسجد الفتح حيث
 أنزلت سورة الفتح على رسول الله ﷺ وكانت إقامتنا بالمدينة الشريفة في هذه الوجهة
 أربعة أيام وفي كل ليلة نبيت بالمسجد الكريم والناس قد حلقوا في صحنه حلقا وأوقدوا
 الشمع الكبير وبينهم ربعات القرآن الكريم يتلون به وبعضهم يذكرون الله وبعضهم في
 مشاهدة التربة الطاهرة زادها الله طيبا والحدادة بكل جانب يترنمون بمدح رسول الله
 ﷺ وهكذا دأب الناس في تلك الليالي المباركة ويجودون بالصدقات الكثيرة على
 المجاورين والمحتاجين وكان في صحبتي في هذه الوجهة من الشام إلى المدينة الشريفة رجل
 من أهلها فاضل يعرف بمنصور بن شكل وأضافني بها واجتمعنا بعد ذلك بحلب وبخارى
 وكان في صحبتي أيضا قاضى الزيدية شرف الدين قاسم بن شنان وصحبنى أيضا أحد
 الصالحاء الفقراء من أهل غرناطة يسمى بعلى بن حجر الأموى .

(حكاية)

لما وصلنا إلى المدينة كرمها الله على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام ذكر لي على بن
 حجر المذكور انه رأى تلك الليلة في النوم قائلا يقول له اسمع منى واحفظ عنى (طويل)
 هنيئا لكم يا زائرين ضريحه امنتم به يوم المعاد من الرجس
 وصلتم إلى قبر الحبيب بطيبة فطوبى لمن يضحى بطوبة او يمسى

وجاور هذا الرجل بعد صحبه بالمدينة ثم رحل إلى مدينة دهلى قاعدة بلاد الهند في سنة
 ثلاث واربعين فنزل في جوارى و ذكرت حكاية رؤياه بين يدي ملك الهند فأمر بإحضاره
 فحضر بين يديه وحكى له ذلك فأعجبه واستحسنه وقال له كلاما جميلا بالفارسية وأمر
 بإزاله وأعطاه ثلاثمائة تنكة من ذهب ووزن التنكة من دنانير المغرب ديناران ونصف
 دينار وأعطاه فرسا محلى السرج واللجام وخلاعة وعين له مرتبا في كل يوم وكان هنالك
 فقيه طيب من أهل غرناطة ومولده ببجاية يعرف هنالك بجمال الدين المغربي فصحبه
 على بن حجر المذكور وواعداه على ان يزوجه بنته وانزله بدويرة خارج داره واشترى
 جارية وغلاما وكان يترك الدنانير في مفروش ثيابه ولا يطعمن بها لأحد فاتفق الغلام
 والجارية على اخذ ذلك الذهب واخذاه وهربا فلما اتى الدار لم يجد لهما اثرا ولا

للذهب فامتنع من الطعام والشراب واشتد به المرض أسفا على ما جرى عليه فعرضت
قضيته بين يدي الملك فأمر أن يخلف له ذلك فيبعث اليه من يعلمه بذلك فوجدوه قد مات
رحمه الله تعالى وكان رحيلنا من المدينة نريد مكة شرفها الله تعالى فنزلنا بقرب مسجد
ذي الخليفة الذي أحرم منه رسول الله ﷺ وبالمدينة منه على خمسة أميال وهو
منتهى حرم المدينة وبالقرب منه وادي العقيق وهناك تجردت من مخيط الشياح
واغتسلت ولبست ثوب احرامى وصليت ركعتين وأحرمت بالحج مفردا ولم أزل
مليبا في كل سهل وجبل وصعود وحدور إلى أن أتيت شعب على عليه السلام وبه
نزلت تلك الليلة .

ثم رحلنا منه ونزلنا بالروحاء وبها بئر تعرف ببئر ذات العلم ويقال ان عليا
عليه السلام قاتل بها الجن .

ثم رحلنا ونزلنا بالصفراء وهو واد معمور فيه ماء ونخل وبنيان وقصر يسكنه
الشرفاء الحسينيون وسواهم وفيها حصن كبير وتواليه حصون كثيرة وقرى متصلة .

ثم رحلنا منه ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله ﷺ وأنجز وعده الكريم
واستأصل صناديد المشركين وهي قرية فيها حدائق نخل متصلة وبها حصن منيع
يدخل اليه من بطن واد بين جبال ووبدر عين فواره يجرى ماؤها موضع القلبيب
الذي سحبه أعداء الله المشركون هو اليوم بستان وموضع الشهداء رضى الله عنهم خلفه
وجبل الرحمة الذي نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه إلى الصفراء وبازائه جبل
الطبول وهو شبه كثيب الرمل ممتد ويزعم أهل تلك البلدة انهم يسمعون هناك مثل
اصوات الطبول في كل ليلة جمعه موضع عرش رسول الله ﷺ الذي كان به يوم بدر
يناشد ربه جل وتعالى متصل بسفح جبل الطبول وموضع الوقعة وامامه وعند نخل
القلبيب مسجد يقال له مبرك ناقة رسول الله ﷺ وبين بدر والصفراء نحو بريد في
واد بين جبال تطرد فيه العيون وتتصل حدائق النخل .

ورحلنا من بدر إلى الصحراء المعروفة بقاع البرواء وهي برية يضل بها الدليل .
ويذهل عن خليله الخليل . مسيرة ثلاث وفي منتهاها وادي رابع يتكون فيه المطر غدرا
يبقى بها الماء زمنا طويلا ومنه يحرم حجاج مصر والمغرب وهو دون الجحفة وسرنا
من رابع ثلاثا إلى خليص ومررنا بعقبة السويق وهي على مسافة نصف يوم من خليص
كثيرة الرمل والحجاج يقصدون شرب السويق بها ويستصحبونه من مصر والشام برسم ذلك
ويسقونه الناس مخلط بالسكر والأمراء يملأون منه الأحواض ويسقونها الناس ويذكرون أن
رسول الله ﷺ مر بها ولم يكن مع اصحابه طعام فاخذ من رملها فاعطاهم لباء فشر به .

سويقاً ثم نزلنا بركة خليف وهي في بسيط من الأرض كثيرة حدائق النخل لها حصن مشيد في قنة جبل وفي البسيط حصن خرب وبها عين فوارة صنعت لها أخاديد في الأرض وسربت إلى الضياع وصاحب خليف شريف حسنى النسب وعرب تلك الناحية يقيمون هنالك سوقاً عظيمة يجلبون إليها الغنم والتمر والادام ثم رحلنا إلى عسفان وهي في بسيط من الأرض بين جبال وبها آبار ماء معين تنسب إحداها إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه والمدرج المنسوب إلى عثمان أيضاً على مسافة نصف يوم من خليف وهو مضيق بين جبلين وفي موضع منه بلاط على صورة درج وأثر عمارة قديمة وهنالك بئر تنسب إلى علي عليه السلام ويقال إنه أحدثها وبمسفان حصن عتيق وبرج مشيد قد أوهنه الخراب وبه من شجر المقل كثير ثم رحلنا من عسفان ونزلنا بطن مر ويسمى أيضاً مر الظهران وهو واد مخصب كثير النخل ذوعين فوارة سيالة تسقى تلك الناحية ومن هذا الوادى تجلب الفواكه والخضر إلى مكة شرفها الله تعالى ثم أدلجنا من هذا الوادى المبارك والأنفوس مستبشرة ببلوغ آمالها مسرورة بحالها ومآلها فوصلنا عند الصباح إلى البلد الأمين مكة شرفها الله تعالى فوردنا منها على حرم الله تعالى ومبواً خليله إبراهيم ومبعث صفيه محمد ﷺ ودخلنا البيت الحرام الشريف الذى من دخله كان آمناً من بنى شيبة وشاهدنا الكعبة الشريفة زادها الله تعظيماً وهي كالعروس تجلى على منصة الجلال وترقى في برود الجبال مخفوفة بوفود الرحمن موصلة إلى جنة الرضوان وطفئنا بها طواف القدوم واستلمنا الحجر الكريم وصلينا ركعتين بمقام إبراهيم وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتزم بين الباب والحجر الأسود حيث يستجاب الدعاء وشربنا من ماء زمزم وهو لما شرب له حسبها ورد عن النبي ﷺ تسليماً ثم سعيناً بين الصفا والمروة ونزلنا هنالك بداو بمقربة من باب إبراهيم والحمد لله الذى شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم وجعلنا من بلغنا دعوة الخليل عليه الصلاة والتسليم ومتع أعيننا بمشاهدة الكعبة الشريفة والمسجد العظيم والحجر الكريم وزمزم والحطيم .

ومن عجائب صنع الله تعالى إنه طبع القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد المنيفة والشوق إلى المشول بمعاهدها الشريفة وجعل حبها متمكناً في القلوب فلا يحلها أحد إلا أخذت بمجاميع قلبه ولا يفارقها إلا أسفاً لفراقها متولها لبعادة عنها شديد الحنين إليها ناوياً لتكرار الوفاة عليها فأرضها المباركة نصب الاعين ومحبتها حشو القلوب حكمة من الله بالغة وتصديقاً لدعوة خليله عليه السلام .

والشوق يحضرها وهي نائية ويمناها وهي غائبة ويهون على قاصدها ما يلقاه من المشاق

ويعانيه من العناء وكم من ضعيف يرى الموت عيانا دونها ويشاهد التلف في طريقها فاذا جمع الله بها شمله تلقاها مسرورا مستبشرا كأنه لم يندق لها مرارة ولا كابد محنة ولا نصباً انه لأمر إلهي وصنع رباني ودلالة لا يشوبها لبس ولا تغشاها شبهة ولا يطررها تمويه وتعز في بصيرة المستبصرين وتبدو في فكرة المتفكرين ومن رزقه الله تعالى الحلول بتلك الأرجاء والمشول بذلك الفناء فقد أنعم الله عليه النعمة الكبرى وخوله خير الدارين الدنيا والآخرة فحق عليه ان يكثر الشكر على ما خوله ويدتم الحمد على ما أولاه جعلنا الله تعالى ممن قبلت زيارته وربحت في قصدها تجارته وكتبت في سبيل الله آثاره وبحيت بالقبول أوزاره بمنته وكرمه .

(ذكر مدينة مكة المعظمة)

وهي مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة في بطن واد تحف به الجبال فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ والانشبان من جبالها هما جبل أبي قبيس وهو في جهة الجنوب منها وجبل قعيقعان وهو في جهة منها وفي الشمال منها الجبل الأحمر ومن جهة أبي قبيس أحياد الأكبر وأحياد الأصغر وهما شعبان والحندمة وهي جبل وستندكر (والمناسك كلها منى وعرفة والمزدلفة) بشرق مكة شرفها الله ولمكة من الأبواب ثلاثة : باب المعلى بأعلاها وباب الشبيكة من أسفلها ويعرف أيضا بباب العمرة وهو إلى جهة المغرب وعليه طريق المدينة الشريفة ومصر والشام وجدة ومنه يتوجه إلى التنعيم وسيدكر ذلك وباب المسفل وهو من جهة الجنوب ومنه دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم الفتح ومكة شرفها الله كما أخبر الله في كتابه العزيز حاكيا عن نبيه الخليل بواد غير ذي زرع ولكن سبق لها الدعوة المباركة فكل طريقة تجلب إليها وثمرات كل شيء تجبي لها ولقد أكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ والرطب ما لا نظير له في الدنيا وكذلك البطيخ المجلوب إليها لا يماثله سواء طيبا وحلاوة واللحوم بها سمان لذيزات الطعوم وكل ما يفترق في البلاد من السلع فيها اجتماعه وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادي نخلة وبطن مر أطفا من الله بسكان حرمه الأمين ومجاوري بيته العتيق

(ذكر المسجد الحرام شرفه الله وكرمه)

والمسجد الحرام في وسط البلد وهو متسع الساحة طوله من شرق إلى غرب ازيد من اربع مائة ذراع حكى ذلك الأزرقي وعرضه يقرب من ذلك والسكينة العظمى في وسطه

ومنظاره بديع ومראה جميل لا يتعاطى اللسان وصف بدائعه ولا يحيط الوصف بحسن كماله وارتفاع حيطانه نحو عشرين ذراعا وسقفه على أعمدة طوال مصطفة ثلاثة صفوف بأتقن صناعة واجملها وقد انتظمت بلاطانه الثلاثة انتظاما عجيبا كأنها بلاط واحد وعدد سواريه الرخامية أربعائة واحد وتسعون سارية ماعدا الجصية التي في دار الندرة المزينة في الحرم وهي داخلية في البلاط الآخذ في الشمال ويقابلها المقام مع الركن العراقي وفضاؤها متصل يدخل من هذا البلاط اليه ويتصل بجدار هذا البلاط مساطب تحت قسي حنايا يجلس بها المقرؤون والنساخون والخياطون وفي جدار البلاط الذي يقابله مساطب تماثلها وسائر البلاطات تحت جدرانها مساطب بدون حنايا وعند باب ابراهيم مدخل من البلاط الغربي فيه سوارى جصية وللخليفة المهدي بن الخليفة ابي جعفر المنصور رضى الله عنهما آثار كريمة في توسيع المسجد الحرام وإحكام بنيانه وفي أعلى جدار البلاط الغربي مكتوب أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين أصاحه الله بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعمارتة في سنة سبع وستين ومائة .

(ذكر الكعبة المعظمة الشريفة زادها الله تعظيما وتكريما)

والكعبة مائلة في وسط المسجد وهي بنية مربعة ارتفاعها في الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعا ومن الجهة الرابعة التي بين الحجر الأسود والركن اليماني تسع وعشرون ذراعا وعرض صفحتها التي من الركن العراقي الى الحجر الأسود أربعة وخمسون شبرا وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن اليماني الى الركن الشامي وعرض صفحتها التي من الركن العراقي الى الركن الشامي من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبرا وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن الشامي الى الركن العراقي وأما خارج الحجر فإنه مائة وعشرون شبرا والطواف إنما هو خارج الحجر وبناؤها بالحجارة الصم السمرة قد الصقت بأبدع الاصاق واحكمه وأشدّه فلا تغيرها الايام ولا تؤثر فيها الأزمان وباب الكعبة المعظمة في الصفيح الذي بين الحجر الأسود والركن العراقي وبينه وبين الحجر الأسود عشرة أشبار وذلك الموضع هو المسمى بالملتزم حيث يستجاب الدعاء وارتفاع الباب عن الأرض احد عشر شبرا ونصف شبر وسعته ثمانية أشبار وطوله ثلاثة عشر شبرا وعرض الحائط الذي ينطوي عليه خمسة أشبار وهو مصفح بصفايح الفضة بديع الصنعة وعضاداته وعتيقته العليا مصفحات بالفضة وله نقارتان كبيرتان من فضة عليهما قفل ويفتح الباب الكريم في كل يوم جمعة بعد الصلاة ويفتح في يوم مولد النبي ﷺ ورسولهم

(٦ - رحلة - أول)

في فتحه ان يضعوا كرسيا شبه المنبر له درج وقوائم خشب لها أربع بكرات يجرى الكرسي عليها ويلصقونه الى جدار الكعبة الشريفة فيكون درجه الأعلى متصلا بالعتبة الكريمة ثم يصعد كبير الشيبين وبيده المفتاح الكريم ومعه السدنة فيمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمى بالبرقع بخلال ما يفتح رئيسهم الباب فاذا فتحه قبل العتبة الشريفة ودخل البيت وحده وسد الباب وأقام قدر ما يركع ركعتين ثم يدخل سائر الشيبين ويسدون الباب أيضا ويركعون ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول وفي أثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بأبصار خاشعة وقلوب ضاربة وأيد مبسوطة إلى الله فاذا فتح كبروا ونادوا اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع وحيطانه كذلك وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج بين كل عمود منها وبين الآخر أربع خطا وهي متوسطة في الفضاء داخل الكعبة الشريفة يقابل الأوسط منها نصف عرض الصفيح الذي بين الركنين العراقي والشامي وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود مكتوب فيها بالابيض وهي تتلأأ عليها نورا وإشراقا وتكسو جميعها من الأعلى الى الأرض ومن عجائب الآيات في الكعبة الشريفة ان بابها يفتح والحرم الغاص بأمر لا يحصيها إلا الله الذي خلقهم ورزقهم فيدخلونها اجمعين ولا تضيق عنهم ومن عجائبها انها لا تخلو عن طائف أبدا ليلا ولا نهارا ولم يذكر أحد انه رآها قط دون طائف ومن عجائبها ان حمام مكة وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها في الطيران وتجد الحمام يطير على أعلى الحرم كله فاذا حاذى الكعبة الشريفة عرج عنها إلى إحدى الجهات ولم يعلها ويقال لا ينزل عليها طائر إلا إذا كان به مرض فاما ان يموت لحينه او يبرأ من مرضه فسيبجان الذي خصها بالشريف والتكريم وجعل لها المهابة والتعظيم.

(ذكر الميزاب المبارك)

والميزاب في أعلى الصفيح الذي على الحجر وهو من الذهب وسعته شبر واحد وهو بارز بمقدار ذراعين والموضع الذي تحت الميزاب مظنة استجابة الدعاء وتحت الميزاب في الحجر هو قبر اسماعيل عليه السلام وعليه رخامة خضراء مستطيلة على شكل محراب متصلة برخامة خضراء مستديرة وكتاها سعتها مقدار شبر وكتاها غريبة الشكل رائقة المنظر وإلى جانبه مما يلي الركن العراقي قبر أمه هاجر عليها السلام وعلامته رخامة خضراء مستديرة سعتها مقدار شبر ونصف وبين القبرين سبعة أشبار .

(ذكر الحجر الأسود)

وأما الحجر الأسود فارتفاعه عن الأرض ستة أشبار فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله والصغير يتناول اليه وهو ملصق في الركن الذي إلى جهة المشرق وسعته ثلثا شبر وطوله شبر وعقد ولا يعلم قدر ما دخل منه في الركن وفيه أربع قطع ملصقة ويقال إن القمر مطى لعنه الله كسره وقيل إن الذي كسره سواه ضربه بدبوس فكسره وتبادر الناس إلى قتله وقتل بسببه جماعة من المغاربة وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من فضة يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم فتتجلى منه العيون حسنا باهرا ولتقبيله لذة يتنعم بها الفهم ويود لاثمه أن لا يفارق لثمه خاصية مودعة فيه وعناية ربانية به وكفى قول النبي ﷺ أنه يمين الله في أرضه نفعتنا الله باستلامه ومصافحته وأوفد عليه كل شيق اليه وفي القطعة الصفيحة من الحجر الأسود مما يلي جانبه الموالى ليمين مسئله نقطة بيضاء صغيرة مشرقة كأنها خال في تلك الصفيحة البهية وترى الناس إذا طافوا بها يتساقط بعضهم على بعض ازدحاما على تقبيله فقلها يتمكن أحد من ذلك إلا بعد المزاخرة الشديدة وكذلك يصنعون عند دخول الحرم ومن عند الحجر الأسود ابتداء الطواف وهو أول الأركان التي يلتقها الطائف فإذا استلمه تقمقر عنه قليلا وجعل السكبة الشريفة عن يساره ومضى في طوافه ثم يلتقي بعمدة الركن العراقي وهو إلى جهة الشمال ثم يلتقي الركن الشامي وهو إلى جهة الغرب ثم يلتقي الركن اليمني وهو إلى جهة الجنوب ثم يعود إلى الحجر الأسود وهو إلى جهة الشرق .

(ذكر المقام الكريم)

لأعلم أن بين باب السكبة شرفها الله وبين الركن العراقي موضعاً طوله اثنا عشر شبراً وعرضه نحو النصف من ذلك وارتفاعه نحو شبرين وهو موضع المقام في مدة إبراهيم عليه السلام ثم صرفه النبي ﷺ إلى الموضع الذي هو الآن مصلى وبقى ذلك الموضع شبه الخوض واليه ينصب ماء البيت الحرام إذا غسل وهو موضع مبارك يزدحم الناس للصلاة فيه وموضع المقام الشريف يقابل ما بين الركن العراقي والباب الشريف وهو إلى الباب أميل وعاليه قبة تحتها شبك حديد متجاف عن المقام الشريف قدر ما تصل أصابع الإنسان إذا أدخل يده من ذلك الشباك إلى الصندوق والشباك مقفل ومن ورائه موضع محوز قد جعل مصلى لركعتي الطواف وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ لما دخل المسجد أتى البيت فطاف به سبعا ثم أتى المقام فقرأ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وركع خلفه ركعتين وخلف المقام مصلى إمام الشافعية في الخطبة الذي هنالك .

(ذكر الحجر والمطاف)

ودور جدار الحجر تسع وعشرون خطوة وهي أربعة وتسعون شبرا من داخل الدائرة وهو بالرخام البديع المجزع المحكم الإصداق وارتفاعه خمسة اشبار ونصف شبر وسعته أربعة اشبار ونصف شبر وداخل الحجر بلاط واسع مفروش بالرخام المنظم المعجز الصنعة البديع الإتقان وبين جدار السكبية الشريفة الذي تحت الميزاب وبين ما يقابله من جدار الحجر على خط استواء أربعون شبرا وللحجر مدخلان أحدهما بينه وبين الركن العراقي وسعته ستة أذرع وهذا الموضع هو الذي تركته قریش من البيت حين بنه كما جاءت الآثار الصحاح والمدخل الآخر عند الركن الشامي وسعته أيضا ستة أذرع وبين المدخلين ثمانية وأربعون شبرا وموضع الطواف مفروش بالحجارة السود محكمة الإصداق وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطا إلا في الجهة التي تقابل المقام الشريف فإنها امتدت إليه حتى اجامعت به وسائر الحرم مع البلاطات مفروش برمل ابيض وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة .

(ذكر زمزم)

وقبة بشر زمزم تقابل الحجر الأسود وبينهما أربع وعشرون خطوة والمقام الشريف عن يمين القبة ومن ركنها إليه عشر خطا وداخل القبة مفروش بالرخام الأبيض وتور البشر المباركة في وسط القبة مائلا إلى الجدار المقابل للسكبية الشريفة وهو من الرخام البديع الإصداق مفروش بالرصاص ودوره أربعون شبرا وارتفاعه أربعة اشبار ونصف شبر وعمق البشر إحدى عشرة قامة وهم يذكرون ان ماءها يتزايد في كل ليلة جمعة وباب القبة إلى جهة الشرق وقد استدارت بداخل سقاية سعتها شبر وعمقها مثل ذلك وارتفاعها عن الأرض نحو خمسة اشبار تملأ ماء للوضوء وحولها مسطبة يقعد الناس عليها للوضوء وبلى قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة إلى العباس رضى الله عنه وبابها إلى جهة الشمال وهي الآن يجعل بها ماء زمزم في قلال يسمونها الدوارق وكل دورق له مقبض واحد وترك بها ليبرد فيها الماء فيشربه الناس وبها اختزان المصاحف الشريفة والسكتب التي للحرم الشريف وبها خزانة تحتوى على تابوت ملبسوط متنسج فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت رضى الله عنه متنسج سنة ثمان عشرة من وفاة رسول الله ﷺ تسليما وأهل مكة إذا أصابهم قحط أو شدة أخرجوا هذا المصحف الشريف وفتحوا باب السكبية ووضعوه على العتبة الشريفة ووضعوه في مقام ابراهيم عليه السلام واجتمع الناس كاشفين رؤسهم داعين متضرعين متوسلين بالمصحف العزيز والمقام الشريف فلا يفصلون إلا وقد تداركهم الله برحمته وتغمدهم بطمأنينة وبلى قبة العباس رضى الله تعالى عنه

على انحراف منها القبة المعروفة بقبة اليهودية .

(ذكر أبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفة)
وأبواب المسجد الحرام شرفه الله تعالى تسعة عشر باباً وأكثرها مفتحة على أبواب كثيرة فمنها باب الصفا وهو مفتح على خمسة أبواب، وكان قديماً يعرف بباب بنى مخزوم وهو أكبر أبواب المسجد ومنه يخرج إلى المسعى ويستحب للوافد على مكة أن يدخل المسجد الحرام شرفه الله من باب بنى شيبه ويخرج بعد طوافه من باب الصفا جاعلاً طريقه بين الاسطوانتين اللتين أقامهما أمير المؤمنين المهدي رحمه الله علياً على طريق رسول الله ﷺ إلى الصفا ومنها باب اجياد الأصغر مفتح على بابين ومنها باب الخياطين مفتح على بابين ومنها باب العباس رضى الله عنه مفتح على ثلاثة أبواب ومنها باب النبي ﷺ مفتح على بابين ومنها باب بنى شيبه وهو في ركن الجدار الشرقي من جهة الشمال امام باب السكعبة الشريفة متياسراً وهو مفتح على ثلاثة أبواب وهو باب بنى عبيد شمس ومنه كان دخول الخلفاء ومنها باب صغير ازاء باب بنى شيبه لا اسم له وقيل يسمى باب الرباط لأنه يدخل منه لرباط السدرة ومنها باب الندوة ويسمى بذلك ثلاثة أبواب اثنان منتظمان والثالث في الركن الغربي من دار الندوة ، ودار الندوة قد جعلت مسجداً شارعا في الحرم مضافا اليه وهي تقابل الميزاب ومنها باب صغير لدار العجالة محدث ومنها باب السدرة واحد وباب العمرة واحد وهو من أجمال أبواب الحرم وباب ابراهيم واحد والناس مختلفون في نسبته فبعضهم ينسبه إلى ابراهيم الخليل عليه السلام والصحيح أنه منسوب إلى ابراهيم الخوذي من الأعاجم وباب الحزوة مفتح على بابين وباب ثالث ينسب إليه مفتح على بابين ويتصل لباب الصفا ومن الناس من ينسب البابين من هذه الأربعة المنسوبة لأجياد إلى الدقاقين .

وصوامع المسجد الحرام خمس إحداها على ركن أبي قبيس عند باب الصفا والأخرى على ركن باب بنى شيبه والثالثة على باب دار الندوة والرابعة على ركن باب السدرة والخامسة على ركن اجياد وبمقربة من باب العمرة مدرسة عمرها السلطان المعظم يوسف بن رسول ملك اليمن المعروف بالملك المظفر الذي تنسب إليه الدراهم المظفرية باليمن وهو كان يكسو السكعبة إلى أن غلبه على ذلك الملك المنصور قلاوون وبخارج باب ابراهيم زارية كبيرة فيها دار امام المالكية الصالح أبي عبيد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل وعلى باب ابراهيم قبة عظيمة مفرطة السمو قد صنع في داخلها غرائب صنع الجهنم ما يعجز عنه الوصف وإزاء هذا الباب عن يمين الداخل إليه

كان يقعد الشيخ العابد جلال الدين محمد بن احمد الافشهرى وخارج باب ابراهيم بر تنسب كنسبته وعنده أيضاً دار الشيخ الصالح دانيال العجمي الذي كانت صدقات العراق في أيام السلطان ابي سعيد تأتي على يديه وبمقربة منه رباط الموفق وهو من أحسن الرباطات، سكنته أيام مجاورتي بمكة المعظمة وكان به في ذلك العهد الشيخ الصالح الطيار سعادة الجرائي ودخل يوماً إلى بيته بعد صلاة العصر فوجد ساجداً مستقبلاً السكينة الشريفة ميتاً من غير مرض كان به رضى الله عنه وسكن به الشيخ الصالح شمس الدين محمد الشامي نحواً من أربعين سنة وسكن به الشيخ الصالح شعيب المغربي من كبار الصالحين دخلت عليه يوماً فلم يقع بصري في بيته على شيء سوى حصير فقلت له في ذلك فقال لي استر على ما رأيت .

وحول الحرم الشريف دور كثيرة لها مناظر وسطوح يخرج منها إلى سطح الحرم وأهلها في مشاهدة البيت الشريف على الدوام ودرر لها ابواب تفضي إلى الحرم، منها دار زبيدة زوجة الرشيد أمير المؤمنين ومنها دار العجالة ودار الشراي وسواها، ومن المشاهد المقدسة بمقربة من المسجد الحرام قبة الوحي وهي في دار خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها بمقربة من باب الرسول ﷺ وفي البيت قبة صغيرة حيث ولدت فاطمة عليها السلام وبمقربة منها دار أبي بكر الصديق رضى الله عنه ويقابلها جدار مبارك فيه حجر مبارك بارز طرفه من الحائط يستلمه الناس ويقال انه كان يسلم على النبي ﷺ ويذكر أن النبي ﷺ سأل عن رجل فنطق ذلك الحجر وقال يا رسول الله انه ليس بحاضر .

(ذكر الصفا والمروة)

ومن باب الصفا الذي هو من ابواب المسجد الحرام إلى الصفا ست وسبعون خطوة وسعة الصفا سبع عشرة خطوة وله أربع عشرة درجة عليها من كآنها مسطبة وبين الصفا والمروة أربع مائة وثلاث وتسعون خطوة منها من الصفا إلى الميل الأخضر ثلاث وتسعون خطوة ومن الميل الأخضر إلى الميلين الأخضرين خمس وسبعون خطوة ومن الميلين الأخضرين إلى المروة ثلاثمائة وخمس وعشرون خطوة للمروة خمس درجات وهي ذات قوس واحد كبير وسعة المروة سبع عشرة خطوة والميل الأخضر هو سارية خضراء مثبتة مع ركن الصومعة التي على الركن الشرقي من الحرم عن يسار الساعى إلى المروة والميلان الأخضران هما ساريتان خضراوان ازاء باب على من ابواب الحرم أحدهما في جدار الحرم عن يسار الخارج من الباب والأخرى تقابلها وبين الميل الأخضر والميلين

الأخضرين يكون الرمل ذاهباً وعائداً وبين الصفا والمروة مسيل فيه سوق عظيمة يباع فيها الحبوب واللحم والتعمر والسمن وسواها من الفواكه والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لآزدحام الناس على حوانيت الباعة وليس بمكة سوق منتظمة سوى هذه إلا البرازون والعطارون عند باب شعبة وبين الصفا والمروة دار العباس رضى الله عنه وهى الآن رباط يقطنه المجاورون عمره الملك الناصر رحمه الله وبني أيضاً دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين وجعل لها بابين أحدهما فى السوق المذكور والآخر فى العطارين وعليها ربيع يسكنه خدامها وتولى بنساء ذلك الأمير علاء الدين بن هلال وعن يمين المروة دار أمير مكة سيف الدين عطيفة بن أبي نعيم وسند كره

(ذكر الجبانة المباركة)

وجبانة مكة خارجة باب المعلى ويعرف ذلك الموضع بالحجون وإياه عنى الحارث ابن مضاض الجرهمي بقوله (طويل)

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يستمر بمكة سامر
بسلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العوائر
وبهذه الجبانة مدفون الجرم الغيير من الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين والأولياء
إلا أن مشاهدهم دثرت وذهب عن أهل مكة علمها فلا يعرف منها إلا القليل فمن المعروف
منها قبر أم المؤمنين ووزير سيد المرسلين خديجة بنت خويلد أم أولاد النبي ﷺ
كاهن ماعدا إبراهيم وجدة السبطين الكريمين صلوات الله وسلامه على النبي ﷺ
وعليهم أجمعين ويقرب به منه قبر الخليفة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور عبد الله بن
محمد بن علي بن عبد الله بن العباس رضى الله عنهم أجمعين وفيها الموضع الذى صلب فيه
عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما وكان به بنية هدمها أهل الطائف غيرتهم لما كان
يلحق حجاجهم المبير من اللعن وعن يمين مستقبل الجبانة مسجد خراب يقال أنه المسجد
الذى بايعت الجن فيه رسول الله ﷺ وعلى هذه الجبانة طريق الصاعد إلى عرفات
وطريق الذهاب إلى الطائف وإلى العراق .

(ذكر بعض المشاهد خارج مكة)

فمنها الحجون وقد ذكرناه ويقال أيضاً أن الحجون هو الحبل المطال على الجبانة
ومنها المحصب وهو أيضاً الأبطح وهو بلى الجبانة المذكورة وفيه خيف بنى كنانة الذى

نزل به رسول الله ﷺ ومنها ذو طوى وهو واد يهبط على قبور المهاجرين التي بالحصاحص دون ثنية كداء ويخرج منه إلى الإعلام الموضوعة حجازاً بين الحل والحرم وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه إذا قدم مكة شرفها الله تعالى يبيت بنى طوى ثم يغتسل منه ويغدو إلى مكة ويذكر أن رسول الله ﷺ فعل ذلك ومنها ثنية كدى (بضم الكاف) وهى بأعلى مكة ومنها دخل رسول الله ﷺ فى حجة الوداع إلى مكة ومنها ثنية كداء (يفتح الكاف) ويقال لها الثنية البيضاء وهى بأسفل مكة ومنها خرج رسول الله ﷺ عام الوداع وهى بين جبلين وفى مضيقتها كوم حجارة موضوع على الطريق وكل من يمر به يرحمه بحجر ويقال انه قبر أبى لهب وزوجه حمالة الحطب وبين هذه الثنية وبين مكة بسيط سهل ينزله الراكب إذا صدروا عن منى وبمقربة من هذا الموضع على نحو ميل من مكة شرفها الله مسجد بازائه حجر موضوع على الطريق كما أنه مسطبة يعلوه حجر آخر كان فيه نقش فذكر رسمه يقال ان النبي ﷺ قعد بذلك الموضع مستريحاً عند مجيئه من عمرته فيتبرك الناس بتقبيله ويستندون اليه ومنها التنعيم وهو على فرسخ من مكة ومنها يعتمر أهل مكة وهو أدنى الحل إلى الحرم ومنه اعتمرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين بعثها رسول الله ﷺ فى حجة الوداع مع اخيها عبد الرحمن رضي الله عنه وأمره ان يعمرها من التنعيم وبنيت هنالك مساجد ثلاثة على الطريق تنسب كلها إلى عائشة رضي الله عنها وطريق التنعيم طريق فسيح والناس يتحرون كنسه فى كل يوم رغبة فى الأجر والثواب لأن من المتعمرين من يمشى فيه خافياً وفى هذا الطريق الآبار العذبة التى تسمى الشبيكة ومنها الزاهر وهو على نحو ميلين من مكة على طريق التنعيم وهو موضع على جانبي الطريق فيه أثر دور وبساتين وأسواق .

وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الشرب وأوانى الوضوء يملؤها خديم ذلك الموضع من آبار الزاهر وهى بعيدة القعر جداً والخديم من الفقراء المجاورين وأهل الخير يعينونه على ذلك لما فيه من المرفقة للبعتمرين من الغسل والشرب والوضوء وذو طوى يتصل بالزاهر .

(ذكر الجبال المطيعة بمكة)

فمنها جبل أبى قبيس وهو فى جهة الجنوب والشرق من مكة حرسها الله وهو احد الأخشبين وأدنى الجبال من مكة شرفها الله ويقابل ركن الحجر الأسود وبأعلاه مسجد واثار رباط وعمارة وكان الملك الظاهر رحمه الله أراد أن يعمره وهو مظل على الحرم الشريف وعلى

جميع البلد ومنه يظهر حسن مكة شرفها الله وجمال الحرم واتساعه والسكينة المعظمة
ويذكر ان جبل ابى قبيس هو أول جبل خلقه الله تعالى وفيه استودع الحجر زمان الطوفان
وكانت قریش تسميه الامين لانه أدى الحجر الذى استودع فيه الخليل ابراهيم عليه
السلام ويقال ان قبر آدم عليه السلام به وفي جبل ابى قبيس موضع موقف النبي
ﷺ حين انشق له القمر ومنها قعيقعان وهو أحد الاخشبين ومنها الجبل الاحمر وهو
في جهة الشمال من مكة شرفها الله ومنها الخندمة وهو جبل عند الشعبين المعروفين باجياد
الاكبر واجياد الاصغر ومنها جبل الطير وهو على اربعة عن جهتي طريق التعميم يقال
انها الجبال التي وضع عليها الخليل عليه السلام أجزاء الطير ثم دعاها حسبا نص الله في
كتابه العزيز عليه أعلام من حجارة ومنها جبل حراء وهو في الشمال من مكة شرفها الله
تعالى على نحو فرسخ منها وهو مشرف على منى ذاهب في الهواء على القنة وكان رسول
الله ﷺ يتعبد فيه كثيرا قبل المبعث وفيه اتاه الحق من ربه وبدا الوحي وهو الذي
اهتز تحت رسول الله ﷺ فقال ﷺ لئنبت فما عليك إلا نبي وصديق وشهيد
واختلف فيمن كان معه يومئذ ، وروى ان العشرة كانوا معه .

وقد روى أيضا أن جبل ثبير اهتز تحته أيضا ومنها جبل ثور وهو على قدر فرسخ
من مكة شرفها الله تعالى على طريق اليمن وفي الغار الذي أوى اليه رسول الله ﷺ
حين نخروجه مهاجرا من مكة شرفها الله ومعه الصديق رضى الله عنه حسبا ورد في
الكتاب العزيز ذكر الأزرقي في كتابه ان الجبل المذكور نادى رسول الله ﷺ
وقال إلى يا محمد إلى إلى فقد آويت قبلك سبعين نبيا فلما دخل رسول الله ﷺ الغار
واطمأن به وصاحبه الصديق معه نسجت العنكبوت من حينها على باب الغار وصنعت
الحنامة عشا وفرخت فيه بإذن الله تعالى فانتهى المشركون ومعهم قصاص الأثر إلى
الغار فقالوا ها هنا انقطع الأثر ورأوا العنكبوت قد نسج على فم الغار والحمام مفرخة
فقالوا ما دخل أحد هنا وانصرفوا فقال الصديق يا رسول الله لو ولجوا علينا منه قال
كنا نخرج من هنا وأشار بيده المباركة الى الجانب الآخر ولم يكن فيه باب فانفتح فيه
باب بقدره الملك الوهاب .

والناس يقصدون زيارة هذا الغار المبارك فيرومون دخوله من الباب الذي دخل
منه النبي ﷺ تبركا بذلك فمنهم من يتأتى له وينشب فيه حتى يتناول
بالجذب العنيف ومن الناس من يصلى أمامه ولا يدخله واهل تلك البلاد يقولون انه من

كان لرشدة دخله ومن كان لزنية لم يقدر على دخوله ولهذا يتحاماه كثير من الناس لأنه مخجل فاضح قال ابن جزى اخبرني بعض أشياخنا الحجاج الأكياس ان سبب صعوبة الدخول اليه هو ان بداخله مما يلي هذا الشق الذي يدخل منه حجرا كبيرا معترضا فمن دخل من من ذلك الشق منبطحا على وجهه وصل رأسه الى ذلك الحجر فلم يمكنه التولج ولا يمكنه ان ينطوي الى العلو ووجهه وصدره يليان الارض فذلك هو الذي ينشب ولا يخلص إلا بعد الجهد والجذب الى خارج من ودخل منه مستلقيا على ظهره أمكنه لأنه إذا وصل رأسه الى الحجر المعترض رفع رأسه واستوى قاعدا فكان ظهره مستندا الى الحجر المعترض وأوسطه في الشق ورجلاه من خارج الغار ثم يقوم قائما بداخل الغار (رجع)

(حكاية)

وما اتفق بهذا الجبل لصاحبين من اصحابي احدهما الفقيه المكرم ابو محمد عبد الله ابن فرحان الأفرقي التوزري والآخر أبو العباس احمد الأندلسي الوادي أشي أنهما قصدا (الغار) في حين مجاورتهما بمكة شرفها الله تعالى في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة وذهبا منفردين لم يستصحبيا دليلا عارفا بطريقه فتاها وضلا طريق الغار وسلكا طريقا سواها منقطعة وذلك في أوان اشتداد الحر وحى القيظ فلما نفدا كان عندهما من الماء وهما لم يصلا الى الغار أخذا في الرجوع الى مكة شرفها الله تعالى فوجدوا طريقا فاتبعاه وكان يفضى الى جبل آخر واشتد بهما الحر وأجهدهما العطش وعابنا الهلاك وعجز الفقيه أبو محمد فرحان عن المشى جملة وألقى بنفسه الى الأرض ونجا الأندلسي بنفسه وكان فيه فضل قوة ولم يزل يسلك تلك الجبال حتى افضى به الطريق الى اجياد فدخل الى مكة شرفها الله تعالى وقصصني وأعلمني بهذه الحادثة وبما كان من امر عبد الله التوزري وانقطاعه في الجبل وكان ذلك في آخر النهار ولعبد الله المذكور ابن عم اسمه حسن وهو من سكان وادي نخلة وكان إذ ذاك بمكة فأعلمته بما جرى على ابن عمه وقصصت الشيخ الصالح الامام ابا عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بخليل امام المالكية نفع الله به فأعلمته بخبره فبعث جماعة من اهل مكة عارفين بتلك الجبال والشعاب في طلبه وكان من أمر عبد الله التوزري انه لما فارقه رفيقه لجأ الى حجر كبير فاستظل بظله وأقام على هذه الحالة من الجهد والعطش والغربان تطير فوق رأسه وتنتظر موته فلما انصرم النهار وأتى الليل وجد في نفسه قوة ونعشه برد الليل فقام عند الصبح على قدميه ونزل من الجبل الى بطن واد حبيبت الجبال عنه الشمس فلم يزل ماشيا إلى ان بدت له دابة فقصد

قصدها فوجد خيمة للعرب فلما رأها وقع إلى الأرض ولم يستطع النهوض فرأتها صاحبة الخيمة وكان زوجها قد ذهب إلى ورد الماء فسقته ما كان عندها من الماء فلم يرو وجاء زوجها فسقاه قربة ماء فلم يرو واركبه حمارا له وقدم به مكة فوصلها عند صلاة العصر من الثاني متغيراً كانه قام من قبر.

(ذكر اميرى مكة)

وكانت إمارة مكة في عهد دخولي اليها للشريفيين الاجلين الاخوين اسد الدين رميثة وسيف الدين عطيفة ابني الأمير أبي نبي بن أبي سعد بن علي بن قتادة الحسينيين ورميثة اكبرهما سنا ولسكنه كان يقدم اسم عطيفة في الدعاء له بمكة لعده ولرميثة من الأولاد احمد وعجلان وهو امير مكة في هذا العهد وتقيه وسند وام قاسم ولعطيفة من الأولاد محمد ومبارك ومسعود ودار عطيفة عن يمين المروة ودار اخيه رميثة برباط الشراي عند باب بني شيبه وتضرب الطبول على باب كل واحد منهما عند صلاة المغرب من كل يوم

(ذكر اهل مكة وفضائلهم)

ولا اهل مكة الا افعال الجميلة والمكارم التامة والأخلاق الحسنة والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء ومن مكارمهم انهم متى صنع احدهم وليمة يبدأ فيها بالطعام الفقراء المنقطعين المجاورين ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خاق ثم يطعمهم واكثر المساكين المنقطعين يكونون بالافران حيث يطبخ الناس اخبازهم فاذا طبخ احدهم خبزه واحتمله إلى منزله فيتيه المساكين فيعطى لكل واحد منهم ما قسم له ولا يردهم خائبين ولو كانت له خبزة واحدة فانه يعطى ثلثها او نصفها طيب النفس بذلك من غير ضجر ومن افعالهم الحسنة ان الايتام الصغار يقدعون بالسوق ومع كل واحد منهم قفتان كبرى وصغرى وهم يسمون القفة مكتلا فيأتى الرجل من اهل مكة إلى السوق فيشتري الحبوب واللحم والخضر ويعطى ذلك الصبي فيجعل الحبوب في إحدى قفتيه واللحم والخضر في الأخرى ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليبيأ له طعامه منها ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته فلا يذكر ان احداً من الصديان خان الأمانة في ذلك قط بل يؤدي ما حمل على اتم الوجوه ولهم على ذلك اجرة معلومة من فلوس اهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس واكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم ابدأ ناصعة ساطعة ويستعملون الطيب كثير أو يكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الاراك الاخضر ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف وهن يكثرون التطيب حتى ان احداً من اتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيباً وهن يقصدن الطواف

بالبيت في كل ليلة جمعة فيأتين في أحسن زى وتغلب على الحرم رائحة طيبهن وتذهب المراقمهن
فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقا ولاهل مكة عوائد حسنة وغيره مستذكرا إن شاء الله
تعالى إذا فرغنا من ذكر فضائلها ومجاوريها

(ذكر قاضى مكة وخطيبها وامام الموسم وعلماؤها وصلاحاتها)
قاضى مكة العالم الصالح العابد نجم الدين محمد بن الامام محيى الدين الطبرى وهو
فاضل كثير الصدقات والمواساة لمجاورين حسن الاخلاق كثير الطواف والمشاهدة
للكعبة الشريفة يطعم الطعام الكثير في المواسم المعظمة وخصوصا في مولد رسول الله
ﷺ فانه يطعم فيه شرفاء مكة وكبراءها وفقراءها وخدام الحرم الشريف وجميع
المجاورين وكان سلطان مصر الملك الناصر رحمه الله يعظمه كثيرا وجميع صدقاته
وصدقات امرائه يجرى على يديه وولده شهاب الدين فاضل وهو الآن قاضى مكة شرفها
الله وخطيب مكة الامام بمقام ابراهيم عليه السلام الفصيح المصقع وحيد عصره بهاء
الدين الطبرى وهو أحد الخطباء الذين ليس بالمعمورة مثلهم بلاغة وحسن بيان وذكركى
انه ينشئ لكل جمعة خطبة ثم لا يكررها فيما بعد وامام الموسم وامام المالكية بالحرم الشريف
هو الشيخ الفقيه العالم الصالح الخاشع الشهير أبو عبد الله محمد بن الفقيه الامام الصالح الورع
أبى زيد عبد الرحمن وهو المشتهر بخليل نفع الله به وامتنع ببقائه واهله من تلاد الجريد من
افريقية ويعرفون بها ببني حيون من كبارها ومولده ومولد أبيه بمكة شرفها الله وهو
أحد الكبار من اهل مكة بل واحدا وقطبا باجماع الطوائف على ذلك مستغرق
العبادة في جميع أوقاته حي كريم النفس حسن الاخلاق كثير الشفقة لا يرد من
سأله خائبا .

(حكاية مباركة)

رأيت أيام مجاورتي بمكة شرفها الله وانا إذ ذاك ساكن منها بالمدرسة المظفرية النبوية
ﷺ في النوم وهو قاعد بمجلس التدريس في المدرسة المذكورة بجانب الشباك الذى
تشاهد منه الكعبة الشريفة والناس يبايعونه فكنت أرى الشيخ أبى عبد الله المدعو
بخليل قد دخل وقعد القرفصاء بين يدي رسول الله ﷺ وجعل يده في يد رسول
الله ﷺ وقال أبايعك على كذا وكذا وعدد أشياء منها وان لا أورد من بيتي
مسكينا خائبا وكان ذلك آخر كلامه فكنت أعجب من قوله وأقول في نفسى
كيف يقول هذا ويقدر عليه مع كثرة فقراء مكة واليمن والزيالة والعراق والمجتم
ومصر والشام وكنت أراه حين ذلك لابسا جبة بيضاء قصيرة من ثياب القطن المدعوة

كان تقي الدين المصري محتسبا بمكة وكان له دخول فيما يعنيه وفيما لا يعنيه فاتفق في بعض السنين ان اتى امير الحاج بصبي من ذوى الدعارة بمكة قد سرق بعض الحاج فامر بقطع يده فقال له تقي الدين ان لم تقطعها بحضرتك ولا تغلب اهل مكة خدامك عليه فاستنقذوه منهم وخلصوه فامر بقطع يده في حضرته فقطعت وحققها لتقي الدين ولم يزل يتر بهن به الدوائر ولا قدرة له عليه لأن له حسبا من الأميرين رميشة وعظيعة والحسب عندهم ان يعطى احدهم هدية من عمامة او شاشية بمحضرة الناس تكون جوار المن اعطيته ولا تزول حرمتها معه حتى يريد الرحلة والتحول عن مكة فأقام تقي الدين بمكة اعواما ثم عزم على الرحلة وودع الأميرين وطاف طواف الوداع وخرج من باب الصفا فلقبه صاحبه الأقطع وتشكى له ضعف حاله وطلب منه ما يستعين به على حاجته فاتهره تقي الدين وزجره فاستل خنجره وألحقه يعرف عندهم بالجندية وضرب به ضربا واحدة كان فيها حتفه ومنهم الفقيه الصالح زين الدين الطبري شقيق نجم الدين المذكور من اهل الفضل والإحسان الديجوريين ومنهم الفقيه المبارك محمد بن فهد القرشي من فضلاء مكة وكان يذوب عن القاضي نجم الدين بعد وفاة الفقيه

محمد بن عثمان الحنبلي ومنهم العدل الصالح محمد بن البرهان زاهد ورع مبتلى بالوسوسا رأته يوماً يتوضأ من بركة المدرسة المظفرية فيغسل ويكرروا مسح رأسه أعاد مسحه مرات ثم لم يقنعه ذلك فغطس رأسه في البركة وكان إذا أراد الصلاة بما صلى الإمام الشافعي وهو يقول نويت نويت فيصلي من غيره وكان كثير الطواف والاعتبار والذكر .

(ذكر المجاورين بمكة)

فمنهم الامام العالم الصالح الصوفي المحقق العابد عفيف الدين عبد الله بن اسعد اليماني الشافعي الشهير بالشافعي كثير الطواف آناء الليل واطراف النهار وكان إذا طاف من الليل يصعد إلى سطح المدرسة المظفرية فيقعده مشاهداً للسكينة الشريفة إلى ان يغلبه النوم فيجعل تحت رأسه حجر او ينام يسيراً ثم يحدد وضوءه ويعد لحاله من الطواف حتى يصلي الصبح وكان متزوجاً ببنت الفقيه العابد شهاب الدين بن البرهان وكانت صغيرة السن فلا تزال تشكو إلى أبيها حالها فيأمرها بالصبر فأقامت معه على ذلك سنين ثم فارقتهم الصالح العابد نجم الدين الأصفهاني كان قاضياً ببلاد الصعيد فأنقذ إلى الله تعالى وجاور بالحرم الشريف وكان يعتمر في كل يوم من التمتع ويعتمر في رمضان مرتين في اليوم اعتماداً على ما في الخبر عن النبي ﷺ انه قال عمرة في رمضان تعدا حجة معي ومنهم الشيخ الصالح العابد شمس الدين محمد الحلبي كثير الطواف والتلاوة من قدماء المجاورين توفي بمكة ومنهم الصالح ابو بكر الشيرازي المعروف بالصامت كثير الطواف اقام بمكة اعواماً لا يتكلم فيها ومنهم الصالح خضر العجمي كثير الصوم والتلاوة والطواف والشيخ الصالح برهان الدين العجمي الواعظ كان ينصب له كرسي تجاه السكينة الشريفة فيعظ الناس ويذكرهم بلسان فصيح وقلب خاشع يأخذ بمجامع القلوب والصالح المجرود برهان الدين ابراهيم المصري مقري مجيد ساكن رباط السدرة ويقصده اهل مصر والشام بصدقاتهم ويعلم الايتام كتاب الله تعالى ويقوم بمؤنهم ويكسوهم والصالح العابد عن الدين الواسطي من اصحاب الاموال الطائفة يحمل اليه من بلده المال الكثير في كل سنة فيبتاع الحبوب والتمر ويفرقها على الصنفاء والمساكين ويتولى حملها إلى بيوتهم بنفسه ولم يزل ذلك دأبه إلى ان توفي ، والفقيه الصالح الزاهد ابو الحسن علي بن رزق الله الانجري من اهل قطر طائفة من كبار الصالحين جاور بمكة سنيناً وبها وفاته كانت بينه وبين والدي صحبة قديمة ومضى إلى بلدنا طائفة نزل عندنا وكان له بيت بالمدرسة المظفرية يعلم العلم فيها نهاراً وياوي بالليل إلى مسكنه برباط ربيع وهو من احسن

الرباطات بمكة بداخله بئر عذبة لا تماثلها بئر بمكة وسكانه الصالحون وأهل ديار الحجاز يعظمون هذا الرباط تعظيماً شديداً وينذروا له النذور ومن أهل الطائف يأتونه بالفواكه ومن عاداتهم أن كل من له بستان من النخيل والعنب والفرسك وهو الخوخ والتين وهم يسمونه الخبط يخرج منه العشر لهذا الرباط ويوصلون ذلك إليه على جمالتهم ومسيرة ما بين مكة والطائف يومان ومن لم يف بذلك نقصت فواكههم في السنة الآتية وأصابها الجوائح .

(حكاية في فضيلة)

أتى يوماً غلمان الأمير أبي نمنى صاحب مكة إلى هذا الرباط ودخلوا بخيل الأمير وسقوها من تلك البئر فلما عادوا بالخيل إلى مرابطها أصابتها الأوجاع وضربت بأنفسها الأرض برؤسها وأرجلها واتصل الخيل بالأمير أبي نمنى فأتى باب الرباط بنفسه واعتذر إلى الساكنين الساكنين واستصحب واحداً منهم فمسح على بطون الدواب بيده فأراقت ما كان في أجوافها من ذلك الماء وبرئت عما أصابها ولم يتعرضوا بعدها للرباط إلا بالخيل ومنهم الصالح المبارك أبو العباس الغماري من أصحاب أبي الحسن بن رزق الله وسكن رباط ربيع ووفاته بمكة ، ومنهم الصالح أبو يعقوب يوسف من بادية سبتة كان خديماً للشيخين المذكورين فلما توفيا صار شيخ الرباط بعدهما ومنهم الصالح الساجج السالك أبو الحسن علي بن فرغوس التلمساني ومنهم الشيخ سعيد الهندي شيخ رباط كلاله .

(حكاية)

كان الشيخ سعيد قد قصد ملك الهند محمد شاه فأعطاه مالا عظيماً قدم به مكة فسيجته الأمير عطيفة وطلبه بأداء المال فامتنع فعذب بعصر رجليه فأعطى خمسة وعشرين ألف درهم نقرة وعاد إلى بلاد الهند ورأيت بها ونزل بدار الأمير سيف الدين غدا ابن هبة الله بن عيسى بن مهني أمير عرب الشام وكان غدا ساكناً ببلاد الهند متزوجاً بأخت ماسكها وسيد كرامه فأعطى ملك الهند للشيخ سعيد جملة مال وتوجه صحبه حاج يعرف بوشل من ناس الأمير غدا وجهه الأمير المذكور ليأتيه ببعض ناسه ووجه معه أموالاً وتحفاً منها الخلعة التي خلعها عليه ملك الهند ليلة زفافه بأخته وهي من الحرير الأزرق مزركشة بالذهب ومرصعة بالجواهر بحيث لا يظهر لونها لغلبة الجواهر عليها وبعث معها خمسين ألف درهم ليشتري له الخيل العتاق فسافر الشيخ سعيد صحبة وشل واشتريا سباعاً بما عندهما من الأموال فلما وصلا جزيرة سقطرة المنسوب إليها الصهر السقطري خرج عليهما اصوص الهند في مراكب كثيرة فقاتلوهم قتالاً شديداً مات فيه من الفريقين جملة وكان وشل رامياً فقتل

منهم جماعة ثم تغلب السراق عليهم وطعنوا وسلا طعنة مات منها بعد ذلك وأخذوا ما كان عندهم وتركوا لهم مركبهم بآلة سفره وزاده فذهبوا إلى عدن ومات بها وشل وعادة هؤلاء السراق أنهم لا يقتلون أحد إلا حين القتال ولا يغر قونه وإنها يأخذون ماله ويتركونه يذهب بمركبه حيث شاء ولا يأخذون الما ليك لأنهم من جنسهم وكان الحاج سعيد قد سمع من ملك الهند أنه يريد إظهار الدعوة العباسية ببلده كمثل ما فعله ملوك الهند من تقدمه مثل السلطان شمس الدين للشب واسمه (بفتح اللام الأولى ولمسكان الثانية وكسر الميم وشين معجم) وولده ناصر الدين ومثل السلطان جلال الدين فيروز شاه والسلطان غياث الدين بلبن وكانت الخلع تأتي إليهم من بغداد فلما توفي وشل قصد الشيخ سعيد إلى الخليفة أبي العباس ابن الخليفة أبي الربيع سليمان العباسي بمصر وأعلمه بالامر فكتب له كتابا بخطه بالنيابة عنه ببلاد الهند فاستصحب الشيخ سعيد السكتاب وذهب إلى اليمن واشترى بها ثلاث خلع سودا وركب البحر إلى الهند فلما وصل كنيبايت وهى على مسيرة أربعين يوما من دهلي حضرة ملك الهند كتب صاحب الخبر إلى الملك يعلمه بقدوم الشيخ سعيد وأن معه امر الخليفة وكتابه فورد الامر ببعثه إلى الحضرة مكرما فلما قرب من الحضرة بعث الأمراء والقضاة والفقهاء لتلقيه ثم خرج هو بنفسه لتلقيه فتلقاه وعانقه ودفع له الأمر فقبله ووضع على رأسه ودفع له الصندوق الذى فيه الخلع فاحتمله الملك على كاهله خطوات ولبس إحدى الخلع وكسى الأخرى الأمير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف بن عبدالعزيز الخليفة المنتصر العباسي وكان مقبلا عنده وسيدكر خبره وكسا الخلع الثالثة الأمير قبوله الملقب بالملك الكبير وهو الذى يقوم على رأسه ويشرد عنه الذباب وأمر السلطان بخلع على الشيخ سعيد ومن معه وأركبه على الفيل ودخل المدينة كذلك والسلطان أمامه على فرسه وعن يمينه وشماله الأميران اللذان كساهما الخلعين العباسيتين والمدينة قد زينت بأنواع الزينة وصنع بها إحدى عشرة قبة من الخشب كل قبة منها أربع طبقات فى كل طبقة طائفة من المغنين رجالا ونساء والراقصات وكلهم مماليك السلطان والقبة مزينة بثياب الحرير المذهب أعلاها وأسفلها وداخلها وخارجها وفى وسطها ثلاثة أحواض من جلود الجواميس مملوءة ماء قد حل فيه الجلاب يشرب به كل وارد وصادر لا يمنع منه أحد وكل من يشرب منه يعطى بعد ذلك خمس عشرة ورقة من أوراق التبول والفوفل والنورة فيأكلها فتطيب نكهته وتزيد فى حمرة وجهه ولثاته وتقمع عنه الصفراء وتهضم ما أكل من الطعام ولما ركب الشيخ سعيد على الفيل فرشت له ثياب الحرير بين يدي الفيل

يطأ عليها الفيل من باب المدينة إلى دار السلطان وانزل بدار تقرب من دار الملك وبعث له أموالاً طائلة وجميع الأثواب المعلقة والمفروشة بالقباب والموضوعة بين يدي الفيل لا تعود إلى السلطان بل يأخذها أهل الطرب وأهل الصناعات الذين يصنعون القباب وخدام الأحواض وغيرهم وهكذا فعلمهم من قدم السلطان من سفر وأمر الملك بكتاب الخليفة أن يقرأ على المنبر بين الخطبتين في كل يوم جمعة وأقام الشيخ سعيد شهرًا ثم بعث معه الملك هدايا إلى الخليفة فوصل كتبًا وأقام بها حتى تيسرت أسباب حركته في البحر وكان ملك الهند قد بعث أيضًا من عنده رسولًا إلى الخليفة وهو الشيخ رجب البرقي أحد شيوخ الصوفية وأصله من مدينة القرم من صحراء قبجق وبعث معه هدايا للخليفة منها حجر يا قوت قيمته خمسون ألف دينار وكتب له يطلب منه أن يعقد له النياية عنه ببلاد الهند والسند ويبعث له سواء من يظهر هكذا نص عليه كتابه اعتقاد منه في الخلافة وحسن نية وكان للشيخ رجب أخ بديار مصر يدعى بالأمير سيف الدين الكاشف فلما وصل رجب إلى الخليفة أبي أن يقرأ الكتاب ويقبل الهدية إلا بحضور الملك الصالح اسماعيل بن الملك الناصر فأشار سيف الدين على أخيه رجب ببيع الحجر فباعه واشترى بثمنه وهو ثلاثمائة ألف درهم أربعة أحجار وحضر بين يدي الملك الصالح ودفع له الكتاب واحد الأحجار ودفع سائرها لأمرائه وانفقوا على أن يكتب الملك الهند بما طاب فوجهوا الشهود إلى الخليفة وأشهدوا على نفسه أنه قدمه نائبًا عنه ببلاد الهند وما يليها وبعث الملك الصالح رسولًا من قبله وهو شيخ الشيوخ بمصر ركن الدين العجمي ومعه الشيخ رجب وجماعة من الصوفية وركبوا بحر فارس من الأبله إلى هرمز وسلطانها يومئذ قطب الدين تمتن طوران شاه فأكرم مشواهم وجهر لهم مركبًا إلى بلاد الهند فوصلوا مدينة كتبًا والشيخ سعيد بها وأميرها يومئذ مقبول التلثي أخذ خواص ملك الهند فاجتمع الشيخ رجب بهذا الأمير وقال له أن الشيخ سعيد إنما جاءكم بالتزوير والخلع التي ساقها إنما اشتراها بعدن فينبغي أن تثقفوه وتبعثوه لخوئند عالم وهو السلطان فقال له الأمير الشيخ سعيد معظم عند السلطان فما يفعل به هذا إلا بأمره ولست أرى فيه السلطان رأيًا وكتب الأمير بذلك كله إلى السلطان وكتب به أيضًا صاحب الأخبار فوقع في نفس السلطان تعيز وانقبض عن الشيخ رجب لسكونه تكلم بذلك على رؤوس الأشهاد بعد ما صدر من السلطان للشيخ سعيد من الإكرام ما صدر فمنع رجب من الدخول عليه وزاد إكرام الشيخ سعيد ولما دخل شيخ الشيوخ على السلطان قام إليه وعانقه وأكرمه

وكان متى دخل اليه يقوم اليه وبقى الشيخ سعيد المذكور بارض الهند معظم ما مكرما وبها
تركته سنة ثمان وأربعين وكان بمكة ايام مجاورتي بها حسن المغربي المجنون وامره غريب
وشانه عجيب وكان قبل ذلك صحب العقل خديما لولى الله تعالى نجم الدين الاصبهاني ايام حياته
(حكاية)

كان حسن المجنون كثير الطواف بالليل وكان يرى في طوافه بالليل فقيرا يكثر
الطواف ولا يراه بالنهار فلقيه ذلك الفقير ليلة وسأله عن حاله وقال يا حسن ان أمك
تبكى عليك وهي مشتاقة إلى رؤيتك وكانت من إمام الله الصالحات أفتحب ان تراها قال له
نعم واسكني لاقدرة لي على ذلك فقال له نجتمع هاهنا في الليلة المقبلة ان شاء الله تعالى
فلما كانت الليلة المقبلة وهي ليلة الجمعة وجده حيث واعدته فطافا بالبيت ماشاء الله ثم
خرج وهو في اثره إلى باب المعلى فامر ان يسد عينيه ويمسك بثوبه ففعل ذلك ثم قال بعد
ساعة اتعرف بلدك قال نعم قال هاهو هذا ففتح عينيه فاذا به على دار أمه فدخل عليها
ولم يعلمها بشيء مما جرى واقام عندها نصف شهر واظن ان بلده مدينة أسفى ثم خرج
إلى الجبانة فوجد الفقير صاحبه فقال له كيف انت فقال ياسيدى إني اشتقت إلى رؤية
الشيخ نجم الدين وكنت خرجت على عادتي وغبت عنه هذه الأيام واحب ان تردني اليه
فقال له نعم وواعده الجبانة ليلا فلما واقاه امره ان يفعل كفعله في مكة شرفها الله من
تغميض عينيه والإمساك بذيله ففعل ذلك فاذا به في مكة شرفها الله وأوصاه ان لا يحدث
نجم الدين بشيء مما جرى ولا يحدث به غيره فلما دخل على نجم الدين قال له اين كنت
يا حسن في غيبتك فأبى أن يخبره فعزم عليه فاخبره بالحكاية فقال ارني الرجل فأتى معه ليلا
وأتى الرجل على عادته فلما مر بهما قال له ياسيدى هو هذا فسمعه الرجل فضرب بيده
على فمه وقال اسكت اسكتك الله فخرس لسانه وذهب عقله وبقى بالحرم موها يطوف بالليل
والنهار من غير وضوء ولا صلاة والناس يتبركون به ويكسونه وإذا جاع خرج إلى السوق
التي بين الصفا والمروة فيقصد حانوتا من الحوانيت فيأكل منها ما أحب لا يصدده احد ولا
يمنعه بل يسر كل من أكل له شيئا وتظهر له البركة والنماء في بيعه وربحه ومتى أتى السوق تطاول
اهلها باعنا قههم اليه كل منهم يحرص على ان يأكل من عنده لما جربوه من بركته وكذلك فعله مع
السقائين متى أحب ان يشرب ولم يزل دأبه كذلك إلى سنة ثمان وعشرين فخرج فيها الأمير
صيف الدين يملك فاستصحبه معه إلى ديار مصر فاقطع خبره نفع الله تعالى به

(ذكر عادة اهل مكة في صلواتهم ومواضع انتمهم)
فمن عادتهم ان يصلى أول الأئمة لإمام الشافعية وهو المقدم من قبل أولي الأمر وصلاته

خلف المقام الكريم مقام إبراهيم الخليل عليه السلام في حطيم له هنالك بديع وجمهور الناس بمكة على مذهبه والحطيم خشبتان موصول ما بينهما بأذرع شبه السلم تقابلهما خشبتان على صفتيهما وقد عقدت على أرجل محصنة وعرض على أعلى الخشب خشبة أخرى فيها خطاطيف حديد يعلق منها قناديل زجاج فإذا صلى الإمام الشافعي صلى بعده إمام المالكية في محراب قبالة الركن اليماني ويصلي إمام الحنبلية معه في وقت واحد مقابلا ما بين الحجر الأسود والركن اليماني ثم يصلي إمام الحنفية قبال الميزاب المكرم تحت حطيم له هنالك ويوضع بين يدي الأئمة في محاريبهم الشمع وترتيبهم هكذا في الصلوات الأربع وأما صلاة المغرب فانهم يصلونها في وقت واحد كل إمام يصلي بطائفته ويدخل على الناس من ذلك سهو وتخليط فربما ركع المالكي بركوع الشافعي وسجد الحنفي بسجود الحنبلي وتراهم مصيحين كل واحد إلى صوت المؤذن الذي يسمع طائفة لئلا يدخل عليه السهو

(ذكر عاداتهم في الخطبة وصلاة الجمعة)

وعاداتهم في يوم الجمعة أن ياصق المنبر المبارك إلى صفح السكبة الشريفة فيما بين الحجر الأسود والركن العراقي ويكون الخطيب مستقبلا المقام الكريم فإذا خرج الخطيب أقبل لابسا ثوب سواد معتما بهامة سوداء وعليه طيأسان أسود كل ذلك من كسوة الملك الناصر وعليه الوقار والسكينة وهو يتهاذى بين رايتين سوداوين يحسكهما رجلان من المؤذنين وبين يديه أحد القومة في يده الفرقة وهي عود في طرفه جلد رقيق مفتول ينفضه في الهواء فيسمع له صوت عال يسمعه من بداخل الحرم وخارجه فيكون إعلاما بخروج الخطيب ولا يزال كذلك إلى أن يقرب من المنبر فيقبل الحجر الأسود ويدعو عنده ثم يقصد المنبر والمؤذن الزمزمي وهو رئيس المؤذنين بين يديه لابسا السواد وعلى عاتقه السيف يحسكاه بيده وتركن الرايتان عن جانبي المنبر فإذا صعد أول درج من درج المنبر قلده المؤذن السيف فيضرب بتصل السيف ضربة في الدرج يسمع بها الحاضرين ثم يضرب في الدرج الثاني ضربة ثم في الثالث أخرى فإذا استوى في عليا الدرجات ضرب ضربة رابعة ووقف داعيا بدعاء خفي مستقبلا السكبة ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله ويرد عليه الناس ثم يقعد ويؤذن المؤذنون في أعلى قبة زمزم في حين واحد فإذا فرغ الأذان خطب الخطيب خطبة يكثُر بها من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ويقول في أثنائها اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا البيت طائف ويشير بأصبعه إلى البيت الكريم اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ما وقف بعرفة ويرضى عن الخلفاء

الاربعة وعن سائر الصحابة وعن النبي صلى الله عليه وسلم وسبطيه وامهما وخديجة جدتهما على جميعهم السلام ثم يدعو للملك الناصر ثم للسلطان المجاهد نور الدين على ابن الملك المؤيد داود ابن الملك المظفر يوسف بن علي بن رسول ثم للسيد الشريفي الحسين اميرى مكة سيف الدين عطيفة وهو اصغر الاخوين ويقدم اسمه لعدله واسد الدين رميثة ابني ابني بن ابني سعيد بن علي بن قتادة وقد دعا السلطان العراق مرة ثم قطع ذلك فلما فرغ من خطبته وانصرف والرايتان عن يمينه وشماله والفرقة امامه اشعارا بانقضاء الصلاة ثم يعاد المنبر إلى مكانه الكريم

(ذكر عاداتهم في استهلال الشهور)

وعاداتهم في ذلك ان يأتي أمير مكة في أول يوم من الشهر وقواده يحفون به وهو لا يس البياض معتم متقلد سيفاً وعليه السكينة والوقار فيصلي عند المقام الكبير ركعتين ثم يقبل الحجر ويشرع في طواف اسبوع ورئيس المؤذنين على أعلى قبة زمزم فعند ما يكمل الأمير شوطاً واحداً يقصد الحجر لتقبيله يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء له والتهنئة بدخول الشهر رافعا بذلك صوته ثم يذ كر شعر في مدحه ومدح سلفه الكريم ويفعل به هكذا في السبعة اشواط فإذا فرغ منها ركع عند الملتزم ركعتين ثم ركع خلف المقام أيضا ركعتين ثم انصرف ومثل هذا سواء يفعل إذا أراد سفر أو إذا قدم من سفر أيضا

(ذكر عاداتهم في شهر رجب)

وإذا هل هلال رجب أمر أمير مكة بضرب الطبول والبوقات اشعارا بدخول الشهر ثم يخرج في أول يوم منه راكباً ومعه أهل مكة فرساناً ورجالا على ترتيب عجيب وكلمهم بالأسلحة يلعبون بين يديه والفرسان يجولون ويحرون والرجال يتواثبون ويرمون بحربهم إلى الهواء ويلقفونها والأمير رميثة والأمير عطيفة معهما أولادهما وقوادهما مثل محمد بن ابراهيم وعلي وأحمد ابني صديق وعلي بن يوسف وشداد بن عمرو وعامر الشرق ومنصور بن عمر وموسى المزرق وغيرهم من كبار أولاد الحسن ووجوه القواد وبين أيديهم الرايات والطبول والدفادب وعليهم السكينة والوقار ويصرون حتى ينتهوا إلى الميقات ثم يأخذون في الرجوع على معهود ترتيبهم إلى المسجد الحرام فيطوف الأمير بالبيت والمؤذن الزمزمي بأعلى قبة زمزم يدعو له عند كل شوط على ما ذكرناه من عاداته فإذا طاف صلى ركعتين عند الملتزم وصلى عند المقام وتمسح به وخرج إلى المسمى فسعى راكباً والقواد يحفون به والحرابة بين يديه ثم يسير إلى منزله وهذا اليوم عندهم عيد من الأعياد يلبسون فيه أحسن

التياب ويتنافسون في ذلك

(ذكر عمرة رجب)

وأهل مكة يحتفلون لعمرة رجب الاحتفال الذي لا يعهد مثله وهي متصلة ليلاً ونهاراً وأوقات الشهر كله معمورة بالعباد وخصوصاً أول يوم منه ويوم خمسة عشر والسابع والعشرين فإنهم يستعدون لها قبل ذلك بأيام شاهدتهم في ليلة السابع والعشرين منه وشوارع مكة قد غصت بالهوادج عليها كساء الحرير والسكتان الرقيق كل واحد يفعل بقدر استطاعته والجمال مزينة مقلدة بقلائد الحرير وأستار الهوادج ضافية تكاد تمس الأرض فهي كالقباب المضروبة ويخرجون إلى ميقات التعميم فتسيل أباطح مكة بتلك الهوادج والنيران مشعلة يجتنب الطريق والشمع والمشاعل أمام الهوادج والجبال تجيب بصداها لإهلال الممهلين فترق النفوس وتهمل الدموع فإذا قضوا العمرة وطافوا بالببيت خرجوا إلى السعي بين الصفا والمروة بعد مضى شيء من الليل والمسعى متقد السرج غاص بالناس والساعات على هوادجهم والمسجد الحرام يتلألأ نواً وهم يسمون هذه العمرة بالعمرة الأكبية لأنهم يحرمون بها من أكمة مسجد عائشة رضي الله عنها بمقدار غسوة على مقربة من المسجد المنسوب إلى علي رضي الله عنه والأصل في هذه العمرة أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشياً سافياً معتمراً ومعه أهل مكة وذلك في اليوم السابع والعشرين من رجب وانتهى إلى الأكمة فأحرم منها وجعل طريقه على ثنية الحجون إلى المعلى من حيث دخل المسلمون يوم الفتح فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة إلى هذا العهد وكان عهد عبد الله مذكوراً اهتدى فيه بدنا كبيرة وأهتدى أشراف مكة وأهل الاستطاعة منهم وأقاموا أياماً يطعمون ويطعمون شكر الله على ما وهبهم من التيسير والمعونة في بناء بيته الكريم على الصفة التي كانت عليها في أيام الخليل صلوات الله عليه ثم لما قتل ابن الزبير نقض الحجاج الكعبة وردها إلى بنائها في عهد قريش وكانوا قد اقتصروا في بنائها وأبقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك لحدثان عهدهم بالكفر ثم أراد الخليفة أبو جعفر المنصور أن يعيدها إلى بناء ابن الزبير فنهاه مالك رحمه الله عن ذلك وقال يا أمير المؤمنين لا تجعل البيت ملعبة للبلوك متى أراد أحدهم أن يغير فعل فتركه على حاله سد الذريعة وأهل البلاد الموالية لمكة مثل بجيلة وزهران وغامد يبادرون لحضور عمرة رجب ويحلبون إلى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوزة ترخص الأسرار بمكة ويرغد عيش أهلها وتعمم المرافق ولولا أهل هذه البلاد لكان أهل مكة في شظف من العيش ويندكر أنهم متى أقاموا ببلادهم ولم يأتوا بهذه الميرة أجدبت بلادهم

ووقع الموت في مواسمهم ومثي اوصولوا الميرة اخصبت بلادهم وظهرت فيها البركة ونمت
أموالهم فهم اذا حان وقت ميرتهم وأدركهم كسل عنها اجتمعت نساؤهم فأخرجتهم وهذا
من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الأمين وبلاد السرو التي يسكنها بجيله وزهران
وغامد وسواهم من القبائل مخصبة كثيرة الأغشاب وافرة الغلات وأهلها فصحاء بالأسن
لهم صدق نية وحسن اعتقادهم إذا طافوا بالكعبة يتطارحون عابها لا ئذين بجوارها
متعلقين بأستارها داعين بأدعية يتصعدع لرقتها القلوب وتدمع العيون الجامة فترى الناس
حوهم باسطي أيديهم مؤمنين على أدعيتهم ولا يتمكن لغيرهم الطواف معهم ولا استلام
الحجر لزاحمهم على ذلك وهم شجعان أنجاد ولباسهم الجلود واذا وردوا مكة هابت
اعراب الطريق مقدمهم وتجنبوا اعتراضهم ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم وذكر ان
النبي صلى الله عليه وسلم ذكرهم وأثنى عليهم خيرا وقال عليهم الصلاة يعلموكم الدعاء وكفاهم
شرفا دخولهم في عموم قوله صلى الله عليه وسلم الإيمان يمان والحكمة يمانية وذكر أن عبد الله
ابن عمر رضي الله عنهما كان يتجرى وقت طوافهم ويدخل في جملتهم تبركا بدعائهم وشأنهم
عجيب كله وقد جاء في أثر زاحمهم في الطواف فإن الرحمة تنصب عليهم صبا

(ذكر عاداتهم في ليلة النصف من شعبان)

وهذه الليلة من الليالي المعظمة عبد أهل مكة يبادرون فيها الى اعمال البر من الطواف
والصلاة جماعات وافذاذا والاعتبار ويجتمعون في المسجد الحرام جماعة لكل جماعة أمام
ويوقدون السرج والمصابيح والمشاعل ويقابل ذلك ضوء القمر ينال الأرض والسماء
نورا ويصلون مائة ركعة يقرؤن في كل ركعة بأم القرآن وسورة الإخلاص يكررونها
عشر وبعض الناس يصلون في الحجر منفردين وبعضهم يطوفون بالبيت الشريف
وبعضهم قد خرجوا للاعتبار

(ذكر عاداتهم في شهر رمضان المعظم)

واذا أهل هلال رمضان تضرب الطبول والدفادب عند أمير مكة ويقع الاحتفال
بالمسجد الحرام من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعل حتى ينال الحرم نورا
ويسطع بهجة واشراقا وتتفرق الأئمة فرقا وهم الشافعية والحنبلية والحنفية والزيدية وأما
المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع ولا تبقى في الحرم
زاوية ولا ناحية الا وفيها قارئ يصلي بجماعة فيرتج المسجد لأصوات القراء وترق
النفوس وتحضر القلوب وتهمل الأعين ومن الناس من يقتصر على الطواف والصلاة في

الحجر منفردا والشافعية أكثر الأئمة اجتهدا وعاداتهم أهم إذا أكلوا التراويح المعتادة وهي عشرون ركعة يطوف إمامهم وجماعته فإذا فرغ من الأسبوع ضربت الفرقة التي ذكرناها أن تكون بين يدي الخطيب يوم الجمعة كان ذلك إعلاما بالعودة إلى الصلاة ثم يصلي ركعتين ثم يطوف أسبوعا هكذا إلى أن يتم عشرين ركعة أخرى ثم يصلون الشمع والوتر وينصرفون وسائر الأئمة لا يزيدون على العادة شيئا وإذا كان وقت السحور يتولى المؤذن الزمزمي التسخير في الصومعة التي بالركن الشرقي من الحرم فيقوم داعيا ومذكرا وبحرضا على السحور في سائر الصوامع فإذا تكلم أحد منهم أجابه صاحبه وقد نصبت في أعلى كل صومعة خشبة على رأسها ودمعترض قد علق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يقدان فإذا قرب الفجر وقع الأذان بالقطع مرة بعد مرة حط القنديلان وابتدأ المؤذنون بالأذان وأجاب بعضهم بعضا ولديار مكة شرفها الله سطوح فن بعدت داره بحيث لا يسمع الأذان يبصر القنديلين المذكورين فيتسحر حتى إذا لم يبصرهما ألقع عن الأكل وفي ليلة وتر من ليالي العشر الآخر من رمضان يختمون القرآن ويحضر الختم القاضي والفقيه والكبراء ويكون الذي يختم بها أحد أبناء كبراء أهل مكة فإذا ختم نصب له منبر مزين بالحري وأوقد الشمع وخطب فإذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس إلى منزله فأطعمهم الأكلة الكثيرة والحلاوات وكذلك ينصرون في جميع ليالي الوتر أعظم من تلك الليالي عندهم ليلة سبع وعشرين واحتفالهم لها أعظم من احتفالهم لسائر الليالي ويختم بها القرآن العظيم خلف المقام الكريم وتقام إزاء حطيم الشافعية خشب عظام توصل بالحطيم وتعرض بينها ألواح طوال وتجعل ثلاث طابقات وعليها الشمع وقنديل الزجاج فيسكاد يغشى الأبصار شعاع الأنوار ويتقدم الإمام فيصل فيريضة العشاء الآخرة ثم يبتدىء قراءة سورة القدر وإليها يكون انتهاء قراءة الأئمة في الليلة التي قبلها وفي تلك الساعة يمسك جميع الأئمة عن التراويح تعظيما لخدمة المقام ويحضرونها متبركين فيختم الإمام في تسليمتين ثم يقوم خطيبا مستقبل المقام فإذا فرغ من ذلك عاد الأئمة إلى صلاتهم وانفض الجميع ثم يكون الختم ليلة تسع وعشرين في المقام المسالكي في منظر مختصر وعن المباهاة منزله موقر فيختم ويخطب

(ذكر عاداتهم في شوال)

وعاداتهم في شوال وهو مفتوح أشهر الحج المعلومات أن يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله ويسرجون المصابيح والشمع على نحو فعلهم في ليلة سبع وعشرين من رمضان وتوقد السرج في الصوامع من جميع جهاتها ويوقد سطح الحرم كله وسطح المسجد الذي بأعلى

أنى قبيلس ويقوم المؤذنون فى ليالتهم تلك فى تهليل وتكبير وتسبيح والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء فاذا صلوا صلاة الصبح أخذوا فى أهبة العيد ولبسوا أحسن ثيابهم وبادروا لأخذ مجالسهم بالحرم الشريف به يصلون صلاة العيد لأنه لا موضع أفضل منه ويكون أول من يبكر إلى المسجد الشيبينون فيفتحون باب الكعبة المقدسة ويقعد كبيرهم فى عتبتها وسائرهم بين يديه إلى أن يأتى أمير مكة فيتلقونه ويطوف بالبيت أسبوعا والمؤذن الزمزمى فوق سطح قبة زمزم على العادة رافعا صوته بالثناء عليه والدعاء له ولأخيه كما ذكر ثم يأتى الخطيب بين الرايتين السوداوين والفرقة أمامه وهو لا لبس السواد فيصلى خلف المقام الكريم ثم يصعد المنبر ويخطب خطبة بليغة ثم اذا فرغ منها أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام والمصافحة والاستغفار ويقصدون الكعبة الشريفة فيدخلونها أفواجا ثم يخرجون إلى مقبرة باب المعلى تبركا بمن فيها من الصحابة وصدور السلف ثم ينصرفون

(ذكر احرام الكعبة)

وفى اليوم السابع والعشرين من شهر ذى القعدة تشمر أستار الكعبة زاهيا الله تعظيما إلى نحو ارتفاع قامه ونصف من جهاتها الأربع صونا لها من الأيدي أن تنتهبها ويسمون ذلك احرام الكعبة وهو يوم مشهود بالحرم الشريف ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضى الوقفة بعرفة

(ذكر شعائر الحج وأعماله)

واذا كان فى أول يوم شهر ذى الحجة تضرب الطبول والدبابة فى أوقات الصلوات بكرة وعشية اشعارها بالموسم المبارك ولا تزال كذلك إلى يوم الصعود إلى عرفات فاذا كان اليوم السابع من ذى الحجة خطب الخطيب أثر صلاة الظهر خطبة بليغة يعلم الناس فيها مناسكهم ويعلمهم بيوم الوقفة فاذا كان اليوم الثامن بكر الناس بالصعود إلى منى وأمراء مصر والشام والعراق وأهل العلم يبيتون تلك الليلة بمعنى وتقع المباحاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق فى إيقاد الشمع ولكن الفضل فى ذلك لأهل الشام دائما فاذا كان اليوم التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح إلى عرفة فيمرون فى طريقهم بوادى محسر ويهرولون وذلك سنة ووادى محسر هو الحد ما بين مزدلفة ومنى ومزدلفة بسيط من الأرض فسيح بين جبلين وحولها مصانع وصهاريج الماء مما بنته زبيدة ابنة جعفر بن أبى جعفر المنصور زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد وبين منى وعرفة خمسة أميال وكذلك بين منى ومكة أيضا خمسة أميال وعرفة ثلاثة أسماء وهى عرفة وجمع والمعشر الحرام وعرفات

بسيط من الأرض فسيح أفيح تحديق به جبال كثيرة وفي آخر بسيط عرفات جبل الرحمة وفيه الموقف وفيما حوله والعلمان قبله بنحو ميل وهما الحد ما بين الحل والحرم وبمقربة منهما بما يلي عرفة بطن الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالارتفاع عنه ويجب التحفظ منه ويجب أيضا الإمساك عن النفور حتى يتمكن سقوط الشمس فإن الجمالين ربما استحثوا كثير من الناس وحذروهم الزحام في النفور واستدرجوهم إلى أن يصلوا بهم بطن عرفة فيبطل جهمهم وجبل الرحمة الذي ذكرناه قائم وسط بسيط جمع منقطع عن الجبال وهو من حجارة منقطع بعضها عن بعض وفي أعلاه قبة تنسب إلى أم سلمة رضي الله عنهما وفي وسطها مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه وحوله سطح فسيح يشرف على بسيط عرفات وفي قبله جدار فيه محاريب منصوبة يصلي فيه الناس وفي أسفل هذا الجبل عن يسار المستقبل للكعبة دار عتيقة البناء تنسب إلى آدم عليه السلام وعن يسارها الصخرات التي كان موقف النبي صلى الله عليه وسلم عندها وحول ذلك صهاريج وجباب للياه وبمقربة منه الموضع الذي يقف فيه الإمام ويخطب ويجمع بين الظهر والعصر وعن يسار العلمين للمستقبل أيضا وادي الأراك وبه أرك أخضر يمتد في الأرض امتدادا طويلا وإذا حان وقت النفور أشار الإمام المالكى بيده ونزل عن موقفه فدفع الناس بالنفور دفعة ترتج لها الأرض وترجف الجبال فيأله موقفا كريما ومشهدا عظيما ترجو النفوس حسن عقباة وتطمح الآمال إلى فتحات رحمة جعلها الله بمن خصه فيه برضاه وكانت وقفتي الأولى يوم الخميس سنة ست وعشرين وأمير الركب المصري يؤمئذ أرغون الدوادار نائب الملك الناصر وحجت في تلك السنة ابنة الملك الناصر وهي زوجة أبي بكر ابن أرغون المذكور وحجت فيها زوجة الملك الناصر المسماة بالخوندرة وهي بنت السلطان المعظم محمد أوزبك ملك السراوخوارزم وأمير الركب الشامي سيف الدين الجوبان ولما وقع النفور بعد غروب الشمس وصلنا مزدلفة عند العشاء الآخر فصلينا بها المغرب والعشاء جمعا بينهما حسبما جرت سنة رسول الله عليه وسلم ولما صلينا الصبح بمزدلفة غدونا منها إلى منى بعد الوقوف والدعاء بالمشعر الحرام ومزدلفة كلها موقف إلا وادي محسر ففيه تقع الهروالة حتى يخرج عنه ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار وذلك مستحب ومنهم من يلقطها حول مسجد الخيف والأمر في ذلك واسع ولما انتهى الناس إلى منى بادروا لرمي جرة العقبة ثم نحروا وذبحوا ثم خلعوا وحلوا من كل شيء إلا النساء والطيب حتى يطوفوا طواف الافاضة ورمي هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر لما

رموها توجه أكثر الناس بعد أن ذبحوا وحلقوا إلى طواف الافاضة ومنهم من أقام إلى اليوم الثاني ونال اليوم الثاني رمى الناس عند زوال الشمس بالجمرة الأولى سبع حصيات وبالوسطى كذلك ووقفوا للدعاء بهاتين الجمعتين اقتداءً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان اليوم الثالث تعجل الناس الانحدار إلى مكة شرفها الله بعد أن كمل لهم رمى تسع وأربعين حصاة وكثير منهم أقام اليوم الثالث بعد يوم النحر حتى رمى سبعين حصاة

(ذكر كسوة الكعبة)

وفي يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصري إلى البيت الكريم فوضعت في سطحه فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبانيون في اسبائها على الكعبة الشريفة وهي كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالسكتان وفي أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً الآية وفي سائر جهاتها طراز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن وعليها نور لأخ مشرق من سوادها ولما كسيت شمرت أذيالها صوتاً من أيدي الناس والملك الناصر هو الذي يتولى كسوة الكعبة السكرية ويبعث مرتبات القاضي والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقومة وما يحتاج له الحرم الشريف من الشمع والزيت في كل سنة وفي هذه الأيام تفتح الكعبة الشريفة في كل يوم للعراقيين والخراسانيين وسواهم ممن يصل مع الركب العراقي ويتم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامي والمصري أربعة أيام فيكثر فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم ولقد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليلاً فمن لقوه في الحرم من المجاورين أو المكيين أعطوه الفضة والثياب وكذلك يعطون للمشاهدين الكعبة الشريفة ويربوا وجدوا انساناً نائماً فجعلوا في فيه الذهب والفضة حتى يفيق ولما قدمت معهم من العراق سنة ثمان وعشرين فعلوا من ذلك كثيراً وأكثروا الصدقة حتى رخص سوم الذهب بمكة وانتهى صرف المثقال إلى ثمانية عشر درهما نقرة لكثرة ما تصدقوا به من الذهب وفي هذه السنة ذكر اسم السلطان أبي السعيد ملك العراق على المنبر وقبة زمزم

(ذكر الانفصال عن مكة شرفها الله تعالى)

وفي الموفى عشرين لذي الحجة خرجت من مكة صحبة أمير ركب العراق البهلوان محمد الخويج بحامين مهملين وهو من أهل الموصل وكان يلي إمارة الحاج بعد موت الشيخ شهاب الدين قلندر وكان شهاب الدين سخياً فاضلاً عظيم الحرمه عند سلطانه بحاق لحيته وحاجبيه على طريقة القلندرية ولما خرجت من مكة شرفها الله تعالى في صحبة الأمير

البهلولان المذكوران اكترى لى شقة محارة إلى بغداد ودفع إجارتهما من ماله وأنزاني في جواره وخرجنا بعد طواف الوداع إلى بطن مرفى جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والآعاجم لا يحصى عديدهم تملج بهم الأرض موجا ويسرون سير السحاب المتراكم فن خرج عن الركب لحاجة ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل عنه الكثرة الناس وفي هذا الركب نواضح كثيرة لأبناء السبيل يستقون منها الماء وجمال لرفع الزاد للصدقة ورفع الأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه مرض وإذا نزل الركب طبخ الطعام في قدور نحاس عظيمة تسمى الدسوت وأطعم منها أبناء السبيل ومن لازاد معه وفي الركب جملة من الجبال يحمل عليها من لافدرة له على المشى كل ذلك من صدقات السلطان أبي سعيد ومكارمه قال ابن جزى كرم الله هذه السكنية الشريفة فما أعجب أمرها في الكرم وحسبك بمولانا بحر المكارم ورافع رايات الجود الذي هو آية الندى والفضل أمير المسلمين أبي سعيد ابن مولانا قانع الكفار والآنخذل للاسلام بالثار أمير المسلمين يوسف قدس الله أرواحهم الكريمة وأبقى الملك في عقبهم الطاهر إلى يوم الدين (رجع) وفي هذا الركب الأسواق الخافلة والمرافق العظيمة وأنواع الأطعمة والغواكه وهم يسرون بالليل ويوقدون المشاعل أمام القطار والمحارات فترى الأرض تنال أنورا والليل وقد عادتها را ساطعا ثم رحلنا من بطن مرفى إلى عسفان ثم إلى خليص ثم رحلنا أربع مراحل ونزلنا وادى السمك ثم رحلنا خمسا ونزلنا في بدر وهذه المراحل ثلثان في اليوم احدهما بعد الصبح والاخرى بالعشى ثم رحلنا من بدر فنزلنا الصغراء واقمنا بها يوما مستريحين ومنها إلى المدينة الشريفة مسيرة ثلاث ثم رحلنا فوصلنا إلى طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحصلت لنا زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانيا واقمنا بالمدينة كرمها الله تعالى ستة أيام واستصحبنا منها الماء لمسيرة ثلاث ورحلنا عنها فنزلنا في الثالثة بوادى العروس فنزلنا منه الماء من حسيات يحفرون عليها في الأرض فينبطون ماء عندنا معينا ثم رحلنا من وادى العروس ودخلنا أرض نجد وهو بسيط من الأرض مد البصر فتدسسنا نسيجه الطيب الأرج ونزلنا بعد أربع مراحل على ماء يعرف بالعسيلة ثم رحلنا عنه ونزلنا ماء يعرف بالبقرة فيه آثار مصانع كالصهاريج العظيمة ثم رحلنا إلى ماء يعرف بالقارورة وهى مصانع مملوءة بماء المطر بما صنعتته زبيدة ابنة جعفر رحمها الله ونقحها وهذا الموضع هو وسط أرض نجد فسيح طيب النسيم صحيح الهواء نقي التربة معتدل في كل فصل ثم رحلنا من القارورة ونزلنا بالحاجر وفيه مصانع للماء وربما جفت لحفر عن الماء في الجفار

ثم رحلنا ونزلنا سميرة وهي أرض غائرة في بسيط فيه شبه حصن مسكون وماؤها كثير في آبار إلا أنه زعاق ويأتي عرب تلك الأرض بالغنم والسمن واللبن فيبيعون ذلك من الحجاج بالثياب الخام ولا يبيعون بسوى ذلك ثم رحلنا ونزلنا بالجبل المخروق وهو في بيداء من الأرض وفي أعلاه ثقب نافذة تخرقه الرياح ثم رحلنا منه إلى وادي السكروش ولما به ثم اسرينا ليلا وصبحنا حصن فيد وهو حصن كبير في بسيط من الأرض يدور به سور وعليه ربض وساكنتوه عرب بتعيشون مع الحاج في البيع والتجارة وهناك يترك الحجاج بعض أذوادهم حين وصولهم من العراق إلى مكة شرقا الله تعالى فإذا عادوا وجدوه وهو نصف الطريق من مكة إلى بغداد ومنه إلى الكوفة مسيرة اثني عشر يوما في طريق سهل به المياه في المصانع ومن عادة الركب أن يدخلوا هذا الموضع على تعبئة وأهبة للحرب أرها باللعرب المجتمعين هناك وقطعا لا طاعهم عن الركب وهناك لقينا أمير العرب وهما فياض وحيار واسمه (بكسر الحاء وإهماله وياء آخر الحروف) وهما أبناء الأمير مهني بن عيسى ومعهما من خيل العرب ورجالهم من لا يحصون كثرة فظهر منهما المحافظة على الحاج والرحال والحراطة لهم وأتى العرب بالجمال والغنم فاشترى منهم الناس ما قدروا عليه ثم رحلنا ونزلنا الموضع الأجفر ويشتهر باسم العاشقين جميل وبثينة ثم رحلنا ونزلنا بالبيداء ثم نزلنا زود وهي بسيط من الأرض فيه رمال منهالة وبه دور صغار قد أداروها شبه الحصن وهناك آبار ماء ليست بالعدبة ثم رحلنا ونزلنا الثعلبية ولها حصن خرب بازائه مصنع هائل ينزل إليه في درج وبه من ماء المطر ما يعم الركب ويجمع من العرب بهذا الموضع جمع عظيم فيبيعون الجمال والغنم والسمن واللبن ومن هذا الموضع إلى الكوفة ثلاث مراحل ثم رحلنا فنزلنا ببركة المرجوم وهو مشهد على الطريق عليه كوم عظيم من حجارة وكل من مر به رجه ويذكر أن هذا المرجوم كان رافضيا فسافر مع الركب يريد الحج فوقع بينه وبين أهل السنة من الأثر الكمشاجرة فسب بعض الصحابة فقتلوه بالحجارة وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب ويقصدون الركب بالسمن واللبن وسوى ذلك وبه مصنع كبير يعم جميع الركب مما ينه زبيدة رحمة الله عليها وكل مصنع أو بركة أو بشر بهذه الطريق التي بين مكة وبغداد فهي من كريم آثارها جزاها الله خيرا ووفي لها أجرها ولولا عنايتها بهذا الطريق ما سلكها أحد ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالمشقوق فيه مصنعان بهما الماء العذب الصافي وأراق الناس ما كان عندهم من الماء وتزودوا منهما ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالتناير وفيه مصانع بمثل الماء ثم اسرينا منه

واجتازنا ضجوة بن مالتو هي قرية معمورة بها قصر للعرب ومصنعان للماء وآبار كثيرة وهي من مناهل هذا الطريق ثم رحلنا فنزلنا الهيثمين وفيه مصنعان للماء ثم رحلنا فنزلنا دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان وصعدنا العقبة في اليوم الثاني وليس بهذا الطريق وعرسواها على أنها ليست بصعبة ولا طائلة ثم نزلنا موضعا يسمى واقصة فيه قصر كبير ومصانع للماء معمورة بالعرب وهو آخر مناهل هذا الطريق وليس فيما بعده إلى الكوفة منهل مشهور إلا بمشارع ماء الفرات وبه يتلقى كثير من أهل الكوفة الحاج ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه ويهني الناس بعضهم بعضا بالسلامة ثم نزلنا موضعا يعرف بلورة فيه مصنع كبير للماء ثم نزلنا موضعا يعرف بالمساجد فيه ثلاث مصانع ثم نزلنا موضعا يعرف بمنارة القرون وهي منارة في بيداء من الأرض بارتفاع بمائة بقرون الغزلان ولا عمارة حولها ثم نزلنا موضعا يعرف بالعذيب وهو واد مخصب عليه عمارة وحواله فلاة خصبة فيها مسرح للبصر ثم نزلنا القادسية حيث كانت الوقعة الشهيرة على الفرس التي أظهر الله فيها دين الإسلام واذل المجوس عبدة النار فلم نقيم لهم بعدها قائمة واستاصل الله شافتهم وكان أمير المسلمين يومئذ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وكانت القادسية مدينة عظيمة افتتحها سعد رضي الله عنه وخربت فلم يبق منها إلا المقادير قرية كبيرة وفيها حدائق النخل وبها مشاريع من ماء الفرات ثم رحلنا منها فنزلنا مدينة مشهد على أبي طالب رضي الله عنه بالنجف وهي مدينة حسنة في أرض فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق وأكثرها ناسا وأتقنها ببناء ولها أسواق حسنة نظيفة دخلناها من باب الخنزرة فاستقبلنا سوق البقالين والطباخين والخبازين ثم سوق الفاكهة ثم سوق الخياطين والقسارية ثم سوق العطارين ثم الحضرية حيث القبر الذي يزعمون أنه قبر علي عليه السلام وبازائه المدارس والزوايا والخوانق معمورة أحسن عمارة وحيطانها بالقاشاني وهو شبه الزليج عندنا سكن لونه أشرق ونقشه أحسن

(ذكر الروضة والقبور التي بها)

ويدخل من باب الحضرة إلى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ولكل وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم ومن تلك المدرسة يدخل إلى باب القبة وعلى بابها الحجاب والنقباء والطواشية فعندما يصل الزائر يقوم إليه أحدهم أو جميعهم وذلك على قدر الزائر فيقفون معه على العتبة ويستأذنون له ويقولون عن أمركم يا أمير المؤمنين هذا العهد الضعيف يستأذن على دخوله للروضة العالية فان اذنتم له والارجع وان لم يكن أهلا لذلك فاتم أهل المسكارم والستر ثم يأمرونه بتقبيل العتبة وهي من الفضة وكذلك

العضادتان ثم يدخل القبة وهي مفروشة بأنواع البسط من الحرير وبسواه وبها قناديل الذهب والفضة منها السكاير والصغار وفي وسط القبة مسطبة مربعة مكسوة بالخشب عليه صفائح الذهب المنقوشة بحكمة العمل مسطرة بمسامير الفضة قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه شيء وارتفاعها ودون القامة وفوقها ثلاثة من القبور يزعمون ان احدها قبر آدم عليه الصلاة والسلام والثاني قبر نوح عليه الصلاة والسلام والثالث قبر علي رضي الله تعالى عنه وبين القبر طسوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وأنواع الطيب يغمس الزائر يده في ذلك ويدهن به وجهه تبركا وللجنة باب آخر عتبة أيضا من الفضة وعليه ستور الحرير الملون يفضى إلى مسجد مفروش بالبسط الحسن مستورة جيطانه وسقفه بستور الحرير وله أربعة أبواب عتباتها فضة وعليها ستور الحرير وأهل هذه المدينة كلهم رافضية وهذه الروضة ظهرت لها كرامات ثبت بها عندهم ان بها قبر علي رضي الله عنه فنها ان في ليلة السابع والعشرين من رجب وتسمى عندهم ليلة المحيا يؤتى الى تلك الروضة بكل مقعد من العراقيين وخراسان وبلاد فارس والروم فيجتمع منهم الثلاثون والاربعون ونحو ذلك فاذا كان بعد العشاء الآخرة جعلوا فوق الضريح المقدس والناس ينتظرون قيامهم وهم ما بين مصل وذاكر وتال ومشاهد للروضة فاذا مضى من الليل نصفه او ثلثاه أو نحو ذلك قام الجميع اصحاء من غير سوء وهم يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله على ولي الله وهذا أمر مستفيض عندهم سمعته من الثقة ولم احضر تلك الليلة لسكني رأيت بمدرسة الضياف ثلاثة من الرجال أحدهم من أرض الروم والثاني من أرضها والثالث من خراسان وهم مقعدون فاستخبرتهم عن شأنهم فأخبروني انهم لم يدركوا ليلة المحيا وانهم منتظرون أو انها من عام آخر وهذه الليلة يجتمع لها الناس من البلاد ويقيمون سوقا عظيمة مدة عشرة أيام وليس بهذه المدينة مغرم ولا مكاس ولا وال وإنما يحكم عليهم نقيب الاشراف وأهلها تجار يسافرون في الاقطار وهم أهل شجاعة وكرم ولا يضام جارهم صحبتهم في الاسفار فخدمت صحبتهم لسكنهم غلوا في علي رضي الله عنه ومن الناس في بلاد العراق وغيرها من يصيبه المرض فينذر الروضة نذرا إذا برىء ومنهم من يمرض رأسه فيصنع رأسا من ذهب أو فضة ويأتي به الى الروضة فيجعل له النقيب في الخزانة وكذلك اليد والرجل وغيرهما من الأعضاء وخزانة الروضة عظيمة فيها من الأموال مالا يضبط لسكشرته

(ذكر نقيب الاشراف)

ونقيب الاشراف مقدم من ملك العراق ومكانه عنده مكين ومنزله رفيعة وله ترتيب

الأمراء الكبار في سفره وله الأعلام والأطبال وتضرب الطبليخانة عند بابه مساء وصباحا
واليه حكم هذه المدينة ولا والى بها سواه ولا منعم فيها للسلطان ولا غيره وكان النقيب في
عهد دخول إليها نظام الدين حسين بن تاج الدين الآوى نسبة إلى بلده آوة من عراق العجم
أهلها رافضة وكان قبله جماعة يلي كل واحد منهم بعد صاحبه منهم جلال الدين بن الفقيه
ومنهم قوام الدين بن طاووس ومنهم ناصر الدين مطهر بن الشريف الصالح شمس الدين محمد
الأوهرى من عراق العجم وهو الآن بأرض الهند من ندما ملكها ومنهم أبو غرة بن سالم
ابن مهني بن جمان بن شبيحة الحسيني المدني

(حكاية)

كان الشريف أبو غرة قد غلب عليه في أول أمره العبادة وتعلم العلم واشتهر بذلك وكان
بالمدينة الشريفة كرمها الله في جوار ابن عمه منصور بن جمان أمير المدينة ثم أنه خرج
عن المدينة واستوطن العراق وسكن منها بالحلة فمات النقيب قوام الدين بن طاووس
فاتفق أهل العراق على تولية أبي غرة نقابة الأشراف وكتبوا بذلك إلى السلطان أبي سعيد
فأعاضاه ونفذ له الأير ليسخ وهو الظهير بذلك وبعث له الخاظمة والأعلام والطبول على عادة
النقباء ببلاذ العراق فغلبت عليه الدنيا وترك العبادة والزهد وتصرف في الأموال
تصرفا قبيحا فرفع أمره إلى السلطان فلما علم بذلك أعمل السفر مظهرأ أنه يريد خراسان
قاصدا زيارة قبر علي بن موسى الرضا بطوس وكان قصده الفرار فلما زار علي بن موسى
قدم هراة وهي آخر بلاد خراسان وأعلم أصحابه أنه يريد بلاد الهند فرجع أكثرهم
عنه وتجاوز هو أرض خراسان إلى السند فلما تجاوز وادي السند المعروف ببنيج آب
ضرب طبوله وأنفاره فراع ذلك أهل القرى وظنوا أن التتر أتوا للاغارة عليهم
وأجفلوا إلى المدينة المسماة باوجا وأعلموا أميرها بما سمعوه فركب في عساكره واستعد
للحرب وبعث الطلائع فراوا نحو عشرة من الفرسان وجماعة من التجار والرجال ممن
صحب الشريف في طريقه معهم الأطباء والأعلام فسألوه عن شأنهم فأخبروهم أن
الشريف نقيب العراق أتى وأفدأ على ملك الهند فرجع الطلائع إلى الأمير وأخبروه بكيفية
الحال فاستضعف عقل الشريف لرفعه العلامات وضربه الطبول في غير بلاده ودخل الشريف
مدينة أوجا وأقام بها مدة تضرب الأطباء على باب داره غدوة وعشية وكان مواعا بذلك
ويذكر أنه كان في أيام نقابته بالعراق تضرب الأطباء على رأسه فإذا أمسك النصار عن
الضرب يقول له زد نقرة يا نقار حتى لقب بذلك وكتب صاحب مدينة أوجا إلى ملك الهند يخبر
الشريف وضربه الأطباء بالطريق وعلى باب داره غدوة وعشيا ورفعه الأعلام وغادة أهل

الهند أن لا يرفع علما ولا يضرب طبلا إلا من أعطاه الملك ذلك ولا يفعله إلا في السفر وأما في حال الإقامة فلا يضرب الطبل إلا على باب الملك خاصة بخلاف مصر والشام والعراق فإن الطبول تضرب على أبواب الأمراء فلما بلغ خبره ملك الهند كره فعله وأنكره وفعل في نفسه ثم خرج الأمير إلى حضرة الملك وكان الأمير كشي خان والخان عندهم أعظم الأمراء وهو الساكن بملتان كرسى بلاد السند وهو عظيم القدر عند ملك الهند يدعو بالعم لأنه كان ممن أعان أباه السلطان غياث الدين تعلق شاه على قتال السلطان ناصر الدين خسرو شاه قد قدم على حضرة ملك الهند فخرج الملك إلى لقائه فاتفق أن كان وصول الشريف في ذلك اليوم وكان الشريف قد سبق الأمير بأميال وهو على حاله من ضرب الأطباء فلم يرعه إلا السلطان في موكبته فتقدم الشريف إلى السلطان فسلم عليه وسأله السلطان عن حاله وما الذي جاء به فأخبره ومضى السلطان حتى لقي الأمير كشي خان وعاد إلى حضرته ولم يلتفت إلى الشريف ولا أمر له بإزال ولا غيره .

وكان الملك عازما على السفر إلى مدينة دولة آباد وتسمى أيضا بالكتكة (بفتح الكافين والهاء المعلوثة التي بينهما) وتسمى أيضا بالدونجر (دو كبير) وهي على مسيرة أربعين يوما من مدينة دهلي حضرة الملك .

فلما شرع الملك في السفر بعث إلى الشريف بخمسمائة دينار دراهم وصرفها من ذهب المغرب مائة وخمسة وعشرون دينارا وقال لرسوله اليه قل له إن أراد الرجوع إلى بلاده فهذا زاده وإن أراد السفر معنا فهي نفقته في الطريق وإن أراد الإقامة بالحضرة فهي نفقته حتى ترجع فأغتم الشريف لذلك وكان قصده أن يجزله العطاء كما هي عادته مع أمثاله واختار السفر صحبة السلطان وتعلق بالوزير أحمد بن إياس المدعو بخواجه جهان وبذلك سمى الملك وبه يدعو هو وبه يدعو سائر الناس فإن من عادتهم أنه متى سمى الملك أحدا باسم مضاف إلى الملك من عماد أو ثقة أو قطب باسم مضاف إلى الختان من صدور غيره فبذلك يخاطبه الملك وجميع الناس ومن مخاطبه بسوى ذلك لزمته العقوبة فأكدت المودة بين الوزير والشريف فأحسن اليه ورفع قدره ولطف الملك حتى حسن فيه رأيه وأمر له بقريتين من قرى دور آباد وأمره أن تكون إقامته بها وكان هذا الوزير من أهل الفضل والمرومة ومكارم الأخلاق والحجة في الغرباء والاحسان إليهم وفعل الخير وإطعام الطعام وعمارة الزوايا فأقام الشريف يستغل القريتين ثمانية أعوام وحصل من ذلك ما لا عظميا ثم أراد الخروج فلم يمكنه فانه من خدم السلطان لا يمكنه الخروج إلا بإذنه وهو محب في الغرباء فقليل ما يأذن لأحدهم في السراح فأراد الفرار

من طريق الساحل فردمته وقدم الحضرة ورغب من الوزير ان يحاول قضية انصرافه
فتلطف الوزير في ذلك حتى أذن له السلطان في الخروج عن بلاد الهند وأعطاه عشرة
آلاف دينار من دراهمهم وصرفها من ذهب المغرب الفان وخمسمائة دينار فأتى بها في
بدرة فجعلها تحت فراشه ونام عليها لمحبتها في الدناير وفرح بها وخوفه ان يتصل لأحد من
اصحابه شيء منها فانه كان بخيلا فأصابه وجع في جنبه بسبب رقاذه عليها ولم يزل يتزايد
به وهو أخذ في حركته سفره إلى ان توفي بعد عشرين يوما من وصول البدرة اليه أوصى بذلك
المال للشریف حسن الجرائي فتصدق بجملة على جماعة من الشيعة المقيمين بذهلي من أهل
الحجاز والعراق وأهل الهند لا يورثون بيت المال ولا يتعرضون لمال الغرباء ولا يسألون
عنه ولو بلغ ما عسى ان يباغ وكذلك السودان لا يتعرضون لمال الأبيض ولا يأخذونه انما
يكون عند الكبار من اصحابه حتى يأتي مستحقه وهذا الشریف أبو غرة له اخ اسمه قاسم
سكن غرناطة مدة وبها تزوج بنت الشریف أبي عبد الله بن ابراهيم الشهير بالمسكي ثم
انتقل إلى جبل طارق فسكنه إلى ان استشهد بوادي كركرة من نظر الجزيرة الخضراء وكان
يهمه من الهم لا يصطلي بناره خرق المعتاد في الشجاعة وله فيها اخبار شهيرة عند الناس
وترك ولدين هما في كفالة وبينهما الشریف الفاضل أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم بن نفيس
الحسيني السكر بلاني الشهير ببلاد المغرب بالعراق وكان تزوج أمهما بعد موت أبيهما وهو
محسن لها جزاه الله خيرا .

ولما تحصلت لنا زيارة أمير المؤمنين علي عليه السلام سافر الركب إلى بغداد وسافرت
إلى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة وهم أهل تلك البلاد ولهم شوكة عظيمة
وبأس شديد ولا سبيل للسفر في تلك الاقطار إلا في صحبتهم فاكثرت جملا على يد أمير تلك
القافلة شامر بن دراج الخفاجي وخرجنا من مشهد على عليه السلام فنزلنا الخورق موضع
سكنى النعمان بن المنذر وآبائه من ملوك بني ماء السماء وبه عمارة وبقايا قباب ضخمة في
قضاء فسيح على نهر يخرج من الفرات ثم رحلنا عنه فنزلنا موضعا يعرف بقائم الواثق
وبه أثر قرية خربة ومسجد خرب لم يبق منه إلا صومعته ثم رحلنا عنه آخذين مع
جانب الفرات بالموضع المعروف بالعدار وهو غابة قصب في وسط الماء يسكنها أعراب
يعرفون بالمعادي وهم قطاع الطريق رافضية المذهب خرجوا على جماعة من الفقراء
تأخروا عن رفقتنا فسلبواهم حتى النعال والكشاكل وهم يتحصنون بتلك الغابة ويمتنعون
بها ممن يريدهم والسباع بها كثيرة . ورحلنا مع هذا الغدار ثلاث مراحل ثم وصلنا
مدينة واسط .

(مدينة واسط)

وهي حسنة الأقطار كثيرة البساتين والأشجار بها أعلام يهدي الخير شاهدهم وتهدى الاعتبار مشاهدهم وأهلها من خيار أهل العراق بل هم خيرهم على الإطلاق أكثرهم يحفظون القرآن الكريم ويجيدون تجويده بالقراءة الصحيحة واليه يأتى أهل بلاد العراق برسم تعلم ذلك وكان في القافلة التي وصلنا فيها جماعة من الناس أتوا برسم تجويد القرآن على من بها من الشيوخ وبها مدرسة عظيمة حافلة فيها نحو ثلاثمائة خلوة ينزلها الغرباء الفادمون لتعلم القرآن عمرها الشيخ تقي الدين عبد المحسن الواسطي وهو من كبار أهلها وفقهاؤها ويعطى لكل متعلم بها كسوة في السنة ويجري له نفقته كل يوم ويقعد هو وأخوانه وأصحابه لتعليم القرآن بالمدرسة وقد لقيته وأضافني وزودني تمرًا ودراهم ولما نزلنا مدينة واسط أقامت القافلة ثلاثًا بخارجها للتجارة فسنح لي زيارة قبر الولي أبي العباس أحمد الرافعي وهو بقرية تعرف بام عبيدة على مسيرة يوم من واسط فطلبت من الشيخ تقي الدين أن يبعث معي من يوصلني إليها فبعث معي ثلاثة من عرب بني أسد وهم قطان تلك الجهة وأركبني فرسًا له وخرجت ظهرا فبت تلك الليلة بحوش بني أسد ووصلنا في ظهر اليوم الثاني إلى الرواق وهو رباط عظيم فيه آلاف من الفقراء وصادفنا به قدوم الشيخ أحمد كوجك حفيد ولي الله أبي العباس الرافعي الذي قصدنا زيارته وقد قدم من موضع سكناه من بلاد الروم برسم زيارته فبرجده واليه انتهت الشياخة بالرواق ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف وأخذ الفقراء في الرقص ثم صلوا المغرب وقدموا السجاط وهو خبز الأرض والسملك واللبن والنمر فأكل الناس ثم صلوا العشاء الآخرة وأخذوا في الذكر والشيخ أحمد قاعد على سجادة جده المذكور ثم أخذوا في السماع وقد أعدوا أحمالا من الحطب فأججوها نارا ودخلوا في وسطها يرقصون ومنهم من يتمرغ فيها ومنهم من يأكلها بفمه حتى أطفوها جميعا وهذا دأبهم وهذه الطائفة الأحمدية مخصوصون بهذا وفيهم من يأخذ الحية العظيمة فيعض بإسنانه على رأسها حتى يقطعه

(حكاية)

كنت مررت بموضع يقال له افقانهور من عمالة هزارامروها وبينها وبين دهلي حضرة الهند مسيرة خمس وقد نزلنا بها على نهر يعرف بنهر السرور وذلك في أوان الشكال والشكال عندهم هو المطر وينزل في إبان القيظ وكان السيل ينحدر في هذا النهر من جبال قراجيل فكل من يشرب منه من إنسان أو بهيمة يموت لنزول المطر على الحشائش المسمومة فأقننا على النهر أربعة أيام لا يقربه أحد ووصلنا إلى هنالك جماعة من الفقراء في أعناقهم

اطواق الحديد وفي أيديهم وكبيرهم رجل اسود حالك اللون وهم من الطائفة المعروفة بالحيدرية فباتوا عندنا ليلة وطلب مني كبيرهم أن آتية بالخطب ليوقدوه عند رقصهم فكلفت والى تلك الجهة وهو عزيز المعروف بالخنار (وسياتى ذكره) ان يأتى بالخطب فوجه منه نحو عشرة أحمال فاضرموا فيه النار بعد صلاة العشاء الآخرة حتى صارت جمرًا وأخذوا في السماع ثم دخلوا في تلك النار فما زالوا يرقصون ويتمرغون فيها وطلب مني كبيرهم قيصا فأعطيته قيصا في النهاية من الرقة فلبسه وجعل يتمرغ به في النار ويضربها باكمامه حتى طفت تلك النار وخدمت وجاء الى القميص والنار لم تؤثر فيه شيئًا البتة فطال عجبى منه ولما حصلت لى زيارة الشيخ أبى العباس الرفاعى نفخ الله به عدت الى مدينة واسط فوجدت الرفقة التى كنت فيها قد رحلت فلحقته فى الطريق ونزلنا ماء يعرف بالهضيب ثم رحلنا بوادى الكراع وليس به ماء ثم رحلنا ونزلنا موضعًا يعرف بالمشيرب ثم رحلنا منه ونزلنا بالقرب من البصرة ثم رحلنا فدخلنا ضحرة النهار الى مدينة البصرة .

(مدينة البصرة)

فنزلنا بهار باطل مالك بن دينار وكنت رايت عند قدومى عليها على نحو ميلين منها بناء عاليا مثل الحصن فساءلت عنه ف قيل لى هو مسجد على بن أبى طالب رضى الله عنه وكانت البصرة من اتساع الخطة وانفساح الساحة بحيث كان هذا المسجد فى وسطها وبينه الآن وبينها ميلان وكذلك بينه وبين العراق الشهيرة الذكر فى الآفاق مفسحة الأرجاء المونقة الافناء ذات البساتين الكثيرة والغواكه الأثيرة توفر قسمها من النضارة والخصب لما كانت تجمع البحرين الأجاج والعذب وليس فى الدنيا أكثر نخلا منها فيبيع التمر فى سوقها بحساب أربعة عشر رحلا عراقية بدرهم ودرهمهم ثلث النقرة ولقد بعث الى قاضيها حجة الدين بقوصرة تمر يحملها الرجل على تكلف فأردت بيعها فبيعت بتسعة دراهم أخذ الخمال منها ثلثها عن أجرة حملها من المنزل الى السوق ويصنع بها من التمر غسل يسمى السيلان وهو طيب كأنه الجلاب .

والبصرة ثلاث محلات احداها محلة هذيل وكبيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الأثير من الكرماء الفضلاء أضافنى وبعث الى بتياب ودرهم والمحلة الثانية محلة بنى حرام كبيرها السيد الشريف محمد الدين موسى الحسنى ومكارم وفواضل أضافنى وبعث الى التمر والسيلان والدرهم والمحلة الثالثة محلة المعجم كبيرها جمال الدين ابن اللوكى واهل البصرة لهم مكارم أخلاق وإيناس للغريب وقيام بحقه فلا يستوحش فيما بينهم غريب

وهم يصلون الجمعة في مسجد أمير المؤمنين على رضى الله عنه الذى ذكرته ثم يسد فلانونه
إلا فى الجمعة وهذا المسجد من أحسن المساجد وصحته متناهى الانفساح مفروس
بالحصباء الحمراء التى يؤتى بها من وادى السباع وفيه المصحف الكريم الذى كان عثمان
رضى الله عنه يقرأ فيه لما قتل وأثر تغييره الدم فى الورقة التى فيها قوله تعالى (فسيكفيناكم الله
وهو السميع العليم)

(حكاية اعتبار)

شهدت مرة هذا المسجد صلاة الجمعة فلما قام الخطيب الى الخطبة وسردها لحن فيها لحننا
كثيرا جليا فعجبت من أمره وذكرت ذلك للقاضى حجة الدين فقال لى ان هذا البلد لم
يبق به من يعرف شيئا من علم النحو وهذه عبرة لمن تفسر فيها سبحة من مغيز الأشياء ومقلب
الأمور هذه البصرة التى الى أهلها انتهت رئاسة النحو وفيها أصله وفرعه ومن أهلها إمامه
الذى لا ينكر سبقه لا يقيم خطيبها خطبة الجمعة على دؤبه عليها ولهذا الجامع سبع صوامع
إحداها الصومعة التى تتحرك بزعمهم عند ذكر على بن أبى طالب رضى الله عنه صعدت
إليها من أعلى سطح الجامع ومعى بعض أهل البصرة فوجدت فى ركن من أركانها مقبض
خشب مسمرأ فيها كانه مقبض مملسة البناء فجعل الرجل الذى كان معى يده فى ذلك
المقبض وقال بحق راس أمير المؤمنين على رضى الله عنه تحركى وهز المقبض فتحركت
الصومعة فجعلت أنا يدي فى المقبض وقلت له وأنا أقول بحق راس أبى بكر خليفة رسول
الله ﷺ تحركى وهززت المقبض فتحركت الصومعة فعجبوا من ذلك وأهل البصرة
على مذهب السنة والجماعة ولا يخاف من يفعل مثل فعلى عندهم ولو جرى مثل هذا بمشهد
الحسين أو بالحلة أو بالبحرين أو قم أو قاشان أو ساوة أو آوبة أو طوس لهلك فاعله
لأنهم رافضة غالية قال ابن جزى قد عاينت بمدينة برشانة من وادى المنصورة من بلاد
الأندلس حاطها الله صومعة تهتز من غير ان يذكر لها احد من الخلفاء أو سواهم وفى
صومعة الجامع الأعظم بها وبنائها ليس بالتقديم وهى كأحسن ما أنت راء من الصوامع
حسن منظر واعتدالا وارتفاعا لا ميل فيها ولا زبغ صعدت إليها مرة ومعى جماعة من
الناس فأخذ بعض من كان معى بجوانب جاورها وهزوها فاهتزت حتى أشرت إليهم
ان يكفوا فكفوا عن هزها (رجع)

(ذكر المشاهد المباركة بالبصرة)

فمنها مشهد طلحة بن عبد الله احد عشرة رضى الله عنهم وهو بداخل المدينة وعاليه
قبة وجامع وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر وأهل البصرة يعظمونه تعظيما شديدا

وحق له ومنها مشهد الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ وابن عمته رضي الله عنهما وهو بخارج البصرة ولا قبة عليه وله مسجد وزاوية فيها الطعام لأبناء السبيل ومنها قبر حليلة السعدية أم رسول الله ﷺ من الرضاعة رضي الله عنها وإلى جانبها قبر ابنها رضيع رسول الله ﷺ ومنها قبر أبي بكر صاحب رسول الله ﷺ وعليه قبة وعلى ستة أميال منها بقرب وادي السباع قبر أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ولا سبيل لزيارته إلا في جمع كثيف لكثرة السباع وعدم العمران ومنها قبر الحسن ابن أبي الحسن البصري سيد التابعين رضي الله عنه وقبر عتبة الغلام رضي الله عنه وقبر مالك بن دينار رضي الله عنه وقبر حبيب العجمي رضي الله عنه وقبر سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه وعلى كل قبر منها قبة مكتوب فيها اسم القبر ووفاته وذلك كله داخل السور القديم وهي اليوم بينها وبين البلد نحو ثلاثة أميال وبها سوى ذلك قبور الجحيم الغفير من الصحابة والتابعين والمستشهرين يوم الجمل وكان أمير البصرة حين ورودى عليها يسمى بركن الدين العجمي التوريزي أضافني فاحسن إلى والبصرة على ساحل العرات والدجلة وبها المد والجزر كمثل ما هو بوادي سلا من بلاد المغرب وسواها والخليج المالح الخارج من بحر فارس على عشرة أميال منها فإذا كان المد غلب الماء المالح على العذب وإذا كان الجزر غلب الماء الحلو على الماء المالح فيستسقي أهل البصرة غير جيد لدورهم ولذلك يقال أن ماءهم زعاق قال ابن جزى وبسبب ذلك كان هواه البصرة ماء غير جيد وألوان أهلها مصفره كاسفة حتى ضرب بهم المثل وقال بعض الشعراء وقد حضرت بين يدي صاحب أترجة

(سريع)

لله اترج غدا بيننا معبرا عن حال ذي عبره
لما كسا الله ثياب الضنا أهل الهوى وساكني البصرة

(رجع) ثم ركبت من ساحل البصرة في صنبوق وهو القارب الصغير إلى الإبله وبينها وبين البصرة عشرة أميال في بساتين متصلة ونخيل مظلة عن اليمين واليسار والبياعة في ظلال الأشجار يديعون الحبز والسمك والتمر واللبن والفواكه وفيما بين البصرة والإبله متعبد سهل بن عبد الله التستري فإذا حاذاه الناس بالسفن تراهم يشربون الماء مما يحاذيه من الوادي ويدعون عند ذلك تبركا بهذا الولي رضي الله عنه والنواتية يجر فون في هذه البلاد وهم قيام وكانت الإبله مدينة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس ثر بت وهي الآن قرية بها آثار قصور وغيرها دالة على عظمتها ثم ركبنا في الخليج الخارج من بحر فارس

في مركب صغير لرجل من أهل الابله يسمى بمغامس وذلك فيما بعد المغرب فصباحنا
عبادان وهي قرية كبيرة في سبخة لا عمارة بها وفيها مساجد كثيرة ومتعبدات ورباطات
للصالحين وبينها وبين الساحل ثلاثة أميال قال ابن جزى عبادان كانت بلدا فيما تقدم
وهي مجدبة لا زرع بها ولما يحجب اليها والماء ايضاً بها قليل وقد قال فيها بعض
الشعراء

(سريع)

من مبالغ اندلسا انى حلت عبادان أقصى الثرا
أوحش ما أبصرت لسكنى قصدت فيها ذكرها في الورى
الخبز فيها يتسادونم وشربة الماء بها تشتري

(رجع) وعلى ساحل البحر منها رابطة تعرف بالنسبة إلى الخضر والياس عليهما
السلام وبازائها زاوية يسكنها اربعة من الفقراء بأولادهم يخدمون الرابطة والزاوية
ويتعيشون من فتوحات الناس وكل من يمر بهم يتصدق عليهم وذكر لي أهل هذه الزاوية
أن بعبادان عابدا كبيرا القدر ولا أنيس له يأتي هذا البحر مرة في الشهر فيصطاد فيه
ما يقوته شهرا ثم لا يرى إلا بعد تمام شهر وهو على ذلك منذ أعوام فلما وصلنا عبادان
لم يكن لي شأن إلا طلبه فاشتغل من كان معي بالصلاة في المساجد والمتعبدات وانطلقت
طلبا له فجمعت مسجدا خربا فوجدته يصلى فيه فجلست في جوانبه فأوجز في صلاته ولما
سلم اخذ بيدي وقال لي بلغك الله مرادك في الدنيا والآخرة فقد بلغت بحمد الله مرادى في
الدنيا وهو السياحة في الأرض وبلغت من ذلك ما لم يبلغه غيرى فيما أعلمه وبقيت الاخرى
والرجاء قوى في رحمة الله وتجاوزته بلوع المراد من دخول الجنة ولما أتيت أصحابي أخبرتهم
خبر الرجل وأعلمتهم بموضعه فذهبوا اليه فلم يجدوه ولا وقعوا له على خبر فمجبوا من
شأنه وعدنا بالعشى إلى الزاوية فبتنا بها ودخل علينا أحد الفقراء الأربعة بعد صلاة
العشاء الآخرة ومن عادة ذلك الفقير ان يأتي عبادان كل ليلة فيسرج السرج بمساجدها ثم
يعود إلى زاويته فلما وصل إلى عبادان وجد الرجل العابد فأعطاه سمكة طرية وقال له أوصل
هذه إلى الضيف الذي قدم اليوم فقال لنا الفقير عند دخوله علينا من رأى منكم الشيخ اليوم
فقلت له أنا رأيت فقل يقول لك هذه ضيافتك فشكرت الله على ذلك وطبخنا لنا
الفقير تلك السمكة فأكلنا منها اجمعون وما أكلت قط سمكا أطيب منها وهجس في
خاطرى الإقامة ببقية العمر في خدمة ذلك الشيخ ثم صرفتنى النفس اللجوج عن ذلك ثم
ركبنا البحر عند الصبح بقصد بلدة ماجول ومن عادتي في سفري ان لا أعود على طريق

سلكتها ما أمكنني ذلك وكنت أحب قصد بغداد العراق فأشار على بعض أهل البصرة بالسفر إلى أرض اللور ثم إلى عراق العجم ثم إلى عراق العرب فعملت بمقتضى اشارته ووصلنا بعد أربعة أيام إلى بلدة ماجول على وزن فاعول وجيمها معقودة وهي صغيرة على ساحل الخليج الذي ذكرنا أنه يخرج من بحر فارس وأرضها سبخة لأشجر فيها ولا نبات ولها سوق عظيمة من أكبر الأسواق وأقيمت بها يوما واحدا ثم اكثريت دابة لركوبي من الذين يحملون الحبوب من رامزا إلى ماجول وسرنا ثلاثا في صحراء يسكنها الأكراد في بيوت الشعر ويقال أن أصلهم من العرب ثم وصلها إلى مدينة رامز وأول حروفها (راء وآخرها زاي وميمها مكسورة) وهي مدينة حسنة ذات فواكه وأنهار ونزلنا بها عند القاضي حسام الدين محمود ولقيت عنده رجلا من أهل العلم والدين والورع هندي الأصل يدعى بهاء الدين ويسمى اسماعيل وهو من أولاد الشيخ بهاء الدين أبي زكريا الملتاني وقرأ على مشايخ توريث وغيرها وأقيمت بمدينة رامز ليلة واحدة ثم رحلنا منها ثلاثا في بسيط فيسه قرى يسكنها الأكراد وفي كل مرحلة منها راوية فيها للوارد الخبز واللحم والحلواء وحلواؤهم من رب العنب مخلوط بالدقيق والسمن .

وفي كل زاوية الشيخ والإمام والمؤذنون والخدام للفقراء والعبيد يطبخون الطعام ثم وصلت مدينة تستر وهي آخر البسيط من بلاد اتابك وأول الجبال مدينة كبيرة راقية نضرة وبها البساتين الشريفة والرياض المنيفة ولها المحاسن البارعة والأسواق الجامعة وهي قديمة البناء افتتحها خالد بن الوليد ووالى هذه المدينة ينسب سهل بن عبد الله ويحيط بها النهر المعروف بالارزق وهو عجيب في نهاية من الصفا شديدة البرودة في أيام الحر ولم أركز رفته إلا نهر بلخشان ولها باب واحد للمسافرين يسمى دروازة سهول والدروازة عندهم الباب ولها ابواب غير شارعة إلى النهر وعلى جانبي النهر البساتين والدواليب والنهر عميق وعلى باب المسافرين منه جسر على القوارب كجسر بغداد والحلة قال ابن جزى وفي هذا النهر يقول بعضهم

(كامل)

انظر لشاذروان تستر واعجب من جمعه ماء لرى بلاده
كيت قوم جمعت امواله فتدا يفرقه على اجناده

والفواكل بتستر كثيرة والخيرات متيسرة ولا مثل لأسواقها في الحسن وبخارجها تربة معظمة يقصدها أهل تلك الأقطار للزيارة ويندرون لها الندور ولها زاوية بها جماعة من الفقراء وهم يزعمون أنها تربة زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وكان

نزولى من مدينة تستر فى مدرسة الشيخ الامام الصالح المتفنن شرف الدين موسى ابن
 الشيخ الصالح الامام العالم صدر الدين سليمان وهو من ذرية سهل بن عبد الله وهذا الشيخ
 ذو مكارم وفضائل جامع بين العلم والدين والصلاح والايتار وله مدرسة وزاوية وخدامها
 فتيان له اربعة سنبل وكافور وجوهر وسرور اخدم موكل بأوقاف الزاوية والثانى
 متصرف فيما يحتاج اليه من النفقات فى كل يوم والثالث خديم السباط بين ايدي الواردين
 ومرتب الطعام لهم والرابع موكل بالطباخين والسقائين والفراشين فأفمت عنده ستة عشر
 يوما فلم أر اعجب من ترتيبه ولا ارغد من طعامه يقدم بين يدي الرجل ما يكفى الاربعة
 من الارز المفلقل المطبوخ فى السمن والدجاج المقلى والخبز واللحم والحلواء وهذا الشيخ
 من احسن الناس صورة واقومهم سيرة وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع
 ولما شاهدت مجالسه فى الوعظ صغر لدى كل واعظ رأيت قبله بالحجاز والشام ومصر
 ولم الق فيمن لقيته مثله .

حضرت يوما عنده ببستان له على شاطئ النهر وقد اجتمع فقهاء المدينة وكبرائها
 وأتى الفقهاء من كل ناحية فأطعم الجميع ثم صلى بهم صلاة الظهر وقام خطيبا وواعظا
 بعد ان قرأ القرأ امامه بالتحسين المبكية والنفقات المحركة المهيجة وخطب خطبة بسكية
 ووقار وتصرف فى فنون العلم من تفسير كتاب الله وايراد حديث رسول الله والتسكلم
 على معانيه ثم ترامت عليه الرقاع من كل ناحية ومن عادة الاعاجم ان يكتسبوا المسائل
 فى رقاع ويرموا بها إلى الواعظ فيجيب عنها فلما رى اليه بذلك الرقاع جمعها فى يده
 واخذ يجيب عنها واحدة بعد واحدة بأبدع جواب واحسنه وحان وقت صلاة العصر
 فصلى بالقوم وانصرفوا وكان مجلسه مجلس علم ووعظ وبركة وتبادر التائبون فأخذ
 عليهم العهد وجزواصيمهم وكانوا خمسة عشر رجلا من الطلبة قدموا من البصرة برسم
 ذلك وعشرة رجال من عوام تستر .
 (حكاية)

لما دخلت هذه المدينة أصابني مرض الحمى وهذه البلاد يحم داخلها فى زمان الحر كما
 يمرض فى دمشق وسواها من البلاد الكثيرة الميساه والفواكه واصابت الحمى اصحابى
 ايضا فمات منهم شيخ اسمه يحيى الخراسانى وقام الشيخ بتجهيزه من كل ما يحتاج اليه
 الميت وصلى عليه وتركت بها صاحب يدعى بهاء الدين الخثنى فمات بعد سفرى وكنت
 حين مرضى لا اشتهى الاطعمة التى تصنع لى بمدرسته فذكر لى العقيه شمس الدين السندى
 من طلبتها طعاما فاشتتهته ودفعت له دراهم وطبخ لى ذلك الطعام بالسوق وأتى به لى
 فأكلت منه وبلغ ذلك الشيخ فشق عليه وأنى إلى وقال لى كيف تفعل هذا وتطبخ الطعام

في السوق وهلا أمرت الخدم أن يصنعوا لك ما تشتهيهم ثم أحضر جميعهم وقال لهم جميع ما يطلب منكم من أنواع الطعام والسكر وغيره فأنوه به واطيعوا له ما يشاء وأكد عليهم في ذلك أشد التأكيد ، جزاه الله خيراً .

ثم سافرنا من مدينة تستر ثلاثاً في جبال شامخة وبكل منزل زاوية كما تقدم ذكر ذلك ووصلنا إلى مدينة إينج (وضبط اسمها بكسر الهمزة وياء مد وذل معجم مفتوح وجيم) وتسمى أيضاً مال الأمير وهي حضرة السلطان أتابك وعند وصولي إليها اجتمعت بشيخ شيوخها العالم الورع نور الدين السكرماني وله النظر في كل الزوايا وهم يسمونها المدرسة والسلطان يعظمه ويقصد زيارته وكذلك أرباب الدولة وكبراء الحضرة يزورونه غدرا وعشياً فأكرموني وأضافني وأنزاني زاوية تعرف باسم الدينوري وأقيمت بها أياماً وكان وصولي في أيام القيظ وكنا نصلي صلاة الليل ثم ننام بأعلى سطحها ثم ننزل إلى الزاوية ضحوة وكان في صحبتي اثنا عشر فقيراً منهم إمام وقارئان بحيدان وخادم ونحن على أحسن ترتيب .

(ذكر ملك إينج وتستر)

وملك إينج في عهد دخولي إليها السلطان أتابك افراسياب بن السلطان أتابك احمد وatabك عندهم سمة لجميع من يلي تلك البلاد من ملك وهي تسمى بلاد اللور وولي هذا السلطان بعد أخيه اتابك يوسف وولي يوسف بعد أبيه احمد وكان احمد المذكور ملكاً صالحاً سمعت من الثناة ببلاده انه عمر اربعمئة وستين زاوية ببلاده بها بحضرة إينج اربع واربعون وقسم الخراج اثلاثاً ثلث لنفقة الزوايا والمدارس وثلث لمرتبة المساكن وثلث لنفقتهم ونفقة عياله وعبيده وخدامه ويبحث منه هدية لملك العراق في كل سنة وربما وفد عليه بنفسه وشاهدت من آثاره الصالحة ببلاده ان اكثرها في جبال شامخة وقد نحتت الطرق في الصخور وسويت ووسعت بحيث تصعد الدواب بأحمالها ، وطول هذه الجبال مسيرة سبعة عشر في عرض عشرة وهي شاهقة متصل بعضها ببعض تشقق الأنهار وشجرها البلوط وهم يصنعون من دقيقه الخبز وفي كل منزل من منازلها زاوية يسمونها المدرسة فإذا وصل المسافر إلى مدرسة منها أتى بما يكفيه من الطعام والعلف لدايته سواء طلب ذلك او لم يطلبه فان عادتهم ان يأتي خدام المدرسة فيبعد من نزل بها من الناس ويعطى كل واحد منهم قرصين من الخبز ولحماً وحلواء وجميعه من اوقاف السلطان عليها ، وكان السلطان اتابك احمد زاهداً صالحاً كما ذكرناه يلبس تحت ثيابه بما يلي جسده ثوب شعر .

(حكاية)

قدم السلطان اتابك احمد مرة على ملك العراق ابي سعيد فقال له بعض خواصه إن اتابك احمد يدخل عليك وعليه الدرع وظن ثوب الشعر الذي تحت ثيابه درعا فأمرهم باختبار ذلك على جهة من الانبساط ليعرف حقيقته فدخل عليه يوما فقام اليه الأمير الجويان عظيم امراء العراق والأمير سويته أمير ديار بكر والشيخ حسن الذي هو الآن سلطان العراق وامسكوا بثيابه كأنهم يمازحونه فوجدوا تحت ثيابه ثوب الشعر ورآه السلطان ابو سعيد وقام اليه وعانقه واجلسه إلى جواره وقال له سن اطا بالتركية ومعناه انت ابي وعوضه عن هديته بأضعافها وكتب له اليرليخ وهو الظهير أن لا يطالبه بهدية بعدها هو ولا اولاده وفي تلك السنة توفي وولي ابنه اتابك يوسف عشرة أعوام ثم ولي اخوه افراسياب ولما دخلت مدينة لايدج اردت رؤية افراسياب المذكور فلم يأت لي ذلك بسبب أنه لا يخرج إلا يوم الجمعة لإدامة على الخمر وكان له ابن هو ولي عهده و ليس له سواه فمرض في تلك الأيام وفي إحدى الليالي أتاني أحد خدامه وسألني عن حال فعرفته وذهب ثم جاء بعد صلاة المغرب ومعه حليفوران كبيران أحدهما بالطعام والآخر بالفاكهة وخريطة فيها دراهم ومعه اهل السماع بآلاتهم وقال اعملوا السماع حتى يزهد الفقراء ويدعون لابن السلطان فقلت له إن اصحابي لا يدرون بالسماع ولا بالرقص ودعونا للسلطان ولولده وقسمت الدراهم على الفقراء ولما كان نصف الليل سمعنا الصراخ وقد مات المريض المذكور وفي الغد دخل على شيخ الزاوية واهل البلد وقالوا إن كبراء المدينة من القضاة والفقهاء والاشراف والامراء قد ذهبوا إلى دار السلطان للعزاء فينبغي لك ان تذهب في جمعتهم فأبيت أفزعزموا علي فلم يكن لي بد من المسير وسرت معهم فوجدت مشور دار السلطان ممتلئاً رجالاً وصبياناً من الممالك وابناء الملوك والوزراء والاجناد قد لبسوا التلابيس وجلال الدواب وجعلوا فوق رؤسهم التراب والتين وبعضهم قد جز ناصيته وانقسموا فرقتين فرقة بأعلى المشور وفرقة بأسفله وتزحف كل فرقة إلى الأخرى وهم ضاربون بأيديهم على صدورهم قائلين خوند كار ما ومعناه مولاي أنا قرأيت من ذلك امرأ هائلا ومنظراً فظيماً لم اعهد مثله .

(حكاية)

ومن غريب ما اتفق لي يومئذ أني دخلت فرأيت القضاة والخطباء والشرفاء قد استندوا إلى حيطان المشور وهو غاص بهم من جميع جهاته وهم بين بك ومتباك ومطرو وقد لبسوا فوق ثيابهم ثياباً خامة من غليظ القطن غير محكمة الخياطة بطائنها إلى أعلى ووجوهها مما يلي أجسادهم وعلى راس كل واحد منهم خرقة أو مشرر اسود ، وهكذا يكون

فعلهم إلى تمام أربعين يوماً وهي نهاية الحزن عندهم وبعدها يبعث السلطان لكل من فعل ذلك كسوة كاملة .

فلما رأيت هذه المشورة غاصت بالناس نظرت يميناً وشمالاً ارتاد موضعاً لجلوسى فرأيت هنالك سقيفة مرتفعة عن الأرض بمقدار شبر وفي إحدى زواياها رجل منفرد عن الناس قاعد عليه ثوب صوف مثل اللبد يلبسه بتلك البلاد ضعفاء الناس أيام المطر والثلج وفي الأسفار فتقدمت منه وانقطع عني أصحابي لما رأوا إقدامي نحوه وعجبوا مني وأنا لا أعلم لي بشيء من حاله فصعدت السقيفة وسلمت على الرجل فرد على السلام وارتفع عن الأرض كأنه يريد القيام وهم يسمعون ذلك نصف القيام وقعدت في الركن المقابل له ثم نظرت إلى الناس وقد رموني بأبصارهم جميعاً فعجبت منهم ، ورأيت الفقهاء والمشايخ والأشراف مستندين إلى الحائط تحت السقيفة وأشار إلى أحد القضاة أن أنحط إلى جانبه فلم أفعل وحينئذ استشعرت أنه السلطان فلما كان بعد ساعة أتى شيخ المشايخ نور الدين الكرمانى الذى ذكرناه قبل فصعد إلى السقيفة وسلم على الرجل فقام إليه وجلس فيما بيني وبينه فحينئذ علمت أنه السلطان .

ثم جرى بالجنائزة وهي بين أشجار الأترج والليمون وقد ملؤا أغصانها بثمارها وهي بأيدي الرجال فسكان الجنائزة تمشي في بستان والمشاعل في رماح طوال بين يديها والشمع كذلك فصلى عليها وذهب الناس معها إلى مدفن الملوك وهو بموضع يقال له هلافيحان على أربعة أميال من المدينة وهنالك مدرسة عظيمة يشقها نهر وبداخلها مسجد تقام فيه الجمعة ويخارجها حمام ويحف بها بستان عظيم وبها الطعام للوارد والصادر ولم أستطع أن أذهب معهم إلى المدفن لبعيد الموضع فعدت إلى المدرسة

فلما كان بعد أيام بعث إلى السلطان رسوله الذى أتاني بالضيافة أولاً يدعوني إليه فذهبت معه إلى باب يعرف بباب السر وصعدنا في درج كثيرة إلى أن انتهينا إلى موضع لا فرش به لأجل ما هم فيه من الحزن والسلطان جالس فوق عتبة وبين يديه آنيتان قد غطيتا إحداهما من الذهب والأخرى من الفضة وكانت بالجلوس سجادة خضراء ففرشت لي بالقرب منه وقعدت عليها وليس بالجلوس إلا حاجبه الفقيه محمود ونديم له لا أعرف اسمه فسألتني عن حالى وبلادى وسألتني عن الملك الناصر وبلاد الحجاز فأجبتته عن ذلك ثم جاء فقيه كبير هو رئيس فقهاء تلك البلاد ، فقال لي السلطان : هذا مولانا فضيل والفقيه ببلاد الأعاجم كلما إنما يخاطب بمولانا وبذلك يدعو السلطان وسواه ، ثم أخذ في الثناء على الفقيه المذكور ، وظهر لي أن السكر غالب عليه ، وكنت قد عرفت إدمانه على الخمر ثم قال لي باللسان العربى وكان يحسنه تكلم

فقلت له إن كنت تسمع مني أقول لك أنت من أولاد السلطان أتاك أحمد المشهور بالزهد والصلاح وليس فيك ما يقدح في سلطنتك غير هذا وأشرت إلى الآيتين فجل من كلامي وسكت وأردت الانصراف فأمرني بالجلوس وقال لي الاجتماع مع أمثالك رحمة ثم رايته يتمايل ويريد النوم فأنصرفت وكنت تركت نعلي بالباب فلم أجده فنزل المعقيه محمرد في طلبه وصعد الفقية فضل يطلبه في داخل المجلس فوجده في طاق هنالك فأتى به فأخجاني بره واعتذرت اليه فقبل نعلي ووضعته على راسه وقال لي بارك الله فيك هذا الذي قلته لسلطاننا لا يقدر احد ان يقوله له غيرك والله إنى لأرجو ان يؤثر ذلك فيه .

ثم كان رحيلي من حضرة لينج بعد ايام فنزلت بمدرسة السلاطين التي بها قبورهم واقمت بها اياما وبعث إلى السلطان بجملة دنانير وبعث بمثلها لأصحابي وسافرنا في بلاد هذا السلطان عشرة ايام في جمال شاختة وفي كل ليلة ننزل بمدرسة فيها الطعام فمنا ما هو في العماره ومنها ما لاعماره حواه ولكن يجلب اليها جميع ما تحتاج اليه وفي اليوم العاشر نزلنا بمدرسة تعرف بمدرسة كريو الرخ وهي آخر بلاد الملك وسافرنا منها في بسيط من الأرض كثير المياه من عمالة مدينة اصفهان

ثم وصلنا إلى بلدة اشتركان (وضبط اسمها بضم الهمزة وإسكان الشين المعجم وضم التاء المعلو وإسكان الراء وآخره نون) وهي بلدة حسنة كثيرة المياه والبساتين ولها مسجد بدیع يشقه النهر ثم رحلنا منها إلى مدينة فيروزان واسمها كآنه تثنية فيروز وهي مدينة صغيرة ذات انهار واشجار وبساتين وصلناها بعد صلاة العصر فراينا اهلها قد خرجوا للتشيع جنازة وقد اوقدوا خلفها وامامها المشاعل واتبعوها بالمزامير والمغنيين بأواع الاغاني المطربة ، فمعجبنا من شأنهم وبتنا بها ليلة وسررنا بالغد بقرية يقال لها نيلان وهي كبيرة على نهر عظيم وإلى جانبه مسجد على النهاية من الحسن تصعد اليه في درج وتحفه البساتين وسرنا يومنا فيما بين البساتين والمياه والقرى الحسان وابراج الحمام ووصلنا بعد العصر إلى مدينة اصفهان من عراق المعجم (واسمها يقال بالفاء الخالصة ويقال بالفاء المعقودة المنخمة) ومدينة اصفهان من كبار المدن وحسانها إلا انها الآن قد خرب اكثرها بسبب الفتنة التي بين اهل السنة والروافض وهي متصلة بينهم حتى الآن فلا يزالون في قتال وبها الفواكة السكثيرة ومنها المشمش الذي لا نظير لها يسمونه بقمر الدين وهم ييبسونه ويدخرونه ونواه ينسكس عن لوز حلوا ومنها السفرجل الذي لا مثيل له في طيب الطعم وعظم الجرم والاعتاب الطيبة والبطيخ العجيب الشأن الذي لا مثيل له في الدنيا الا ما كان من بطيخ بخاري وخوارزم وقشره

أخضر وداحله أحمر ويدخر كما تدخر الشريحة بالمغرب وله حلة شديدة ومن لم يكن ألف أكله فإنه في أول أمره يسلمه وكذلك اتفق لي لما أكلته بأصفهان وأهل أصفهان حسان الصور وألوانهم بيض زاهرة مشوبة بالحمرة والغالب عليهم الشجاعة والنجدة وفيهم كرم وتنافس عظيم فيما بينهم في الأطعمة تؤثر عندهم فيه أخبار غريبة ورمادعا أحدهم صاحبه فيقول له اذهب معي لنأكل نان وماس والنان بلسانهم الخبز والماس اللبن فإذا ذهب معه أطعمه أنواع الطعام العجيب مباهاياه بذلك وأهل كل صناعة يقدمون على أنفسهم كبير أمنهم يسمونه الكواو وكذلك كبار المدينة من غير أهل الصناعات وتكون الجماعة من الشبان الاعزاب وتفاخر تلك الجماعات ويضيف بعضهم بعضا مظهرين لما قدروا عليه من الامكان مختلفين في الأطعمة وسواها الاحتفال العظيم ولقد ذكر لي أن طائفة منهم أضافت أخرى فطبخوا طعامهم بنار الشمع ثم أضافتها الأخرى فطبخوا طعامهم بالحرير وكان نزولي بأصفهان في زاوية تنسب للشيخ علي بن سهل تلميذ الجنيد وهي معظمة يقصدها أهل تلك الآفاق ويتبركون بزيارتها وفيها الطعام للوارد والصادر وبها حمام عجيب مفروش بالرخام وحيطانه بالقاشاني وهو موقوف في السبيل لا يلزم أحدا في دخوله شيء وشيخ هذه الزاوية الصالح العابد الورع قطب الدين حسين بن الشيخ الصالح ولي الله شمس الدين محمد بن محمود بن علي المعروف بالرجاء واخوه العالم المفتي شهاب الدين أحمد أقمت عند الشيخ قطب الدين بهذه الزاوية أربعة عشر يوما فرأيت من اجتهاده في العبادة وحبه في الفقراء والمساكين وتواضعه لهم ما قضيت منه العجب وبالغ في الكرامى واحسن ضيافتي وكساني كسوة حسنة وساعة وصولي الزاوية بعث إلى الطعام بثلاث بطيخات من البطيخ الذي وصفناه آنفا ولم اكن رأيت قبل ولا اكلته (كرامة لهذا الشيخ)

دخل على يوم ما بموضع نزولي من الزاوية وكان ذلك الموضع يشرف على بستان للشيخ وكانت ثيابه قد غسلت في ذلك اليوم ونشرت في البستان ورأيت في جملتها جبة بيضاء مبطنة تدعى عندهم هزرميخي فاعجبته وقلت في نفسي مثل هذه كنت اريد فلما دخل على الشيخ نظر في ناحية البستان وقال لبعض خدامه ائتني بذلك الثوب الهزرميخي فاتوا به فكساني لياها فاهويت إلى قدميه وقبلتهما وطلبت منه ان يلبسني طاقية من رأسه ويجيزني في ذلك بما اجازه والده عن شيوخه فالبسني اياها في الرابع عشر لجادى الاخرة سنة سبع وعشرين وسبعمائة بزاويته المذكورة كما لبس من والده شمس الدين ولبس من والده أبيه تاج الدين محمود ولبس محمود من أبيه شهاب الدين على الرجاء ولبس على من الإمام شهاب

الدين ابي حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي ولبس عمر من الشيخ الكبير ضياء الدين ابي النجيب السهروردي ولبس ابو النجيب من عمه الامام وحيد الدين عمر ولبس عمر من والده محمد بن عبد الله المعروف بعمويه ولبس محمد من الشيخ أخى فرج الزنجاني ولبس اخو فرج من الشيخ احمد الدينوري ولبس احمد من الامام محمد الدينوري ولبس محمد من الشيخ المحقق علي بن سهل الصوفي ولبس علي ابي القاسم الجنيد ولبس الجنيد من سري السقطي ولبس سري السقطي من داود الطائي ولبس داود من الحسن بن ابي الحسن البصري ولبس الحسن بن ابي الحسن البصري من أمير المؤمنين علي بن ابي طالب قال ابن جزى هكذا أورد الشيخ أبو عبد الله هذا السند والمعروف فيه أن سريا السقطي صاحب معروف السكرنجي وصاحب معروف داود الطائي وكذلك داود الطائي بينه وبين الحسن حبيب العجمي وأخوه فرج الزنجاني إنما المعروف أنه صاحب ابا العباس النهاوندي وصاحب النهاوندي ابا عبد الله بن خفيف وصاحب ابن خفيف ابا محمد وربما صاحب روجم ابا القاسم الجنيد واما محمد بن عبد الله عمويه فهو الذي صاحب الشيخ احمد الدينوري الاسود وليس بينهما احد والله اعلم والذي صاحب اخا فرج الزنجاني هو عبد الله بن ابن محمد بن عبد الله والدي ابي النجيب (رجع) ثم سافرا من اصفهان بقصد زيارة الشيخ محمد الدين بشيراز وبينهما مسيرة عشرة ايام فوصلنا إلى بلدة كليل (وضبطها بفتح الكاف وكسر اللام وياء مد) وبينهما وبين اصفهان مسيرة ثلاثة وهي بلدة صغيرة ذات انهار وبساتين وفواكه رايت التفاح يباع في سوقها خمسة عشر رطلا عراقية بدرهم ودرهمهم ثلث النقرة ونزلنا منها بزاوية عمرها كبير هذه البلدة المعروف بخواجه كافي وله مال عريض قد اعانه الله على انفاقه وسبيل الخيرات من الصدقة وعمارة الزوايا وإطعام الطعام لا بناء السبيل ثم سرنا من كليل يومين ووصلنا إلى قرية كبيرة تعرف بصوماء وبها زاوية فيها الطعام للوارد والصادر عمرها خواجه كان المذكور ثم سرنا منها إلى يزد خاص (وضبط اسمها بفتح الياء آخر الحروف واسكان الزاي وضم الدال المهمل وناء معجم وألف وصاد مهمل) بلدة صغيرة متقنة العمارة حسنة السوق والمسجد الجامع بها عجيب مبني بالحجارة مسقف بها والبلدة على صفة خندق فيه بساتينها ومياها وبخارجها رباط ينزل به المسافرين عليه باب حديد وهو في النهاية من الحصانة والمنعة وبداخله حوانيت يباع فيها كل ما يحتاجه المسافرين وهذا الرباط عمره الامير محمد شاه ينجو والدا السلطان ابي اسحاق ملك شيراز وفي يزد خاص يصنع الجبن اليزد خاصي ولا نظير له في طيبيه وزن الجبنه منه

من أوقيتين إلى أربع ثم سرنا منها على طريق دشت الروم وهي صحراء يسكنها
الأتراك ثم سافرنا إلى ماين (واسمها بيابن مسغولتين أو لاهما مكسورة) وهي بلدة
صغيرة كثيرة الأنهار والبساتين حسنة الأسواق وأكثر أشجارها الجوز ثم سافرنا منها
إلى مدينة شيراز وهي مدينة أصلية البناء فسيحة الأرجاء شهيرة الذكر منيفة القدر لها
البساتين المونقة والأنهار المتدفقة والأسواق البديعة والشوارع الرفيعة وهي كثيرة
العمارة متقنة المبانى عجيبة الترتيب وأهل كل صناعة في سوقها لا يخاطهم غيرهم حسان
الصور نظاف الملابس وليس في المشرق بلدة تدانى مدينة دمشق في حسن أسواقها وبساتينها
وأنهارها وحسن صور ساكنيها إلا شيراز وهي في بساط من الأرض تحف بها
البساتين من جميع الجهات وتشققها خمسة أنهار أحدها النهر المعروف بركن آباد وهو عذب
الماء شديد البرودة في الصيف سخن في الشتاء فينبعث من عين في سفح جبل هنالك يسمى
القلبيعه ومسجدها الأعظم يسمى بالمسجد العتيق وهو أكبر المساجد ساحة وأحسنها
بناء وصحنه متسع مفروش بالمرمر ويفسل في أوان الحر كل ليلة ويجتمع فيه كبار أهل
المدينة كل عشية ويصلون به المغرب والعشاء وبشماله باب يعرف بباب حسن يفضى
إلى سوق الفاكمة وهي من أبداع الأسواق وأنا أقول بتفضيلها على باب البريد من دمشق
وأهل شيراز أهل صلاح ودين وعفاف وخصوصا نساؤها وهن يلبسن الخفاف ويخرجن
ملتحفات متبرعات فلا يظهر منهن شيء ولهن الصدقات والايثار ومن غريب حالهن انهن
يجمعن لسماع الواعظ في كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالجامع الأعظم فرما اجتمع منهن
الآلاف والألفان بايديهن المراوح يروحن بها على أنفسهن من شدة الحر ولم ار اجتماع
النساء في مثل عددهن في بلدة من البلاد وعند دخولي إلى مدينة شيراز لم يكن لي هم
إلا قصد الشيخ القاضي الامام قطب الأولياء فريد الدهر ذي الكرامات الظاهرة بمجد
الدين اسماعيل بن محمد بن خداد ومعنى خداد عطية الله فوصلت إلى المدرسة المجدية
المسوبة اليه وبها سكناه وهي من عمارته فدخلت اليه رابع اربعة من اصحابي ووجدت
الفقهاء وكبار أهل المدينة في انتظاره فخرج إلى صلاة العصر ومعه محب الدين وعلاء الدين
ابنا اخيه شقيقه روح الدين احدهما عن يمينه والاخر عن شماله وهما نائبا في القضاء لضعف
بصره وكبر سنه فسلمت عليه وعانقني وأخذ بيدي إلى أن وصل إلى مصلاه فارسل يدي
واوما إلى أن أصلي إلى جانبه ففعلت وصلى العصر ثم قرأ بين يديه من كتاب المصابيح
وشوارق الأنوار للصاغاني وطالعا نائبا بما جرى ليهما من القضايا وتقدم كبار

المدينة للسلام عليه وكذلك عاداتهم معه صباحا ومساء ثم سألتني عن حالى وكيفية قدومي وسألتني عن المغرب ومصر والشام والحجاز فأخبرته بذلك وأمر خدامه فأنزلوني بدويرة صغيرة بالمدرسة وفي غد ذلك اليوم وصل اليه رسول ملك العراق السلطان أبي سعيد وهو ناصر الدين الدرقي من كبار الأمراء خراساني الأصل فعند وصوله اليه نزع شاشيته عن راسه وهم يسمونها السكلا وقبل رجل القاضي وقعد بين يديه ممسكا اذن نفسه بيده وهكذا فعل امرأ التتر عند ملوكهم وكان هذا الأمير قد قدم في نحو خمسمائة فارس من مماليكه وخدامه واصحابه ونزل خارج المدينة ودخل إلى القاضي في خمسة نفر ودخل مجلسه وحده منفرداً تادباً .

(حكاية هي السبب في تعظيم هذا الشيخ وهي من الكرامات الباهرة)

كان ملك العراق السلطان محمد خدابنده قد صحبه في حال كفره ففقيه من الروافض الامامية يسمى جمال الدين بن مطهر فلما اسلم السلطان المذكور واسلمت باسلامه التتر زاد في تعظيم هذا الفقيه فزين له مذهب الروافض وفضله على غيره وشرح له حال الصحابة والخلافة وقررديه أن أبا بكر وعمر كانا وزيرين لرسول الله وأن علياً ابن عمه وصهره فهو وارث الخلافة ومثل له ذلك بما هو مألوف عنده من أن الملك الذي بيده انما هو وارث عن أجداده وأقاربه مع حدثان عهد السلطان بالكفر وعدم معرفته بقواعد الدين فأمر السلطان بحمل الناس على الرض وكتب بذلك إلى العراقيين وفارس واذربيجان واصفهان وكرمان وخراسان وبعث الرسل إلى البلاد فكان أول بلاد وصل إليها بغداد وشيراز واصفهان فأما أهل بغداد فامتنع أهل باب الأزج منهم وهم أهل السنة وأكثروهم على مذهب الامام احمد بن حنبل وقالوا لا سمع ولا طاعة وأتوا المسجد الجامع في يوم الجمعة ومعهم السلاح وبه رسول السلطان فلما صعد الخطيب المنبر قاموا إليه وهم اثني عشرة الفا في سلاحهم وهم حماة بغداد والمشار اليهم فيها فحلفوا له أنه إن غير الخطبة المعتادة إن زاد فيها أو نقص منها فانهم قاتلوه وقاتلوا رسول الملك ومستسلمون بعد ذلك لما شاء الله وكان السلطان امر بأن تسقط أسماء الخلفاء وسائر الصحابة من الخطبة ولا يذكر إلا اسم علي ومن تبعه كعبار رضى الله عنهم فخاف الخطيب من القتل وخطب الخطبة المعتادة وفعل أهل شيراز واصفهان كفعلة أهل بغداد فرجعت الرسل إلى الملك فأخبروه بما جرى في ذلك فأمر أن يؤتى بقضاة المدن الثلاث فكان أول من أتى به منهم القاضي مجد الدين قاضي شيراز والسلطان اذ ذاك في موضع يعرف بقرا باغ وهو موضع مصيفه فلما وصل

القاضي أمر أن يرمى به إلى الكلاب التي عنده وهي كلاب ضخام في أعناقها السلاسل معدة لأكل بني آدم فإذا أوتي بمن يساط عليه الكلاب جعل في رحبة كبيرة مطلقا غير مقيد ثم بعثت تلك الكلاب عليه فيفر أمامها ولا مفر له فتدركه فتمزقه وتاكل لحمه فلما أرسلت الكلاب على القاضي مجد الدين ووصلت إليه بصيبت إليه وحركت أذنانها بين يديه ولم تهجم عليه بشيء فباع ذلك السلطان فخرج من داره حافي القدمين فأكب على رجلي القاضي يقبلهما وأخذ بيده وخلع عليه جميع ما كان عليه من الثياب وهي أعظم كرامات السلطان عندهم وإذا خلع ثيابه كذلك على أحد كانت شرفا له ولبنيه وأعقابا به يتوارثونه ما دامت تلك الثياب أو شيء منها وأعظمها في ذلك السراويل ولما خلع السلطان ثيابه على القاضي مجد الدين أخذ بيده وأدخله إلى داره وأمر نساءه بتعظيمه والتبرك به ورجع السلطان عن مذهب الرفض وكتب إلى بلاده أن يقر الناس على مذهب أهل السنة والجماعة وأجزل العطاء للقاضي وصرفه إلى بلاده مكرما معظما وأعطاه في جملة عطايه مائة قرية من قرى جملان وهو خندق بين جبلين طوله أربعة وعشرون فرسخا يشقه نهر عظيم القرى منتظمة بجانيه وهو أحسن موضع بشيراز ومن قراه العظيمة التي تضاهي المدن قرية إيمين وهي للقاضي المذكور ومن عجائب هذا الموضع المعروف بجملكان أن نصفه مما يلي شيراز وذلك مسافة اثني عشر فرسخا شديد البرد وينزل فيه الشاي وأكثر شجره الجوز والجزء الآخر مما يلي بلاد هنج وبال وبلاد اللار في طريق هرمز شديد الحر وفيه شجر النخيل .

وفد تكرري لقاء القاضي مجد الدين ثانية حين خروجه من الهند قصصته من هرمز متبركا بلقائه وذلك سنة ثمان وأربعين وبين هرمز وشيراز مسيرة خمسة وثلاثين يوما فدخلت عليه وهو قد ضعف عن الحركة فسلمت عليه فعرفني وقام إلى فماني ووقعت يدي على مرفقه وجلده لاصق بالعظم لالحم بينهما وأنزلني بالمدرسة حيث أنزلني أول مرة وذرتني يوما فوجدت ملك شيراز السلطان أبا إسحاق وسيقع ذكره قاعدا بين يديه ممسكا بإذن نفسه وذلك هو غاية الأدب عندهم ويفعله الناس إذا قدموا بين يدي الملك وأتيته مرة أخرى إلى المدرسة فوجدت بابها مسدودا فسألت عن سبب ذلك فأخبرت أن أم السلطان وأخته نشأت بينهما خصومة في ميراث فصر فهما إلى القاضي مجد الدين فوصلتا إليه إلى المدرسة ونحا كتما عنده وفصل بينهما بواجب الشرع وأهل شيراز لا يدعونه بالقاضي وإنما يقولون له مولانا أعظم وكذلك يكتبون في التسيجيلات والعقود التي

تفتقر الى ذكر اسمه فيها وكان آخر عهدي به في شهر ربيع الثاني من عام ثمانية وأربعين وسبعمائة ولاحت على أنواره وظهرت لي بركاته نفع الله به وبأمثاله

(ذكر سلطان شيراز)

وسلطان شيراز في عهد قدومي عليها الملك الفاضل ابو اسحاق بن محمد شاه ينجو سماه أبوه باسم الشيخ أبي اسحاق الكازروني نفع الله به وهو من خيار السلاطين حسن الصورة والسيرة والهيئة كريم النفس جميل الأخلاق متواضع صاحب قوة وملك كبير وعسكره ينيف على خمسين الفا من الترك والأعاجم وبطائه الأدنون اليه اهل اصفهان وهو لا ياتمن أهل شيراز على نفسه ولا يستخدمهم ولا يقربهم ولا يبيع لأحد منهم حمل السلاح لأنهم أهل نجدة وبأس شديد وجرامة على الملوك ومن وجد بيده السلاح منهم عوقب ولقد شاهدت رجلا مرة تجره الجنادة وهم الشرط الى الحاكم وقد ربطوه في عنقه فسألت عن شأنه فاخبرت انه وجدت في يده قوس بالليل فذهب السلطان المذكور الى قهر أهل شيراز وتفضيل الأصفهانيين عليهم لأنه يخافهم على نفسه وكان أبوه محمد شاه ينجو واليا على شيراز من قبل ملك العراق وكان حسن السيرة محببا الى أهلها فلما توفي ولي السلطان أبو سعيد مكانه الشيخ حسينا وهو ابن الجويان أمير الأمراء وسيأتي ذكره وبعث معه العساكر الكثيرة فوصل الى شيراز وملسكها وضبط مجازيها وهي من أعظم بلاد الله مجي .

ذكر لي الحاج قوام الدين الطمغجي وهو والي الحج بها انه ضمنها بعشرة آلاف دينار دراهم في كل يوم وصرفها من ذهب المغرب الفان وخمسمائة دينار ذهبيا وأقام بها الأمير حسين مدة ثم أراد القدوم على ملك العراق فقبض على أبي اسحاق بن محمد شاه ينجو وعلى أخويه ركن الدين ومسعود بك وعلى والدته طاش خاتون وأراد حملهم الى العراق ليطالبوا بأموال أبيهم فلما توسطوا السوق بشيراز كشفت طاش خاتون وجهها وكانت متبرقة حياء ان ترى في تلك الحال فان عادة نساء الأتراك ان لا يغطين وجوههن واستغاثت بأهل شيراز وقالت أهكذا يا أهل شيراز أخرج من بينكم وأنا فلانة زوجة فلان فقام رجل من التجارين يسمى بهلوان محمود قد رأيته بالسوق حين قدومي على شيراز فقال لا تركها تخرج من بلدنا ولا نرضى بذلك فتابعه الناس على قوله وثاروا عليهم ودخلوا في السلاح وقتلوا كثيرا من العسكر وأخذوا الأموال وخلصوا المرأة وأولادها وفر الأمير حسين ومن معه وقدم على السلطان أبي سعيد مهزوما فأعطاه العساكر الكشيفة وأمره بالعود الى شيراز والتحكم في أهلها بما شاء فلما بلغ أهلها ذلك علموا انهم لا طاقة لهم به فقصدها القاضي مجتهد الدين وطلبوا منه ان يحقق دماء الغريقين ويوقع الصلح فخرج إلى

الأمير حسن فترجل له الأمير عن فرسه وسلم عليه ووقع الصالح ونزل الأمير حسين ذلك اليوم خارج المدينة فلما كان من الغد برز أهلها للقاءه في أجمل ترتيب وزينوا البلد وأوقدوا الشمع الكثير ودخل الأمير حسين في أبيه وحفل عظيم وسار فيهم بأحسن سيرة فلما مات السلطان أبو سعيد وانقرض عقبه وتغلب كل أمير على ما بيده خافهم الأمير حسين على نفسه وخرج عنهم وتغلب السلطان أبو اسحاق عليها وعلى أصفهان وبلاد فارس وذلك مسيرة شهر ونصف شهر واشتدت شوكته وطمحت همته إلى تملك ما يليه من البلاد فبدأ بالأقرب منها وهي مدينة نردمة مدينة حسنة نظيفة عجيبة الأسواق ذات أنهار مطردة وأشجار نضيرة وأهلها تجار شافعية المذهب فحاصرها وتغلب عليها وتحصن الأمير مظهر شاه ابن الأمير محمد شاه بن مظهر بقلعة على ستة أميال منها منيعة تحديق بها الرمال فحاصره بها فظهر من الأمير مظهر من الشجاعة ما خرق المتماد ولم يسمع بمثله فكان يضرب على عسكر السلطان إلى اسحق ليلا ويقتل ما شاء ويحرق المضارب والفساطيط ويعود إلى قلعته فلا يقدر على النيل منه وضرب ليلة على دوار السلطان وقتل هنالك جماعة وأخذ من عتاق خيله عشرة وعاد إلى قلعته فأمر السلطان أن تتركب في كل ليلة خمسة آلاف فارس ويصنعون له السكائن وتلاحقت العساكر فقاموا بهم وخلص إلى قلعته ولم يصب من أصحابه إلا واحدا أتى به إلى السلطان أبي اسحاق فخلع عليه وأطلقه وبعت معه أما نالمظهر لينزل إليه فأبى ذلك ثم وقعت بينهما المراسلة ووقعت له محبة في قلب السلطان أبي اسحاق لما رأى من شجاعته فقال أريد أن أراه فإذا رأيته انصرفتم عنه فوقف السلطان في خارج القلعة ووقف هو بيابها وسلم عليه فقال له السلطان انزل على الأمان فقال له مظهر إنني عاهدت الله أن لا انزل إليك حتى تدخل أنت قلعتي وحينئذ أنزل إليك فقال له افعل ذلك فدخل إليه السلطان في عشرة من أصحابه الخواص .

فلما وصل باب القلعة ترجل مظهر وقبل ركابه ومشى بين يديه مترجلا فأدخله داره وأكل من طعامه ونزل معه إلى المحلة راكبا فأجلسه السلطان إلى جانبه وخلع عليه ثيابه وأعطاه مالا عظيما ووقع الاتفاق بينهما أن تكون الخطبة باسم السلطان أبو اسحاق وتكون البلاد لمظهر وأبيه . وعاد السلطان إلى بلاده .

وكان السلطان أبو اسحاق طمع ذات مرة إلى بناء إيوان كايوان كسرى وأمر أهل شيراز أن يتولوا حفر أساسه فآخذوا في ذلك وكان أهل كل صناعة يباهون من عداهم فآتاهم في المباهاة إلى أن صنعوا القفاف لتقل التراب من الجلود وكسوها ثياب الحرير المزركش وفعلوا

نحو ذلك في براذع الدواب واخراجها وصنع بعضهم الفؤس من الفضة وأوقدوا الشمع الكثير وكانوا حين الحفر يلبسون أجمل ملابسهم ويربطون فوط الحرير على أوساطهم والسلطان يشاهد أفعالهم من منظره له وقد شاهدت هذا المبنى وقد ارتفع عن الأرض نحو ثلاثة أذرع ولما بنى أساسه رفع عن أهل المدينة التخديم فيه وصارت العملة تخدم فيه بالآجرة ويحشر لذلك آلاف منهم وسمعت والى المدينة يقول إن معظم مجباها ينفق في ذلك البناء وقد كان الموكل به الأمير جلال الدين بن الفيلسكى التوريزى وهو من الكبار كان أبوه نائباً عن وزير السلطان أبى سعيد المسمى على شاه جيلان ولهذا الأمير جلال الدين الفيلسكى أخ فاضل اسمه هبة الله ويلقب بهاء الملك وقد على ملك الهند حين وفودى عليه ووفد معنا شرف الملك أمير بخت نخلع ملك الهند علينا جميعاً وقدم كل واحد في شغل يليق به وعين لنا المرتب والإحسان وسندكر ذلك وهذا السلطان أبو إسحاق يريد التشبه بملك الهند المذكور فى الإيثار وإجزال العطايا واسكن ابن الثريا من الثرى وأعظم ما تعارفنا من اعطيات أبى إسحاق انه اعطى الشيخ زاده الخراسانى الذى اتاه رسولا عن ملك هراة سبعين ألف دينار واما ملك الهند فلم يزل يعطى اضعاف ذلك لمن لا يحصى كثرة من اهل خراسان وغيرهم .

(حكاية)

ومن عجيب فعل ملك الهند مع الخراسانيين انه قدم عليه رجل من فقهاء خراسان هروى المولد من سكان خوارزم يسمى بالأمير عبد الله بعثته الخاتون ترابك زوج الأمير قطلود مور صاحب خوارزم بهدية إلى ملك الهند المذكور فقبلها وكافأ عنها بأضعافها وبعث ذلك اليها واختار رسولها المذكور الإقامة عنده فصيره فى ندمائه فلما كان ذات يوم قال له ادخل إلى الخزانة فارفع منها قدر ما تستطيع أن تحمله من الذهب فرجع إلى داره فأتى بثلاث عشرة خريطة وجعل فى كل خريطة قدر ما وسعته وربط كل خريطة بعضو من أعضائه وكان صاحب قوة وقام بها فلما خرج من الخزانة وقع ولم يستطع النهوض فأمر السلطان بوزن ما خرج به فكان جملة ثلاث عشرة مناً يمينان دهلى والمن الواحد منها خمسة وعشرون رطلاً مصرية فأمره أن يأخذ جميع ذلك فأخذه .

(حكاية تناسبها)

اشتكى مرة أمير بخت الملقب بشرف الدين الخراسانى وهو الذى تقدم ذكره آنفاً بحضرة ملك الهند فأناه الملك عائداً ولما دخل عليه اراد القيام فخلف له الملك أن لا ينزل عن كته والى السرى ووضع للسلطان متكأة يسمونها المورة فقعده عليها ثم دعا بالذهب والميزان فأحضرا وامر المريض ان يقعد فى إحدى كفتى الميزان فقال يا خوند عالم

لوعلمت أنك تفعل هذا للبت على ثيابا كثيرة فقال له البس الآن جميع ما عندك من الثياب
فليس ثيابه المعدة للبرد المحشوة بالقطن وقعد في كفة الميزان ووضع الذهب في الكفة
الأخرى حتى رجحه الذهب وقال له خذ هذا فتصدق به على رأسك وخرج عنه

(حكاية تناسبها)

وفد عليه الفقير عبد العزيز الاردوبلي وكان قد قرأ علم الحديث بدمشق فتفقه فيه
فجعل مرتبه مائة دينار دراهم في اليوم وصرف ذلك خمسة وعشرون دينارا ذهبيا وحضر
مجلسه يوما فسأله السلطان عن حديث فسر له أحاديث كثيرة في ذلك المعنى فأعجبه
حفظه وحلف له برأسه أنه لا يزول من مجلسه حتى يفعل معه ما يراه ثم نزل الملك عن
مجلسه فقبل قدميه وأمر بإحضار صينية من ذهب وهي مثل الطيغور الصغير وأمر
أن يأتي فيها ألف دينار من الذهب وأخذها السلطان بيده فصحبها عليه وقال هي لك من
الصينية * ووفد عليه مرة رجل خراساني يعرف بأن الشيخ عبد الرحمن الأسفرايني
وكان أبوه نزل بغداد فأعطاه خمسين ألف دينار دراهم وخيلا وعبيدا وخدماء * وسندكر
كثيرا من اخبار هذا الملك عند ذكر بلاد الهند وإنما ذكرنا هذا لما قدمناه من
أن السلطان أبا اسحق يريد التشبيه به في العطايا وهو وإن كان كريما فاضلا فلا يالحق
بطبقة ملك الهند في الكرم والسخاء .

﴿ ذكر بعض المشاهد بشيراز ﴾

فمنها مشهد ابن موسى أخى على الرضا بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين
ابن على بن ابي طالب رضى الله تعالى عنهم وهو مشهد معظم عند أهل شيراز يتبركون
به ويتوسلون إلى الله تعالى بفضله وبنت عليه طائش خاتون أم السلطان ابى اسحق مدرسة
كبيرة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر والقراء يقرؤن القرآن على التربة دائما ومن عادة
الخاتون انها تأتي إلى هذا المشهد في كل ليلة اثنين ويجمع في تلك الليلة القضاة والفقهاء والشرفاء
وشيراز من أكثر بلاد الله شرفاء سمعت من الثقات ان الذين لهم بها المرتبات من الشرفاء
الف واربعمائة ونيف بين صغير وكبير ونقيبهم عضد الدين الحسيني فإذا حضر القوم بالمشهد
المذكور ختموا القرآن قراءة في المصاحف وقرأ القراء بالأصوات الحسنة وأتى بالطعام
والفواكه والحلواء فاذا أكل القوم وعظ الواعظ ويكون ذلك كله بعد صلاة الظهر إلى
العشي والخاتون في غرفة مطاة على المسجد لها شباك ثم تضرب الطبول والنفار والبوقات
على باب التربة كما يفعل عند أبواب الملوك * ومن المشاهد بها مشهد الامام القطب الولى ابى
عبد الله خفيف المعروف عندهم بالشيخ وهو قدوة بلاد فارس كلها ومشهده معظم عندهم
يانون اليهم بكرة وعشيا فيتمسحون به وقد رأيت القاضي مجد الدين اتاه زائرا واستلبه

الخاتون إلى هذا المسجد في كل ليلة جمعة وعليه زاوية ومدرسة ويجتمع به القضاء والفقهاء
ويفعلون به كفعالهم في مشهد أحمد بن موسى وقد حضرت الموضعين جميعاً وتربة الأمير محمد
شاه ينجو والد السلطان أبي إسحاق متصلة بهذه التربة والشيخ أبو عبد الله بن خفيف كبير القدر
في الأولياء شهير الذكر وهو الذي أظهر طريق جبل سرنديب بجزيرة سيلان من
أرض الهند .

(كرامة لهذا الشيخ)

يحكى أنه قصد مرة جبل سرنديب ومعه نحو ثلاثين من الفقراء فأصابتهم مجاعة
في طريق الجبل حيث لا عمارة وتأهوا عن الطريق وطلبوا من الشيخ أن يأذن لهم في
القبض على بعض الفيلة الصغار وهي في ذلك المحل كثيرة جداً ومنه تحمل إلى حضرة
ملك الهند فنهاهم الشيخ عن ذلك فعاب عليهم الجوع فتعدوا قول الشيخ وقبضوا على
فيل صغير منها وذكوه وأكوا لحمه وامتنع الشيخ عن أكله فلما ناموا تلك الليلة
اجتمعت الفيلة من كل ناحية وأتت إليهم فكانت تشم الرجل منهم وتقتله حتى أتت
على جميعهم وشمّت الشيخ ولم تتعرض له وأخذت فيل منها ولف عليه خرطومها ورمى
به على ظهره وأتى به الموضع الذي فيه العمارة فلما رآه أهل تلك الناحية عجبوا منه
واستقبلوه ليتعرفوا أمره فلما قرب منهم أمسكه الفيل بخرطومها ووضعته عن ظهره إلى
الأرض بحيث يرويه فجاءوا إليه وتمسكوا به إلى ملكهم فعرفوه خبره وهم كفار وأقام
عندهم أياماً وذلك الموضع على خور يسمى خور الخيزران والخور هو النهر وبذلك الموضع
مغاص الجواهر ويذكر أن الشيخ غاص في بعض الأيام بمحض مملكتهم وخرج وقد ضم
يديه معاً وقال للملك اختر مالك في إحداهما فاختر ما في اليمنى فرمى إليه بما فيها وكانت
ثلاثة أحجار من الياقوت لا مثل لها وهي عند ملوكهم في التاج يتوارثونها وقد دخلت جزيرة
سيلان هذه وهم مقيمون على الكفر إلا أنهم يظلمون فقراء المسلمين ويؤوّنهم إلى دورهم
ويطعمونهم الطعام ويكوّنون في بيوتهم ويبيع أهلهم وأولادهم خلافاً لساير كفار الهند فانهم
لا يقربون المسلمين ولا يطعمونهم في آنيتهم ولا يشقونهم فيها مع أنهم لا يؤذونهم ولا
يمجونهم ولقد كنا نضطر إلى أن يطبخ لنا بعضهم اللحم فيأتون به في قدورهم ويقعدون
على بعد منا ويأتون بأوراق الموز فيجعلون عليها الأرز وهو طعامهم ويصنّبون عليه السكوشال
وهو الإدام ويدهبون فيها كل منه وما فضل علينا تاكله الكلاب والطيور وإن أكل منه
الولد الصغير الذي لا يعقل ضربوه وأطعموه روث البقر وهو الذي يظهر ذلك في زعمهم
ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح القطب روض جهان القبلي من كبار الأولياء وقبره في مسجد

جامع يخطب فيه وبذلك الجامع يصلي القاضي مجد الدين الذي تقدم ذكره رضى الله عنه
وبهذا سمعت عليه كتاب مسند الامام ابي عبد الله محمد بن ادريس الشافعي قال أخبرتنا
به وزيره بنت عمر بن المنجنا قالت أخبرنا ابو عبد الله الحسين بن ابي بكر بن المبارك
الزيدي قال أخبرنا زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي قال أخبرنا ابو الحسن المكي
ابن محمد بن منصور بن علان العرضي قال أخبرنا القاضي ابو بكر احمد بن الحسن الجرشي عن
ابي عباس بن يعقوب الأصم عن الربيع بن سليمان المرادي عن الإمام ابي عبد الله الشافعي
وسمعت ايضا عن القاضي مجد الدين بهذا الجامع المذكور كتاب مشارق الأنوار الامام
رضي الدين ابي الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصاغاني بحق سمعته له من الشيخ
جلال الدين ابي هاشم محمد بن محمد بن احمد الهاشمي الكوفي بروايته عن الإمام نظام
الدين محمود بن عمر الهراوي عن المصنف ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح زركوب
وعليه زاوية لإطعام الطعام .

وهذه المشاهد كلها بداخل المدينة وكذلك معظم قبور أهلها فان الرجل منهم يموت
ولده او زوجته فيتخذ له تربة من بعض بيوت داره ويدفنه هناك ويفرش البيت
بالحصر والبسط ويجعل الشمع الكثير عند راس الميت ورجليه ويصنع للبيت بابا إلى
ناحية الزقاق وشباك حديد فيدخل منه القراء يقرؤن بالأصوات الحسان وليس في
معمور الأرض أحسن اصواتا بالقرآن من أهل شيراز ويقوم أهل الدار بالتربة
ويفرشونها ويوقدون السرج بها فكان الميت لم يبرح وذكر لي انهم يطبخون في كل
يوم نصيب الميت من الطعام ويتصدقون به عنه

(حكاية)

مررت يوما ببعض أسواق مدينة شيراز فرأيت بها مسجدا متقنا البناء جميل الفرش وفيه
مصاحف موضوعة في خرائط حرير موضوعة فوق كرسي وفي الجهة الشمالية من المسجد
زاوية فيها شباك مفتوح إلى جهة السوق وهناك شيخ جميل الهيئة واللباس وبين يديه مصحف
يقرأ فيه فسلمت عليه وجلست إليه فسألتني عن مقدمي فاخبرته وسألته عن شأن هذا المسجد
فاخبرني انه هو الذي عمره ووقف عليه أوقافا كثيرة للقراء وسواهم وان تلك الزاوية التي
جلست إليه فيها هي موضع قبره ان قضى الله موته بتلك المدينة ثم رفع بسطا كان تحته والقبر
مغطى عليه الواح خشب وارانى صندوقا كان بازائه فقال في هذا الصندوق كفن وحنوطي
ودراهم كنت استأجرت بها نفسي في حفر بئر لرجل صالح فدفع لي هذه الدراهم فتركتها
لتكون نفقة مواراني وما فضل منها يتصدق بها فعجبت من شأنه واردت الانصرف فحلف
علي وأضافني بذلك الموضع ومن المشاهد بخارج شيراز قبر الشيخ الصالح المعروف بالسعدي

وكان اشعر اهل زمانه باللسان الفارسي وربما المع في كلامه بالعربي وله زاوية كان قد عمرها بذلك الموضع حسنة بداخلها بستان مليح وهي بقرب راس النهر الكبير المعروف بركن اباد وقد صنع الشيخ هنالك احواضا صغارا من المرمر لغسل الثياب فيخرج الناس من المدينة لزيارته وياكلون من سماطه ويغسلون ثيابهم بذلك النهر وينصرفون وكذلك فعلت عنده رحمه الله ومقربة من هذه الزاوية زاوية أخرى تتصل بها مدرسة مبنية على قبر شمس الدين السمانى وكان من الأمراء الفقهاء ودفن هنالك بوصية منه بذلك .

ومدينة شیراز من الفقهاء الشريف مجد الدين وامره فى الكرم عجيب وربما جاد بكل ما عنده وبالثياب التى كانت عليه ويلبس مرقعة فيدخل عليه كبار المدينة فيجدونه على تلك الحال فيسكسونه ومرتبته فى كل يوم من السلطان خمسون دينار دراهم ثم كان خروجى من شیراز برسم زيارة قبر الشيخ الصالح ابى اسحاق السكازونى بكازرون وهى على مسيرة يومين من شیراز فنزلنا اول يوم ببلاد الشول وهم طائفة من الأعاجم يسكنون البرية وفيهم الصالحون .

(كرامة لبعضهم)

كنت يوما ببعض المساجد بشیراز وقد عدت اتلوا كتاب الله عز وجل لأثر صلاة الظهر فخطر بخاطرى انه لو كان لى مصحف كريم لتلوت فيه فدخل على فى اثناء ذلك شاب وقال لى بكلام قوى خذ فرغت راسى اليه فألقى فى حجرى مصحفا كريما وذهب عني فخمته ذلك اليوم قراءة وانتظرته لأرده له فلم يعد إلى فسألت عنه فتميل لى ذلك بهلول الشولى ولم أره بعد ووصلنا عشى اليوم الثانى الى كازرون فقصدنا زاوية الشيخ أبى اسحاق نفع الله به وبتنا بها تلك الليلة ومن عاداتهم ان يطعموا الوارد كائنا من كان من الهريسة المصنوعة من اللحم والسمن وتوكل بالرفاق ولا يتركون الوارد عليهم للسفر حتى يقيم فى الضيافة ثلاثة ويعرض على الشيخ الذى بالزاوية حوائجهم ويذكرها الشيخ للفقراء الملازمين للزاوية وهم يزيدون على مائة منهم المتزوجون ومنهم الأعزاب المتجردون فيختمون القرآن ويذكرون الذكر ويدعون له عند ضريح الشيخ أبى اسحاق فتتقاضى حاجته بإذن الله وهذا الشيخ ابواسحق معظم عند اهل الهند والصين ومن عادة الركاب فى بحر الصين انهم اذا تغير عليهم الهواء وخافوا للصوص نذروا لآبى اسحق نذرا وكتب كل منهم على نفسه ما نذره فاذا وصلوا بر السلامة صعد خدام الزاوية الى المركب وأخذوا الزمام وقبضوا من كل ناذر نذره وما من مركب يأتي من الصين أو الهند إلا وفيه آلاف من الدنانير فيأتى الوكلاء من جهة خدام الزاوية فيقبضون ذلك ومن الفقراء من يأتي طالبا

صدقة الشيوخ فكتب لها امر بها وفيه علامة الشيخ منقوشة في قالب من الفضة فيضعون القالب في صبيغ احمر ويلصقونه بالامر فيبقى اثر الطابع فيه ويكون مضمته ان من عنده نذر للشيخ ابى اسحق فليعط منه لفلان كذا فيكون الامر بالالف والمائة وما بين ذلك ودونه على قدر الفقير فاذا وجد من عنده شئ من النذر قبض منه وكتب له رسماً في ظهر الامر بما قبضه ولقد نذر ملك الهند مرة للشيخ ابى اسحق بعشرة آلاف دينار فبلغ خبرها إلى فقراء الزاوية فأتى أحدهم إلى الهند وقبضها وانصرف بها إلى الزاوية ثم سافروا من كازرون إلى مدينة الزيدين وسميت بذلك لأن فيها قبر زيد بن ثابت وقبر زيد بن ارقم الانصارين صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً ورضى الله عنهما وهي مدينة حسنة كثيرة البساتين والمياه مليحة الأسواق عجيبه المساجد ولا هاهنا صلاح وامانة وديانة ومن اهلها القاضي نور الدين الزيداني وكان ورد على اهل الهند فولى القضاء منها بديبة الممل وهي جزائر كثيرة ملكها جلال الدين بن صلاح الدين صالح وتزوج باخت هذا الملك وسيأتي ذكره وذكر بنيه خديجة التي تولت الملك بعده بهذه الجزائر وبها توفي القاضي نور الدين المذكور ثم سافروا منها إلى الخويزاء بالزاوية وهي مدينة صغيرة يسكنها المعجم بينها وبين البصرة مسيرة اربع وبينها وبين الكوفة مسيرة خمس ومن اهلها الشيخ الصالح العابد جمال الدين الخويزاني شيخ خانقاة سعيد السعداء بالقاهرة ثم سافروا منها قاصدين الكوفة في برية لا ماء بها إلا في موضع واحد يسمى الطرفاوى وردناه في اليوم الثالث من سفرنا ثم وصلنا بعد اليوم الثاني من ورودنا عليه إلى مدينة الكوفة

(مدينة الكوفة)

وهي إحدى امهات البلاد العراقية المتميزة فيها بفضل المزية مشوى الصحابة والتابعين ومنزل العلماء والصالحين وحضرة علي بن ابي طالب أمير المؤمنين الآن الخراب قد استولى عليها بسبب أيدي العدوان التي امتدت اليها وفسادها من عرب خفاجه المجاورين لها فانهم يقطعون طريقتها ولا سور عليها وينالونها بالاجر وأسواقها احسان واكثر ما يباع فيها التمر والسماك وجامعها الأعظم جامع كبير شريف بلاطاته سبعة قائمة على سوارى حجارة ضخمة منحوتة قد صنعت قطعاً ووضع بعضها على بعض وافرغت بالرصاص وهي مفرقة الطول وبهذا المسجد اثار كريمة فمنها بيت ازاء الخراب عن يمين مستقبل القبلة يقال إن الخليل صلوات الله عليه كان له مصلى بذلك الموضع وعلى مقربة منه محراب عميق عليه بأعواد الساج مرتفع وهو محراب علي بن ابي طالب رضى الله عنه وهناك ضربه

الشقي ابن ملجم والناس يقصدون الصلاة به وفي الزاوية من هذا البلاط مسجد صغير محلق عليه أيضا باعواد الساج يذكر أنه الموضع الذي فار منه التنور حين طوفان نوح عليه السلام وفي ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح عليه السلام وإزاءه بيت يزعمون أنه متعبد لإدريس عليه السلام ويتصل بذلك فضاء ويصل بالجدار القبلي المسجد يقال أنه موضع لإنشاء سفينة نوح عليه السلام وفي آخر هذا الفضاء دار على بن أبي طالب رضى الله عنه والبيت الذي غسل فيه ويتصل به بيت يقال أيضا أنه بيت نوح عليه السلام والله أعلم بصحة ذلك كله وفي الجهة الشرقية من الجامع بيت مرتفع يصعد إليه قبر مسلم بن عقيل بن أبي طالب رضى الله عنه وبمقربة منه خارج المسجد قبر عائكة وسكينة بنتا الحسين عليه السلام وأما قصر الأمانة بالسكوفة الذي بناه سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه فلم يبق إلا أساسه والفرات من السكوفة على مسافة نصف قرسخ في الجانب الشرقي منها وهو منتظم بحدائق النخل الملتفة المتصل بعضها بعض ورأيت بغربي جبانة السكوفة موضعا مسودا شديد السواد في بسيط أبيض فاخبرت أنه قبر الشقي ابن ملجم وإن أهل السكوفة يأتون في كل سنة بالخطب الكثير فيوقدون النار على موضع قبره سبعة أيام وعلى قرب منه قبة أخبرت على أنها قبر المختار بن أبي عبيد .

ثم رحلنا ونزلنا بئر ملاحه وهي بلدة حسنة بين حدائق نخل ونزلت بخارجها وكرمت دخولي لها لأن أهلها روافض ورحلنا منها الصبح فنزلنا مدينة الحلة وهي مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات وهو بشرقها ولها أسواق حسنة جامعة للرافض والصناعات وهي كثيرة العمارة وحدائق النخل منتظمة بها داخلا وخارجا ودورها بين الحدائق ولها جسر عظيم معقود على مراكب متصلة منتظمة فيما بين الشطين تحف بها من جانبيها من سلاسل من حديد مربوطة في كلا الشطين إلى خشبة عظيمة مثبتة بالساحل وأهل هذه المدينة كلها امامية اثنا عشرية وهم طائفتان احدهما تعرف بالأكراد والآخرى تعرف بأهل الجامعين والفتنة بينهم متصلة والقتال قائم بمقربة من السوق الأعظم بهذه المدينة مسجد على بابه ستر حرير مسدول وهم يسمونه مشهد صاحب الزمان ومن عاداتهم أن يخرج في كل ليلة مائة رجل من أهل المدينة عليهم السلام وبأيديهم سيوف مشهورة فيأتون أمير المدينة بعد صلاة العصر يأخذون منه فرسا مسرجا ملجما أو بغلة كذلك ويضربون الطبول والإنفار والبوقات أمام تلك الدابة ويتقدمها خمسون منهم ويتبعها مثلهم ويمشي آخرون عن يمينها وشمالها ويأتون مشهد صاحب الزمان فيقفون بالباب ويقولون باسم الله يا صاحب الزمان باسم الله

اخرج قد ظهر الفساد وكثر الظلم وهذا أو ان خروجك فيفارق الله بك بين الحق والباطل ولا يزالون كذلك وهم يضربون الأبواق والأطبال والأنفار إلى صلاة المغرب وهم يقولون ان محمد بن الحسن العسكري دخل ذلك المسجد وغاب فيه وانه سينخرج وهو الإمام المنتظر عندهم وقد كان غلب على مدينة الحلة بعد موت السلطان أبي سعيد الأمير محمد بن رميثة بن أبي نمنى أمير مكة وحكمها أعواما وكان حسن السيرة يحمداه أهل العراق إلى أن غلب عليه الشيعيخ حسن سلطان العراق فعذبه وقتله وأخذ الأموال والذخائر التي كانت عنده ثم سافرنا منها إلى مدينة كربلاء مشهد الحسين بن علي عليهما السلام وهي مدينة صغيرة تحفها حدائق النخل ويسقيها ماء الفرات والروضة المقدسة داخلها وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر وعلى باب الروضة الحجاب والقومة لا يدخل أحد إلا عن إذنهم فيقبل العتبة الشريفة وهي من الفضة وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة وعلى الأبواب استار الحرير وأهل هذه المدينة طائفتان أولاد خيك وأولاد فائز وبينهما القتال ابدواهم جميعا امامية يرجعون إلى أب واحد لاجل فتهم تحريت هذه المدينة ثم سافرنا منها إلى بغداد

(مدينة بغداد)

مدينة دار السلام ، وحضرة الاسلام ، ذات القدر الشريف ، والفضل المنيف ، مشوى الخلفاء ، ومقر العلماء وقال أبو الحسن بن جبير رضى الله عنه وهذه المدينة العتيقة وان لم تزل حضرة الخلافة العباسية . ومثابة الدعوة الإمامية القرشية فقد ذهب رسمها . ولم يبق إلا اسمها . وهي بالاضافة الى ما كانت عليه قبل انحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب اليها كالطلل الدارس . أو تمثال الخيال الشاخص . فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعى من المستوفر الغفلة والنظر . لإلادجالتها التي هي بين شريقها وغربها كالمراة المجلوة بين صفحتين . أو العقد المنتظم بين لبتين فهي ترددها ولا تظلم وتطالع منها في مرآة صقيلة لا تصدأ . والحسن الحریمی بين هوائها ومائها ينشأ . قال ابن جزى وكأن أبا تمام حبيب بن اوس اطلع على ما آل اليه أمرها حين قال فيها (بسيط)

لقد أقام على بغداد ناعما فليبيكها لخراب الدهر باكيها
كانت على مائها والحرب موقدة والنار تطفأ حسنا في نواحيها
ترجى لها عودة في الدهر ضالحة فالآن اضمر منها الياس راجيها
مثل العجوز ولت شبيبتها وبان عنها جمال كان يحطيتها

وقد نظم الناس في مدحها وذكر محاسنها فاطنبوا * ووجدوا مكان القول ذاسعة فأطالوا
وأطابوا * وفيها قال الإمام القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي البغدادي
وأشده نيه والذي رحمه الله مرات

طيب الهواء ببغداد يشوقني قربا إليها وإن عاقت مقادير
وكيف أرحل عنها اليوم أذجمعت طيب الهواء من مدود ومقصود
وفيها يقول أيضا رحمه الله تعالى ورضي عنه (طويل)

سلام على بغداد في كل موطن وحق لها معنى السلام المضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلبي لها واني بشطى جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت على برحبتها ولم تكن الأقدار فيها تساعف
وكانت كخزل كنت أهوى دنوه وأخلاقه تنأى به وتخالف
وفيها يقول أيضا ماضيا لها وأشده نيه والذي رحمه الله غير مامرة (بسيط)

بغداد دار لأهل المال واسعة وللصالحين دار الضيق والضيق
ظلمت أمشي مضافا أزقتها كاني مصحف في بيت زنديق
وفيها يقول القاضي أبو الحسن علي بن النبيه من قصيدة (خفيف)

آنت بالعراق بدار منيرا فطوت غيها وخاضت هجير
واستطابت ربا نسائم بغداد دفكات لولا البرى ان يطيرا
ذكرت من مسارح السكرخ روضا لم يزل ناضرا وماء تمسيرا
واجتنب من ربا المحول نورا واجتملت من مطالع التاج نورا
ولبعض نساء بغداد في ذكرها (كامل)

آها على بغدادها وعراقها وظبائها والسحر في أحداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه تبدو اهلتها على أطوقها
متبخترات في النعيم كأنما خلق الهوى العذرى من أخلاقها
نفسى الفداء لها فإى محاسن في الدهر تشرق من سنا إشراقها

(رجع) وبغداد جسران اثنان معقودان على نحو الصفة التي ذكرناها في جسر مدينة الحلة
والناس يعبرونهما ليلا ونهارا رجالا ونساء فهم في ذلك في نزهة متصلة وببغداد من المساجد
التي يخطب فيها وتقام فيها الجمعة أحد عشر مسجدا منها بالجانب الغربي ثمانية وبالجانب
الشرقي ثلاثة والمساجد سواها كثيرة جدا وكذلك المدارس إلا إنها خربت وحمامات بغداد

كثيرة وهى من أبداع الحمامات وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به فيخيل لرائيه أنه رخام اسود وهذا القار يجلب من عين بين الكوفة والبصرة تذع أبدأ به ويصير في جواربها كالصالح فيجرف منها ويحلب الى بغداد وفي كل حمام منها خلوات كثيرة كل خلوة منها مفروشة بالقار مطلى نصف حائطها وما إلى الأرض به والنصف الأعلى مطلى بالجلس الأبيض الناصع فالضدان بها يجتمعان متقابل حسنهما وفي داخل كل خلوة حوض من الرخام فيه أنبوبان أحدهما يجري بالماء الحار والآخر بالماء البارد فيدخل الإنسان الخلوة منها منفردا لا يشاركه أحد إلا إن أراد ذلك وفي زاوية كل خلوة أيضا حوض آخر للاغتسال فيه أيضا أنبوبان يجريان بالحار والبارد وكل داخل يعطى ثلاثا من الفوط أحداها يترز بها عند دخوله والآخرى يترز بها عند خروجه والآخرى ينشف بها الماء عن جسده ولم أر هذا الا تقان كله في مدينة سوى بغداد وبعض البلاد تقاربها في ذلك

(ذكر الجانب الغربى من بغداد)

الجانب الغربى منها هو الذى عمر أولا وهو الآن خراب أكثره وعلى ذلك فقد بقي منه ثلاث عشرة محلة كل محلة كأنها مدينة بها الحمامان والثلاثة وفي ثمان منها المساجد الجامعة ومن هذه المحلات محلة باب البصرة وبها جامع الخليفة أبى جعفر المنصور رحمه الله والمارستان فيما بين محلة باب البصرة ومحلة الشارع على الدجلة وهو قصر كبير خرب بقيت منه الآثار وفي هذا الجانب الغربى من المشاهد قبر معروف الكرخى رضى الله عنه وهو في محلة باب البصرة وبطريق باب البصرة مشهد حافل البناء فى داخله قبر متسع السنام عليه مكتوب هذا قبر عون من أولاد على بن أبى طالب وفى هذا الجانب قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق والد على بن موسى الرضا وإلى جانبه قبر الجواد والقبران داخل الروضة عليهما دكانة ملبسة بالخشب عليه ألواح الفضة

(ذكر الجانب الشرقى منها)

وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق عظيمة الترتيب وأعظم أسواقها سوق يعرف بسوق الشلائم كل صناعة فيها على حدة وفى وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التى صارت الأمثال تضرب بحسنها وفى آخره المدرسة المستنصرية ونسبها إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبى جعفر ابن أمير المؤمنين الظاهر ابن أمير المؤمنين الناصر وبها المذاهب الأربعة لكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس وجلس المدرس فى قبة من خشب صغيرة على كرسي عليه البسط ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لا يسا

ثياب السواد معهما وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة وفي داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء وبهذه الجهة الشرقية من المساجد التي تقام فيها الجمعة ثلاثة أحدها جامع الخليفة وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم وهو جامع كبير فيه سقايات ومطاهر كثيرة للوضوء وللغسل لقيت بهذا المسجد الشيخ الإمام العالم الصالح مسند العراق سراج الدين أبا حفص عمر بن علي بن عمر القزويني وسمعت عليه فيه جميع مسند أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن ابن الفضل بن بهرام الدارمي وذلك في شهر رجب الفرد عام سبعة وعشرين وسبعمائة قال أخبرتنا به الشيخة الصالحة المسندة بنت الملوك فاطمة بنت العدل تاج الدين أبي الحسن علي ابن علي بن أبي البدر قالت أخبرنا الشيخ أبو بكر محمد بن مسعود بن يهروز الطبيب المارستاني قال أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن شعيب التستجري الصوفي قال أخبرنا الإمام أبو الحسن عبد الرحمن بن المظفر الداودي قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي عن أبي عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندي عن أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي والجامع الثاني بجامع السلطان وهو خارج البلد وتتصل به قصور تنسب للسلطان والجامع الثالث جامع الرصافة وبينه وبين جامع السلطان نحو الميل .

(ذكر قبور الخلفاء ببغداد وقبور بعض العلماء والصالحين بها)

وقبور الخلفاء العباسيين رضى الله عنهم بالرصافة وعلى كل قبر منها اسم صاحبه قبر المهدي وقبر الهادي وقبر الأمين وقبر المعتصم وقبر الواثق وقبر المتوكل وقبر المنتصر وقبر المستعين وقبر المعز وقبر المهدي وقبر المستنصر وقبر المعتضد وقبر المستنق وقبر المقتدر وقبر القاهر وقبر الرازي وقبر المتقي وقبر المستنق وقبر المطيع لله وقبر الطائع وقبر القائم وقبر القادر وقبر المستظهر وقبر المسترشد وقبر الراشد وقبر المقتفي وقبر المستنجد وقبر المستنصر وقبر الناصر وقبر الظاهر وقبر المستنصر وقبر المستنصر وهو آخرهم وعليه دخل التتر ببغداد بالسيف وذبحوه بعد أيام من دخولهم وانقطع من بغداد اسم الخلافة العباسية وذلك في سنة أربع وخمسين وستمائة وبقرّب الرصافة قبر الإمام أبي حنيفة رضى الله عنه وعليه قبة عظيمة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر وليس بمدينة بغداد اليوم زاوية يطعم الطعام فيها ماعدا هذه الزاوية فسبحان مبيد الأشياء ومغيرها وبالقرب منها قبر الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل رضى الله عنه ولا قبة عليه ويذكر أنها بنيت على قبره مرارا فتهدمت بقدرة الله تعالى وقبره عند أهل بغداد معظم وأكثرهم على مذهبه وبالقرب منه قبر أبي

بكر الشبلي من أئمة المتصوفة رحمه الله وقبر سري السقطي وقبر بشر الحافي وقبر داود الطائي وقبر القاسم الجنيدي رضي الله عنهم أجمعين وأهل بغداد لهم يوم في كل جمعة لزيارة شيخ من هؤلاء المشايخ ويوم لشيوخ آخر يليه هكذا إلى آخر الأسبوع وبيغداد كثير من قبور الصالحين والعلماء رضي الله عنهم وهذه الجهة الشرقية من بغداد ليس بها فواكه وإنما تجلب إليها من الجهة الغربية لأن فيها البساتين والحدائق ووافق وصولي إلى بغداد كون ملك العراق بها فلنذكره هاهنا

(ذكر سلطان العراقين وخراسان)

وهو السلطان الجليل أبو سعيد بهادرخان وخان عندهم الملك (وبهادر بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهملة وآخره راء) ابن السلطان الجليل محمد خدابنده وهو الذي أسلم من ملوك التتر وضبط اسمه مختلف فيه فمنهم من قال إن اسمه خدابنده (بخاء معجمة مضمومة وذال معجم مفتوح) وبنده لم يختلف فيه (وهو بباء موحدة مفتوحة ونون مسكنة وذال مهملة مفتوح وهاء استراحة) وتفسيره على هذا القول عبد الله لأن خذا بالفارسية اسم الله عز وجل وبنده غلام أو عبد أو مافي معناهما وقيل إنما هو خربنده (بفتح الخاء المعجمة وضم الراء المهملة) وتفسير آخر بالفارسية الحمار فمعناه على هذا غلام الحمار فشد ما بين القولين من الخلاف على أن هذا الأخير هو المشهور وكان الأول غيره إليه من تعصب وقيل أن سبب تسميته بهذا الأخير هو أن التتر يسمون المولود باسم أول داخل على البيت عند ولادته فلما ولد هذا السلطان كان أول داخل الزمال وهم يسمونه خربنده فسمى به وأخو خربنده هو قازغان الذي يقول فيه للناس قازان وقازغان هو القدر وقيل سمي بذلك لأنه ولد لما دخلت الجارية ومعها القدر وخدابنده هو الذي أسلم وقدمنا قصته وكيف أراد أن يحمل الناس لما أسلم على الرفض وقصة القاضي مجد الدين معه ولما مات ولي الملك ولده أبو سعيد بهادرخان وكان ملكا فاضلا كريما ملكا وهو صغير السن ورأيته ببغداد وهو شامل أجمل خلق الله صورة لا نبات بعارضيه ووزيره إذذاك الأمير غياث الدين محمد بن خواجه رشيد وكان أبوه من مهاجرة اليهود واستوزر السلطان محمد خدابنده والد أبي سعيد رأيتها يوما بحراقة في الدجلة وتسمى عندهم الشيارة وهي شبه سلورة وبين يديه دمشق خواجة ابن الأمير جوبان المتغلب على أبي سعيد وعن يمينه وشماله شبارتان فيهما أهل الطرب والغناء ورأيت من مكارمه في ذلك اليوم أنه تعرض لجماعة من العميان فشكوا ضعف حالهم فأمر لكل واحد منهم بكسوة وغلाम يقوده

ونفقة تجرى عليه ولما ولي السلطان أبو سعيد وهو صغير كما ذكرناه استولى على أمره أمير الأمراء الجوابان وحجر عليه التصرفات حتى لم يكن بيده من الملك إلا الاسم ويذكر أنه احتاج في بعض الأعياد إلى نفقة يتفقها فلم يكن له سبيل لإيها فبعث إلى أحد التجار فأعطاه من المال ما أحب ولم يزل كذلك إلى أن دخلت عليه يوما زوجة أبيه نيا خاتون فقالت له لو كننا نحن الرجال ما تركنا الجوابان وولده على ما هما عليه فاستفهمها عن مرادها بهذا الكلام فقالت له لقد انتهى أمر دمشق خواجه ابن الجوابان أن يفتك بحرم أبيك وأنه بات البارحة عند طغى خاتون وقد بعث إلى وقال لي الليلة أبيت عندك وما الرأي إلا أن تجمع الأمراء والعساكر فإذا صعد إلى القلعة محتفيا برسم المبيت أمكنك القبض عليه وأبوه يكفى الله أمره وكان الجوابان إذ ذاك غائبا بخراسان فغلبته الغيرة وبات يدبر أمره فلما علم أن دمشق خواجه بالقلعة أمر الأمراء والعساكر أن يطيقوا بها من كل ناحية فلما كان بالقد وخرج دمشق ومعه جندي يعرف بالحاج المصري فرجد سلسلة معرضة على باب القلعة وعليها قفل لم يمكنه الخروج ركبا فضرب الحاج المصري السلسلة بسيفه فقطعها وخرج معا فاحاطت بهما العساكر ولحق أمير من الأمراء الخاصكية يعرف بمصر خواجه وفي يعرف بأوق دمشق خواجه فقتلاه وأنيا الملك أبو سعيد برأسه فرموا به بين يدي فرسه وتلك عادتهم أن يفعلوا برأس كبار أعدائهم وأمر السلطان بنهب داره اقتل من قاتل من خدامه ومما ليكه واتصل الخبر بأبيه الجوابان وهو بخراسان ومعه أولاده ومير حسن وهو الأكبر وطاش وجلو خان وهو أصغرهم وهو ابن أخت السلطان أبي سعيد من أمه ساطى بك بنت السلطان خدا بنده ومعه عساكر التتر وحاميا فاتفقوا على قتال السلطان أبي سعيد وزحفوا إليه فلما التقى الجمعان هرب التتر إلى سخطانهم وأفردوا الجوابان فلما رأى ذلك نكص على عقبيه وفر إلى صحراء سجستان وأوغل فيها وأجمع على اللحاق بملك هراة غياث الدين مستجير أبه ومتحصنا بمدينة وكانت له عليه أيا دسابقة فلم يوافق له ولده حسن وطاش على ذلك وقال له أنه لا ينبغي بالعمد وقد غدر فيروز شاه بعد أن اجأ إليه وقتله فأبى الجوابان إلا أن يالحق به ففارقته ولده وتوجه ومعه ابنه الصغير جلو خان فخرج غياث الدين لاستقباله وترجل له وادخله المدينة على الأمان ثم غدره بعد أيام وقتله وقتل ولده وبعث براسيهما إلى السلطان أبي سعيد وأما الحسن وطاش فإنهما قصدوا خوارزم ووجهها إلى السلطان محمد أوزبك فأكرم مشواهما وانزل لهما إلى أن صدر منهما ما أوجب قتلهما فقتلتهما وكان للجوابان ولد رابع اسمه الدرطاش فهرب إلى ديار مصر فأكرمه

الملك الناصر واعطاه الاسكندرية فابي من قبورها وقال انما أريد العساكر لأقاتل أباسعيد وكان متى بعث اليه الملك الناصر بكسوة اعطى هو للذي يوصلها اليه أحسن منها ازراء على الملك الناصر واطهر أمور أوجبت قتله فقتله وبعث برأسه الى أبي سعيد وقد ذكرنا قصته وقصة قراسنقور فيما تقدم ولما قتل الجوبان جىء به وبولده ميتين فوقف بهما على عرفات وحملوا الى المدينة ليدفنا في التربة التي اتخذها الجوبان بالقرب من مسجد رسول الله ﷺ فنزع من ذلك ودفن بالبقيع والجوبان هو الذي جلب الماء الى مكة شرفها الله تعالى ولما استقل السلطان أبوسعيد بالملك أراد ان يتزوج بنت الجوبان وكانت تسمى بغداد خاتون وهي من اجمل النساء وكانت تحت الشيخ حسن الذي تغلب بعد موت أبي سعيد على الملك وهو ابن عمته فأمره فنزل عنها وتزوجها أبوسعيد وكانت أحظى النساء لديه والنساء لدى الأتراك والترك هن حظ عظيم وهم إذا كتبوا أمرا يقولون فيه عن أمر السلطان والخواتين وكل خاتون من البلاد والولايات والحجاب العظيمة وإذا سافرت مع السلطان تكون في محلة على حدة وغلبت هذه الخاتون على أبي سعيد وفضلها على سواها وأقامت على هذه مدة أيام ثم تزوج امرأة تسمى بدشاد فأحبها حببا شديدا وهجر بغداد خاتون فغارت لذلك وسمته في منديل مسحته به بعد الجماع فمات وانقرض عقبه وغلبت امرأته على الجهات كما سند كره.

ولما عرف الأمراء ان بغداد خاتون التي سمته أجمعوا على قتلها وبدر لذلك إلفق الرومي خواجه أوأو وهو من كبار الأمراء وقدمائهم فأتاها وهي في الحمام فضربها بدبوسه وقتلها وطرحها هنالك اياما مستورة العورة بقطعة تليس واستقل الشيخ حسن بملك عراق العرب وتزوج بدشاد امرأة السلطان أبي سعيد كمثل ما كان أبو سعيد فعله من تزوج امرأته .

(ذكر المتغلبين على الملك بعد موت السلطان أبي سعيد)

فمنهم الشيخ حسن ابن عمته الذي ذكرناه آنفا تغلب على عراق العرب جميعا ومنهم إبراهيم شاه ابن الأمير سننيتة تغلب على الموصل وديار بكر ومنهم الأمير ارتنا تغلب على بلاد التركمان المعروفة أيضا ببلاد الروم ومنهم حسن خواجه بن الدمراطاش بن الجوبان تغلب على تبريز والساطانية وهمدان وقم وقاشان والري ورامين وفرغان والسكرج ومنهم الأمير طغيتمور تغلب على بعض بلاد خراسان ومنهم الأمير حسن ابن الأمير غياث الدين تغلب على هراة ومعظم بلاد خراسان ومنهم ملك دینار تغلب على بلاد مكران وبلاد كنج ومنهم محمد شاه (١٠ - رحلة - أول)

ابن مظفر تغلب على يزد وكرمان وورقو ومنهم الملك قطب الدين تمتهن تغلب على هرمز وكيش والقطيف والبحرين وقلعات ومنهم السلطان ابو اسحاق الذي تقدم ذكره تغلب على شيراز واصفهان وملك فارس وذلك مسيرة خمس واربعين ومنهم السلطان افراسياب انا بك تغلب على ايزج وغيرها من البلاد وقد تقدم ذكره (ولنعد الى ما كنا بسبيله) ثم خرجت من بغداد في محلة السلطان ابي سعيد وغرضي ان اشاهد ترتيب ملك العراق في رحيله ونزوله وكيفية تنقله وسفره وعادتهم انهم يرحلون عند طلوع الفجر وينزلون عند الضحى وترتيبهم انه يأتي كل امير من الامراء بعسكره وطبوله واعلامه فيقف في موضع لا يتعداه قد عين له امام في الميمنة او الميسرة فاذا توافوا جميعا وتكاملت صفوفهم ركب الملك وضربت طبول الرحيل وبوقاته وانفاره واتي كل امير منهم فسلم على الملك وعاد الى موقفه ثم يتقدم امام الملك الحجاب والنقباء ثم يليهم اهل الطرب وهم نحو مائة رجل عليهم الثياب الحسنة وتحتهم مراكب السلطان وامام اهل الطرب عشرة من الفرسان قد تقلدوا عشرة من الطبول وخمسة من الفرسان لديهم خمس صرنايات وهي تسمى عندنا بالفيطاط فيضربون تلك الاطبال والصرنايات ثم امسكوا وغنى عشرة آخرون نوبتهم هكذا الى ان تتم عشر نوبات فعند ذلك يكون النزول ويكون عن يمين السلطان وشماله حين سيره كبار الامراء وهم نحو خمسين ومن ورائه اصحاب الاعلام والاطبال والانفار والبوقات ثم عماليك السلطان ثم الامراء على مراتبهم وكل امير له اعلام وطبول وبوقات .

ويتولى ترتيب ذلك كله امير جنود وله جماعة كبيرة وعقوبة من تخلف عن التوجه وجماعته ان يؤخذ تماقه فيملا رملا ويعلق في عنقه ويمشي على قدميه حتى يبلغ المنزل فيؤتى به الى الامير فيبسط على الارض ويضرب خمسا وعشرين مفرقة على ظهره سواء كان رفيعا او ضيعا لا يحاشون من ذلك احدا وإذا نزلوا ينزل السلطان وعماليكه في محلة على حدة وتنزل كل نخاتون من نخواتينه في محلة على حدة ولكل واحدة منهم الامام والمؤذن والقراء والسوق وينزل الوزراء والكتاب واهل الاشغال على حدة وينزل كل امير على حدة ويأتون جميعا الى الخدمة بعد العصر ويكون انصرافهم بعد العشاء الاخيرة والمشاعل بين أيديهم .

فاذا كان الرحيل ضرب الطبل الكبير ثم يضرب طبل الخاتون الكبرى التي هي المدكة ثم اطبال سائر الخواتين ثم طبل الوزير ثم اطبال الوزراء دفعة واحدة ثم يركب امير المقدمة في عسكره ثم يتبعه الخواتين ثم انقال السلطان وزاملته واثقال الخواتين ثم امير ثان في عسكر له يمنع الناس من الدخول فيما بين الاثقال والخواتين ثم سائر الناس وسافرت في هذه المحلة عشرة ايام صحبة الامير علاء الدين محمدا الى بلدة تبريز وكان من الامراء الكبار الفضلاء

فوصلنا بعد عشرة أيام إلى مدينة تبريز ونزلنا بخارجها في موضع يعرف بالاشام وهناك قبر قازان ملك العراق وعليه مدرسة حسنة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر من الخبز واللحم والأرز المطبوخ بالسمن والحلواء وأنزلني الأمير بتلك الزاوية وهي ما بين أنهار متدفقة وأشجار مورقة .

وفي غد ذلك اليوم دخلت المدينة على باب يعرف بباب بغداد ووصلنا إلى سوق عظيمة تعرف بسوق قازان من أحسن أسواق بلاد الدنيا كل صناعة فيها على حدة لا تخالطها أخرى واجتازت بسوق الجوهريين فخر بصرى معاراً يتهم أنواع الجواهر وهي بأيدي مماليك حسان الصور عليهم الثياب الفاخرة وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير وهم بين أيدي التجار يعرضون الجواهر على نساء الأتراك وهن يشتريه كنثيراً ويتنافسن فيه فرأيت من ذلك كله فتنة يستعاذ الله منها ودخلنا سوق العنبر والمسك فرأينا مثل ذلك وأعظم ثم وصلنا إلى المسجد الجامع الذي عمره الوزير علي شاه المبروف بجيلاان وبخارجه عن يمين مستقبل القبلة مدرسة وعن يساره زاوية وصحنه مفروش بالمرمر وحيطانه بالقشاني وهو شبه الزليج يشقه نهر ماء وبه أنواع الأشجار ودوالي العنب وشجر يسمين ومن عاداتهم أنهم يقرأون به كل يوم سورة يس وسورة الفتح وسورة عم بعد صلاة العصر في صحن الجامع ويجتمع لذلك أهل المدينة وبتنا ليلة تبريز ثم وصل بأقدام السلطان أبي سعيد إلى الأمير علاء الدين بأن يصل إليه فعدت معه ولم ألق بتبريز أحداً من العلماء .

ثم سافرنا إلى أن وصلنا محلة السلطان فأعلمه الأمير المذكور بمكاني وأدخلني عليه فسألتني عن بلادى وكسائي وأركني وأعلمه الأمير أنني أريد السفر إلى الحجاز الشريف فأمرني بأزاد والركوب في السبيل مع المحمل وكتب لي بذلك إلى أمير بغداد خوارجة معروف فعدت إلى بغداد واستوفيت ما أمرني به السلطان وكان قد بقي لأوان سفر الركب أزيد من شهرين فظم لي أن أسافر إلى الموصل وديار بكر لأشاهد تلك البلاد وأعود إلى بغداد في حين سفر الركب فأ توجه إلى الحجاز الشريف فخرجت من بغداد إلى منزل على نهر دجيل وهو متفرع عن دجلة فيسقى قرى كثيرة ثم نزلنا بعد يومين بقرية كبيرة تعرف بحربة مخصبة فسيحة ثم رحلنا فنزلنا موضعاً على شط دجلة بالقرب من حصن يسمى المعشوق وهو مبنى على الدجلة وفي الجهة الشرقية من هذا الحصن مدينة سرمن رأى وتسمى أيضاً سامرا ويقال لها سام راه ومعناه بالفارسية طريق سام راه هو الطريق وقد استولى الخراب على هذه المدينة فلم يبق منها إلا القليل وهي معتدلة الهواء رائحة الحسن على بلائها ودروس معالمها وفيها أيضاً مشهد صاحب الزمان كما بالحلة ثم سرنا منها مرحلة ووصلنا إلى مدينة تسكريت وهي مدينة

كبيرة فسيحة الأرجاء مليحة الأسواق كثيرة الجوامع وأهلها موصوفون بحسن الأخلاق والدجلة في الجهة الشمالية منها ولها قلعة حصينة على شط الدجلة والمدينة عتيقة البناء عليها سور يطيف بها ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا قرية تعرف بالعقر على شط الدجلة وبأعلاها ربوة كان بها حصن وبأسفلها الخان المعروف بخان الحديد له أبراج وبنائوه حافل والقرى والعمارة متصلة من هنالك إلى الموصل ثم رحلنا ونزلنا موضعاً يعرف بالقيارة بمقربة من دجلة وهنالك أرض سوداء فيها عيون تنبع بالقار ويصنع له أحواض ويجمع فيها قتره شبه الصلصال على وجه الأرض حالك اللون صقيلا رطبا وله رائحة طيبة وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق فتتدفق إلى جوانبها فيصير أيضا قارا وبمقربة من هذا الموضع عين كبيرة فاذا أرادوا نقل القار منها أوقدوا عليها النار فتتشف النار ما هنالك من رطوبة مائية ثم يقطعونه قطعاً وينقلونه وقد تقدم لنا ذكر العين التي بين السكوفة والبصرة على هذا النحو ثم سافرنا من هذه العيون مرحلتين ووصلنا بهدما إلى الموصل .

(مدينة الموصل)

وهي مدينة عتيقة كثيرة الخصب وقلعتها المعروفة بالحذاء عظيمة الشأن شهيرة الامتناع عليها سور محكم البناء مشيد البروج وتتصل بهادور السلطان وقد فصل بينها وبين البلد شارع متسع مستطيل من أعلى البلد إلى أسفل وعلى البلد سوران اثنان وثيقتان أبراجهما كثيرة متقاربة وفي باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره قد تمسكن فتحها فيه لسعته ولم أر في أسوار البلاد مثله إلا السور الذي على مدينة دهلي حضرة ملك الهند والموصل ربض كبير فيه الجوامع والحمامات والفنادق والأسواق وبه مسجد جامع على شط الدجلة تدور به شهابيك حديد وتتصل به مساطب تشرف على دجلة في النهاية من الحسن والإتقان وإمامه مارستان وبداخل المدينة جامعان أحدهما قديم والآخر حديث وفي صحن الحديث منهما قبة في داخلها خصة رخام مشتمة مرتفعة على سارية رخام يخرج منها الماء بقوة وانزاع فيرتفع مقدار القامة ثم ينعكس فيسكون له مرأى حسن وقسارية الموصل مليحة لها أبواب حديد ويدورها دكاكين وبيوت بعضها فوق بعض متقنة البناء وبهذه المدينة مشهد جرجيس النبي عليه السلام وعليه مسجد والقبير في زاوية منه عن يمين الداخل إليه وهو فيما بين الجامع الجديد وباب الجسر وقد حصلت لنا زيارته والصلاة بمسجده والحمد لله تعالى وهنالك تل يونس عليه السلام وعلى نحو ميل منه العين المنسوبة إليه يقال أنه أمر قومه بالتطير فيها ثم صعدوا التل ودعوا ودعوا فكشف الله عنهم العذاب

وبمقربة منه قرية كبيرة يقرب منها خراب يقال انه موضع المدينة المعروفة بنيونى مدينة يونس عليه السلام وأثر السور المحيط بها ظاهر وموضع الأبواب التى هى متبينة وفى التل بناء عظيم ورباط فيه بيوت كثيرة ومقاصر ومطاهر وسقايات يضم الجميع باب واحد وفى وسط الرباط بيت عليه ستر حرير وله باب مرصع يقال انه الموضع الذى به موقف يونس عليه السلام ومحراب المسجد الذى بهذا الرباط يقال انه كان بيت متعبده عليه السلام وأهل الموصل يخرجون فى كل ليلة جمعة الى هذا الرباط يتعبدون فيه وأهل الموصل لهم مكارم اخلاق ولين كلام وفضيلة ومحبة فى الغريب وإقبال عليه وكان أميرها حين قدوس عليها السيد الشريف الفاضل علاء الدين على بن شمس الدين محمد الملقب بحيدر وهو من الكرماء الفضلاء أنزاني بداره وأجرى على الاتفاق مدة مقامى عنده وله الصدقات والايثار المعروف .

وكان السلطان ابو سعيد يعظمه وفوض اليه أمر هذه المدينة وما يليها ويركب فى موكب عظيم من مماليكه وأجناده ووجوه أهل المدينة وكبرائها يأتون للسلام عليه غدوا وعشيا وله شجاعة ومهابة وولده فى حين كتب هذا فى حاضرة فاس مستقر الغرباء وماوى الفرق ومحط رحال الوفود زادها الله بسعادة أيام مولانا أمير المؤمنين بهجة وإشراقا وحرس أرجاءها ونواحيها .

ثم رحلنا من الموصل ونزلنا قرية تعرف بعين الرصد وهى على نهر عليه جسر مبنى وبها خان كبير ثم رحلنا ونزلنا قرية تعرف بالمويحة ثم رحلنا منها ونزلنا جزيرة ابن عمر وهى مدينة كبيرة حسنة محيط بها الوادى ولذلك سميت جزيرة وأكثرها خراب ولها سوق حسنة ومسجد عتيق مبنى بالحجارة محكم العمل وسورها مبنى بالحجارة أيضا وأهلها فضلاء لهم محبة فى الغرباء ويرم نزلنا بها رأينا جبل الجودى المذكور فى كتاب الله عز وجل الذى استوت عليه سفينة نوح عليه السلام وهو جبل عال مستطيل

ثم رحلنا من رحلتين ووصلنا الى مدينة نصيبين وهى مدينة عظيمة عتيقة متوسطة قد خرب أكثرها وهى فى بسيط أفصح فسيح فيه المياه الجارية والبساتين الملتفة والأشجار المنتظمة والغواكه الكثيرة وبها مصنع ماء الورد الذى لا نظير له فى العطاره الطيب ويدور بها نهر يعطى عليها انعطاف السوار ينبع من عيون فى جبل قريب منها وينقسم انقساماً فيتداخل بساتينها ويدخل منه نهر الى المدينة فيجرى فى شوارعها ودورها ويخترق صحن مسجدها الأعظم وينصب فى صهر يحين احدهما فى وسط الصحن والآخر عند الباب الشرقى وبهذه المدينة مرسنتان ومدرستان وأهلها

أهل صلاح ودين وصدق وأمانة ولقد صدق أبو نواس في قوله :
 طابت نصيبين لي يوما وطابت لها ياليت حظي من الدنيا نصيبين
 قال ابن جزى والناس يصفون مدينة نصيبين بفساد الماء والوخامة وفيها يقول بعض الشعراء
 لنصيبين قد عجبت وما في دارها لي داع إلى العلات
 يعدم الورد أحمرًا في دارها لسقام حتى من الوجنات
 ثم رحلنا إلى مدينة سنجار وهي مدينة كبيرة كثيرة الفواكه والأشجار والعيون المطردة
 والأنهار مبنية في سفح جبل تشبه بدمشق في كثرة أنهارها وبساتينها ومسجدها الجامع
 مشهور البركة يذكر أن الدعاء به مستجاب ويدور به نهر ماء ويشقه وأهل سنجار أكرام
 ولهم شجاعة وكرم وممن لقيته بها الشيخ الصالح العابد الزاهد عبد الله الكردي أحد المشايخ
 الكبار صاحب كرامات يذكر عنه أنه لا يفطر إلا بعد أربعين يومًا ويكون إفطاره على
 نصف قرص من الشعير لقيته برابطة بأعلى جبل سنجار ودعاني وزودني بدراهم لم تزل عندي
 إلى أن سلبني كفار الهنود ثم سافروا إلى مدينة دارا وهي عتيقة كبيرة بيضاء المنظر لها قلعة
 مشرفة وهي الآن خراب لا عمارة بها وفي خارجها قرية معمورة بها كان نزلنا ثم رحلنا
 منها فوصلنا إلى مدينة ماردين وهي عظيمة في سطح جبل من أحسن مدن الإسلام وأبدعها
 وأنقنها وأحسنها أسواقًا وبها تصنع الثياب المنسوجة إليها من الصوف المعروف بالمرز
 ولها قلعة شماء من مشاهير القلاع في قنة جبلها قال ابن جزى قلعة ماردين هذه تسمى الشهباء
 وإياها عني شاعر العراق صفي الدين عبد العزيز بن سراي الحلي بقوله في سمطه (سريع)
 فدع ربوع الحلة الفيحاء وأزور بالعيس عن الزوراء
 ولا تقف بالموصل الحدياء إن شهاب القلعة الشهباء
 — محرق شيطان صروف الدهر —

وقلعة حلب تسمى الشهباء أيضًا وهذه المسطحة بديعة مدح بها الملك المنصور ساطت
 ماردين وكان كريما شهير الصيت ولي الملك بها نحو خمسين سنة وأدرك أيام قازان ملك
 التتر وصاهر السلطان خدابنده بابنته دنيا خاتون .

(ذكر سلطان ماردين في عهد دخولي إليها)

وهو الملك الصالح ابن الملك المنصور الذي ذكرناه آنفا ورث الملك عن أبيه وله المكارم
 الشهيرة وليس بأرض العراق والشام ومصر أكرم منه يقصده الشعراء والفقراء فيجزل
 لهم العطايا جريا على سنن أبيه قصده أبو عبيد الله محمد بن جابر الأندلسي المروى السكفي
 مادحا فأعطاه عشرين ألف درهم وله الصدقات والمدارس والزوايا لإطعام الطعام وله

وزير كبير القدر وهو الامام العالم وحيد الدهر وفريد العصر جمال الدين السنجاوى
وقرأ بمدينة تبريز وأدرك العلماء الكبار وقاضى قضاته الامام الكامل برهان الدين
الموصلى وهو ينتسب إلى الشيخ الولي فتح الموصلى وهذا القاضى من أهل الدين والورع
والفضل يلبس الخشن من ثياب الصوف الذى لا تبلغ قيمته عشرة دراهم ويعتم بنحو
ذلك وكثيراً ما يجاس للاحكام بصحن مسجد خارج المدرسة كان يتعبد فيه فإذا رآه من
لا يعرفه ظنه بعض خدام القاضى وأعوانه .

(حكاية)

ذكر لى أن امرأة أتت هذا القاضى وهو خارج من المسجد ولم تسكن تعرفه فقالت
له يا شيخ أين يجلس القاضى فقال لها وما تريدن منه فقالت إن زوجى ضربنى وله زوجة
ثانية وهو لا يعدل بيننا فى القسم وقد دعوته إلى القاضى فأبى وأنا فقيرة ايس عندى
ما أعطيه لرجال القاضى حتى يحضروه بمجلسه فقال لها وأين منزل زوجك فقالت بقرية
الملاحين خارج المدينة فقال لها أنا أذهب معك اليه فقالت والله ما عندى شيء أعطيك إياه
فقال لها لا آخذ منك شيئاً ثم قال لها اذهبي إلى القرية وانتظرينى خارجها فاني على أنك
فذهبت كما أمرها وانتظرت فوصل اليها وليس معه أحد وكانت عادته أن لا يدع احداً
يتبعه فجاءت به إلى منزل زوجها فلما رآه قال ما هذا الشيخ النحس الذى معك فقال له نعم
والله أنا كذلك ولست ارض زوجتك فلما طال الكلام جاء الناس فعرفوا القاضى
وسلموا عليه وخاف ذلك الرجل وخجل فقال له القاضى لا عليك أصابح ما بينك وبين
زوجتك فأرضاها الرجل من نفسه واعطاها القاضى نفقة ذلك اليوم وانصرف

لقيت هذا القاضى وأضافنى بداره ثم رحلت عائداً إلى بغداد فوصلت إلى مدينة
الموصل التى ذكرناها فوجدت ركبها بخارجها متوجهين إلى بغداد وفيهم امرأة صالحة
عابدة تسمى بالست زاهدة وهى من ذرية الخلفاء حجت مرارا وهى ملازمة الصوم
سملت عليها وكنيت فى جوارها ومعها جملة من الفقراء يخدمونها وفى هذه الوجبة توفيت
رحمة الله عليها وكانت وفاتها بزود ودفنت هنالك ثم وصلنا إلى مدينة بغداد فوجدت
الحاج فى أهبة الرحيل فقصدت أميرها معروف خواجه فطلبت منه ما أمر لى به السلطان
فمضى لى شقة محارة وزاد أربعة من الرجال وماءهم وكتب لى بذلك ووجه إلى أمير الركب
الهلوان محمد الخويج فأوصاه لى وكانت المعرفة بينى وبينه متقدمة فزادها تأكيذا ولم
أزل فى جواره وهو يحسن إلى ويزيدنى على ما أمر به وأصابنى عند خروجننا من الكوفة
إسهال فكانوا ينزلونى من أعلى المحمل مرات كثيرة فى اليوم والامير يتفقده حالى
ويوصى بى ولم أزل مريضاً حتى وصلت مكة حرم الله تعالى زادها الله شرفاً وتعظيماً

وظفت بالبيت الحرام كرمه الله تعالى طواف القدوم وكنت ضعيفاً بحيث أودى
المسكتوبة قاعدا فطفت وسعيت بين الصفا والمروة راكباً على فرس الأمير الخويج
المذكور ووقفنا تلك السنة يوم الإثنين فلما نزلنا منى أخذت في الراحة والاستقلال
من مرضى ولما انقضى الحاج أقمت مجاوراً بمكة تلك السنة وكان بها الأمير علاء الدين
ابن هلال مشيد (مشد) الدواوين مقبلاً لمارة دار الوضوء بظاهر العطارين من باب
ابن شيبة وجاور في تلك السنة من المصريين جماعة من كبارهم منهم تاج الدين بن السكويك
ونور الدين القاضي وزين الدين بن الأصيل وابن الخليلي وناصر الدين الأسيوطي
وسكنت تلك السنة بالمدرسة المظفرية وعافاني الله من مرضى فسكنت في أنعم عيش
وتفرغت للطواف والعبادة والاعتبار وأتى في أثناء تلك السنة حجاج الصعيد وقدم
معهم الشيخ الصالح نجم الدين الأصفهوني وهي أول حجة حجها والخوان علاء الدين
على وسراج الدين عمر ابنا القاضي الصالح نجم الدين البالي قاضي مصر وجماعة غيرهم
في منتصف ذي القعدة وصل الأمير سيف الدين يلبك وهو من الفضلاء ووصل في
صحبة جماعة من أهل طنجة بلدى حرسها الله منهم الفقيه أبو عبد الله بن عطاء الله
والفقيه أبو محمد عبيد الله الحضري والفقيه أبو عبد الله المرسى وأبو العباس بن الفقيه
أبي علي البلمسي وأبو محمد ابن القابلة وأبو الحسن البياري وأبي العباس بن نافوت
وأبو الصبر أيوب الفخار وأحمد بن حكاه ومن أهل القصر المجاز الفقيه أبو زيد
عبد الرحمن ابن القاضي أبي العباس بن خلوف ومن أهل القصر الكبير الفقيه أبو محمد
ابن مسلم وأبو اسحاق إبراهيم بن يحيى وولده ووصل في تلك السنة الأمير سيف الدين
تقزدمور من الخاصكية والأمير موسى بن فرمان والقاضي نحر الدين ناظر الجيش
كاتب المعاليك والتاج أبو اسحاق والست حديق مربية الملك الناصر وكانت لهم
صدقات عميمة بالحرم الشريف وأكثرهم صدقة القاضي نحر الدين وكانت وقفنا
في تلك السنة في يوم الجمعة من عام ثمان وعشرين ولما انقضى الحج أقمت مجاوراً
بمكة حرسها الله سنة تسع وعشرين وفي هذه السنة وصل أحمد بن الأمير وميثة
ومبارك بن الأمير عطيفة من العراق صحبة الأمير محمد الخويج والشيخ زاده الحر باوي
والشيخ دانيال واتوا بصدقات عظيمة للمجاورين وأهل مكة من قبل السلطان أبي
سعيد ملك العراق وفي تلك السنة ذكر اسمه في الخطبة بعد ذكر الملك الناصر ودعوا
له بأعلى قبة زمزم وذكروا بعده سلطان اليمن الملك المجاهد نور الدين ولم يوافق الأمير

عطيفة على ذلك وبعث شقيقه منصوراً ليعلم الملك الناصر بذلك فأمر رميثة برده فرد فبعثه ثانية على طريق جدة حتى اعلم الملك الناصر بذلك ووقفنا تلك السنة وهي سنة تسع وعشرين يوم الثلاثاء ، ولما انقضى الحج أقمت مجاوراً بمكة حرسها الله سنة ثلاثين وفي موسمها وقعت الفتنة بين أمير مكة عطيفة وبين إيدمور أمير جنود الناصري وسبب ذلك أن تجاراً من أهل اليمن سرقوا فتشكروا إلى إيدمور بذلك فقال إيدمور لمبارك بن الأمير عطيفة إئت بهؤلاء السراق فقال لا أعرفهم فكيف نأتى بهم وبعد فأهل اليمن تحت حكمنا ولا حكم لك عليهم ان سرق لأهل مصر والشام شيء فاطلبني به فشتمه إيدمور وقال له يا قواد تقول لي هكذا وضربه على صدره فسقط ووقعت عمامته عن رأسه وغضب له عبيده وركب إيدمور يريد عسكره فلاحقه مبارك وعبيده فقتلوه وقتلوا ولده ووقعت الفتنة بالحرم وكان به الأمير أحمد بن عم الملك الناصر ورمى الترك بالنشاب فقتلوا امرأة قيل أنها كانت تعرض أهل مكة على القتال وركب من الركب من الأتراك وأميرهم خاص ترك نخرج إليهم القاضي والأئمة والمجاورون وفوق رؤسهم المصاحف وحاولوا الصلح ودخل الحجاج مكة فأخذوا ما لهم بها وانصرفوا إلى مصر وبلغ الخبر إلى الملك الناصر فشق عليه وبعث العساكر إلى مكة ففر الأمير عطيفة وابنه مبارك وخرج أخوه رميثة وأولاده إلى وادي نخلة فلما وصل العسكر إلى مكة بعث الأمير رميثة أحد أولاده يطلب له الأمان ولولده فأمنوا وأتى رميثة وكفنه في يده إلى الأمير فخلع عليه وسلمت إليه مكة وعاد العسكر إلى مصر وكان الملك الناصر رحمه الله حليماً فاضلاً فخرجت تلك الأيام من مكة قاصداً بلاد اليمن فوصلت إلى حده (بالحاء المهملة المفتوح) وهي نصف الطريق بين مكة وجدة (بالجيم المضموم) ثم وصلت إلى جدة وهي بلدة قديمة على ساحل البحر يقال إنها من عمارة الفرس وبخارجها مصانع قديمة وبها جباب الماء منقورة في الحجر الصلد يتصل بعضها ببعض تغوت الاحصاء كثرة وكانت هذه السنة قليلة المطر وكان الماء يجلب إلى جدة على مسيرة يوم وكان الحجاج يسألون الماء من أصحاب البيوت .

(حكاية)

ومن غريب ما اتفق لي بجدة أنه وقف على بابي سائل اعمى يطلب الماء يقوده غلام فسلم على وسماني باسمي وأخذ بيدي ولم اكن عرفته قط ولا عرفني فعجبت من شأنه ثم امسك أصبعي بيده وقال اين الفتحة وهي الخاتم وكنت حين خروجي من مكة لقيني بعض الفقراء وسألني ولم يكن عندي في ذلك الحين شيء قد دفعت له خاتمي فلما سألتني عنه هذا

الاعشى قلت له أعطيته لفقيه فقال ارجع في طلبه فإن فيه أسماء مكتوبة فيها سر من الأسرار فطال تعجبي منه ومن معرفته بذلك والله اعلم بحاله، ويجدة جامع يعرف بجامع الآبوس معروف البركة يستجاب به الدعاء وكان الأمير بها أبا يعقوب بن عبد الرزاق وقاضيا وخطيبها الفقيه عبد الله من أهل مكة شافعي المذهب وإذا كان يوم الجمعة واجتمع الناس للصلاة أتى المؤذن وعد أهل جدة المقيمين بها فان اكملوا أربعين خطب وصلى بهم الجمعة وإن لم يبلغ عددهم أربعين صلى ظهراً أربعاً ولا يعتبر من ليس من أهلها وإن كانوا عدداً كثيراً ثم ركبنا البحر من جدة في مركب يسمونه الجلبة وكان إرشيد الدين الألفي اليمني الحبشي الأصل وركب الشريف منصور بن أبي نمي في جلبة أخرى ورغب مني أن أكون معه فلم أفعل لكونه كان معه في جلبته الجمال تخفت من ذلك ولم أكن ركبنا البحر قبلها وكان هنالك جملة من أهل اليمن قد جعلوا زوادهم وأمتعتهم في الجلب وهم متأهبون للسفر.

(حكاية)

ولما ركبنا البحر أمر الشريف منصور غلاماً به أن يأتيه بعديلة دقيق وهي نصف حمل وبطة سمى يأخذهما من جلب أهل اليمن فأخذهما واتى بهما إليه فأتى التجار باكين وذكروا إلى أن في جوف تلك العديلة عشرة آلاف درهم نقرة ورغبوا مني أن أكله في ردها وأن يأخذ سواها فأتيته وكلمته في ذلك وقلت له إن للتجار في جوف هذه العديلة شيئاً فقال إن كان سكران فلا اردء اليهم وإن كان سوى ذلك فهو لهم ففتحوها ووجدوا الدراهم فردها عليهم وقال لي لو كان عجلاً ما ردها وعجلان هو ابن أخيه رميثة وكان قد دخل في تلك الأيام دار تاجر من أهل دمشق قاصداً لليمن فذهب بمعظم ما كان فيها وعجلان هو أمير مكة على هذا العهد وقد صاح حاله وأظهر العدل والفضل ثم سافرنا في هذا البحر بالريح الطيبة يومين وتغيرت الريح بعد ذلك وصعدتنا عن السبيل التي قصدناها ودخلت أمواج البحر معنا في المركب واشتد الميذبالناس ولم نزل في أهوال حتى خرجنا في مرسى يعرف برأس دوائر فيما بين عيذاب وسواكن فنزلنا به ووجدنا بساحله عريش قصب على هيئة مسجد وبه كثير من قشور بيض النعام مملوءة ماء فشربنا منه وطبخنا ورأيت في ذلك المرسى عجبا وهو خور مثل الوادي يخرج من البحر فكان الناس يأخذون الثوب ويمسكون بأطرافه ويخرجون به وقد امتلأ سمكا كل سمكة منها قدر الذراع ويعرفونه بالبوري فطبخ منه الناس كثيراً واشتروا وقصدت إلينا طائفة من البجاة وهم سكان تلك الأرض سود الألوان لباسهم الملاحف الصفرة ويشدون على رؤسهم عصائب

حمراء عرض الأصبع وهم أهل نجدة وشجاعة وسلاحهم الرماح والسيوف ولهم جمال يسمونها الصهب يركبونها بالسروج فاكترينا منهم الجمال وسافرنا معهم في برية كثيرة الغزلان والبجاة لا يأكلونها وهي تأنس بالآدمى ولا تنفر منه وبعد يومين من مسيرنا وصلنا إلى حى من العرب يعرفون بأولاد كاهل مختلطين بالبجاة عارفين بلسانهم وفي ذلك اليوم وصلنا إلى جزيرة سواكن وهي على نحو ستة أميال من البر ولأما بها ولا زرع ولا شجر والماء يجلب إليها في القوارب وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر وهي جزيرة كبيرة وبها لحوم النعام والغزلان وحمر الوحش والمعزنى عندهم كثير والألبان والسمن ومنها يجلب إلى مكة وحبوبهم الجرجير وهو نوع من الذرة كبير الحب يجلب منها أيضا إلى مكة

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصولي إليها الشريف زيد بن أبي ندى وأبوه أمير مكة وأخوه أميرها بعده وهما عطيفة ورميثة اللذان تقدم ذكرهما وصارت إليه من قبل البجاة فانهم أخواله ومعه عسكر من البجاة وأولاده كاهل وعرب جهينة وركبنا البحر من جزيرة سواكن نريد أرض اليمن وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لسكثرة أحجاره وإنما يسافرون فيه من طلوع الشمس إلى غروبها ويرسون وينزلون إلى البر فاذا كان الصباح صعدوا إلى المركب وهم يسمون رئيس المركب الربان ولا يزال أبدا في مقدم المركب يذبه صاحب السكان على الاحجار وهم يسمونها الثبات وبعد ستة أيام من خروجننا عن جزيرة سواكن وصلنا إلى مدينة حلى (وضبط اسمها بفتح الحاء المهملة وكسر اللام ونخفيفهما) وتعرف باسم ابن يعقوب وكان من سلاطين اليمن ساكنها قديما وهي كبيرة حسنة العمارة يسكنها طائفتان من العرب وهم بنو حرام وبنو كنانة وجامع هذه المدينة من أحسن الجوامع وفيه جماعة من الفقراء المنقطعين إلى العبادة منهم الشيخ الصالح العابد الزاهد قبولة الهندى من كبار الصالحين لباسه مرقعة وقنأسوة لبد وله خلوة متصلة بالمسجد فرشها الرمل لا حصير بها ولا بساط ولم أر بها حين لقائى له شيئا إلا إبريق الوضوء وسفرة من خوص النخيل فيها كسر شعير يابسة وصحيفة فيها ملح وسعتر فاذا جاء أحد قدم بين يديه ذلك ويسمع به أصحابه فيأتى لكل واحد منهم بما حضر من غير تكلف شئ وإذا صلوا العصر اجتمعوا المذكور بين يدي الشيخ إلى صلاة المغرب وإذا صلوا المغرب أخذ كل واحد منهم موقفه للتنقل فلا يزالون كذلك إلى صلاة العشاء الآخرة فاذا صلوا العشاء الآخرة أقاموا على الذكر إلى ثلث الليل ثم انصرفوا ويعودون في أول الثلث الثالث إلى المسجد فيتهجدون إلى الصبح ثم يذكرون إلى أن تحين صلاة الاشراف فينصرفون بعد صلاتها

وممنهم من يقيم إلى أن يصلي صلاة الضحى بالمسجد وهذا دأبهم أبدا ولقد كنت أردت الإقامة معهم باقى عمرى ولم أوفق لذلك والله تعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه .

(ذكر سلطان حلى)

وسلطانها عامر بن ذؤيب من بنى كنانة وهو من الفضلاء الأدباء الشعراء صاحبته من مكة إلى جدة وكان قد حج في سنة ثلاثين ولما قدمت مدينته أنزلىنى واكرمنى وأقامت في ضيافته أياما وركبت البحر فى مركب له فوصلت إلى بلدة السرجة (وضبط اسمها بفتح السين المهمل وإسكان الراء وفتح الجيم) بلدة صغيرة يسكنها جماعة من اولاد الهلبى وهم طائفة من تيجار اليمن اكثرهم ساكنون بصنعاء ولهم فضل وكرم وإطعام لأبناء السبيل ويعينون الحجاج ويركبونهم فى مراكزهم ويزودونهم من أموالهم وقد عرفوا بذلك واشتهروا به وكثر الله أموالهم وزادهم من فضله وأعانهم على فعل الخير ، وليس بالأرض من يماثلهم فى ذلك إلا الشيخ بدر الدين النقاش الساكن ببلدة القحمة فله مثل ذلك من الآثار والإيثار وأقمنا بالسرجة ليلة واحدة فى ضيافة المذكورين ثم رحلنا إلى مرسى الحادث ولم ننزل به ثم إلى مرسى الأبواب ثم إلى مدينة زبيد مدينة عظيمة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخا وليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها ولا أغنى من أهلها واسمة البساتين كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره وهى برية لاشطية إحدى قواعد بلاد اليمن (وهى بفتح الزاى وكسر الباء الموحدة) مدينة كبيرة كثيرة العمارة بها النخل والبساتين والمياه املح بلاد اليمن واجملها ولأهلها لطافة الشئام وحسن الأخلاق وجمال الصور والنساء الحسن الفائق الفائق وهى وادى الخصيب الذى يذكر فى بعض الآثار أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ فى وصيته يامعاذ إذا جئت وادى الخصيب فمرول ولأهل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة وذلك انهم يخرجون فى أيام البسر والرطب فى كل سبت إلى حدائق النخل ولا يبقى بالمدينة احد من أهلها ولا من الغرباء ويخرج أهل الطرب وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات وتخرج النساء بمتطيات الجمال فى المحامل ولهن مع ما ذكرناه من الجمال الفائق الأخلاق الحسنة والمكارم والغريب عندهم مزية ولا يمتنعن من تزوجه كما يفعله نساء بلادنا فإذا اراد السفر خرجت معه وودعه وإن كان بينهما ولد فهى تكفله وتقوم بما يجب له إلى ان يرجع أبوه ولا تطالبه فى أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها وإذا كان هقيا فهى تمنع منه بقليل النفقة والكسوة لكنهن

لا يخرج من بلد من بلد ما عسى أن تعطاه على أن يخرج من بلدها
لم تفعل وعلما تلك البلاد وفقهاؤها أهل صلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق لقيت
بمدينة زبيد الشيخ العالم الصالح أيا محمد الصنعاني والفقيه الصوفي المحقق أبا العباس
الابيانى والفقيه المحدث أبا على الزبيدي ونزلت في جوارهم فأكرموني وأضافوني
ودخلت حداثتهم واجتمعت عند بعضهم بالفقيه القاضي العالم أبي زيد عبيد الرحمن
الصوفي أحد فضلاء اليمن ووقع عنده ذكر العابد الزاهد الخاشع أحمد بن العجيل اليمني
وكان من كبار الرجال وأهل الكرامات ﴿كرامة﴾

ذكروا أن فقهاء الزيدية وكبراءهم أتوا مرة إلى زيارة الشيخ أحمد بن العجيل
فجلس لهم خارج الزاوية واستقبلهم أصحابه ولم يبرح الشيخ عن موضعه فسلموا عليه
وصالحهم ورحب بهم ووقع بينهم الكلام في مسألة القدر وكانوا يقولون أن لا قدر
وأن المكاف يخلق أفعاله فقال لهم الشيخ فإن كان الأمر على ما تقولون فقوموا عن
مكانكم هذا وأرادوا القيام فلم يستطيعوا وتركهم الشيخ على حالهم ودخل الزاوية
وأقاموا كذلك واشتد بهم الحر ولحقهم وهج الشمس وضجوا بما نزل بهم فدخل
أصحاب الشيخ إليه وقالوا له أن هؤلاء القوم قد تابوا إلى الله ورجعوا عن مذهبهم
الفساد فخرج عليهم الشيخ فأخذ بأيديهم وعاهدهم على الرجوع إلى الحق وترك مذهبهم
السيئ وأدخلهم زاويته فأقاموا في ضيافته ثلاثا وانصرفوا إلى بلادهم وخرجت زيارة
قبر هذا الرجل الصالح وهو بقرية يقال لها غسانة خارج زبيد ولقيت ولده الصالح
أبا الوليد اسماعيل فأضافني وبنت عنده وزرت ضريح الشيخ وأقيمت معه ثلاثا
وسافرت في صحبته إلى زيارة الفقيه أبي الحسن الزيلعي وهو من كبار الصالحين ويقدم
حجاج اليمن إذا توجهوا للحج وأهل تلك البلاد وأعرا بها يعظمونه ويحترمونه فوصلنا
إلى جبله وهي بلدة صغيرة حسنة ذات نخل وفواكه وأنهار فلما سمع الفقيه أبو الحسن
الزيلعي بقدوم الشيخ أبي الوليد استقبله وأنزله بزاويته وسلمت عليه معه وأقمنا عنده
ثلاثة أيام في خير مقام ثم انصرفنا وبعث معنا أحد الفقراء فتوجهنا إلى مدينة تعز
حضرة ملك اليمن (وضبط اسمها بفتح التاء المعلوة وكسر العين المهملة وزاء) وهي
من أحسن مدن اليمن وأعظمها وأهلها ذوو تجبر وتكبر وفضاظة وكذلك الغالب
على البلاد التي يسكنها الملوك وهي ثلاث محلات إحداها يسكنها السلطان وماليكه
وحاشيته وأرباب دولته وتسمى باسم لا أذكره والثانية يسكنها الأمراء والأجناد
وتسمى عدينة والثالثة يسكنها عامة الناس وبها السوق العظمى وتسمى المحالب

(ذكر سلطان اليمن)

وهو السلطان المجاهد نور الدين علي ابن السلطان المؤيد هزبر الدين داود ابن السلطان المظفر يوسف بن علي بن رسول شهر جده برسول لأن أحد خلفاء بني العباس أرسله إلى اليمن ليكون بها أمير ثم استقل أولاده بالملك وله ترتيب عجيب في قعوده وركوبه وكنت لما وصلت هذه المدينة مع الفقير الذي بعثه الشيخ الفقيه أبو الحسن الزيلعي في صحبتي قصدني إلى قاضي القضاة الإمام المحدث صفي الدين الطبري المكي فسلمنا عليه ورحب بنا وأقننا بداره في ضيافته ثلاثاً فلما كان في اليوم الرابع وهو يوم الخميس وفيه يجلس السلطان لعامة الناس دخل في عليه فسلمت عليه وكيفية السلام عليه أن يمس الإنسان الأرض بسبابته ثم يرفعها إلى رأسه ويقول أدام الله عزك ففعلت كمثل ما فعله القاضي عن يمين الملك وأمرني ففعلت بين يديه فسألتني عن بلادى وعن مولانا أمير المسلمين جواد الأجواد أبي سعيد رضى الله عنه وعن ملك مصر وملك العراق وملك اللور فأجبتهم عما سأل من أحوالهم وكان وزيره بين يديه فأمره بأكرامى وإنزالى وترتيب قعود هذا الملك إنه يجلس فوق دكانة مقروشة مزينة بشباب الحرير وعن يمينه ويساره أهل السلاح ويليه منهم أصحاب السيوف والدرق ويليه أصحاب القسي وبين أيديهم في الميمنة والميسرة الحاجب وارباب الدواة وكتاب السر وأمير جنود على رأسه والشاويشية وهم من الجنادة وقوف على بعد فاذا قعد السلطان صاحوا صيحة واحدة بسم الله فاذا قام فعلوا مثل ذلك فيعلم جميع من بالمشور وقت قيامه ووقت قعوده فاذا استوى قاعدا دخل كل من عادته أن يسلم عليه فسلم ووقف حيث رسم له في الميمنة أو الميسرة لا يتعدى أحد موضعه ولا يقعد إلا من أمر بالقعود يقول السلطان للأمير جنوداً مرقلانا يقعد فيتقدم ذلك المأمور بالقعود عن موقفه قليلاً ويقعد على بساط هناك بين أيدي القائمين في الميمنة والميسرة ثم يرقى بالطعام وهو طعامان طعام العامة وطعام الخاصة فأما الطعام الخاص فأكل منه السلطان وقاضى القضاة والسكبار من الشرفاء ومن الفقهاء والضيوف وأما الطعام العام فيأكل منه سائر الشرفاء والفقهاء والقضاة والمشايخ والأمراء ووجوه الأجناد ومجلس كل إنسان للطعام معين لا يتعداه ولا يزاحم أحد منهم أحداً وعلى مثل هذا الترتيب سواء هو ترتيب ملك الهند في طعامه فلا أعلم أن سلاطين الهند أخذوا ذلك عن سلاطين اليمن أم سلاطين اليمن أخذوه عن سلاطين الهند واقمت في ضيافة سلطان اليمن أياماً واحسن إلى واركبني وانصرفت مسافراً إلى مدينة صنعاء وهى قاعدة بلاد اليمن الأولى

مدينة كبيرة حسنة العمارة بناؤها بالآجر والجص كثيرة الأشجار والفواكه والزرع معتدلة الهواء طيبة الماء ومن الغريب أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة إنما ينزل في أيام القيظ وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم في ذلك الأوان فالمسافرون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر وأهل المطر وأهل المدينة ينصرفون إلى منازلهم لأن أمطارها وابلّة متدفقة ومدينة مفروشة كأنها فاذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وانقاها وجامع صنعاء من أحسن الجوامع وفيه قبر نبي من الأنبياء عليهم السلام ثم سافرت منها إلى مدينة عدن مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الأعظم والجبال تحف بها ولا مدخل إليها إلا من جانب واحد وهي مدينة كبيرة ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء وبها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر والماء على بعد منها فرما منته العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب وهي شديدة الحر وهي مرسى أهل الهند تأتي إليها المراكب العظيمة من كينيايت وتانه وكولم وقالقوط وفندراينه والشاليات ومنجور وفاكنور وهنور وسندابور وغيرها وتجار الهند ساكنون بها وتجار مصر أيضاً وأهل عدن ما بين تجار وحمالين وصيادين السمك وللتجار منهم أموال عريضة وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة .

(حكاية) ذكر على أن بعضهم بعث غلاماً له ليشتري له كبشاً وبعث آخر منهم غلاماً له برسم ذلك أيضاً فانفق أنه لم يكن بالسوق في ذلك اليوم إلا كبش واحد فوقعت المزايدة فيه بين الغلامين فأنتهى ثمنه إلى أربع مائة دينار فأخذه أحدهما وقال إن رأس مالي أربع مائة دينار فإن أعطاني مولاي ثمنه فحسن وإلا دفعت فيه رأس مالي وانصرت نفسي وغلبت صاحبي وذهب بالكبش إلى سيده فلما عرف سيده بالقضية وأعطاه ألف دينار وعاد الآخر إلى سيده خائباً فغضبه وأخذ ماله ونفاه عنه ونزلت في عدن عند تاجر يعرف بناصر الدين الفأري فكان يحضر طعامه كل ليلة نحو عشرين من التجار وله غلمان وخدام أكثر من ذلك مع هذا كله فهم أهل دين وتواضع وصلاح ومكارم أخلاق يحسنون إلى الغريب ويؤثرون على الفقير ويعطون حق الله من الزكاة على ما يحب ولقيت بهذه المدينة قاضيها الصالح سالم بن عبد الله الهندي وكان والده من العبيد الجمالين واشتغل ابنه بالعلم فرأس وصاد وهو من خيار القضاة وفضلائهم اقامت في ضيافتهم أياماً وسافرت من مدينة عدن في البحر أربعة أيام ووصلت إلى مدينة زيلع وهي مدينة البربرة وهم طائفة من السودان شافعية المذهب وبلادهم

صحراء مسيرة شهرين أو لها زيلع وآخرها مقدشو ومواسيهم الجمال وهم أغنام مشهورة السمن وأهل زيلع سود الألوان وأكثرهم رافضة وهي مدينة كبيرة لها سوق عظيمة إلا أنها أقدر مدينة في المعمور وأوحشها وأكثرها ثنناً وسبب ثننها كثرة سمكها ودماء الإبل التي ينحرونها في الأزقة ولما وصلنا إليها اخترنا المبيت بالبحر على شدة هوله ولم نبت بها لقدرها ثم سافرنا منها في البحر خمس عشرة ليلة ووصلنا مقدشو (وضبط اسمها بفتح الميم وإسكان القاف وفتح الدال المهمل والشين المعجم وإسكان الواو) وهي مدينة متناهية في السكبر وأهلها لهم جمال كثيرة ينحرون منها المثين في كل يوم ولهم أغنام كثيرة وأهلها تجار أقوياء وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها التي لا نظير لها ومنها تحمل إلى ديار مصر وغيرها ومن عادة أهل هذه المدينة أنه متى وصل مركب إلى المرسى تصعد الصنابق وهي القوارب الصغار إليه ويكون في كل صنابق جماعة من شبان أهلها فيأتي كل واحد منهم بطبق مغطى فيه الطعام فيقدمه للتاجر من تجار المركب ويقول هذا نزيلي وكذلك يفعل كل واحد منهم ولا ينزل التاجر من المركب إلا إلى دار نزيله من هؤلاء الشبان إلا من كان كثير التردد إلى البلد وحصلت له معرفة أهلها فإنه ينزل حيث شاء فإذا نزل عند نزيله باع له ما عنده واشترى له ومن اشترى منه ببخس أو باع منه بغير حضور نزيله فذلك البيع مردود عندهم ولهم منفعة في ذلك ولما صعد الشبان إلى المركب الذي كنت فيه جاء إلى بعضهم فقال له أصحابي ليس هذا بتاجر وإنما هو فقيه فصاح بأصحابه وقال لهم هذا نزيل القاضي وكان فيها أحد أصحاب القاضي فعرفه بذلك فأتى إلى ساحل البحر في جملة من الطلبة وبعث إلى أحدهم فنزلت أنا وأصحابي وسلمت على القاضي وأصحابه وقال لي بسم الله نتوجه للسلام على الشيخ فقلت ومن الشيخ فقال السلطان وعادتهم أن يقولوا للسلطان الشيخ فقلت له إذا نزلت توجهت إليه فقال لي أن العادة إذا جاء الفقيه أو الشريف أو الرجل الصالح لا ينزل حتى يرى السلطان فذهبت معهم إليه كما طلبوا

(ذكر سلطان مقدشو)

وسلطان مقدشو كما ذكرناه إنما يقولون له الشيخ واسمه أبو بكر ابن الشيخ عمر وهو في الأصل من البرابرة وكلامه بالمقدشي ويعرف اللسان العربي ومن عوائده أنه متى وصل مركب يصعد إليه صنابق السلطان فيسأل عن المركب من أين قدم ومن صاحبه ومن ربانه وهو الرئيس وما وسقه ومن قدم فيه من التجار وغيرهم فيعرف بذلك كله ويعرض على السلطان فمن استحق أن ينزل عنده أنزله ولما وصلت مع القاضي المذكور وهو يعرف بابن البرهان المصري الأصل إلى دار السلطان خرج بعض الغتيان فسلم على القاضي فقال له بلغ الأمانة وعرف مولانا الشيخ أن هذا الرجل قد صل من أرض الحجاز فبلغ ثم عاد

وأتى بطبق فيه أوراق التنبول والقوفل فأعطاني عشرة أوراق مع قليل من القوفل
واعطى للقاضي كذلك وأعطى لأصحابي ولطلبة القاضي ما بقي في الطبق وجاء بقمقم من ماء
الورد الدمشقي فسكب على وعلى القاضي وقال ان مولانا أمر أن ينزل بدار الطلبة وهي دار
معدة لضيافة الطلبة فأخذ القاضي بيدي وجئنا إلى تلك الدار وهي بمقربة من دار الشيخ
مفروشة مرتبة بما تحتاج اليه ثم أتى بالطعام من دار الشيخ ومعه أحد وزرائه وهو
الموكل بالضيوف فقال مولانا يسلم عليكم ويقول لكم قدتم خير مقدم ثم وضع في الطعام
فأكلنا وطعامهم الارز المطبوخ بالسمن يجعلونه في صحفة خشب كبيرة ويجعلون فوقه
صحاف السكوشان وهو الإدام من الدجاج واللحم والحوت والبقول ويطبخون الموز قبل
نضجه في اللبن الحليب ويجعلونه في صحفة ويجعلون اللبن المريب في صحفة ويجعلون عليه
الليمون المصبر وعناقيد الفلفل المصبر التخلل والمملوح والزنجبيل الاخضر والعنب وهو
مثل التفاح ولكن لها نواة وهي اذا نضجت شديدة الحلاوة وتوكل كالفاكهة وقبل نضجها
حامضة كالليمون يصبرونها في الخل وهم إذا أكلوا لقمة من الارز أكلوا بعدها من هذه
المواالح والمخللات .

والواحد من اهل مقدشو يا كل قدر ما تاكله الجماعة منا عادة لهم وفي نهاية من
ضخامة الاجسام وسمنها ثم لما طعمنا انصرف عنا القاضي وأقمنا ثلاثة أيام يؤتى اليها بالطعام
ثلاث مرات في اليوم وتلك عادتهم .

فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة جاءني القاضي والطلبة وأحد وزراء الشيخ
وأتوني بكسوة ، وكسوتهم فوطه خز يشدها الإنسان في وسطه عوض السراويل فانهم
لا يعرفونها ودراعة من المقطع المصري معلية وفرجية من القدسي مبطنة وعمامة مصرية
معلية وأنوا لأصحابي بكسي تناسبهم وأتيننا الجامع فصلينا خلف المقصورة فلما خرج
الشيخ من باب المقصورة سلمت عليه مع القاضي فرحب وتكلم بلسانهم مع القاضي
ثم قال باللسان العربي قدمت خير مقدم وشرفت بلادنا وأنستنا وخرج إلى صحن
المسجد فوقف على قبر والده وهو مدفون هناك فقرأ ودعا ثم جاء الأمراء والوزراء
وجوه الأجناد فسلموا وعادتهم في السلام كمادة أهل اليمن يضع سياجته في الأرض
ثم يجعلها على رأسه ويقول أدام الله عزك ثم خرج الشيخ من باب المسجد فلبس
عليه وأمر القاضي أن ينتعل وأمرني أن أنتعل وتوجه إلى منزله ماشيا وهو بالقرب
من المسجد ومشى الناس كلهم خفاة ورفعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملون
وعلى أعلى كل قبة صورة طائر من ذهب وكان لباسه في ذلك اليوم فرجية قدسي أخضر

وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها الحسان وهو متقلد بفوطة حرير وهو معتم بهامة كبيرة وضربت بين يديه الطبول والأبواق والأنفار وأمرام الأجناد أمامه وخلفه والقاضى والفقهاء والشرفاء معه ودخل إلى مشوره على تلك الهيئة وقعد الوزراء والأمراء ووجوه الاجناد فى سقيفة هنالك وفرش للقاضى بساط لا يجلس معه غيره عليه والفقهاء والشرفاء معه ولم يزالوا كذلك إلى صلاة العصر فلما صلوا العصر مع الشيخ أتى جميع الاجناد ووقفوا صفوفًا على قدر مراتبهم ثم ضربت الأطباق والأنفار والأبواق والصراياح وعند ضربها لا يتحرك أحد ولا يتزحزح من مقامه ومن كان ماشيًا وقف فلم يتحرك إلى خلف ولا إلى أمام فإذا فرغ من ضرب الطبلة خاضعوا بأصابعهم كما ذكرناه وانصرفوا وتلك عادة لهم فى كل يوم جمعة وإذا كان يوم السبت يأتى الناس إلى باب الشيخ فيقعّدون فى سقائف خارج الدار ويدخل القاضى والفقهاء والشرفاء والصالحون والمشايخ والحجاج إلى المشور الثانى فيقعّدون على دكاكين خشب معدة لذلك ويكون القاضى على دكانة وحده وكل صنف على دكانة تخصهم لا يشاركون فيها سواهم ثم يجلس الشيخ بمجلسه ويبعث إلى القاضى فيجلس عن يساره ثم يدخل الفقهاء فيقعّد كبرائهم بين يديه وسائرهم يسلمون وينصرفون ثم يدخل الشرفاء فيقعّد كبرائهم بين يديه ويسلم سائرهم وينصرفون وإن كانوا ضيوفاً جلسوا عن يمينه ثم يدخل المشايخ والحجاج فيجلس كبرائهم ويسلم سائرهم وينصرفون ثم يدخل الوزراء ثم الأمراء ثم وجوه الأجناد طائفة بعد طائفة أخرى فيسلمون وينصرفون ويؤتى بالطعام فيأكل بين يدي الشيخ القاضى والشرفاء ومن كان قاعداً بالمجلس ويأكل الشيخ معهم وإن أراد تشریف أحد من كبار أمرائه بعث إليه فأكل معهم ويأكل كل سائر الناس بدار الطعام وأكلهم على ترتيب مثل ترتيبهم فى الدخول على الشيخ ثم يدخل الشيخ إلى داره ويقصد القاضى والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الأمراء للفصل بين الناس وأهل الشكايات فما كان متعلقاً بالأحكام الشرعية حكم فيه القاضى وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى وهم الوزراء والأمراء وما كان مفتقراً إلى مشاورة السلطان كتبوا إليه فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره وتلك عادتهم .

ثم ركبنا من مدينة مقدشو متوجهاً إلى بلاد السواحل قاصداً مدينة كلوا من بلاد الزنوج فوصلنا إلى جزيرة منبسى (وضبط اسمها ميم مفتوح ونون مسكن وباء موحدة مفتوحة وسين مهيمل مفتوح وباء) وهى كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين فى البحر ولا بر لها وأشجارها الموز والليمون واللاترج ولهم قاكهة يسمونها الجمون وهى شبه

الزيتون ولها نوى كثرة إلا أنها شديدة الحلاوة ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة وإنما يجلب اليهم من السواحل وأكثر طعامهم الموز والسمك وهم شافعية المذهب أهل دين وعفاف وصلاح ومساجدهم من الخشب محكمة الإنقان وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والثنتان وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان فيستقون منها الماء بقدر خشب قد غرز فيه عود رقيق في طول الزراع والأرض حول البئر والمسجد مسطحة فمن أراد دخول المسجد غسل رجله ودخل ويكون على بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجله ومن أراد الوضوء أمسك الفدح بين نخليه وصب على يديه ويتوضأ وجميع الناس يمشون حفاة الأقدام وبقنا بهذه الجزيرة ليلة وركبنا البحر إلى مدينة كلوا (وضبط اسمها بضم الكاف واسكان اللام وفتح الواو) وهي مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها الزوج المستحكم والسواد ولهم شرطات في وجوههم كما هي في وجوه الليميين من جنادة وذكر لي بعض التجار أن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا وان بين سفالة ويوفي من بلاد الليميين مسيرة شهر ومن يوفي يوثق بالنهر إلى سفالة ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة وكلها بالخشب وسقف بيوتها الديس والأمطار بها كثيرة وهم أهل جهاد لأنهم في بر واحد مع كفار الزوج والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب

(ذكر سلطان كلوا)

وكان سلطانها في عهد دخولي إليها أبو المظفر حسن ويكنى أيضا أبو المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه وكان كثير الغزو إلى أرض الزوج يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ويصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله تعالى ويجعل نصيب ذوى القربى في خزائنه على حدة فإذا جاءه الشرفاء دفعه اليهم وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة منهم محمد بن جواز ومنصور بن أبيه بن أبي ندى ومحمد ابن شميلة بن أبي ندى ولقيت بمقدشو اتيل بن كيش بن جواز وهو يريد القدوم عليه وهذا السلطان له تواضع شديد ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ويعظم أهل الدين والشرف .

(حكاية من مكارمه)

حضرته يوم الجمعة وقد خرج من الصلاة قاصدا إلى داره فتعرض له أحد الفقراء اليميين فقال له أبا المواهب فقال لبيك يا فقير ما حاجتك قال اعطني هذه الثياب التي عليك فقال له نعم أعطيكم قال الساعة قال نعم الساعة فرجع إلى المسجد ودخل بيت الخطيب فلبس ثيابا سواها وخلع تلك الثياب وقال للفقير ادخل فخذها فدخل الفقير وأخذها وربطها

في منديل وجمعها فوق رأسه وانصرف فعظم شكر الناس للسلطان على ما ظهر من تواضعه وكرمه واخذ ابنه ولي عهده تلك الكسوة من الفقير وعوضه عنها بعشرة من العبيد وبلغ السلطان ما كان من شكر الناس له على ذلك فأمر للفقير ايضا بعشرة رؤوس من الرقيق وحملين من العاج ومعظم عطاياهم من العاج وقلبا يعطون الذهب .

ولما توفي هذا السلطان العاضل الكريم رحمة الله عليه ولي أخوه داود فكان على الضد إذا اتاه سائل يقول له مات الذي كان يعطى ولم يترك من بعده ما يعطى ويقيم الوفود عنده الشهور الكثيرة وحينئذ يعطيهم القليل حتى انقطع الوافدون عن بابه .

وركبنا البحر من كلوا إلى مدينة ظفار الخوض (وضبط اسمها بفتح الظاء المعجم والفاء وآخره راء مبنية على الكسر) وهي آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي ومنها تحمل الخيل العتاق إلى الهند ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند مع مساعدة الريح في شهر كامل فد قطعت مرة في القحوط من بلاد الهند إلى ظفار في ثمانية وعشرين يوما بالريح ولم ينقطع لنا جرى بالليل ولا بالنهار وبين ظفار وعدن في البر مسيرة شهر في صحراء وبينها وبين حضرموت ستة عشر يوما وبينها وبين عمان عشرون يوما .

ومدينة ظفار في صحراء لا قرية بها ولا عمالة لها والسوق خارج المدينة بر بعض يعرف بالخرجاء وهي من أقدر الأسواق وأشدها تنافوا أكثرها ذبا با لكثرة ما يباع بها من الثمرات وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين وهو بها في النهاية من السمك ومن العجائب ان دوابهم إنما علفها من هذا السردين وكذلك غنمهم ولم أر ذلك في سواها وأكثر باعها الخدم وهن يلبسن السواد وزرع أهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء وكيفية سقيهم انهم يصنعون دلوأ كبيرة ويجعلون لها حبالا كثيرة ويتحزم بكل حبل عبد أو خادم ويعرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر ويصبونها في صهريج يسقون منه ولهم قمح يسمى نه العاس وهو في الحقيقة نوع من السلت والارز يجلب اليهم من بلاد الهند وهو أكثر طعامهم ودراهم هذه المدينة من النحاس والقصدير ولا تنفق في سواها وهم اهل تجارة لا عيش لهم إلا منها ومن عاداتهم انه إذا وصل مركب من الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان إلى الساحل وصعدوا في صهبوق إلى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله وللبان وهو الرئيس وللسكراني وهو كاتب المركب ويؤتى اليهم بثلاثة أفراس فيركبونها وتضرب أمامهم الأبطال والأبواق من ساحل البحر إلى دار السلطان فيسلمون على الوزير وأمير الجند وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثا وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان .

وهم يفعلون ذلك استجلابا لأصحاب المراكب وهم أهل تواضع وحسن اخلاق وقضية ومحبة للغرباء ولباسهم القطن وهو يجلب اليهم من بلاد الهند ويشدون القوط في أوساطهم عوض عن السروال واكثرهم يشد فوطه في وسطه ويبسل فوق ظهره أخرى من شدة الحر ويغتسلون مرات في اليوم .

وهي كثيرة المساجد ولهم في كل مسجد مظاهر كثيرة معدة للاغتسال ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جدا .

والغالب على أهلها رجالا ونساء المرض المعروف بداء الفيل وهو انتفاخ القدمين واكثر رحالهم مبتلون بالادر والعميا بالله ومن عوايدهم الحسنة التصافح في المسجد اثر صلاة الصبح والعصر يستند أهل الصف الاول الى القبلة ويصالحهم الذين يلونهم وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة يتصافحون اجمعون ومن خواص هذه المدينة وعجائبها انه لا يقصدها أحد بسوء إلا عاد عليه مكروه وحيل بينه وبينها .

وذكر لي ان السلطان قطب الدين تمهت بن طوران شاه صاحب هرمز نازله مرة من الهرم والبحر فأرسل الله سبحانه عليه ريحا عاصفا كسرت مراكبه ورجع عن حصارها وصالح مملوكها وكذلك ذكر ان الملك المجاهد سلطان اليمن عين ابن عمه بمسكن كبير يرسم انزاعها من يد مملوكها وهو ايضا ابن عمه فلما خرج ذلك الأمير من داره سقط عليه حائط وعلى جماعة من أصحابه فماتوا جميعا ورجع الملك عن رأيه وترك حصارها وطلبها ومن الغرائب ان أهل هذه المدينة أشبه الناس بأهل المغرب في شئونهم نزلات بدار الخطيب بمسجدها الأعظم وهو عيسى ابن علي كبير القدر كريم النفس فكان له جوار مسميات بأسماء خدام المغرب احدها من اسمها بخيته والاخرى زاد المال ولم أسمع هذه الأسماء في بلد سواها واكثر أهلها رؤسهم مكشوفة لا يجعلون عليها العمامم وفي كل دار من دورهم سجادة الخوص معلقة في البيت يصلي عليها صاحب البيت كما يفعل أهل المغرب وأكلهم الذرة وهذا التشابه كله مما يقوى القول بان صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب اصلهم من حمير ويقرب من هذه المدينة بين بسايتينها زاوية الشيخ الصالح العابد أبي محمد بن أبي بكر بن عيسى من أهل ظفار وهذه الزاوية معظمة عندهم يأتون إليها غدوا وعشيا ويستجيرون بها فاذا دخلها المستجير لم يقدر السلطان عليه رايت بها شخصا ذكر لي ان له بها مدة سنين مستجيرا لم يتعرض له السلطان .

وفي الأيام التي كنت بها استجار بها كاتب السلطان وأقام فيها حتى وقع بينهما الصلح أتيت هذه الزاوية فبعت بها في ضيافة الشيخين أبي العباس احمد وأبي عبد الله محمد ابني الشيخ أبي بكر المذكور وشاهدت لهما فضلا عظيما ولما غسلنا أيدينا من الطعام

أخذ أبو العباس منهما ذلك الماء الذي غسأنا به فشرب منه وبعث الخادم بياقيه إلى أهله وأولاده فشربوه وكذلك يفعلون بمن يتوسمون فيه الخير من الواردين عليهم وكذلك أضافني قاضيها الصالح أبو هاشم عبد الملك الزبيدي وكان يتولى خدمتي وغسل يدي بنفسه ولا يكل ذلك إلى غيره وبمقربة من هذه الزاوية تربة سلف السلطان الملك المنغيث وهي معظمة عندهم ويستجير بها من طالب حاجة فتقضى له ومن عادة الجنود أنه إذا تم الشهر ولم يأخذوا أرزاقهم استجاروا بهذه التربة وأقاموا في جوارها إلى أن يعطوا أرزاقهم.

وعلى مسيرة نصف يوم من هذه المدينة الأحقاف وهي منازل عاد وهناك زاوية ومسجد على ساحل البحر وحوله قرية اصيادي السمك وفي الزاوية قبر مكتوب عليه هذا قبر هود بن عابر عليه افضل الصلاة والسلام وقد ذكرت ان بمسجد دمشق موضعا عليه مكتوب عليه هذا قبر هود بن عابر والأشبه ان يكون قبره بالأحقاف لأنها بلاده والله أعلم وهذه المدينة بساتين فيها موز كثير كبير الجرم رزنت بمحضرى حبة منه فكان وزنها ثنتي عشرة أوقية وهو طيب المطعم شديد الحلاوة وبها أيضا التنبول والنارجيل المعروف بجوز الهند ولا يكونان إلا ببلاد الهند وبمدينة ظفار هذه أشبهها بالهند وقربها منه اللهم إلا ان في مدينة زبيد في بستان السلطان شجيرات من النارجيل وإذا قد وقع ذكر التنبول والنارجيل فلنذكرهما ولنذكر خصائصهما

(ذكر التنبول)

والتنبول شجر يغرس كما تغرس دوالي العنب ويصنع له معرشات من القصب كما تصنع لدوالي العنب أو يغرس في مجاورة النارجيل فيصعد فيها كما تصعد الدوالي وكما يصعد الغنفل ولا ثمر للتنبول وإنما المقصود منه ورقه وهو يشبه ورق العليق وألوانه الأصفر وتجنى أوراقه في كل يوم وأهل الهند يعظمون التنبول تعظيما شديدا وإذا أتى الرجل دار صاحبه فأعطاه خمس ورقات منه فكانما أعطاه الدنيا وما فيها لآسيا إن كان أميرا أو كبيرا وإعطاه عندهم أعظم شأنا وأدل على الكرامة من إعطاء الفضة والذهب وكيفية استعماله ان يؤخذ قبله الفوفل وهو شبه جوز الطيب فيكسر حتى يصير اطرافا صغيرا ويجعله الإنسان في فمه ويعلمه ثم يأخذ ورق التنبول فيجعل عليها شيئا من النورة ويمضغها مع الفوفل وخاصيته أنه طيب النكهة ويذهب بروائح الفم ويهضم الطعام ويقطع ضرر شرب الماء على الريق ويفرح آكله ويعين على الجماع ويجعله الإنسان عند رأسه ليلا فإذا استيقظ من نومه أو أيقظته زوجته أو جاريتة أخذ منه فيذهب بما في فمه من رائحة كريهة ولقد

ذكر لي أن جوارى السلطان والأمراء ببلاد الهند لا يأكلن غيره وسنذكره عند ذكر بلاد الهند .

(ذكر النارجيل)

وهو جوز الهند وهذا الشجر من أغرب الأشجار شأنا وأعجبها أمرا وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما إلا أن هذه ثمر جوزا وتلك ثمر ثمرأ وجوزها يشبه رأس ابن آدم لأن فيها شبه العينين والفم وداخلها شبه الدماغ إذا كانت خضراء وعليها ليف شبه الشعر وهم يصنعون به حبلا لا يخيطنون به المراكب عوضا عن مسامير الحديد ويصنعون منه الحبال للمراكب والجوزة منها وخصوصا التي بجزائر ذببة المهل تكون بمقدار رأس الأدمى ويزعمون أن حكيم من حكماء الهند في غابر الزمان كان متصلا بملك من الملوك ومعظما لديه وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحكيم معادة فقال الحكيم للملك أن رأس هذا الوزير إذا قطع ودفن تخرج منه نخلة ثمر بثمر عظيم يعود نفعه على أهل الهند وسواهم من أهل الدنيا فقال له الملك فإن لم يظهر من رأس الوزير ما ذكرته قال إن لم يظهر فاصنع برأسي كما صنعت برأسه فأمر الملك برأس الوزير فقطع وأخذ الحكيم وغرس نواة تمر في دماغه وعالجها حتى صارت شجرة وأثمرت بهذا الجوز وهذه الحكاية من الأكاذيب ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم ومن خواص هذا الجوز تقوية البدن وإسراع السمن وزيادة في حمرة الوجه وأما الإغاثة على الباءة ففعله فيها عجيب ومن عجائبه أنه يكون في ابتداء أمره أخضر فمن قطع بالسكين قطعة من قشره وفتح رأس الجوزة شرب منها ماء في النهاية من الحلاوة والبرودة ومزاجه حار معين على الباءة فإذا شرب ذلك الماء أخذ قطعة القشرة وجعلها شبه الملعقة وسجد بها مافي داخل الجوزة من الطعام فيكون طعمه كطعم البيضنة إذا شربت ولم يتم نضجها كل التمام ويتغذى به ومنه كان غذائي أيام إقامتي بجزائر ذببة المهل مدة عام ونصف عام وعجائبه أن يصنع منه الزيت والحليب والعسل فأما كيفية صناعة العسل منه فإن خدام النخل منه ويسمون الفازانية يصعدون إلى النخلة غدوا وعشيا إذا أرادوا أخذ مائها الذي يصنعون منه العسل وهم يسمونه الأطواق فيقطعون العنق الذي يخرج منه الثمر ويتركون منه مقدار أصبعين ويربطون عليه قدرا صغيرا فيها الماء الذي يسيل من العنق فإذا ربطها غدوة صعد إليها عشيا ومعه قدحان من قشر الجوز المذكور أحدهما مملوء ماء فيصب ما اجتمع من ماء العنق في أحد القدحين ويغسله بالماء الذي في القدح الآخر وينجز من العنق قليلا ويربط عليه القدر ثانية ثم يفعل غدوة كفعله عشيا

فاذا اجتمع له الكثير من ذلك الماء طبخه كما يطبخ ماء العنب إذا صنع منه الرب فيصير عسلا عظيم النفع طيبا يشتره تجار الهند واليمن والصين ويحملونه إلى بلادهم ويصنعون منه الحلواء وأما كيفية صنع الحليب منه فإن بكل دار شبه الكرسى تجلس فوقه المرأة ويكون بيدها عصى في أحد طرفيها حديدة مشرقة فيفتحون في الجوزة مقدار ما تدخل تلك الحديدة ويجرشون ما في باطن الجوزة وكل ما ينزل منها يجتمع في صحيفة حتى لا يبقى في داخل الجوزة شيء ثم يمرس ذلك الجريش بالماء فيصير كلون الحليب بياضا ويكون طعمه كطعم الحليب ويأثم به الناس وأما كيفية صنع الزيت فانهم يأخذون الجوز بعد نضجه وسقوطه عن شجره فيزيلون قشره ويقطعون قطعا ويجعل في الشمس فاذا ذبل طبخوه في القدور واستخرجوا زيتا وبه يستصحبون ويضعه الناس في شعورهم وهو عظيم النفع .

(ذكر سلطان ظفار)

وهو السلطان الملك المغيث بن الملك الفائز ابن عم ملك اليمن وكان أبوه أميرا على ظفار من قبل صاحب اليمن وله عليه هدية يبعثها له في كل سنة ثم استبد الملك المغيث بملكها وامتنع من إرسال الهدية وكان من عزم ملك اليمن على محاربته وتعيين ابن عمه ووقوع الحائط عليه ما ذكرناه آنفا وللسلطان قصر بداخل المدينة يسمى الحصن عظيم فسيح والجامع بازائه ومن عاداته أن تضرب الطبول والبرقات والأنفار والصرنايات على بابه كل يوم بعد صلاة العصر وفي كل يوم اثنين وخميس تأتي العساكر إلى بابه فيقفون خارج المشور ساعة وينصرفون والسلطان لا يخرج ولا يراه أحد إلا في يوم الجمعة فيخرج للصلاة ثم يعود إلى داره ولا يمنع أحد من دخول المشور وأمير جندرقاعد على بابه واليه ينتهي كل صاحب حاجة أو شكاية وهو يطالع السلطان ويأتيه الجواب للحين وإذا أراد السلطان الركوب خرجت مراكبه من القصر وسلاحه ومالكة إلى خارج المدينة وأتى بجمل عليه محمل مستور بستر أبيض منقوش بالذهب فيركب السلطان وندمه في المحمل بحيث لا يرى وإذا خرج إلى بستانه وأحب ركوب الفرس ركبه ونزل عن الجمل وعاداته أن لا يعارضه أحد في طريقه ولا يقف لرؤيته ولا لشكايته ولا غيرها ومن تعرض لذلك ضرب أشد الضرب فتجد الناس إذا سمعوا بخروج السلطان فروا عن الطريق وتحاموها ووزير هذا السلطان الفقيه محمد العدني وكان معلم صبيان فعلم هذا السلطان القراءة والكتابة وعاهده على أن يستوزره ان ملك فلما ملك استوزره فلم يكن يحسنها فكان الاسم له والحكم لغيره ومن هذه المدينة ركبنا البحر نريد عمان في مركب صغير

أرجل يعرف بعلى بن إدريس المصيرى من أهل جزيرة مصيرة وفي الثاني أركوبنا نزلنا
بمرسى حاسك وبه ناس من العرب صيادون للسماك ساكنون هنالك وعندهم شجر
السكندر وهو رقيق الورق وإذا شرطت الورقة منه قطر منها ماء شبه اللبن ثم عاد صمغها
وذلك الصمغ هو اللبان وهو كثير جدا هنالك ولا معيشة لأهل ذلك المرسى إلا من
صيد السمك، وسمكهم يعرف باللخم (بخام معجم مفتوح) وهو شبيهه كلب البحر يشرح
ويقعد ويقنات به ويوتهم من عظام السمك وسقفها من جلود الجمال وسرنا من مرسى
حاسك أربعة أيام ووصلنا إلى جبل المعان (بضم اللام) وهو في وسط البحر وبأعلاه رابطة
مبنية بالحجارة وسقفها من عظام السمك وبخارجها غدير ماء يجتمع من المطر .

(ذكر ولي لقيناه بهذا الجبل)

ولما أرسينا تحت هذا الجبل صعدناه إلى هذه الرابطة فوجدنا بها شيخا نائما فسلمنا
عليه فاستيقظ وأشار برد السلام فكلمناه فلم يكلمنا وكان يحرك رأسه فأناه أهل المركب
بطعام فأبى أن يقبله فطلبنا منه الدعاء فكان يحرك شفتيه ولا نعلم ما يقول وعليه مرقعة
وقلنسوة لبدوايس معه ركة ولا ابريق ولا عكاز ولا نعل وقال أهل المركب انهم مارأوه
قط بهذا الجبل وأقننا تلك الليل بساحل الجبل وصلينا معه العصر والمغرب وجئناه بطعام
فردده وأقام يصلى إلى العشاء الآخرة ثم أذن وصليناها معه وكان حسن الصوت بالقراءة
بحيida لها ولما فرغ من صلاة العشاء الآخرة أوما اليها بالانصراف فودعناه وانصرفنا
ونحن نعجب من أمره ثم إنى اردت الرجوع اليه لما انصرفنا فلما دنوت منه غلب على
الخوف ورجعت إلى اصحابى وانصرفت معهم وركبنا البحر ووصلنا بعد يومين إلى
جزيره الطير وليست بها عمارة فأرسينا وصعدنا إليها فوجدناها ملانة بطيور تشبه
الشقاشق إلا أنها اعظم منها وجاءت الناس بببيض تلك الطيور فطبخوها وأكلوها
واصطادوا جملة من تلك الطيور فطبخوها دون ذكاة وأكلها وكان يجالسني تاجر من
أهل جزيرة مصيرة ساكن بظفار اسمه مسلم ورأيت يأكل معهم تلك الطيور فأنكرت
ذلك عليه فاشتد خجله وقال لى ظننت انهم ذبحوها وانقطع عني بعد ذلك من الخجل
فكان لا يقربنى حتى ادعوا به وكان طعاعى فى تلك الأيام بذلك المركب التمر والسمك
وكانوا يصطادون بالغدو والعشى سمكا يسمى بالفارسية شير ماهى ومعناه أسد
السمك لان شير هو الأسد وماهى السمك وهو يشبه الحوت المسمى عندنا بتارزت وهم
يقطعون قطعا ويشوونه ويعطون كل من فى المركب قطعة لا يفضلون أحدا على احد ولا

صاحب المركب ولا سواه وياً كونه بالتعرو كان عندي خبز وكعك استصحبتهما من ظفار فلما نفدا كنت أقنات من ذلك السمك في جماتهم وعيدنا عيد الأضحى على ظهر البحر وهبت علينا في يومه ريح عاصف بعد طلوع الفجر ودامت إلى طلوع الشمس وكادت تغرقنا.

(كرامة)

وكان معنا في المركب حاج من أهل الهند يسمى بخضر ويدعى بمولانا لأنه يحفظ القرآن ويحسن الكتابة فلما رأى هول البحر لف رأسه بعباءة كانت له وتناوم فلما فرج الله ما نزل بنا قلت له يا مولانا خضر كيف رأيت كنت عند الهول افتح عيني أنظر هل أرى الملائكة الذين يقبضون الأرواح جاؤا فلا أراهم فأقول الحمد لله لو كان الفرق لا توا لقبض الأرواح ثم أغلق عيني ثم افتحتها فانظر كذلك إلى ان فرج الله عنا وكان قد تقدمنا مركب لبعض التجار ففرق ولم ينبج منه إلا رجل واحد خرج عوما بعد جهد شديد وأكلت في ذلك المركب نوعا من الطعام لم أذوقه قبل ولا بعد صنعه بعض تجار عمان وهو من الذرة طبخها من غير طحن وصب عليها السيلان وهو عسل الثمر وأكلناه ثم وصلنا إلى جزيرة مصيرة التي منها صاحب المركب لدى كنا فيه وهي على لفظ مصير وزيادة تاء التأنيث جزيرة كبيرة لأعيش لأهلها إلا من السمك ولم تنزل إليها لبعدها عن الساحل وكنت قد كرهتهم لما رأيتهم ياكلون الطير من غير ذكاة وأقمنا بها يوما وتوجه صاحب المركب إلى داره وعاد إلينا ثم سرنا يوما وليلة ووصلنا إلى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور وأينا منها مدينة قلها في سفح جبل خفيف لنا أنها قرية وكان وصولنا إلى المرسى وقت الزوال أو قبله فلما ظهرت لنا المدينة أحببت المشي إليها والمبيت بها وكنت قد كرهت صحبة أهل المركب سألت عن طريقها فأخبرت أني أصل إليها العصر فاكترت أحد البحرين ليديني عن طريقها وصحبني خضر الهندي الذي تقدم ذكره وتركت أصحابي مع ما كان لي بالمركب ليأخذوا بي في غد ذلك اليوم واخذت أثوابا كانت لي فدفعتها للدليل ليكفيني مونة حملها وحملت في يدي ربحا فإذا ذلك الدليل يحب ان يستولى على أثوابي فأتى بنا إلى خليج يخرج من البحر فيه المد والجزر فأراد عبوره بالثياب فقلت له إنما تعبر وحدك وتترك الثياب عندنا فان قدرنا الجواز جزنا ولا يصعدنا نطلب التجاز فراجع ثم رأينا رجلا جازوه عوما فتحققنا انه كان تصدع من يرقنا ويذهب بالثياب خيتمنا ظهرت النشاهد واخذت بالحزم وشدت وسطى وكنت اهز الرمح فيها بنى ذلك الدليل وصعدنا حتى وجدنا مجازا ثم خرجنا إلى صحراء لاماء بها واشتد بنا الأمر فبعث الله لنا فارسا في جماعة من أصحابه

و بيد أحدهم ركوة ماء فسقاني وسقى صاحبي وذهبنا نحسب المدينة قريبة منا وبيننا وبينها خنادق نمشى فيها الأميال الكثيرة فلما جاء العشى أراد الدليل أن يميل بنا إلى ناحية البحر وهو لا طريق له لأن ساحله حجارة فأراد أن ننشب فيها ويذهب بالثياب فقللت له إنما نمشى على هذه الطريق التي نحن عليها وبينها وبين البحر نحو ميل فلما أظلم الليل قال لنا إن المدينة قريبة فتمعالوا نمشى حتى نبيت بخارجها إلى الصباح فخفت أن يتعرض لنا أحد في الطريق ولم أحقق مقدار ما بقي إليها فقللت له إنما الحق ان نخرج عن الطريق فننام فاذا أصبحنا أتينا المدينة إن شاء الله وكنت قد رأيت جملة من الرجال في سفح جبل هنالك فخفت ان يكونوا لصوصاً وقلت التستر اولى وغلب العطش على صاحبي فلم يوافق على ذلك فخرجت عن الطريق وقصدت شجرة من شجر ام غيلان وقد أعيت وادركني الجهد لكنني اظهرت قوة وتجلداً خوف الدليل وأما صاحبي فمريض لا قوة له فجعلت الدليل بيني وبين صاحبي وجعلت الثياب بين ثوبي وجسدي وأمسكت الرمح بيدي ووقد صاحبي ووقد الدليل وبقيت ساهراً فكلما تحرك الدليل كلمته وأريته اني مستيقظ ولم نزل كذلك حتى الصبح .

ثم خرجنا الى الطريق فوجدنا الناس ذاهبين بالمرافق إلى المدينة فبعثت الدليل ليأتينا بماء واخذ صاحبي الثياب وكان بيننا وبين المدينة مهاو وخنادق فأنانا بالماء فشربنا وذلك أوان الحر ثم وصلنا إلى مدينة قلها (وضبط اسمها بفتح القاف واسكان اللام وآخره تاء مشناة) فأتيناهما ونحن في جهد عظيم وكنت قد ضاقت نعلي على رجلي حتى كاد الدم يخرج من تحت اظفارها فلما وصلنا باب المدينة كان ختام المشقة أن قال لنا الموكل بالباب لا بد لك أن تذهب معي الى امير المدينة ليعرف قضيتك ومن اين قدمت فذهبت معه اليه فرأيت فاضلاً حسن الاخلاق وسألني عن حالى وانزلى واقمت عنده ستة ايام لا قدرة لي فيها على النهوض على قدمي لما لحقها من الآلام .

ومدينة قلها على الساحل وهي حسنة الاسواق ولها مسجد من أحسن المساجد حيطانه بالقشاني وهو شبه الزليج وهو مرتفع ينظر منه إلى البحر والمرسى وهو من عمارة الصالحة بيبي مريم ومعنى بيبي عندهم الحرة وأكلت بهذه المدينة سمكاً كل مثله في إقليم من الأقاليم وكنت أفضله على جميع اللحوم فلا آكل سواه وهم يشوونه على ورق الشجر ويجعلونه على الارزويأكلونه والارز يجلب إليهم من أرض الهند وهم أهل تجارة ومعيشتهم بما يأنى إليهم في البحر الهندي واذا وصل إليهم مركب فرحوا به أشد الفرح وكلامهم ليس

بالفصيح مع أنهم عرب وكل كلمة يتسكلمون بها يصلونها بلا فيقولون مثلاً تأكل
لا تمشى لا تفعل كذا لا وأكثرتهم خوارج لسكنهم لا يقدرّون على إظهار مذهبهم
لأنهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تمتهن ملك هرمز وهو من أهل السنة وبمقرّبة
من قلعات قرية طيبي واسمها على نحو اسم الطيب إذا أضافه المتسكلم لنفسه وهي من
أجمل القرى وأبدعها حسناً ذات أنهار جارّية وأشجار ناضرة وبساتين كثيرة ومنها
تجلب الفواكه إلى قلعات وبها الموز المعروف بالرواري والرواري بالفارسية هو
الجوهري (الروار الجوهري) وهو كثير بها وجلب منها إلى هرمز وسواها وبها أيضاً
النبول لسكن ورقته صغيرة والتمر يجلب إلى هذه الجهات من عمان ثم قصدنا بلاد
عمان فسربنا ستة أيام في صحراء ثم وصلنا بلاد عمان في اليوم السابع وهي خصبة ذات
أنهار وأشجار وبساتين وحدائق ونخل وفاكهة كثيرة مختلفة الأجناس ووصلنا إلى
قاعدة هذه البلاد وهي مدينة نزوا (وضبط اسمها بنون مفتوح وزاي مسكن وواو
مفتوح) مدينة في سفح جبل تحف بها البساتين والأنهار يأتي كل إنسان بما عنده
ويجتمعون للأكل في صحن المسجد ويأكل معهم الوارد والصادر ولهم نجدة
وشجاعة والحرب قائمة فيما بينهم أبداً وهم إباضية المذهب ويصلون الجمعة ظهراً أربعاً
فاذا فرغوا منها قرأ الإمام آيات من القرآن ونثر كلاماً شبه الخطبة يرضى فيه عن أبي بكر
وعمر ويسكت عن عثمان وعلي وهم إذا أرادوا ذكر علي رضي الله عنه كانوا منه فقالوا
ذكر عن الرجل أو قال الرجل ويرضون عن الشقي اللعين ابن ملجم ويقولون فيه العبد
الصالح قامع الفتنة ونساؤهم يكثرن الفساد ولا غيره عندهم ولا إنكار لذلك وسند ذكر
حكاية أثر هذا مما يشهد بذلك .

(ذكر سلطان عمان)

وسلطانها عربي من قبيلة الأزدي بن الغوث ويعرف بأبي محمد بن نهران وأبو محمد
عندهم سمة لكل سلطان يلي عمان كما هي أتابك عند ملوك اللور وعادته أن يجلس خارج
باب داره في مجلس هنالك ولا حاجب له ولا وزير ولا يمنع أحداً من الدخول إليه
من غريب أو غيره ويكرم الضيف على عادة العرب ويعين له الضيافة ويعطيه على قدره
وله أخلاق حسنة ويؤكل على مائدته لحم الخمار الانسي ويباع بالسوق لأنهم قائلون
بتحليله ولسكنهم يخفون ذلك عن الوارد عليهم ولا يظهرونه بمحضره ومن عدن عمان
مدينة زكي لم أدخلها وهي على ما ذكر لي مدينة عظيمة منها القرىات وشبّاوكلبارخورفكان

وصحار وكلها ذات أنهار وحدائق وأشجار ونخل وأكثر هذه البلاد في عمالة هرمز

(حكاية)

كنت يوماً عند السلطان أبي محمد بن زهران فأتته امرأة صغيرة السن حسنة الصورة بادية الوجه فوقفت بين يديه وقالت له يا أبا محمد طغى الشيطان في رأسي فقال لها اذهبي واطردى الشيطان فقالت له لا أستطيع وأنا في جوارك يا أبا محمد فقال لها اذهبي فافعلي ما شئت فذكر لي لما انصرفت عنه أن هذه ومن فعل مثل فعلها تكون في جوار السلطان وتذهب للفساد ولا يقدر أبوها ولا ذوا قرابتها أن يغيروا عليها وإن قتلوها قتلوا بها لأنها في جوار السلطان ثم سافرت من بلاد عمان إلى بلاد هرمز وهرمز مدينة على ساحل البحر وتسمى أيضاً مونغ استان وتقال لها في البحر هرمز الجديدة وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ ووصلنا إلى هرمز الجديدة وهي مدينتها تسمى جرون (بفتح الجيم والراء وآخرها نون) وهي مدينة حسنة كبيرة لها أسواق حافلة وهي مرسى الهند والسند ومنها تحمل سلع الهند إلى العراقيين وفارس وخراسان وهذه المدينة سكنى السلطان والجزيرة التي فيها المدينة مسيرة يوم وأكثرها سبخ وجبال ملح وهو الملح الداراني ومنه يصنعون الأواني المزينة والمنارات التي يضعون السرج عليها وطعامهم السمك والتمر المجلوب إليهم من البصرة وعمان ويقولون بلسانهم خرما وماهى لوت بادشاهى معناه بالعربي التمر والسمك طعام الملوك والباء في الجزيرة قيمة وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة يجتمع فيها ماء المطر وهي على بعد من المدينة ويأتون إليها بالقرب فيملأونها ويرفعونها على ظهورهم إلى البحر يوسقونها في القوارب ويأتون بها إلى المدينة ورأيت من العجائب عند باب الجامع فيما بيته وبين السوق رأس سمكة كأنه رابطة وعيناه كأنهما بابان فترى الناس يدخلون من إحداهما ويخرجون من الأخرى ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح السائح أبا الحسن الأقصاري وأصله من بلاد الروم فأضافني وزارني وألبسني ثوباً وأعطاني كمر الصلبة وهو يحتج به فيعين الجالس فيسكون كأنه مستند وأكثر فقراء المعجم يتقلدونه وعلى ستة أميال من هذه المدينة مزار ينسب إلى الخضر والياس عليهما السلام يذكر أنهما يصليان فيه وظهرت له بركات وبراهين وهنالك زاوية يسكنها أحد المشايخ يخدم بها الوارد والصادر وأقنا عنده يوماً وقصدنا من هنالك زيارة رجل صالح منقطع في آخر هذه الجزيرة قد نحت غاراً لسكناه فيه زاوية ومجلس ودار صغيرة له فيها جارية وله عبيد خارج الغار يرعون بقرأ له وغنما وكان هذا الرجل من كبار التجار لحج البيت وقطع العلائق

وانقطع هنالك للعبادة ودفع ماله لرجل من أخوانه يتجر له به وبقنا عنده ليلة فأحسن القرى وأجمل رضى الله تعالى عنه وسيمعة الخير والعبادة لاثمة عليه

(ذكر سلطان هرمز)

وهو السلطان قطب الدين تمتهن طوران شاه (وضبط اسمه بفتح التاءين المملوطين وبينهما ميم مفتوح وهاء مسكنة وآخره نون) وهو من كرماء السلاطين كثير التواضع حسن الأخلاق وعادته أن يأتي لزيارة كل من يقدم عليه من فقيه أو صالح أو شريف ويقوم بحقه ولما دخلنا جزيرته وجدناه مهيباً للحرب مشغولاً بها مع ابني أخيه نظام الدين فكان في كل ليلة يتيسر للقتال والغلاء مستول على الجزيرة فأتى إلينا وزيره شمس الدين محمد بن علي وقاضيه عماد الدين الشونكارى وجماعة من الفضلاء فاعتذروا بما هم عليه من مباشرة الحرب وأقننا عندهم ستة عشر يوماً فلما أردنا الانصراف قلت لبعض الأصحاب كيف ننصرف ولا نرى هذا السلطان فجئنا على الوزير وكانت في جوار الزاوية التي نزلت بها فقلت له أنى أريد السلام على الملك فقال بسم الله وأخذ بيدي فذهب بي إلى داره وهي على ساحل البحر والأجفان مجلساً عندها فاذا شيخ عليه اقبية ضيقة دنسة وعلى رأسه عمامة وهو مشدود الوسط بمنديل فسلم عليه الوزير وسلمت عليه ولم أعرف أنه الملك وكان إلى جانبه ابن اخته وهو على شاه ابن جلال الدين السكيجى وكانت بيني وبينه معرفة فأنشأت أحادثه وأنا لا أعرف الملك فعرفنى الوزير بذلك فجلست منه لاقبالي بالحديث على ابن اخته دونه واعتذرت ثم قام فدخل داره وتبعه الأمراء والوزراء وأرباب الدولة ودخلت مع الوزير فوجدناه قاعداً على سرير ملبسكه وثيابه عليه لم يبدلها وفي يده سبحة جوهر لم تر العيون مثلاً لأن مغاصات الجوهر تحت حكمه فجلس أحد الأمراء إلى جانبه وجلست إلى جانب ذلك الأمير وسألتني عن حالى ومقدمى وعن لقيته من الملوك فأخبرته بذلك وحضر الطعام فأكل الحاضرون لم يأكل معهم ثم قام فوادعته وانصرفت وسبب الحرب التي بينه وبين ابني أخيه أنه ركب البحر مرة من مدينته الجديدة برسم النزهة في هرمز القديمة وبساتينها وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ كما قدمناه نخالف عليه أخوه نظام الدين ودعى لنفسه وبايعه أهل الجزيرة وبايعته العساكر نخاف قطب الدين على نفسه وركب البحر إلى مدينة قلعات التي تقدم ذكرها وهي من جملة بلاده فأقام بها شهوراً وجهز المراكب وأتى الجزيرة فقاتله أهلها مع أخيه وهزموه وعاد إلى قلعات وفعل ذلك مراراً فلم تسكن له حيلة إلا أن يرسل بعض نساء أخيه فسمته ومات وأتى هو إلى الجزيرة فدخلها وفر

ابنا أخيه بالخزائن والأموال والعساكر إلى جزيرة قيس حيث مغاص الجوهر وصاروا يقطعون الطريق على من يقصد الجزيرة من أهل الهند والسند ويغيرون على بلاده البحرية حتى تخرب معظمها ثم سافروا من مدينة جرون برسم لقاء رجل صالح ببلد خنج بال فلما عدنا البحر أكثرنا دواب من التركان وهم سكان تلك البلاد ولا يسافر فيها إلا معهم لشجاعتهم ومعرفة الطريق وفيها صحراء مسيرة أربع يقطعها الطريق لصوص الأعراب وتهب فيها ريح السموم في شهرى تموز وحزيران فمن صادفته فيها قتله ولقد ذكر لي أن الرجل إذا قتله تلك الرياح وأراد أصحابه غسله ينفصل كل عضو منه عن سائر الأعضاء وبها قبور كثيرة للذين ماتوا فيها بهذه الرياح وكنا نسافر فيها بالليل فإذا طلعت الشمس نزلنا تحت ظلال الأشجار من أم غيلان ونرحل بعد العصر إلى طلوع الشمس وفي هذه الصحراء وما والاها كان يقطع الطريق بها جمال الملك (اللوك) الشهير الاسم هنالك .

(حكاية)

كان جمال الك من أهل سجستان أعجمي الأصل (والى بضم اللام) معناه الأقطع وكانت يده قطعت في بعض حروبه وكانت له جماعة كثيرة من فرسان الأعراب والأعاجم يقطع بهم الطرق وكان يبنى الزوايا ويطعم الوارد والصادر من الأموال التي يسلبها من الناس ويقال أنه كان يدعو أن لا يسلط إلا على من لا يزكى ماله وأقام على ذلك دهرًا وكان يغير هو وفرسانه ويسلكون برارى لا يعرفها سواهم ويدفنون بها قرب الماء ورواياه فاذا تبعهم عسكر السلطان دخلوا الصحراء واستخرجوا المياه ويرجع العسكر عنهم خوفاً من الهلاك وأقام على هذه الحالة مدة لا يقدر عليه ملك العراق ولا غيره ثم تاب وتعبد حتى مات وقبره يزار ببلده وسلكنا هذه الصحراء إلى أن وصلنا إلى كوراستان (وضبط اسمه بفتح الكاف واسكان الواو وراء) وهو بلد صغير فيه الأنهار والبساتين وهو شديد الحر ثم سرنا منه ثلاثة أيام في صحراء مثل التي تقدمت ووصلنا إلى مدينة لار (وآخر اسمها راء) مدينة كبيرة كثيرة العيون والمياه المطردة والبساتين ولها أسواق حسان ونزلنا منها بزاوية الشيخ العابد أبي دلف محمد وهو الذى قصدنا زيارته بخنج بال وبهذه الزاوية ولده أبو زيد عبد الرحمن ومعه جماعة من الفقراء ومن مادتهم أنهم يجتمعون بالزاوية بعد صلاة العصر من كل يوم ثم يطوفون على دور المدينة فيعطاهم من كل دار الرغيف والرغيفان فيطعمون منها الوارد والصادر وأهل الدور قد ألفوا ذلك فهم يجعلونه في جملة قوتهم ويعدوننه

لهم إعانة على إطعام الطعام وفي كل ليلة جمعة يجتمع بهذه الزاوية فقراء المدينة وصالحاؤها ويأتي كل منهم بما تيسر له من الدراهم فيجمعونها وينفقونها تلك الليلة ويبيتون في عبادة من الصلاة والذكر والتلاوة وينصرفون بعد صلاة الصبح .

(ذكر سلطان لار)

وبهذه المدينة سلطان يسمى بجلال الدين تركاني الأصل بعث إلينا بضيافة ولم نجتمع به ولا رأيناه ثم سافرنا إلى مدينة خنج بال (وضبط اسمها بضم الخاء المعجم وقد يعوض منه هاء وإسكان النون وضم الجيم وباء معقودة وألف ولام) وبها سكنى الشيخ أبي دلف الذي قصدنا زيارته وبزاويته نزلنا ولما دخلت الزاوية رأيته قاعداً بناحية منها على التراب وعليه جبة صوف خضراء بالية وعلى رأسه عمامة صوف سوداء فسلمت عليه فأحسن الرد وسأني عن مقدمي وبلادي وأناني وكان يبعث إلى الطعام والفاكهة مع ولد له من الصالحين كثير الخشوع والتواضع صائم الدهر كثير الصلاة ولهذا الشيخ أبي دلف شان عجب وأمر غريب فإن نفقته في هذه الزاوية عظيمة وهو يعطي العطاء الجزيل ويكسو الناس ويركبهم الخيل ويحسن لكل وارد وصادر ولم أر في تلك البلاد مثله ولا يعلم له جهة إلا ما يصله من الإخوان والأصحاب حتى زعم كثير من الناس أنه ينفق من الكون وفي زاويته المذكورة قبر الشيخ الولي الصالح القطب دانيال وله اسم بتلك البلاد شهير وشان في الولاية كبير وعلى قبره قبة عظيمة بناها السلطان قطب الدين تمتم بن طوران شاء وأقت عند الشيخ أبي دلف يوماً واحداً لاستعجال الرفقة التي كنت في صحبتها وسمعت أن بالمدينة خنج بال المذكورة زاوية فيها جملة من الصالحين المتعبدين فرحت إليها بالعشي وسلمت على شيخهم وعليهم ورأيت جماعة مباركة قد أثرت فيهم العبادة فهم صفراء الألوان نحاف الجسوم كثيرون البكاء غزيروا الدموع وعند وصولي إليهم أنوا بالطعام فقال كبيرهم ادعوا إلى ولدي محمداً وكان معزلاً في بعض نواحي الزاوية فجاء إلينا الولد وهو كأما خرج من قبر مما نهكته العبادة فسلم وقعد فقال له أبوه يا بني شارك هؤلاء الواردين في الأكل تنل من بركاتهم وكان صائماً فافطر معنا وهم شافعية المذهب فلما فرغنا من أكل الطعام دعوا لنا وانصرفنا ثم سافرنا منها إلى مدينة قيس وتسمى أيضاً بسيراف وهي على ساحل بحر الهند المتصل ببحر اليمن وفارس وعددها في كور فارس مدينة لها انفساح وسعة طيبة البقعة في دورها بساتين عجيبية فيها الرياحين والأشجار الناضرة وشرب أهلها من عيون متبعثة من جبالها وهم عجم من الفرس أشرف وفيهم طائفة من عرب بني سفاف وهم الذين يغوصون على الجواهر .

(ذكر مغاص الجوهر)

ومغاص الجوهر فيما بين سيرا ف والبحر بن في خور راكد مثل الوادي العظيم فاذا كان شهر ابريل وشهر ما تأتي إليه القوارب الكثيرة فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد أن يغوص شيئا يكسوه من عظم الغنم وهي الساعفة ويصنع من هذا العظم أيضا شكلا شبه المقر اض يشده على أنفه ثم يربط حبالا في وسطه ويغوص ويتفادتون في الصبر في الماء فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك فاذا وصل إلى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الأحجار الصغار مبعثا في الرمل فيقتله بيده أو يقطعه بحديدة عنده معدة لذلك ويجعلها في مخللة جلد منوطة بعنقه فاذا ضاق نفسه حرك الحبل فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل فيرفعه إلى القارب فتؤخذ منه المخللة ويفتح الصدف فيوجد في أجوافها قطع لحم تقطع بحديده فاذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر فيجمع جميعها من صغير وكبير فيأخذ السلطان خمسة والباقي يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب وأكثرهم يكون له الدين على الواصين فيأخذ الجوهر في دينه أو ما وجب له منه ثم سافروا من سيرا ف إلى مدينة البحرين وهي مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأشجار وأنهار وماؤها قريب الملوحة يحفر عليه بالأيدي فيوجد فيها حدائق النخل والمان والاترج يزرع بها القطن وهي شديدة الحر كثيرة الرمال وربما غلب الرمل على بعض منازلها وكان فيما بينها وبين عمان طريق استولت عليه الرمال وانقطع فلا يوصل من عمان إليها إلا في البحر وبالقرب منها جبلان عظيمان يسمى أحدهما بكسير وهو في غربها ويسمى الآخر يعوير وهو في شرقها وبهما ضرب المثل فكيل كسير وعوير وكل غير خير ثم سافروا إلى مدينة القطيف (وضبط اسمها بضم القاف) كانه تصغير قطف وهي مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير يسكنها حوائف العرب وهم رافضية غلاة يظرون الرض جهارا لا يبقون أحدا ويقولون وذنهم في أذانه بعد الشهادتين أشهد أن عليا ولي الله ويزيد بعد الحية عاتين حتى على خير العمل ويزيد بعد التكبير الأخير محمد وعلى خير البشر من خالفهما فقد كفر ثم سافروا منها إلى مدينة هجر وتسمى الآن بالحساء (بفتح الحاء والسين واهالها) وهي التي يضرب المثل بها فيقال كجالب التمر إلى هجر وبها من النخيل ما ليس ببلد سواها ومنه يفعلون دوابهم وأهلها عرب وأكثرهم من قبيلة عبد القيس بن أفصى ثم سافروا منها إلى مدينة اليمامة وتسمى أيضا بحجر (بفتح الحاء المهمل واسكان الجيم) مدينة حسنة خصبة ذات أنهار وأشجار

يسكنها طوائف من العرب أكثرهم من بني حنيقة وهي بلدهم قديما وأميرهم طفيل بن غانم ثم سافرت منها في صحبة هذا الأمير برسم الحج وذلك في سنة ثنتين وثلاثين فوصلت إلى مكة شرفها الله تعالى وحج في تلك السنة الملك الناصر سلطان مصر رحمه الله وجملة من أمرائه وهي آخر حجة حجها وأجزل الاحسان لأهل الحرمين الشريفين والبهجاءين وفيها قتل الملك الناصر أمير احمد الذي يذكر انه ولده وقتل أيضا كبير أمرائه بكتمور الساقى

(حكاية)

ذكر ان الملك الناصر وهب لبكتمور الساقى جارية فلما أراد الدخول منها قالت له انى حامل من الملك الناصر فاعتزلها وولدت ولدا سماه بامير احمد ونشأ في حجره فظهرت نجابته واشتهر بابن الملك الناصر فلما كان في هذه الحجة تعاهد على الفتك بالملك الناصر وان يتولى أمير أحمد الملك وحمل بكتمور معه العلامات والطبول والكسوات والأموال فتمشى الخبر إلى الملك الناصر فبعث إلى أمير أحمد في يوم شديد الحر فدخل عليه وبين يديه أقداح الشرب فشرب الملك الناصر قدحا وناول أمير أحمد قدحا ثانيا فيه السم فشربه وأمر بالرحيل في تلك الساعة ليشتغل الوقت فرحل الناس ولم يبلغوا المنزل حتى مات أمير أحمد فاكثر بكتمور لموته وقطع أنوابه وامتنع من الطعام والشراب وبلغ خبره إلى الملك الناصر فاتاه بنفسه ولاطفه وسلاه وأخذ قدحا فيه سم فناوله اياه وقال له بحياتي عليك إلا شربت فبردت نار قلبك فشربه ومات من حينه ووجد عنده خلع السلطنة والأموال فتحقق ما نسب من الفتك بالملك الناصر ولما انقضى الحج توجهت إلى جعدة برسم ركوب البحر إلى اليمن والهند فلم يقض لي ذلك ولاتاقى لي رفيق واقمت بجدة نحو أربعين يوما وكان بها مركب لرجل يعرف بعبد الله التونسي يروم السفر إلى القصير من عمالة قوص فصعدت اليه لا نظر حاله فلم يرضني ولا طابت نفسي بالسفر فيه وكان ذلك لطفاً من الله تعالى فانه سافر فلما توسط البحر غرق بموضع يقال له رأس أبي محمد فخرج صاحبه وبعض التجار في العشارى بعد جهد عظيم واشرفوا على الهلاك وهلك بعضهم وغرق سائر الناس وكان فيه نحو سبعين من الحجاج ثم ركبت البحر بعد ذلك في صنبوق برسم عيذاب فردتنا الريح إلى جبل يعرف برأس دواير وسافرنا منه في البر مع البهجة فسلكننا صحراء كثيرة النعام والغزلان فيها عرب جهينة وبني كاهل وطاعتهم للبهجة ووردنا ماء يعرف بمفرور وماء يعرف بالجديد نغذادنا فاشترينا من قوم من البهجة وجدناهم بالملاة أغناما وتزودنا الحومها ورأيت بهذه الغلاة صييا من العرب كلنى باللسان العربى

وأخبرني ان البجاة أسروه وزعم أنه منذ عام لم يأكل طعاما إنما يقتات بلبن الأبل وتقدمنا بعد ذلك اللحم الذي اشتريناه ولم يبق لنا زاد وكان عندي يبق نحو حمل من التمر الصيحاني والبرني برسم الهدية لأصحابي ففرقته على الرفقة وتزودناه ثلاثا وبعد مسيرة تسعة أيام من رأس دواير وصلنا إلى عذاب وكان قد تقدم إلينا بعض الرفقة فتلقانا أهلها بالخبز والتمر والماء وأقمنا بها أياما واكثرينا الجمال وخرجنا صحبة طائفة من عرب دغيم ووردنا ماء يعرف بالجنيب ولعله (الخبيب) وحللنا بحميثرا حيث قبر ولى الله تعالى أبي الحسن الشاذلي وحصلت لنا زيارته ثانية وبتنا في جواره ثم وصلنا إلى قرية العطواني وهي على ضفة النيل مقابلة لمدينة إدفو من الصعيد الأعلى وأجزنا النيل إلى مدينة اسنا ثم إلى مدينة أرمنت ثم إلى الأقصر وزرنا الشيخ أبا الحجاج الأقصري ثانية ثم إلى مدينة قوص ثم إلى مدينة قنا وزرنا الشيخ عبد الرحيم القناوي ثانية ثم إلى مدينة هو ثم إلى مدينة اخميم ثم إلى مدينة أسيوط ثم إلى منملوط ثم إلى مدينة منلوي ثم إلى مدينة الأشمونين ثم إلى مدينة منية بن الخصيب ثم إلى مدينة الهندسة ثم إلى مدينة بوش ثم إلى مدينة منية القائد وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد ثم إلى مصر واقمت بها أياما وسافرت على طريق بلبيس إلى الشام ورافقني الحاج عبد الله بن أبي بكر بن الفرحان النوزري ولم يزل في صحبتي سنين إلى ان خرجنا من بلاد الهند فتوفي بسندابور وسنذكر ذلك فوصلنا إلى مدينة غزة ثم إلى مدينة الخليل عليه السلام وتكررت لنا زيارته ثم إلى بيت المقدس ثم إلى مدينة الرملة ثم إلى مدينة عكا ثم إلى مدينة طرابلس ثم إلى مدينة جبلة وزرنا ابراهيم بن أدهم رضى الله عنه ثانية ثم إلى مدينة اللاذقية وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد كلها ومن اللاذقية ركبنا البحر في قرقورة كبيرة للجنويين يسمى صاحبها بمرتلين وقصدنا بر التركية المعروف ببلاد الروم وإنما نسبت إلى الروم لأنها كانت بلادهم في القديم ومنها الروم الأقدمون واليونانية ثم استفتحها المسلمون وبها الآن كثير من النصارى تحت ذمة المسلمين من التركمان وسرنا في البحر عشرة بريح طيبة واكرمنا النصرائي ولم يأخذ منا نولا وفي العاشر وصلنا إلى مدينة العاليا وهي أول بلاد الروم وهذا الأقليم المعروف ببلاد الروم من احسن اقاليم الدنيا وقد جمع الله فيه ما تفرق من المحاسن في البلاد فأهله أجمل الناس صورا وأنظفهم ملابس وأطيبهم مطاعم وأكثر خلاق الله شفقة ولذلك يقال البركة في الشام والشفقة في الروم وإنما عني به اهل هذه البلاد وكنا متى نزلنا بهذه البلاد زاوية اودارا يتفقد احوالنا جيراننا من الرجال والنساء وهن لا يحتجن فاذا

سافر ناعنهم ودعونا كأنهم اقاربنا وأهلبنا وترى النساء با كيات لفراقنا مدأسفات ومن عادتهم بتلك البلاد أن يخبزوا الخبز في يوم واحد من الجمعة يعدون فيه ما يفوتهم سائر هافكان رجالهم يأنون اليينا بالخبز الحار في يوم خبزه ومعه الادم الطيب اطارفا لنا بذلك ويقولون لنا ان النساء بعثن هذا اليكم وهن يطلبن منكم الدعاء وجميع أهل هذه البلاد على مذهب الإمام ابى حنيفة رضى الله عنه مقيمين على السنة لا قدرى فيهم ولا رافضى ولا معتزلى ولا خارجى ولا مبتدع وتلك فضيلة خصهم الله تعالى بها إلا أنهم يأكلون الحشيش ولا يعيبون ذلك ومدينة العاليا التي ذكرناها كبيرة على ساحل البحر يسكنها التركمان وينزلها تجار مصر واسكندرية والشام وهى كثيرة الخشب ومنها يحمل الى اسكندرية ودمياط ويحمل منها الى سائر بلاد مصر ولها قلعة بأعلاها عجيبة منيعة بناها السلطان المعظم علاء الدين الرومى ولقيت بهذه المدينة قاضيها جلال الدين الارزنجانى وصعد معى الى القلعة يوم الجمعة فصلينا بها واضافنى وأكرمى وأضافنى أيضاً بها شمس الدين ابن الرجيجانى الذى توفى ابوه علاء الدين بمالى من بلاد السودان .

(ذكر سلطان العاليا)

وفى يوم السبب ركب معى القاضي جلال الدين وتوجهنا الى لقاء ملك العاليا وهو يوسف بك ومعنى بك الملك ابن قرمان (بفتح القاف والراء) ومسكنه على عشرة اميال من المدينة فوجدناه قاعدا على الساحل وحده فوق رابية هنالك والأمراء والوزراء اسفل منه والاجناد عن يمينه ويساره وهو مخصوب الشعر بالسواد فسلمت عليه وسألتى عن مقدمى فاخبرته عما سألت وانصرفت عنه وبعث الى احسانا وسافرت من هنالك الى مدينة انطا ليا (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان النون وفتح الطاء المهمل والفاء ولام مكسور وياء آخر الحروف) واما التى بالشام فهى انطاكية على وزنها إلا ان الكاف عوض عن اللام وهى من احسن المدن متناهية فى اتساع الساحة والضخامة اجمل ما يرى من البلاد واكثره عمارة واحسنه ترتيبا وكل فرقة من سكانها منفردة بانفسها عن الفرقة الأخرى فتجار النصارى ما كثرون منها بالوضع المعروف بالميناء وعليهم سور تسد ابوابه عليهم ليلا وعند صلاة الجمعة والروم الذين كانوا اهلها قديما ساكنون بموضع آخر منفردين به وعليهم ايضا سور واليهود فى موضع آخر وعليهم سور والملك واهل دولته وبما اليكه يسكنون ببلدة عليها ايضا سور يحيط بها ويفرق بينها وبين ما ذكرناه من الفرق وسائر الناس من المسلمين يسكنون المدينة العظمى وبها مسجد جامع ومدرسة وحمامات كثيرة

واسواق ضخمة مرتبة بأبداع ترتيب وعليها سور عظيم يحيط بها وبجميع المواضع التي ذكرناها وفيها البساتين الكثيرة والفواكه الطيبة والمشمش العجيب المسمى عندهم بقمر الدين وفي نواته لوز حلو وهو يبس ويحمل إلى ديار مصر وهو بها مستظرف وفيها عيون الماء الطيب العذب الشديد البرودة في أيام الصيف نزلنا من هذه المدينة بمدرستها وشيخها شهاب الدين الحوى ومن عاداتهم أن يقرأ جماعة من الصبيان بالأصوات الحسان بعد العصر من كل يوم في المسجد الجامع وفي المدرسة أيضاً سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم .

(ذكر الاخوية الفتيان)

واحد الاخوية أخى على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية في كل بلد ومدينة وقرية ولا يوجد في الدنيا مثلهم اشد احتمالاً بالغرباء من الناس واسرع إلى اطعام الطعام وقضاء الخوانج والأخذ على أيدي الظلمة وقتل الشرط ومن الحق بهم من أهل الشر والأخى عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم وتلك هي الفتوة أيضاً ويبنى زاوية ويجعل فيها الفرش والسرير وما يحتاج إليه من الآلات ويخدم أصحابه بالإنفاق في طلب معاشهم ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم فيشترون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق في الزاوية فإن ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم وكان ذلك ضيافته لديهم ولا يزال عندهم حتى ينصرف وإن لم يرد وارجعوا على طعامهم فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا إلى صناعاتهم بالغدو وأتوا بعد العصر إلى مقدمهم بما اجتمع لهم ويسمون بالفتيان ويسمى مقدمهم كذا ذكرنا الأخى ولم أرى في الدنيا أجمل أفعالا منهم ويشبههم في أفعالهم أهل شيراز واصفهان إلا أن هؤلاء أحب في الوارد والصادر وأعظم إكراماً له وشفقة عليه وفي الثاني من يوم وصولنا إلى هذه المدينة أتى أحد هؤلاء الفتيان إلى الشيخ شهاب الدين الحوى وتكلم معه باللسان التركي ولم أكن يومئذ أفهمه وكان عليه اثواب خلقه وعلى رأسه قلنسوة لبد فقال لي الشيخ أعلم ما يقول هذا الرجل فقلت لا أعلم ما قال فقال لي أنه يدعوك إلى ضيافته أنت واصحابك فعجبت منه وقلت لهم فلما انصرف قلت للشيخ هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضيقنا ولا نريد أن نكلفه فضحك الشيخ وقال لي هذا أحد شيوخ الفتيان الاخوية وهو من الخرازين وفيه كرم نفس واصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدموه على أنفسهم وبنوا زاوية للضيافة وما يجتمع لهم بالنهار انفقوه بالليل فلما صليت المغرب عاد إلينا ذلك الرجل

وذهبنا معه إلى زاويته فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسنان وبها الكثير من ثريات الزجاج العراقي وفي المجلس خمسة من البياسيس والبيسوس شبه المنارة من النحاس له أرجل ثلاث وعلى رأسه شبه جلاس من النحاس وفي وسطه أنبوب للفتيلة وملا من الشحم المذاب وإلى جانب آنية نحاس ملانة بالشحم وفيها مقراض لإصلاح الفتيل وأحدهم موكل بها ويسمى عندهم الخراجي (الجراغجي) وقد اصطف في المجلس جماعة من الشبان ولباسهم الاقبية وفي أرجلهم الأخفاف وكل واحد منهم متحزم على وسطه سكين في طول ذراعين وعلى رؤسهم قلانس بيض من الصوف بأعلى كل قلنسوة قطعة موصلة بها في طول ذراع وعرض أصبعين فإذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوة ووضعها بين يديه وتبقى على رأسه قلنسوة أخوى من الزردخاني وسواء حسنة المنظر وفي وسط مجلسهم شبه سرتبة موضوعة للواردين ولما استقر بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ثم أخذوا في الغناء والرقص فراقنا حالهم وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم وانصرفنا عنهم آخر الليل وتركناهم بزاويتهم .

(ذكر سلطان انطالية) *

وساطانها خضر بك بن يونس بك وجدناه عند وصولنا إليها عليلاً قد دخلنا عليه بداره وهو في فراش المرض فكلّمنا بالطف كلاماً واحسنه وودعناه وبعث إلينا بإحسان وسافرنا إلى بلدة بردور (وضبط اسمها بضم الباء الواحدة واسكان الراء وضم الدال المهمل وواو وراء) وهي بلدة صغيرة كثيرة البساتين والأنهار ولها قلعة في رأس جبل شاهق نزلنا بدار خطيبها واجتمعت الاخوة وأردوا نزولنا عندهم فابى عليهم الخطيب فصنعوا لنا ضيافة في بستان لأحدهم وذهبوا بنا إليها فإسكان من العجائب إظهارهم السرور بنا والاستبشار والفرح وهم لا يعرفون أساننا ونحن لا نعرف لسانهم ولا ترجمان فيما بيننا واقفنا عندهم يوماً وانصرفنا ثم سافرنا من هذه البلدة إلى بلدة سبرت (وضبط اسمها بفتح السين المهمل والباء الواحدة وإسكان الراء وفتح التاء المعلو والفاء) وهي بلدة حسنة العمارة والأسواق كثيرة البساتين والأنهار لها قلعة في جبل شامخ وصلنا إليها بالعشي ونزلنا عند قاضيها وسافرنا منها إلى مدينة اكر يدور (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الكاف وكسر الراء وياء مد ودال مهمل مضموم وواو مد وراء) مدينة عظيمة كثيرة العمارة حسنة الأسواق ذات أنهار وبساتين ولها بحيرة عذبة الماء يسافر المركب

فها يومين أقشهر وبقشهر وغيرهما من البلاد والقرى وازلنا منها بمدرسة تقابل الجامع الأعظم بها المدرس العالم الحاج المجاور الفاضل مصلح الدين قرأ بالديار المصرية والشام وسكن بالعراق وهو فصيح اللسان حسن البيان أطروقة من طرف الزمان أكرمنا غاية الإكرام وقام بحقنا أحسن قيام .

(ذكر سلطان أكر يدور)

وسلطانها أبو اسحاق بك بن الدندار بك من كبار سلاطين تلك البلاد سكن ديار مصر أيام أبيه وحج وله سيرة حسنة ومن عاداته انه يأتي كل يوم إلى صلاة العصر بالمسجد الجامع فاذا قضيت صلاة العصر استند إلى جدار القبلة وقعد القراء بين يديه على مصطبة خشب عالية فقرؤ سورة الفتح والملك وعم بأصوات حسان فعالة في النفوس تخشع لها القلوب وتقشع الجلود وتدمع العيون ثم ينصرف إلى داره وأظلمنا عند شهر رمضان فكان يقعد في كل ليلة منه على فراش لاصق بالأرض من غير سرير ويستند إلى مخدة كبيرة ويجلس الفقيه مصلح الدين إلى جانبه وأجلس إلى جانب الفقيه ويلينا أرباب دولته وامراء حضرته ثم يوتي بالطعام فيسكون أول ما يفطر عليه ثريد في صفحة صغيرة عليه العدى مسقى بالسمن والسكر ويقدمون الثريد تبركا ويقولون ان النبي ﷺ فضله على سائر الطعام فنحن نبدأ به لتفضيل النبي له ثم يأتي بسائر الأطعمة وهكذا فعلمهم في جميع ليالي رمضان .

وتوفي في بعض تلك الأيام ولد السلطان فلم يزدوا على بكاء الرحمة كما يفعله أهل مصر والشام خلافا لما قدمناه من فعل أهل اللور حين مات ولد سلطانهم فلما دفن أقام السلطان والطلبة ثلاثة أيام يخرجون إلى قبره بعد صلاة الصبح وثاني يوم من دفنه خرجت مع الناس فرآني السلطان ماشيا رجلى فبعث لي بفرس واعتذر فلما وصلت المدرسة بعثت الفرس فردده وقال إنما أعطيته عطية لاعارية وبعث إلى بكسوة ودراهم فانصرفنا إلى مدينة قل حصار (وضبط اسمها بضم القاف وإسكان اللام ثم جاء مهمل مكسور وصاد مهمل وآخره راء) مدينة صغيرة بها المياه من كل جانب قد نبئت فيها القصب فلا طريق لها إلا طريق كالجسر مهيأ بين القصب والمياه لا يسع إلا فارسا واحداً والمدينة على تل في وسط المياه منيعة لا يقدر عاها وازلنا بزواية أحد الفتيان الأخية بها

(ذكر سلطان قل حصار)

وسلطانها محمد جلابي وجلابي (بحجم معقود ولام مفتوحين وباء موحدة وياه) وتفسيره بالسان

الروم سيدي وهو أخو السلطان ابي اسحاق ملك أكر يدور ولما وصلنا بمدينة كان غائبا عنها فأقنناها أياما ثم قدم فأكرمنا وأركبنا وزودنا وانصرفنا على طريق قرا أغاج وقرا (بفتح القاف) وتفسيره أسود (وأغاج بفتح الهمزة والغين المعجم وآخره جيم) تفسيره الخشب وهي صحراء خضراء يسكنها التركمان وبعث معنا السلطان فرسانا يبلغوننا إلى مدينة لا ذق بسبب ان هذه الصحراء يقطع الطريق فيها طائفة يقال لهم الجرميان يذكر انهم من ذرية يزيد بن معاوية ولهم مدينة يقال لها كوثاهية فعصمنا الله منهم ووصلنا إلى مدينة لا ذق (وهي بكسر الدال المعجم وبعده قاف) وتسمى أيضا دون غزله وتفسيره بلد الخنازير وهي من ابداع المدن وأضخمها وفيها سبعة من المساجد لإقامة الجمعة ولها البساتين الرائقة والأنهار المطردة والعيون المنبوعة واسواقها حسان وتصنع بها ثياب قطن معلقة بالذهب لا مثل لها تطول اعمارها بصحة قطنها وقوة عزلها وهذه الثياب معروفة بالنسبة اليها واكثر الصناعات بها نساء الروم وبها من الروم كثير تحت الذمة وعليهم وظائف للسلطان من الجزية وسواها وعلامة الروم بها القلائس الطوال منها الحر والبيض ونساء الروم هن عمائم كبار واهل هذه المدينة لا يغيرون المنكر بل كذلك اهل هذا الاقليم كلهم وهم يشتركون الجوارى الروميات الحسان ويتركونهن للفساد وكل واحدة عليهما وظيف لما اسكنها تؤديه له .

وسمعت هنالك ان الجوارى يدخلن الحمام مع الرجال فمن اراد الفساد فعل ذلك بالحمام من غير منكر عليه وذكر لي ان القاضي بها له جوار على هذه الصورة وعند دخولنا هذه المدينة تقدم اليها رجال من حوايتهم حتى سل بعضهم السكاكين وأخذوا بأعنة الخيل ونازعهم آخرون على بعض ونحن لا نعلم ما يقولون نخفنا منهم وظننا انهم الجرميان الذين يقطعون الطرق وان تلك مدينتهم وحسبنا انهم يريدون نهبنا ثم بعث الله لنا رجلا حاجا يعرف اللسان العربي فسأله عن مراده منا فقال انهم من الفتيان وان الذين سبقوا اليها اولادهم اصحاب الفتي اخي سنان والآخر من اصحاب الفتي اخي طومان وكل طائفة ترغب ان يكون نزولكم عندهم فمجبنا من كرم نفوسهم ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة فمن كانت قرعته نزولنا عنده أولا فوقع قرعة اخي سنان وبلغه ذلك فأتى اليها في جماعة من اصحابه فسلموا علينا ونازنا بزاوية له وأتى بأنواع الطعام ثم ذهب بنا الى الحمام ودخل معنا وتولى خدمتي بنفسه وتولى أصحابه خدمة اصحابي بخدمة الثلاثة والاربعة والواحد منهم ثم خرجنا من الحمام فأنوا بطعام عظيم وحلوا وفاكهة كثيرة وبعد الفراغ من الاكل قرأ القراء آيات من القرآن العزيز ثم أخذوا في السماع والرقص واعلموا السلطان بخبرنا فلما كان من الغد بعث في طلبنا بالعشي

فتوجهنا اليه والى ولده كما تذكره ثم عدنا الى الزاوية فألفينا الآخرى طومان واصحابه فى انتظارنا فذهبوا بنا الى زاويتهم ففعلوا فى الطعام والحمام مثل اصحابهم وزادوا عليه ان صبوا علينا ماء الورد صبا بعد خروجنا من الحمام ثم مضوا بنا الى الزاوية ففعلوا ايضا من الاحتفال فى الأطعمة والحلواء والفاكهة وقراءة القرآن بعد الفراغ من الاكل ثم السماع والرقص كمثل ما فعله اصحابهم او احسن واقمنا عندهم بالزاوية اياما .

(ذكر سلطان لاذق)

وهو السلطان يذنبج بك (واسمه بياض آخر الحروف مفتوحة ثم نونين اولاهما مفتوحة والثانية مسكنة وجيم) وهو من كبار سلاطين بلاد الروم ولما نزلنا بزاوية اخرى سنان كما قدمناه بعث الينا الواعظ المذكور العالم علاء الدين القسطنطينى واصطحب معه خيلا بعددنا وذلك فى شهر رمضان فتوجهنا اليه وسلمنا عليه .

ومن عادة ملوك هذه البلاد التواضع للواردين واين الكلام وقلة العطاء فصلينا معه المغرب وحضر طعامه فافطرننا عنده وانصرفنا وبعث الينا بدرهم ثم بعث الينا ولده مراد بك وكان ساكننا فى بستان خارج المدينة وذلك فى ايام الفاكهة وبعث ايضا خيلا على عددنا كما فعله ابوه فأقمنا بستانه واقمنا عنده تلك الليلة وكان له فقيه يترجم بيننا وبينه ثم انصرفنا غدوة واطلنا عيد الفطر بهذه البلدة فخرجنا الى المصلى وخرج السلطان فى عساكره والفتيان الاخوية كلهم بالاسلحة ولأهل كل صناعة الأعلام والبوقات والطبول والافان وبعضهم يفاخر بعضا ويباهيه فى حسن الهيئة وكمال الشكوة ويخرج أهل كل صناعة معهم البقر والغنم واحمال الخبز فيذبحون البهائم بالمقابر ويتصدقون بها وبالخبز ويكون خروجهم اولاً الى المقابر ومنها الى المصلى .

ولما صلينا صلاة العيد دخلنا مع السلطان الى منزله وحضر الطعام فجعل للفقهاء والمشايخ والفتيان مما طاع على حدة وجعل للفقراء والمساكين مما طاع على حدة ولا يرد على بابه فى ذلك اليوم فقير ولا غنى واقمنا بهذه البلدة مدة بسبب مخاوف الطريق ثم تهيأت رفقة فسافرننا معهم يوما وبعض ليلة ووصلنا الى حصن طواس واسمه (بفتح الطاء وتخفيف الواو) وآخره سين مهمل) وهو حصن كبير ويذكر ان صهيبا صاحب رسول الله ﷺ ورضى الله عنه من أهل هذا الحصن وكان مبيتنا بخارجه ووصلنا بالغد الى بابه فسألنا أهله من أعلى السور عن مقدمنا فاخبرهم وحينئذ خرج أمير الحصن ميناس بك فى عسكره ليختبر نواحي الحصن والطريق خوفا من اغارة السراق على الماشية فلما طافوا بجماهيرهم خرجت مواشيهم وهكذا فعلهم ابدا ونزلنا من هذا الحصن بربطة فى زاوية رجل فقير وبعث الينا أمير

الحصن بضيافة وزاد وسافرنا منه إلى مغلة (وضبط اسمها بضم الميم واسكان الغين المعجم وفتح اللام) ونزلنا بزواية أحد المشايخ بها وكان من الكرماء الفضلاء يكثر الدخول علينا بزايته ولا يدخل إلا بطعام أو فاكهة أو حلواء ولقينا بهذه البلدة إبراهيم بك ولد سلطان مدينة ميلاس وسنذكره فاكرمنا وكسانا ثم سافرنا إلى مدينة ميلاس (وضبط اسمها بكسر الميم وياء مد وآخره سين مهملة) وهي من أحسن بلاد الروم وأضخمها كثيرة الفواكه والبساتين والمياه نزلنا منها بزواية أحد الفتيان الأخيه ففعل أضعاف ما فعله من قبله من الكرماء والضيافة ودخول الحمام وغير ذلك من حميد الأفعال وجميل الأعمال ولقينا بمدينة ميلاس رجلا صالحا معمرًا يسمى بأبي الششتري ذكروا أن عمره يزيد على مائة وخمسين سنة وله قوة وحركة وعقله ثابت وذهنه جيد دعائنا أو حصلت لنا بركته

(ذكر سلطان ميلاس)

وهو السلطان المسكرم شجاع الدين أرخان بك ابن المنتشا (وضبط اسمه بضم الهضرة واسكان الراء وخاء معجم وآخره نون) وهو من خيالي الملوك حسن الصورة والسيرة جالساً وه الفقهاء وهم معظمون لديه وبيابته منهم جماعة منهم الفقيه الخوارزمي عارف بالفنون فاضل وكان السلطان في أيام لقائي له واجد عليه بسبب رحلته إلى مدينة أياسلوق ووصوله إلى سلطانها وقبول ما أعداه فسال مني هذا الفقيه أن اتكلم عند الملك في شأنه بما يذهب مافي خاطره فأنيت عليه عند السلطان وذكر ما علمته من علمه وفضله ولم ازل به حتى ذهب ما كان يجده عليه واحسن الينا هذا السلطان واركبنا وزودنا وسكننا في مدينة برجين وهي قريبة من ميلاس بينهما ميلان (وضبط اسمها بفتح الموحدة واسكان الراء وجميم وياء مد وآخره نون) وهي جديدة على تل هنالك بها العمارات الحسان والمساجد وكان قد بنى بها مسجدا جامعاً لم يتم بناؤه بعد وهذه البلدة لقيتنا ونزلنا منها بزواية الفقي أخى على ثم انصرفنا بعدما أحسن الينا كما قدمناه إلى مدينة قونية (وضبط اسمها بضم القاف وواو مد ونون مسكن مكسور وياء آخر الحروف) مدينة عظيمة حسنة العمارة كثيرة المياه والأنهار والبساتين والفواكه وبها المشمش المسمى بقمر الدين وقد تقدم ذكره ويحمل منه أيضاً إلى ديار مصر والشام وشوارعها متسعة جدا واسواقها بديعة الترتيب وأهل كل صناعة على حدة ويقال أن هذه المدينة من بناء الاسكندر وهي من بلاد السلطان بدر الدين بن قرمان وسنذكره وقد تغلب عليها صاحب العراق في بعض الاوقات لقربها من بلاده التي بهذا الاقليم نزلنا منها بزواية قاضيها ويعرف بابن قلم شاه

وهو من الفتيان وزاويته من أعظم الزوايا وله طائفة كبيرة من التلاميذ ولهم الفتوة سندية تصل إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وأبائها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة وكان صنيع هذا القاضي في إكرامنا وضيافتنا أعظم من صنيع من قبله وأجمل وبعث ولده عوضاً عنه لدخول الحمام معنا وبهذه المدينة تربة الشيخ الإمام الصالح القطب جلال الدين المعروف بمولانا وكان كبير القدر وبأرض الروم طائفة ينتمون ويعرفون باسمه فيقال لهم الجلالية كما تعرف الاحمدية بالعراق والحيدرية بخراسان وعلى تربته زاوية عظيمة فيها الطعام للوارد

(حكاية)

يذكر أنه كان في ابتداء أمره فقها مدرساً يجتمع إليه الطلبة بمدرسته بقونية فدخل يوماً إلى المدرسة رجل يبيع الحلواء وعلى رأسه طبق منها وهي مقطعة قطعاً يبيع القطعة منها بفلس فلما أتى مجلس التدريس قال له الشيخ هات طبقك فأخذ الحلواني قطعة منه وأعطاهم للشيخ فأخذها الشيخ بيده وأكلها فخرج الحلواني ولم يطعم أحداً سوى الشيخ فخرج الشيخ في أتباعه وترك التدريس فأبطأ على الطلبة وطال انتظارهم إياه فخرجوا في طلبه فلم يعرفوا له مستقراً ثم إنه عاد إليهم بعد أعوام وصار لا ينطق إلا بالشعر الفارسي المتعلق الذي لا يفهم فكان الطلبة يتبعونه ويكتبون ما يصدر عنه من ذلك الشعر وألفوا منه كتاباً باسمه المشنوي وأهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب ويعتبرون كلامه ويعلمونه ويقرؤنه بزواياهم في ليالي الجمعات وفي هذه المدينة أيضاً قبر الفقيه أحمد الذي يذكر أنه كان معلم جلال الدين المذكور ثم سافرنا إلى مدينة اللارنده وهي (بفتح الراء التي بعد الالف واللام واسكان النون وفتح الدال المهملة) مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين

(ذكر سلطان اللارنده)

وسلطانها الملك بدر الدين بن قرمان (بفتح القاف والراء) وكانت قبله لشقيقه موسى فنزل عنها الملك الناصر وعوضه عنها بعوض وبعث إليها أميراً وعسكراً ثم تغلب عليها السلطان بدر الدين وبنى بها دار مملكتيه واستقام أمره بها ولقيت هذا السلطان خارج المدينة وهو عائد من تصيده فنزات له عن دابتي فنزل هو عن دابته وسلمت عليه وأقبل علي ومن عادة ملوك هذه البلاد أنه إذا نزل لهم الوارد عن دابته نزلوا له وأعجبهم فعله وزادوا في إكرامه وإن سلم عليهم راكباً ساء لهم ذلك ولم يرضهم ويكون سبباً لحرمان الوارد وقد جرى لي ذلك مع بعضهم وسأذكره ولما سلمت عليه وركب وركبت سألتني عن حالي وعن مقدمي ودخلت معه المدينة فأمر بانزالي أحسن نزل وكان يبعث الطعام

الكثير والفواكهة والحلواء في طيافير الفضة والشمع وكساواركب وأحسن ولم يطل مقامنا عنده وانصرفنا إلى مدينة أفضرا (وضبطها بفتح الهمزة وسكون القاف وفتح الصاد المهمل والراء) وهي من أحسن بلاد الروم وأتقنها تحف بها العيون الجارية والبساتين من كل ناحية ويشق المدينة ثلاثة أنهار ويجرى الماء بدورها وفيها الأشجار ودوالي العنب وداخلها بساتين كثيرة وتصنع بها البسط المنسوبة اليها من صوف الغنم لأمثل لها في بلد من البلاد ومنها تحمل إلى الشام ومصر والعراق والهند والصين وبلاد الأتراك وهذه المدينة في طاعة ملك العراق ونزلنا منها بزواية الشريف حسين النائب بها عين الأمير أرتنا وأرتنا هو النائب عن ملك العراق فيما تغلب عليه من بلاد الروم وهذا الشريف من الفتيان وله طائفة كثيرة واکرمنا اکراما متناهيا وفعل أفعال من تقدمه .

ثم رحلنا إلى مدينة نسكدة (وضبط اسمها بفتح النون وإسكان الكاف ودال مهمل مفتوح) وهي من بلاد ملك العراق مدينة كبيرة كثيرة العمارات قد تخرب بعضها ويشقها النهر المعروف بالنهر الاسود وهو من كبار الأنهار عليه ثلاث قناطر إحداها بداخل المدينة واثنان بخارجها وعليه النواعير بالداخل والخارج منها تسقى البساتين والفواكه كثيرة ونزلنا منها بزواية الفتى اخى جارق وهو الأمير بها فاکرمنا على عادة الفتيان وأقمنا بها ثلاثا .

وسرنا منها بعد ذلك إلى مدينة قيسارية وهي من بلاد صاحب العراق وهي إحدى المدن العظام بهذا الاقليم بها عسكر اهل العراق وإحدى خواتين الأمير علاء الدين أرتنا المذكور وهي من أكرم الخواتين وأفضلهن ولها نسبة من ملك العراق وتدعى أغا (بفتح الهمزة والغين المعجم) ومعنى أغا الكبير وكل من بينه وبين السلطان نسبة يدعى بذلك واسمها طغى خاتون ودخلنا اليها فقامت وأحسنات السلام والكلام وأمرت بإحضار الطعام فأكلنا ولما انصرفنا بعثت اليينا بفارس مسرج ملجهم وخلعة ودراهم مع احد غلمانها واعتذرت ونزلنا من هذه المدينة بزواية الفتى الأخي أمير علي وهو أمير كبير من كبار الاخوة بهذه البلاد وله طائفة تتبعه من وجوه المدينة وكبرائها وزاويته من احسن الزوايا قرشا وقناديل وطعاما كثيرا واتقانا والكبراء من اصحابه وغيرهم يجتمعون كل ليلة عنده ويفعلون في اكرام الوارد اضعاف ما يفعله سواهم ومن عوائد هذه البلاد انه ما كان منها ليس به سلطان فالأخي هو الحاكم به وهو يركب الوارد ويكسوه ويحسن اليه على قدره وترتيبه في أمره ونهيه وركوبه ترتيب الملوك .

ثم سافرنا إلى مدينة سيواس (وضبط اسمها بكسر السين المهمل وياء مدو آخره سين مهمل)

وهي من بلاد العراق واعظم ماله بهذا الاقليم من البلاد وبها منزل امرأته وعماله مدينة حسنة العمارة واسعة الشوارع أسواقها خاصة بالناس وبها دار مثل المدرسة تسمى دار السيادة لا ينزلها إلا الشرفاء ونقيبهم ساكن بها وتجري لهم فيها مدة مقامهم الفرش والطعام والشمع وغيره فيزدون إذا انصرفوا .

ولما قدمنا هذه المدينة خرج الى لقائنا اصحاب الفتى بجقجي وبحق بالتركية السكينة وهذا منسوب اليه والجيمان منه معقودان بينهما قاف وبأوه مكسورة وكانوا جماعة منهم الركبان والمشاة ، ثم لقينا بعدهم اصحاب الفتى أخى جلبي وهو من كبار الاخوة وطبقته اعلى من طبقة أخى بجقجي فطلبوا أن ينزل عندهم فلم يمكن لي ذلك لسبق الاولين ودخلنا المدينة معهم جميعا وهم يتفخرون والذين سبقوا اليها قد فرحوا أشد الفرح بنزولنا عندهم ثم كان من صنيعهم في الطعام والحمام والمبيت مثل صنيع من تقدم وأقمنا عندهم ثلاثة في احسن ضيافة ثم انا القاضى وجماعة من الطلبة ومعهم خيل الامير علاء الدين ارتنا نائب ملك العراق ببلاد الروم فركبنا معه واستقبلنا الامير الى دهليز داره فسلم علينا ورحب وكان فصيح اللسان بالعربية وسألني عن العراقيين وأصهار وشيراز وكرمان وعن السلطان انا بك وبلاد الشام ومصر وسلاطين التركان وكان مراده ان اشكر الكريم منهم وأذم البخیل فلم افعل ذلك بل شكرت الجميع فسر بذلك مني وشكرني عليه ثم احضر الطعام واكلنا وقال تسكونون في ضيافتي فقال له الفتى أخى جلبي انهم لم ينزلوا بعد بزاورتي فليكونوا عندي وضيافتك تصالهم فقال افعل فانتقلنا الى زاورته واقمنا بها ستا في ضيافته وفي ضيافة الامير ثم بعث الامير بغرس وكسوة ودراهم وكتب لنوابه بالبلاد أن يضيفونا ويكرمونا ويزودونا وسافرنا الى مدينة أماسية (وضبط اسمها بفتح الهمزة والميم والفاء وصاد مهملة مكسورة وياء آخر الحروف مفتوحة) مدينة كبيرة حسنة ذات أنهار وبساتين وأشجار وفواكه وعلى انهارها النواعير تسقى جنانها ودورها وهي فسيحة الشوارع والأسواق ومساكنها صاحب العراق ويقرب منها بلدة سوانسى (وضبط اسمها بضم السين المهملة وراء مدوون مضموم وسين مهملة مفتوح) وهي لصاحب العراق ايضا وبها سكنى اولاد ولي الله تعالى أبي العباس احمد الرفاعي منهم الشيخ عز الدين وهو الآن شيخ الرواق وصاحب سجادة الرفاعي واخوته الشيخ علي والشيخ ابراهيم والشيخ يحيى اولاد الشيخ احمد كوجك ومعناه الصغير ابن تاج الدين الرفاعي ونزلنا بزاورتهم ورأينا لهم الفضل على من سواهم .

ثم سافرنا الى مدينة كش (وضبط اسمها بضم الكاف وكسر الميم وشين معجم) وهي من

بلاد ملك العراق مدينة كبيرة عامرة يأنها التجار من العراق والشام وبها معادن الفضة وعلى مسيرة يومين منها جبا وشاخنة وعرة لم أصل إليها ونزلنا منها بزواية الاخى بجد الدين وأقمنا بها ثلاثا فى ضيافته وفعل أفعال من قبله وجاء إلينا نائب الأمير ارتناو بعث بضيافة وزاد وانصرفنا على تلك البلاد فوصلنا إلى ارزنجان (وضبط اسمها بفتح الهمزة وأسكان الراء وفتح الزاى وسكون النون وجيم والـف ونون) وهى من بلاد صاحب العراق مدينة كبيرة عامرة وأكثر سكانها الأرمن والمسلمون يتكلمون بها التركى ولها أسواق حسنة الترتيب ويصنع بها ثياب حسان تنسب إليها وفيها معادن النحاس ويصنعون منه الآوانى والبياسيس التى ذكرناها وهى شبه المنار عندنا ونزلنا منها بزواية الفتى اخى نظام الدين وهو من أحسن الزوايا وهو أيضا من خيار الفتيان وكبارهم أضافنا احسن ضيافة وانصرفنا إلى مدينة ارزالروم وهى من بلاد ملك العراق كبيرة الساحة خرب أكثرها بسبب فتنة وقعت بين طائفتين من التركان بها ويشقها ثلاثة انهار وفى أكثر دورها بساتين فيها الأشجار والدواالى ونزلنا منها بزواية الفتى اخى طومان وهو كبير السن يقال انه انا ف على مائة وثلاثين سنة ورأيت ينصرف على قدميه متوكئا على عصا ثابت الذهن مواظبا للصلاة فى أوقاتها لم ينكر من نفسه شيئا إلا انه لا يستطيع الصوم وخدمنا بنفسه فى الطعام وخدمنا اولاده فى الحمام وأردنا الانصراف عنه ثانى يوم نزولنا فشق عليه ذلك وأبى منه وقال ان فعلتم تقصتم حرمتى وإن اقل الضيافة ثلاث فأقمنا لديه ثلاثا .

ثم انصرفنا إلى مدينة بركى (وضبط اسمها بباء موحده مكسورة وكاف معقود مكسور بينهما راء مسكن) ووصلنا إليها بعد العصر فلقينا رجلا من اهلها فساألناه عن زاوية الاخى بها فقال أنا ادلكم عليها فاتبعناه فذهب بنا إلى منزله نفسه فى بستان له فأنزلنا بأعلى سطح بيته والأشجار مظلمة وذلك أو ان الحر الشديد وأتى إلينا بأنواع الفاكهة واحسن فى ضيافته وعلف دوابنا وبتنا عنده تلك الليلة وكنا قد تعرفنا ان بهذه المدينة مدرسا فاضلا يسمى بمحيى الدين فأتى بنا ذلك الرجل الذى بتنا عنده وكان من الطلبة إلى المدرسة واذا بالمدرس قد اقبل راكبا على بغلة فارهة وماليكة وخدمته عن جانبيه والطلبة بين يديه وعليه ثياب مفرجة حسان مطرزة بالذهب فسلمنا عليه فرحب بنا واحسن السلام والكلام وامسك بيدي واجلسنى إلى جانبه ثم جاء القاضى عز الدين فرشتى ومعنى فرشتى الملك لقب بذلك لدينه وعفافه وفضله فقمعد عن يمين المدرس واتخذ فى تدريس العلوم الأصلية والفرعية ثم لما فرغ من ذلك أتى دويرة بالمدرسة فامر بفرشها وانزلنى فيها وبعث ضيافة حافلة ثم وجه إلينا بعد المغرب فمضيت إليه فوجدته فى مجلس ببستان

له وهنالك صهر يسج ماء ينحدر اليه الماء من خصة رخام ابيض يدور بها القاشاني وبين يديه جملة من الطلبة ومما ليكه وخدماته وقوف من جانبيه وهو قاعد على مرتبة عليها اقطاع منقوشة حسنة نفخته لما شاهدته ملكا من الملوك فقام الى واستقبلني وأخذ بيدي واجلسني الى جانبه على مرتبته وأتى بالطعام فاكلنا وانصرفنا الى المدرسة وذكر لي بعض الطلبة ان جميع من حضر تلك الليلة من الطلبة عند المدرس فعادتهم الحضور لطعامه كل ليلة وكتب هذا المدرس الى السلطان بخبرنا وأثنى في كتابه والسلطان في جبل هنالك يصيف فيه لاجل شدة الحر وذلك الجبل بارد وعادته ان يصيف فيه .

﴿ ذكر سلطان بركي ﴾

وهو السلطان محمد بن آيدين من خيار السلاطين وكرماتهم وفضلائهم ولما بعث اليه المدرس يعلمه بخبري وجه نائبه الى لآتيه فأشار على المدرس ان اقيم حتى يبعث عنى ثانية وكان المدرس إذ ذاك قد خرجت برجله قرحة لا يستطيع الركوب بسببها وانقطع عن المدرسة ثم ان السلطان بعث في طلبي ثانية فشق ذلك على المدرس فقال أنا لا أستطيع الركوب ومن غرضي التوجه معك لأقرر لدى السلطان ما يجب لك ثم انه تحامل وانف على رجله خرقا وركب ولم يضع رجله في الركاب وركبت أنا وأصحابي وصعدنا الى الجبل في طريق قد شئتت وسويت فوصلنا الى موضع السلطان عند الزوال فنزلنا على نهر ماء تحت ظلال شجر الجوز وصادفنا السلطان في قلق وشغل بال بسبب فرار ابنه الأصغر سليمان عنه الى صهره السلطان ارخان بك فلما بلغه خبر وصولنا بعث اليينا ولديه خضر بك وعمر بك فسلمنا على الفقيه وأمرهما بالسلام على ففعلا ذلك وسألاني عن حالي ومقدمي وانصرفا وبعث الى بيتي يسمى عندهم الخرقه (خركاه) وهو عصى من الخشب تجمع شبه القبة وتجعل عليها اللبود ويفتح اعلاه لدخول الضوء والريح مثل البادهنج ويسد متى احتيج الى شدة وأتوا بالفرش وفرشوه وقعد الفقيه وقعدت معه أصحابه وأصحابي خارج البيت تحت ظلال شجر الجوز وذلك الموضع شديد البرد ومات لي تلك الليلة فرس من شدة البرد ولما كان من الغد ركب المدرس الى السلطان وتكلم في شأني بما اقتضته فضائله ثم عاد الى واعلمني بذلك وبعد ساعة وجه السلطان في طلبنا معا فجئنا الى منزله ووجدناه قائما فسلمنا عليه وقعد الفقيه عن يمينه وانا بما يلي الفقيه فسألني عن حالي ومقدمي وسألني عن الحجاز ومصر والشام واليمن والعراقين وبلاد الاعاجم ثم حضر الطعام فاكلنا وانصرفنا وبعث الأرز والدقيق والسمن في كروش الأغنام وكذلك فعل الترك وأقمنا على تلك الحال أياما يبعث اليينا كل يوم فنحضر طعامه وأتى يوما اليينا بعد

الظهر وقعد الفقيه في صدر المجلس وأنا عن يساره وقعد السلطان عن يمين الفقيه وذلك لعزة الفقهاء عند الترك وطلب مني ان اكتب له أحاديث من حديث رسول الله ﷺ فكتبتها له وعرضها الفقيه عليه في تلك الساعة فأمره ان يكتب له شرحها باللسان التركي ثم قام فخرج ورأى الخدام يطبخون لنا الطعام تحت ظلال الجوز بغير ادام ولا خضر فأمر بعقاب صاحب خزانته وبعث بالابزار والسمن وطالت اقامتنا بذلك الجبل فادركني المائل وأردت الانصراف وكان الفقيه أيضاً قد مل من المقام هنالك فبعث إلى السلطان يخبره اني اريد السفر فلما كان من الغد بعث السلطان نائبه فتكلم مع المدرس بالتركية ولم أكن إذ ذاك أفهمها فاجابه عن كلامه وانصرف فقال لي المدرس أتدرى ماذا قال قلت لا أعرف ما قال قال ان السلطان بعث الى ليساني ماذا يعطيك فقلت له عنده الذهب والفضة والخيل والعبيد فليعطه ما أحب من ذلك فذهب إلى السلطان ثم عاد إلينا فقال ان السلطان يأمر أن تقيمنا هنا اليوم وتنزلنا معه غدا إلى داره بالمدينة ولما كان من الغد بعث فرسا جيذا من مراكبه ونزل ونحن معه إلى المدينة فخرج الناس لاستقباله وفيهم القاضي المذكور آنفا وسواه ودخل السلطان ونحن معه فلما نزل بباب داره ذهب مع المدرس إلى ناحية المدرسة فدعا بنا وأمرنا بالدخول معه إلى داره ولما وصلنا إلى دهليز الدار وجدنا من خدامه نحو عشرين صوره فائقة الحسن وعائهم ثياب الحرير وشعورهم مفروقة وألوانهم ساطعة البياض مشربة بحمرة فقلت للفقيه ماهذه الصور الحسن؟ قال هؤلاء فتيان روميون وصعدنا مع السلطان درجا كثيرة إلى أن انتهينا إلى مجلس حسن في وسطه صهريج ماء وعلى كل ركن من أركانه صورة سبع نحاس يمج ماء من فيه وتدور بهذا المجلس مصاحب متصلة مفروشة وفوق احداها مرتبة السلطان فلما انتهينا إليها نحى السلطان مرتبته بيده وقعد معنا على الاقطاع وقعد الفقيه عن يمينه والقاضي مما يلي الفقيه وأنا مما يلي القاضي وقعد القراء أسفل المصطبة والقراء لا يفارقونه حيث كان من مجالسه .

ثم جاءوا بصحاف من الذهب والفضة مملوءة بالجلاب المحلول قد عصر فيه ماء الليمون وجعل فيه كعكات صغار مقسومة وفيها ملاعق ذهب وفضة وجاءوا معها بصحاف صيني فيها مثل وفيها ملاعق خشب فمن تورع استعمال صحاف الصيني وملاعق الخشب وتسكمت بشكر السلطان وأثنت على الفقيسه وبالغت في ذلك فاعجب ذلك السلطان وسره .

(حكاية)

وفي أثناء قعودنا مع السلطان أتى شيخ على رأسه عمامة لها ذؤابة فسلم عليه وقام له

القاصى والفقهاء وقعد امام السلطان فوق المصطبة والقراء أسفل منه فقلت للفقهاء من هذا الشيخ فضحك وسكت ثم أعدت السؤال فقال لى هذا يهودى طيب وكلنا محتاج اليه فلاجل هذا فعلنا ما رأيت من القيام له فاخذنى ما حدث وقدم من الامتعاض فقلت لليهودى يا ملعون ابن ملعون كيف تجلس فوق قراء القرآن وأنت يهودى وشتمته ورفعت صوتى فعجب السلطان وسأل عن معنى كلامى فأخبره الفقهاء به وغضب اليهودى فخرج عن المجلس فى أسوأ حال ولما انصرفنا قال لى الفقهاء أحسنت بارك الله فيك أن أحدا سواك لا يتجاسر على مخاطبته بذلك ولقد عرفته بنفسه

(حكاية أخرى)

وسألنى السلطان فى هذا المجلس فقال لى هل رأيت قط حجر انزل من السماء فقلت ما رأيت ذلك ولا سمعت به فقال لى انه قد نزل بخارج بلدنا هذا حجر من السماء ثم دعا رجالا وامرهم ان يأتوا بالحجر فأتوا بحجر أسود اصم شديد الصلابة له بريق قدرت أن زنته تبلغ قنطارا وأمر السلطان باحضار القطاعين فحضر أربعة منهم فأمرهم أن يضربوه فضربوا عليه ضربة رجل واحد أربع مرات بمطارق الحديد فلم يؤثر وافيته شيئا فعجبت من أمره وأمر برده إلى حيث كان وفى ثالث يوم من دخولنا إلى المدينة مع السلطان صنع صنيعا عظيما ودعا الفقراء والمشايخ وأعيان العسكر ووجوه أهل المدينة فطعموا وقرأ القراء القرآن بالأصوات الحسان وعدنا إلى منزلنا بالمدرسة وكان يوجه الطعام والفاكهة والحلواء والشمع فى كل ليلة ثم بعث إلى مائة مثقال ذهباً والى ألف درهم وكسوة كاملة وفرسا ومملوكا وميا يسمى مينخا ئيل وبعث لسكل من أصحابى كسوة ودراهم كل هذا بمشاركة المدرس محيى الدين جزاه الله تعالى خيرا وودعنا وانصرفنا وكانت مدة مقامنا عنده بالجبل والمدينة أربعة عشر يوما ثم قصدنا مدينة تيرة وهى من بلاد هذا السلطان (وضبط اسمها بكسر التاء المعالوة ويا مدوراء) مدينة حسنة ذات انهار وبساتين فواكه نزلنا منها بزاوية الفقى محمد وهو من كبار الصالحين صائم الدهر وله اصحاب على طريقته فاضافنا ودعانا وسرنا إلى مدينة أياسلوق (وضبط اسمها بفتح الهمزة والياء آخر الحروف وسين مهملة مضموم ولام مضموم وآخره قاف) مدينة كبيرة قديمة معظمة عند الروم وفيها كنيسة كبيرة مبنية بالحجارة الضخمة ويكون طول الحجر منها عشرة أذرع فما دونها منحوتة أبدع نحت والمسجد الجامع بهذه المدينة من أبدع مساجد الدنيا لا نظير له فى الحسن وكان كنيسة للروم معظمة عندهم يقصدونها من البلاد فلما فتحت هذه المدينة جعلها المسلمون مسجدا

جامعا وحيطانه من الرخام الملون وفرشه الرخام الابيض وهو مستقف بالرصاص وفيه
احدى عشرة قبة متنوعة فى وسط كل قبة صهر بيج ماء والنهر يشقه وعن جانبي النهر الاشجار
المختلفة الاجناس ودوالى العنب ومعرشات الياسمين وله خمسة عشر بابا وأمير هذه المدينة
خضر بك ابن السلطان محمد بن آيدىن وقد كنت رأيت عند أبيه بيركى ثم اقيته بهذه المدينة
خارجها فسلمت عليه وأنا راكب فذكره ذلك منى وكان سبب حرمانى لديه فان عادتهم
إذا نزل لهم الوارد نزلوا وأعجبهم ذلك ولم يبعث إلى الاثوبا واحدا من الحرير المذهب
يسمونه النسخ (بفتح النون وخاء معجم) واشترت بهذه المدينة جارية رومية بكر
بأربعين دينارا ذهباً ثم سرنالى مدينة بزمير (وضبط اسمها بياء آخر الحروف مفتوحة
وزاى مسك وميم مكسورة وياء مدوراء) مدينة كبيرة على ساحل البحر معظمها خراب
ولها قلعة متصلة بأعلاها نزلنا منها بزاوية الشيخ يعقوب وهو من الاحمدية صالح فاضل
واقينا بخارجها الشيخ عز الدين بن احمد الرفاعى ومعه زاده الاخلاطى من كبار المشايخ
ومعه مائة فقير من المولدين وقد ضرب لهم الأمير الاخيه وصنع الشيخ يعقوب ضيافة
وحضرتها واجتمعت بهم وأمير هذه المدينة عمر بك ابن السلطان محمد بن آيدىن المذكور
آنفا وسكناه بقلعتها وكان حين قدومنا عليها عند أبيه ثم قدم بعد خمس من نزولنا بها
فكان من مكارمه أن أتى إلى بزاوية فسلم على واعتذروا بعث ضيافة عظيمة واعطاني بعد
ذلك مملوكا روميا خماسيا اسمه نقوله وثوبين من السكتاوى ثياب حرير تصنع ببغداد
وتبريز ونيسابور وبالصين وذكر لى الفقيه الذى يؤم به ان الأمير لم يبق له مملوك سوى
ذلك المملوك الذى أعطاني بسبب كرمه رحمه الله وأعطى أيضا للشيخ عز الدين ثلاثة
أفراس مجهزة وآنية فضيه كبيرة تسمى عندهم المشربة مملوءة دراهم وثيابا من الملف والمرعز
والقسي والسكتاوى وجوارى وغلما نا وكان هذا الأمير كريما صالحا كثير الجهاد له
اجفان غزوية يضرب بها على نواحى القسطنطينية العظمى فيسبى ويغنم ويفنى ذلك كرمأ
وجودا ثم يعود إلى الجهاد إلى ان اشتدت على الروم وطأته فرغموا امرهم إلى البابا فأمر
نصارى جنوة وإفرانسة بغزوه وجرز جيشا من رومية وطارقوا مدينته ليلا فى
عدد كثير من الأجفان وملسكوا المرسى والمدينة ونزل اليهم الأمير عمر من القلعة
فقاتلهم الاستشهاد هو وجماعة من ناسه واستقر النصارى بالبلد ولم يقدرُوا على القلعة
لمنعها ثم سافروا من هذه المدينة إلى مدينة مغنيسية (وضبط اسمها بيم مفتوحة
وغين معجمة مسكنة ونون مكسورة وياء مدوسين مهملة مكسورة وياء آخر الحروف

مشددة) نزلنا بها عشى يوم عرفة بزاوية رجل من الفتيان وهى مدينة كبيرة حسنة فى سفوح جبل وبسيطها كثير الانهار والعيون والبساتين والقواكه

(ذكر سلطان مغنيسية)

وسلطانها يسمى صاروخان ولما وصلنا إلى هذه البلدة وجدناه بترية ولده وكان قد توفى منذ أشهر فكان هو وأم الولد ليلة العيد وصبيحتها بترية والولد قد صبر وجعل فى تابوت خشب مغشى بالحديد المقزدر وعاق فى قبة لاسقف لها الآن تذهب رائحته وحينئذ تسقف القبة ويجعل تابوته ظاهرا على وجه الأرض وتجعل ثيابه عليه وهكذا رأيت غيره أيضا من الملوك فعل وصلنا عليه بذلك الموضع وصلينا معه صلاة العيد وعدنا إلى الزاوية فأخذ الغلام الذى كان لى افرسنا وتوجه مع غلام لبعض الاصحاب برسم سقيها فابطأ ثم لما كان العشى لم يظهر لهما اثر وكان بهذه المدينة الفقيه المدرس الفاضل مصلح الدين فركب معى إلى السلطان واعلناه بذلك فبعث فى طلبهما فلم يوجدوا اشتغل الناس فى عيدهم وقصدا مدينة الكفار على ساحل البحر تسمى فوجة على مسيرة يوم من مغنيسية وهؤلاء الكفار فى بلد حصين وهم يبعثون هدية فى كل سنة إلى سلطان مغنيسية فيقتنع منهم بها لخصانة بلدهم فلما كان بعد الظهر أتى بهما بعض الاتراك وبالا فراس وذكروا انهما اجتازا بهم عشية النهار فانكروا امرهما واشتدوا عليهما حتى اقرا بما عزمنا عليه من الفرار ثم سافرا من مغنيسية وبقنا ليلة عند قوم من التركان قد نزلوا فى مرعى لهم ولم نجد عندهم ما نعلق به دوابنا تلك الليلة وبات اصحابنا يحترسون مداولة بينهم خوف السرقة فأتت نوبة الفقيه عفيف الدين النوزرى فسمعته يقرأ سورة البقرة فقلبت له إذ اردت النوم فأعلمنى لا أنظر من يحرس ثم نمت فما ايقظنى إلا الصبح وقد ذهب السراق بفرس لى كان يركبه عفيف الدين بسرجه ولجامه وكان من جياد الخيل اشتريته باياسلوق ثم رحلنا من الغد فوصلنا إلى مدينة برغمة (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة وراء مسكنة وغين معجمة مفتوحة وميم مفتوحة) مدينة خربة لها قلعة عظيمة منيعة بأعلى جبل ويقال ان افلاطون الحكيم من أهل هذه المدينة وداره تشتهر باسمه إلى الآن ونزلنا منها بزاوية فقير من الاحدية ثم جاء أحد كبار المدينة فنقلنا إلى داره واكرمنا اكراما كثيرا

(ذكر سلطان برعمه)

وسلطانها يسمى يخشى خان بكسر الشين وخان عندهم هو السلطان ويخشى (بباء آخر الحروف وخاء معجم وشين مكسور) ومعناه جيد صادقناه فى مصيف له فاعلم بقدمنا

فبعث بضيافة وثوب قدسى ثم اكرينا مريدا لنا على الطريق وسرنا فى جبال شايخة وعرة إلى أن وصلنا إلى مدينة بلى كبرى (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة ولام مكسورة وياء مد وكاف مفتوح وسين مهمل مسكن وراء مكسور وياء) مدينة حسنة كثيرة العمارات مايحة الأسواق ولاجامع لها يجمع فيه وارا دوا بناء جامع خارجها متصل بها فبنوا حيطانه ولم يجعلوا سقفا وصاروا يصلون به ويجمعون تحت ظلال الأشجار ونزلنا من هذه المدينة بزواية الفقى اخى سنان وهو من افاضلهم واتى اليها قاضيها وخطيبها الفقيه وسى (ذكر سلطان بلى كبرى)

وبسمى دمورخان ولاخير فيه وابوه هو الذى بنى هذه المدينة وكثرت عمارتها بمن لاخير فيه فى مدة ابنه هذا والناس على دين الملك ورايته وبعث إلى ثوب حرير واشترت بهذه المدينة جارية رومية تسمى مرغايظة ثم سرنا إلى مدينة برصى (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة واسكان الراء وفتح الصاد المهمل) مدينة كبيرة عظيمة حسنة الأسواق فسيحة الشوارع تحفها البساتين من جميع جهاتها والعيون الجارية وبخارجها نهر شديد الحرارة يصب فى بركة عظيمة وقد بنى عليها بيتان أحدهما للرجال والآخر للنساء والمرضى يستشفون بهذه الحجة ويأتون اليها من أقاصى البلاد وهناك زاوية للواردين ينزلون بها ويطعمون مدة مقامهم وهى ثلاثة أيام عمر هذه الزاوية أحد ملوك التركان ونزلنا فى هذه المدينة بزواية الفقى اخى شمس الدين من كبار الفتيان ووافقنا عنده يوم عاشوراء فصنع طعاما كثيرا ودعا وجوه العسكر وأهل المدينة ليلا وافطروا عنده وقرأ القراء بالأصوات الحسنة وحضر الفقيه الواعظ مجد الدين القوتوى ووعظ وذكر وأحسن ثم أخذوا فى السماع والرقص وكانت ليلة عظيمة الشأن وهذا الواعظ من الصالحين يصوم الدهر ولا يفطر إلا فى كل ثلاث أيام ولا يأكل إلا من كديمينه ويقال انه لم يأكل طعام أحد قط ولا منزل له ولا متاع إلا مايستتر به ولا ينام إلا فى المقبرة ويعظ فى المجالس وينذر فى تيوب على يديه فى كل مجالس الجماعة من الناس وطلبته بعد هذه الليلة فلم أجده واتييت الجباة فلم أجده ويقال انه يأتها بعد هجوع الناس

(حكاية)

لما حضرنا ليلة عاشوراء بزواية شمس الدين وعظ بها مجد الدين آخر الليل فصاح أحد الفقراء صيحة غشى عليه منها فصبوا عليه ماء الورد فلم يفق فاعادوا عليه ذلك فلم يفق واختلفت الناس فيه فن قائل أنه ميت ومن قائل انه مشى عليه واتم الواعظ كلامه وقرأ القراء وصلينا الصبح وطلعت الشمس فاختبروا حال الرجل فوجدوه فارق

الدنيا رحمه الله قاشتغلوا بغسله وتكفينه وكنت فيمن حضر الصلاة عليه ودقنه وكان هذا الفقير يسمى الصباح وذكروا أنه كان يتعبد بغار هنالك في جبل فتي علم أن الواعظ مجد الدين يعظ قصده وحضر وعظه ولم يأكل طعاماً أحد فإذا وعظ مجد الدين يصبح ويغشى عليه ثم يفيق فيتوضأ ويصلي ركعتين ثم إذا سمع الواعظ صاح يفعل ذلك مراراً في الليلة وسمى الصباح لأجل ذلك وكان أعذر اليد والرجل لا قدرة له على الخدمة وكانت له والدة تقوته من غزها فلما توفيت اقتات من نبات الأرض ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح عبد الله المصري السائح وهو من الصالحين جال الأرض إلا أنه لم يدخل الصين ولا جزيرة سرنديب ولا المغرب ولا الأندلس ولا بلاد السودان وقد زدت عليه بدخول هذه الأقاليم

(ذكر سلطان برصا)

سلطانها اختيار الدين أرخان بك وأرخان (بضم الهمزة وخاء معجم) ابن السلطان عثمان جوق (وجوق بحيم معقود مضموم وآخره قاف) وتفسيره بالتركية الصغير وهذا السلطان أكبر ملوك التركان وأكثر مالا وبلاداً وعسكراً له من الحصون ما يقارب مائة حصن وهو في أكثر أوقاته لا يزال يطوف عليها ويقيم بكل حصن منها أياماً لإصلاح شؤونها وتفقد حاله ويقال أنه لم يقيم قط شهراً كاملاً ببلد ويقا تل السكفار ويحاصره ووالده وهو الذي استفتح مدينة برصا من أيدي الروم وقبره بمسجدها وكان مسجدها كنيسة للنصارى وذكروا أنه حاصر مدينة برنيك نحو عشرين سنة ومات قبل فتحها فحاصرها واده هذا الذي ذكرناه اثنتي عشرة سنة وافتتحها وبها كان لقائي له وبعث إلى بدراهم كثيرة ثم سافرنا إلى مدينة يزنيك (وضبط اسمها بفتح الياء آخر الحروف وإسكان الزاي وكسر النون وياء مد وكاف) وبتنا قبل الوصول إليها ليلة بقرية تدعى كر له بزواية فتي من الأخية ثم سبرنا من هذه القرية يوماً كاملاً في أنهار ماء على جوانبها أشجار الرمان الحلوة والخامض ثم وصلنا إلى بحيرة ماء تذببت القصب على ثمانية أميال من يزنيك لا استطاع دخولها إلا على طريق واحد مثل الجسر لا يسلك عليها إلا فارس واحد وبذلك امتنعت هذه المدينة والبحيرة محيطة بها من جميع الجهات وهي خاوية على عروشها لا يسكن بها إلا أناس قليلون من خدام السلطان وبها زوجته بتون خاتون وهي الحاكمة عليهم امرأة صالحة فاضلة وعلى المدينة أسوار أربعة بين كل سورين خندق وفيه الماء ويدخل إليها على جسور خشب متى أرادوا رفعها رفعوها وبداخل المدينة البساتين والدور والأرض والمزارع فلكل إنسان داره ومزرعته وبستانه بمجموعة وشربها من آبارها قريبة وبها من

جميع أصناف الفواكه والجوز والقسطل عندهم كثير جدا رحيض الثمن ويسمون القسطل قسطنة بالنون والجوز القوز بالقاف وبها العنب العذارى لم أر مثله في سواها متناهي الحلاوة وعظيم الجرم صافي اللون رقيق القشر للحبة منه نواة واحدة أنزلنا بهذه المدينة الفقيه الإمام الحاج المجاور علاء الدين السلطان نيوكي وهو شيخ الفضلاء السكرماء ماجئت قط لزيارته إلا أحضر الطعام وصورته حسنة وسيرته أحسن وتوجه معي إلى الخاتون المذكورة فأكرمت وأضافت وأحسنّت وبعد قدومنا بأيام وصل إلى هذه المدينة السلطان أرخان بك الذي ذكرناه وأقمت بهذه المدينة نحو أربعين يوماً بسبب مرض فرس لي فلما طال على المسكث تركته وانصرفت ومعى ثلاثة من أصحابي وجارية وغلمايان وليس معنا من يحسن اللسان التركي ويترجم عنا وكان لنا ترجمان فارقتنا بهذه المدينة ثم خرجنا منها فبتنا بقرية يقال لها مكجا (بفتح الميم والسكاف والجيم) بتنا عند فقيه أكرمنا وأضافنا وسافرنا من عنده وتقدمتنا امرأة من الترك على فرس ومعها خديم لها وهي قاصدة مدينه ينجنا ونحن في اتباع أثرها فوصلت إلى واد كبير يقال له سقري كئاً به نسب إلى سقر أعادنا الله منها فذهبت تجوز الوادي فلما توسطته كادت الداية تفرق بها وروتها عن ظهرها وأراد الخديم الذي كان معه استخلاصها فذهب الوادي بهما معا وكان في عدوة الوادي قوم رموا بأنفسهم في أثرهما سباحة فأخرجوا المرأة وبها من الحياة رة ق ووجدوا الرجل قد قضى نحبه رحمه الله وأخبرنا أولئك الناس أن المعديّة أسفل من ذلك الموضع توجهنا إليها وهي أربع خشبات مربوطة بالحبال يجعلون عليها سروج الدواب والمتاع ويجذبها الرجال من العدو الأخرى ويركب عليها الناس وتجاز الدواب سباحة وكذلك فعلنا ووصلنا تلك الليلة إلى كاوية واسمها على مثال فاعلة من السكى نز لنا منها بز اوية أحدا لاخيه فكلمناه بالعربية فلم يفهم عنا وكلمنا بالتركية فلم يفهم عنه فقال اطلبوا الفقيه فإنه يعرف العربية فأتى الفقيه فكلمنا بالفارسية وكلمناه فلم يفهمها منا فقال للعفتى ايشان عربى كسنا ميقوان ميكويندو من عربى نواميدانم و ايشان معناه هؤلاء وكهنا قديم وميقوان يقولون ومن أنا نو جديد وميدانم تعرف وإنما أراد الفقيه بهذا الكلام ستر نفسه عن الفضيحة حين ظنوا أنه يعرف اللسان العربى وهو لا يعرفه فقال لهم هؤلاء يتكلمون بالكلام العربى القديم وأنا لا أعرف إلا العربى الجديد فظن الفتى أن الأمر على ما قاله الفقيه

ونفمنا ذلك عنده وبأبلغ أكرامنا وقال هؤلاء تجيب كرامتهم لأنهم يتكلمون باللسان العربى القديم وهو لسان النبى صلى الله عليه وسلم تسليما وأصحابه ولم يفهم كلام الفقيه

إذ ذاك لسكنى حفظت لفظه فلما تعلمت اللسان الفارسي فهمت مراده وبتنا تلك الليلة بالزاوية وبعث معنا دليلاً إلى ينجاء وضبط اسمها (بفتح الياء آخر الحروف وكسر النون وجيم) بلدة كبيرة حسنة بمحلتها عن زاوية الأخي فوجدنا بها أحد الفقراء المولحين فقامت له هذه زاوية الأخي فقال لي نعم فسرت عند ذلك إذ وجدت من يفهم اللسان العربي فلما اختبرته أبرز الغيب أنه لا يعرف من اللسان العربي إلا كلمة نعم خاصة ونزلنا بالزاوية وجاء إلينا أحد الطلبة بطعام ولم يكن الأخي حاضر أو حصل الأئس بهذا الطالب ولم يكن يعرف اللسان العربي والسكنة تفضل وتكلم مع نائب البلدة فأعطاني فارساً من أصحابه وتوجه معنا إلى كبنوك (وضبط اسمها بفتح الكاف وسكون الباء وضم النون) وهي بلدة صغيرة يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين وليس بها غير بيت واحد من المسلمين وهم الحكماء عليهم وهي من بلاد الساطان ارخان بك فنزلنا بدار عجوز كافرة وذلك إبان الشج والشتاء فأحسننا إياها وبتنا عندها تلك الليلة وهذه البلدة لا شجر بها ولا دوا إلى العنب ولا يزرع بها إلا الزعفران وأتينا هذه العجوز بزعفران كثير وظننت أننا نشتريه منها ولما كان الصباح ركبنا وأنا الفارس الذي بعثه معنا من كايه فبعث معنا فارساً غيره ليوصلنا إلى مدينة مطرفي وقد وقع في تلك الليلة ثلج كثير عفي عن الطريق فتقدمنا ذلك الفارس فاتبعنا أثره إلى أن وصلنا في نصف النهار إلى قرية للتركان فأتوا بطعام فأكلنا منه وكلهم ذلك الفارس فركب معنا أحدهم وسلك بنا أوعاراً أوجبالاً ومجرى ماء تكرر لنا جوازه أزيد من الثلاثين مرة فلما خلاصنا من ذلك قال لنا ذلك الفارس أعطوني شيئاً من الدراهم فقلنا له إذا وصلنا إلى المدينة نعطيك ونرضيك فلم يرض ذلك منا ولم يفهم عنا فأخذ قوساً وبعض أصحابي ومضى غير بعيد ثم رجع فرد إلينا القوس فأعطيته شيئاً من الدراهم فأخذها وهرب عنا وتركنا لا نعرف أين نقصد ولا طريق لنا فمكنا نتلمح أثر الطريق تحت الشج ونسلكه إلى أن بلغنا عند غروب الشمس إلى جبل يظهر الطريق به لسكينة الحجارة خفت الهلاك على ومن معي وتوقعت نزول الشج ليلاً ولا عمارة هناك فإن نزلنا عن الدواب هلكنا وإن سرينا ليلتنا لا نعرف أين نتوجه وكان لي فرس من الجياد فعملت على الخلاص وقلت نفسي إذا سلمت أعلى احتال في سلامة أصحابي فسكان كذلك واستودعتهم الله تعالى وسرت وأهل تلك البلاد يبنون على القنور بيوتاً من الخشب يظن رائيها أنها عمارة فيجدها قبوراً فظهر لي منها كثير فلما كان بعد العشاء وصلت إلى البيوت فقامت اللهم اجعلها عمارة فوجدتها عمارة ووفقني

الله تعالى إلى باب دار فرأيت عليها شيخا فسلمته بالعربي فسلمني بالتركي وأشار إلى بالدخول فأخبرته بشأن أصحابي فلم يفهم عني وكان من لطف الله أن تلك الدار زاوية للفقراء والواقف بالباب شيخها فلما سمع الفقراء الذين بداخل الزاوية كلامي مع الشيخ خرج بعضهم وكانت بيني وبينه معرفة فسلم علي وأخبرته خبر أصحابي وأشارت إليه بأن يمضي مع الفقراء لاستخلاص الأصحاب ففعلوا ذلك وتوجهوا معي إلى أصحابي وجئنا جميعا إلى الزاوية وحمدنا الله تعالى على السلامة وكانت ليلة جمعة فاجتمع أهل القرية وقطعوا ليأتهم بذكر الله تعالى وأتى كل منهم بما تيسر له من الطعام وارتفعت المشقة ورحلنا عند الصباح فوصلنا إلى مدينة مطر في عند صلاة الجمعة (وضبط اسمها بضم الميم والطاء المهملة واسكان الراء وكسر النون وياء مد) فنزلنا بزاوية أحد الفتيان الأخية وبها جماعة من المسافرين ولم نجد مربطا للدواب فصليتنا الجمعة ونحن في قلق لكثرة الشاج والبرد وعدم المربط فلقيتنا أحد الحجاج من أهلها فسلم علينا وكان يعرف اللسان العربي فسررت برؤيته وطلبت منه أن يدلنا على مربط للدواب بالسكراء فقال أمار بطها في منزل فلايتأني لأن أبواب دور هذه البلدة صغار لا تدخل منها الدواب ولاكنني أدلكم على سقيفة بالسوق يربط فيها المسافرون دوابهم والذين يأتون لحضور السوق فدلنا عليها وربطنا بها دوابنا ونزل أحد الأصحاب بمكانوت خال أزاها ليحرس الدواب.

(حكاية)

وكان من غريب ما اتفق لنا أني بعثت أحد الخدام ليشتري اللبن للدواب وبعثت أحدهم يشتري السمن فأتى أحدهما باللبن والآخر دون شيء وهو يضحك فساءلناه عن سبب ضحكك فقال أنا وقفنا على دكان بالسوق فطلبنا منه السمن فأشار إلينا بالوقوف وكلم والده فدفعنا له الدراهم فأبطأ ساعة وأتى باللبن فأخذناه منه وقلنا له انا نريد السمن فقال هذا السمن وأبرز الغيب أنهم يقولون للبن سمن بلسان الترك أما السمن يسمى عندهم رباغ ولما اجتمعنا بهذا الحاج الذي يعرف اللسان العربي رغبنا منه أن يسافر معنا إلى قسطنطينية وبينها وبين هذه البلدة عشرة وكسوته ثوبا مصرياً من من ثيابي وأعطيته نفقة تركها أعياله وعينت له دابة لركوبه ووعدته الخير وسافر معنا فظهر لنا من حاله أنه صاحب مال كثير وله ديون على الناس غير أنه ساقط المهمة خسيس الطبع سيء الأفعال وكنا نعطيهِ الدراهم لنفقتنا فيأخذها يفضل من الخبز ويشترى به الإبرار والخضر والملح ويمسك ثمن ذلك لنفسه وذكر لي أنه كان يسرق من دراهم النفقة دون ذلك وكنا نحتمله لما كنا نكابه من عدم المعرفة بلسان الترك وانتهت حاله إلى أن فضحناه وكنا نقول له في آخر

النهار يا حاج كم سرقت اليوم من النفقة فيقول كذا فنهضحك منه ونزى بذلك ومن أفعاله الخسيسة أنه مات لنا فرس في بعض المنازل فيتولى سلخ جلده بيده وباعه ومنها انا نزلنا ليلة عند أخت له في بعض القرى فجاءت بطعام وفاكهة من الاجاص والتفاح والشمش والخوخ كلها مبيسة وتجعل في الماء حتى ترطب فتؤكل ويشرب ماؤها فأردنا أن نحسن اليها فعلم بذلك فقال لا تعطوها شيئا واعطوا ذلك لى فاعطيناه ارضاء له واعطيناه اإحسانا في خفية بحيث لم يعلم بذلك ثم وصلنا الى مدينة بولى (وضبط اسمها بياء موجودة مضمومة وكسر اللام) ولما انتهينا الى قريب منها وجدنا واديا يظهر في رأى العين صغيرا فلما دخله بعض اصحابنا وجدوه شديد الجرية والانزعاج فجازوه جميعا وبقيت جارية صغيرة خافوا من تجويزها وكان فرسى خيرة من أفراسهم فأردفتها وأخذت في جواز الوادى فلما توسطته وقع بي الفرس ووقعت الجارية فأخرجها أصحابى وبها رمق وخلصت أنا ودخلنا المدينة فقصدنا زاوية أحد الفتيان الاخوية ومن عواندهم أنه لا تزال النار موقودة في زواياهم ايام الشتاء بدا يجعلون في كل ركن من اركان الزاوية موقد النار ويصنعون لها منافس يصعد منها الدخان ولا يؤذى الزاوية ويسمونها البخارى واحدها بخيرى قال ابن جزى وقد أحسن صفى الدين عبدالعزيز بن سرايا الحللى في قوله في التورية وتذكرته بذكر البخيرى ان البخيرى مذفار قتموه غدا يحثو الرماد على كانه التراب

لو شئت انه يسمى أبا لمت جاءت بغالكم حمالة الخطب

(رجع) قال فلما دخلنا للزاوية وجدنا النار موقودة فنزعت ثيابى ولبست ثيابا سواها واصطليت بالنار وأتى الاخى بالطعام والفاكهة وأكثر من ذلك فله درهم من طائفة ما اكرم نفوسهم واشدا يشارهم واعظم شفقتهم على الغريب والطفهم بالوارد واحبهم فيه وأجملهم احتفالا بأمره فليس قدوم الانسان الغريب عليهم الا كقدومه على أحب أهله اليه وبتنا تلك الليلة بحال مرضية ثم رحلنا بالغداة وصلنا الى مدينة كردى بولى (وضبط اسمها بكاف معقودة وفتح الراء والdal المهمل وسكون الياء وباء موحدة مضمومة وواو مدولام مكسورة وياء) وهى مدينة كبيرة فى بسيط من الارض حسنة متسعة الشوارع والاسواق من اشد البلاد بردا وهى محلات مفترقة كل محلة تسكنها طائفة لا يخالطهم غيرهم

(ذكر سلطانها)

وهو السلطان شاه بك من متوسطى سلاطين هذه البلاد حسن الصورة والسيرة جميل الخاق قليل العطاء صلينا بهذه المدينة صلاة الجمعة ونزلنا منها ولقيت بها الخطيب

الفقيه شمس الدين الدمشقي الخليلي وهو من مستوطنها منسنيين وله بها أولاد وهو فقيه هذا السلطان وخطيبه ومسموع الكلام عنده ودخل علينا هذا الفقيه بالزاوية فأعلمنا أن السلطان قد جاء لزيارتنا فشكرته على فعله واستقبلت السلطان فسلمت عليه وجلس فسألني عن حال وعن مقدمي وعمن لقيته من السلاطين فأخبرته بذلك كله وأقام ساعة ثم انصرف وبعث بدابة مسرجة وكسوة وانصرفنا إلى مدينة برلو (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة وإسكان الراء وضم اللام) وهي مدينة صغيرة على تل تحتها خندق ولها قلعة بأعلى شاطئ نزلنا منها بمدرسة وكان الحاج الذي سافر معنا يعرف مدرستها وطلبتها ويحضر معهم الدرس وهو على علاقته من الطلبة حنفي المذهب ودعانا أمير هذه البلدة وهو علي بك ابن السلطان المسكرم سليمان بادشاه ملك قسطنطينية وسند كره فصعدنا إليه إلى القلعة فسلمنا عليه فرحب بنا واكرمنا وسألني عن إسفاري وحالي فأجبت عن ذلك وأجاسني إلى جانبته وحضر قاضيه وكاتبه الحاج علاء الدين محمد وهو من كبار الكتاب وحضر الطعام فأكلنا ثم قرأ القراء بأصوات مبهكية والخان عجيبة وانصرفنا وسافرنا بالغد إلى مدينة قسطنطينية (وضبط اسمها بقاف مفتوح وصاد مهمل مسكن وطاء مهمل مفتوح وميم مضمومة وواو وونون مكسور وياء آخر الحروف) وهي من أعظم المدن وأحسنها كثيرة الخيرات رخيصة الاسعار نزلنا منها بزاوية شيخ يعرف بالاهاروش لثقل سمعه ورأيت منه عجبا وهو أن أحد الطلبة كان يكتب له في الهواء وتارة في الأرض بأصبعه فيفهم عنه ويحبيه ويحكى له بذلك الحكايات فيفهمها وأقننا بهذه المدينة نحو أربعين يوما فكنا نشترى طابق اللحم الغنمي السمين بدرهمين ونشترى خبزاً بدرهمين فيسكنفينا ليومنا ونحن عشرة ونشترى حلواء العسل بدرهمين فتسكنفينا اجمعين ونشترى جوزا بدرهم وقشطلا بمثله فنأكل منها أجمعون ويفضل باقيا ونشترى حمل الخطب بدرهم واحد وذلك وإن البرد الشديد ولم أر في البلاد مدينة أرخص اسعاراً منها ولقيت بها الشيخ الإمام العالم المفتي المدرس تاج الدين السلطانيوكي من كبار العلماء قرأ بالعراقيين وتبريز واستوطنهم مدة وقرأ بدمشق وجاور بالحرمين قديما ولقيت بها العالم المدرس صدر الدين سليمان الفنيكي من أهل فنيكة من بلاد الروم وضافني بمدرسته التي بسوق الخيل ولقيت بها الشيخ المعمر الصالح دادا أمير على دخلت عليه بزاويته بمقربة من سوق الخيل فوجدته ماتي على ظهره فاجلسه بعض خدامه ورقع بعضهم حاجبيه عن عينيه ففتحهما وكلني بالعربي الفصيح وقال قدمت خير مقدم وسألته عن عمره فقال

كنت من أصحاب الخليفة المستنصر بالله وتوفي وأنا ابن ثلاثين سنة وعمرى الآن مائة وثلاث وستون سنة فطلبت منه الدعاء فدعاني وانصرف

(ذكر سلطان قصطمونية)

وهو السلطان المكرم سليمان بادشاه (واسمه بيا معقود وألف ودال مسكن) وهو كبير السن يضيف على سبعين سنة حسن الوجه طويل اللحية صاحب وقار وهيبة يجالس الفقهاء والصالحاء دخلت عليه بمجلسه فأجاسني إلى جانبه وسألني عن حالى ومقدمى وعن الحرمين الشريفين ومصر والشام فأجبته وأمر بانزلى على قرب منه وأعطانى ذلك اليوم فر ساعتين قرطاسى اللون وكسوة وعينى نفقة وعلفا وأمرلى بعد ذلك بقمح وشعير نفلى فى قرية من قرى المدينة على مسيرة نصف يوم منها فلم أجد من يشتريه لرخص الارسعار فأعطيته للحاج الذى كان فى صحبتنا ومن عادة هذا السلطان ان يجلس كل يوم بمجلسة بعد صلاة العصر ويؤتى بالطعام فتفتح الابواب ولا يمنع أحد من حضرى أو بدوى أو غريب أو مسافر من الأكل ويجلس فى أول النهار جلوساً خاصاً ويأتى ابنه فيقبل يديه وينصرف إلى مجلس له ويأتى أرباب الدولة فيأكلون عنده وينصرفون ومن عادته فى يوم الجمعة ان يركب إلى المسجد وهو بعيد عن داره والمسجد المذكور هو ثلاث طبقات من الخشب فيصلى السلطان وأرباب ولته والقاضى والفقهاء وجوه الاجناد فى الطبقة السفلى ويصلى الافندى وهو اخو السلطان وأصحابه وأخدامه وبعض أهل المدينة فى الطبقة الوسطى ويصلى ابن السلطان ولده وهو أصغر أولاده ويسمى الجواد وأصحابه ومما ليكه وأخدامه وسائر الناس فى الطبقة العليا ويجتمع القراء فيقعدون حلقة امام المحراب ويقعد معهم الخطيب والقاضى ويكون السلطان بازاء المحراب ويقرؤن سورة السكف باصوات حسان ويكررون الايات بترتيب عجيب فاذا فرغوا من قراءتها صعد الخطيب المنبر فخطب ثم صلى فاذا فرغوا من الصلاة تنفلوا وقرأ القارىء بين يدي السلطان عشر أو انصرف السلطان ومن معه ثم يقرأ القارىء بين يدي أخى السلطان فاذا أتم قراءته انصرف هو ومن معه ثم يقرأ القارىء بين يدي ابن السلطان فاذا فرغ من قراءته قام المعروف وهو المذكور فيمدح السلطان بشعر تركى ويمدح ابنه ويدعوا لها وينصرف ويأتى ابن الملك إلى دار أبيه بعد ان يقبل يدعمه فى طريقه واقف فى انتظاره ثم يدخلان إلى السلطان فيتقدم اخوه ويقبل يده ويجلس بين يديه ثم يأتى ابنه فيقبل يده وينصرف إلى مجلسه فيقعد به مع ناسه فاذا حانت صلاة العصر صلوا جميعاً وقيل أخو السلطان يده وانصرف عنه فلا يعود إليه إلا فى الجمعة الاخرى واما الولد فانه يأتى كل يوم غدوة كما ذكرناه

ثم سافرنا من هذه المدينة ونزلنا في زاوية عظيمة باحدى القرى من أحسن زاوية رأيتها في تلك البلاد بناها أمير كبير تاب إلى الله تعالى يسمى نحر الدين وجعل النظر فيها لولده والاشرف لمن أقام بالزاوية من الفقراء وفوائد القرية وقف عليها وبني بأزاء الزاوية حماما للسبيل يدخله الوارد والصادر من غير شيء يلزمه وبني سوقا بالقرية ووقفه على المسجد الجامع وعين من اوقاف هذه الزاوية لكل فقير يرد من الحرمين الشريفين أو من الشام ومصر والعراقين وخراسان وسواها كسوة كاملة ومائة درهم يوم قدومه وثلاثمائة درهم يوم سفره والنفقة أيام مقامه وهى الخبز واللحم والارز المطبوخ بالسمن والحلواء ولكل فقير من بلاد الروم عشرة دراهم وضيافة ثلاثة أيام ثم انصرفنا وبتنا ليلة ثانية بزاوية في جبل شاخ لاعماره فيه عمرها بعض الفتيا الاخيرة ويعرف بنظام الدين من اهل قصطمونية ووقف عليها قرية ينفق خراجها على الوارد والصادر بهذه الزاوية وسافرنا من هذه الزاوية إلى مدينة صنوب (وضبط اسمها بفتح الصاد وضم النون وآخره باء) وهى مدينة حافلة جمعت بين التحصين والتحسين يحيط بها البحر من جميع جهاتها إلا واحدة وهى جهة الشرق ولها هنالك باب واحد لا يدالها أحد إلا بأذن أميرها وأميرها ابراهيم بك ابن السلطان سليمان بادشاه الذى ذكرناه ولما استؤذن لنا عليه دخنا البلد ونزلنا بزاوية عز الدين اخى جلبي وهى خارج باب البحر ومن هنالك يصعد إلى جبل داخل في البحر كميناً سبعة فيه البساتين والمزارع والمياه وكثر فواكه التين والعنب وهو جبل مانع لا يستطيع الصعود اليه وفيه إحدى عشرة قرية يسكنها كفار الروم تحت ذمه المسلمين وباعلاها رابطة تنسب للخضر والياس عليهما السلام لا تخلو عن متعبد وعندها عين ماء والدعاء فيها مستجاب وبسفح هذه الجبل قبر الولي الصالح الصحابي بلال الحبشي وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر والمسجد بمدينة صنوب من أحسن المساجد وفي وسطه بركة ماء عليها قبة ثقلها اربع ارجل ومع كل رجل ساريتان من الرخام وفوقها مجلس يصعد له على درج خشب وذلك من عمارة السلطان بروانه ابن السلطان علاء الدين الرومى وكان يصلى الجمعة باعلى تلك القبة وملك بعد ابنه غازى جلبي فلما مات تغلب عليها السلطان سليمان المذكور وكان غازى جلبي المذكور شجاعاً مقداماً ووهبه الله خاصية في الصبر تحت الماء وفي قوة السباحة وكان يسافر في الاجفان الحربية لحرب الروم

فاذا كانت الملاقاة واشتغل الناس بالقتال غاص تحت الماء ويده آلة حديد يخرق بها اجفان العدو فلا يشعرون بما حل بهم حتى يدهمهم الغرق وطرقت مرسى بلده مرة بجفان

العدو نفرقوا وأسر من كان فيها وكانت فيه كفاية لا كفاه لها إلا أنهم يذكرون أنه كان
يكثير أكل الحشيش وبسببه مات فانه خرج يوماً للتصيد وكان مواعاه به فاتبع غزاله
ودخلت له بين أشجار وزاد في ركض فرسه فعارضته شجرة فضربت رأسه فشدخته
فمات وتغلب السلطان سليمان على البلد وجعل به ابنه إبراهيم ويقال انه أيضاً كل ما كان
يأكله صاحبه على أن أهل بلاد الروم كلها لا ينكرون أكلها ولقد مررت يوماً على باب
الجامع بصنوب وبخارجة دكاكين يقعد الناس عليها فرأيت نفر من كبار الأجناد وبين
أيديهم خديم لهم بيده شكاراة مملوءة بشيء يشبه الحناء واحدهم يأخذ منها بمعلقة ويأكل وأنا
أنظر إليه ولا أعلم بما في الشكاراة فسالت من كان معي فاخبرني أنه الحشيش واضافنا بهذه
المدينة قاضيها ونائب الأمير بها ومعلمه ويعرف بابن عبد الرزاق .

(حكاية)

لما دخلنا هذه المدينة رأنا أهلها ونحن نصلي مسجلى أيدينا وهم حنفية لا يعرفون مذهب
مالك ولا كيفية صلاته والختار من مذهبه هو أسبال اليمين وكان بعضهم يرى الروافض
بالحجاز والعراق يصلون مسجلى أيديهم فاتهمونا بمذهبهم وسالونا عن ذلك فاخبرناهم اننا
على مذهب مالك فلم يقتنعوا بذلك منا واستقرت التهمة في نفوسهم حتى بعث اليينا نائب
السلطان بارنب وأوصى بعض خدامة أن يلازمنا حتى يرى ما نفعل به فذبحناه وطبخناه
واكلناه وانصرف الخديم إليه واعلمه بذلك فحينئذ زالت عنا التهمة وبعثوا لنا بالضيافة
والروافض لا يأكلون إلا رانب وبعد أربعة أيام من وصولنا إلى صنوب توفيت أم الأمير
إبراهيم بها نخرجت في جنازتها وخرج ابنها على قدميه كاشفاً شعره وكذلك الأمراء والمماليك
وأيابهم مقلوبة وأما القاضى والخطيب والفقهاء فانهم قلبوا أيابهم ولم يكشفوا رؤسهم بل جعلوا
عابها مناديل من الصوف الأسود عوضاً عن العباء وأقاموا يطعمون الطعام أربعين يوماً وهي
مدة العزاء عندهم وكانت إقامتنا بهذه المدينة نحو أربعين يوماً ننتظر تيسير السفر في البحر
إلى مدينة القرم فاكترينا من كبا للروم وقمنا أحد يوماً ننتظر مساعدة الريح ثم ركبنا
البحر فلما توسطناه بعد ثلاث هال علينا واشتد بنا الأمر ورأينا الهلاك عياناً وكنت بالطارمة
ومعى رجل من أهل المغرب يسمى أبا بكر فامرته أن يصعد إلى أعلى المركب لينظر كيف
البحر ففعل ذلك وأتاني بالطارمة فقال لي استودعكم الله ودهمنا من الهول ما لم يعهد مثله
ثم تغيرت الريح ورددتنا إلى مقربة من مدينة صنوب التي خرجنا منها وأراد بعض التجار
النزول إلى مرساه فممنعت صاحب المركب من انزاله ثم استقامت الريح وسافرنا فلما توسطنا
البحر هال علينا وجرى لنا مثل المرة الأولى ثم ساعدت الريح ورأينا جباً إلى البر وقصد بامرسي

يسمى الكرش فأردنا دخوله فأشار إلينا أناس كانوا بالجبل أن لا تدخلوا نخفنا على أنفسنا وظننا أن هنالك اجفانا للعدو فرجعنا مع البر فلما قربنا قلت لصاحب المركب أريد أن أنزل هاهنا فأزلى بالساحل ورأيت كنيسة فقصدتها فوجدت بها راهبا ورأيت في أحد حيطان الكنيسة صورة رجل عربي عليه عمامة متقلد سيفاً وبيده رمح وبين يديه سراج يو قد فقلت للراهب ماهذه الصورة فقال هذه صورة النبي على فأعجبت من قوله وبتنا تلك الليلة بالكنيسة وطبخنا دجاجاً فلم نستطع أكلها إذ كانت مما استصحبناه في المركب ورائحة البحر قد غلبت على كل ما كان فيه

وهذا الموضع الذي نزلنا به هو من الصحراء المعروفة بدشت قفجق (والدشت بالشين المعجم والتاء المثناة) بلسان الترك هو الصحراء وهذه الصحراء خضرة نضرة لا شجر بها ولا جبل ولا نل ولا أبنية ولا حطب وإنما يوقدون الأرواث ويسمعونها الترك (بالزاي المفتوح) فتري كبراهم يلقطونها ويجعلونها في أطراف ثيابهم ولا يسافر في هذه الصحراء إلا في العجل وهي مسيرة ستة أشهر ثلاثة منها في بلاد السلطان محمد أوزبك وثلاثة في بلاد غيره .

ولما كان الغد من وصولنا إلى هذه المرسى توجه بعض التجار من أصحابنا إلى من بهذه الصحراء من الطائفة المعروفة بقفجق وهم على دين النصرانية فاكترى منهم بعجلة يجرها الفرس فركبناها ووصلنا إلى مدينة الكفا (واسمها بكاف وفاء مفتوحين) وهي مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر يسكنها النصارى وأكثرهم الجنويون ولهم أمير يعرف بالندير ونزلنا منها بمسجد المسلمين . (حكاية)

ولما نزلنا بهذه الجامع أقننا به ساعة ثم سمعنا أصوات النواقيس من كل ناحية ولم أكن سمعنا قط فيما نرى ذلك وأمرت أصحابي أن يصعدوا الصومعة ويقرأوا القرآن ويذكروا الله ويؤذنوا ففعلوا ذلك فاذا برجل قد دخل علينا وعليه الدرع والسلاح فسلم علينا واستفهمناه عن شأنه فأخبرنا أنه قاضى المسلمين هنالك وقال لما سمعت القراءة والأذان خفت عليكم فجئت كما ترون ثم انصرف عنا ومارأينا إلا خيراً ولما كان الغد جاء إلينا الأمير وصنع طعاماً فأكلنا عنده وطفنا بالمدينة فرأيناها حسنة الأسواق وكلهم كفار ونزلنا إلى مرسى فرأينا مرسى عجيباً به نحو مائتي مركب ما بين حربي وسفري صغيراً وكبيراً وهو من مراسى الدنيا الشهيرة ثم اكترينا بعجلة وسافرنا إلى مدينة القرم وهي (بكسر القاف وفتح الراء) مدينة كبيرة حسنة من بلاد السلطان المعظم محمد أوزبك خان وعليها أمير من قبله اسمه تالكتمدر وضبط اسمه (بتاء مثناة مضمومة ولام مضمومة وكاف مسكن وتاء كالأولى مضمومة وميم مضمومة وواو وراء) وكان أحد خدام هذا الأمير قد صحبنا في

طريقنا فعرفه بقدمنا فبعث إلى مع إمامه سعد الدين بفرس ووزلنا بزأوية شيخها زاده الخراساني فأكرمنا هذا الشيخ ورحب بنا وأحسن إلينا وهو معظم عندهم ورأيت الناس يأتون للسلام عليه من قاض وخطيب وفقه وسواهم وأخبراني هذا الشيخ زاده وأن بخارج هذه المدينة راهبا من النصاري في دير يتعبد به ويكثر الصوم وأنه انتهى إلى أن يواصل أربعين يوما ثم يفطر على حبة فول وأنه يكشف بالأمور ورغب مني أن أصحبه في التوجه إليه فأبيت ثم ندمت بعد ذلك على أن لم أكن رأيته وعرفت حقيقة أمره ولقيت بهذه المدينة قاضيا الأعظم شمس الدين السائل قاضي الحنفية ولقيت بها قاضي الشافعية وهو يسمى بخضر والفقيه المدرس علاء الدين الأصم وخطيب الشافعية بابكر وهو الذي يخطب بالمسجد الجامع الذي عمره الملك الناصر رحمه الله بهذه المدينة والشيخ الحكيم الصالح مظفر الدين وكان من الروم فاسلم وحسن إسلامه والشيخ الصالح العابد مظفر الدين وهو من الفقهاء المعظمين وكان الأمير تلسكتمور مريضاً فدخلنا عليه فأكرمنا وأحسن إلينا وكان على التوجه إلى مدينة السرا حضرة السلطان محمد أوزبك فعملت في السير في صحبته واشتريت العجلات برسم ذلك .

(ذكر العجلات التي يسافر عليها بهذه البلاد)

وهم يسمون العجلة عربية (بعين مهملة وراء موحد مفتوحات) وهي عجلات تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار ومنها ما يجره فرسان ومنها ما يجره أكثر من ذلك وتجرها أيضاً البقر والجمال على حال العربية في ثقلها أو خفتها والذي يخدم العربية يركب إحدى الأفراس التي تجرها ويكون عليه سرج وفي يده سوط يحركها المشي وعود كبير يصوبها به إذا عاجت عن القصد ويجعل على العربية شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض بسور جلد رقيق وهي خفيفة الحمل وتكسى باللبد أو بالملف ويكون فيها طيقان مشبكة ويرى الذي بداخلها الناس ولا يرونه ويتقلب فيها كما يحب وينام ويأكل ويقرأ ويكتب وهو في حال سيره والتي تحمل الأثقال والأزاد وخزائن الأطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا وعليها قفل وجهاز لما اردت السفر عربية لركوب مغشاة باللبد ومعها بها جارية لي وعربة صغيرة لرقيق عفيف الدين التوزري وعجلة كبيرة لسائر الأصحاب يجرها ثلاثة من الجمال يركب أحدهما خادم العربية وسرنا في صحبة الأمير تلسكتمور وأخيه عيسى ووالديه قطلودمور ووصار بك وسائر أيضاً معه في هذه الوجهة إمامه سعد الدين والخطيب أبو بكر والقاضي شمس الدين

والفقيه شرف الدين موسى والمعرف علاء الدين وخطة هذا المعرف أن يكون بين يدي
الأمير في مجلسه فإذا أتى القاضي يقف له هذا المعرف ويقول بصوت عال بسم الله سيدنا
ومولانا قاضي القضاة والحكام مبین الفتاوى والأحكام بسم الله وإذا أتى فقيه معظم أو
رجل مشار إليه قال بسم الله سيدنا ومولانا فلان الدين بسم الله فيتهياً من كان حاضر الدخول
الداخل ويقوم إليه ويفسح له في المجلس وعادة الأتراك أن يسيروا في هذه الصحراء
سيراً كسير الحجاج في درب الجبازير حلون بعد صلاة الصبح وينزلون ضحى ويرحلون
بعد الظهر وينزلون عشياً وإذا حلوا الخيل والأبل والبقر عن العربات وسرحوها
للرعى ليلاً ونهاراً ولا يعلف أحد دابة السلطان ولا غيره وخاصية هذه الصحراء أن
نباتها يقوم مقام الشعير للدواب وليس غيرها من البلاد هذه الخاصية ولذلك كثر
الدواب بها ودوابهم لا عارة لها ولا حراس وذلك لشدة أحكامهم في السرقة وحكمهم فيها
أنه من وجد عنده فرس مسروق كاف أن يرده إلى صاحبه ويعطيه معه تسعة مثله فإن
لم يقدر على ذلك أخذ أولاده في ذلك فإن لم يكن له أولاد ذبح كما تذبح الشاة .

وهؤلاء الأتراك لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ وإنما يصنعون طعاماً من شيء
شبه الآتى يسمونه الدوقى (بدال مهمل مضموم وواو وقاف مكسور معقود) يجعلون
على النار الماء فإذا غلى صبوا عليه شيئاً من الدوقى وإن كان عندهم لحم قطعوه قطعاً
صغاراً وطبخوه ثم يجعل لكل رجل نصيبه في صحيفة ويصبون عليه اللبن الرائب
ويشربونه ويشربون عليه لبن الخيل وهم يسمونه القمى (بكسر القاف والميم والزاي
المشددة) وهم أهل قوة وشدة وحسن مزاج ويستعملون في بعض الأوقات طعاماً
يسمونه البورخانى وهو عجينة يقطعونه قطيعات صغاراً ويشقون أوساطها ويجعلونها
في قدرة فإذا طبخت صبوا عليها اللبن الرائب وشربوها ولهم نبيذ يصنعونه من حب
الدوقى الذى تقدم ذكره وهم يرون أكل الحلواء عيباً .

ولقد حضرت يوماً عند السلطان أوزبك في رمضان فأحضرت لحوم الخيل وهى
أكثر ما يأكلون من اللحم ولحوم الأغنام والرشا وهو شبه الأظريّة يطبخ ويشرب
باللبن وأتيته تلك الليلة بطبق حلواء صنعها بعض أصحابي فقدمتها بين يديه فجعل أصبهه عليها
وجعله على فيه ولم يزد على ذلك وأخبرنى الأمير تلسكتور أن أحد السكبار من مماليك هذا
السلطان وله من أولاده وأولاده نحو أربعين ولداً قال له السلطان يوماً كمل الحلواء
واعتقكم جميعاً فأبى وقال لو قتلتنى ما أكتأها ولما خرجنا من مدينته القرم نزلنا بزأوية
الأمير تلسكتور فى موضع يعرف بسجاف فبعث إلى أن أحضر عنده فر كبت إليه وكان

لى فرس معدلر كوى يقوده خديم العربى فاذا أردت ركوبه ركبته وأتيت الزاوية فوجدت الأمير قد وضع بها طعاما كثيرا فيه الخبز ثم أتوا بماء أبيض فى صحاف صغار فشرب القوم منه وكان الشيخ مظفر الدين يلى الأمير فى مجلسه وأنا لى ليه فقلت له ما هذا فقال هذا ماء الدهن فلم أفهم ما قال فذقته فوجدت له حموضة فنركته فلما خرجت سألت عنه فقال هو نبيذ يصنعونه من حب الدوقى وهم حنفية المذهب والنبيذ عندهم حلال ويسمون هذا النبيذ المصنوع من الدوقى البوزه (بصم الباء الموحدة وواو مدوزاى مفتوح) وإنما قال لى الشيخ مظفر الدين ماء الدخن ولسانه فيه اللكنة الأعجمية فظننت أنه يقول ماء الدهن .

وبعد مسيرة ثمانية عشر منزلا من مدينة القوم وصلنا إلى ماء كثير نخوضه وما كاملا وإذا كثر خوض الدواب والعربات فى هذا الماء اشتد وحله وزاد صعوبة فذهب الأمير إلى راحتي وقدمنى أمامه مع بعض خدامه وكتب لى كتابا إلى أمير أزاى يعلمه إنى أريد القدوم على الملك ويحضه على إكرامى وسرنا حتى انتهينا إلى ماء آخر نخوضه نصف يوم .

ثم سرنا بعده ثلاثا ووصلنا إلى مدينة أزاى (وضبط اسمها بفتح الهمزة والزاي وآخره قاف) وهى على ساحل البحر حسنة العمارة يقصدها الجنويون وغيرهم بالتجارات وبها من الفتيان أخى بحقجى وهو من العظام يطعم الوارد والصادر ولما وصل كتاب القاضى تالسكرتمور إلى أمير أزاى وهو محمد خواجه الخوارزمى خرج إلى استقبالى معه القاضى والطلبة وأخرج الطعام فلما سلمنا عليه نزلنا بموضع أكلنا فيه ووصلنا إلى المدينة ونزلنا بخارجها بمقربة من رابطة هنالك تنسب للخضر والياس عليهما السلام وخرج شيخ من أهل أزاى يسمى بربجب النهر ملهى نسبة إلى قرية بالعراق فاضافنا بزاوية له ضيافة حسنة وبعد يومين من قدومنا قدم الأمير تالسكرتمور وخرج الأمير محمد للفائه ومعه الأمير والطلبة وأعدوا له الضيافة وضربوا ثلاث قباب متصلا بعضها ببعض أحداها من الحرير الملون عجيبه والثنتان من الكتان وأداروا عليها سراحه وهى المسماة عندنا أفراج وخارجها الدهليز وهو على هيئة البرج عندنا ولما نزل الأمير بسطت بين يديه شقائق الحرير يمشى عليها فكان من مكارمه وفضله أن قدمنى أمامه يرى ذلك الأمير منزلى عنده ثم وصلنا إلى الخباء الأولى وهى المعدة لجلوسه وفى صدرها كرسى من الخشب لجلوسه كبير مرصع وعليه مرتبة حسنة فقدمنى الأمير أمامه وقدم الشيخ مظفر الدين وصعد هو فجلس فيما بيننا ونحن جميعا على المرتبة وجلس قاضيه وخطيبه وقاضى هذه المدينة وطلبتها عن يسار الكرسى على فرش فاخرة ووقف ولدا الأمير تالسكرتمور وأخوه والأمير محمد

وأولاده في الخدمة ثم أتوا بالأطعمة من لحوم الخيل وسواها وأتوا بألبان الخيل ثم أتوا بالبوزة وبعد الفراغ من الطعام قرأ القراء بالأصوات الحسان ثم نصب منبر وصعد الواعظ وجلس القراء بين يديه وخطب خطبة بليغة ودعا للسلطان وللأمير وللحاضرين يقول ذلك بالعربي ثم يفسره لهم بالتركي وفي أثناء ذلك يكرر القراء آيات من القرآن بترجيع عجيب ثم أخذوا في الغناء يغنون بالعربي ويسمونه القول ثم بالفارسي والتركي يسمونه الملبع ثم أتوا بطعام آخر ولم يزلوا على ذلك إلى العشي وكلما أردت الخروج منهني الأمير ثم جاؤا بكسوة للأمير وكساوى أولديه وأخيه وللشيخ مظفر الدين ولي وأتوا بعشرة أفراس للأمير ولأخيه ولولديه بستة أفراس ولكل كبير من أصحابه بفرس ولي بفرس والخيل بهذه البلاد كثيرة جدا وثمنها نزر قيمة الجيد منها خمسون درهما أو ستون من دراهمهم وذلك صرف دينار من دنانيرنا أو نحوه وهذه الخيل هي التي تعرف بمصر بالأكاديش ومنها معاشهم وهي ببلادهم كالغنم ببلادنا بل أكثر فيكون للتركي منهم آلاف منها .

ومن عادة الترك المستوطنين تلك البلاد أصحاب الخيل انهم يضعون في العرايات التي تركب فيها نساؤهم قطعة لبد في طول الشبر مربوطة إلى عود رقيق في طول الذراع في ركن العربدة ويجعل لكل ألف فرس قطعة ورأيت منهم من يكون له عشر قطع ومن له دون ذلك وتحمل هذه الخيل إلى بلاد الهند فيكون في الرفقة منها ستة آلاف وما فوقها وما دونها لكل تاجر المائة والمائتان فما دون ذلك وما فوقه ويستأجر التاجر لكل خمسين منها راعيا يقوم عليها ويرعاها كالغنم ويسمى عندهم القشى ويركب أحدها وييده عصا طويلة فيها حبل فإذا أراد أن يقبض على فرس منها حاذاه بالفرس الذي هو راحبه ويرمى الحبل في عنقه ويجذبه فيركبه ويترك الآخر للرعى وإذا وصلوا بها إلى أرض السند اطعموها العلف لأن نبات أرض السند لا يقوم مقام الشعير ويموت لهم منها الكثير ويسرق ويغرمون عليها بأرض السند سبعة دنانير فضة على الفرس بموضع يقال له ششنتقار ويغرمون عليها بمائتان قاعدة بلاد السند وكانوا فيما تقسم يغرمون ربع ما يجلبونه فرفع ملك الهند إلى السلطان محمد ذلك وأمر أن يؤخذ من تجار المسلمين الزكاة ومن تجار الكفار العشر ومع ذلك يبقى للتجار فيها فضل كبير لأنهم يبيعون الرخيصة منها ببلاد الهند بمائة دينار دراهم وصرها من الذهب المغربي خمسة وعشرون ديناراً وربما باعوها بضعف ذلك وضعفه وضعفيه والجياذ منها تساوى خمسمائة دينار وأكثر من ذلك وأهل الهند لا يبتاعونها للجري والسبق لأنهم يلبسون في الحرب الدروع ويدرعون الخيل وإنما يبتغون قوة الخيل واتساع خطاها والخيل التي يبتغونها للسبق تجلب إليهم من

اليمن عمان وفارس وبيع الفرس منها بألف دينار إلى أربعة آلاف ولما سافر الأمير تلسكتمور عن هذه المدينة أقمت بعد ثلاثة أيام حتى جهز لي الأمير محمد نحواجه آلات سفرى .

وسافرت إلى مدينة الماجر وهي (بفتح الميم والفاء وجيم مفتوح معقود وراء) مدينة كبرى من احسن مدن الترك على نهر كبير وبها البساتين والفواكه الكثيرة نزلنا منها بزاوية الشيخ الصالح العابد المعمر محمد البطائحي من بطائح العراق وكان خليفة الشيخ احمد الرفاعي رضى الله عنه وفي زاويته نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم منهم المتزوج والعزب وعيشهم من الفتوح ولأهل تلك البلاد اعتقاد حسن في الفقراء وفي كل ليلة يأتون إلى الزاوية بالخبيل والبقر والغنم ويأتى السلطان والخواتين لزيارة الشيخ والتبرك به ويجزلون الاحسان ويعطون العطاء الكثير وخصوصا النساء فانهم يكثرون الصدقة ويتحرون افعال الخير وصلينا بمدينة الماجر صلاة الجمعة فلما قضيت الصلاة صعد الواعظ عز الدين المنبر وهو من فقهاء بخارى وفضلائها وله جماعة من الطلبة والقراء يقرؤن بين يديه ووعظ وذكر وامير المدينة حاضر وكراؤها فقام الشيخ محمد البطائحي فقال ان الفقيه الواعظ يريد السفر ونريد له زوادة ثم خلع فرجية مرعز كانت عليه وقال هذه منى إليه فكان الحاضرون بين من خلع ثوبه ومن اعطى فرسا ومن اعطى دراهم واجتمع له كثير من ذلك كله ورأيت بقيسارية هذه المدينة يهوديا سلم على وكلبنى بالعربي فسأله عن بلاده فذكر أنه من بلاد الأندلس وأنه قدم منها في البر ولم يسلك بحرا وأتى على طريق القسطنطينية العظمى وبلاد الروم وبلاد الجرجس وذكر ان عهده بالأندلس منذ أربعة أشهر واخبرني التجار المسافرين الذين لهم المعرفة بذلك بصحة مقاله ورأيت بهذه البلاد عجبا من تعظيم النساء عندهم وهن اعلى شأنا من الرجال فأما نساء الأمراء فكانت اول رؤيتي لهن عند خروجي من القرم رؤية الخاتون زوجة الأمير سلطية في عربة لها وكلمها بجملة بالملف الأزرق الطيب وطبقان البيت مفتوحة وأبوابه وبين يديها أربع جوار فانتات الحسن بديعات اللباس وخلفها جملة من العربات فيها جوار يتبعها ولما قربت من منزل الأمير نزلت عن العربة إلى الأرض ونزل معها نحو ثلاثين من الجوارى يرفعن اذيالها ولا ثوابها عرى تأخذ كل جارية بمروة ويرفعن الاذيال عن الأرض من كل جانب ومشيت كذلك مبهترة فلما وصلت إلى الأمير قام إليها وسلم عليها واجلسها إلى جانبه ودار بها جوارها وجاؤا بروايا القمر فصبت منه في قدح وجلست على ركبتيها قدام الأمير وناولته القدح فشرب ثم سقت أخاه وسقاها الأمير وحضر الطعام فأكلت معه

واعطاه كسوة وانصرفت وعلى هذا الترتيب نساء الأمراء وسنذكر نساء الملك فيما بعد
وأما نساء الباعة والسوقة فرأيتن واحداهن تكون في العربة والخيل تجرها وبين يديها
الثلاث والأربع من الجوارى يرفعن أذيالها وعلى رأسها البغطاق وهو أقروف مرصع
بالجوهر وفي أعلاه ريش الطاووس وتكون طيقان البيت مفتحة وهي بادية الوجه لأن
نساء الأتراك لا يحتجبن وتأتى أحداهن على هذا الترتيب ومعها عبيدها بالغنم واللبن فتبيعهم
من الناس بالسلع العطرية وربما كان مع المرأه منهن زوجها فيظنه من يراها بعض خدامها
ولا يكون عليه من الثياب إلا فروة من جلد الغنم وفي رأسه قلنسوة تناسب ذلك يسمونها
السكلا ويجهز نامن مدينة الماجر نقصد معسكر السلطان وكان على أربعة أيام من الماجر
بموضع يقال له بش دغ ومعنى بش عندهم خمسة وهو (بكسر الباء وشين معجم) ومعنى
دغ الجبل وهو (بفتح الدال المهمل وغين معجم) وهذه الجبال الخمسة عين ماء حار
يغتسل منها الأتراك ويزعمون إنه من اغتسل منها لم تصبه عاهة مرض وارتحلنا إلى موضع
المحلة فوصلناه أول يوم من رمضان فوجدنا المحلة قد حلت فعدنا إلى الموضع الذي
رحلنا منه لأن المحلة تنزل بالقرب منه فضربت يتي على تلك هنالك وركزت العلم أمام
البيت وجعلت الخيل والعربات وراء ذلك واقبلت المحلة وهم يسمونها الارد بضم الهمزة
فأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها فيها المساجد والأسواق ودخان المطبخ صاعد في الهواء
وهم يطبخون في حال رحيلهم والعربات تجرها الخيل بهم فاذا بلغوا المنزل انزلوا البيوت
عن العربات وجعلوها على الأرض وهي خفيفة الحمل وكذلك يصنعون بالمساجد
والخوانيت واجتاز بنا خواتين السلطان كل واحدة بناسها على حدة ولما اجتازت الرابعة
منهن وهي بنت الأمير عيسى بك وسنذكرها رأيت البيت بأعلى التل والعلم أمامه وهو
علامة الوارد فبعثت الفتيان والجوارى فسلموا على وبلغوا سلامها إلى وهي واقفة
تنظرهم فبعثت إليها هدية مع بعض أصحابي ومع معرف الأمير تسكتهمور فقبلتها تبركا
وأمرت أن أنزل في جوارها وانصرفت وأقبل السلطان فنزل في محله على حدة

(ذكر السلطان المعظم محمد أوزبك خان)

واسمه محمد أوزبك (بضم الهمز وواو وزاي مسكن وباء موحدة مفتوحة) ومعنى خان
عندهم السلطان وهذا السلطان عظيم المملكة شديد القوة كبير الشأن رفيع المكان قاهر
لأعداء الله أهل قسطنطينية العظمى مجتهد في جهادهم وبلادهم متسعة ومدنه عظيمة منها
التكفار والقرم والماجر وازاق وسرداق (سوداق) وخوارزم وحضرته السراوهو

أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء الدنيا وعظاؤها وهم مولانا أمير المؤمنين ظل الله في أرضه أمام الطائفة المنصورة الذين لا يزالون ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة أيد الله أمره وأعز نصره وسلطان مصر والشام وسلطان العراق السلطان أوزبك هذا وسلطان بلاد تركستان وماوراءالنهر وسلطان الهند وسلطان الصين ويكون هذا السلطان إذا سافر في محلة على حدة معه مماليك وأرباب دولته وتكون كل خاتون من خواتينه على حدة في محلتها وإذا أراد أن يكون عنده منهن بعث إليها يعلمها بذلك فتتهيأ له وله في محل قعوده وسفره وأموره ترتيب عجيب بديع ومن عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة في قبة تسمى قبة الذهب مزينه بديعة وهي من قضبان خشب مكسوة بصفايح الذهب وسطها سرير من خشب مكسوة بصفايح الفضة المذهبة وقوائمها فضة خالصة ورؤسها مرصعة بالجواهر ويقعد السلطان على السرير وعلى يمينه الخاتون طيطغلي وتليها الخاتون كيك وعلى يساره الخاتون وتليها الخاتون اردجى ويقف أسفل السرير على اليمين ولد السلطان تين بك وعن الشمال ولده الثانى جان بك وتجلس بين يديه ابنته إيت كججك وإذا أتت إحداهن قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير وأما طيطغلي وهي الماسكة واحظاهن عنده فإنه يستقبلها إلى باب القبة فيسلم عليها ويأخذ بيدها فإذا صعدت على السرير وجلست حينئذ يجلس السلطان وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب

ويأتى بعد ذلك كبار الأمراء فتنصب لهم كراسيهم عن اليمين والشمال وكل إنسان منهم إذا أتى يجلس السلطان يأتى معه غلام بكرسيه ويقف بين يدي السلطان أبناء الملوك من بنى عمه وأخوته وأقاربه ويقف مقابلتهم عند باب القبة أولاد الأمراء الكبار ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وعن شمال ثم يدخل الناس للسلام بالأمثال فالأمثال الثلاثة فيسلمون وينصرفون فيجلسون على بعد فإذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الماسكة من الخواتين ثم ينصرف سائرهن فيتبعها إلى محلتها فإذا دخلت إليها انصرفت كل واحدة إلى محلتها راحة عريتها ومع كل واحدة نحو خمسين جارية راكبات على الخيل وأمام العربات نحو عشرين من قواع النساء راكبات على الخيل فيما بين الفتيان والعربة وخلف الجميع نحو مائة مملوك من الصبيان وأمام الفتيان نحو مائة من المماليك الكبار وركباناً ومثلهم شاة بأيديهم القضاة والسيوف مشدودة على أرسالهم وهم بين الفرسان والفتيان وهكذا ترتيب كل خاتون منهن في انصرافها وبحيشتها وكان نزول من الجنة في جوار ولد السلطان جان بك الذى يقع ذكره فيما بعد وفي الغد من يوم وصولي دخلت إلى السلطان بعد صلاة العصر وقد جمع المشايخ والقضاة

والغفهاء والشرفاء والفقراء وقد صنع طعاماً كثيراً وأفطرننا بمحضره وتسكلم السيد الشريف نقيب الشرفاء ابن عبد الحميد والقاضي حمزة في شأنى بالخير وأشاروا على السلطان يا كرامى رهؤلاء الأتراك لا يعرفون انزال الوارد ولا إجراء النفقة وإنما يبعثون له الغنم والخيل للذبح وروايا القمز وتلك كرامتهم وبعد هذا بأيام صليت صلاة العصر مع السلطان فلما أردت الانصراف أمرنى بالقعود وجاؤا بالطعام من المشروبات كما يصنع من الدوقى ثم باللحوم المسلوقة من الغنم والخيل وفى تلك الليلة أتيت السلطان بطبق حلواء فجعل أصبعه عليه وجعله على فية ولم يزد على ذلك .

(ذكر الخواتين وترتيبهن)

وكل خاتون منهم تركب فى عربّة للبيت وللبيت الذى تكون فيه قبة من الفضة المعوّهة بالذهب أو من الخشب المرصع وتكون الخيل التى تجر عربتها مجلّلة بأثواب الحرير المذهب وخديم العربّة الذى يركب أحد الخيل فتى يدعى القشى والخاتون قاعدة فى عربتها وعن يمينها امرأة من القواعد تسمى أولو خاتون (بضم الهمزة واللام) ومعنى ذلك الوزيرة وعن شمالها امرأة من القواعد أيضاً تسمى كجك خاتون (بضم الكاف والجيم) ومعنى ذلك الحاجبة وبين يديها ست من الجوارى الصغار يقال لهن البنات فائقات الجمال متناهيات السكال ومن ورائها ثلثان منهن تستند لهن وعلى رأس الخاتون البنتطاق وهو مثل التاج الصغير مكلل بالجواهر وبأعلاها ريش للطواويس وعليها ثياب حرير مرصعة بالجواهر شبه المنوت (الملوطة) التى يلبسها الروم وعلى رأس الوزيرة والحاجبة مقنعة حرير مزركشة الخواشى بالذهب والجواهر وعلى رأس كل واحدة من البنات السكلاوهر شبه الأقروف وفى أعلاها دائرة ذهب مرصعة بالجواهر وریش الطواويس من فوقها وعلى كل واحدة ثوب من الحرير مذهب يسمى النخ ويكون بين يدي الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيان الروميين والهنديين وقد لبسوا ثياب الحرير المذهب المرصعة بالجواهر ويبد كل واحد منهم عمود ذهب أو فضة أو يكون من عود ملبس بهما وخلف عربّة الخاتون نحو مائة عربّة فى كل عربّة الثلاث والأربع من الجوارى السكبار والصغار وثيابهن الحرير وعلى رؤسهن السكلاو وخلف هذه العربات نحو ثلاثمائة عربّة تجرها الجمال والبقر وتحمل خزان الخاتون وأموالها وثيابها وأثاثها وطعامها ومع كل عربّة غلام موكل بهما تزوج بحارية من الجوارى التى ذكرناها فإن العادة عندهن أن لا يدخل بين الجوارى من الغلمان إلا من كان له يمتن زوجة وكل خاتون فهى على هذا الترتيب وإنه كرهن على الأفراد

﴿ ذكر الخاتون الكبرى ﴾

والخاتون الكبرى هي الملكة أولدى السلطان جان بك وتين بك وسند كرهما وليست أم ابنته إبت كججك وأما كانت الملكة قبل هذه واسم هذه الخاتون طيطغلي (بفتح الطاء المهملة الأولى واسكان الياء آخر الحروف وضم الطاء الثانية واسكان الغين المعجمة وكسر اللام وياء مد) وهي أحظى نساء هذا السلطان عنده وعند هايبيت أكثر إياليه ويعظمها الناس بسبب تعظيمه لها وإلا فهي أبخل الخواتين وحدثني من اعتمدته من العسافرين باخبار هذه الملكة أن السلطان يحبها للخاصية التي فيها وهي انه يجدها كل ليلة كأنها يسكر وذكر لي غيره انها من سلالة المرأة التي يذكران الملك زال عن سليمان عليه السلام بسببها ولما عاد اليه ملكه امر ان توضع بصحراء لاعمارة فيها فوضعت بصحراء قفجق وان رحم هذه الخاتون شبه الحلقة خلقة وكذلك كل من هو من نسل المرأة المذكورة ولم أر بصحراء قفجق ولا غيرها من اخبر انه رأى امرأة على هذه الصورة ولا سمع بها إلا هذه الخاتون اللهم إلا ان بعض أهل الصين اخبرني أن بالصين صنفا من نساءها على هذه الصورة ولا يقع بيدي ذلك ولا عرفت له حقيقة وفي غدا اجتماعي بالسلطان دخلت إلى هذه الخاتون وهي قاعدة فيما بين عشر من النساء القواعد كانهن خديمات لها وبين يديها نحو خمسون جارية صغارا يسمون البنات وبين ايديهن طيافير الذهب والفضة ملووة بحب الملوك وهن ينقيهن وبين يدي الخاتون صينية ذهب ملووة منه وهي تنقيه فسلما عليها وكان في جملة أصحابي قارئ يقرأ القرآن على طبقة المصريين بطريقة حسنة وصوت طيب فقرأ ثم أمرت أن يؤتى بالقمر فأتى به في أقداح خشب لطاف خفاف فاخذت القدر بيدها وناولتني إياه وتلك نهاية الكرامة عندهم ولم اكن شربت القمر قبلها ولكن لم يسكنني إلا قبوله وذقته ولا خير فيه ودفعته لأحد أصحابي وسألتني عن كثير من حال سفرنا فاجبتناها ثم انصرفنا عنها وكان ابتداءنا بها لأجل عظمتها عند الملك

﴿ ذكر الخاتون التي تلى الملكة ﴾

واسمها كيك خاتون (بفتح الكاف الأولى وكسر الباء الموحدة) ومعناها بالتركية النخالة وهي بذت الأهير نغلي (واسمه بنون وغين معجمة وطاء مهملة مفتوحات وياء مسكنة) وابوها حي مبتلي بعلة النقرس وقد رأيت في غد دخولنا على الملكة دخلنا على هذه الخاتون فوجدناها على مرتبة تقرأ في المصحف الكريم وبين يديها نحو عشر من النساء القواعد ونحو عشرين من البنات يطرزن ثيابا فسلما عليها وأحسننت في السلام والكلام وقرأقارثنا

فاستحسنتمو وأمرت بالقمر فاحضرونا ولتقى القدرح بيدها كمثل ما فعلته الملكة وانصرفنا عنها

(ذكر الخاتون الثالثة)

واسمها بيلون (بيا موحدة وآخر الحروف كلاهما منمتوح ولام مضموم وواو مدونون)
وهي بنت ملك القسطنطينية العظمى السلطان تسكفور ودخلنا على هذه الخاتون وهي
قاعدة على سرير مرصع قوائمه فضة وبين يديها نحو مائة جارية روميات وتركيات ونوبيات
منهن قائمات وقاعدات والفتيان على رأسها والحجاب بين يديها من رجال الروم فسألت
عن حالنا ومقدمنا وبعداً وطائنا وبكت ومسحت وجهها بمنديل كان بين يديها رفة منها
وشفقة وأمرت بالطعام فاحضروا كلنا بين يديها وهي تنظر إلينا ولمسا أردنا الانصراف
قالت لا تنقطعوا عنا وترددوا إلينا وطالبونا بحوائجكم وأظهرت مكارم الأخلاق وبعثت
في أثرنا طعام وخبز كثير وسمن وغنم ودراهم وكسوة جيدة وثلاثة من جياد الخيل وعشرة
من سائرها ومع هذه الخاتون كان سفرى إلى القسطنطينية العظمى كما نذكره بعد

(ذكر الخاتون الرابعة)

واسمها أردوجا (بضم الهمزة واسكان الراء وضم الدال المهمل وجيم وألف) وأردوا
باسانهم النحلة وسميت بذلك لولادتها في النحلة وهي بنت الأمير الكبير عيسى بك أمير
الالوس (بضم الهمز واللام) ومعناه أمير الأمراء وأدركته حيا وهو متزوج ببنت السلطان
إيت كججك وهذه الخاتون من أفضل الخواتين والطفهن شمائل واشفقهن وهي التي
بعثت إلى لما رأت يتي على النمل عند جواز النحلة كما قدمناه ودخلنا عليها فرأينا من حسن
خلقها وكرم نفسها ما لا مزيد عليه وأمرت بالطعام فأكلنا بين يديها ودعت بالقمر فشرب
أصحابنا وسألت عن حالنا فاجبتناها ودخلنا أيضا إلى أختها زوجة الأمير علي بن أرزق

(ذكر بنت السلطان المعظم أوزبك)

واسمها إيت كججك وإيت (بكسر الهمزة وياء مدوتاء مشددة وكججك بضم الكاف وضم
الجيمين) ومعنى اسمها الكلب الصغير فان إيت هو الكلب وكججك هو الصغير وقد قدمنا
ان الترك يسمون بالفال كما تفعل العرب وتوجهنا إلى هذه الخاتون بنت الملك وهي في محلة
منفردة على نحو ستة أميال من محلة والدها فأمرت بأحضار الفقهاء والقضاة والسيد الشريف
ابن عبد الحميد وجماعة الطلبة والمشايخ والفقهاء وحضر زوجها الأمير عيسى الذي بنته زوجة
السلطان فقعد معها على فراش واحد وهو معتل بالثقرس فلا يستطيع التصرف على قدميه
ولاركوب الفرس وإنما يركب العربية وإذا أراد الدخول على السلطان أنزل له خداه وادخلوه

إلى المجلس محمولا وعلى هذه الصورة رأيت أيضا الأمير نغطى وهو أبو الخاتون الثانية وهذه العلة فاشية في هؤلاء الأتراك ورأيت من هذه الخاتون بنت السلطان من المسكارم وحسن الأخلاق ما لم تره من سواها وأجزلت الاحسان وأفضلت جزاها الله خيرا

(ذكر ولدى السلطان)

وهما شقيقان وأمهما جميعا الملكة طيطغلى التى قدمنا ذكرها والا كبر منهما اسمه تين بك (بناء معلومة مكسورة وياه مدونون مفتوح) وبك معناه الامير وتين معناه الجسد فكان اسمه أمير الجسد واسم أخيه جان بك (بفتح الجيم وكسر النون) ومعنى جان الروح فكانه يسمى أمير الروح وكل واحد منهما له محلة على حدة وكان تين بك من أجمل خلق الله سورة وعهد له أبوه بالملك وكانت له الحظوة والتشريف عنده ولم يرد الله ذلك فإنه لما مات أبوه ولى يسيرا ثم قتل لأمور قبيحة جرت له وولى أخوه جان بك وهو خير منه وأفضل وكان السيد الشريف بن عبد الحميد هو الذى تولى تربية جان بك وأشار على هو والقاضى حمزة والامام بدر الدين القوامى والامام المقرئ حسام الدين البخارى وسراهم حين قدوى أن يكون نزولى بمحلة جان بك المذكور لفضله ففعلت ذلك

(ذكر سفرى إلى مدينة بلغار)

وكنيت سمعت بمدينة بلغار فأردت التوجه إليها لارى ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وقصر النهار أيضا فى عكس ذلك الفصل وكان بينها وبين محلة السلطان مسيرة عشر قطابت منه من يوصافى إليها فبعث معى من أوصافى إليها وردنى إليه ووصلتها فى رمضان فلما صلينا المغرب افطرننا وأذن بالعشاء فى أثناء إقطار نافصليتناها وصليتنا التراويح والشفع والوتر وطالع الفجر لثر ذلك وكذلك يقصر النهار بها فى فصل قصره أيضا وأقمت بها ثلاثا

(ذكر أرض الظلمة)

وكنيت أردت الدخول إلى أرض الظلمة والدخول إليها من بلغار وبينهما أربعون يوما ثم أضربت عن ذلك لعظم المؤنة فيه وقلة الجدوى والسفر إليها لا يكون إلا فى عجالات صغار تجرها كلاب كبار فان تلك المقازة فيها الجليد فلا يثبت قدم آدمى ولا حافر الدابة فيها والكلاب لها الاظفار فتثبت أقدامها فى الجليد ولا يدخلها إلا الاقوياء من التجار الذين يكون لاحدهم مائة عجلة أو نحوها موفرة بطعامه وشرابه وحطبها فانها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر والدليل بتلك الأرض هو السكب الذى قد سار فيها مرارا كثيرة وتذهب قيمته إلى ألف دينار ونحوها وتربط العربدة إلى عنقه ويقرن معه ثلاثة من السكاب ويكون

هو المقدم تتبعه سائر الكلاب بالعربات فاذا وقف وقفت وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ولا ينهره وإذا حضر الطعام اطعم الكلاب أولا قبل بني آدم وإلا غضب الكلب وفر وترك صاحبه للتلغ فإذا كملت للمسافرين بهذه القلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك وعادوا إلى منزلهم المعتاد فإذا كان من الغد عادوا لتنفق متاعهم فيجدون بازائهم من السمرور والسنجاب والقاقم فان أرضى صاحب المتاع ما وجدته ازاء متاعه أخذه وان لم يرضه تركه فيزيديونه ويبارفوا متاعهم أعنى أهل الظلمة وتركوا متاع التجار وهكذا بيعهم وشراؤهم ولا يعلم الذين يوجهون إلى هنالك من يبايعهم ويشاريهم أمن الجن هو أم الانس ولا يرون أحدا والقاقم هو أحسن أنواع الفراء وتساوى الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار وصرفها من ذهبنا مائتان وخمسون وهي شديدة البياض من جلد حيوان صغير في طول الشبر وذنبه طويل يتركونه في الفروة على حاله والسمرودون ذلك تساوى الفروة منه أربع مائة دينار فنادونها ومن خاصية هذه الجلود أنه لا يدخلها القمل وأمرأ الصين وكبارها يجعلون منه الجلد الواحد متصلا بفرواتهم عند العنق وكذلك تجار فارس والعراقيون وعدت من مدينة بلخاز مع الأمير الذي بعثه السلطان في صحبتي فوجدت محلة السلطان على الموضع المعروف ببش دغ وذلك في الثامن والعشرين من رمضان وحضرت معه صلاة العيد وصادف يوم العيد يوم الجمعة

(ذكر ترتيبهم في العيد)

ولما كان صباح يوم العيد ركب السلطان في عساكره العظيمة وركبت كل خاتون عربتها ومعها عساكرها وركبت بنت السلطان والتاج على رأسها اذهى الملكة على الحقيقة ورأت الملك من أمها وركب اولاد السلطان كل واحد في عسكره وكان قد قدم لحضور العيد قاضي القضاة شهاب الدين السايلى ومعه جماعة من الفقهاء والمشايخ فركبوا وركب القاضي حمزة والإمام بدر الدين القوامى الشريف ابن عبد الحميد وكان ركوب هؤلاء الفقهاء مع تين بك ولى عهد السلطان ومعهم الاطبال والاعلام فصلى بهم القاضي شهاب الدين وخطب أحسن خطبة وركب السلطان وانتهى إلى برج خشب يسمى عندهم الكشك فجلس فيه ومعه خواتينه ونصب برج ثان دونه فجلس فيه ولى عهد وابنته صاحبة التاج ونصب برجان دونهما عن يمينه وشماله فيهما أبناء السلطان واقاربهم ونصبت السكراسى للامراء وأبناء الملوك وتسمى الصندليات عن يمين البرج وشماله فجلس كل واحد على كرسيه ثم نصبت طبالات للرعى لكل أمير طومان طبالة مختصة به

وأمر طومان عندهم هو الذي يركب له عشرة آلاف فكان الحاضرون من أمراء طومان سبعة عشر يقودون مائة وسبعين ألفاً وعسكره أكثر من ذلك ونصب لكل أمير شبه منبر فقام عليه وأصحابه يلعبون بين يديه فكانوا على ذلك ساعة ثم أتى بالخلع فخلعت على كل أمير خلعة وعند ما يلبسها يأتي إلى أسفل برج السلطان فيخدم وخدمته أن يمس الأرض بركبته اليمنى ويمد رجله تحتها والآخرى قائمة ثم يؤتى بفرس مسرج ملجهم فيرفع حافره ويقبل فيه الأمير ويقوده بنفسه إلى كرسيه وهناك يرتبه ويقف مع عسكره ويفعل هذا الفعل مع كل أمير منهم

ثم ينزل السلطان على البرج ويركب الفرس وعن يمينه ابنه ولى العهد وتليه بنته الماسكة إيت كججك وعن يساره ابنه الثاني وبين يديه الخواتين الأربع في عربات مكسوة بأثواب الحرير المذهب والخيل التي تجرها مجللة بالحرير المذهب وينزل جميع الأمراء الكبار والصغار وأبناء الملوك والوزراء والحجاب وأرباب الدولة فيعيشون بين يدي السلطان على أقدامهم إلى أن يصل إلى الوطاق والوطاق (بكسر الواو) وهو إفراج وقد نصبت هنالك باركة (باركاه) عظيمة والباركة عندهم بيت عظيم له أربعة أعمدة من الخشب مكسوة بصفائح الفضة المموهة بالذهب وفي أعلى كل عمود جامور من الفضة المذهبة له بريق وشعاع وتظهر هذه الباركة على البعد كأنها نذية ويوضع عن يمينها ويسارها سقائف من القطن والسكرتان ويفرش ذلك كله بفرش الحرير وينصب في وسط الباركة السرير الأعظم وهم يسمونه التخت وهو من خشب مرصع وأعواده مكسوة بصفائح فضة مذهبة وقرأته من الفضة الخاصة المموهة وفوقه فرش عظيم وفي وسط هذا السرير الأعظم مرتبة يجلس السلطان والخاتون الكبرى وعن يمينه مرتبة جلست بها بنته إيت كججك ومعهما الخاتون [أردواجا] وعن يساره مرتبة جلست بها الخاتون بيلون ومعهما الخاتون كيك ونصب عن يمين السرير كرسي قعد عليه تين بك ولد السلطان ونصب عن شماله كرسي قعد عليه جان بك ولده الثاني ونصبت كراسي عن اليمين والشمال جلوس فوقها أبناء الملوك الكبار ثم الأمراء الصغار مثل أمراء هزارة وهم الذين يقودون ألفاً ثم أتى بالطعام على موائد الذهب والفضة وكل مائدة يحمها أربعة رجال وأكثر من ذلك وطعامهم لحوم الخيل والغنم مسلوقة أو توضع بين يدي كل أمير مائدة ويأتي الباورجي وهو مقطع اللحم وعليه ثياب حرير وقد ربط عليها فوطه حرير وفي حزامه جملة سكاكين في أغصانها ويكون لكل أمير باورجي فإذا قدمت المائدة قعد بين يدي أميره ويؤتى بصفيحة صغيرة من الذهب أو الفضة فيها ملح محلول بالماء فيقطع الباورجي اللحم قطعاً

صغاراً ولهم في ذلك صنعة في قطع اللحم مختلطاً بالعظم فانهم لا يأكلون منه إلا ما اختلط
 بالعظم ثم يؤتى بأواني الذهب والفضة للشرب وأكثروا شربهم فبيد العسل وهم حنفية
 المذهب يحملون شرب النبيذ فإذا أراد السلطان أن يشرب أخذت بنته القدح بيدها وخدمت
 برجلها ثم ناولته القدح فشرب ثم تأخذ قدحاً آخر فتناوله للاختاتون الكبريات فتشرب منه
 ثم تناول لسائر الخواتين على ترتيبهن ثم ولى العهد القدح ويخدم ويناوله أباه فيشرب
 ثم الخواتين ثم اخته ويخدم جميعهن ثم يقوم الولد الثاني فيأخذ القدح ويسقي أخاه
 ويخدم له ثم يقوم الأمراء الكبار فيسقي كل واحد منهم ولى العهد ويخدم له ثم يقوم
 أبناء الملوك ويغنون أثناء ذلك بالمواليه وكانت قد نصبت قبه كبيرة أيضاً إزاء المسجد
 للقاضي والخطيب والشريف وسائر الفقهاء والمشايخ وأنا معهم فاوتينا بموائد الذهب
 والفضة يحمل كل واحد أربعة من كبار الأتراك ولا يتصرف في ذلك اليوم بين يدي
 السلطان إلا الكبار فيأمرهم برفع ما أراد من الموائد إلى من أراد فمكان من الفقهاء من
 أكل ومنهم من تورع عن الأكل في موائد الفضة والذهب ورأيت مدالبصر عن اليمين
 والشمال من العربات عليها روايا القمح فأمر السلطان بتفريقها على الناس فأتوا إلى بعرة
 منها فأعطيتها لجيرانى من الأتراك ثم أتينا المسجد ننظر صلاة الجمعة فأبطأ السلطان فمن
 قائل أنه لا يأتي لأن السكر قد غلب عليه ومن قائل أنه لا يترك الجمعة فلما كان بعد تمكن
 الوقت أتى وهو بتمايل فسلم على السيد الشريف وتبسم له وكان يخاطبه بأطأ وهو الأب
 بلسان التركية ثم صلينا الجمعة وانصرف الناس إلى منازلهم وانصرف السلطان إلى الباركة
 فبقي على حاله إلى صلاة العصر ثم انصرف الناس أجمعون وبقي مع الملك تلك الليلة
 خواتينه وبناته

ثم كان رحيلنا مع السلطان والمحلة لما انقضوا العيد فوصلنا إلى مدينة الحاج ترخان
 ومعنى ترخان عندهم الموضع المحرر من المغارم (وهو بفتح المثناة وسكون الراء بفتح
 الخاء المعجم وآخره نون) والمنسوب إليه هذه المدينة هو حاج من الصالحين تركى نزل
 بموضعها وحضر له السلطان ذلك الموضع فصار قرية عظمت وتمدنت وهى من أحسن
 المدن عظيمة الأسواق مبنية على نهر أتل وهو من أنهار الدنيا الكبار وهناك يقيم السلطان
 حتى يشتد البرد ويجمد هذا النهر وتجمد المياه المتصلة به ثم يأمر أهل تلك البلاد فيأتون
 بالآلاف من أحمال التبن فيجعلونها على الجليد المنعقد فوق النهر والتين هنالك لأننا كله
 الدواب لأنه يضرها وكذلك بلاد الهند وإنما أكلمها الخشيش الأخضر لحسب البلاد

ويسافرون بأمر بات فوق هذا النهر والمياه المتصلة به ثلاث مراحل وربما جازت القوافل فوقه مع آخر فصل الشتاء فيغرقون ويهلكون ولما وصلنا مدينة الحاج ترخان رغبت الخاتون بياول ابنة ملك الروم من السلطان أن يأذن لها في زيارة أبيها لتضع حملها عنده وتعود إليه فأذن لها ورغبت منه أن يأذن لي في التوجه صحبتها لمشاهدة القسطنطينية العظمى فمنعني خوفا على فلاطفته وقلت له إنما ادخالها في حرمتك وجوارك فلا اخاف من احد فأذن لي وودعناه ووصلني بألف وخمسمائة دينار وخلعة وأفرس كثيرة وأعطيني كل خاتون منهن سبائك الفضة وهم يسمونها مصوم (بفتح الصاد المهملة) واحدا منها صومة واعطت بنته اكثر منهن وكسنتني واركبتني واجتمع لي من الخيل والثياب وفروات الساجاب والسمور جملة (ذكر سفرى إلى القسطنطينية)

وسافرنا في العاشر من شوال في صحبة الخاتون بيلون وتحت حرمتها ورحل السلطان في تشييعها مرحلة ورجع هو والمالكة وولى عهده وسافر سائر الخواتين في صحبتها مرحلة ثمانية ثم رجعت وسافر صحبتها الأمير بيدره في خمسة آلاف من عسكره وكان عسكر الخاتون نحو خمسمائة فارس منهم خدامها من المماليك والروم نحو مائتين والباقيون من الترك وكان معها من الجوارى نحو مائتين وأكثرهن روميات وكان لها من العربات نحو اربعمائه عربة ونحو ألفي فرس لجرها وللكوب ونحو ثلثمائة من البقر ومائتين من الجمال لجرها وكان معها من الفتيان الروميين عشرة ومن الهندين مثلهم وقائدهم الأكبر يسمى بسنبل الهندي وقائد الروميين ويسمى بميخائيل ويقول الاترك او او هو من الشجعان الكبار وتركنا أكثر جوارىها وأثقالها بمحلة السلطان إذ كانت قد توجهت برسم الزيارة ووضع اولحل

وتوجهنا إلى مدينة اكلت وهي (بضم الهمزة وفتح الكاف الاولى) مدينة متوسطة حسنة العمارة كثير الخوات شديدة البرد وبينهما وبين السراخضرة السلطان مسيرة عشر وعلى يوم من هذه المدينة جبال الروس وهم نصارى شقر الشعور زرق العميون قباج الصور اهل غدر وعندهم معادن الفضة ومن بلادهم يؤتى بالصوم وهي سبائك الفضة التي بها يباع ويشترى في هذه البلاد ووزن الصومة منها خمس أوقى

ثم وصلنا بعد عشر من هذه المدينة سرادق (وضبط اسمها بضم السين المهملة وسكون الراء وفتح الدال المهملة وآخره قاف) وهي من مدن دشت قفجق على ساحل البحر ومرساها من اعظم المراسي واحسنها ومخارجها البساتين والمياه وينزلها الترك وطائفة من الروم تحت ذمتهم وهم أهل الصنائع وأكثر بيوتها خشب وكانت هذه المدينة

كبيرة فخر معظمها بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك وكانت الغلبة للروم فانصرف للترك أصحابهم وقتلوا الروم شرقتة ونفوا أكثرهم وبقى بعضهم تحت الذمة إلى الآن وكانت الضيافة تحمل إلى الخاتون في كل منزل من تلك البلاد من الخيل والغنم والبقر والدوق والقمر وألبان البقر والغنم والسفر في هذه البلاد مضحى ومعشى وكل أمير بتلك البلاد يصحب الخاتون بعساكره إلى آخر حد بلاده تعظيماً لها لا خوفاً عليها لأن تلك البلاد آمنة ثم وصلنا إلى البلدة المعروفة باسم بابا سلطوق وبايعناهم بمعناه عند البربر سواء إلا أنهم يفتخمون الباء وسلطوق (بفتح السين المهملة واسكان اللام وضم الطاء المهملة وآخره قاف) ويذكرون أن سلطوق هذا كان مكاشفاً لكان يذكرون عنه أشياء ينكرها الشرع وهذه البلاد آخر بلاد الأتراك بينها وبين أول عمالة الروم ثمانية عشر يوماً في برية غير معمورة منها ثمانية أيام لا ماء بها ينزودها الماء ويحمل في الروايا والقرب على العربات وكان دخولنا إليها في أيام البرد فلم نحتاج إلى كثير من الماء والأتراك يرفعون الألبان في القرب ويخطونها بالدوق المطبوخ ويشربونها فلا يعطشون واخذنا من هذه البلدة في الاستعداد للبرية واحتججت إلى زيارة أفراس فأتيته الخاتون فأعلمتها بذلك وكنت أسلم عليها صباحاً ومساءً ومتى انتهت ضيافته تبعته إلى بالفرسين والثلاثة وبالمغنم فكنت أترك الخيل لأذهبها وكان من معي من الغلمان والخدم يأكلون مع أصحابنا الأتراك فاجتمع لي نحو خمسين فرساً وامرت إلى الخاتون بخمسة عشر فرساً وامرت وكيلاًها ساروجة الرومي أن يختارها سماً ناماً من خيل المطبخ وقالت لا تخف فإن احتججت إلى غيرها زدناك ودخلنا البرية في منتصف ذي القعدة فكان سيرنا من يوم فارقتنا السلطان إلى أول البرية تسعة عشر يوماً واقامتنا خمسة ورحلتنا من هذه البرية ثمانية عشر يوماً مضحى ومعشى ومارينا إلّا خيراً والحمد لله

ثم وصلنا بعد ذلك إلى حصن مهتولى وهو أول عمالة الروم (وضبط اسمه بفتح الميم وسكون الهاء وضم التاء المعلوة وواو مدولام مكسور وياء) وكانت الروم قد سمعت بقدوم هذه الخاتون على بلادها فوصلنا إلى هذا الحصن كغالي نقوله الرومي في عسكر عظيم وضيافة عظيمة وجاءت الخواتين والدايات من دار أبيها ملك القسطنطينية وبين ملك القسطنطينية وبين مهتولى والقسطنطينية مسيرة اثنين وعشرين يوماً منها ستة عشر يوماً إلى الخليج وستة منه إلى القسطنطينية ولا يسافر من هذا الحصن إلّا بالخيل والبغال وترك العربات به لأجل الوعر والجبال وجاء كغالي المذكور ببغال كثيرة وبعثت إلى الخاتون ستة منها وأوصت أمير ذلك الحصن بمن تركته من أصحابي وغلمان مع العربات والأثقال فأمرهم بدار ورجع الأمير ببيرة بعساكرهم لم يسافر مع الخاتون إلّا ناسها

وتركت مسجدها بهذا الحصن وارتفع حكم الاذان وكان يؤتى اليها بالخور في الضيافة فتشربها وبالخنازير وأخبرني بعض خواصها أنها اكلتها ولم يبق معها من يصلي الا بعض الانراك كان يصلي معنا وتغيرت البراطن لدخولنا في بلاد الكفر ولكن الخاتون أوسيت الامير كفالى باكرامى ولقد ضرب مرة بعض مما ليكملا ضحكك من صلاتنا ثم وصلنا حصن مسلمة بن عبد الملك وهو بسفوح جبل على نهر زخار يقال له اصطقيلى ولم يبق من هذا الحصن إلا آثاره وبخارجه قرية كبيرة ثم سرنا يومين ووصلنا الى الخليج وعلى ساحله قرية كبيرة فوجدنا فيه المد فاقمنا حتى كان الجزر وخضناه وعرضه نحو ميادين ومشينا اربعة أميال فى رمال ووصلنا الخليج الثانى فخضناه وعرضه نحو ثلاثة أميال ثم مشينا نحو ميادين فى حجارة ورمل ووصلنا الخليج الثالث وقد ابتدأ المد فتبعنا فيه وعرضه ميل واحد فعرض الخليج كله مائىة ويا بسة اثناعشر ميلا وتصير ماء كلها فى أيام المطر فلا تخاض إلا فى القوارب

وعلى ساحل هذا الخليج الثالث مدينة الفتيكة (واسمها بفاء مفتوحة ونون وياء مد وكاف مفتوح) وهى صغيرة لكنهما حسنة مائة وكنائسها وديارها حسان والانهار تخرقها والبساتين تحفها ويدخر بها العنب والاجاص والتفاح والسفرجل من السنة الى الاخرى واقمنا بهذه المدينة ثلاثا والخاتون فى قصر لا يبيها هنالك ثم قدم اخوها شقيقها اسمه كفالى قراس فى خمسة آلاف فارس شاكين السلاح ولما ارادوا لقاء الخاتون ركب اخوها المذكور فرسا أشمت وابس ثيابا بيضاء وجعل على رأسه مظلا مكللا بالجواهر وجعل عن يمينه خمسة من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم لابسين البياض أيضا وعليهم مظلات مزركشة بالذهب وجعل بين يديه مائة من المشائين ومائة فارس قد أسبغوا الدروع على أنفسهم وخيلهم وكل واحد منهم يقود فرسا مسرجا مدرعا عليه شبكة فارس من البيضة المجوهرة والدروع والترکش والقوس والسيف وبيده رمح فى طرف رأسه راية وأكثر تلك الرماح مكسوة بصفائح الذهب والفضة وتلك الخيل المقودة هى مراكب ابن السلطان وقسم فرسانه على افوج كل فوج فيه مائتا فارس لهم امير قد قدم أمامه عشرة من الفرسان شاكين فى السلاح وكل واحد منهم يقود فرسا وخلفه عشرة من العلامات ملونة بايد عشرة من الفرسان وعشرة اطيال يتقلدها عشرة من الفرسان ومهم ستة يضربون الابواق والانفار والصرنايات وهى الغيطات وركبت الخاتون فى مما ليكها وجوارها وفتيانها وخدامها وهم نحو خمسمائة عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذهب المرصعة وعلى الخاتون حلة يقال لها النخ ويقال لها أيضا النسيج مرصعة بالجواهر وعلى

رأسها تاج مرصع وفرسها مجلل حرير مزركش بالذهب وفي يده ورجليه خلاخل
 الذهب وفي عنقه قلادة مرصعة وعظم السرج مكسو ذهباً مكلل جوهراً وكان التقاؤهما في
 بسيط من الأرض على نحو ميل من البلد وترجل لها أخوها لأنه أصغر سناً منها وقبل ركابها
 وقبلت رأسه وترجل الأمراء وأولاد الملوك وقبلوا جميعاً ركابها وانصرفت مع
 أخيها وفي غد ذلك اليوم وصلنا إلى مدينة كبيرة على ساحل البحر لا تثبت الآن اسمها
 ذات أنها وأشجار نزلنا بخارجها ووصل أخو الخاتون ولي العهد في ترتيب عظيم وعسكر
 ضخم من عشرة آلاف مدرع وعلى رأسه تاج وعن يمينه نحر عشرين من أبناء الملوك وعن
 يساره مشاهيرهم وقد رتب فرسانه على ترتيب أخيه سواء إلا أن الحفل أعظم والجمع أكثر
 وتلاقت معه اخته في مثل زيها الأول وترجل جميعاً وأوقى بخيلاء حرير فدخلا فيه فلا
 أعلم كيفية سلامها ونزلنا على عشرة أميال من القسطنطينية فلما كان بالغد خرج أهلهم من رجال
 ونساء وصبيان ركباناً ومشاة في أحسن زى واجمل لباس وضربت عند الصباح الأهل بال
 والابواق والانفار وركبت العساكر وخرج السلطان وزوجته أم هذه الخاتون وأرباب
 الدولة والخواص وعلى رأس الملك رواق يحمله جملة من الفرسان ورجال بأيديهم عصى
 طوال في أعلى كل عصى شبه كرة من جلد يرفعون بها الراوق وفي وسط الراوق مثل القبة
 يرفعها الفرسان بالعصى ولما أقبل السلطان اختلطت العساكر وكثر العجاج ولم أقدر
 على الدخول فيما بينهم فلزمت المقال الخاتون وأصحابها خوفاً على نفسى وذكري أنها لما قربت
 من أبويها ترجلت الأرض بين أيديهما ثم قبلت حافري فرسيهما وفعل كبار أصحابها
 مثل فعلها في ذلك وكان دخولنا عند الزوال أو بعده إلى القسطنطينية العظمى وقد ضربوا
 نواقيسهم حتى ارتجت الآفاق لاختلاط أصواتها ولما وصلنا الباب من أبواب قصر
 الملك وجدنا به مائة رجل معهم قائد لهم فوق دكانه وسمعتهم يقولون سرا كنوا سرا كنوا
 ومعناه المسلمون ومنعونا من الدخول فقال لهم أصحاب الخاتون انهم من جهمنا فقالوا
 لا يدخلون إلا بأذن فاقمنا بالباب وذهب بعض أصحاب الخاتون فبعث من أعليها بذلك
 وهى بين يدي والدها فذكرت له شأننا فامر بدخولنا وعين لنا داراً بمقربة من دار
 الخاتون وكتب لنا أمراً بأن لا نعترض حيث نذهب من المدينة ونودى بذلك في
 الأسواق واقمنا بالدار ثلاثاً فبعث إلينا للضيافة من الدقيق والخبز والغنى
 والدجاج والسمين والفاكهة والحسوت والدرهم والفرش وفي اليوم الرابع
 دخلنا على السلطان

(ذكر سلطان القسطنطينية)

واسمه تكفور (بفتح التاء المثناة وسكون الكاف وضم الفاء ووار ووراء) ابن السلطان جرجيس وأبوه السلطان جرجيس بقييد الحياة لكنه تزهد وترهب وانقطع للعبادة في السكنائس وترك الملك لولده وسنذكره في اليوم الرابع من وصولنا إلى القسطنطينية بعثت إلى الخاتون الفتى سنبل الهندى فأخذ بيدي وأدخلني إلى القصر فجزنا أربعة أبواب في كل باب سقائف بها رجال وأسلحتهم وقادهم على دكانة مغروشة فلما وصلنا إلى الباب الخامس تركني الفتى سنبل ودخل ثم أتى ومعه أربعة من الفتيان الروميين ففتشوني لئلا يكون معي سكين وقال لي القائد تلك عادة لهم لا بد من تفتيش كل من يدخل على الملك من خاص أو عام غريب أو بلدى وكذلك الفعل بأرض الهند ثم لما فتشوني قام الموكل بالباب فأخذ بيدي وفتح الباب وأحاط بي أربعة من الرجال أمسك اثنان بكفي واثنان من ورائي فدخلوا بي إلى مشور كبير حيطانه بالفسيفاء قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد وفي وسطه ساقية ماء ومن بجهتيها الأشجار والناس واقفون يمينا ويسارا سكوتا لا يتكلم أحد منهم وفي وسط المشور ثلاثة رجال وقوف أسلني أو ائلك الأربعة إليهم فامسكوا بأيدي كما فعل الآخرون وأشار إليهم رجل فتقدموا بي وكان أحدهم يهوديا فقال لي بالعربي لا تخف فهكذا عادتهم أن يفعلوا بالوارد وأنا الترجماني وأصلي من بلاد الشام فسأله كيف أسلم فقال قل السلام عليكم ثم وصلت إلى قبة عظيمة والسلطان على سريره وزوجته أم هذه الخاتون بين يديه وأسفل السرير الخاتون وأخوتها وعن يمينه ستة رجال وعن يساره أربعة وكلمهم بالسلام فأشار إلي قبل السلام والوصول إليه بالجلوس هنيهة ليسكن روعى ففعلت ذلك ثم وصلت إليه فسلمت عليه وأشار إلى أن أجلس فلم أفعل وسألني عن بيت المقدس وعن الصخرة المقدسة وعن القمامة وعن مهد عيسى وعن بيت لحم وعن مدينة الخليل عليه السلام ثم عن دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم فاجبته عن ذلك كله واليهودى يترجم بينى وبينه فأعجبه كلامى وقال لا ولاده أكرموا هذا الرجل وامنوه ثم خلع على خلعة وأمر لي بفرس مسرج ملجم ومظلة من التي يجعلها الملك فوق رأسه وهي علامة الأمان وطابت منه أن يعين من يركب معي بالمدينة في كل يوم حتى أشاهد عجائبها وغرائبها وأذكرها في بلادى فعين لي ذلك ومن العوائد عندهم أن الذى يلبس خلعة الملك ويركب فرسه يطاف به في أسواق المدينة بالأبواق والأنصار والأطبال ليراه الناس وأكثر ما يفعل ذلك بالأتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أوزبك لئلا يؤذون فطافوا بي في الأسواق .

(ذكر المدينة)

وهي متناهية في الكبر منقسمة بقسمين بينهما نهر عظيم المد والجزر على شكل وادي سلا من بلاد المغرب وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية فخربت وهو الآن يعبر في القوارب واسم هذا النهر أبسمى (بفتح الهمزة واسكان الباء الموحدة وضم السين المهمل وكسر الميم وياء مد) وأحد القسمين من المدينة يسمى اصطنبول (بفتح الهمزة واسكان الصاد وفتح الطاء المهملتين وسكون التون وضم الباء الموحدة وواو مدولام) وهو بالعدوة الشرقية من النهر وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته وسائر الناس وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصفاح متسعة وأهل كل صناعة على حدة لا تشاركها سواهم وعلى كل سوق أبواب تسد عليه بالليل وأكثر الصناع والباعة النساء والمدينة في سفح جبل داخل في البحر نحو تسعة أميال وعرضه مثل ذلك أو أكثر وفي أعلاه قلعة صغيرة وقصر السلطان والسور يحيط بهذا الجبل وهو مانع لا سبيل لاحد اليه من جهة البحر وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامرة والكنيسة العظمى هي في وسط هذا القسم من المدينة وأما القسم الثاني منها فيسمى الخلطة (بعين معجمة ولام وطاء مهمل مفتوحات) وهو بالعدوة الغربية من النهر شبيه برباط الفتح في قرية من النهر وهذا القسم خاص بنصارى الافرنج يسكنونه وهم أصناف فمنهم الجنويون والبنادقة وأهل رومية وأهل افرانسة وحكمهم إلى ملك القسطنطينية يقدم عليهم منهم من يرتضونه ويسمونه القمص وعليهم وظيفة في كل عام لملك القسطنطينية وربما استعصوا عليه في حاريمهم حتى يصلح بينهم البابا وجميعهم أهل تجارة ومرسأهم من أعظم المراسي رأيت به نحو مائة جفن من القراق وسواها من السكار وأما الصغار فلا تحصى كثرة وأسواق هذا القسم حسنة إلا أن الأقدار غالبية عليها ويشقها نهر صغير قدر نجس وكنائسهم لا خير فيها .

(ذكر الكنيسة العظمى)

ولما نذكر خارجها وأما داخلها فلم أشاهده وهي تسمى عندهم اياصوفيا (بفتح الهمزة والياء آخر الحروف والفاء وصاد مضموم وواو مد وفاء مكسورة وياء كالأولى والفاء) ويذكر أنها من بناء آصف بن برخياء وهو ابن خالة سليمان عليه السلام وهي من أعظم كنائس الروم وعليها سور يطيف بها فكانها مدينة وأبوابها ثلاثة عشر بابا ولها حرم هو نحو ميل عليه باب كبير ولا يمنع احد من دخوله وقد دخلته مع والد الملك الذي يقع ذكره وهو شبه مشور مسطح بالرخام وتشقه ساقية تخرج من الكنيسة لها حائطان مرتفعان

نحو زراع مصنوعان بالرخام المجزع المنقوش بأحسن صنعة والأشجار منتظمة عن جهتي الساقية ومن باب الكنيسة إلى باب هذا المشور معرش من الخشب مرتفع عليه دوالي العنب وفي أسفله الياسمين والرياحين وخارج باب هذا المشور قبة خشب كبيرة فيها طبلات خشب يجلس عليها خدام ذلك الباب وعن يمين القبة مساطب وحوانيت أكثرها من الخشب يجلس بها قضائهم وكتاب دواوينهم وفي وسط تلك الحوانيت قبة خشب يصعد إليها على درج خشب وفيها كرسي كبير مطبق بالملف يجلس فوقه قاضيتهم وسندكره وعن يسار القبة التي على باب هذا المشور سوق العطارين والساقية التي ذكرناها تنقسم قسمين أحدهما يمر بسوق العطارين والآخر يمر بالسوق حيث القضاة والكتاب وعلى باب الكنيسة سقائف يجلس بها خدامها الذين يقومون طرقها ويوقدون سرجها ويغلقون أبوابها ولا يدعون أحدا بداخلها حتى يسجد للصليب الأعظم عندهم الذي يزعمون أنه بقية من الخشبة التي صلب عليها شبيهه عيسى عليه السلام وهو على باب الكنيسة بجعل في جمعية ذهب طولها نحو عشرة أذرع وقد عرضوا عليها جمعة ذهب مثلها حتى صارت صليبها وهذا الباب مصفح بصفائح الفضة والذهب وحلقته من الذهب الخالص وذكر لي أن عدد من بهذه الكنيسة من الرهبان والقسيسين ينتهي إلى آلاف وإن بعضهم من ذرية الخواريين وإن بداخلها كنيسة مختصة بالنساء فيها من الأبنكار المنقطعات للعبادة أزيد من ألف وأما القواعد من النساء فأكثر من ذلك كله ومن عادة الملك وأرباب دولته وسائر الناس أن يؤتوا كل يوم صباحا إلى زيارة هذه الكنيسة ويأتى إليها البابا مرة في السنة وإذا كان على مسيرة أربع من البلد يخرج الملك إلى لقائه ويترجل له وعند دخول المدينة يمشى بين يديه على قدميه ويأتيه صباحا ومساء للسلام طول مقامه بالقسطنطينية حتى ينصرف .

(ذكر المانستارات بالقسطنطينية)

والمانستار على مثل لفظ المارستان إلا أن نونه متقدمة وراه متأخرة وهو عندهم شبه الزاوية عند المسلمين وهذه المانستارات بها كثيرة فمنها مانستار عمره الملك جرجيس والدملك القسطنطينية وسندكره وهو بخارج اصطنبول مقابل الغلطة ومنها مانستاران خارج الكنيسة العظمى عن يمين الداخل إليها وهما في داخل بستان يشقهما نهر ماء واحد للرجال والآخر للنساء وفي كل واحد منهما كنيسة ويدور بهما البيوت للمتعبدين والمتعبدات وقد حبس على كل واحد منهما أحباس لكسوة المتعبدين ونفقتهم بنائها أحد الملوك ومنها مانستار أن عن يسار الداخل إلى الكنيسة العظمى على مثل هذين الآخرين ويطيف

بها بيروت وأحدهما يسكنه العميان والثاني يسكنه الشيوخ الذين لا يستطيعون الخدمة ممن باغ الستين أو نحوها ولكل واحد منهم كسوته ونفقته من أوقاف معينة لذلك رفي داخل كل مانستار منها دويرة لتعبد الملك الذي بناه وأكثر هؤلاء الملوك إذا بلغ الستين أو السبعين بنى مانستار أو لبس المسوح وهي ثياب الشعر وقلد ولده الملك واشتغل بالعبادة حتى يموت وهم يحتفلون في بناء هذه المانستارات ويعملونها بالرخام والفسيفساء وهي كثيرة بهذه المدينة ودخلت مع الرومي الذي عينه الملك للركوب، معي إلى مانستار يشقه نهر وفيه كنيسة فيها نحو خمسمائة بكر عليمين المسرح ورؤسهم مخلوقة فيها قلانيس اللبد ولهن جمال فائق وعلينهن أثر العبادة وقد قعد صبي على منبر يقرأ لهن الانجيل بصوت لم أسمع قط أحسن منه وحوله ثمانية من الصبيان على منابر ومعهم قسيسهم فلما قرأ هذا الصبي قرأ صبي آخر وقال لي الرومي أن هؤلاء البنات من بنات الملوك وهن أنفسهن لخدمة هذه الكنيسة وكذلك الصبيان القراء ولهم كنيسة أخرى خارج تلك الكنيسة ودخلت أيضا إلى كنيسة في بستان فوجدنا بها نحو خمسمائة بكر أو أزيد وصبي يقرأ لهن على منبر وجماعة صبيان معه على منابر مثل الأولين فقال لي الرومي هؤلاء بنات الوزراء والأمراء يتعبدن بهذه الكنيسة ودخلت إلى كنائس فيها أبكار من وجوه أهل البلد وإلى كنائس فيها العجائز والقواعد من النساء وإلى كنائس فيها الرهبان يكون في الكنيسة منها مائة رجل أو أكثر وأقل وأكثر هذه المدينة رهبان ومتعبدون وقسيسون وكنائسها لا تحصى كثرة وأهل المدينة من جندي وغيره صغير وكبير يعملون على رؤسهم المظلات السكبار شتاء وصيفا والنساء لهن عمدات كبار .

(ذكر الملك المارهب جرجيس)

وهذا الملك ولي الملك لابنه وانقطع للعبادة وبنى مانستارا كما ذكرناه خارج المدينة على ساحلها وكنت يوما مع الرومي المعين للركوب معي فاذا بهذا الملك ماش على قدميه وعليه المسوح وعلى رأسه فلنسوة لبدوله لحية بيضاء طويلة ووجهه حسن عليه أثر العبادة وخلفه وأمامه جماعة من الرهبان وبيده عكاز وفي عنقه سبيحة فلما راه الرومي نزل وقال لي انزل فهذا والد الملك فلما سلم عليه الرومي سأله عنى ثم وقف وبعث لي فحشيت إليه فأخذ بيدي وقال لذلك الرومي وكان يعرف اللسان العربي قل لهذا السرا كنويعني المسلم أنا اصافح اليد التي دخلت بيت المقدس والرجل التي مشيت داخل الصخرة والكنيسة العظمى التي تسمى قامة وبيت لحم وجعل يده على قدمي ومسح بها وجهه ففجئت من

اعتقادهم فيمن دخل تلك المواضع من غير ملتهم ثم أخذ بيدي ومشيت معه فسألتني عن بيت المقدس ومن فيه من النصارى وأطال السؤال ودخلت معه إلى حرم الكنيسة الذي وصفناه آنفاً ولما قارب الباب الأعظم خرجت جماعة من القسيسين والرهبان للسلام عليه وهو من كبارهم في الرهبانية ولما رأهم أرسل يدي فقلت له أريد الدخول معك إلى الكنيسة فقال لترجمان قل له لا بد لداخلك من السجود للصليب الأعظم فإن هذا مما سنته الأوائل ولا يمكن خلافه فتركته ودخل وحده ولم أره بعدها

(ذكر قاضي القسطنطينية)

ولما فارقت الملك المترهب المذكور دخلت سوق الكتاب فرأيت القاضي فبحث إلى أحد أعوانه فسأل الرومي الذي معي فقال له أنه من طلبية المسلمين فلما عاد إليه واخبره بذلك بحث إلى أحد أعوانه وهم يسمون القاضي النجاشي كفاً فقال لي النجاشي كفاً إلى يدعوك فصعدت إليه إلى القبة التي تقدم ذكرها فرأيت شيخاً حسن الوجه واللغة عليه لباس الرهبان وهو الملف الأسود وبين يديه نحو عشرة من الكتاب يكتبون فقال لي وقام أصحابه وقال أنت ضيف الملك ويجب علينا إكرامك وسألتني عن بيت المقدس والشام ومصر وأطال الكلام وكثر عليه الازدحام وقال لي لا بد لك أن تأتي إلى داري فأضيفك فانصرفت عنه ولم ألقه بعد .

(ذكر الانصراف عن القسطنطينية)

ولما ظهر لمن كان في صحبة الخاتون من الأتراك أنها على دين أبيها وراغبة في المقام معه طلبوا منها الإذن في العودة إلى بلادهم فأذنت لهم وأعطتهم عطاءً جزيلاً وبعثت معهم من يوصلهم إلى بلادهم أميراً يسمى ساروجة الصغير في خمسمائة فارس وبعثت عني فأعطتني ثلاثمائة دينار من ذهبهم يسمونه البربرة وليس بالطيب وألفي درهم بندقية وشقة ملف من عمل البنات وهو أجود أنواعه وعشرة أثواب من حرير وكتان وصوف وفرسين وذلك من عطاء أبيها وأوصت بي ساروجة وودعتها وانصرفت وكانت مدة مقامي عندهم شهراً وستة أيام وسافرنا بصحبة ساروجة فكان يكرمنا حتى وصلنا إلى آخر بلادهم حيث تركنا أصحابنا وعابنا فركبنا العربات ودخلنا البرية ووصل ساروجة معنا إلى مدينة باسلوق وأقام بها ثلاثاً في الضيافة وانصرفت إلى بلاده وذلك في اشتداد البرد وكنت لبس ثلاث فروات وسروالين أحدهما مبطن وفي رجل خف من صوف وفوقه خف مبطن بثوب كتان وفوقه خف من البرغالي وهو جلد الفرس مبطن بجلد ذئب

وكنيت أتوضأ بالماء الحار بمقربة من النار فما تقطر من الماء قطرة إلا جمدت لحينها وإذا غسلت وجهي بالماء إلى الخيتي فيجمد فأحركها فيسقط منها شبه الشاج والماء الذي ينزل من الأنف يجمد على الشارب وكنيت لأستطيع الركوب لكثرة ما على من الشيباب حتى يركبني أصحابي .

ثم وصلت إلى مدينة الحاج ترخان حيث قارقنا السلطان أوزبك فوجدناه قد رحل واستقر بحضرة ملكه فسافرنا على نهر اتل وما يليه من المياه ثلاثا وهي جامدة وكنا إذا احتجنا الماء قطعنا قطعا من الجليد وجعلناه في القدرة حتى يصير ماء فنشرب منه ونطبخ به ووصلنا إلى مدينة السرا (وضبط اسمها بسين مهمل وراء مفتوحة والـف) وتعرف بسرا بركة وهي حضرة السلطان أوزبك ودخلنا على السلطان فسألناه عن كيفية سفرنا وعن ملك الروم ومدينته فأعلمناه وأمر بإجراء النفقة علينا وأنزلنا بمدينة السرا من أحسن المدن متناهية الكبر في بسيط من الأرض تغص بأهاها كثرة حسنة الاسواق متسعة الشوارع .

وركبنا يوما مع بعض كبرائها وغرضنا التطوف عليها ومعرفة مقدارها وكان منزلنا في طرف منها فركبنا منه غدوة فما وصلنا لآخرها بعد الزوال فصلينا الظهر وأكلنا طعامنا فما وصلنا إلى المنزل إلا عند المغرب ومشينا يوما في عرضها ذاهبين راجعين في نصف يوم وذلك في عمارة متصلة الدور لأخراب فيها ولا بساتين وفيها ثلاثة عشر مسجدا لإقامة الجمعة أحدا للشافعية وأما المساجد سوى فكثير جدا وفيها طوائف من الناس منهم المغل وهم أهل البلاد وال سلاطين ووبعضهم مسلمون ومنهم الأص وهم مسلمون ومنهم القفجق والجركس والروس والروم وهم نصارى وكل طائفة تسكن محلة على حدة فيها أسواقها والتجار والغرباء من أهل العراق ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور احتياطا على أموال التجارة .

وقصر السلطان بها يسمى الطون طاش والـتون (بفتح الهمزة وسكون اللام وضم الطاء المهمل وواو مد ونون) ومعناه الذهب وطاش (بفتح الطاء المهمل وشين معجم) ومعناه حيز وقاضى هذه الحضرة بدر الدين الاعرج من خيار النضاة

وبها من مدرسي الشافعية الفقيه الامام الفاضل صدر الدين سليمان الاسكزي أحد الفضلاء وبها من المالكية شمس الدين المصري وهو ممن يطمع في ديانتهم وبها زاوية الصالح الحاج نظام الدين أضافنا بها وأكرمنا وبها زاوية الفقيه الامام العالم نعمان الدين الخوارزمي رأيت بها وهو من فضلاء المشايخ حسن الأخلاق كريم النفع شديد التواضع

شديد السطوة على اهل الدنيا يأتي اليه السلطان أوزبك زائراً في كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم اليه ويقعد السلطان بين يديه ويكلمه أ لطف كلام ويتواضع له والشيخ بضد ذلك وفعله الفقراء والمساكين والواردين خلاف فعله مع السلطان فإنه يتواضع لهم ويكلمهم بأ لطف كلام ويكرمهم واكرمني جزاء الله خيراً وبعث الى بغلام تركي وشاهدت له بركة

(كرامة له)

كنت أردت السفر من السر الى خوارزم فنهاني عن ذلك وقال لي أقم أياماً وحينئذ نسافر فنازعني النفس ووجدت رفقة كبيرة آخذه في السفر فيهم تجار أعرفهم فاتفقت معهم على السفر في صحبتهم وذكرت له ذلك فقال لي لا بد لك من الإقامة فعزمت على السفر فأبق لي الغلام أقمت بسببه وهذه السكرامات الظاهرة

ولما كان بعد ثلاث وجد بعض أصحابي ذلك الغلام الأبق بمدينة الحاج ترخان فجاء به إلى فحينئذ سافرت إلى خوارزم وبينها وبين حضرة السرا صخرة مسيرة أربعين يوماً لا تسافر فيها الخيل لقلة السكك وإنما تجر العربات بها الجمال فسرنا من السرا عشرة أيام فوصلنا إلى مدينة سراجوق وجوق (بضم الجيم المعقود وواو وقاف) ومعنى جوق صغير فكانهم قالوا سرا الصغيرة وهي على شاطئ نهر كبير زخار يقال له ألوصو (بضم الهمز واللام وواو وضم الصاد المهمل وواو) ومعناه الماء الكبير وعليه جسر من قوارب كجسر بغداد وإلى هذه المدينة انتهى سفرنا بالخيول التي تجر العربات وبعناها بحساب أربع دنانير دراهم للفرس وأقل من ذلك لأجل ضعفها ورخصها هذه المدينة واكثرنا الجمال لجر العربات وهذه المدينة زاوية أرجل صالح معمر من الترك يقال له أطا (بفتح الهمز والطاء المهمل) ومعناه الوالد أضافنا بها ودعنا لنا وأضافنا أيضاً قاضيها ولا أعرف اسمه ثم سرنا منها ثلاثين يوماً سيرا جادا لا ننزل إلا ساعتين أحدهما عند الضحى والأخرى عند المغرب وتسكون الإقامة قدر ما يطبخون الدوق ويشربونه وهو يطبخ من غالية واحدة ويكون معهم الخليج من اللحم يجعلونه عليه ويصبون عليه اللبن وكل إنسان إنما ينسأماً أو يأكل في عربته حال السير وكان لي في عرقي ثلاث من الجوارى ومن عادة المسافرين في هذه البرية الإسراع لقلة أعشابها والجمال التي تقطعها يملك معظمها وما يبنى منها لا ينتفع به إلا في سنة أخرى بعد أن يسمن والماء في هذه البرية في مناهل معلومة بعد اليومين والثلاثة وهو ماء المطر والحسيان ثم لما سلكنا هذه البرية وقطعناها كما ذكرناه وصلنا إلى خوارزم وهي أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها لها الأسواق المليحة والشوارع الفسيحة والعمارة السكثيرة والمحاسن الأثيرة وهي ترج بسكانها السكثرتهم وتموج بهم موج البحر ولقد ركبت بها يوماً ودخلت السوق فلما توسطته وبلغت منتهى

الزحام في موضع يقال له الشهور (بفتح الشين المعجم وإسكان الواو) لم أستطع أن أجوز ذلك الموضع لكثرة الازدحام وأردت الرجوع فما أمكنتني لكثرة الناس فبقيت متحيراً وبعد جهد شديد رجعت وذكرك لي بعض الناس أن تلك السوق يخف زحامها يوم الجمعة وتوجهت إلى المسجد الجامع والمدرسة وهذه المدينة تحت إمرة السلطان أوزبك وله فيها أمير كبير يدعى قطلودمور وهو الذي عمر هذه المدرسة وما معها من المواضع المضافة وأما الجامع فعمرته زوجته الخاتون الصالحة ترابك وتر (بضم التاء المملوءة وفتح الراء والفاء) وبك (بفتح الباء الموحدة والكاف) وبخوارزم مارستان له طبيب شامي يعرف بالصهيوني نسبة إلى صهيون من بلاد الشام ولم أر في بلاد الدنيا أحسن أخلاقاً من أهل خوارزم ولا أكرم نفوساً ولا أحب في الغرباء ولهم عادة جميلة في الصلاة لم أرها لغيرهم وهي أن المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلمائهم بحضور الصلاة فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بمحضر الجماعة وفي كل جامع درة معلقة برسم ذلك ويغرم خمسة دنانير تنفق في مصالح الجامع أو تطعم للفقراء والمساكين ويذكرون أن هذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان وبخارج خوارزم نهر جيحون أحد الأنهار الأربعة التي من الجنة وهو يجمد في أوان البرد كما يجمد نهر اتل ويسلك الناس عليه وتبقى مدة جموده خمسة أشهر وربما سلكوا عليه عند أخذه في الذوبان فمأسكوا ويسافر فيه أيام الصيف بالمراكب إلى ترمذ ويجلبون منها القمح والشعير وهي مسيرة عشر للمنحدر وبخارج خوارزم زاوية مبنية على تربة الشيخ نجم الدين الكبرى وكان من كبار الصالحين وفيها الطعام للوارد والصادر وشيوخهم المدرس سيف الدين بن عضبة من كبار أهل خوارزم وبها أيضاً زاوية شيوخها الصالح المجاور جلال الدين السمرقندي من كبار الصالحين أضافنا بها وبخارجها قبر الإمام العلامة أبي القاسم محمود بن عمر الرنخشي وعليه قبة وزخشر قرية على مسافة أربعة أميال من خوارزم

ولما أتيت بهذه المدينة نزلت بخارجها وتوجه بعض أصحابي إلى القاضي الصدر أبي حفص عمر البكري فبعث إلى نائبه نور الاسلام فسلم على ثم عاد إليه ثم أتى القاضي في جماعة من أصحابه فسلم على وهو فتي السن كبير الفعال وله نائبان أحدهما نور الاسلام المذكور والآخر نور الدين الكراماني من كبار الفقهاء وهو الشديد في أحكامه القوى في ذات الله تعالى .

ولما حصل الاجتماع بالقاضي قال لي إن هذه المدينة كثيرة الزحام ودخولكم نهاراً لا يتأني وسيأتي اليكم نور الاسلام لتدخلوا معه في آخر الليل ففعلنا ذلك ونزلنا بمدرسة جديدة

ليس بها أحد ولما كان بعد صلاة الصبح أتى إلينا القاضى المذكور ومعه من كبار المدينة جماعة منهم مولانا همام الدين ومولانا زين الدين المقدسى ومولانا رضى الدين يحيى ومولانا فضل الله الرضوى ومولانا جلال الدين العمادى ومولانا شمس الدين السنجرى امام أميرها وهم أهل مكارم وفضائل والغالب على مذهبهم الاعتزال لكنهم لا يظهرونه لأن السلطان أوزبك وأميره على هذه المدينة قطلودمور من أهل السنة وكنت أيام إقامتى بها أصلى الجمعة مع القاضى أبى حفص عمر المذكور بمسجده فاذا فرغت الصلاة ذهبت معه الى داره وهى قريبة من المسجد فأدخل معه الى مجلسه وهو من أبداع المجالس فيه الفرش الحافلة وحيطانه مكسوة بالملف وفيه طيقال كثيرة وفى كل طاق منها أوانى الفضة المموهة بالذهب والأوانى العراقية وكذلك عادة أهل تلك البلاد ان يصنعوا في بيوتهم ثم يأتي بالطعام الكثير وهو من أهل الرفاهية والمال الكثير والرابع وهو سلف الأمير قطلودمور متزوج بأخت امرأته واسمها جيجيا أغا وهذه المدينة جماعة من الوعاظ والمذكورين اكبرهم مولانا زين الدين المقدسى والخطيب مولانا حسام الدين المشاطى الخطيب المصقع احد الخطباء الاربعة الذين لم اسمع فى الدنيا احسن منهم .

(وأمير خوارزم)

هو الأمير الكبير قطلودمور وقطلو (بضم القاف وسكون الطاء المهمل وضم اللام) ودمور (بضم الدال المهمل والميم وواو مد وراء) ومعنى اسمه الحديد المبارك لأن قطلو هو المبارك ودمور هو الحديد وهذا الأمير ابن خالة السلطان المعظم محمد أوزبك واكبر امرأته وهو واليه على خراسان وولده هارون بك متزوج بابنة السلطان المذكور التى أمها الماسكة طيطغلى المتقدم ذكرها وامرأته الخاتون ترابك صاحبة المكارم الشهيرة .

ولما أتانى القاضى مسلما على كذا كرتة قال لى ان الامير قد علم بقدمك وبه بقية مرض يمنعه من الاتيان اليك فركبت مع القاضى الى زيارته وأتينا داره فدخلنا مشورا كبيرا اكثر بيوته خشب ثم دخلنا مشورا صغيرا فيه قبة خشب مزخرفة قد كسيت حيطانها بالملف الملون وسقفها بالحرير المذهب والامير على فرش له من الحرير وقد غطى رجله لما بهما من النقرس وهى علة فاشية فى الترك فسلمت عليه وأجاسنى الى جانبه وقعد القاضى والفقهاء وسألنى عن سلطانه الملك محمد أوزبك وعن الخاتون بيلون وعن أبيهما وعن مدينة القسطنطينية فأعلمته بذلك كله ثم أتى بالمواد فيها الطعام من الدجاج المشوية والكرامى وافراخ الحمام وخبز معجون بالسمن يسمونه الكليجا والكمك والحلوى ثم أتى بموائد

أخرى فيها الفواكه من الرمان المحبب في أواني الذهب والفضة ومعه ملاحق الذهب وبعضه في أواني الزجاج العراقي ومعه ملاحق الخشب ومن العنب والبطيخ العجيب ومن عوائد هذا الأمير أن يأتي القاضي في كل يوم إلى مشورة فيجلس بمجلس معد له ومعه الفقهاء وكتابه ويجلس في القابلة أحد الأمراء الكبراء ومعه ثمانية من كبار أمراء الترك وشيوخهم يسمون الأرغجية (بارغوجي) ويتحاكم الناس اليهم فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضي وما كان من سواها حكم فيها أولئك الأمراء وأحكامهم مضبوطة عادلة لأنهم لا يهتمون بميل ولا يقبلون رشوة ، ولما عدنا إلى المدرسة بعد الجلوس مع الأمير بحث اليها الأرز والدقيق والسمن والابزار واحمال الخطب وتلك البلاد كلها لا يعرف بها الفحم وكذلك الهند وخراسان وبلاد العجم وأما الصين فيوقدون فيها حجارة تشتعل فيها النار كما تشتعل في الفحم ثم إذا صارت رمادا عجنوه بالماء وجففوه بالشمس وطبخوا بها ثانية كذلك حتى يتلاشى

(حكاية ومكرمة لهذا القاضي والأمير)

صليت في بعض أيام الجمع على عادتي بمسجد أبي حفص فقال لي أن الأمير امرلك بخمسمائة درهم وأمر أن يصنع لك دعوة ينفق فيها خمسمائة درهم أخرى يحضرها المشايخ والفقهاء والوجوه فلما أمر بذلك قلت له أيها الأمير تصنع دعوة يأكل من حضرها لقمة أو لقمتين لو جعلت له جميع المال كان أحسن له للنفع فقال أفعل ذلك وقد أمر لك بالآلاف كاملة ثم بعثها الأمير صحبة أمامه شمس الدين السنجري في خريطة يحماها غلامه وصرفها من الذهب المغربي ثلاثمائة دينار وكنت قد اشتريت ذلك اليوم فرسا أدهم اللون بخمسة وثلاثين ديناراً ودرهم وركبته في ذهابي إلى المسجد فما أعطيت ثمنه إلا من تلك الآلاف وتكاثر عندى الخيل بعد ذلك حتى انتهت إلى عدد لا أذكره خيفة مكذب يكذب به ولم تزل حالي في الزيادة حتى دخلت أرض الهند وكانت عندى خيل كثيرة لكنني كنت أفضل هذا الفرس وأثره وأربطه أمام الخيل وبقى عندى إلى انقضاء ثلاث سنين ولما هلك تغيرت حالي وبعثت إلى الخاتون جيجاً أختها امرأة القاضي مائة دينار ودرهم وصنعت لي اختها أربابك زوجة الأمير دعوة جمعت لها الفقهاء ووجوه المدينة براويتها التي بنتها وفيها الطعام الوارد والصادر وبعثت إلى بفروة سمور وفرس جيد وهي من أفضل النساء وأصلحهن وأكرمهن جزاها الله خيراً .

(حكاية)

ولما انفصلت من الدعوة التي صنعت لي هذه الخاتون وخرجت عن الزاوية تعرضت

لى بالباب امرأة عليها ثياب دنسة وعلى رأسها مقنعة ومعها نسوة لا أذكر عددهن
فسلمت على فرددت عليها السلام ولم أقف معها ولا التفت إليها فلما خرجت أدركنى بعض
الناس وقال لى ان المرأة التى سلمت عليك هى الخاتون فجلت عند ذلك وأردت الرجوع
إليها فوجدتها قد انصرفت فأبلغت إليها السلام مع بعض خدامها واعتذرت عما كان منى
لعدم معرفتى بها .

(ذكر بطيخ خوارزم)

وبطيخ خوارزم لا نظير له فى بلاد الدنيا شرقا ولا غربا إلا ما كان من بطيخ
بخارى ويليه بطيخ اصفهان وقشره أخضر وباطنه احمر وهو صادق الحلاوة وفيه صلابه
ومن العجائب أنه يقدد ويبدس فى الشمس ويجعل فى القواصر كما يصنع عندنا بالشريحة
وبالتين الماقي ويحمل من خوارزم إلى اقصى بلاد الهند والصين وليس فى جميع الفواكه
اليابسة أطيب منه وكنت ايام إقامتى بدهلى من بلاد الهند متى قدم المسافرون بعثت
من يشتري لى منهم قديد البطيخ وكان ملك الهند إذا أتى إليه بشيء منه بعث إلى به لما يعلم
من محبتي فيه ومن عادته أنه يطرف الغرباء بفواكه بلادهم ويتقدمهم بذلك .

(حكاية)

كان قد صحبني من مدينة السرى إلى خوارزم شريف من أهل كر بلاه يسمى على بن منصور
وكان من التجار فكنت أكلفه أن يشتري لى الثياب وسواها فكان يشتري لى الثوب
بعشر دنانير ويقول اشتريته بثمانية ويحاسبني بالثمانية ويدفع الدينارين من ماله وأنا لا
علم لى بفعله إلى ان تعرفت ذلك على السنة الناس وكان مع ذلك قد أسلفني دنانير فلما
وصل إلى احسان أمير خوارزم رددت إليه ما أسلفنييه وأردت أن احسن بعده اليه
مكافأة لأفعاله الحسنة فأبى ذلك وحلف ان لا تفعل وأردت ان احسن الى قتي كان له اسمه كافور
لخلف ان لا أفعل وكان أكرم من لقيته من العراقيين وعزم على السفر معي إلى بلاد الهند ثم
ان جماعة من أهل بلده وصلوا إلى خوارزم برسم السفر إلى الصين فأخذ في السفر معهم فقلت له
فى ذلك فقال هؤلاء أهل بلدى يعودون إلى أهلى وأقاربى ويذكرون لى سافرت إلى الهند برسم
السكدية فيكون سببه على لا أفعل ذلك وسافر معهم إلى الصين فبلغنى بعدوا أنا بأرض الهند
أنه لما بلغ إلى مدينة الماقي وهى آخر البلاد التى من عمالة ماوراء النهر وأول بلاد الصين أقام
بها وبعث قتي له بما كان عنده من المتاع فأبطأ القتي عليه وفى أثناء ذلك وصل من بلده بعض
التجار ونزل معه فى فندق واحد فطلب منه الشريف ان يسلفه شيئاً بخلاف ما يصل فتاه فلم
يفعل ثم أكد قبح ما صنع فى عدم التوسعة على الشريف بأن أراد الزيادة عليه فى المسكن

الذي كان له في الفندق قبلئذ ذلك الشريف فاعتم منه ودخل إلى بيته فذبح نفسه فأدرك وبه رمق واتهموا غلاما كان له بقتله فقال لا تظلموه فاني أنا فعلت ذلك ومات من يومه غفر الله له .

وكان قد حكى لي عن نفسه أنه أخذ مرة من بعض تجار دمشق ستة آلاف درهم قراضا فلقية ذلك التاجر بمدينة حماة من أرض الشام فطلبه بالمال وكان قد باع ما اشترى به من المتاع بالدين فاستحيا من صاحب المال ودخل إلى بيته وربط عمامته بسقف البيت وأراد أن يخنق نفسه وكان في أجله تأخير فيذكر صاحبها له من الصيارفة فقصده وذكر له القضية فسلفه مالا دفعه للتاجر، ولما أردت السفر من خوارزم اكتريت جمالا واشتريت محارة وكان عدلي بها عفيف الدين التوزري وركب الخدام بعض الخيل وجللنا باقيها لأجل البرد ودخلنا البرية التي بين خوارزم وبخارى وهي مسيرة ثمانية عشر يوما في رمال لا عمارة بها إلا بلدة واحدة فودعت الأمير قطلود مور وخلع على خلعة وخلع على القاضي أخرى وخرج مع الفقهاء لوداعي وشرنا أربعة أيام وصلنا إلى مدينة السكات وليس بهذه الطريق عمارة سواها (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون اللام وآخره تاء مثناة) وهي صغيرة حسنة نزلنا خارجها على بركة ماء قد جمدت من البرد فكان الصبيان يلعبون فوقها ويزلقون عليها وسمع بقدمي قاضي السكات ويسمى صدر الشريعة وكنت قد لقيته بدار قاضي خوارزم فجاء إلى مسلما مع الطالبة وشيخ المدينة الصالح العابد محمود الخيوفي ثم عرض على القاضي الوصول إلى أمير تلك المدينة فقال له الشيخ محمود القادم يذبحني له أن يزار وإن كانت لناهمة نذهب إلى أمير المدينة ونأق به ففعلوا ذلك رآق الأمير بعد ساعة في اصحابه وخدامه فسلمنا عليه وكان غرضنا تعجيل السفر فطلب منا الإقامة وصنع دعوة جمع لها الفقهاء ووجوه المساكين وسواهم ووقف الشعراء يمدحونه وأعطاني كسوة وفرسا جيذا وشرنا على الطريق المعروفة بسيدياية وفي تلك الصحراء مسيرة ست دون ماء

وصلنا بعد ذلك إلى بلدة وبكنة (وضبط اسمها بفتح الواو وإسكان الباء الموحدة وكاف ونون) وهي على مسيرة يوم واحد من بخارى بلدة حسنة ذات أنهار وبساتين وهم يدخرون العنب من سنة إلى سنة وعندهم فاكهة يسمونها العلو (الآلو) بالدين المهمة وتشديد اللام فيبسونه ويجلبه الناس إلى الهند والصين ويجعل عليه الماء ويشرب ماؤه وهو أيام كونه أخضر حلو فإذا يبس صار فيه يسير حموضة ولحيته كثيرة ولم أر مثله بالاندلس ولا بالمغرب ولا بالشام .

ثم شرنا في بساتين متصلة وأنهار وأشجار وعمارة يوما كاملا وصلنا إلى مدينة

بخارى التى ينسب اليها امام المحدثين ابو عبدالله محمد بن اسماعيل البخارى وهذه المدينة كانت قاعدة ماوراء نهر جيحون من البلاد وخر بها اللعين تنسكين التترى جدملوك العراق فساجدها الآن ومدارسها وأسواقها خربة إلا القليل وأهلها أذلاء وشهادتهم لا تقبل بخوارزم وغيرها لاشتهارهم بالتمصب ودعوى الباطل وإنكار الحق وإيس بها اليوم من الناس من يعلم شيئاً من العلم ولا من له عناية به.

(ذكر أولية التتر وتخريبهم بخارى وسواها)

كان تنسكين خان حداداً بأرض الخطا وكان له كرم نفس وقوة وبسطة فى الجسم وكان يجمع الناس ويطعمهم ثم صارت له جماعة فقدموه على أنفسهم وغلب على بلده وقوى واشتدت شوكته واستفحل أمره فغلب على مالك الخطا ثم على ملك الصين وعظمت جيوشه وتغلب على بلاد الختن وكاشغر والمالاق وكان جلال الدين سنجر بن خوارزم شاه ملك خوارزم وخراسان وما وراء النهر له قوة عظيمة وشوكة فها به تنسكين وأحجم عنه ولم يتعرض له فاتفق أن بعث تنسكين تجاراً بأمثلة الصين والخطا من الشياخ الحريرية وسواها إلى بلدة اطارار (بضم الهمزة) وهى آخر عمالة جلال الدين فبعث اليه عامله عليها معلماً بذلك واستأذنه ما يفعل فى أمرهم فسكتب اليه يأمره أن يأخذ أموالهم ويمثل بهم ويقطع أعضاءهم ويردهم إلى بلادهم لما أراد الله تعالى من شقاء أهل بلاد المشرق ومحنهم رأياً قائلاً وتدير أسيتاً مشئوماً فلما فعل ذلك تجهز تنسكين بنفسه فى عساكر لا تحصى كثيرة برسم غزو بلاد الاسلام فلما سمع عامل اطارار بحركته بعث الجواسيس ليأتوه بخبره فذكر أن أحدهم دخل محلة بعض أمراء تنسكين فى صورة سائل فلم يجد من يطعمه ونزل إلى جانب رجل منهم فلم ير عنده زاداً ولا أطعمة شيئاً فلما أمسى أخرج مصراناً يابسة عنده فبذلها بالماء وفصد فرسه وملاها بدمه وعقدتها وشواها بالنار فكانت طعامه فعاد إلى اطارار فأخبر عاملها بأمرهم وأعلمه أن لا طاقة لأحد بقتالهم فاستمد مليكة جلال الدين فأمدته بستين ألفاً زيادة على من كان عنده من العساكر فلما وقع القتال هزمهم تنسكين ودخل مدينة اطارار بالسيف فقتل الرجال وسبى الذرارى وأتى جلال الدين بنفسه لمحاربتة فكانت بينهم وقائع لا يعلم فى الاسلام مثلاً وآل الأمر إلى أن تملك تنسكين ماوراء النهر وخرى بخارى وسمرقند وترمد وعبر النهر وهو نهر جيحون إلى مدينة بلخ فتملكها ثم إلى الياميان (الباميان) فتملكها وأوغل فى بلاد خراسان وعراق العجم فتار عليه المسلمون فى بلخ وفى ماوراء النهر فسكر عليهم ودخل بلخ بالسيف وتركها خاوية على عروشها .

ثم فعل مثل ذلك فى ترمذ فخربت ولم تعمر بعد لسكنها بنيت مدينة على ميلين منها

هى التى تسمى اليوم ترمذ وقتل اهل الياميان (الباميان) وهدمها بأسرها إلا صومعة
جامعها وعفا عن أهل بخارى وسمرقند ثم عاد بعد ذلك إلى العراق وانتهى أمر التتر
حتى دخلوا حضرة الاسلام ودار الخلافة بغداد بالسيف وذبحوا الخليفة المستعصم بالله
العباسى رحمه الله .

(قال ابن جزى) أحبرنا شيخنا قاضى القضاة أبو البركات بن الحاج أعزه الله قال
سمعت الخطيب أبا عبد الله بن رشيد يقول لقيت بمكة نور الدين بن الزجاج من علماء العراق
ومعه ابن أخ له فتفاوضنا الحديث فقال لى هلك فى فتنه التتر بالعراق أربعة وعشرون
الف رجل من أهل العلم ولم يبق منهم غيرى وغير ذلك وأشار إلى ابن أخيه .

(رجع) قال وازلنا من بخارى برضا المعروف بفتح اباد حيث قبر الشيخ العالم العابد
الزاهد سيف الدين الباخرزى وكان من كبار الأولياء وهذه الزاوية المنسوبة لهذا الشيخ
حيث نزلنا عظيمة لها أوقاف ضخمة يطعم منها الوارد والصادر وشيخها من ذريته وهو
الحاج السياخ يحيى الباخرزى وأضافنى هذا الشيخ بداره وجمع وجوه أهل المدينة وقرأ
القراء بالأصوات الحسان ووعظ الواعظ وغنوا بالتركى والفارسى على طريقة حسنة
ومرت لنا هنالك ليلة بديعة من أعجب الليالى واقويت بها الفقيه العالم الفاضل صدر الشريعة
وكان قد قدم من هراة وهو من الصالحاء الفضلاء وزرت ببخارى قبر قبر الإمام العالم أبى
عبد الله البخارى مصنف الجامع الصحيح شيخ المسلمين رضى الله عنه وعليه مكتوب هذا قبر
محمد بن اسماعيل البخارى وقد صنف من الكتب كذا وكذا وأيضاً على قبور علماء بخارى
أسماءهم وأسماء تصانيفهم وكنت قيدت من ذلك كثير أوضاع منى فى جملة ماضع لى لما سلمنى
كفار الهند فى البحر .

ثم سافرنا من بخارى قاصدين معسكر السلطان الصالح المعظم علاء الدين طر مشيرين
وسنذكره فررنا على نخشب البلدة التى ينسب اليها الشيخ أبو تراب النخشبى وهى صغيرة
تحف بها البساتين والمياه فنزلنا بخارجها بدار لأميرها وعندى جارية قد قاربت الولادة
وكنيت أردت حملها إلى سمرقند لتلد بها فاتفق أنها كانت فى الحمل فوضع الحمل على
الجل وسافر أصحابنا من الليل وهى معهم والزاد وغيره من أسباني وأقت أنا حتى ارتحل
نهاراً مع بعض من معى فسلكوا طريقاً وسلكت طريقاً سواها فوصلنا عشية النهار إلى
محلة السلطان المذكور وقد جمعنا فنزلنا على بعد من السوق واشترى بعض أصحابنا ماسد
جوعتنا وأعار بعض التجار خباءاً بتنا به تلك الليلة ومضى أصحابنا من الغد فى البحث
عن الجمال وباقى الأصحاب فوجدوهم عشياً وجاؤوا بهم وكان السلطان غائباً عن المحلة

في الصيد فاجتمعت بنائيه الأمير تقبغا فأزلى بقرب مسجده وأعطاني خرقة (خر كاه) وهي شبه الخباء وقد ذكرنا صفتها فيما تقدم فجعلت الجارية في تلك الخرقة فولدت تلك الليلة مولوداً وأخبروني أنه ولد ذكر ولم يكن كذلك فلما كان بعد الحقيقة أخبرني بعض الأصحاب أن المولود بنت فاستحضرت الجوارى فسألتهم فأخبروني بذلك وكانت هذه البنت مولودة في طالع سعد فرأيت كل ما يسرني ويرضيني منذ ولدت وتوفيت بعد وصولي إلى الهند بشهرين وسينذكر ذلك واجتمعت بهذه المحلة بالشيخ الفقيه العابد مولانا حسام الدين الياغى (بالياء آخر الحروف والغين المعجمة) ومعناه بالتركية الثائر وهو من أهل أطار وباشيخ صهر السلطان .

(ذكر سلطان ما وراء النهر)

وهو السلطان المعظم علاء الدين طر مشيرين (وضبط اسمه بفتح الطاء المهمل وسكون الراء وفتح الميم وكسر الشين المعجم وياء مد وراء مكسور وياء مد ثانية ونون) وهو عظيم المقدار كثير الجيوش والعساكر ضخم الممكة شديد القوة عادل الحكم وبلاده متوسطة بين أربعة من ملوك الدنيا الكبار وهم ملك الصين وملك الهند وملك العراق وملك أوزبك وكلهم بها دونه ويعظمونه ويكرمونه وولي الملك بعد أخيه الجسكطى (وضبط اسمه بفتح الجيم المعقودة له التكاف والطاء المهمل وسكون الياء) وكان الجسكطى هذا كافراً وولي بعد أخيه الأكبر كبك وكان كبك هذا كافراً أيضاً لكنه كان عادل الحكم منصفاً للظالمين يكرم المسلمين ويعظمهم .

(حكاية)

يذكر أن هذا الملك كبك كان تكلم يوماً مع الفقيه الواعظ المذكور بدر الدين الميداني فقال له أنت تقول إن الله ذكر كل شيء في كتابه العزيز قال نعم فقال أين اسمي فيه فقال هو في قوله تعالى في أي صورة ما شاء ركبك فأعجبه ذلك وقال يخشى ومعناه بالتركية جيد فأكرمه إكراماً كثيراً وزاد في تعظيم المسلمين .

(حكاية)

ومن أحكام كبك ما ذكر أن امرأة شكت له بأحد الأمراء وذكرت أنها فقيرة ذات أولاد وكان لها ابن تقوتهم بشمته فاغتصبه ذلك الأمير وشربه فقال لها أنا أوسطه فإن خرج اللبن من بؤفه مضى لسبيله وإلا وسطتك بعده فقالت المرأة قد حللته ولا أطلبه بشيء فأمر به فوسط فخرج اللبن من بطنه ولعن ذلك السلطان طر مشيرين ولما أقمت بالمحلة وهم يسمونها الارديا ما ذهبت يوماً للصلاة الصبح بالمسجد على عادتي فلما صليت ذكر لي بعض الناس أن السلطان بالمسجد فلما قام عن الصلاة تقدمت للسلام عليه وقام الشيخ

حسن والفقيه حسام الدين الباغى واعلمه بحالى وقدمى منذ ايام فقال لى بالتركية
 خش ميسن يخشى ميسن قطلوا يوسن ومعنى خش ميسن فى عافية أنت ومعنى يخش
 ميسن جيد أنت ومعنى قطلوا يوسن مبارك قدومك وكان عليه فى ذلك الحين قباقدسى
 اخضر وعلى رأسه شاشية مثله ثم انصرف إلى مجلسه راجلا والناس يتعرضون له
 بالشكايات فيقف اسكل مشتك منهم صغيراً أو كبيراً ذكر أو أنثى ثم بعث عنى فوصلت
 اليه وهو فى خرقة والناس خارجها ميمنة وميسرة والأمراء منهم على السكراسى وأصحابهم
 وقوف على رؤوسهم وبين أيديهم وسائر الجند قد جالسوا صفوفاً وأمام كل واحد منهم
 سلاحه وهم أهل النوبة يقعدون هنالك إلى العصر ويأتى آخرون فيقعدون إلى آخر الليل
 وقد صنعت هنالك سقائف من ثياب القطن يكونون بها ولما دخلت إلى الملك بداخل الخرقة
 وجدته جالساً على كرسى شبه المنبر مكسوا بالحرير المزركش بالذهب وداخل الخرقة
 ملبس بثياب الحرير المذهب والتاج المرصع بالجواهر واليواقيت معلق فوق رأس السلطان
 بينه وبين رأسه قدر ذراع والأمراء السكبار على السكراسى عن يمينه ويساره وأولاد
 الملوك بأيديهم المذاب بين يديه وغند باب الخرقة النائب والوزير والحاجب وصاحب
 العلامة وهم يسمون آل طمغنى وآل (بفتح الهمزة) معناه الأحمر وطمغنى (بفتح الطاء) المهمل
 وسكون الميم والعين المعجم المفتوح) ومعناه العلامة وقام إلى أربعتهم حين دخولى
 ودخلوا معى فسلمت عليه وسألنى وصاحب العلامة يترجم بينى وبينه عن مكه والمدينة
 والقدس شرفها الله وعن مدينة الخليل عليه السلام وعن دمشق ومصر والملك الناصر وعن
 العراق وملسكهما وبلاد الأعاجم ثم أذن المؤذن بالظهر فأنصرفنا وكنا نحضر معه الصلوات
 وذلك أيام البرد الشديد المهلك فكان لا يترك صلاة الصبح والعشاء فى الجماعة ويقعد للذكر
 بالتركية بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس ويأتى اليه كل من فى المسجد فيصالحه ويشد
 بيده على يده وكذلك يفعلون فى صلاة العصر وكان إذا أوتى بهدية من زبيب أو تمر
 والتمر عزيز عندهم وهم يتبركون به يعطى منها بيده لاسكل من فى المسجد (حكاية)

ومن فضائل هذا الملك انه حضرت صلاة العصر يوماً ولم يحضر السلطان فجاء احد فتيانه
 بسجادة ووضعها قبالة المحراب حيث جرت عادته ان يصلى وقال للامام حسام الدين الباغى
 ان مولانا يريد ان تنتظره بالصلاة قليلاً ريثما يتوضأ فقام الامام المذكور وقال نماز ومعناه
 الصلاة برأى حداد برأى طر مشيرين اى الصلاة لله او لطر مشيرين ثم امر المؤذن باقامة
 الصلاة وقد جاء السلطان وقد صلى منها ركعتان فصلى الركعتين الاخرتين حيث انتهى به القيام
 وذلك فى الموضع الذى تكون فيه انعلة الناس عند باب المسجد وقضى ما فاتته وقام إلى الامام

ليصاحفه وهو يضحك وجلس قباله المحراب والشيخ الإمام إلى جانبه وأنا إلى جانب الإمام فقال لي إذا مشيت إلى بلادك فحدث أن فقيرا من فقراء الاعاجم يفعل هكذا مع سلطان الترك وكان هذا الشيخ يعظ الناس في كل جمعة ويأمر السلطان بالمعروف وينهاه عن المنكر وعن الظالم ويغلظ عليه القول والسلطان ينصت لأكلامه ويبيكي وكان لا يقبل من عطاء السلطان شيئا ولم يأكل قط من طعامه ولا لبس من ثيابه وكان هذا الشيخ من عباد الله الصالحين وكنت كثيرا ما أرى عليه قباء قطن مبطن بالقطن مخشوا به وقد بلى وتمزق وعلى رأسه قلنسوة لبد يساوي مثلها قيراطا ولا عمامة عليه فقلت له في بعض الأيام ياسيدي ما هذا القباء الذي أنت لا لبسه أنه ليس بجيد فقال لي يا ولدي ليس هذا القباء لي وإنما هو لا بنتي فرغبت منه أن يأخذ بعض ثيابي فقال لي عاهدت الله منذ خمسين سنة أن لا أقبل من أحد شيئا ولو كنت أقبل من أحد لقبلت منك ولما عزمت على السفر بعد مقامي عندها السلطان أربعة وخمسين يوما أعطاني السلطان سبعمائة دينار ودفرة سمور تساوي مائة دينار طلبتها منه لأجل البرد ولما ذكرتها له أخذ أكامي وجعل يقبلها بيده تواضعا منه وفضلا وحسن خلاق واعطاني فرسين وجمالين ولما اردت وداعه ادركته في أثناء طريقه الى متصيده وكان اليوم شديد البرد جدا فوالله ما قدرت على أن أطق بكلمة لشدة البرد ففهم ذلك وضحك وأعطاني يده وانصرفت وبعد سنتين من وصولي إلى أرض الهند بلغنا الخبر بأن الملأ من قومه وأمرائه اجتمعوا بأقصى بلاده المجاورة للصين وهنا لك معظم عساكره وبايعوا ابن عم له اسمه بوزن أغلى وكل من كان من أبناء الملوك فهم يسمونه أغلى (بضم الهمزة وسكون الغين المعجمة وكسر اللام) وبوزن (بضم الباء الموحدة وضم الزاي) وكان مسلما إلا أنه فاسد الدين سيء السيرة وسبب لبيعتهم له وخلعهم لطر مشيرين أن طر مشيرين خالف أحكام جدهم تنكيز اللعين الذي خرب بلاد الاسلام وقد تقدم ذكره وكان تنكيز ألف كتابا في أحكامه يسمى عندهم اليساق (بفتح الياء آخر الحروف والسين المهملة وآخره قاف) وعندهم أنه من خالف أحكام هذا الكتاب نخلعه واجب ومن جملة أحكامه أنهم يجتمعون يوما في السنة يسمونه الطوى ومعناه يوم الضيافة يأتي أولاد تنكيز والأمراء من أطراف البلاد ويحضر الخواتين وكبار الاجناد وإن كان سلطانهم قد غير شيئا من تلك الأحكام يقوم اليه كبارهم فيقولون له عيرت كذا وغيرت كذا وفعلت كذا وقدوجب خلعتك ويأخذون بيده ويقيمونه عن سرير الملك ويقعدون غيره من أبناء تنكيز وإن كان أحد الأمراء الكبار أذنب ذنبا في

(١٦ - رحلة - أول)

بلاده حكموا عليه بما يستحقه وكان السلطان طر مشيرين قد أبطل بكم هذا اليوم ومحا
 رسمه فأذكروه عليه أشد الانكار وأنكروا عليه أيضا كونه أقام أربع سنين فيهما يلي
 خراسان من بلاده ولم يصل إلى الجهة التي توالي الصين والعادة أن الملك يقصد تلك
 الجهة في كل سنة فيختبر أحوالها وحال الجند بها لأن أصل ملكهم منها ودار الملك هي
 مدينة المائق فلما بايعوا بوزن أتى في عسكر عظيم وخاف طر مشيرين على نفسه من
 امرائه ولم يأمنهم فركب في خمسة عشر فارسا يريد بلاد دغزنة وهي من عمالاته وواليتها
 كبير امرائه وصاحب سره برنطيه وهذا الأمير محب في الاسلام والمسلمين قد عمر في
 عمالاته نحو أربعين زاوية فيها الطعام للوارد والصادر وتحت يده العساكر العظيمة ولم أر
 قط فيمن رأيت من الآدميين بجميع بلاد الدنيا أعظم خلقة منه فلما عبر نهر جيحون
 وقصد طريق بلخ رآه بعض الأتراك من أصحاب يئق ابن أخيه كبك وكان السلطان
 طر مشيرين المذكور قتل أخاه كبك المذكور وبقي ابنه يئق ببلاخ فلما أعلمه التركي بخبره
 قال ما فر إلا لأمر حدث عليه فركب في أصحابه وقبض عليه وسجنه ووصل بوزن إلى سمرقند
 وبخارى فبايعه الناس وجاءه يئق بطر مشيرين فيذكر أنه لما وصل إلى نسف بخارج
 سمرقند قتل هنالك ودفن بها وخدم تربته الشيخ شمس الدين كردن بريدان وقيل أنه لم
 يقتل كما سنده وكردون (بكاف معقودة وراء مسكن ودال مهملة مفتوح ونون)
 ومعناه العنق وبريدا (بضم الباء الموحدة وكسر الراء وياء مد ودال مهملة) معناه
 المقطوع ويسمى بذلك لضربة كانت في عنقه وقد رأيت بأرض الهند ويقع ذكره فيما بعد
 ولما ملك بوزن هرب ابن السلطان طر مشيرين وهو بشاي أغل (أغلى) وأخته وزوجها
 فيروز إلى ملك الهند فعظمهم وانزلهم منزلة عليية بسبب ما كان بينه وبين طر مشيرين
 من الود والمساكنة والمهاداة وكان يخاطبه بالآخ ثم بعد ذلك أتى رجل من أرض
 السند وادعى أنه هو طر مشيرين واختلف الناس فيه فسمع بذلك عماد الملك سرتيز
 غلام ملك الهند ووالى بلاد السند ويسمى ملك عرض وهو الذي تعرض بين يديه
 عساكر الهند واليه أمرها ومقره بملتان قاعدة السند فبعث إليه بعض الأتراك العارفين
 به فمادوا إليه وأخبروه أنه هو طر مشيرين حقا فامر له بالسراجه وهي أفراج فضرب خارج
 المدينة ورتب له ما يرتب لمثله وخرج لاستقباله وترجل له وسلم عليه وأتى في خدمته إلى
 السراجه فدخلها راكبا كمادة الملوك ولم يشك احد أنه هو وبعث إلى ملك الهند يخبره
 فبعث إليه الأمر يستقبلونه بالضيافات وكان في خدمة ملك الهند حكيم من خدم طر مشيرين

فما تقدم وهوى كبير الحكاء بالهند فقال الملك أنا أتوجه إليه وأعرف حقيقة أمره فأتى
كنت عالجته له دملا تحت ركبته وبقي أثره وبه أعرفه فأتى إليه ذلك الحكيم واستقبله
مع الأمراء ودخل عليه ولأزمه لسابقته عنده وأخذ يغمر رجليه وكشف عن الأثر
فشتمه وقال له تريد أن تنظر إلى الدم الذي عالجته هاهوذا واروه أثره فتحقق أنه هو
وعاد إلى ملك الهند فأعلمه بذلك ثم إن الوزير خراجة جهان أحمد بن إياس وكبير الأمراء
قطلو خان معلم السلطان أيام صغره دخلا على ملك الهند وقالاه يا خوند عالم هذا السلطان
طر مشيرين قد وصل وصبح أنه هو وهاهنا من قومه نحو أربعين ألفا وولده وصهره
ارايتم إن اجتمعوا عليه ما يكون من العمل فوقع هذا الكلام بموقع منه عظيم وأمر أن يوثق
بطر مشيرين معجلا فلما دخل عليه أمر بالخدمة كسائر الواردين ولم يعظم وقال له السلطان
بأما دركاني وهي شتمة قبيحة كيف تكذب وتقول أنك طر مشيرين وطر مشيرين قد قتل
وهذا خادم تربته عندنا والله لولا المعرة لقتلتك ولكن أعطوه خمسة آلاف دينار
واذهبوا به إلى دار بشاي أغلي واخته ولدى طر مشيرين وقولوا لهم إن هذا الكاذب
يزعم أنه والدكم فدخل عليهم فعرّفوه وبات عندهم والحراس يحرسونه وأخرج بالقد
وخافوا أن يهلكوا بسببه فأنكروه

ونفى عن بلاد الهند والسند فسلط طريق كيج ومكران وأهل البلاد يكرمونه
ويضيفونه ويهادونه ووصل إلى شیراز فأكرمه سلطانها أبو إسحق وأجرى له كفايته
ولما دخلت عند وصولي من الهند إلى مدينة شیراز ذكر لي أنه باق بها وأردت لقائه ولم
أفعل لأنه كان في دار لا يدخل إليه أحد إلا بأذن من السلطان أبي إسحق فخدمت عما يتوقع
بسبب ذلك ثم ندمت على عدم لقائه .

(رجع الحديث إلى بوزن) وذلك أنه لما ملك ضيق على المسلمين وظلم الرعية وأباح
للنصارى واليهود عمارة كنائسهم فضج المسلمون من ذلك وتربصوا به الدوائر واتصل
خبره بخليل ابن السلطان اليسور المهزوم على خراسان فقصد ملك هراة وهو السلطان
حسين ابن السلطان غياث الدين الغوري فأعلمه بما كان في نفسه وسأل منه الإعانة بالعساكر
والمال على أن يشا طره الملك إذا استقام فبعث معه الملك حسين معسكرا عظيما وبين هراة
وترمد تسعة أيام فلما سمع أمراء السلطان بقدوم خليل تلقوه بالسمع والطاعة والرغبة
في جهاد العدو كان أول قادم عليه علاء الملك خداوند زاده صاحب ترمذ وهو أمير
كبير شريف حسيني النسب فأتاه في أربعة آلاف من المسلمين فسربه وولاه وزارة
وفوض إليه أمره وكان من الأبطال وجاء الأمراء من كل ناحية واجتمعوا على خليل

والتقى مع بوزن فمالت العساكر إلى خليل وأسلموا بوزن وأتوا به أسيراً فقتله خنقاً وباوتار القسى وتلك عادة لهم أنهم لا يقتلون من كان من أبناء الملوك إلا خنقوا واستقام الملك لخليل وعرض عساكره بسمرقند فكانوا ثمانين ألفاً عليهم وعلى خيلهم الدروع فصرف العسكر الذى جاء به من هراة وقصد بلاد المماق فقدم التتر على أنفسهم واحداً منهم والقوه على مسيرة ثلاث من المماق بمقربة من اطراز (طراز) وسعى القتال وصبر الفريقان فحمل الأمير خداوندزاده وزيره فى عشرين ألفاً من المسلمين حملة لم يثبت لها التتر فانهمزوا واشتد فيهم القتل وأقام خليل بالمماق ثلاثاً وخرج إلى استئصال من بقى من التتر فاذعنوا له بالطاعة وجاز إلى تخوم الخطا والصين وفتح مدينة قراقرم ومدينة بش بالغ وبعث إليه سلطان الخطا بالعساكر ثم وقع بينهما الصلح وعظم أمر خليل وهاتيه الملوك وأظهر العمل ورتب العساكر بالمماق وترك بها وزيره خداوندزاده وانصرف إلى سمرقند بخارى ثم أن التتر أرادوا الفتنة فسمعوا إلى خليل بوزيره المذكور وزعموا أنه يريد الثورة ويقول أنه أحق بالملك لقرايته من النبي صلى الله عليه وسلم وكرمه وشجاعته فبعث والياً إلى المماق عوضاً عنه وأمره أن يقدم عليه نفر يسير من أصحابه فلما قدم عليه قتلة عند وصوله من غير تثبيت فكان ذلك سبب خراب ملكه وكان خليل لما عظم أمره بغى على صاحب هراة الذى أورثه الملك وجهزه بالعساكر والمال فكتب إليه أن يخطب فى بلاده باسمه ويضرب الدنانير والدرهم على سكته فغاض ذلك الملك حسينا وأنف منه وأجابه بأقبح جواب فتجهز خليل لقتاله فلم توافقه عساكر الإسلام وزاوه باغيا عليه وبلغ خبره إلى الملك حسين فجهز العساكر مع ابن عمه ملك ورناء والتقى الجمعان فانهمز خليل وأتى به إلى الملك حسين أسيراً فمن عليه بالبقاء وجعله فى دار واعطاه جارية وأجرى عليه النفقة وعلى هذا الحال تركته عنده فى أواخر سنة سبع واربعمائة عند خروجى من الهند ولتعد إلى ما كنا بسبيله) ولما ودعت السلطان طر مشيرين سافرت إلى مدينة سمرقند وهى من أكبر المدن واحسنها واتمها جمالا مبنية على شاطئ واديعرف بوادى القصارين عليه النواعير تسقى البساتين وعنده يجتمع اهل البلد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرج ولهم عليه مساطب ومجالس يقعدون عليها ودكاكين تباع بها الفاكهة وسائر المأكولات وكانت على شاطئه قصور عظيمة وعمارة تنبىء عن علوهم اهلها فدثر اكثر ذلك وكذلك المدينة خرب كثير منها ولا سور لها ولا ابواب عليها وفى داخلها البساتين واهل سمرقند لهم مكارم اخلاق ومحبة فى الغريب وهم خير من اهل بخارى وبخارج سمرقند قبر قثم بن

العباس بن عبدالمطلب رضى الله عن العباس وعن ابنه وهو المستشهد حين فتحها ويخرج أهل سمرقند كل ليلة اثنين وجمعة إلى زيارته والتبر ياتون لزيارته ويندرون له الندور العظيمة ويأتون إليه بالبقر والغنم والدراهم والدنانير فيصرف ذلك في النفقة على الوارد والصادر والخدام الزاوية والقبر المبارك وعليه قبة قائمة على أربع أرجل ومع كل رجل ساريتان من الرخام منها الأخضر والسود والبيض والخر وحيطان القبة بالرخام المجزع المنقوش بالذهب وسقفها مصنوع بالرخام وعلى القبر خشب الابنوس المرصع مكسو الأركان بالفضة وفوقه ثلاثة من قناديل الفضة وفرش القبة بالصوف والقطن وخارجها نهر كبير يشق الزاوية التي هنالك على حافتيه الأشجار ودالي العنب والياسمين بالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر ولم يغير أيام التبر أيام كفرهم شيئاً من حال هذا الموضع المبارك كانوا يتبركون به لما يرون له من الآيات وكان الناظر في كل حال من هذا الضرب المبارك وما يليه حين نزولنا به الأمير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن عبد العزيز بن يوسف بن الخليفة المستنصر بالله العباسي قدمه لذلك السلطان طر مشيرين لما قدم عليه من العراق وهو الآن عند ملك الهند وسيأتي ذكره ولقيت بسمرقند قاضياً المسمى عندهم صدر الجهان وهو من الفضلاء ذوى المكارم وسافر إلى بلاد الهند بعد سفرى إليها فأدركته مدينته بمدينة ملتان قاعدة بلاد الهند .

(حكاية)

لما مات هذا القاضي بملتان كتب صاحب الخبر بأمره إلى ملك الهند وأنه قد يرسم بابه فاخترم دون ذلك فلما باع الخبر إلى الملك أمر أن يبعث إلى أولاده عدد من آلاف الدنانير لا يذكره الآن وأمر أن يعطى لأصحابه ما كان يعطى لهم لو وصلوا معه وهو بقاء الحياة والملك الهند في كل بلد من بلاده صاحب الخبر يكتب له بكل ما يجرى في ذلك البلد من الأمور وممن يرد عليه من الواردين وإذا أتى الوارد كتبوا من أى البلاد وردوا كتبوا اسمه ونعته وثيابه وأصحابه وخيله وخدامه وهيئته من الجلوس والمأكل وجميع شؤونه وتصرفاته وما يظهر أمنه من فضيلة أو ضدها فلا يصل الوارد إلى الملك إلا وهو عارف بجميع حاله فتسكون كرامته على مقدار ما يستحقه وسافرنا من سمرقند فاجتزنا ببلدة نسف وإليها ينسب أبو حفص عمر النسفي مؤلف كتاب المنظومة في المسائل الخلافية بين الفقهاء الأربعة رضى الله عنهم ثم وصلنا إلى مدينة ترمذ التي ينسب إليها الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى مؤلف الجامع الكبير في السنن وهى مدينة كبيرة حسنة العمارة والأسواق تكثر فيها الأنهار وبها البساتين الكثيرة والعنب والسفرجل بها متناهى الطيب

واللاحوم بها كثيرة وكذلك الألبان وأهلها يغسلون رؤسهم في الحمام باللبن عوضاً عن
الطفل ويكون عند كل صاحب حمام أوعية كبار مملوءة لبناً فإذا دخل الرجل الحمام أخذ منها
في إناء صغير فغسل رأسه وهو يترطب الشعر ويصقله وأهل الهند يجعلون في رؤسهم زيت
السمسم ويسمونه الشيراج ويغسلون الشعر بعده بالطفل فينعمهم الجسم ويصقل الشعر
ويطيله وبذلك طالت لحى أهل الهند ومن سكن معهم وكانت مدينة ترمذ القديمة مبنية على
شاطئ جيهون فلما خربها تنكيز بنيت هذه الحديثة على ميلين من النهر وكان نزولنا
بها بزاية الشيخ الصالح عزيزان من كبار المشايخ وكرماتهم كثير المال والرباع والبساتين
يتفق على الوارد والصادر من ماله واجتمعت قبل وصولي إلى هذه المدينة بصاحبها علاء
الملك خدواند زاده وكتب لي إليها بالضيافة فكانت تحمل إلينا أيام مقامنا بها في كل يوم
ولقيت أيضاً قاضياً قوام الدين وهو متوجه لرؤية السلطان طر مشيرين وطالب الإذن
له في السفر إلى بلاد الهند وسياً في ذكر لقائي له بعد ذلك ولأخويه ضياء الدين وبرهان
الدين بملتان وسفرنا جميعاً إلى الهند وذكر أخويه الآخرين عماد الدين وسيف الدين
ولقائي لهما بمضرة ملك الهند وذكر ولديه وقدمتهما على ملك الهند بعد قتل أبيهما
وتزويجهما بفتى الوزير خواجه جهان وما جرى في ذلك كله إن شاء الله تعالى ثم أجزنا
نهر جيهون إلى بلاد خراسان وسرنا بعد انصرافنا من ترمذ وإجازة الوادي يوماً
وتصف يوماً في صحراء ورمال لا عمارة بها إلى مدينة بلخ وهي خاوية على عرشها غير
عامرة ومن رآها ظنها عامرة لا تقان بنائها وكانت ضخمة فسيحة ومساجدها ومدارسها
باقية الرسوم حتى الآن ونقوش مبانيها مدخلة بأصبغة اللازورد والناس ينسبون اللازورد
إلى خراسان وإنما يجلب من جبال بدخشان التي ينسب إليها الياقوت البدخشي والعامّة
يقولون الباخش وسياً في ذكرها إن شاء الله تعالى وخرب هذه المدينة تنكيز اللعين
وهدم من مسجدها نحو الثلث بسبب كثر ذكره أنه تحت سارية من سواريه وهو من
أحسن مساجد الدنيا وأفسحها ومسجد رباط الفتح بالمغرب يشبهه في عظم سواريه
ومسجد بلخ أجمل منه في سوى ذلك

(حكاية)

ذكر لي بعض أهل التاريخ أن مسجد بلخ بنته امرأة كان زوجها أميراً ببليخ ابن العباس
يسمى داود بن علي فاتفق أن الخليفة غضب مرة على أهل بلخ لحادث أحدثوه فبعث إليهم
من يفرهم مغرمًا فاذحاً فلما بلغ إلى بلخ أتى نساؤها وصبياتها إلى تلك المرأة التي بنيت
المسجد وهي زوج أميرهم وشكوا حالهم وما لحقهم من هذا المغرم فبعثت إلى الأمير الذي

قدم برسم تغريمهم بثوب لها مرصع بالجواهر قيمته أكثر مما أمر بتغريمه فقالت له اذهب بهذا الثوب إلى الخليفة فقد أعطيته صدقة عن أهل بلخ لضعف حالهم فذهب به إلى الخليفة وإلى الثوب بين يديه وقص عليه القصة فخجل الخليفة وقال أتكون المرأة أكرم منا وأمره برفع المغرم عن أهل بلخ وبالعودة إليها ليرد المرأة ثوبها وأسقط عن أهل بلخ خراج سنة فعاد الأمير إلى بلخ وأتى منزل المرأة وقص عليها مقالة الخليفة ورد عليها الثوب فقالت له أوقع بصر الخليفة على هذا الثوب قال نعم قالت لا ألبس ثوبا وقع عليه بصر غير ذي محرم مني وأمرت ببيعته فبني منه المسجد والزاوية ورباط في مقابلته مبنى بالكندان وهو عامر حتى الآن وفضل من ثمن الثوب مقدار ثلثه فذكر أنها أمرت بدفنه تحت بعض سواري المسجد ليكون هنالك متيسرا إن احتيج إليه خرج فاخبر تنكيز بهذه الحكاية فأمر بهدم سواري المسجد فهدم منها نحو الثلث ولم يجد شيئا فترك الباقي على حاله وبخارج (بلخ) قبر يذكر أنه قبر عكاشة بن محصن الأسدي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما الذي يدخل الجنة بلا حساب وعليه زاوية معظمة بها كان نزولنا وبخارجها بركة ماء عجيبة عليها شجرة جوز عظيمة ينزل الواردون في الصيف تحت ظلها وشيخ هذه الزاوية يعرف بالحاج خرد وهو الصغير من الفضلاء وركب معنا وأرانا مزارات هذه المدينة منها قبر حزو قيل النبي عليه السلام وعليه قبة حسنة وزرنا بها أيضا قبورا كثيرة من قبور الصالحين لا أذكرها الآن ووقفنا على دار إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه وهي دار ضخمة مبنية بالصخر الأبيض الذي يشبه الكندان وكان زرع الزاوية مقترنا بها وقد سدت عليه فلم ندخلها وهي بمقربة من المسجد الجامع ثم سافرنا من مدينة بلخ فسرنا في جهال قوه استان (قستان) سبعة أيام وهي قرى كثيرة عامرة بها المياه الجارية والأشجار المورقة وأكثرها شجر التين وبها زوايا كثيرة فيها الصالحون المنقطعون إلى الله تعالى وبعد ذلك كان وصولنا إلى مدينة هراة وهي أكبر المدن العامرة بخراسان ومدن خراسان العظيمة أربع ثلثان عامرتان وهما هراة ونيسابور وثلثان خربتان وهما بلخ ومرو ومدينة هراة كبيرة عظيمة كثيرة العمارة ولأهلها اصلاح وعفاف وديانة وهم على مذهب الإمام أبي حنيفة رضى الله عنه وبلدهم طاهر من الفساد .

(ذكر سلطان هراة)

وهو السلطان المعظم حسين بن السلطان غياث الدين النوري صاحب الشجاعة المأثورة والتأييد والشجاعة ظهر له من انجاده الله تعالى ونأيدته في موطنين اثنين ما يقضى منه

المعجب احدهما عند ملاقاته جيشه للسلطان خليل الذي بغى عليه وكان منتهى أمره حصوله أسيرا في يديه والموطن الثاني عند ملاقاته بنفسه لسعود سلطان الرافضة وكان منتهى أمره تبيده وفراره وذهاب ملكه وولى السلطان حسين الملك بعد أخيه المهر وف بالحافظ وولى أخيه بعد أبيه غياث الدين

(حكاية الرافضة)

كان بخراسان رجلان أحدهما يسمى بمسعود والآخر يسمى بمحمد وكان لهما خمسة من الأصحاب وهم من الفتاك ويعرفون بالعراق بالاشطار ويعرفون بخراسان بسرايداران (سرايداران) ويعرفون بالعراق بالصقور فاتفق سبعتهم على الفساد وقطع الطرق وسلب الأموال وشاع خبرهم وسكنوا جبلا منيها بمقربة من مدينة بيهق وتسمى أيضا مدينة سيزار (سيزوار) فكانوا يكمنون بالنهار ويخرجون بالليل والعشي فيضربون على القرى ويقطعون الطرق يأخذون الأموال وأتال عليهم أشباههم من أهل الشر والفساد فكثرت عددهم واشتدت شكاواهم وهابهم الناس وضربوا على مدينة بيهق فملكوها ثم ملكوا سواها من المدن واكتسبوا الأموال وجندوا الجنود وركبوا الخيل وتسمى مسعود بالسلطان وصار العبيد يفرون عن مواليهم إليه فكل عبد فر منهم يعطيه الفرس والمال وإن ظهرت له شجاعة أمره على جماعة فمظم جيشه واستفحل أمره وتمذهب جميعهم بمذهب الرفض وطمحوا إلى استئصال أهل السنة بخراسان وإن يجعلوها كلة واحدة رافضية وكان بمشهد طوس شيخ من الرافضة يسمى بحسن وهو عندهم من الصالحاء فوافقهم على ذلك وسأوه بالخليفة وأمرهم بالعدل فأظهروه حتى كانت الدراهم والدنانير تسقط في معسكرهم فلا يلتقطها أحد حتى يأتي ربها قياخذها وغلبوا على نيسابور وبعث إليهم السلطان طغيتمور بالعساكر فهزموه ثم بعث إليهم نائبه أرغون شاه فهزموه وأسروه ومثوا عليه ثم غزاهم طغيتمور بنفسه في خمسين ألفا من التتر فهزموه وملكوا البلاد وغلبوا على سرخس والزاوه وطوس وهي من أعظم بلاد خراسان وجعلوا خليفتهم بمشهد على بن موسى الرضى وغلبوا على مدينة الجام ونزلوا بخاجها وهم قاصدون مدينة هراة وبينها وبينهم مسيرة ست فلما بلغ ذلك الملك حسيننا جمع الأمراء والعساكر وأهل المدينة واستشارهم هل يقومون حتى يأتي القوم أو يعضوا إليهم فيناجونهم فوقع اجتماعهم على الخروج إليهم وهم قبيلة واحدة يسمون الغورية ويقال أنهم منسوبون إلى غور الشام وإن أصلهم منه فتجهزوا أجمعون واجتمعوا من أطراف البلاد وهم ساكنون بالقرى وبصحراء مرغيس (بدغيس) وهي مسيرة أربع لا يزال عشبها أخضر ترعى منه ماشيتهم وخيولهم واكثر

شجرها الغسقي ومنها يحمل إلى أرض العراق وعضدهم أهل مدينة سمنان ونفروا جميعاً إلى الرافضة وهم مائة وعشرون الفاماً بين رجالة وفرسان يتودهم الملك حسين واجتمعت الرافضة في مائة وخمسين الفام من الفرسان وكانت الملاقاة بصحراء بوشنج وصبر الغريقي بقر يقان معائهم كانت الدائرة على الرافضة وفرسلطانهم مسعود وثبت خليفتهم حسن في عشرين ألفاً حتى قتل وقتل أكثرهم واسر منهم نحو أربعة آلاف وذكر لي بعض من حضر هذه الواقعة ان ابتداء القتال كان في وقت الضحى وكانت الهزيمة عند الزوال ونزل الملك حسين بعد الظهر فصلى واتى بالطعام فكان هو وكبراء اصحابه يأكلون وسائرهم يضربون اعناق الاسرى وعاد إلى حضرته بعد هذا الفتح العظيم وقد نصر الله السنة على يديه واطفأ نار الفتنة وكانت هذه الواقعة بعد خروجي من الهند عام ثمانية واربعين ونشأ بهراة رجل من الزهاد والصالحاء الفضلاء واسمه نظام الدين مولانا وكان اهل هراة يحبونه ويرجعون إلى قوله وكان يعظهم ويذكرهم وتوافقوا معه على تغيير المنكر وتعاقد معهم على ذلك خطيب المدينة المعروف بملك ورنار هو ابن عم الملك حسين ومتزوج بوجة والده وهي من أحسن الناس صورة وسيرة والملك يخافه على نفسه وسنذكر خبره وكانوا متى علموا بمنكر ولو

كان عند الملك غيره (حكاية)

ذكر لي انهم تعرفوا يوماً ان بدار الملك حسين منسكراً فاجتمعوا لتغييره وتحصن منهم بداخل داره فاجتمعوا على الباب في ستة آلاف رجل يخاف منهم فاستحضر الفقيه وكبار البلد وكان قد شرب الخمر فاقاموا عليه الحد بداخل قصره وانصرفوا عنه

(حكاية هي سبب قتل العقبيه نظام الدين المذكور)

كانت الاثر الك المجاورون لمدينة هراة الساكنون بالصحراء وملسكهم غيتهم والذى مر ذكره وهم نحو خمسين الفاً يخافهم الملك حسين ويهدى لهم الهدايا في كل سنة ويدارهم وذلك قبل هزيمته للرافضة واما بعد هزيمته للرافضة فتغلب عليهم ومن عادة هؤلاء الاثر الك النرد إلى مدينة هراة وربما شربوا بها الخمر واتاها بعضهم وهو سكران فكان نظام الدين يحد من وجد منهم سكرانا وهؤلاء الاثر الك اهل نجدة وباس ولا يزالون يضربون على بلاد الهند فيسبون ويقتلون وربما سبوا بعض المسلمات اللاتي يكن بارض الهند ما بين الكفار فإذا خرجوا بهن إلى خرسان يطلق نظام الدين المسلمات من أيدي الترك وعلامة النسوة المسلمات بأرض الهند ترك ثقب الاذن والكافرات آذانهم مثقوبات فاتفق مرة ان اميراً من أمراء الترك يسعى تمور الطي سبي امرأة وكلفها شديداً فذكرت انها

مسلمة فانتزعها الفقيه من يده فبلغ ذلك من التركي مبلغا عظيما وركب في آلاف من أصحابه وأغار على خيل هراة وهي في مرعاها بصحراء مرغيس (بدغيس) واحتملوها فلم يتركوا أهل هراة ما يركبون ولا ما يحملون وصعدوا بها إلى جبل هنالك لا يقدر عليهم فيه ولم يجد السلطان ولا جنده خيلا يتبعونهم بها فبعث اليهم رسولا يطلبهم رد ما أخذوه من الماشية والخيل ويذكركم العهد الذي بينهم فاجابوا بأنهم لا يردون ذلك حتى يكتنوا من الفقيه نظام الدين فقال السلطان لاسبيل إلى هذا وكان الشيخ أبو أحمد الجسقي حفيد الشيخ مودود الجسقي له بخمرسان شأن عظيم وقوله معتبر لديهم فركب في جماعة خيل من أصحابه وماليكه فقال انا أحمل الفقيه نظام الدين معي إلى الترك ايرضوا بذلك ثم ارده فسكران الناس مالوا إلى قوله ورأى الفقيه نظام الدين اتفاقهم على ذلك فركب مع الشيخ أبي أحمد ووصل إلى الترك فقام إليه الأمير تيمور الطي وقال له انت أخذت امرأتى منى وضربته بدبوسه فسكر دماغه فخر ميتا فسقط في أيدي الشيخ أبي أحمد وانصرف من هنالك إلى بلده ورد الترك ما كانوا أخذوه من الخيل والماشية وبعدهم قدم ذلك التركي الذي قتل الفقيه على مدينة هراة فلقيه جماعه من أصحاب الفقيه فتقدموا إليه كيأنهم مسلمون عليه وتحت أيامهم السيوف فقتلوه وفرا أصحابه ولما كان بعد هذا بعث الملك حسين ابن عمه ملك ورنال الذي كان رفيق الفقيه نظام الدين في تغيير المنكر رسولا إلى ملك سجستان فلما حصل بها بعث إليه ان يقيم هنالك ولا يعود إليه فقصد بلاد الهند ولقيته وانا خارج منها بمدينة سيوستان من السند وهو أحد الفضلاء وفي طبعه حب الرياسة والصيد والبراز والخيل والماليك والأصحاب واللباس الملوكي الفاخر ومن كان على هذا الترتيب فإنه لا يصلح حاله بأرض الهند فكان من أمره ان ملك الهند ولاه بلدا صغيرا وقتله به بعض أهل هراة المقيمين بالهند بسبب جارية وقيل ان ملك الهند دس عليه من قتله بسعى الملك حسين في ذلك ولأجله خدم الملك حسين ملك الهند بعد موت ملك ورنال المذكور وهاداه ملك الهند واعطاه مدينة بكار من بلاد السند ومجباها خمسون الفان دينار الذهب في كل سنة (ولنعبد) إلى ما كنا بسبيله فنقول سافرنا من هراة إلى مدينة الجاه وهي متوسطة حسنة ذات بساتين وأشجار وعيون كثيرة وانهار واكثرها التوت والحرير بها كثير وهي تنسب إلى الولي العابد الزاهد شهاب الدين أحمد الجاهي وسندكر حكايته وحفيده الشيخ أحمد المعروف بزاده الذي قتله ملك الهند والمدينة الآن لاولاده وهي محررة من قبل السلطان ولهم بها نعمة وثروة وذكر لي من اثق به ان السلطان ابا سعيد

ملك العراق قدم خراسان مرة ونزل على هذه المدينة وبها زاوية الشيخ فاضاه ضيافة عظيمة وأعطى لكل خبء بمحلته رأس غنم ولكل أربعة رجال رأس غنم ولكل دابة بالمحلة من فرس وبغل وحمار علف ليلة فلم يبق في المحلة حيوان إلا وصلته ضيافته

(حكاية الشيخ شهاب الدين الذى تنسب اليه مدينة الجام)

يذكر أنه كان صاحب راحة مكثرا من الشراب وكان له من الندماء نحو ستين وكانت لهم عادة ان يجتمعوا يوما في منزل كل واحد منهم فتدور النوبة على أحدهم بعد شهرين وبقوا على ذلك مدة ثم ان النوبة وصلت يوما الى الشيخ شهاب الدين فعقد النوبة ليلة النوبة وعزم على إصلاح حاله مع ربه وقال في نفسه ان قلت لاصحابي انى قد تبنت قبل اجتماعهم عندي ظنوا ذلك عجزا عن مؤنتهم فاحضروا ما كان يحضر مثله قبل من ما كولات ومشرب وجعل الخمر في الزقاق وحضر اصحابه فلما ارادوا الشرب فتحو زقافداقه احدهم فوجده حلوا ثم فتحو ثانيا فوجده كذلك ثم ثالثا فوجده كذلك فكلعوا الشيخ في ذلك فخرج لهم عن حقيقة امره وصدقهم سن بكره وعرفهم بتوبته وقال لهم والله ما هذا إلا الشراب الذى كنتم تشربونه فيما تقدم فتابوا جميعا الى الله تعالى وبنا تلك الزاوية وانقطعوا بها لعبادة الله تعالى وظهر لهذا الشيخ كثير من الكرامات والمكاشفات ثم سافروا من الجام الى مدينة طرس وهى اكبر بلاد خراسان واعظمها بلد الامام الشهيد بابى حامد الغزالى رضى الله عنه وبها قبرة ورحلنا منها الى مدينة مشهد الرضا وهو على بن موسى السكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين الشهيد ابن امير المؤمنين على بن ابى طالب رضى الله عنهم وهى ايضا مدينة كبيرة ضخمة كثيرة الفواكه والمياه والاجاء الطاحنة وكان بها الطاهر محمد شاه والطاهر عندهم بمعنى النقيب عندها اهل مصر والشام والعراق واهل الهند والسند وتركستان يقول السيد الاجل وكان ايضا بهذا المشهد القاضى الشريف جلال الدين لقيته بارض الهند الشريف على وولده امير هند ودولة شاه وصحبونى من ترمذ الى بلاد الهند وكانوا من الفضلاء والمشهد المسكرم عليه قبة عظيمة فى داخل زاوية تجاورها مدرسة ومسجد وجميعها مليح البناء مصنوع الحيطان بالقاشانى وعلى القبر دكانة خشب ملبسة بصفايح الفضة وعليه قناديل فضة معلقة وعتبة باب القبة فضة وعلى بابها سترحرير مذهب وهى مبسوطة بانواع البسط وإزاء هذا القبر قبر هارون الرشيد امير المؤمنين رضى الله عنه وعليه دكانة يضعون عليها الشمعدانات التى يعرفها اهل المغرب بالحسك والمناثر وإذا دخل الرافضى للزيارة ضرب

قبر الرشيد برجله وسلم على الرضا ثم سافرنا الى مدينة سرخس واليه ينسب الشيخ
الصالح لقمان السرخسي رضى الله عنه ثم سافرنا منها الى مدينة زاوة وهي مدينة الشيخ
الصالح قطب الدين حيدر واليه تنسب طائفة الحيدرية من الفقراء وهم الذين يحملون
حلق الحديد في ايديهم واعناقهم وآذانهم ويحملون ايضا في ذكورهم حتى لا يتأذى لهم
النكاح ثم رحلنا منها فوصلنا الى مدينة نيسابور وهي إحدى المدن الاربع التي هي قراعد
خراسان ويقال لها دمشق الصغيرة لكثرة فواكهها وبساتينها ومياهها وحسنها وتخرقها
أربعة من الانهار واسواقها حسنة متسعة ومسجدها بديع وهو في وسط السوق ويليه
اربع من المدارس يجرى بها الماء الغزير وفيها من الطلبة خلق كثير يقرؤون القرآن والفقه
وهي من حسان مدارس تلك البلاد ومدارس خراسان والعراقين ودمشق وبغداد ومصر
وإن بلغت الغاية من الانقان والحسن فكلها تقصر عن المدرسة التي عمرها مولانا امير
المؤمنين المتوكل على الله المجاهد في سبيل الله عالم الملوك واسطة عقد الخلفاء العادلين
ابوعنان وصل الله سعده ونصر جنده وهي التي عند القصبية من حضرة فاس حرسها الله
تعالى فانها لا نظير لها سعة وارتفاعا ونقش الجص بها لا قدرة لاهل المشرق عليه ويصنع
بنيسابور ثياب الحرير من النخ والسكخاء وغيرها وتحمل منها الى الهند وفي هذه المدينة
زاوية الشيخ الامام العالم القطب العابد قطب الدين النيسابوري احد الوعاظ العلماء
الصالحين نزلت عنده فاحسن القرى واكرم ورايت له البراهين والكرامات العجيبة

كرامة له

كنت قد اشتريت بنيسابور غلاما تركيا فراه معي فقال لي هذا الغلام لا يصلح لك فبعه
فقلت له نعم وبعث الغلام في غد ذلك اليوم واشترته بعض التجار وادعت الشيخ وانصرفت
فلما حلت بمدينة بسطام كتب إلى بعض اصحابي من نيسابور وذكر ان الغلام المذكور
قتل بعض اولاد الاتراك وقتل به وهذه كرامة واضحة لهذا الشيخ رضى الله عنه وسافرت
من نيسابور الى مدينة بسطام التي ينسب اليها الشيخ العارف ابو يزيد البسطامي الشهير
رضى الله عنه وهذه المدينة قبره ومعه في قبة واحدة احد اولاد جعفر الصادق
رضى الله عنه وبسطام ايضا قبر الشيخ الصالح الولي ابى الحسن الخرقاني وكان نزولي من
هذه المدينة يزاورية الشيخ ابى يزيد البسطامي رضى الله عنه ثم سافرت من هذه المدينة على
طريق هندخير الى قندوس وبغلان وهي قرى فيها مشايخ وصالحون وبها البساتين والانهار
فنزلنا بقندوس على نهر ماء به زاوية لاحد شيوخ الفقراء من أهل مصر يسمى بشير سياه

ومعنى ذلك الأسد الأسود وأضافنا بها والى تلك الأرض وهو من أهل الموصل ببستان عظيم هنالك .

وأقمنا بخارج هذه القرية نحو أربعين يوماً لرعى الجمال والخيل وبها مراعى طيبة وأعشاب كثيرة والأمن بها شامل بسبب شدة أحكام الأمير برنطية وقد قدمنا أن أحكام الترك فى من سرق فرسا أن يعطى معه تسعة مثله فان لم يجد ذلك أخذ فيها أولاده فإن لم يكن له أولاد ذبح ذبح الشاة .

والناس يتركون دوابهم مهملّة دون راع بعد أن يسم كل واحد دوابه فى أخذها وكذلك فعلنا فى هذه البلاد واتفق أن تفقدنا خيلنا بعد عشر من نزلنا بها ففقدنا منها ثلاثة أفراس .

ولما كان بعد نصف شهر جاءنا التتر بها إلى منزلنا خوفاً على أنفسهم من الأحكام وكنا نربط فى كل ليلة ازاء أخبيتنا فرسين لما عسى أن يقع بالليل ففقدنا الفرسين ذات ليلة وسافرنا من هنالك وبعد ثنتين وعشرين ليلة جاؤا بهما إلينا فى أثناء طريقنا وكان أيضاً من أسباب إقامتنا خوف الشاج فان بأثناء الطريق جبلا يقال له هندوكوش ومعناه قاتل الهنود لأن العبيد والجوارى الذى يوتى بهم من بلاد الهند يموت هنالك الكثير منهم أشدّة البرد وكثرة الثلج وهو مسيرة يوم كامل وأقمنا حتى تمسكنا من دخول الحر وقطعنا ذلك الجبل من آخر الليل وسلكنا به جميع نهارنا إلى الغروب وكنا نضع اللبود بين أيدي الجمال تطأ عليها لئلا تفرق فى الشاج ثم سافرنا إلى موضع يقرب بأندر وكانت هنالك فيما تقدم مدينة عفى رسمها ونزلنا بقرية عظيمة فيها زاوية لأحد الفضلاء ويسمى بمحمد المروى ونزلنا عنده وأكرمنا وكان متى غسلنا أيدينا من الطعام يشرب الماء الذى غسلناها به لحسن اعتقاده وفضله وسافر معنا إلى أن صعدنا جبل هندوكوش المذكور .

ووجدنا بهذا الجبل عين ماء حارة فغسلنا منها وجوهنا فتقشرت وتألّمتنا لذلك ثم نزلنا بموضع يعرف ببنيج هير ومعنى بنيج خمسة وهو الجبل فعناه خمسة جبال وكانت هنالك مدينة حسنة كثيرة العمارة على نهر عظيم أزرق كأنه بحر ينزل من جبال بدخشان وهذه الجبال يوجد الياقوت الذى يعرفه الناس بالبلخش وخرب هذه البلاد تسكن ملك التتر فلم تعمّر بعده وبهذه المدينة مزار الشيخ سعيد المسكى وهو معظم عندهم ووصلنا إلى جبل بشاى (وضبطه بفتح الباء المعقودة والشين المعجم والفاء وياء ساكنة) وبه زاوية الشيخ الصالح أطا أولياء وأطا (بفتح الهمزة) معناه بالتركية الاب وأولياء

باللسان العربي فمعناه أبو الأولياء ويسمى أيضا سيصد صاله وسيصد (بسين مهمل
مكسور وياء مد وصاد مهمل مفتوح ودال مهمل) ومعناه بالعربية ثلاثمائة وصاله
(صاله) (بفتح الصاد المهمل واللام) معناه عام وهم يذكرون ان عمره ثلاثمائة وخمسون
عاما ولهم فيه اعتقاد حسن ويا تون لريارتهم من البلاد والقرى ويقصد السلاطى والخواتين
وأكرمنا وأضافنا ونزل على نهر عند زاويته ودخلنا إليه فسلبت عليه وعانقنى وجسمه
رطب لم أر ألين منه ويظن رائيه ان عمره خمسون سنة وذكر لى انه فى كل مائة سنة
يذبت له الشعر والأسنان وانه رأى أباهم الذى قبره بملتان من السند وسأله عن رواية
حديث فأخبرنى بحكايات وشككت فى حاله والله أعلم بصدقه ثم سافرنا إلى برون (وضبطها
بفتح الباء المعقودة وسكون الراء وفتح الواو وآخرها نون) وفيها القيت الأمير برطية وضبط
اسمها بضم الباء وضم الراء وسكون النون وفتح الطاء المهمل وياء آخر الحروف مسكن
وهاء) واحسن إلى واكرمنى وكتب إلى نوابه بمدينة غزنة فى إكرامى وقد تقدم ذكره
وذكر ما أعطى من البسطة فى الجسم وكان عنده جماعة من المشايخ والفقراء أهل الروايا
ثم سافرنا إلى قرية الجرخ (وضبط اسمها بفتح الجيم المعقودة وإسكان الراء وخاء معجم)
وهى كبيرة لها بساين كثيرة وفوا كمهاطية قدمناها فى أيام الصيف ووجدنا بها جماعة من
الفقراء والطلبة وصلينا بها الجمعة وأضافنا أميرها محمد الجرخى ولقيته بعد ذلك بالهند ثم
سافرنا إلى مدينة غزنة وهى بلد السلطان المجاهد محمود بن سبكتين الشهير الاسم وكان من كبار
السلطين يلقب بيمين الدولة وكان كثير الغزو إلى بلاد الهند وفتح بها المدائن والحصون وقبره
بهذه المدينة عليه زاوية قد خرب معظم هذه البلدة ولم يبق منها إلا يسير وكانت كبيرة وهى
شديدة البرد والساكنون بها يخرجون عنها أيام البرد إلى مدينة القندهار وهى كبيرة مخصبة
ولم أدخلها وبينهم مسيرة ثلاث ونزلنا بخارج غزنة فى قرية هنالك على نهر ماء تحت قلعتها
وأكرمنا أميرها مرذك اغا ومرذك (بفتح الميم وسكون الراء وفتح الذال المعجم) ومعناه
الصغير واغا (بفتح الهمزة والغين المعجم) ومعناه الكبير الأصل ثم سافرنا إلى كابل وكانت
فيما سلف مدينة عظيمة وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الأعاجم يقال لهم الأفغان ولهم
جبال وشعاب وشوكة قوية واكثرهم قطاع الطريق وجبابهم الكبير يسمى كوه سليمان يذكرون
ان نبي الله سليمان عليه السلام صعد ذلك الجبل فنظر إلى أرض الهند وهى مظلمة فرجع ولم يدخلها
فسمى الجبل به وفيه يسكن ملك الأفغان وبكابل زاوية الشيخ اسماعيل الأفغانى تلميذ الشيخ
عباس من كبار الأولياء ومنهار حملنا إلى كرماش وهى حصن بين جبلين تقطع به الأفغان وكنا
حين جوازنا عليه نقا تلهم وهم بسفح الجبل ونرميهم بالنشاب فيفرون وكانت رفقتنا محفة
ومهم نحو أربعة آلاف فرس وكانت لى جمال انقطعت عن القافلة لأجلها ومعى جماعة
بعضهم من الأفغان وطرحنا بعض الزاد وتركنا أحمال الجمال التى أعيت بالطريق وعادت

الهاخيلنا بالغد فاحتملنا ووصلنا الى القافلة بعد العشاء الآخرة فبيتنا بمنزل ششعار وهي آخر العمارة مما يلي بلاد الترك ومن هنا دخلنا البرية الكبرى وهي مسيرة خمس عشرة لا تدخل إلا في فصل واحد وهو بعد نزول المطر بأرض السند والهند وذلك في أوئل شهر يولية وتهب في هذه البرية ريح السموم القاتلة التي تعفن الجسوم حتى أن الرجل إذا مات تنفسخ أعضاؤه وقد ذكرنا أن هذا الريح تهب أيضا في البرية بين هرمز وشيراز وكانت تقدمت امامنا رفقة كبيرة فيها خداوند زاده قاضي ترمذ فمات لهم جمال وخيل كثيره ووصلت رفقتنا سالمه بحمد الله تعالى إلى بنج آب وهو ماء السند وبنج (بفتح الباء الموحدة وسكون النون والجيم) ومعناه خمسة وآب (بهمزة مفتوحة بمدودة وباء موحدة) ومعناه الماء فعنى ذلك الأودية الخمسة وهي تصب في النهر الأعظم وتبقى تلك النواحي وسند كرها إن شاء الله تعالى وكان وصولنا لهذا النهر سابع ذى الحجة واستهل علينا تلك الليلة هلال المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبع مائة ومن هنالك كتب المخبرون بخبرنا إلى أرض الهند وعرفوا ملكها بكيفية أحوالنا وهاهنا ينتهى بنا الكلام فى هذا السفر والحمد لله رب العالمين

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى)

(تذييل) يقول مصححه وحيث انتهينا من رحلة الشيخ المغربي المعروف بابن بطوطة إلى هذا الحد وهو أول جلد وقد شرع رحمه الله تعالى في ذكر ما شاهدته من العجائب والغرائب ببلاد الهند وهو ثاني جلد رأيناه من المفيد أن نورد هنا عبارة توجد في مقدمة ابن خلدون رحمه الله تعالى بما يتعاقب هذا القصد تنميها للفائدة وتقييد اللشاردة ونصها بقصها وقصها * ورد على المغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند واتصل بملكها الذي هو السلطان محمد شاه وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بذهب المالكية في عمله ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان وكان يحدث عن شأن رحلته ومارأى من العجائب بممالك الأرض وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتي من أحواله بما يستغرب به السامعون مثل أن ملك الهند إذا خرج للسفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر يدفع لهم من عطائه وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد يطوفون به وينصب أمامه في ذلك المحفل منجنبيات على الظهري يرمي بها شكائر الدراهم والدينار على الناس إلى أن يدخل إيوانه وأمثال هذه الحكايات فتساجي الناس في الدولة بتكذيبه رافيت أنا يؤمئذ في بعض الأيام وزير السلطان فارس بن ودار البعيد الصيت ففاوضته في هذا الشأن ورايته أنكر أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه فقال الوزير فارس إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره فتسكون كابن الوزير الناشئ في السجن وذلك أن وزير اعتقله سلطاناه فمكث في السجن سنين ربي فيها ابنه في ذلك المجلس فلما أدرك وعقل سأل عن اللعنان التي كان يتغذى بها فإذا قال له أبوه هذا لحم الغنم يقول وما الغنم فيصغها له أبوه بشياتها ونعوتها فيقول يا ابت تراها مثل الفار فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفار وكذا في لحم البقر والابل إذ لم يعاين في محبسه إلا الفار فيحسبها كلها أبناء جنس للفار وهذا كثير مما يعثرى الناس في الأخبار كما يعثرهم الوسواس في الزيادة عند قصد الأغراب كما قدمناه أول الكتاب فليرجع الإنسان إلى أصوله ولا يكتن بهيمنا على نفسه ويميز بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فإذا دخل في نطاق الامكان قبله وما خرج عنه رفضه وليس مرادنا الامكان العقلي المطلق فإن نطاقه أوسع شيء فلا يفرض حدا بين الواقعات وإنما مرادنا الامكان بحسب المادة التي للشيء فإذا نظرنا أصل الشيء وجنسه وفصله ومقدار عظمته وقوته أجرينا الحكم في نسبة ذلك على أحواله وحكمنا بالامتناع على خرج ما من نطاقه وقل ربي زدني علما (اه بحروفه)

رسالة ابن بطوطه

المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار
وعجائب الأسفار

الجزء الثاني

سنة ١٩٥٨ م — سنة ١٣٧٧ هـ

رُوجِعَتْ وصَحِّحَتْ عَلَى عِدَّةِ نَسَخٍ صَحِيحَةٍ
بِمَعْرِفَةِ لَجْنَةِ مِنَ الْأَدَبَاءِ

يَطْلُبُ مِنْ
المكتبة التجارية الكبرى
بمصر ص.ب ٥٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم)

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي
المعروف بابن بطوطه رحمه الله تعالى

ولما كان بتاريخ الغرة من شهر الله المحرم مفتتح عام أربعة وثلاثين وسبعمائة وصلنا إلى وادي السند المعروف ببندج آب ومعنى ذلك المياه الخمسة وهذا الوادي من أعظم أودية الدنيا وهو يفيض في أوان الحر فيزرع أهل تلك البلاد على فيضيه كما يفعل أهل الديار المصرية في فيض النيل وهذا الوادي هو أول عمالة السلطان المعظم محمد شاه ملك الهند السند والهند ولما وصلنا إلى هذا النهر جاء إلينا أصحاب الأخبار الموكلون بذلك وكتبوا بخبرنا إلى قطب الملك أمير مدينة ملتان وكان أمير أمراء السند على هذا العهد مملوك للسلطان يسمى سرتيز وهو عرض الممالك وبين يديه تعرض عساكر السلطان ومعنى اسمه الحاد الرأس لأن سر (بفتح السين المهملة وسكون الراء) وهو الرأس وتيز (بتاء معلوة وياء مد وزاي) معناه الحاد وكان في حين قدومنا بمدينة سيوستان من السند وبينها وبين ملتان مسيرة عشرة عشرة أيام وبين بلاد السند وحضرة السلطان مدينة على مسيرة خمسين يوما وإذا كتب المخبرون إلى السلطان من بلاد السند يصل الكتاب إليه في خمسة أيام بسبب البريد .

(ذكر البريد)

والبريد ببلاد الهند صنفان فاما برید الخيل فيسمونه اللواق (أولاق) (بضم الواو وآخره قاف) وهو خيل تكون للسلطان في كل مسافة أربعة أميال وأما برید الرجال فيكون في مسافة الميل الواحد منه ثلاث رتب ويسمونها الداوة (بالدال المهملة والواو) والداوة هي ثلاث ميل والميل عندهم يسمى السكروة (بضم الكاف والراء) وترتيب ذلك أن يكون في كل ثلاث ميل قرية معمورة ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة قد شدوا أوساطهم وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين بأعلاها جلاجل

تحاس فاذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد
الأخرى يشتد بمنتهى جهده ،

فاذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبوا فاذا وصلهم أخذ أحدهم
الكتاب من يده ومر بأقصى جهده وهو يحرك المقرعة حتى يصل إلى الداوة الأخرى
ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب إلى حيث يراد منه .

وهذا البريد أسرع من بريد الخيل وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة
بالهند من فواكه خراسان يجعلونها في الأطباق ويشدون بها حتى تصل إلى السلطان
وكذلك يحملون الكبار من ذوى الرتب يحملون الرجل على سرير ويرفعونه فوق
رؤوسهم ويسرون به شدا وكذا يحملون الماء لشرب السلطان إذا كان بدولة أبادي يحملونه
من نهر السكتك الذى تحج الهند إليه وهو على مسيرة أربعين يوما منها .

وإذا كتب المخبرون إلى السلطان بخبر من يصل إلى بلاده استوعبوا الكتاب وأمعنوا
في ذلك وعرفوه أنه ورد رجل صورته كذا ولباسه كذا وكتبوا عدد أصحابه وغلبانه
وخدامه ودوابه وترتيب حاله في حركته وسكونه وجميع تصرفاته لا يغادرون من
ذلك كله شيئا .

فاذا وصل الوارد مدينة ملتان وهى قاعدة بلاد السند وأقام بها حتى ينفذ أمر السلطان
بقدمه وما يجرى له من الضيافة وإنما يكرم الانسان هنالك بقدر ما يظهر من أفعاله
وتصرفاته وهمته إذ لا يعرف هنالك ما حسبه ولا آباؤه .

ومن عادة ملك الهند السلطان أبى المجاهد محمد شاه إكرام الغرباء ومحبتهم وتخصيصهم
بالولايات والمراتب الرفيعة ومعظم خواصه وحجابه ووزرائه وقضاته وأصحابه
غرباء ونفذ أمره بأن يسمى الغرباء في بلده الأعزة فصار لهم ذلك اسما علما ولا بد
لكل قادم على هذا الملك من هدية يهديها إليه ويقدمها وسيلة بين يديه فيكافئه السلطان
عليها بأضعاف مضاعفة وسيمر من ذكر هدايا الغرباء إليه كثير ولما تعود الناس ذلك
منه صار التجار الذين ببلاد السند والهند يعطون لكل قادم على السلطان الآلاف من
الدنانير دينا ويجهزون به بما يريد أن يهديه إليه أو يتصرف فيه لنفسه من الدواب للركوب
والجمال والامتعة ويخدمونهم بأهوالهم وأنفسهم ويقفون بين يديه كالخشم فاذا وصل
إلى السلطان أعطاه العطاء الجزيل فقتضى ديونهم ووفاهم حقوقهم فنشفت تجارتهم وكثرت
أرباحهم وصار لهم ذلك عادة مستمرة ولما وصلت إلى بلاد السند سلكت ذلك المنهج
واشتريت من التجار الخيل والجمال والماليك وغير ذلك ولقد اشتريت من تاجر عراقى
من أهل تكريت يعرف بمحمد الدورى بمدينة غزنة نحو ثلاثين فرسا وجملا عليه

حمل من النشاب فانه مما يهدى إلى السلطان وذهب التاجر المذكور إلى خراسان ثم عاد إلى الهند وهناك تقاضى منى مائة واستفاد بسببى فائدة عظيمة وعاد من كبار التجار ولقيته بمدينة حلب بعد سنين كثيرة وقد سلبنى السكر مما كان بيدي فلم ألق منه خيراً

(ذكر السكر كدن)

ولما أجزنا نهر السند المعروف ببنجاب دخلنا غيضة قصب لسلوك الطريق لأنه في وسطها فخرج علينا السكر كدن وصورته انه حيوان أسود اللون عظيم الجرم رأسه كبير متفاوت الضخامة ولذلك يضرب به المثل فيقال السكر كدن رأس بلا بدن وهو دون الفيل ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف وله قرن واحد بين عينيه طوله نحو ثلاثة أذرع وعرضه نحو شبر ولما خرج علينا عارضه بعض الفرسان في طريقه فضرب الفرس الذى كان تحته بقرنه فأفقد نخذه وصرعه وعاد إلى الغيضة فلم نقدر عليه وقد رأيت السكر كدن مرة ثانية في هذا الطريق بعد صلاة العصر وهو يرعى نبات الأرض فلما قصدناه هرب منا ورأيت مرة أخرى ونحن مع ملك الهند دخلنا غيضة قصب وركب السلطان على الفيل وركبنا معه الفيلة ودخلت الرجال والفرسان فأثاروه وقتلوه واستاقوا رأسه إلى المحلة .

وسرنا من نهر السند يومين ووصلنا إلى مدينة جناني (وضبط اسمها بفتح الجيم والنون الأولى وكسر الثانية) مدينة كبيرة على ساحل نهر السند لها أسواق مليحة وسكانها طائفة يقال لهم السامرة استوطنوها قديماً واستقر بها أسلافهم حين فتحها على أيام الحجاج ابن يوسف حسبما أثبت المؤرخون في فتح السند وأخبرني الشيخ الامام العالم العابد الزاهد ركن الدين أبي الشيخ الفقيه الصالح شمس الدين ابن الشيخ الامام العابد الزاهد بهاء الدين زكريا القرشي وهو أحد الثلاثة الذي أخبرني الشيخ الولي الصالح برهان الدين الاعرج بمدينة الاسكندرية اني سألتهم في رحلتى فلقيتهم والحمد لله ان جده الأعلى كان يسمى بمحمد ابن قاسم القرشي وشهد فتح السند في العسكر الذي بعثه لذلك الحجاج بن يوسف أيام إمارته على العراق وأقام بها وتكاثر ذريته وهؤلاء الطائفة المعروفون بالسامرة لا يأتون مع أحد ولا ينطو اليهم أحد حين يأتون ولا يصاهرون أحد من غيرهم ولا يصاهر اليهم أحد وكان لهم في هذا العهد أمير يسمى ونار (بضم الواو وفتح النون) وسندكر خبره ثم سافرنا من مدينة جناني إلى ان وصلنا إلى مدينة سيوستان (وضبط اسمها بكسر السين الاول المهمل وياء مد وواو مفتوح وسين مكسور وتاء معلومة وآخره نون) وهي مدينة كبيرة وخارجها صحراء ورمال لا شجر بها إلا شجر أم غيلان ولا يزرع

على نهرها شيء ما عدا البطيخ وطعامهم الذرة والجلبان ويسمونه المشتك (بميم وشين معجم مضمومين ونون مسكن) ومنه يصنعون الخبز وهي كثيرة السمك والالبان الجاموسية وأهلها يأكلون السقنقور وهي دويبة شبيهة بام حنين التي يسميها المغاربة حنيشة الجنة إلا أنها لا ذنب لها ورأيتهم يحتفرون الرمل ويستخرجون منها ويشقون بطنها ويرمون بما فيه ويحشونه بالسكر كم وهم يسمونه زردشوبه ومعناه العود الأصفر وهو عندهم عوض الزعفران ولما رأيت تلك الدويبة وهم يأكلونها استقدرتها فلم آكلها ودخلنا هذه المدينة في احتدام القيظ وحرها شديد فكان أصحابي يبعدون عريانين يجعل أحدهم فوطة على وسطه وفوطة على كتفيه مبلولة بالماء فما يمضي اليسير من الزمان حتى تيبس تلك الفوطة فيجلبها مرة أخرى وهكذا أبدا ولقيت بهذه المدينة خطيبها المعروف بالشيباني وأراني كتاب أمير المؤمنين الخليفة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لجده الأعلى بخطابة هذه المدينة وهم يتوارثونها من ذلك العهد حتى الآن .

(ونص الكتاب) هذا ما أمر به عبد الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لفلان وتاريخه سنة تسع وتسعين وعليه مكتوب بخط أمير المؤمنين لفلان عمر بن عبد العزيز الحمد لله وحده على ما أخبرني الخطيب المذكور ولقيت بها الشيخ الماهر محمد البغدادي وهو بالزاوية التي على قبر الشيخ الصالح عثمان المرتضى وذكر أن عمره يزيد على مائة وأربعين سنة وأنه حضر لقتل المستقيم بالله آخر خلفاء بني العباس رضى الله عنهم لما قتله الكافر هلاون ابن تنكير التري وهذا الشيخ على كبر سنه قوى الجثة يتصرف على قدميه

(حكاية)

كان يسكن بهذه المدينة الأمير ونار السامري الذي تقدم ذكره والأمير قيصر الرومي وهما في خدمة السلطان ومعهما نحو ألف وثمانية فارس وكان يسكن بها كافر من الهنود اسمه رتن (بفتح الراء وبفتح التاء المعلو والنون) وهو من الخذاق بالحساب والكتابة فوفد على ملك الهند مع بعض الأمراء فاستحسنه السلطان وسماه عظيم السند وولاه بتلك البلاد وأقطعه سيوستان وأعمالها وأعطاء المراتب وهي الأطببال والعلامات كما يعطى كبار الأمراء فلما وصل إلى تلك البلاد عظم على ونار وقيصر وغيرهم تقديم الكافر عليهم فأجمعوا على قتله فلما كان بعد أيام من قدومه أشاروا عليه بالخروج إلى أحواز المدينة ليتطلع على أمورها فخرج معهم فلما جن الليل أقاموا ضجة بالمحلة وذعموا أن السبع ضرب عليها وقصدوا ضرب الكافر فقتلوه وعادوا إلى المدينة فأخذوا ما كان بها من مال السلطان وذلك اثنا عشر لكا واللك مائة ألف دينار وصرف اللك عشرة آلاف دينار من ذهب الهند وصرف الدينار الهندي ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب وقدموا على أنفسهم

ونار المذكور وسموه ملك فيروز وقسم الأموال على العسكر ثم خاف على نفسه لبعده
عن قبيلته فخرج فيمن معه من أقاربه وقصد قبيلته وقدم الباقون من العسكر على أنفسهم
قيصر الروم واتصل خبرهم بعماد الملك سرتيز ملك السلطان وهو يومئذ منذ أمير أمراء السند
وسكناه بملتان فجمع العساكر وتجهز في البر وفي نهر السند وبين ملتان وسيوستان عشرة
أيام وخرج إليه قيصر فوقع اللقاء وانهمز قيصر ومن معه أشنع هزيمة وتخصموا
بالمدينة فحاصروهم ونصب المجانيق عليهم واشتد عليهم الحصار فطلبوا الأمان بعدد أربعين
يوماً من نزولهم فأعطاهم الأمان فلما نزلوا إليه غدرهم وأخذ أموالهم وأمر بقتلهم
فكان كل يوم يضرب أعناق بعضهم ويوسط البعض ويساخ آخرون منهم ويملاً جلودهم
أبنا ويعلقها على السور فكان معظمه عليه تلك الجلود مصلوبة ترعب من ينظر إليها وجمع
رؤسهم في وسط المدينة فكانت مثل التل هنالك ونزات بتلك المدينة إثر هذه الواقعة
بمدرسة فيها كبيرة وكنت أنام على سطحها فإذا استيقظت من الليل أرى تلك الجلود
المصلوبة فتشبه النفس منها ولم تطب نفسي بالسكنى بالمدرسة فانتقلت عنها وكان الفقيه
الفاضل العادل علاء الملك الخراساني المعروف بفصيح الدين قاضي هراة في متقدم التاريخ
قد وفد على الملك الهادي فولاه مدينة لا هري وأعمالها من بلاد السند وحضر هذه الحركة
مع عماد الملك سرتيز بمن معه من العساكر فعزمت على السفر معه إلى مدينة لا هري
وكان له خمسة عشر مركباً قدم بها في نهر السند تحمل أثقاله فسافرت .

(ذكر السفر في نهر السند وترتيب ذلك)

وكان للفقيه علاء الملك في جملة سفن سفينة تعرف باللاهورة (بفتح الهمزة والهاء
وسكون الواو وفتح الراء) وهي نوع من الطريدة عندنا إلا أنها أوسع منها وأقصر وعلى
أصفيها ممرعش من خشب يصعد له على درج وفوقه مجلس مهيباً لجلوس الأمير ويجلس
أصحابه بين يديه ويقف المماليك يمنة ويسرة والرجال يقذفون وهم نحو أربعين ويكون
مع هذه الأمور اللاهورة أربعة من السفن عن يمينها ويسارها اثنان منها فيهما مراتب
الأمير وهي العلامات والطبول والأبواق والأنفار والصرنايات وهي الغيطات والآخراة
فيهما أهل الطرب فتضرب الطبول والأبواق نوبة ويغنى المغنون نوبة ولا يزالون كذلك من
أول النهار إلى وقت الظهر فإذا كان وقت الغداء اجتمعت المراكب ووصل بعضها ببعض
ووضعت بينهما الاصقالات وأتى أهل الطرب إلى لاهورة الأمير فيغنون إلى أن يفرغ من
أكله ثم يأكلون وإذا فرغوا من الأكل عادوا إلى سفنهم وشرعوا في المسير على ترتيبهم
إلى الليل فإذا كان الليل ضربت المحلة على شاطئ النهر ونزل الأمير إلى خيامه ومد

السالموط وحضر الطعام معظم العسكر فاذا صلوا العشاء الأخيرة سمر السمار بالليل نوبا
فاذا أتم أهل النوبة منهم نوبتهم نادى مناد منهم بصوت عال ياخو ندملك قد مضى من
الليل كذا من الساعات ثم يسمر أهل النوبة الأخرى فاذا أتموها نادى منادهم أيضا معلما
بما مر من الساعات فاذا كان الصبح ضربت الأبواق والطبول وصارت صلاة الصبح وأنى
بالطعام فاذا فرغ الأكل أخذوا في المسير فان أراد الأمير ركوب النهر ركب على ما ذكرناه
من الترتيب وإن أراد المسير في البر ضربت الأبطال والأبواق وتقدم حجابهم ثم تلاهم
المشاؤون بين يديه ويكون بين أيدي الحجاب ستة من الفرسان عند ثلاثة منهم أبطال قد
تقلدوها وعند ثلاثة صرنايات فاذا أقبلوا على قرية أو ما هو من الأرض مرتفع ضربوا تلك
الأبطال والصرنايات ثم تدق أبطال العسكر وأبواقه ويكون عن يمين الحجاب ويسارهم
المغننون يغنون نوبا فاذا كان وقت الغذاء نزلوا .

وسافرت مع علاء الملك خمسة أيام ووصلنا إلى موضع ولايته وهو مدينة لا هري
(وضبط اسمها بفتح الهاء وكسر الراء) مدينة حسنة على ساحل البحر الكبير وبها يصب نهر
السند في البحر فيلحق بها بحر ان ولها مرسى عظيم يأتي اليه أهل البن وأهل فارس وغيرهم ،
بذلك عظمت جباياتها وكثرت أموالها أخبرني الأمير علاء الملك المذكور ان بجي هذه
المدينة ستون لكا في السنة وقد ذكرنا مقدار الملك والامير من ذلك ثم (نم) ده يك
ومعناه نصف العشر وعلى ذلك يعطى السلطان البلاد لعماله يأخذون منها لأنفسهم
نصف العشر.

(ذكر غريبة رأيها بخارج هذه المدينة)

وركبت يوما مع علاء الملك فانهينا إلى بسيط من الأرض على مسافة سبعة أميال منها
يعرف بتارنا فرأيت هنالك مالا يحصره العد من الحجارة على مثل صور الآدميين والبهائم
وقد تغيرت كثير منها واثرت أشكاله فيبقى منه صورة رأس أو رجل أو سواهما ومن الحجارة
أيضا على صورة الحبوب من البر والحبس والفول والعدس وهنالك آثار سور وجدران
دور ثم رأينا رسم دار فيها بيت من حجارة منحوتة وفي وسطه دكانة حجارة منحوتة كأنها
حجر واحد عليها صورة آدمي إلا أن رأسه طويل وفيه في جانب من وجهه ويداه خلف ظهره
كالمسكتوف وهنالك مياه شديدة النتن وكتابة على بعض الجدران بالهندي وأخبرني علاء
الملك ان أهل التاريخ يزعمون أن هذا الموضع كانت فيه مدينة عظيمة أكثر أهلها الفساد
فمسخوها حجارة وأن ملكهم هو الذي على الدكانة في الدار التي ذكرناها وهي الان تسمى
دار الملك وأن الكتابة التي في بعض الحيطان بالهندي هي تاريخ هلاك أهل تلك المدينة

وكان ذلك منذ ألف سنة أو نحوها وأقيمت بهذه المدينة مع علاء الملك خمسة أيام ثم أحسن في الزاد وانصرفت عنه إلى مدينة بكار (بفتح الباء الموحدة) وهي مدينة حسنة يشقها خليج من نهر السند وفي وسط ذلك الخليج زاوية حسنة فيها الطعام للوارد والصادر عمرها كشلو خان أيام ولايته على بلاد السند وسيقع ذكره ولقيت بهذه المدينة الفقيه الإمام صدر الدين الحنفي ولقيت بها قاضيا المسمى بأبي حنيفة ولقيت بها الشيخ العابد الزاهد شمس الدين محمد الشيرازي وهو من المعمرين ذكر لي أن سنه يزيد على مائة وعشرين عاما ثم سافرت من مدينة بكار فوصلت إلى مدينة أوجه (وضبط اسمها بضم الهمزة وفتح الجيم) وهي مدينة كبيرة على نهر السند لها أسواق حسنة وعمارة جيدة وكان الأمير بها إذ ذاك الملك الفاضل الشريف جلال الدين الكيجي أحد الشجعان الكرماء وبهذه المدينة توفي بعد سقطه سقطها عن فرسه .

(مكرمة لهذا الملك)

ونشأت بيني وبين هذا الملك الشريف جلال الدين مودة وتأكدت بيننا الصحبة والمحبة واجتمعنا بحضرة دهلي فلما سافر السلطان إلى دولة أباد كما سنذكره وأمرني بالاقامة بالحضرة قال لي جلال الدين أنك تحتاج إلى نفقة كبيرة والسلطان تطول غيبته نخذقرتي واستغلها حتى أعود ففعلت ذلك واستغلتي منها نحو خمسة آلاف دينار جزاه الله أحسن الجزاء

ولقيت بمدينة أوجه الشيخ العابد الزاهد الشريف قطب الدين حيدر العلوي وأبسنى الخرقه وهو من كبار الصالحين ولم يزل الثوب الذي البسنيه معي إلى أن سلبني كفار الهنود في البحر ثم سافرت من أوجه إلى مدينة ملتان (وضبط اسمها بضم الميم وتاء معلو) وهي قاعدة بلاد السند ومسكن أمير امرائه وفي الطريق إليها على مسافة عشرة أميال الوادي المعروف بخسرو آباد وهو من الأودية الكبار لا يجاز إلا بالمركب وبه يبحث عن امتعة المجتازين أشد البحث وتفتش رحالهم وكانت عاداتهم حين وصولنا إليها أن يأخذوا الربع من كل ما يجلبه التجار ويأخذوا على كل فرس سبعة دنانير مغرما .

ثم بعد وصولنا للهند بسنتين رفع السلطان تلك المغارم وأمر أن لا يؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر لما بايع للخليفة أبي العباس العباسي ولما أخذنا في إجازة هذا الوادي وفشت الرحال نظم على تفتيش رحلي لأنه لم يكن فيه طائل وكان يظهر في أعين الناس كبيرا فكنت أكره أن يطلع عليه ومن لطف الله تعالى أن وصل أحد كبار الأجناد من جهة قطب الملك صاحب ملتان فأمر أن لا يعرض لي يبحث ولا تفتيش فكان كذلك فخدمت

الله على ماهيأه لى من لطائفه وبتنا تلك الليلة على شاطئ الوادى وقدم علينا فى صبيحتها ملك البريد واسمعه دهقان وهو سمرقندى الاصل وهو الذى يكتب للسلطان بأخبار تلك المدينة وعمالتها وما يحدث بها ومن يصل فتعرفت به ودخلت بصحبته إلى أمير ملتان .

(ذكر أمير ملتان وترتيب حاله)

وأمير ملتان هو قطب الملك من كبار الأمراء وفضلاتهم لما دخلت قام إلى وصايفى وأجاستى إلى جانبه وأهديت له مملوكا وفرسا وشيئا من الزبيب واللوز وهو من أعظم ما يهدى اليهم لأنه ليس ببلاذهم وإنما يجلب من خراسان وكان جلوس هذا الأمير على دكانة كبيرة عليها البسط وعلى مقربة منه القاضى ويسمى سالارو الخطيب ولا اذكر اسمه وعن يمينه ويساره امراء الاجناد وأهل السلاح وقوف على رأسه والعساكر تعرض بين يديه وهناك قسى كبيرة فإذا أتى من يريد ان يشب فى العسكر راميا أعطى قوسا من تلك القسى ينزع فيها وهى متفاوتة فى الشدة فعلى قدر نزعه يكون مرتبه ومن اراد ان يشب فارسا فهناك طبله منصوبة فيجرب فرسه ويرميها برمح وهناك ايضا خانم معلق فى حائط صغير فيجرب فرسه حتى يحاذيه فان رفعه برمح فهو الجيد عندهم ومن اراد ان يشب راميا فارسا فهناك كرة موضوعة فى الأرض فيجرب فرسه ويرميها وعلى قدر ما يظهر من الانسان فى ذلك من الاصابة يكون مرتبه ولما دخلنا على هذا الأمير وسلمنا عليه كما ذكرناه أمر بانزالنا فى دار خارج المدينة هى لأصحاب الشيخ العابد ركن الدين الذى تقدم ذكره وعادتهم أن لا يضيفوا اجدا حتى يأتى امر السلطان .

(ذكر من اجتمعت به فى هذه المدينة من الغرباء الوافدين على حضرة ملك الهند)

فمنهم خداوندزاده قوام الدين قاضى ترمذ قدم بأهله وولده ثم ورد عليه بها اخوته عماد الدين وضياء الدين وبرهان الدين ومنهم مبارك شاه احد كبار سمرقند ومنهم ارنبغا احد كبار بخارى ومنهم ملك زاده ابن اخت خداوندزاده وبدر الدين الفصالح وكل واحد من هؤلاء معه اصحابه وخدامه واتباعه ولما مضى من وصولنا إلى ملتان شهران وصل احد حجاب السلطان وهو شمس الدين البوشنجى والملك محمد الهروى السكتوال بعشهما السلطان لاستقبال خداوندزاده وقدم معهم ثلاثة من الفتيان بعشمتهم المخدمون جهان ام السلطان لاستقبال زوجة خداوندزاده المذكور واتوا بالخلع لهما ولأولادهما واتجهن من قدم الوفود واتوا جميعا إلى وسألوني لماذا قدمت فأخبرتهم إني قدمت للاقامة فى خدمة خوند عالم وهو السلطان وبهذا يدعى فى بلاده وكان امر ان لا يترك احد ممن

يأتى من خراسان يدخل بلاد الهند إلا ان كان برسم الإقامة فلما أعلمتهم أنى قدمت الإقامة استدعوا القاضى والعدول وكتبوا عقد على وعلى من أراد الإقامة من أصحابى وابى بعضهم من ذلك وتجهزنا للسفر إلى الحضرة .

وبين ملتان وبينها مسيرة أربعين يوما فى عمارة متصلة وأخرج الحاجب وصاحبه الذى بعث معه ما يحتاج اليه فى ضيافة قوام الدين واستصحبوا من ملتان نحو عشرين طبائخا وكان الحاجب يتقدم ليلا إلى كل منزل فيجهز الطعام وسواه فما يصل خداوندزاده حتى يكون الطعام متيسرا وينزل كل واحدما ذكرناهم من الوفود على حدة بمضاربته وأصحابه وربما حضروا الطعام الذى يصنع لخداوندزاده ولم احضره أنا إلا مرة واحدة وترتيب ذلك الطعام أنهم يجعلون الخبز وخبزهم الرقاق وهو شبه الجرادىق ويقطعون اللحم الممشوى قطعا كبيرة بحيث تكون الشاة اربع قطع او ستاويجعلون امام كل رجل قطعة ويجعلون أقراصا مصنوعة بالسمن تشبه الخبز المشترك ببلادنا ويجعلون فى وسطها الحلواء الصابونية ويغطون كل قرص منها براغيف حلواء يسمونه الخشتى ومعناه الأجرى مصنوع من الدقيق والسكر والسمن ثم يجعلون اللحم المطبوخ بالسمن والبصل والزنجبيل الأخضر فى صحاف صينية ثم يجعلون شيئا يسمونه سموسك وهو لحم مهر وس مطبوخ باللوز والجوز والقستق والبصل والابازير موضوعة فى جوف رقاقة مقلوبة بالسمن يضعون امام كل انسان خمس قطع من ذلك أو اربعا ثم يجعلون المطبوخ بالسمن عليه الدجاج ثم يجعلون لقيمات القاضى ويسمونه الهاشمى ثم يجعلون القاهرية ويقف الحاجب على السطح قبل الاكل ويخدم إلى الجهة التى فيها السلطان ويخدم جميع من حضر لخدمته والخدمة عندهم حط الرأس نحو الركوع فإذا فعلوا ذلك جلسوا للاكل ويؤتى بأقداح الذهب والفضة والزجاج مملوءة بماء النبات وهو الجلاب محولا فى الماء ويسمون ذلك الشربة ويشربونه قبل الطعام ثم يقول الحاجب بسم الله فعند ذلك يشرعون فى الاكل فاذا اكوا أتوا بأكواز الفقاع فإذا شربوه أتوا بالتنبول والفوفل وقد تقدم ذكرهما فاذا أخذوا التنبول والفوفل قال الحاجب بسم الله فيقومون ويخدمون مثل خدمتهم أولا وينصرفون .

ثم سافرنا من مدينة ملتان وهم يجرون هذا الترتيب على ما سطرناه إلى أن وصلنا إلى بلاد الهند وكان أول بلد دخلناه مدينة أبهر (بفتح الهاء) وهى أول تلك البلاد الهندية صغيرة حسنة كثيرة العمارة ذات أنهار وأشجار وليس هنالك من اشجار بلادنا ناشى. ماعدا النبق لكانه عندهم عظيم الجرم تكون الحبة منه بمقدار حبة الغصص شديد الحلاوة ولهم اشجار كثيرة ليس يوجد منها شيء ببلادنا ولا بسواها .

(ذكر أشجار بلاد الهند وفواكهها)

فمنها العنب (بفتح العين وسكون النون وفتح الباء الموحدة) وهي شجرة تشبه أشجار النارنج إلا أنها أعظم أجراما وأكثر أوراقا وظلها أكثر الظلال غير أنه ثقل فمن نام تحته وعك وثمرها على قدر الاجاص الكبير فإذا كان اخضر قبل تمام نضجه أخذوا ماسقط منه وجعلوا عليه الملح وصيروه كما يصير اللبم والليمون ببلادنا وكذلك يصيرون أيضا الزنجبيل الاخضر وعناقيد الفلفل ويأكلون ذلك مع الطعام يأخذون بأثر كل لقمة يسيرا من هذه المملوحات فإذا نضجت العنب في اوان الخريف اصفرت حباتها فأكلوها كالتمراخ فالبعض يقطعها بالسكين والآخر يمصها مصا وهي حلوة يمازج حلاوتها يسير نحوضة ولها نواة كبيرة يزرعونها فتنبت منها الأشجار كما تزرع نوى النارنج وغيرها والشكى والبركي (بفتح الشين المعجم وكسر القاف وفتح الباء الموحدة وكسر الكاف) وهي اشجار عادية أوراقها كأوراق الجوز وثمرها يخرج من أصل الشجر فما اتصل منه بالأرض فهو البركي وحلاوته أشد وطعمه لطيب وما كان فوق ذلك فهو الشكى وثمره يشبه القرع السكبار وجلوده تشبه جلود البقر فإذا اصفر في اوان الخريف قطعوه وشقوه فيكون في داخل كل حبة المائة والمائتان فما بين ذلك من حبات تشبه الخيار بين كل حبة وحبة صفان اصفر اللون واسكل حبة نواه تشبه الفول الكبير وإذا شويت هذه النواه او طبخت يكون طعمها كطعم الفول إذ ليس يوجد هنالك ويدخرون هذه النوى في التراب الأحمر فتبقى إلى سنة أخرى وهذا الشكى والبركي هو خير فاكهة ببلاد الهند والتندو (بفتح التاء المثناة وسكون النون وضم الدال) وهو ثمر شجر الأبنوس وحباته قدر حبات المشمش ولونها وهو شديد الحلاوة، والجوز (بضم الجيم المعقودة) واشجاره عادية ويشبه ثمرة الزيتون وهو اسود اللون ونواه واحدة كالزيتون، والنارنج الحلو وهو عندهم كثير واما النارنج الحامض فعزيز الوجود ومنه صنف ثالث يكون بين الحلو والحامض وثمره على قدر اللبم وهو طيب جدا وكنت يعجبني أكله، ومنها المموا (بفتح الميم والواو) واشجاره عادية وأوراقها كأوراق الجوز إلا أن فيها حمرة وصفرة وثمره مثل الاجاص الصغير شديد الحلاوة وفي أعلى كل حبة منه حبة صغيرة بمقدار حبة العنب مجوفة وطعمها كالعنب .

إلا أن الاكثار من أكلها يحدث في الراس صداعا ومن العجب أن هذه الحبوب إذا بدست في الشمس كان طعمها كطعم التين وكنت آكلها عوضا عن التين إذ لا يوجد ببلاد

الهند وهم يسمون هذه الحبة الانكور (بفتح الهمزة وسكون النون وضم الكاف المعقودة والواو والراء) وتفسيره بلسانهم العنب والعنب بأرض الهند عزيز جدا ولا يكون بها إلا في موضع بحضرة دهلي وبيلاذ أخرى ويشمر مرتين في السنة ونوى هذا الثمر يصنعون منه الزيت ويستصبحون به ومن فواكههم فاكهة يسمونها كسيرا (بفتح الكاف وكسر السين المهمل وياء مدورا) يحفرون عليها الأرض وهي شديدة الحلاوة تشبه القسطل وبيلاذ الهند من فواكه بلادنا الرمان ويشمر مرتين في السنة ورايته بيلاذ جزائر ذببة المهل لا ينقطع له ثمر وهم يسمونه أنار (بفتح الهمزة والنون) وأظن ذلك هو الأصل في تسمية الجلائر فإن جل بالفارسية الزهر ونار الرمان

(ذكر الحبوب التي يزرعونها أهل الهند ويقتاتون بها)

وأهل الهند يزرعون مرتين في السنة فإذا نزل المطر عدهم في أوان القيط. زرعوا الزرع الخريفي وحصدوه بعد ستين يوما من زراعته ومن هذه الحبوب الخريفية عندهم الكندرو (بهم الكاف وسكون الذال المعجم وضم الراء وبعدها وار) وهو نوع من الدخن وهذا الكندر وهو أكثر الحبوب عندهم ومنها القال (بالقاف) وهو شبه انلي ومنها الشاماخ (بالشين والخاء المعجمتين وهو أصغر حبا من القال وربما نبت هذا الشاماخ من غير زراعة وهو طعام الصالحين وأهل الورع والفقراء والمساكين يخرجون لجميع ما نبت منه من غير زراعة فيمسك أحدهم قفة كبيرة يساره وتكون بيمنه مقلعة يضرب بها الزرع فيسقط في القفة فيجمعون منه ما يقتاتون به جميع السنة وحب هذا الشاماخ صغير جداً وإذا جمع جعل في الشمس ثم يدق في مهادس الخشب فيطير قشره ويبقى لبه أبيض ويصنعون منه عصيدة يطبخونها بخليب الجواميس وهي أطيب من خبزه وكننت آكلها كثيرا ببلار الهند وتعجنى ومنها الماش وهو نوع من الجلبان ومنها المشج (بهم مضموم ونون وجيم) وهو نوع من الماش إلا أن حبه به مستطيلة ولو نه صافي الخضرة ويطبخون المشج مع الأرز ويأكلونه بالسمن ويسمونه كشرى (بالكاف والشين المعجم والراء) وعليه يفطرون في كل يوم وهو عندهم كالحريره ببلاد المغرب ومنها اللوبيا وهي نوع من الفول ومنها الموت (بضم الميم) وهو مثل الكندرو إلا أن حبه به أصغر وهو من علف الدواب عندهم وتسمن الدواب بأكله والشعير عندهم لا قوة له وإنما علف الدواب من هذا الموت أو الحص يخرشونه ويبلونه بالماء ويطعمونه الدواب ويطعمونها عوضا من القصيل أوراق الماش بعد أن تسقى الدابة السمن عشرة أيام في كل يوم مقدار

ثلاثة أرتال أو أربعة ولا تركب في تلك الأيام وبعد ذلك يطعمونها أوراق الماش كما ذكرنا شهراً أو نحوهم وهذه الحبوب التي ذكرناها هي الخريفية وإذا حصدها بعد ستين يوماً من زراعتها ازدرعوا الحبوب الربيعية وهي القمح والشعير والحمص والعدس وتسكون زراعتها في الأرض التي كانت الحبوب الخريفية مزروعة فيها وبلادهم كريمة طيبة التربة وأما الأرض فإنهم يزرعون ثلاث مرات في السنة وهو من أكبر الحبوب عندهم ويزدرعون السمسم وقصب السكر مع الحبوب الخريفية التي تقدم ذكرها (ولنعد) إلى ما كنا بسبيله فأقول سافرنا من مدينة أبوهر في صحراء مسيرة يوم في أطرافها جبال منيعة يسكنها كفار الهنود وربما قطعوا الطريق وأهل بلاد الهند أكثرهم كفار فمنهم رعية تحت ذمة المسلمين يسكنون القرى ويكون عليهم حاكم من المسلمين يقدمه العامل أو الخديم الذي تسكون القرية في إقطاعه ومنهم عصاة محاربون يمتنعون بالجبال ويقطعون الطريق .

(ذكر غزوة لنا بهذا الطريق وهي أول غزوة شهدتها ببلاد الهند)
ولما أردنا السفر من مدينة أبوهر خرج الناس منها أول النهار وأقمت بها إلى نصف النهار في لمة من أصحابي ثم خرجنا ونحن اثنان وعشرون فارساً منهم عرب ومنهم أعاجم فخرج علينا في تلك الصحراء ثمانون رجلاً من الكفار وفارسان وكان أصحابي ذوى نجدة وعقينا فقتلناهم أشد القتال فقتلنا أحد الفارسيين منهم وغنمنا فرسه وقتلنا من رجالهم نحو اثني عشر رجلاً وأصابني نصابة وأصابني فرسي نصابة ثانية ومن الله بالسلامة منها لأن نصابهم لا قوة لها وجرح لأحد أصحابنا فرس عوضناه له بفارس الكافر وذبحنا فرسه المجروح فأكله الترك من أصحابنا وأوصلنا تلك الرؤس إلى حصن أبي بكر تعمقناها على سورته وكان وصولنا في نصف الليل إلى حصن أبي بكر المذكور (وضبط اسمه بفتح الباء الموحدة وسكون الكاف وفتح الهاء وآخره راء) وسافرنا منه فوصلنا بعد يومين إلى مدينة أجودهن (وضبط اسمها بفتح الهمزة وضم الجيم وفتح الدال المهملة والهاء وآخره نون) مدينة صغيرة هي للشيخ الصالح فرید الدين البذاواني الذي أخبرني الشيخ الصالح الولي برهان الدين الأعرج بالاسكندرية أنه سأل لقاء فلقيته والحمد لله وهو شيخ ملك الهند وأنعم عليه بهذه المدينة وهذا الشيخ مبتلى بالوسواس والعياذ بالله فلا يصفح أحداً ولا يدنو منه وإذا الصق ثوبه بثوب أحد غسل ثوبه دخلت زاويته ولقيته وبلغته سلام الشيخ برهان الدين فعجب وقال أنا دون ذلك ولقيت ولديه الفاضلين معن الدين وهو أكبرهما ولما مات أبوه تولى الشياخة بعده علم الدين

وزرت قبر جده القطب الصالح فريد الدين البذاواني منسوبة إلى مدينة بذاون بلد السند (وهي بفتح الباء الموحدة والذال المعجم وضم الواو وآخرها نون) ولما أردت الانصراف عن هذه المدينة قال لي علم الدين لا بد لك من رؤية والدي فأيتته وهو في أعلى سطح له وعليه ثياب بيض وعمامة كبيرة لها ذؤابة وهي مائلة إلى جانب ودعا لي وبعث إلى بسكر ونبات

(ذكر أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار)

ولما انصرفت عن هذا الشيخ رايت الناس يهرعون من عسكرينا ومعهم بعض اصحابنا فسألهم ما الخبر فأخبروني إن كافراً من الهنود مات واججت النار لحرقه وأمر أنه تحرق نفسها معه ولما احترقا جاء اصحابي وأخبروا أنها عانقت الميت حتى احترقت معه وبعد ذلك كنت في تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكية والناس يتبعونها من مسلم وكافر والأطباء والأبواق بين يديها ومعها البراهمة وهم كهراء الهنود وإذا كان ذلك ببلاد السلطان استأذنوا السلطان في إحراقها فيؤذن لهم فيحرقونها ثم اتفق بعد مدة أني كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار تعرف بأبحري وأميرها مسلم من سامرة السند وعلى مقربة منها الكفار العصاة فقطعوا الطريق يوماً وخرج الأمير المسلم لقتالهم وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار ووقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعية الكفار سبعة نفر وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات فاتفقن على إحراق أنفسهن وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب لسن من احترقت نفسها بعد زوجها أحرق أهل بيتها أحرق أهل بيتها شرفاً بذلك ونسبوا إلى الوفاء ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب وأقامت عند أهلها بئسة ممتحنة لعدم وفائها ولكنها لا تذكره على إحراق نفسها ولما تعاهدت الذسوة الثلاث اللاتي ذكرناهن على إحراق أنفسهن اثن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وكل وشرب كأنهن يودعن الدنيا ويأتين النساء من كل جهة وفي صبيحة اليوم الرابع أتيت كل واحدة منهن بفرس فركبته وهي متزينة مشطرة وفي يدها جوزة نار جيل تلعب بها وفي يسراها امرأة تنظر فيها وجهها والبراهمة يحفون بها واقاربها معها وبين يديها الأطباء والأبواق والأنفاز وكل إنسان من الكفار يقول لها ابلغني السلام إلى أبي أو أخى أو أمي أو صاحبي وهي تقول نعم وتضحك إليهم وركبت مع أصحابي لأرى كيفية صنعهم في الاحتراق فسرنا معهم نحو ثلاثة أميال وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار متكاثف الظلال وبين أشجاره أربع قباب في كل قبة صنم من

الحجارة وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال وتزاحمت الأشجار فلا تخللها الشمس فكان ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم أعادنا الله منها ولما وصلنا إلى تلك القباب تزان إلى الصهريج وانغمسن فيه وجردن ما عليهن من ثياب وحل فتصدقن به وأتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط فربط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفيتها والديران قد أضربت على قرب من ذلك الصهريج في موضع منخفض وصب عليها روغن كنجت (كنجد) وهو زيت الجرجان فزاد في اشتعالها وهناك نحو خمسة عشر رجلا بأيديهم حزم من الخشب الرقيق ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبير وأهل الأطباء والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة وقد حجبت النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر إليها فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدي الرجال بعنف وقالت لهم ما واميتراساني اذا طش (أنش) من ميدانم أو اطش است رها كنى ماراوعى تضحك ومعنى هذا الكلام أبا النار تخوفوني أنا أعلم أنها نار محرقة ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار ورمت بنفسها فيها وعند ذلك ضربت الأطباء والأنفار والأبواق ورعى الرجال ما بأيديهم من الخشب عليها وجعل الآخرون تلك الخشب من فرقها لئلا تتحرك وارتفعت الأصوات وكثر الضجيج ولما رأيت ذلك كدت اسقط عن فرسى لولا أصحابي تداركوني بالماء فغسلوا وجهى وانصرفت وكذلك يفعل أهل الهند أيضاً فى الغرق يغرق كثير منهم أنفسهم فى نهر السكنك وهو الذى إليه يحجون وفيه يرمى برما د هؤلأ المحرقين وهم يقولون أنه من الجنة وإذا أتى أحدهم ليعرق نفسه يقول لمن حضره لا تظنوا أنى أغرق نفسى لأجل شيء من أمور الدنيا أو لقلة مال إنما قصدى التقرب إلى كساي وكساي (بضم الكاف والسين المهمل) اسم الله عز وجل بلسانهم ثم يغرق نفسه فإذا مات أخرجوه وأحرقوه ورموه برماده فى البحر المذكور (ولنعبد) إلى كلامنا الأول فنقول سافرنا من مدينة أجودهن فوصلنا بعد مسيرة أربعة أيام منها إلى مدينة سرستى (وضبط اسمها بسينين مفتوحين بينهما راء سا كنة ثم تاء مشناة مكسورة وياء) مدينة كبيرة كثيرة الأرز وأرزها طيب ومنها يحمل إلى حضرة دهلى ولها مجي كثير جداً أخبرنى الحاجب شمس الدين البوشنجى بمقداره وأنسيته ثم سافرنا منها إلى مدينة حانسى (وضبط اسمها بفتح الحاء المهملة والفاء ونون سا كن وسين مهمل مكسور وياء) وهى من أحسن المدن وأنقىها وأكثرها عمارة ولها سور عظيم ذكروا أن بانيه رجل من كبار سلاطين الكفار يسمى توره (بضم التاء المعلولة وفتح الراء) وله عندهم

حكايات واخبار من هذه المدينة كمال الدين صدر الجهان قاضى قضاة الهند واخوه
 قطلوخان معلم السلطان واخوهما نظام الدين وشمس الدين الذى انقطع إلى الله وجاور
 بمكة حتى مات ثم سافرنا من حانسي فوصلنا بعد يومين إلى مسعود اباد وهى على
 عشرة اميال من حضرة دهلى واقمنا بها ثلاثة ايام وحانسي ومسعود ابادهما للملك
 المعظم هو شنج (بضم الهاء وفتح الشين المعجم وسكون النون وبعدها جيم) ابن الملك
 كمال كرك وكرك (بكافين معقودين اولاهما مضمومة) ومعناه الذئب وسيأتى ذكره
 وكان سلطان الهند الذى قصدنا حضرته غائبا عنها بناحية مدينة قنوج وبينها وبين
 حضرة دهلى عشرة ايام وكانت بالحضرة والدته وتدعى المخدومة جهان وجهان اسم الدنيا
 وكان بها ايضا وزيره خواجه جهان المسمى بأحمد بن اياس الرومى الاصل فبعث الوزير
 إلينا اصحابه ليتلقونا وعين للقاء كل واحد منا من كان من صنفه فكان من الذين عينهم
 للقائى الشيخ البسطامى والشريف المازندراني وهو حاجب الغرباء والفقيه علاء الدين
 المذاني المعروف بقنره (بضم القاف وفتح النون وتشديدها) وكتب إلى السلطان بخبرنا
 وبعث الكتاب مع الدواة وهى بريد الرجالة حسبما ذكرناه فوصل إلى السلطان واتاه
 الجواب في تلك الايام الثلاثة التي اقمناها بمسعود اباد وبعد تلك الايام خرج إلى لقائنا
 القضاة والفقهاء والمشايخ وبعض الأمراء وهم يسمون الأمراء ملوكا حيث يقول اهل
 ديار مصر وغيرها الأمير يقولون هم الملك وخرج إلى لقائنا الشيخ ظهير الدين الزنجاني وهو
 كبير المنزلة عند السلطان ثم رحلنا من مسعود اباد فنزلنا بمقرية من قرية تسمى بالم (بفتح الباء
 المعقودة وفتح اللام) وهى للسيد الشريف ناصر الدين مطهر الأوهري احد ندماء السلطان
 ومن له عنده الحظوة التامة وفى غد ذلك اليوم وصلنا إلى حضرة دهلى قاعده بلاد الهند
 (وضبط اسمها بكسر الدال المهمل وسكون الهاء وكسر اللام) وهى المدينة العظيمة الشأن
 الصخمة الجامعة بين الحسن والحصانة وعليها السور الذى لا يعلم له فى بلاد الدنيا نظير
 وهى اعظم مدن الهند بل مدن الإسلام كلها بالشرق

(ذكر وصفها)

ومدينة دهلى كبيرة الساحة كثيرة العماره وهى الآن اربع مدن متجاورات متصلات
 احداها المسماة بهذا الاسم دهلى وهى القديمة من بناء الكفار وكان افتتاحها سنة اربع
 وثمانين وخمسمائة والثانية تسمى سبرى (بكسر السين المهمل والراء بينهما ياء مد) وتسمى
 ايضا دار الخلافة وهى التى اعطاها السلطان انياث الدين حفيد الخليفة المستنصر العباسى
 لما قدم عليه وبها كان سكنى السلطان علاء الدين وابنه قطب الدين وسند كرها والثلاثة

تسمى تغلق اباد باسم بانها السلطان تغلق والسلطان الهند الذى قدمنا عليه وكان سبب
بنائه لها انه وقف يوما بين يدي السلطان قطب الدين فقال لياخوند عالم كان ينبغي ان
تبني هنا مدينة فقال له السلطان متسكيا اذا كنت سلطانا فابنيتها فكان من قدر الله ان كان
سلطانا فبنائها وسمها باسمه والرابعة تسعى جهان بناه وهى مختصة بسكنى السلطان محمد
شاه ملك الهند الآن الذى قدمنا عليه وهو الذى بناها وكان اراد ان يضم هذه المدن
الاربعة تحت سور واحد فبنى منه بعضا وترك بناء باقيه لعظم ما يلزم فى بنائه

(ذكر سور دهلى وابوابها)

والسور المحيط بمدينة دهلى لا يوجد له نظير عرض حائطه أحد عشر ذراعا وفيه بيوت
يسكنها السمار وحفاظ الأبواب وفيها مخازن للطعام ويسمونهم الانبارات ومخازن للعدد
ومخازن للمجانيق والرعادات ويبقى الزرع بهامده طائلة لا يتغير ولا تطرقه آفة ولقد
شاهدت الارز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد اسود ولسكن طعمه طيب ورايت
ايضا السكند ويخرج منها وكل ذلك من اختزان السلطان بلن منذ تسعين سنة ويعشى فى
داخل السور الفرسان والرجال من أول المدينة إلى آخرها وفيه طيقتان مفتحة إلى جهة
المدينة يدخل منها الضوء واسفل هذا السور مبنى بالحجارة واعلاه بالاجرو ابراجه كثيرة
متقاربة ولهذه المدينة ثمانية وعشرون بابا وهم يسمون الباب دروازة فمنها دروازة بناون وهى
الكبرى ودروازة المندوى وبها رحبة الزرع ودروازة جل (بضم الجيم) وهى موضع
البساتين ودروازة شاه اسم رجل ودروازة بالم اسم قرية قد ذكرناها ودروازة نجيب اسم
رجل ودروازة كمال كذلك ودروازة غزنة نسبة إلى مدينة غزنة التى فى طرف خراسان
وبخارجها مصلب العيد وبعض المقابر ودروازة البيجا لصة (بفتح الباء والجيم والصاد المهمل)
وبخارج هذه الدروازة مقابر دهلى وهى مقبرة حسنة يبنون بها القباب ولا بد عند كل قبر
من محراب وإن كان لا قبة له ويزرعون بها الاشجار المزهرة مثل فل (كل شنبو)
وريول (راى بيل) والنسرين وسواها والازاهير هنالك لا تنقطع فى فصل من الفصول

(ذكر جامع دهلى)

وجامع دهلى كبير الساحة حيطانه وسقفه وفرشه كل ذلك من الحجارة البيض المنحوتة
ابعد تحت ملصقة بالرصاص اتقن الصاغة ولا خشبة به اصلا وفيه ثلاث عشرة قبة من
حجارة ومنبره ايضا من الحجر وله اربعة من الصحنون وفى وسط الجامع العمود الهائل الذى
لا يدري من أى المعادن هو ذكرلى بعض حكمائهم انه يسمى هفت جوش (بفتح الحاء وسكون
الهمزة) رحلة — ثانى

الفناء وتاء معلولة وجيم مضموم وآخره شين معجم) ومعنى ذلك سبعة معادن وانه مؤلف منها وقد جلى من هذا العمود مقدار السبابة ولذلك المجلومنه بريق عظيم ولا يؤثر فيه الحديد وطوله ثلاثون ذراعاً وأدركه عمامة فكان الذى احاط بدائرته منها ثمان اذرع وعند الباب الشرقى من أبواب المسجد صنمان كبيران جدان من النحاس مطروحان بالأرض قد الصقا بالحجارة ويطأ عليهما كل داخل إلى المسجد أو خارج منه وكان موضع هذا المسجد بدخانة وهو بيت الأصنام فلما افتتحت جعل مسجداً وفى الصحن الشمالى من المسجد الصومعة التى لا نظير لها فى بلاد الاسلام وهى مبنية بالحجارة الحمر خلافاً للحجارة سائر المسجد فانها بيض وحجارة الصومعة منقوشة وهى سامية الارتفاع وخلقها من الرخام الأبيض الناصع وتما فيحها من الذهب الخالص وسعة عمرها بحيث تصعد فيه الفيلة حدثى من اثنى به انه رأى العجل حين بنيت يصعد بالحجارة إلى أعلاها وهى من بناء السلطان معز الدين ناصر الدين بن السلطان غياث الدين بلبن وأراد السلطان قطب الدين ان يبنى بالصحن الغربى صومعة اعظم منها فبنى مقدار الثلث منها واخترم دون تمامها واراد السلطان محمداً تمامها ثم ترك ذلك تشاؤماً وهذه الصومعة من عجائب الدنيا فى ضخامتها وسعة عمرها بحيث تصعده ثلاثة من الفيلة متقارنة وهذا الثلث المبنى منها مساو لارتفاع جميع الصومعة التى ذكرنا انها بالصحن الشمالى وصعدتها مرة فرأيت معظم دور المدينة وعابثت الأسوار على ارتفاعها وسموها منحة وظهر لى الناس فى أسفلها كأنهم الصبيان الصغار ويطرون لناظرها من أسفلها ان ارتفاعها ليس بذلك لعظم جرمها وسعتها وكان السلطان قطب الدين أراد أن يبنى ايضاً مسجداً جامعاً يسيرى المسماة دار الخلافة فلم يتم منه غير الحائط القبلى والمحراب وبنائه بالحجارة البيض والسود والحمر والحضر ولو كمل لم يكن له مثل فى البلاد واراد السلطان محمد اتمامه وبعث عرفاء البناء ليقدروا النفقة فيه فزعموا انه ينفق فى اتمامه خمسة وثلاثون لكافرك ذلك استكثارا له واخبرنى بعض خواصه انه لم يتركه استكثارا لسكرته تشاءم به لما كان السلطان قطب الدين قد قتل قتل تمامه

(ذكر الحوضين العظيمين ببخارجهما)

وبخارج دهلى الحوض العظيم المنسوب إلى السلطان شمس الدين لوش ومنه يشرب اهل المدينة وهو بالقرب من مصلاها وماؤها يجتمع من ماء المطر وطوله نحو ميلين وعرضه على النصف من طوله والجهة الغربية من ناحية المصلى مبنية بالحجارة مصنوعة امثال الدكاكين بعضها على من بعض وتحت كل دكان درج ينزل عليها إلى الماء وبجانب كل دكان

قبة حجارة فيها مجالس للتنزهيين والمتفرجين في وسط الحوض قبة عظيمة من الحجارة المنقوشة بمجولة طبقتين فاذا كثر الماء في الحوض لم يكن سبيل إليها إلا في القوارب فاذا قل الماء دخل إليها الناس وداخلها مسجد وفي أكثر الأوقات يقيم بها الفقراء المنقطعون إلى الله المتوكلون عليه إذا جف الماء في جوانب هذا الحوض زرع فيها قصب السكر والخيار والفناء والبطيخ الأخضر والأصفر وهو شديد الحلاوة صغير الجرم وفيما بين دهلي ودار الخلافة حوض الخاص وهو أكبر من حوض السلطان شمس الدين وعلى جوانبه نحو أربعين قبة ويسكن حوله أهل الطرب وموضعهم يسمى طرب آباد ولهم سوق هناك من أعظم الأسواق ومسجد جامع ومساجد سواه كثيرة واخبرت ان النساء المغنيات الساكينات هنالك يصلين التراويح في شهر رمضان بتلك المساجد مجتمعات ويؤم بهن الأئمة وعددهن كبير وكذلك الرجال المغنون ولقد شاهدت الرجال أهل الطرب في عرس الأمير سيف الدين غدا بن مهدي لكل واحد منهم مصلى تحت ركبته فإذا سمع الأذان قام فتوضأ وصلى (ذكر بعض مزاراتها)

فمنها قبر الشيخ الصالح قطب الدين بختيار السككي وهو ظاهر البركة كثير التعظيم وسبب تسمية هذا الشيخ بالسككي أنه كان إذا أتاه الذين عليهم الديون شاكين من الفقر أو القلة أو الذين لهم البنات ولم يجدوا ما يحزونه به إلى أزواجهن يعطى من أتاه منهم كمكة من الذهب أو من الفضة حتى عرف من أجل ذلك بالسككي رحمه الله ومنها قبر الفقيه الفاضل نور الدين السكر لالي (بضم الكاف وسكون الراء والنون) ومنها قبر الفقيه علاء الدين الكرمانى نسبة إلى كرمان وهو ظاهر البركة ساطع النور ومكانه يظهر قبلة المصلى وبذلك الموضع قبور رجال صالحين كثير نفع الله تعالى بهم

(ذكر بعض علمائها وصلحاتها)

فمنهم الشيخ الصالح العالم محمود السكبا (بالباء الموحدة) وهو كبار الصالحين والناس يزعمون أنه ينفق من السكون لأنه لا مال له ظاهر وهو يطعم الوارد والصادر ويعطى الذهب والدرهم والأثواب وظهرت له كرامات كثيرة واشتهر بهارايته مرات كثيرة وحصلت لى بركته ومنهم الشيخ الصالح العالم علاء الدين النيلي كما هو منسوب إلى نيل مصر والله أعلم كان من أصحاب الشيخ العالم الصالح نظام الدين البزواني وهو يعظ الناس في كل يوم جمعة فيتوب كثير منهم بين يديه ويحلقون رؤسهم ويتواجدون ويغشى على بعضهم (حكاية)

شاهدته في بعض الأيام وهو يعظ فقر القاري بين يديه (يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة

الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل معرضة عما أضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) ثم كررها الفقيه علام الدين نصاح أحد الفقهاء من ناحية المسجد صيحة عظيمة فأعاد الشيخ الآية فصاح الفقير ثانية ووقع ميتا وكنت فيمن صلى عليه وحضر جنازته ومنهم الشيخ الصالح العابد صدر الدين السكهراني (بضم الكاف وسكون الهاء وراء ونون) وكان يصوم الدهر ويقوم الليل وتجرد عن الدنيا جميعا ونبذها ولباسه عباءة ويزوره السلطان وأهل الدولة وربما احتجب عنهم فرعب السلطان منه أن يقطعه قرى يطعم منها الفقراء والواردين فأبى ذلك وزاره يوما وأتى إليه بعشرة آلاف دينار فلم يقبلها وذكروا أنه لا يفطر إلا بعد ثلاث وأنه قيل له في ذلك فقال لا أفطر حتى اضطر فتحل لي الميتة ومنهم الامام الصالح العالم العابد الورع الخاشع فريد دهره ووحيد عصره كمال الدين عبد الله الغاري (بالغين المعجم والراء) نسبة إلى غار كان يسكنه خارج دهلي بمقربة من زاوية الشيخ نظام الدين البذاوني زرت به هذا النار ثلاث مرات ﴿كرامة له﴾

كان لي غلام فابق مني والفيتة بيد رجل من الترك فذهبت إلى انتزاعه من يده فقال لي الشيخ أن هذا الغلام لا يصلح لك فلا تأخذه وكان التركي راغبا في المصالحة فصالحته بمائة دينار أخذتها منه وتركته له فلما كان بعد ستة أشهر قتل سيده وأتى به إلى السلطان فأمر بتسليمه لاولاد سيده فقتلوه ولما شاهدت لهذا الشيخ هذه الكرامة انقطعت إليه ولازمته وتركته الدنيا ووهبت جميع ما كان عندي للفقراء والمساكين وافقت عنده مدة فكنت أراه يواصل عشرة أيام وعشرين يوما ويقوم أكثر الليل ولم ازل معه حتى بعثني السلطان ونشبت في الدنيا ثانية والله تعالى يختم بالخير وساذكر ذلك فيما بعد ان شاء الله تعالى وكيفية رجوعه إلى الدنيا

(ذكر فتح دهلي ومن تداولها من الملوك)

حدثني الفقيه العالم العلامة قاضي القضاة بالهند والسند كمال الدين محمد بن البرهان الغزنوي الملقب بصدر الجمان أن مدينة دهلي افتتحت من أيدي الكفار في سنة أربع وثمانين وخمسمائة وقد قرأت أنا ذلك مكتوبا على محراب الجامع الأعظم بها وأخبرني أيضا أنها افتتحت على يد الأمير قطب الدين إيبك (واسمه بفتح الهمزة وسكون الياء آخر الحروف وفتح الباء الموحدة) وكان يلقب سياه (سالار) ومعناه مقدم الجيوش وهو أحد بماليك السلطان المعظم شهاب الدين محمد بن سنام الغوري ملك غزنة وخراسان المتغلب على ملك

(وضبط اسمه بفتح اللام الأولى وسكون الثانية وكسر الميم وشين معجم) وهو أول من
ولى الملك بمدينة دهلي مستقلا به وكان قبل تملكه مملوكا للامير قطب الدين أيبك وصاحب
عسكره نائبا عنه فلما مات قطب الدين استبد بالملك واخذ الناس بالبيعة فأبأه الفقهاء
يقدمهم قاضى القضاة إذ ذاك وجيه الدين الكاسانى فدخلوا عليه وقعد بين يديه وقعد
القاضى إلى جانبه على العادة وفهم السلطان عنهم ما أرادوا أن يكلموه به فرفع طرف البساط
الذى هو قاعد عليه وأخرج لهم عقدا يتضمن عتقه فقراء القاضى والفقهاء وبايعوه
جميعا واستقل بالملك وكانت مدته عشرين سنة وكان عادلا صالحا فاضلا ومن مآثره أنه اشتد
فى رد المظالم وإنصاف المظلومين وأمر أن يلبس كل مظلوم ما ثوبه بمصوبو غار أهل الهند جميعا
يلبسون البياض فكان متى قعد للناس أو ركب فرأى أحدا عليه ثوب مصبوغ نظر فى قضيته
وانصفه ممن ظلمه ثم أنه أعيا فى ذلك فقال ان بعض الناس تجرى عليهم المظالم بالليل
وأريد تعجيل انصافهم فجعل على باب قصره أسدين مصورين من الرخام موضوعين على
برجين هنالك وفى أعناقهما سلسلتان من الحديد فيهما جرس كبير فكان المظلوم يأتي ليلا
فيحرك الجرس فيسمع الساطال وينظر فى أمره للحين وينصفه ولما توفى السلطان شمس
الدين خلف من الأولاد الذكور ثلاثة وهم ركن الدين الوالى بعده ومعز الدين وناصر
الدين وبناتا تسمى رضية هى شقيقة معز الدين منهم فتوى بعده ركن الدين كما ذكرناه

(ذكر السلطان ركن الدين ابن السلطان شمس الدين)

ولما بويغ ركن الدين بعد موت أبيه أفتتح أمره بالتعدى على أخيه معز الدين فقتله وكانت رضية شقيقته فأنكرت ذلك عليه فأراد قتلها فلما كان في بعض أيام الجمع خرج ركن الدين إلى الصلاة فصعدت رضية على سطح القصر القديم المجاور للجامع الأعظم وهو يسمى دولة خانة وأبست عليها ثياب المظلومين وتعرضت للناس وكلمتهم من أعلى السطح وقالت لهم ان أخى قتل أخاه وهو يريد قتلى معه وذكرتهم أيام أبيها وفعله الخير واحسانه إليهم فثاروا عند ذلك إلى السلطان ركن الدين وهو في المسجد فقبضوا عليه وأتوا به إليها فقالت لهم القاتل يقتل فقتلوه قصاصا بأخيه وكان آخرهما ناصر الدين صغيرا فاتفق الناس على تولية رضية .

(ذكر السلطنة رضية)

ولما قتل ركن الدين اجتمعت العساكر على تولية اخته رضية الملك فولوها واستقلت بالملك أربع سنين وكانت تركب بالفوس والتر كش والقربان كما يركب الرجال ولا تستر وجهها ثم انها اتهمت لعبد لها من الحبشة فاتفق الناس على خلعهما وتزويجها فخامت وزوجت من بعض أقاربها وولى الملك أخوها ناصر الدين

(ذكر السلطان ناصر الدين بن السلطان شمس الدين)

ولما خلعت رضية ولى ناصر الدين أخوها الأصغر واستقل بالملك مدة ثم ان رضية وزوجها خالفا عليه ورا كبا في ما ليكهما ومن تبعهما من أهل الفساد وتبها لقتاله وخرج ناصر الدين ومعه مملوكه النائب عنه غياث الدين بلبن متولى الملك بعده فوقع اللقاء وانهم عسكر رضية وفرت بنفسها فأدركها الجوع واجهدتها الاعياء فقصدت حراثا رأته يحرث الأرض فطلبت منه مائتا كاه فأعطاهما كسرة خبز فأكلتها وغلب عليها النوم وكانت في زى الرجال فلما نامت نظر إليها الحراث وهي نائمة فرأى تحت ثيابها قباء مرصعا فعلم أنها امرأة فقتلها وسلبها وطردها فرسها ودفنها في فدانه وأخذ بعض ثيابها فذهب إلى السوق يبيعها فأنكر أهل السوق شأنه وأتوا به الشحنة وهو الحاكم فضربه فأقر بقتلها ودلهم على مدفنها فاستخرجوها وغسلوها وكفنوها ودفنت هنالك وبنى عليها قبة وقبرها الآن بزارو يتبرك به وهو على شاطئ النهر الكبير المعروف بنهر الجون على مسافة فرسخ واحد من المدينة واستقل ناصر الدين بالملك بعدها واستقام له الأمر عشرين سنة وكان ملكا صالحا ينسخ نسخا من الكتاب العزيز ويبيعها في قنات بشمنها وقد وقفنى القاضي كمال الدين على مصحف بخطه متقن بحكم الكتابة ثم أن نائبه غياث الدين بلبن قتله وملك بعده ولبن هذا خبر ظريف نذكره

(ذكر السلطان غياث الدين بلبن)

(وضبط اسمه بيا من موحدين بينهما لام والجميع مفتوحات وآخرها نون) ولما قتل بلبن مولاه السلطان ناصر الدين استقل بالملك بعده عشرين سنة وقد كان قبلها نائباً له عشرين سنة أخرى وكان من خيار السلاطين عادلاً حليماً فاضلاً ومن مكارمه أنه بنى داراً وسماها دار الأمن فمن دخلها من أهل الديون قضى دينه ومن دخلها خائفاً أمن ومن دخلها وقد قتل أحداً أرضى عنه أولياء المقتول ومن دخلها من ذوى الجنايات أرضى أيضاً من يطلبه وبذلك الدار دفن لما مات وقد زرت قبره .

(حكاية)

يذكر أن أحد الفقراء ببخارى رأى بها بلبن هذا وكان قصيراً حقيراً دميماً فقال له يا تركك وهى لفظه تعبر عن الاحتقار فقال له لبيك ياخوند فأعجبه كلامه فقال له اشترى من هذا الرمان وأشار إلى رمان يباع فى بالسوق فقال نعم وأخرج فليسات لم يكن عنده سواها واشترى له من ذلك الرمان فلما أخذها الفقير قال لدو هيناك ملك الهند فقبل بلبن يد نفسه وقال قبلت ورضيت واستقر ذلك فى ضميره واتفق أن بعث السلطان شمس الدين للمش تاجراً يشتري له المماليك بسمرقند وبخارى وترمز فاشترى مائة مملوك من جملة بلبن فلما دخل المماليك على السلطان أعجبه جميعهم إلا بلبن لما ذكرناه من دمايته فقال لا أقبل هذا فقال له بلبن ياخوند عالم لمن اشتريت هؤلاء المماليك فضحك منه وقال اشتريتهم لنفسى فقال اشترنى أنا لله عز وجل فقال نعم وقبله وجعله فى جملة المماليك فاحتقر شأنه وجعل فى السقائين وكان أهل المعرفة بعلم النجوم يقولون للسلطان شمس الدين أن أحد ممالكك يأخذ الملك من يد ابنك ويستولى عليه ولا يزالون يلقون ذلك وهو لا يلتفت إلى أفوالهم لصلاحه وعداه إلى أن ذكرنا ذلك للخاتون الكبرى أم أولاده فذكرت له ذلك وأثر فى نفسه وبعث على المنجمين فقال أتعرفون المملوك الذى يأخذ ملك ابنى إذا رأيتوه فقالوا له نعم عندنا علامة نعرفه بها فأمر السلطان بعرض ممالكه وجاس لذلك فعرضوا بين يديه طبقة طبقة والمنجمون ينظرون إليهم ويقولون لم نره بعد وحن وقت الزوال فقال السقاؤون بعضهم لبعض إنا قد جمعنا فلنجمع شيئاً من الدراهم ونبعث أحداً إلى السوق ليشتري لنا ما نأكله فجمعوا الدراهم وبعثوا بها بلبن إذ لم يكن فيهم أحقر منه فلم يجد بالسوق ما أرادوه فتوجه إلى سوق أخرى وأبطأ وجاءت نوبة السقائين فى العرض وهو لم يأت بعد فأخذوا زقه وماعونه وجعلوه على كاهل صبي وعرضوه على أنه بلبن قلما نودى اسمه جاز الصبي بين أيديهم وانقضى العرض ولم ير المنجمون الصورة التى تطلوبها

وجاء بلبن بعد تمام العرض لما أراد الله من انقاذ قضائه ثم أنه ظهرت نجابته فجعل أمير السقائين ثم صار من جملة الاجناد ثم من الامراء ثم تزوج السلطان ناصر الدين بنته قبل أن يلي الملك ولما ولي الملك جعله نائباً عنه مدة عشرين سنة ثم قتله بلبن واستولى على ملكه عشرين سنة أخرى كما تقدم ذكر ذلك وكان للسلطان بلبن ولدان أحدهما الخان الشهيد ولي عهده واليا لآبيه ببلاد السند ساكناً بمدينة ملتان وقتل في حرب له مع التتر وترك ولدين كي قباد وكي خسرو وولدا للسلطان بلبن الثاني يسمى ناصر الدين وكان والياً لآبيه ببلاد اللكنوتى وبنجاله فلما استشهد الخان الشهيد جعل السلطان بلبن العهد لى ولده كي خسروا وعدل به عن ابن نفسه ناصر الدين وكان لناصر الدين كذلك ولد ساكن بحضرة دهلي مع جده يسمى معز الدين وهو الذى تولى الملك بعد جده فى خبر عجيب نذكره وأبوه إذ ذاك حتى كما ذكرناه

(ذكر السلطان معز الدين بن ناصر ابن السلطان غياث الدين بلبن)

ولما توفى السلطان غياث الدين ليلاً وابنه ناصر الدين غائب ببلاد اللكنوتى وجعل العهد لابن ابنه الشهيد كي خسرو حسيماً قصصناه كان ملك الامراء نائب السلطان غياث الدين عدواً لى خسرو فادار عليه حيلة تمت وهى أنه كتب بيعة دلس فيها على خطوط الامراء الكبار بأنهم بايعوا السلطان معز الدين حفيد السلطان بلبن ودخل على كي خسرو كما المتنصح له ان الامراء قد بايعوا ابن عمك وأخاف عليك منهم فقال كي خسرو فما الحيلة قال انج بنفسك هارباً الى بلاد السند فقال وكيف الخروج والابواب ممدودة فقال له ان المعاتيج بيدي وأنا افتح لك فشكره على ذلك وقبل بده فقال له اركب الآن فركب فى خاصته وبما ليكه وفتح له الباب وأخرجوه وسد فى أثره واستأذن على معز الدين قبايعه فقال كيف لى بذلك وولاية العهد لابن عمى فأعلمه بما أدار عليه من الحيلة وبأخراجه فشكره على ذلك ومضى به الى دار الملك وبعث الى الامراء والخواص قبايعه واليافلما أصبح بايعه سائر الناس واستقام له الملك وكان أبوه حياً ببلاد بنجاله واللكنوتى فاتصل به الخبر فقال أنا وارث الملك وكيف يلى ابني الملك ويستقل به وأنا بقيد الحياة فتجهز فى جيوشه قاصداً حضرة دهلي تجهز ولده فى جيوشه كذلك قاصداً لمدافعته عنها فتوافيا معا بمدينة كرا وهى على ساحل نهر السكنك الذى تجمج الهنود لى فتنزل ناصر الدين على شاطئهما يلى كرا ونزل ولده السلطان معز الدين مما يلى الجهة الأخرى والنهى بينهما وعزما على القتال ثم أوالله تعالى اراد حقن دماء المسلمين فالقى فى قلب ناصر الدين الرحمة لآبنه وقال إذا ملك وادى فذلك شرف وأنا أحق أن أرغب فى ذلك وألقى فى قلب السلطان معز الدين الضراعة لآبيه

فركب كل واحد منهما منفردا عن جيوشه والثقيا في وسط النهر فقبل السلطان رجل ابيه واعتذر له فقال له أبوه قد وهبتك ملكي ووليتك وبايعه وأراد الرجوع لبلاده فقال له أبوه لا بد لك من الوصول إلى بلادى فضى معه إلى دهلى ودخل القصر وأقعد أبوه على سرير الملك ووقف بين يديه وسمى ذلك اللقاء الذى كان بينهما بالنهر لقاء السعدين لما كان فيه من حقن الدماء وتواهب الملك والنجا في المنازعة واكثر الشعراء في ذلك وعاد ناصر الدين إلى بلاده فمات بها بعد سنين وترك بها ذرية منهم غياث الدين بهادور الذى أسره السلطان تغلق وأطلقه أبوه محمد بعد وفاته واستقام الملك لمعز الدين أربعة أعوام بعد ذلك وكانت كالأعياد رأيت بعض من أدركها يصف خيراتها ورخص أسعارها وجود معز الدين وكرمه وهو الذى بنى الصومعة بالصحن الشمالى من جامع دهلى ولا نظير لها في البلاد وحكى لى بعض أهل الهند أن معز الدين كان يكثر النكاح والشرب فاعثرته علة أعجز الأطباء دواؤها ويبس أحد شقيه فقام عليه نائبه جلال الدين فيروز شاه الخلقى (بفتح الخاء المعجم واللام والجيم)

(ذكر السلطان جلال الدين)

ولما اعتري السلطان معز الدين ما ذكرناه من يبس أحد شقيه خالف عليه نائبه جلال الدين وخرج إلى ظاهر المدينة فوقف على تل هنالك بجانب قبة تعرف بقبة الجيشاني فبعث معز الدين الأمراء لقناله فمكان كل من يبعثه منهم يبائع جلال الدين ويدخل في جملته ثم دخل المدينة وحصره في القصر ثلاثة أيام وحدثني من شاهد ذلك أن السلطان معز الدين أصابه الجوع في تلك الأيام فلم يجد ما يأكله فبعث إليه أحد الشرفاء من جيرانه ما أقام أوده ودخل عليه القصر فقتل وولى بعده جلال الدين وكان حليما فاضلا وحلمه أداه إلى القتل كما سيذكره واستقام له الملك سنين وبنى القصر المعروف باسمه وهو الذى أعطاه السلطان محمد لصره الأمير غدا بن مهني لما زوجه وبأخته وميذكر ذلك فمكان للسلطان جلال الدين ولد اسمه ركن الدين وابن أخ اسمه علاء الدين زوجه بأبنته وولاه مدينة كرار ما نيكبور ونواحيها وهي من أخصب بلاد الهند كثيرة القمح والأرز والسكر وتصنع بها الثياب الرفيعة ومنها تجلب إلى دهلى وبينهما مسيرة ثمانية عشر يوما وكانت زوجة علاء الدين تؤذيه فلا زال يشكوها إلى عمه السلطان جلال الدين حتى وقعت الوحشة بينهما بسببها وكان علاء الدين شهما شجاعا مظفرا منصورا وحب الملك ثابت في نفسه إلا أنه لم يكن له مال إلا ما يستفيد به بسيفه من غنائم الكفار فاتفق إنه ذهب مرة إلى

الغزو ببلاد الدويقيير وتسمى بلاد الكتكة أيضا وسندكرها وهي كرسى بلاد المالوة والمرهية وكان سلاطانها أكبر سلاطين الكفار فعثرت بعلاء الدين في تلك الغزوة دابة له عند حجر فسمع له طنيننا فأمر بالحفر هنالك فوجد تحته كنزا عظيما ففرقه في أصحابه ووصل إلى الدويقيير فاذعن له سلاطانها بالطاعة ومكنه من المدينة من غير حرب وأهدى له هدايا عظيمة فرجع إلى المدينة كرا ولم يبعث إلى عمه شيئا من الغنائم فأغرى الناس عمه به فبعث إليه فامتنع من الوصول إليه فقال السلطان جلال الدين أنا أذهب إليه وآتى به فإنه محل ولدى فتجهز في عساكره وطوى المراحل حتى حل بساحل مدينة كرا حيث نزل السلطان معز الدين لما خرج إلى لقاء أبيه ناصر الدين وركب النهر برسم الوصول إلى ابن أخيه وركب أيضا في مركب ثان عازما على الفتك به وقال لأصحابه إذا أنا عانقته فاقتلوه فلما التقينا وسط النهر عانقه ابن أخيه وقتله أصحابه كما وعدهم واحتوى على ماله وعساكره .

(ذكر السلطان علاء الدين محمد شاه الخلاجي)

ولما قتل عمه استقل بالملك وفر إليه أكثر عساكر عمه وعاد بعضهم إلى دهلي واجتمعوا على ركن الدين وخرج إلى دفاعه فمروا جميعا إلى السلطان علاء الدين وفر ركن الدين إلى السند ودخل علاء الدين دار الملك واستقام له الأمر عشرين سنة وكان من خيار السلاطين وأهل الهند يشنون عليه كثيرا وكان يتفقد أمور الرعية بنفسه ويسأل عن أسعارهم ويحضر المحتسب وهم يسمونه الرئيس في كل يوم برسم ذلك ويدكر أنه سأله يوما عن سبب غلاء اللحم فأخبره أن ذلك لكثرة المغرم على البقر في الرتب فأمر برفع ذلك وأمر بإحضار التجار واعطاهم الأموال وقال لهم اشتروا بها البقر والغنم وبيعوها ويرتفع ثمنها لبيت المال ويكون لكم أجر على بيعها ففعلوا ذلك وفعل مثل هذا في الاثواب التي يؤتى بها من دولة اباد وكان إذا غلا ثمن الزرع فتح المخازن وباع الزرع حتى يرخص السعر ويذكر أن السعر ارتفع ذات مرة فأمر ببيع الزرع بثمن عينه فامتنع الناس من بيعه بذلك الثمن فأمر ألا يبيع أحد زراعا غير زرع المخزن وباع للناس ستة أشهر بخاف المحتكرون فساد زرعهم بالسوس فرغبوا أن يؤذن لهم على أن يبيعوه بأقل من القيمة الأولى التي امتنعوا من بيعه بها وكان لا يركب الجمعة ولا العيد ولا سواهما وسبب ذلك إنه كان له ابن أخ يسمى سايمان شاه وكان يحبه ويعظمه فركب يوما إلى الصيد وهو معه وأضر في نفسه أن يفعل ما فعل هو بعمه جلال الدين من الفتك فلما نزل

للغذاء فرماه بنشابة فصرعه وغطاه بعض عبيده بترس وأتى ابن أخيه ليجهز عليه فقال له العبيد أنه قد مات فصدقهم وركب فدخل القصر على الحرم ووافق السلطان علاء الدين من غشيته وركب واجتمعت العساكر عليه وفر ابن أخيه فادرك وأتى به إليه فقتله وكان بعد ذلك لا يركب وكان له من الأولاد خضر خان وشادى خان وأبو بكر خان ومبارك خان وهو قطب الدين الذى ولى الملك وشهاب الدين وكان قطب الدين مهتضيا عنده ناقص الحظ قليل الخطوة وأعطى جميع إخوته المراتب وهى الأعلام والأطبال ولم يعطه شيئا وقال له يوما لا بد أن أعطيك مثل ما أعطيت إخوتك فقال له الله هو الذى يعطى فهال أباه هذا الكلام وفزع منه ثم إن السلطان اشتد عليه المرض وكانت زوجته أم ولده خضر خان وتسمى ماه حق والماء القصر بلسانهم لها أخ يسمى سنجر فمهدت أخاها على تملك ولدها خضر خان وعلم بذلك ملك نائب أكبر أمراء السلطان وكان يسمى الألفى لأن السلطان اشتراه بألف تمكة وهى ألفان وخمسمائة من دنانير المغرب فوشى إلى السلطان بما اتفقوا عليه فقال لخواصه إذا دخل على سنجر فأتى معطيه ثوبا فإذا لبسه فامسكوا بكأماه واضربوا به الأرض واذبجوه فلما دخل عليه فعلوا ذلك وقتلوه وكان خضر خان غائبا بموضع يقال له سندبت على مسيرة يوم من دهلى توجه لزيارة شهداء مدفونين به لئذ كان عليه أن يمشى تلك المسافة راجلا ويدعو لوالده بالراحة فلما بلغه أن أباه قتل أخاله حزن عليه حزنا شديدا ومزق جيبه وتلك عادة لأهل الهند يفعلونها إذا مات لهم من يعز عليهم فبلغ والده ما فعله فكره ذلك فلما دخل عليه عنقه ولأماه وأمر به فقيدت يده ورجلاه وسلبه لملك نائب المذكور وأمره أن يذهب إلى حصن كاليور وضبطه (بفتح الكاف المعقودة وكسر اللام وضم الياء آخر الحروف وآخره راء) ويقال له أيضا كياير بزيادة ياء ثانية وهو حصن منقطع بين كنفار الهندو منيع على مسيرة عشر من دهلى وقد سكنته أنا مدة فلما أوصله إلى هذا الحصن سلبه للسكتوال وهو أمير الحصن وللفردين وهم الزماميون وقال لهم لا تقولوا هذا ابن السلطان فتكرموه إنما هو أعدى عدو له فاحفظوه كما يحفظ العدو ثم إن المرض اشتد بالسلطان فقال لملك نائب أبعث من يأتى بابنى خضر خان لأوليه العهد فقال له نعم وما طلبه بذلك فتمى سأل عنه قال هو ذا يصل إلى أن توفى السلطان رحمه الله .

❦ ذكر ابنه السلطان شهاب الدين ❦

ولما توفى السلطان علاء الدين أقعد ملك نائب ابنه الأصغر شهاب الدين على سرير الملك وبايعه الناس وتغلب ملك نائب عليه وسمل اعين أبي بكر خان وشادى خان وبعث بهما

إلى كاليور وأمر بسمل عيني أخيهما خضر خان المسجون هناك وسجنوا قطب الدين لكنه لم تسمل عينيه وكان السلطان علاء الدين ممنوكان من خواصه يسمى أحدهما ببشير والآخر ببشر فبعثت إليهما اخاتون الكبرى زوجة علاء الدين وهي بنت السلطان معز الدين فذكرتهما بنعمة مولاتهما وقالت إن هذا الفتى نائب ملك قد فعل في أولادى ما نعلمناه وأنه يريد أن يقتل قطب الدين فقالا لها ستين ما نفعل وكانت عادتهما أن يبيتا عند نائب ملك ويدخلا عليه بالسلاح فدخلا عليه تلك الليلة وهو في بيت من الخشب مكسوب بالملف يسمونه الخرمقة بنام فيه أيام المطر فوق سطح القصر فانفق أنه أخذ السيف من يد أحدهما فقلبه ورده إليه فضربه به المملوك وثنى عليه صاحبه واحتزا رأسه وأتيا به إلى مجلس قطب الدين فرميا بين يديه وأخرجاه فدخل على أخيه شهاب الدين وأقام بين يديه أياما كأنه نائب له ثم عزم خلعه فخلعه .

(ذكر السلطان قطب الدين بن السلطان علاء الدين)

وخلع قطب الدين أخاه شهاب الدين وقطع أصبعه وبعث به إلى كاليور فحبس مع إخوته واستقام الملك لقطب الدين ثم انه بعد ذلك خرج من حضرة دهلي إلى دولة إباد وهي على مسيرة أربعين يوما منها والطريق بينهما تكسفه الأشجار من الصفاة وسواء فكان الماشى به في بستان وفي كل ميل منه ثلاث داوات وهي البريد وقد ذكرنا ترتيبه وفي كل دواة جميع ما يحتاج المسافر إليه فكانه يمشى في سوق مسيرة الأربعين يوما وكذلك يتصل الطريق إلى بلاد التملك والمعبر مسيرة ستة أشهر وفي كل منزلة قصر السلطان وزاوية للوارد والصادر فلا يفتقر الفقير إلى حمل زاد في ذلك الطريق ولما خرج السلطان قطب الدين في هذه الحركة اتفق بعض الأمراء على الخلاف عليه وتولية ولد أخيه خضر خان المسجون وسنه نحو عشرة أعوام وكان مع السلطان فبلغ السلطان ذلك فآخذ ابن أخيه المذكور وأمسك برجله وضرب برأسه إلى الحجارة حتى نثر دماغه وبعث أحد الأمراء ويسمى ملك شاه إلى كاليور حيث أبو هذا الولد وأعمامه وأمره بقتلهم جميعا فحدثني القاضي زين الدين مبارك قاضي هذا الحصن قال قدم علينا ملك شاه ضحوة يوم وكنت عند خضر خان محبسه فلما سمع بقدمه خاف وتغير لونه ودخل عليه الأمير فقال له فيما جئت قال في حاجة خوند عالم فقال له نفس سالمة فقال نعم وخرج عنه واستحضر الكتوال وهو صاحب الحصن والمفردين وهم الزماميون وكانوا ثلاثمائة رجل وبعث عنى وعن العدول واستظهر بأمر السلطان فقرؤوا تواتوا إلى شهاب الدين المحلوع فضرروا عنقه .

وهو مثبت غير جزع ثم ضربوا عنق أبي بكر خان وشادي خان لما أتوا لبيضربوا عنق خضر خان فزع وذهل وكانت أمه معه فسدوا الباب دونها وقتلوه وسحبوهم جميعا في حفرة بدون تكفين ولا غسل وأخرجوا بعد سنين فدفنوا بمقابر آبائهم وعاشت أم خضر خان مدة ورأيتها بمكة سنة ثمان وعشرين وحصن كاليور هذا في رأس شاهق كأنه منحوت من الصخر لا يحاذيه جبل وبداخله جباب الماء ونحو عشرين بئرا عليها الأسوار مضافة إلى الحصن منصوبا عليها المجانيق والرمادات ويصعد إلى الحصن في طريق متسعة يصعد بها الفيل والفرس وعند باب الحصن صورة فيل منحوت من الحجر وعليه صورة فيال وإذا رآه الإنسان على البعد لم يشك أنه فيل حقيقة وأسفل الحصن مدينة حسنة مبنية كلها بالحجارة البيض المنحوتة مساجدها ودورها ولا خشب فيها ما عدا الأبواب وكذلك دار الملك بها والقباب والمجالس وأكثر سوقتها كفر وفيها ستمائة فارس من جيش السلطان لا يزالون في جهاد لأنها بين الكفار ولما قتل قطب الدين إخوته واستقل بالملك فلم يبق من ينازعه ولا من يخالف عليه بعث الله تعالى عليه خاصته الحظي لديه أكبر أمراءه وأعظمهم منزلة عنده ناصر الدين خسرو خان ففتك به وقتله واستقل بملكه إلا أن مدته لم تطل في الملك فبعث الله عليه أيضا من قتله بعد خلعه السلطان تغلق حسبا يشرح ذلك كله مستوفي إن شاء الله تعالى أثر هذا ونسطره .

(ذكر السلطان خسرو خان ناصر الدين)

وكان خسرو خان من أكبر أمراء قطب الدين وهو شجاع حسن الصورة وكان فتح بلاد جنديري وبلاد المعبر وهي من أخصب بلاد الهند وبينهما وبين دهلي مسيرة ستة أشهر وكان قطب الدين يحبه حبا شديدا ويؤثره فجر ذلك حنقه على يديه وكان لقطب الدين معلم يسمى قاضي خان صدر الجهان وهو أكبر أمراءه كليت (كليد) دار وهو صاحب مفاتيح القصر وعادته أن يبيت كل ليلة على باب السلطان ومعه أهل النوبة وهم ألف رجل يبيتون مناوبة بين أربع ليال ويكونون صفين فيما بين أبواب القصر وسلاح كل واحد منهم بين يديه فلا يدخل أحدا إلا فيما بين سماطهم وإذا تم الليل أتى أهل نوبة بالنهار ولأهل النوبة أمراء وكتاب يتطوفون عليهم ويكتبون من غاب منهم أو حضر وكان معلم السلطان قاضي خان يكره أفعال خسرو خان ويسوءه ما يراه من إيثاره لسكران الهند وميله إليهم وأصله منهم ولا يزال ياتي ذلك إلى السلطان فلا يسمع منه ويقول له دعه وما يريد لما أراد الله من قتله على يده فلما كان في بعض الأيام قال خسرو خان للسلطان أن جماعة

من الهنود يريدون أن يسلبوا ومن عادتهم بتلك البلاد أن الهدى إذا أراد الاسلام أدخل إلى السلطان فيكسوه كسوة حسنة ويعطيه قلادة وأساور من ذهب على قدره فقال له السلطان اتلني بهم فقال أنهم يستحيون أن يدخلوا اليك نهار الأجل أقر بانهم وأهل ملتهم فقال له اتلني بهم ليلا لجمع خسروخان جماعة من شجعان الهنود وكبرائهم فيهم أخوه خان خانان وذلك أوان الحمر والسلطان ينام فوق سطح القصر ولا يكون عنده في ذلك الوقت إلا بعض الفتيان فلما دخلوا الأبواب الأربعة وهم شاكون السلاح ووصلوا إلى الباب الخامس وعليه قاضي خان انسكروا عليهم وأحس بالشرف منهم من الدخول وقال لا بد أن أسمع من خوند عالم بنفسى الاذن في دخولهم وحينئذ يدخلون فلما منهم من الدخول هجموا عليه فقتلوه وعلت الضجة بالباب فقال السلطان ما هذا فقال خسروخان الهنود الذين أتوا يسلبوا فمنهم قاضي خان من الدخول وزاد الضجة فخاف السلطان وقام يريد الدخول إلى القصر وكان بابه مسدودا والفتيان عنده فقررع الباب واحتضنه خسروخان من خلفه وكان السلطان أقوى منه فصرعه ودخل الهنود فقال لهم خسروخان هو ذا فوق فاقتلوه فقتلوه وقطعوا رأسه ورموا به من سطح القصر إلى صحنه وبعث خسروخان من حينه عن الامراء والملوك وهم لا يعلمون بما انفق فكلم دخلت طائفة وجده على سرير الملك فبايعوه ولما أصبح أعلن بأمره وكتب المراسم وهي الأوامر إلى جميع البلاد وبعث لكل أمير خزمة فطاعوا له جميعا وأذعنوا إلى تغلق شاه ولد السلطان محمد شاه وكان اذ ذلك أمير ابدبال بور من بلاد السند فلما وصلتته خلعة خسروخان طرحتها بالارض وجلس فوقها وبعث اليه أخاه خان خانان فبزمهم ثم آل أمره إلى أن قتله كما سنذكره في أخبار تغلق ولما ملك خسروخان أثر الهنود واظهر امورا منكرة منها النهى عن ذبح البقر على قاعدة كفر الهنود فانهم لا يجوزون ذبحها رجزا من ذبحها عندهم أن يخاط في جلد هاويحرق وهم يعظمون البقر ويشربون أبوالها للبركة والاستشفاء إذا مرضوا ويلطخون بيوتهم وحيطانهم بأرواثها وكان ذلك مما بغض خسروخان إلى المسلمين وأما لهم عنه إلى تغلق فلم تصل مدة ولايته ولا امتدت أيام ملكه كما سنذكره

(ذكر السلطان غياث الدين تغلق شاه)

(وضبط اسمه بضم التاء المملوطة وسكون الغين المعجم وضم اللام وآخره قاف) حدثني الشيخ الامام الصالح العالم العامل العابد ركن الدين بن الشيخ الصالح شمس الدين أبي عبد الله بن الولي الامام العالم العابد بهاء الدين ذكرى القرشي الملقب بزاوية منها إلى السلطان تغلق كان

من الاثراك المعروفين بالقرونة (بفتح القاف والراء وسكون الواو ففتح النون) وهم قاطنون بالجبال التي بين بلاد السند والترك وكان ضعيف الحال فقدم بلاد السند في خدمة بعض التجار وكان كلوا نباله والكلواني (بضم الكاف المعقود) هو راعي الخيل (جلوبان) وذلك على أيام السلطان علاء الدين وأمير السند إذ ذاك أخوه أولوخان (بضم الهمزة واللام) نفذه تغلق وتغلق بجانيه فرتبه في البياة (بكسر الباء الموحدة وفتح الياء آخر الحروف) وهم الرجال ثم ظهرت نجابتة فأنبت في الفرسان ثم كان من الامراء الصغار وجعله أولوخان أمير خيله ثم كان بعد ذلك من الامراء السكبار وسمى بالملك الغازي ورأيت مكتوباً على مقصورة الجامع بملتان وهو الذي امر بعملها اني قاتلت التتر تسعاً وعشرين مرة فهزمتهم فحينئذ سميت بالملك الغازي ولما ولي قطب الدين ولاية مدينة دبال بور وعمالها (وهي بكسر الدال المهملة وفتح الباء الموحدة) وجعل ولده الذي هو الآن سلطان الهند أمير خيله وكان يسمى جونة (بفتح الجيم والنون) ولما ملك تسمى بمحمد شاه ثم لما قتل قطب الدين وولي خسروخان أبقاه الله على إمارة الخيل فلما اراد تغلق الخلاف كان له ثلاثمائة من أصحابه الذين يعتمد عليهم في القتال وكتب إلى كشلوخان وهو يومئذ بملتان وبينهما وبين دبال بور ثلاثة أيام يطلب منه القيام بنصرته ويندكره نعمة قطب الدين ويحرضه على طلب ثاره وكان ولد كشلوخان بدلهي فكتب إلى تغلق انه لو كان راد عندي لأعنتك على ما تريد فكتب تغلق إلى ولده محمد شاه يعلمه بما عزم عليه ويأمره أن يفر اليه ويستصحب معه ولد كشلوخان دار ولده الخيلة على خسروخان وتمت له كما اراد فقال له أن الخيل قد سممت وتبدنت وهي تحتاج البراق وهو التضميم فاذن له في تضميمها فكان يركب كل يوم في أصحابه فيسير بها الساعة والساعتين والثلاث واستمر إلى اربع ساعات إلى ان غاب يوماً إلى وقت الزوال وذلك وقت طعامهم فامر السلطان بالركوب في طلبه فلم يوجد له خبر ولحق بابيه واستصحب معه ولد كشلوخان وحينئذ أظهر تغلق الخلاف وجمع العساكر وخرج معه كشلوخان في أصحابه وبعث السلطان أخاه خان خانان لقتالهما فهزمه شرهزيمته وفر عسكره اليهما ورجع خان خانان إلى أخيه وقتل أصحابه وأخذت خزانته وأمواله وقصد تغلق حضرة دهلي

وخرج اليه خسروخان في عساكره ونزل بخارج دهلي بموضع يعرف بأصيا اباد (آسيا باد) ومعنى ذلك رحي الريح وأمر بالخزائن ففتحت وأعطى الاموال بالبدل لا بوزن ولا عد ووقع اللقاء بينه وبين تغلق وقاتلت الهندواشد قتالاً وانهمت عساكر تغلق ونهبت محلاته وانفرد في أصحابه الاقدمين الثلاثمائة فقال لهم إلى أين الفرار حيثما أدركنا قتلنا

واشتهلت عساكر خسرو خان بالهيب وتفردوا عنه ولم يبق معه الا قليل فقصد تغلق وأصحابه موقفه والسلطان هنالك يعرف بالشر (جتر) الذي يرفع فوق رأسه وهو الذي يسمى بديار مصر القبة والطير ويرفع بها في الاعياد وأما بالهند والصين فلا يفارق السلطان في سفر ولا حضر فلما قصده تغلق وأصحابه حصى القتال بينهم وبين الهندود وانهم أصحاب السلطان ولم يبق معه أحد وهرب فنزل عن فرسه ورعى بنيابه وسلاحه وبقى في قميص واحد وارسل شعره بين كتفيه كما يفعل فقراء الهندود دخل بستانا هنالك واجتمع الناس على تغلق وقصد المدينة فاتاه السكتوال بالمفا تبيح ودخل القصر ونزل بناحية منه وقال لكشلو خان أنت تكون السلطان فقال لكشلو خان بل أنت تكون السلطان وتنازعا فقال له لكشلو خان فان أبيت أن تكون سلطانا فيتولى ولدك فكره هذا وقبل حينئذ وقعد على سرير الملك وبايعه الخاص والعام ولما كان بعد ثلاث اشدد الجوع بخسرو خان وهو يختف بالبهستان نخرج وطاف به فوجد القيم فسأله طعاما فلم يكن عنده فاعطاه خاتمه وقال اذهب فارهنه في طعام فلما ذهب بالخاتم إلى السوق انكر الناس أمره ورفعوه إلى الشحنة وهو الحاكم فادخله على السلطان تغلق فاعلمه بمن دفع اليه الخاتم فبعت ولده حمدا لياقي به فقبض عليه وأتاه به راكبا على تنو (بتائين مشناتين أولاهما مفتوحة والثانية مضمومة) وهو البرذون فلما مثل بين يديه قال له لاني جائع فأننى بطعام فامر له بالشرية ثم الطعام ثم بالقضاع ثم بالتنبول فلما أكل قام قائما وقال يا تغلق افعل معي فعل الملوك ولا تفضحنى فقال له لك ذلك وأمر به فضربت رقبة وذلك في الموضع الذي قتل هو به قطب الدين ورعى برأسه وجسده من اعلى السطح كما فعل هو برأس قطب الدين وبعد ذلك أمر بغسله وتكفينه ودفن في مقبرته واستقام الملك لتغلق أربعة أعوام وكان عالا فاضلا

(ذكر مارامه ولده من القيام عليه فلم يتم له ذلك)

ولما استقر تغلق بدار الملك بعث ولده ليفتح بلاد التلنك (وضبطها بكسر التاء المعلو واللام وسكون النون وكاف معقودة) وهي على مسيرة ثلاثة اشهر من مدينة دهلي وبعث معه عسكريا عظيما فيه كبار الامراء مثل الملك تمور (بفتح التاء المعلو وضم الميم وآخره راء) ومثل الملك تسكين (بكسر التاء المعلو والكاف وآخره نون) ومثل ملك كافور والمهر دار (بضم الميم) ومثل ملك بيرم (بالباء الموحدة مفتوحة والياء آخر الحروف والراء مفتوحة) وسواهم فلما بلغ إلى أرض التلنك اراد المخالفة وكان له نديم من الفقهاء الشعراء يعرف بعيد فامره أن ياتي إلى الناس أن السلطان تغلق توفي وظنه أن الناس يبايعونه مسرعين

إذا سمعوا ذلك فلما اتى ذلك الى الناس أنسكروه الأمراء وضرب كل واحد منهم طبله وخائف فلم يبق معه أحد وأرادوا قتله فمنعهم منه ملك تمور وقام دونه ففر الى أبيه في عشرة من الفرسان سباهم ياران موافق معناه الاصحاب الموافقون فأعطاه أبوه الأموال والعساكر وأمره بالعود الى تلنك فعاد اليها وعلم أبوه بما كان أراد فقتل الفقيه عبيدا وأمر بملك كافور المهر دار فدق له عمود في الأرض محدود الطرف وركز في عنقه حتى خرج من جنبه طرفه ورأسه الى أسفل وترك على تلك الحال وفر من بقى من الأمراء الى السلطان شمس الدين ابن السلطان ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن واستقروا عنده .

(ذكر مسير تغلق الى بلاد السكنوتى وما اتصل بذلك الى وفاته)

وأقام الأمراء الهاربون عند السلطان شمس الدين ثم ان شمس الدين توفي وعهد لولده شهاب الدين لجلس مجلس أبيه ثم غلب عليه أخوه الأصغر غياث الدين بهادور بورة ومعناه بالهندية الأسود واستولى على الملك وقتل أخاه قطلو خان وسائر إخوته وفر شهاب الدين وناصر الدين منهم الى تغلق فتجهز معهما لقتال أخيهما وخلف ولده محمدا نائباً عنه في ملكه وجد السير الى بلاد السكنوتى فانتصر عليها وأسر سلطانها غياث الدين بهادور وقدم به أسيراً الى حاضرة ملكه وكان بمدينة دهلى الولي نظام الدين البدواني ولا يزال محمد شاه ابن السلطان يتردد اليه ويعظم خدامه ويسأله الدعاء وكان يأخذ الشيخ حال تعلب عليه فقال ابن السلطان لخدمته اذا كان الشيخ في حاله التي تغلب عليه فأعلموني بذلك فلما أخذته الحال أعلموه فدخل عليه فلما رآه الشيخ قال وهبنا لك الملك ثم توفي الشيخ في أيام غيبة السلطان فجعل ابنه محمد نعشه على كاهله فبلغ ذلك أباه فأسكروه وتوعدوه وكان قد رآه منه أمور ونقم عليه استسكثاره من شراء الممالك وإجزاله العطايا واستجلا به قلوب الناس فزاد حنقه عليه وبلغه ان المنجمين زعموا انه لا يدخل مدينة دهلى بعد سفره ذلك فتوعدوه ولما عاد من سفره وقرب من الحاضرة أمر ولده ان يبني له قصراً وهم يسمونه السكشك (بضم الكاف وشين معجم مسكن) على واد هتالك يسعى افغان بور فبناه في ثلاثة أيام وجعل أكثر بنائه بالخشب مرتفعاً على الأرض قائماً على سوارى خشب وأحكم به هندسة تولى النظر فيها الملك وزاده المعروف بعد ذلك بخواجه جهان وإسمه احمد بن ياس كبير وزراء السلطان محمد وكان إذ ذاك شحنة العمارة وكانت الحسكة التي اخترعوها فيه انه متى وطئت الفيلة جهة منه وقع ذلك القصر وسقط ونزل السلطان بالقصر وأطعم الناس وتفرقوا واستأذنه ولده في ان يعرض الفيلة بين يديه وهي مزينة فأذن له وحدثني الشيخ ركن الدين (٣ - رحله - ثانی)

أنه كان يومئذ مع السلطان ومعهما ولد السلطان المؤثر لديه محمود فجاء محمد بن السلطان فقال للشيخ ياخوند هذا وقت العصر انزل فصل قال لي الشيخ فنزلت وأتى بالآفيال من جهة واحدة حسبما دبروه فلما وطئتها سقط الكشك على السلطان وولده محمود قال الشيخ فسمعت الضججة فعدت ولم أصل فوجدت الكشك قد سقط فأمر ابنه أن يؤتى بالنفوس والمساحي للحفر عنه وأشار بالابطاء فلم يؤت بهما إلا وقد غربت الشمس فحفروا ووجدوا السلطان قد حنأ ظهره على ولده ليقبیه الموت فزعم بعضهم أنه خرج ميتاً وزعم بعضهم أنه أخرج حياً فأجهز عليه وحمل ليلاً إلى مقبرته التي بناها خارج البلدة المسماة باسمه تغلق آباد فدفن بها وقد ذكرنا السبب في بنائه لهذه المدينة وبها كانت خزائن تغلق وقصوره وبها القصر الأعظم الذي جعل قراميده مذهبة فاذا طلعت الشمس كان لها نور عظيم وبصيص يمنع البصر من إدامه النظر إليها واختزن بها الأموال الكثيرة ويذكر أنه بنى صهريجا وأفرغ فيه الذهب أفراغا فكان قطعة واحدة فصرف جميع ذلك ولده محمد شاه ولما ولي وبسبب ما ذكرناه من هندسة الوزير خواجه جهان في بناء الكشك الذي سقط على تغلق وكانت خطوته عند ولده محمد شاه وإيثاره فلم يكن أحديداً فيه في المنزلة لديه ولا يبلغ مرتبته عنده من الوزراء ولا غيرهم .

(ذكر السلطان أبي المجاهد محمد شاه ابن السلطان غياث الدين تغلق شاه

ملك الهند والسند الذي قدمنا عليه)

ولما مات السلطان تغلق استولى ابنه محمد على الملك من غير منازع له ولا مخالف عليه وقد قدمنا أنه كان اسمه جورنه فلما ملك تسمى بمحمد واكتفى بأبي المجاهد وكل ما ذكرت من شأن سلاطين الهند فهو مما أخبرت به وتلقيته أو معظمه من الشيخ كمال الدين بن البرهان الغزنوي قاضي القضاة وأما أخبار هذا الملك فمعظمها مما شاهدته أباي كوني بهلاده .

(ذكر وصفه)

هذا الملك أحب الناس في إسداء العطايا وإراقة الدماء فلا يخلو باباً عن فقير يغني أو حتى يقتل وقد شهرت في الناس حكاياته في الكرم والشجاعة وحكاياته في الفتك والبطش بدوى الجنائيات وهو أشد الناس مع ذلك تواضعاً وأكثرهم إظهاراً للعديل والحق وشعائر الدين عنده محفوظة وله اشتداد في أمر الصلاة والعقوبة على تركها وهو من الملوك الذين اطردت سماعتهم وخرق المعتاد من نقيبتهم واسكن الأغلب عليه الكرم وسندكر من أخباره في عجائب لم يسمع بمثالها عن تقدمه وأنا أشهد بالله وملائكته ورسله أن جميع ما نقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين، وكفى بالله شهيداً وأعلم أن بعض آثاره من ذلك لا يسع

في عقل كثير من الناس ويعدونه من قبيل المستحيل عادة ولا كنه شيء عاينته وعرفت صحته وأخذت بحظ وافر منه لا يسعني إلا قول الحق فيه وأكثر ذلك ثابت بالتواتر في بلاد المشرق

﴿ ذكر أبوابه ومشوره وترتيب ذلك ﴾

ودار السلطان بدهلي تسمى دار سرى (بفتح السين المهمل والراء) ولها أبواب كثيرة أما الباب الأول فعليه جملة من الرجال موكلون به ويقعد به أهل الانفار والأبواق والسرنايات فإذا جاء أمير أو كبير ضربوها ويقولون في ضربهم جاء فلان وكذلك أيضا في الباب الثاني والثالث وبخارج الباب الأول دكاكين يقعد عليها الجلادون وهم الذين يقتلون الناس فإن العادة عندهم أنه متى أمر السلطان بقتل أحد قتل على باب المشور ويبقى هنا ثلاثا وبين الباب الأول والثاني دهليز كبير فيه دكاكين مبنية من جهتيه يقعد عليها أهل النوبة من حناظر الأبواب وأما الباب الثاني فيقعد عليه البوابين الموكلين به وبينه وبين الباب الثالث دكانه كبيرة يقعد عليها نقيب النقباء وبين يديه عمود ذهب يمسكه بيده وعلى رأسه كلاه من الذهب بجوهر في أعلاه أريش الطواويس والنقباء بين يديه على رأس كل واحد منهم شاشيه مذهبة وفي وسطه منطقة وبيده سوط نصابه من ذهب أو فضة ويفضي هذا الباب الثاني إلى مشور كبير متسع يقعد به الناس وأما الباب الثالث فعليه دكاكين يقعد فيها كتاب الباب ومن عوائدهم أن لا يدخل على هذا الباب أحدا من عينه السلطان لذلك ويعين لكل إنسان عدد من أصحابه وناسه يدخلون معه وكل من يأتي إلى هذا الباب يكتب الكتاب أن فلانا جاء في الساعة الفلانية من الساعات إلى آخر النهار ويطالع السلطان بذلك بعد العشاء الآخرة ويكتبونه أيضا بكل ما يحدث من الباب من الأمور وقدمين من أبناء الملوك من يوصل ما يكتبونه إلى السلطان ومن عوائدهم أيضا أنه من غاب عن دار السلطان ثلاثة أيام فصاعدا أعذر أو أعذر فلا يدخل هذا الباب بعدها إلا بإذن من السلطان فإن كان له عذر من مرض أو غيره قدم بين يديه هدية مما يناسب إهداءها إلى السلطان وكذلك القادمون من الأسفار فالفقيه يهدي المصحف والكتّاب وشبه الفقير يهدي المصلي والسبعة والمسواك ونحوها والأمراء ومن أشبههم يهدون الخيل والجمال والسلاح وهذا الباب الثالث يفضي إلى المشور الهائل الفسيح المسمى هزاراسطون (بفتح الهاء والزاي وآلف وراء) ومعنى ذلك ألف سارية وهو سوارى من خشب مدهونة عليها سقف خشب منقوشة أبدع نقش يجلس تحتها وبهذا المشور يجلس السلطان الجلوس العام .

(ذكر ترتيب جلوسه)

أكثر جلوسه بعد العصر وربما جلس أول النهار وجلوسه على مصطبة مفروشة بالبياض

فوقها مرتبة ويجعل خلف ظهره مخدعة كبيرة وعن يمينه متكأ وعن يساره مثل ذلك وقعوده كجلوس الإنسان للتشهد في الصلاة وهو جلوس أهل الهند كلهم فإذا جلس وقف أمامه الوزير ووقف الكتاب خلف الوزير وخلفهم الحجاب وكبير الحجاب هو فيروز ملك ابن عم السلطان ونائبه وهو أدنى الحجاب من السلطان ثم يتلوه خاص حاجب ثم يتلوه نائب خاص حاجب ووكيل الدار ونائبه وشرف الحجاب وسيد الحجاب وجماعة تحت أيديهم ثم يتلو الحجاب النقباء وهم نحو مائة وعند جلوس السلطان ينادى الحجاب والنقباء بأعلى أصواتهم بسم الله ثم يقف على رأس السلطان الملك الكبير قبولة بيده المذبة يشرد بها الذباب ويقف مائة من الساجدة عن يمين السلطان ومثامهم عن يساره بأيديهم الدرق والسيوف والقسي ويقف في الميمنة والميسرة بطول المشور قاضي القضاة يليه خطيب الخطباء ثم كبار الفقهاء ثم كبار الشرفاء والمشايخ ثم إخوة السلطان وأصهاره ثم الأمراء الكبار ثم كبار الأعرزة وهم الغرباء ثم القواد ثم يؤتى بستين فرسا مسرجة ملجمة بجهازات سلطانية فمنها ما هو بشعار الخلافة وهي التي لجها ودوائرها من الحرير الأسود المذهب ومنها ما يكون من الحرير الأبيض المذهب ولا يركب بذلك غير السلطان فيوقف النصف من هذه الخيل عن اليمين والنصف عن الشمال بحيث يراها السلطان ثم يؤتى بخمسين فيلًا مزينة بثياب الحرير والذهب مكسوة نيا بها بالحديد أعدادا لقتل أهل الجرائم وعلى عنق كل فيل فياله وبيده شبه الطبرزين من الحديد يؤدبه به ويقومه لما يراد منه وعلى ظهر كل فيل شبه الصندوق العظيم يسع عشرين من المقاتلة وأكثر من ذلك ودونه على حسب ضخامة الفيل وعظم جرمه وفي أركان هذا الصندوق أربعة أعلام مركوزة وتلك الفيلة مملأة أن تخدم السلطان وتحط رؤسها فإذا خدمت قال الحجاب بسم الله بأصوات عالية ويقف أيضا نصفها عن اليمين ونصفها عن الشمال خلف الرجال الواقفين وكل من يأتي من الناس الممسين للوقوف في الميمنة أو الميسرة يخدم عندهم وقف الحجاب ويقول الحجاب بسم الله ويكون ارتفاع أصواتهم بقدر ارتفاع صوت الذي يخدم فإذا خدم انصرف إلى موقفه من الميمنة أو الميسرة لا يتعداه ومن كان من كفار الهند يخدم ويقول له الحجاب والنقباء هداك الله ويقف عبيد السلطان من وراء الناس كلهم بأيديهم الترس والسيوف فلا يمكن الدخول بينهم إلا بين يدي الحجاب القائمين بين يدي السلطان .

(ذكر دخول الغرباء وأصحاب الهدايا إليه)

وإن كان بالباب أحد من قدم على السلطان بهدية دخل الحجاب إلى السلطان على ترتيبهم

يقدمهم أمير حاجب ونائبه خلفه ثم خاص حاجب ونائبه خلفه ثم وكيل الدار ونائبه ثم سيد الحجاب وشرف الحجاب ويخدمون في ثلاثة مواضع ويعلمون السلطان بمن في الباب فإذا أمرهم أن يأزوا به جعلوا الهدية التي ساقها بأيدي الرجال يقومون بها أمام الناس بحيث يراها السلطان ويستدعى صاحبها فيخدم قبل الوصول إليه ثلاث مرات ثم يخدم عند موقف الحجاب فإن كان رجلاً كبيراً وقف في صف أمير حاجب وإلا وقف خلفه ويخاطبه السلطان بنفسه أ لطف خطاب ويرحب به وإن كان ممن يستحق التعظيم فإنه يصاحبه أو يعانقه ويطلب بعض هديته فتحضر بين يديه فإن كانت من السلاح أو الثياب قلبها بيده وأظهر استحسانها جبراً لخاطر مهديها وإيناساً له ورفقاً به وخلع عليه وأمر له بمال لغسل رأسه على عادتهم في ذلك بمقدار ما يستحقه المهدي

(ذكر دخول هدايا أعماله إليه)

وإذا أتى العمال بالهدايا والأموال المجتمعة من مجابي البلاد صنعوا الأواني من الذهب والفضة مثل الطسوت والاباريق وسواها وصنعوا من الذهب والفضة قطعاً شبه الآجر يسمونها الخشت (بكسر الخاء المعجمة وسكون الشين المعجم وتاء معلومة) ويقف العراشون وهم عبيد السلطان صفوا والهدية بأيديهم كل واحد منهم ممسك قطعة ثم يقدم الفيلة إن كان في الهدية شيء منها ثم الخيل المسرجة الملجمة ثم الجمال عليها الأموال ولقد رأيت الوزير خواجه جهان قدم هديته ذات يوم حين قدم السلطان من دولة أباد ولقيه بها في ظاهر مدينة بيانة فأدخلت الهدية إليه على هذا الترتيب ورأيت في جملة صينية مليئة بأحجار الياقوت وصينية مليئة بأحجار الزمرد وثلاثة باللؤلؤ الفاخر وكان حاجي كاوان ابن عم السلطان أبي سعيد ملك العراق حاضراً عنده حين ذلك فأعطاء حظاً منها وسنذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى

(ذكر خروجه للعبيدين وما يتصل بذلك)

وإذا كانت ليلة العيد بعث السلطان إلى الملوك والخوفا وأرباب الدولة والاعزة والكتاب والحجاب والنقباء والقواد والعبيد وأهل الأخبار الخلع التي تعميم جميعاً فإذا كانت صبيحة العيد ذينت الفيلة بالحرير والذهب والجواهر ويكون منها ستة عشر فيلًا لا يركبها أحد إنما هي مختصة بركوب السلطان ويرفع عام ستة عشر شطراً (حترأ) عن الحرير مرصعة بالجواهر قائمة كل شطر منها ذهب خالص وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصعة بالجواهر وركب السلطان فيلًا منها وترفع أمامه الغاشية وهي ستارة سرجة وتكون مرصعة بأنفس الجواهر ويمشي بين يديه عبيده ومماليكه وكل واحد منهم تكون على رأسه شاشية ذهب وعلى وسطه

منطقة ذهب وبعضهم يرصعها بالجواهر ويمشي بين يديه أيضا النقباء وهم نحو ثلثمائة وعلى رأس كل واحد منهم أقروف ذهب وعلى وسطه منطقة ذهب وفي يده مقرعة نصامها ذهب ويركب قاضي القضاة صدر الجهان كمال الدين الغزنوري وقاضي القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمي وسائر القضاة وكبار الأعزة من الخراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة كل واحد منهم على جميع الغرباء عندهم يسمون الخراسانيين ويركب المؤذنون على الغبلة وهم يكبرون ويخرج السلطان من باب القصر على هذا الترتيب والعساكر تنتظره كل أمير بفوجه على حده معه طبوله وأعلامه فيقدم السلطان وأمامه من ذكرناه من المشاة وأمامهم القضاة والمؤذنون يذكرون الله تعالى وخلف السلطان مراتبه وهي الأعلام والطبول والأبواق والأنفار والصرايات وخلفهم جميع أهل دخلته ثم يتلوها أخو السلطان مبارك خان بمراتبه وعساكره ثم يليه ابن أخ السلطان بهرام خان بمراتبه وعساكره ثم يليه ابن عمه ملك فيروز بمراتبه وعساكره ثم يليه الوزير بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك مجير بن ذى الرجا بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك الكبير قبوله بمراتبه وهذا الملك كبير القدر عنده عظيم الجاه كثير المال أخبرني صاحب ديوانه ثقة الملك علاء الدين علي المصري المعروف بابن الشرايشي أن نفقته ونفقة عبيده ومراتبهم ستة وثلاثون لكافي السنة ثم يليه الملك نسكية بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك بغرة بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك مخاض بمراتبه وعساكره وهؤلاء هم الأمراء السكبار الذين لا يفارقون السلطان وهم الذين يركبون معه يوم العيد بالمراتب ويركب غيرهم من الأمراء دون مراتب وجميع من يركب في ذلك اليوم يكون مدرعا هو وفرسه وأكثر مما يليك السلطان فاذا وصل السلطان إلى باب المصلى وقف على بابه وأمر بدخول القضاة وكبار الأمراء وكبار الأعزة ثم ينزل السلطان ويصلي الإمام ويخطب فان كان عيد الأضحى أتى السلطان بحمل فنحره برمح يسمونه النيزة (بكسر النون وفتح الزاي) بعد أن يحمل على ثيابه فوطاة توقيا من الدم ثم يركب الفيل ويعود إلى قصره .

(ذكر جلوس يوم العيد وذكر السرير الأعظم والمبخرة العظمى)

ويفرش القصر يوم العيد ويزين بأبدع الزينة وتضرب الباركة على المشوركل وهي شبه خيمة عظيمة تقوم على أعمدة ضخام كثيرة تحفها القباب من كل ناحية ويصنع به أشجار من حرير ملون فيها شبه الأزهار ويجعل منها ثلاثة صفوف بالمشور ويجعل بين كل شجرتين كرسي ذهب عليه مرتبة منطاة وينصب السرير الأعظم في صدر المشور وهو

من الذهب الخالص كله مرصع القوائم بالجواهر وطوله ثلاثة وعشرون شبرا وعرضه نحو النصف من ذلك وهو منفصل وتجمع قطعه فتتصل وكل قطعة منها يحملها جملة رجال لثقل الذهب وتجعل فوق المترتبة ويرفع الشطر المرصع بالجواهر على رأس السلطان وعند ما يصعد على السرير ينادى الحجاب والنقباء بأصوات عالية بسم الله ثم يتقدم الناس للسلام فأولهم القضاة والخطباء والعلماء والشرفاء والمشاريخ وإخوة السلطان وأقاربه وأصهاره ثم الأئمة ثم الوزير ثم أمراء العساكر ثم شيوخ الماليك ثم كبار الأجناد يسلم واحد إثر واحد من غير تزاحم ولا تدافع ومن عوائدهم في يوم العيد أن كل من بيده قرينة منعم بها عليه يأتي بدنانير ذهب مصرورة في خرقة مكتوب عليها اسمه فيلقها في طست ذهب هنالك فيجتمع منها مال عظيم يعطيه السلطان لمن شاء.

فإذا فرغ الناس من السلام وضع لهم الطعام على حسب مراتبهم وينصب في ذلك اليوم المبخرة العظمى وهي شبه برج من خالص الذهب منفصلة فإذا أرادوا اتصالها وصلوها وتحمل القطعة الواحدة منها جملة من الرجال وفي داخلها ثلاثة بيوت يدخل فيها المبخرون بوقود العود القمارى والقافلى والعنبر. الأشهب والجاوى حتى يعم دخانها المشور كله ويكون بأيدي الفتیان براميل الذهب والفضة مملوءة بماء الورد وماء الزهر يصبونه على الناس صبيا وهذا السرير وهذه المبخرة لا يخرجان إلا في العيدين خاصة ويجلس السلطان في بقية أيام العيد على سرير ذهب دون ذلك وتنصب باركة بعيدة لها ثلاثة أبواب يجلس السلطان في داخلها ويقف على الباب الأول منها عماد الملك سرتين وعلى الباب الثانى الملك نسكبية وعلى الباب الثالث يوسف بغرة ويقف على اليمين أمراء الماليك السلحدارية وعن اليسار كذلك ويقف الناس على مراتبهم وشحنة الباركة ملك ملهى بيده عصا ذهب ويبد نائبه عصا فضة يرتبان الناس ويسويان الصفوف ويقف الوزير والكتاب خلفه ويقف الحجاب والنقباء ثم ياتى أهل الطرب فأولهم بنات الملوك الكفار من اليهود المسيحيات في تلك السنة فيغنين ويرقصن ويهين السلطان للأمراء والأئمة ثم ياتى بعدهن سائر بنات الكفار فيغنين ويرقصن ويهين لاخوته وأقاربه وأصهاره وأبناء الملوك ويكون جلوس السلطان لذلك بعد العصر ثم يجلس في اليوم الذى بعده بعد العصر أيضا على ذلك الترتيب ويؤتى بالمغنيات فيغنين ويرقصن ويهين للأمراء الماليك وفي اليوم الثالث يزوج أقاربه وينعم عليهم وفي اليوم الرابع يعتق العبيد وفي اليوم الخامس يعتق الجوارى وفي اليوم السادس يزوج العبيد بالجوارى وفي اليوم السابع يعطى الصدقات ويكثر منها .

(ذكر ترتيبه إذا قدم من سفره)

وإذا قدم السلطان من أسفاره زينت الفيلة ورفعت على ستة عشر فيلا منها ستة عشر شطرا منها مزركش ومنها مرصع وحملت أمامه الغاشية وهي الستارة المرصعة بالجواهر النفيس وتصنع قباب الخشب مقسومة على طبقات وتكسى بثياب الحرير ويكون في كل طبقة الجوارى المغنيات عليهن أجمل لباس وأحسن حلية ومنهن رواقص ويحصل في وسط كل قبة حوض كبير مصنوع من الجلود مملوء بماء الجلاب محلولاً بالماء يشرب منه جميع الناس من وارد وصادر وبلدى أو غريب وكل من يشرب منه يعطى التنبول والفوفل ويكون ما بين القباب مفروشا بثياب الحرير يطأ عليها مركب السلطان وتزين حيطان الشارع الذى يمر به من باب المدينة الى باب القصر بثياب الحرير ويمشى أمامه المشاة من عبيده وهم آلاف وتكون الأفواج والعساكر خلفه ورأيته في بعض قدماته على الحضرة وقد نصبت ثلاث أو أربع من الرعادات الصغار على الفيلة ترمى بالدنانير والدرهم على الناس فيلتقطونها من حين دخوله إلى المدينة حتى وصل إلى قصره

(ذكر ترتيب الطعام الخاص)

والطعام بدار (س*) على صنفين طعام الخاص وطعام العام فاما الخاص فهو طعام (س) الذى يأكل منه وعادته أن يأكل في مجلسه مع الحاضرين ويحضر لذلك الأمراء والخواص وأمير حاجب ابن عم (س) وعماد الملك سرتيز وأمير مجلس ومن شاء (س) تشريفه أو تكريمه من الأعيان أو كبار الأمراء دعاء فاكل معهم وربما أراد أيضاً تشريف أحد من الحاضرين فأخذ إحدى الصحف بيده وجعل عليها خبزة ويعطيه إياها فيأخذها المعطى ويجعلها على كفه اليسرى ويخدم بيده اليمنى إلى الأرض وربما بعث من ذلك الطعام إلى من هو غائب عن المجلس فيخدم كما يصنع الحاضرين ويأكله مع من حضره وقد حضرت مرات الطعام الخاص فرأيت جملة الذين يحضرون له نحو عشرين رجلاً

(ذكر ترتيب الطعام العام)

وأما الطعام العام فيؤتى به من المطبخ أمامه النقباء يصيحون بسم الله وتقيب النقباء أمامهم بيده عمود ذهب ونائبه معه بيده عمود فضة فاذا دخلوا من الباب الرابع وسمع من المشور أصواتهم قاموا قياماً أجمعين ولا يبقى أحد قاعداً إلا (س) وحده فادا وضع الطعام بالأرض اصطفت النقباء صفها ووقف أميرهم وتكلم بكلام يمدح فيه (س) ويثنى عليه ثم يخدم ويخدم النقباء خدمته ويخدم جميع من بالمشور من كبير وصغير وعادتهم أنه من سمع كلام نقيب النقباء حين ذلك وقف أن كان ماشياً ولزم موقفه أن كان واقفاً ولا

(*) وضع حرف (س) عوضاً عن كلمة السلطان لتكرارها

يتحرك أحد ولا يتزحزح عن مقامه حتى يفرغ ذلك الكلام ثم يتكلم أيضا نائبه كلاما نحو ذلك ويخدم النقباء وجميع الناس مرة ثانية وحينئذ يجلسون ويكتب كتاب الباب معرفين بحضور الطعام وان كان (س) قد علم بحضوره ويعطى المكتوب لصبي من أبناء الملوك موكل بذلك فيأتى به الى (س) فاذا قرأه عين من شاء من كبار الأمراء اترتيب الناس وإطعامهم وطعامهم الرقاق والشواء والأقراص ذات الجوانب المملوءة بالحلواء والأرز والدجاج والسمك وقد ذكرنا ذلك وفسرنا ترتيبهم وعادتهم ان يكون في صدر سباط الطعام القضاة والفقهاء والخطباء والشرفاء والمشايخ ثم أقارب السلطان ثم الأمراء الكبار ثم سائر الناس ولا يقعد أحد إلا في موضع معين له فلا يكون بينهم تراحم البتة فاذا جلسوا أتى الشريدارية وهم السقاة بأيديهم أو أواني الذهب والفضة والنحاس والزجاج مملوءة بالنبات المحلول بالماء فيشربون ذلك قبل الطعام فاذا شربوا قال الحجاب بسم الله ثم يشرعون في الأكل ويجعل أمام كل إنسان من جميع ما يحتوي عليه السباط يا كل منه وحده ولا يأكل أحد مع أحد في طبق واحد فاذا فرغوا من الأكل أتوا بالفقاع في أكواز القصدير فاذا أخذوه قال الحجاب بسم الله ثم يؤتى بالطباق التنبول والفوفل فيعطى كل واحد غرفة من الفوفل المشوم وخمس عشرة ورقة من التنبول بمجموعة مربوطة بخيط حرير أحمر فاذا أخذ الناس التنبول قال الحجاب بسم الله فيقفون جميعاً ويخدم الأمير المعين للطعام ويخدمون لخدمته ثم ينصرفون وطعامهم مرتان في اليوم الواحد أحداهما قبل الظهر والآخرى بعد العصر

(ذكر بعض أخباره في الجود والكرم)

ولما أذكر منها ما حضرته وشاهدته وعايته ويعلم الله تعالى صدق ما أقول وكفى به شهيدا مع أن الذي أحكيه مستفيض متواتر والبلاد التي تقرب من أهل الهند كاليمن وخراسان وفارس مملوءة بأخباره يعلمونها حقيقة ولا سيما جوده على الغرباء فإنه يفضلهم على أهل الهند ويؤثرهم ويجزل لهم الإحسان ويسبغ عليهم الأنعام ويوليهم الخطط الرفيعة ويوليهم المواهب العظيمة ومن إحسانه أنهم ان سماهم الأعزة ومنع من ان يدعو الغرباء وقال ان الرجل إذا دعى غريبا انكسر خاطره وتغير حاله وساذكر بعضاً مما لا يحصى من عطايه الجزيلة ومواهبه ان شاء الله تعالى

(ذكر عطائه لشهاب الدين الكازروني وحكايته)

كان شهاب الدين هذا صديقاً لملك التجار الكازروني المقب بپرويز وكان (س) قد أقطع ملك التجار مدينة ووعد ان يوليهِ الوزارة فبعث إلى صديقه شهاب الدين ليقدم

عليه فأتاه وأعدهدية للسلطان وهي سراجة من الملف المقطوع المزين بورقة الذهب وصيوان
مما يناسبها وخباء وتابع وخباء راحة كل ذلك من الملف المزين وبغال كثيرة فلما قدم
شهاب الدين بهذه الهدية على صاحبه ملك التجارة وجده آخذاً في القدوم على الحضرة بما
اجتمع عنده من بحايى بلاده وهدية للسلطان

وعلم الوزير خواجه جهان بما وعده به السلطان من ولاية الوزارة فغار من ذلك وقلق
يسببه وكانت بلاد كنباية والجزرات قبل تلك المدة في ولاية الوزير ولأهلها تعلق بجانبه
وانقطاع اليه ومجدم له وأكثروا كفار وبعضهم عصاة يمتنعون بالجبال فدرس الوزير
اليهم ان يضربوا على ملك التجار إذا خرج إلى الحضرة

فلما خرج بالخزائن والأموال ومعه شهاب الدين بهديته نزلوا يوماً عند الضحى على عادتهم
وتفرقت العساكر ونام أكثروا فضرب عليهم السكفار في جمع عظيم فقتلوا ملك التجار
وسلبوا الأموال والخزائن وهدية شهاب الدين ونجا هو بنفسه وكسب المخبرون إلى
السلطان بذلك فأمر ان يعطى شهاب الدين من مجيى بلاد نروالة ثلاثين ألف دينار ويعود
إلى بلاده فعرض عليه ذلك فأبى من قبوله وقال ما قصدى إلا رؤية السلطان وتقبيل
الأرض بين يديه فسكتوا إلى السلطان بذلك فاعجبه قوله وأمر بوصوله إلى الحضرة مكرماً
وصادف يوم دخوله على السلطان يوم دخولنا نحن عليه نخلع علينا جميعاً وأمر بإزالة
وأعطى شهاب الدين عطاء جزلاً فلما كان بعد ذلك أمر لى السلطان بسنة آلاف تنكة كما
سندكره وسأل في ذلك اليوم عن شهاب الدين أين هو فقال له بهاء الدين ابن الفاسكى ياخوند
عالم تميداشم معناه ما ندري ثم قال شنيديم زحمت دارد (دار) معناه سمعت ان به مرضاً فقال
له السلطان بروهمين زمان در خزانه يك لك تنكة زربكزى أو بيس أو بىرى تادل أو خش
(خوش) شود معناه امش الساعة إلى الخزانه وخدمتها مائة ألف تنكة من الذهب واحملها
إليه حتى يبقى خاها طيباً ففعل ذلك فأعطاء إياها وأمر السلطان ان يشتري بها ما أحب
من السلع الهندية ولا يشتري أحداً من الناس شيئاً حتى يتعجز هو وأمر له بثلاثة مراكب
مجهزة من آلاتها ومن مرتب البحرية وزادهم ليسافر فيها فسافروا نزل بحيرة هرمز وبني
بهاداراً عظيمة رأيتها بعد ذلك ورأيت أيضاً شهاب الدين وقد فنى جميع ما كان عنده
وهو بشيراز يستجدى سلطانها أبا اسحاق وهكذا مال هذه البلاد الهندية فلما يخرج
أحداً منها إلا النادر وإذا خرج به ووصل إلى غيرها من البلاد بعث الله عليه آفة تفتى ما بيده
كمثل ما اتفق لشهاب الدين هذا فإنه أخذ له في الفتنة التي كانت بين ملك هرمز وابنى أخيه
جميع ما عنده وخرج سلبها من ماله .

(ذكر عطائه لشيخ الشيوخ ركن الدين)

وكان السلطان قد بعث هدية الى الخليفة بديار مصر أبي العباس وطلب منه ان يبعث له امر
التقدمة على بلاد الهند والسند اعتقادا منه في الخلافة فبعث اليه الخليفة أبو العباس ما طلبه
مع شيخ الشيوخ بديار مصر ركن الدين فلما قدم عليه بالغ في إكرامه وأعطاه عطاء جزلا
وكان يقوم له متى دخل عليه ويعظمه ثم صرفه وأعطاه أموالا طائلة وفي جملة ما أعطاه جملة
من صفائح الخيل ومساميرها كل ذلك من الذهب الخالص وقال له إذا نزلت من البحر فاعمل
أفراسك بها فتوجه الى كنباية ليركب البحر منها إلى بلاد اليمن ف وقعت قضية خروج القاضي
جلال الدين وأخذته مال ابن السكولمى فاخذ أيضا ما كان لشيخ الشيوخ وفر بنفسه مع ابن
السكولمى إلى السلطان فلما رآه قال له بمازح امدى كزر (كه زر) برى باد كرى (دار باى)
صنم خرى زر نيرى وسر نهى معناه جئت لتحمل الذهب تا كله مع الصور الحسنان فلا تحمل
ذهبا ورأسك تخليه هاهنا قال له ذلك على معنى الانبساط ثم قال له اجمع خاطرك فها أنا
سائر إلى المخالفين وأعطيك أضعاف ما أخذوه لك وباغنى بعد الانفصال عن بلاد الهند
أنه وفى بما وعده وأخاف له ما ضاع منه وانه وصل الى ديار مصر

(ذكر عطائه للواعظ الترمذى ناصر الدين)

وكان هذا الفقيه قدم على السلطان وأقام تحت إحسانه مدة عام ثم أراد الرجوع إلى
وطنه فاذن له في ذلك ولم يكن سمع كلامه ووعظه ولما خرج السلطان يقصد بلاد المعبر
أحب سماعه قبل انصرافه فأمر أن يهيا له منبر من الصندل الأبيض المقاصرى وجعلت
مساميره وصفائح من الذهب وألصق بأعلاه حجرياقوت عظيم وخلع على ناصر الدين
عباءة عباسية سوداء مذهبة مرصعة بالجواهر وعمامة أيضا ونصب له المنبر بداخل
السراجة وهى أفراج وقعد السلطان على سريرته والخواص عن يمينه ويساره وأخذ
القضاة والفقهاء والأمراء مجالسهم فخطب خطبة عظيمة ووعظه وذكر ولم يكن فيما فعله
طائل لئلا سعادته ساعدته ولما نزل عن المنبر قام (س) اليه وعانقه وأركبه على فيل
وأمر جميع من حضر أن يمشوا بين يديه وكنت في جمعهم إلى سراجة ضربت له مقابلة
سراجة (س) وكلها من الخرب الملون وصيوانها من الحرير وخياؤها كذلك فقعد وقعدنا
معه وكان بجانب من السراجة أوانى الذهب التى أعطاهها له وذلك تنور كبير بحيث يسع
في جوفه الرجل القاعد وقدران اثنان وصحاف لا أذكر عددها وعدة أكواز وركوة
وتيسندة ومائدة لها أربعة أرجل ومحمل للكتب كل ذلك من ذهب ورفع عماد الدين

السمناءى وتدين من أو تاد السراجة أحدهما نحاس والثانى مقصود يوهى بذلك أنهما من ذهب وفضة ولم يكونا إلا كما ذكرنا وقد كان أعطاه حين قدومه مائة ألف دينار دراهم ومشتين من العبيد سرج البعض وحمل البعض

(ذكر عطائه لعبد العزيز الاردوبلى)

وكان عبد العزيز هذا فقيها محدثا قرأ بدمشق على تقي الدين بن تيمية وبرهان الدين بن البركح وجمال الدين المزي وشمس الدين الذهني وغيرهم ثم قدم على السلطان فأحسن اليه وأكرمه واتفق يوما أنه سرد عليه أحاديث في كرم العباس وابنه رضى الله عنهما وشيئا من مآثر الخلفاء أولادهما فأعجب ذلك السلطان لحبه في بني العباس وقبل قدمى الفقيه وأمر أن يؤتى بصينية ذهب فيها الفاتكة فصحبها عليه بيده وقال هي لك مع الصينيةه وقد ذكرنا هذه

الحكاية فيما تقدم (ذكر عطائه لشمس الدين الاندكافى)

وكان الفقيه شمس الدين الاندكافى حكيما شاعرا مطبوعا فمدح السلطان بقصيدة باللسان الفارسي وكان عدد أبياتها سبعة وعشرين بيتا فأعطاه لكل بيت منها ألف دينار دراهم وهذا أعظم مما يحكى عن المتقدمين الذين كانوا يعطون على بيت شعر ألف درهم وهو عشر عطاه السلطان

(ذكر عطائه لعضد الدين الشونكارى)

وكان عضد الدين فقيها إماما فاضلا كبير مقدر عظيم الصيت شهير الذكر ببلاده فبلغت السلطان أخباره وسمع بآثره فبعث إليه إلى بلده شونكاره عشرة آلاف دينار دراهم ولم يره قط ولا وفد عليه

(ذكر عطائه للقاضى مجد الدين)

ولما بلغه خبر القاضى العالم الصالح ذى الكرامه الشهيرة مجد الدين قاضى شيراز الذى سطرنا أخباره في السفر الأول وسيمر بعض خبره وبعد هذا بعث إليه إلى مدينة شيراز صحبة الشيخ زاده الدمشقي عشرة آلاف دينار دراهم

(ذكر عطائه لبرهان الدين الصاغر جى)

وكان برهان الدين أحد الوعاظ الأئمة كثير الإيثار باذلا لما يملكه حتى أنه كثيرا ما يأخذ الديون ويؤثر على الناس فبلغ إلى السلطان فبعث إليه أربعين ألف دينار وطلب منه أن يصل إلى حضرته فقبل الدنانير وقضى دينه منها وتوجه إلى بلاد الخطا وأبى أن يصل إليه وقال لا أمضى إلى سلطان يقف العلماء بين يديه

(ذكر عطائه لحاجى كاون وحكايته)

وكان حاجى كاون ابن عم السلطان أبى سعيد ملك العراق وكان أخوه موسى ملكا ببعض

بلاد العراق فوفد حاجي كاون على السلطان فاکرم مشراه وأعطاه العطاء الجزل ورأيت يوماً وقد أوتي الوزير خواجه جهان بهديته وكان منها ثلاث صينيات احداها مملوءة يواقيب والأخرى مملوءة زمرداً والأخرى مملوءة جواهر وكان حاجي كاون حاضراً فاعطاه من ذلك حظاً جزيلاً ثم انه اعطاه أيضاً مالا عريضاً ومضى يريد العراق فوجد أخاه قد توفي وولى مكانه سليمان خان فطلب ارث اخيه وادعى الملك وبايعه العسكر وقصد بلاد فارس ونزل بمدينة شوشة ثم نكارة التي بها الإمام عضد الدين الذي تقدم ذكره آنفاً فلما نزل بخارجها تأخر شيوخها عن الخروج اليه ساعة ثم خرجوا فقال لهم ما منعكم عن تعجيل الخروج إلى مبايعتنا فاعتذروا له فلم يقبل منهم وقال لأهل سلاحه قلنح تجار (جفار) معنا جردوا السيوف فجردوها وضربوا أعناقهم وكانوا جماعة كبيرة فسمع من يجاور هذه المدينة من الأمراء بما فعله فغضبوا لذلك وكتبوا إلى شمس الدين السعدي وهو من الأمراء الفقهاء الكبار فاعلموه بما جرى على أهل شوشة ونكارة وطلبوا منه الإغاثة على قتاله فتجرد في عساكره واجتمع أهل البلاد طالبين بشار من قتله حاجي كاون من المشايخ وضربوا على عسكره ليلاً فهزموه وكان هو بقصر المدينة فاحاطوا به فاختنى في بيت الطهارة فعمثوا عليه وقطعوا رأسه وبعثوا به إلى سليمان خان وفرقوا أعضائه على البلاد تشفياً منه .

(ذكر قدوم ابن الخليفة عليه واختباره)

وكان الأمير غياث الدين محمد بن عند القاهر بن يوسف بن عبدالعزيز بن الخليفة المستنصر بالله العباسي البغدادي قد وفد على السلطان علاء الدين طر مشيرين ملك ماوراء النهر فاکرمه وأعطاه الزاوية التي على قبر قثم بن العباس رضي الله عنهما واستوطن بها أعواماً ثم لما سمع بمحبة السلطان في بني العباس وقيامه بدعوتهم أحب القدوم عليه وبعث له برسولين أحدهما صاحبه القديم محمد بن أبي الشرفي الحرباوي والثاني محمد الهمداني الصوفي فقدما على السلطان وكان ناصر الدين الترمذي الذي تقدم ذكره قد لقي غياث الدين ببغداد وشهد لديه البغداديون بصحة نسبته هو عند السلطان بذلك فلما وصل رسوله إلى السلطان أعطاهما خمسة آلاف دينار وبعث معهما ثلاثين ألف دينار إلى غياث الدين ليتزود بها اليه وكتب له خطاً بالخط يده يعظمه فيه ويسأل منه القدوم عليه فلما وصله الكتاب رحل إليه فلما وصل إلى بلاد السند وكتب المخبرون بتقدمه بعث السلطان من يستقبله على العادة فمما وصل إلى سرستي بعث أيضاً لاستقباله صدر الجهان قاضي القضاة كمال الدين الغزنوي وجماعة من الفقهاء ثم بعث الأمراء لاستقباله فلما نزل

بمسعود آباد خارج الحضرة خرج السلطان بنفسه لاستقباله فلما التقيا ترجل غياث الدين
 فترجل له السلطان وخدم نخدم له السلطان وكان قد استصحب هدية في جملتها ثياب فاخذ
 السلطان أحد الأبواب وجعله على كتفه وخدم كما يفعل الناس معه ثم قدمت الخيل فاخذ
 السلطان أحدها بيده وقدمه له وحلف أن يركب وأمسك بركابه حتى ركب ثم ركب
 السلطان وسائره والشجر يظلمهما معا واخذ التنبول بيده واعطاه أياه وهذا اعظم ما اكرمه
 به فإنه لا يفعله مع احد وقال له لو لا أنى بايعت الخليفة أبا العباس لنا يعتك فقال له غياث
 الدين وأنا أيضا على تلك البيعة وقال له غياث الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 تسليما من أحيا أرضا مواتا فهي له وأنت أحببتنا فجأوبه السلطان بالطف جواب
 وابره ولما وصلا إلى السراجة المعدة لنزول السلطان انزله فيها وضرب للسلطان
 غيرها وباتا في تلك الليلة بخارج الحضرة فلما كان بالغد دخلا إلى دار الملك وانزله
 بالمدينة المعروفة بسيرى ودار الخلافة أيضا في القصر الذى بناه علاء الدين الخايجى
 وابنه قطب الدين وأمر السلطان جميع الامراء أن يمضوا معه اليه وأعد له فيه جميع
 ما يحتاج اليه من أواني الذهب والفضة حتى كان من جملتها مغتسل يغتسل فيه من ذهب
 وبعث له أربعمائة ألف دينار لسل رأسه على العادة وبعث له جملة من الفتيان والخدم
 والجواري وعين له عن نفقته في كل يوم ثلاثمائة دينار وبعث له زيادة اليها عددا من
 الموائد بالطعام الخاص وأعطاه جميع مدينة سيرى اقطاعا وجميع ما احتوت عليه من
 الدور ما يتصل بها من بساتين المخزن وأرضه وأعطاه مائة قرية وأعطاه حكم البلاد
 الشرفية المضافة لدهلى وإعطاه ثلاثين بغلة بالسروج المذهبة ويكون علفها من المخزن
 وأمره أن لا ينزل عن دابته إذا أنى دار (س) إلا موضع خاص لا يدخله أحد راكبا سوى
 (س) وأمر الناس جميعا من كبير وصغير أن يخدموا له كما يخدمون (س) وإذا دخل
 على (س) ينزل له عن سريريه وإن كان على الكرسي قام قائما وخدم كل واحد منهما
 لصاحبه ويجلس مع (س) على بساط واحد وإذا قام قام (س) لقيامه وخدم كل
 واحد منهما لصاحبه وإذا انصرف إلى خارج المجلس جعل له بساط يقعد عليه ماشاء
 ثم ينصرف يفعل هذا مرتين في اليوم .

(حكاية من تعظيمه إياه)

وفي اثناء مقامه بدهلى قدم الوزير من بلاد بنجاله فامر (س) كبار الأمراء أن يخرجوا
 إلى استقباله ثم خرج بنفسه إلى استقباله وعظمه تعظيما كثيرا وصنعت القباب بالمدينة كما
 تصنع للسلطان إذا قدم وخرج ابن الخليفة للقائه أيضا والفقهاء والقضاة والأعيان فلما

عاد (س) لقصره قال للوزير أمض الى دار المخدم زادته وبذلك يدعوه ومعنى ذلك ابن المخدم فسار الوزير اليه واهدى له الف تنكة من الذهب وأثوابا كثيرة وحضر الامير قبولة وغيره من كبار الأمراء وحضرت أنا كذلك

(حكاية نحوها)

وقد على (س) ملك غزنة المسمى بهرام وكان بينه وبين ابن الخليفة عداوة قد عمة فامر (س) بانزاله ببعض دور مدينة سيرى التي لابن الخليفة وأمر ان يبني له بهادر فبلغ ذلك ابن الخليفة فغضب منه ومضى الى دار (س) فجلس على البساط الذي عاداته الجلوس عليه وبعث الى الوزير فقال له سلم على خوند عالم وقل له أن جميع ما أعطانيه هو بمنزلى لم اتصرف فى شئ منه بل زاد عندى وتماوانا لا أقيم معكم وقام وانصرف فسأل الوزير بعض أصحابه عن سبب هذا فاعلمه أن سببه أمر (س) ببناء الدار لملك غزنة فى مدينة سيرى فدخل الوزير على (س) فاعلمه بذلك فركب من حينه فى عشرة من ناسه وأتى منزل ابن الخليفة فاستأذن له وتزل عن فرسه خارج القصر حيث ينزل الناس فتلقاه واعتذر له فقبل عذره وقال له (س) والله ما أعلم أنك راض عني حتى تضع قدمك على عنقي فقال له هذا مالا أفعله ولو قتلت فقال له (س) وحق رأسى لا بد لك من ذلك ثم وضع رأسه فى الأرض وأخذ الملك الكبير قبولة رجل ابن الخليفة بيده فوضعا على عنق (س) ثم قام وقال الآن علمت أنك راض على وطاب قلبى وهذه حكاية غريبة لم يسمع بمثلهما عن ملك ولقد حضرته يوم بعيد وقد جاءه الملك الكبير بثلاث خلع من عند (س) مفرجة قد جعل مكان عقد الحرير التي تعلق بها حبات جوهر قدر البندق الكبير وقام الملك الكبير بها به حتى نزل من قصره فسكسأه ياها والذى أعطاه هو ما لا يحصره العدو ولا يحيط به الحدوا بن الخليفة مع ذلك كله انخل خلق الله تعالى واه فى البخل اخبار عجيبة يعجب منها سامعها وكأنه كان من البخل بمنزلة (س) من الكرم ولندكر بعض اخباره فى ذلك

(حكاية من بخل ابن الخليفة)

وكانت بينى وبينه مودة وكنت كثير التردد الى منزله وعنده تركت والى سميت أحمد لما سافرت ولا أدري ما فعل الله بهما فقات له يوما لم تأكل وحدثك ولا تجمع أصحابك على الطعام فقال لى لا أستطيع أن أنظر اليهم على كثرتهم وهم يأكلون طعامى فسكان يأكل وحده ويعطى صاحبه محمد بن أبى الشرفى من الطعام لمن أحب ويتصرف فى باقيه وكنت أتردد اليه فأرى دهليز قصره الذى يسكن به مظلم لا سراج به ورأيت مرارا يجمع الاغواد الصغار من الخطب بداخل بستانه وقد ملأ منها مخازن فكلمته فى ذلك فقال

لى يحتاج اليها وكان يخدم اصحابه وماليكه وفتيانا في خدمة البستان وبناته ويقول لا ارضى
أن يأكلوا طعامى وهم لا يخدمون وكان على مرة دين فطلبت به فقال لى في بعض الايام
والله لقد هممت ان اودى عنك دينك فلم تسمح نفسى بذلك ولا ساعدتنى عليه
(حكاية)

حدثنى مرة قال خرجت عن بغداد وأنا رابع أربعة أحدهم محمد بن أبى الشرف صاحب
ونحن على اقدامنا ولا زاد عندنا فنزلنا على عين ماء ببعض القرى فوجد أحدنا فى العين
درهما فقلنا وما نصنع بدرهمنا تفقنا على ان نشترى به خبزاً فبعثنا أحدنا لشراؤه فابى الخباز بملك
القرية أن يبيع الخبز وحده وإنما يبيع خبزاً بقرطاط وتبنا بقرطاط فاشتري منه الخبز والتبن
فطرحنا التبن إذ لا دابة لنا نأكله وقسمنا الخبز لقمة وقد انتهى حالى اليوم الى ما تراه فقلت
له ينبغي لك ان تحمد الله على ما أولاك وتؤثر الفقراء والمساكين بالتصدق فقال لا
ستطيع ذلك ولم اره قط يهود بشىء ولا يفعل معروفًا ونعوذ بالله من الشح

(حكاية)

كنت يوماً ببغداد بعد عودتى من بلاد الهند وأنا قاعد على باب المدرسة المستنصرية التى بناها
جده امير المؤمنين المستنصر رضى الله عنه فرأيت شاباً ضعيف الحال يشتد خلف رجل خارج
عن المدرسة فقال لى بعض الطلبة هذا الشاب الذى تراه هو ابن الامير محمد حفيد الخليفة
المستنصر الذى ببلاد الهند فدعوته فقلت له انى قدمت من بلاد الهند ولى أعرفك بخبر
ابيك فقال قد جاءنى خبره فى هذه الايام ومضى يشتد خلف الرجل فسألت عن الرجل
فقال لى هو الناظر فى الحبس وهذا الشاب هو امام ببعض المساجد وله على ذلك أجرة درهم
واحد فى اليوم وهو يطلب أجرته من الرجل فطال عجبى منه والله لو بعث اليه جوهرة من
الجواهر التى فى الخلع الواصلة اليه من السلطان لا غناه بها ونعوذ بالله من مثل هذه الحال
(ذكر ما أعطاه السلطان للامير سيف الدين غدا بن هبة الله بن مهدي أمير عرب الشام)

ولما قدم هذا الامير على السلطان أكرم مشواه وأنزله بقصر السلطان جلال الدين داخل
مدينة دهلى ويعرف بكشك لعل معناه القصر الأحمر وهو قصر عظيم فيه مشور كبير جداً
ودهليز هائل على بابه قبة تشرف على هذا المشور وعلى المشور اثنان الذى يدخل منه الى
القصر وكان السلطان جلال الدين يقعد بها وتلبس السكره بين يديه فى هذا المشور وقد
دخلت هذا القصر عند نزوله به فرأيت مملوءة أثاثاً وفرشاً وبسطاً وغيرها وذلك كى لا يمتنع
لا يمتنع فيه فان عادتهم بالهند ان يتركوا قصر السلطان إذا مات بجميع ما فيه لا يتعرضون له
ويبنى المتولى بعده قصرًا لنفسه ولما دخلته طفت به وصعدت الى اعلاه فكانت لى فيه عبرة
نشأت عنها عبرة وكان معى العقيب الطيب الاديب جمال الدين المغربي النرناطلى البجائى

المولد مستوطن بلاد الهند قدمها مع أبيه وله بها أولاد فأنشدني عندما عايناه (خفيف)

وسلاطينهم سل الطين عنهم فالرؤس العظام صارت عظاما

وبهذا القصر كانت وليمة عرسه كما نذكره وكان السلطان شديد المحبة في العرب مؤثرا لهم معترفا بفضائلهم فلما وصله هذا الأمير أجزل العطاء وأحسن اليه إحسانا عظيما وأعطاه مرة وقد قدمت عليه هدية اعظم ملك الباي زیدی من بلاد منكبور احد عشر فرسا من عناق الخيل وأعطاه مرة أخرى عشرة من الخيل مسرجة بالسروج المذهبة عليها اللجم المذهبة ثم زوجه بعد ذلك باختة فيروزخونده

(ذكر تزوج الأمير سيف الدين بأخت السلطان)

ولما أمر السلطان بتزويج أخته الأمير غدا عين للقيام بشأن الولية ونفقاتها الملك فتح الله والمعروف بشونويس (يشين معجم مفتوح وواوين اولها مسكن والآخر مكسور بينهما نون آخره سين مهمل) وعينني الملازمة الأمير غدا والسكون معه في تلك الايام فأتى الملك فتح الله باصبيوات نطلل بها المشورين بالقصر الاحمر المذكور وصرب في كل واحد منهما قبة ضخمة جدا وفرش ذلك بالفرش الحسان وأتى شمس الدين التبريزي أمير المطربين ومعه الرجال المغنون والنساء المغنيات والرواقص وكلهن بمالك السلطان واحضر الطبّاخين والخبازين والشوّاخين والحلوانيين والشربدارية والتنبول داران وذبحت الانعام والطيور وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يوما ويحضر الامراء الكبار والاعزة ليلا ونهارا فلما كان قبل ليلة الزفاف بلياليتين جاء الخواتين من دار السلطان ليلا إلى هذا القصر فزينته وفرشه بأحسن الفرش واستحضر الأمير سيف الدين وكان عربيا غريبا لا قرابة له تخففن واجلسنه على مرتبة معينة له وكان السلطان قد أمر أن تكون ربيبتة أم أخيه مبارك خان مقام أم الأمير غدا وأن تكون امرأة أخرى من الخواتين مقام أخته وأخرى مقام عمته وأخرى مقام حالته حتى يكون كانه بين اهله ولما اجلسنه على المرتبة جعان له الخناء في يديه ورجليه وأقام باقيمين على رأسه يغنين ويرقصن وانصرفن إلى قصر الزفاف وأقام هو مع خواص اصحابه وعين السلطان جماعة من الامراء يكونون من جهته وجماعة يكونون من جهة الزوجة وعادتهم ان تقف الجماعة التي من جهة الزوجة على باب الموضع الذي تكون به جلوسها على زوجها وبأقرب الزوج بجماعته فلا يدخلون إلا ان غلبوا أصحاب الزوجة أو يعطونهم الآلاف من الدنانير ان لم يقدروا عليهم ولما كان بعد المغرب أتى اليه بخلة حرير زرقاء مزركشة مرصعة قد غلبت الجواهر عليها فلا يظهر لونها مما عليها من الجواهر وبشاشية مثل

ذلك ولم أرقط خاتمة أجل من هذه الخاتمة وقد رأيت ما خلعه السلطان على سائر اصهاره مثل ابن مالك الملوك عماد الدين السمناني وابن ملك العلماء وابن شيخ الاسلام وابن صدر جهمان البخاري فلم يكن فيها مثل هذه

ثم ركب الامير سيف الدين في أصحابه وعبيده وفي يد كل واحد منهم عصي قد أعدها وصنعوا شبه الكليل من الياسمين والنسرين وريبول وله رفرف يغطي وجه المتكلم به وصدره واتوا به الامير ليجمعه على رأسه فابى من ذلك وكان من عرب البادية لا عهد له بامور الملك والحضر فحاولته وحلفت عليه حتى جعله على رأسه وأتى باب الصرف ويسمونه باب الحرم وعليه جماعة الزوجة فحمل عليهم بأصحابه حملة عربية وصرعوا كل من عارضهم فغلبوا عليهم ولم يكن لجماعة الزوجة من ثبات وبلغ ذلك السلطان فاستجبه فعمله ودخل إلى المشور وقد جعلت العروس فوق منبر عال مزين بالديباج مرصع بالجواهر والمشور ملائ بالانساء والمطربات قد أحضرن أنواع الآلات المطربة وكاهن وقوف على قدم لإجلاله وتعظيما فدخل بفرسه حتى قرب من المنبر فنزل وخدم عند أول درجة منه وقامت العروس قائمة حتى صعد فاعطته التنبول بيدها فاخذته وجلس تحت الدرجة التي وقفت بها ونثرت دنانير الذهب على رؤوس الحاضرين من أصحابه ولقطتها النساء والمغنيات يغنين حينئذوا الاطبال والابواق والانفارات ضرب خارج الباب ثم قام الامير وأخذ بيد زوجته ونزل وهي تتبعه فركب فرسه يطابه الفرش والبسط ونثرت الدنانير عليه وعلى أصحابه وجعلت العروس في محفة وحماها العبيد على أعناقهم إلى قصره والخواتين بين يديها راكبات وغيرهن من النساء ماشيات وإذا مروا بدار أمير أو كبير خرج إليهم ونثر عليهم الدنانير والدراهم على قدر همتهم حتى أوصلوها إلى قصره ولما كان بالغد بعثت العروس إلى جميع أصحاب زوجها الثياب والدنانير والدراهم وأعطى (س) لكل واحد منهم فرسا مسرجا ملجأ وبدره دراهم من ألف دينار إلى مائتي دينار وأعطى الملك فتح الله للخواتين ثياب الحرير المتنوعة والبدر وكذلك لأهل الطرب وعادتهم ببلاد الهند أن لا يعطى أحد شيئا لأهل الطرب إنما يعطيهم صاحب العرس وأطعمهم الناس جميعا ذلك اليوم

وانقصى العرس وامر (س) أن يعطى للامير غدا بلاد المالوة والجزات وكنباية ونهر والة وجعل فتح الله المذكور نائبا عنه عليها وعظمه تعظيما شديدا وكان عربيا جافيا فلم يقدر قدر ذلك وغلب عليه جفاف البادية فاداه ذلك إلى النسيكة بعد عشرين ليلة من زفافه

(ذكر هجين الامير غدا)

ولما كان بعد عشرين يوما من زفافه اتفق انه وصل إلى دار (س) فاراد الدخول فتمعه

أمير البرد (البرده) داريه وهم الخواص من البوابين فلم يسمع منه وأراد التقيح فامسك
البواب بدوقته وهي الضفيرة ورده فضر به الإمام بعصى كانت هنالك حتى ادماه وكان هذا
المضروب من كبار الامراء يعرف أبوه بقاضى غزنه وهو من ذرية السلطان محمود بن
سبكتكين والسلطان يخاطبه بالأدب ويخاطب ابنه هذا بالأخ قد دخل على السلطان والدم على
ثيابه فأخبره بما صنع الأمير غدا فذكر السلطان هنيئة ثم قال له القاضى يفصل بينكما وتلك
جريمة لا يغفرها السلطان لاحد من ناسه ولا بدم من الموت عليها وإنما احتمله لغرته وكان
القاضى كمال الدين بالمشور فامر السلطان الملك تتران يقف معهما عند القاضى وكان تتر
حاجا نجورا يحسن العربية فحضر معهما وقال للأمير انت ضربته أو قل لا قصد ان يعلمه
الحجة وكان سيف الدين جاهلا مغترا فقال نعم أنا ضربته وأنى والد المضروب فرام
الإصلاح بينهما فلم يقبل سيف الدين فامر القاضى بسجنه تلك الليلة فوالله ما بعثت له
زوجته فراشا ينام عليه ولا سألت عنه خوفا من السلطان وخاف اصحابه فودعوا أموالهم
وأردت زيارته بالسجن فلقيني بعض الامراء وفهم عنى لاني أريد زيارته فقال لى
أونسيت وذكرنى بقضية انفقت لى فى زيارة الشيخ شهاب الدين بن شيخ الجام
وكيف أراد السلطان قتلى على ذلك حسبا يقع ذكره فرجعت ولم ازره وتخلص الأمير
غدا عند الظهر من سجنه فظهر السلطان أعماله واضرب عما كان امر له بولايته وأراد
نفيه وكان للسلطان صهر يسمى بمخيث بن الملوك وكانت اخت السلطان تشكوه
لاخها إلى أن ماتت فذكر جوارها انها ماتت بسبب قهره لها وكان فى نسبه مغمر
فكتب السلطان بخطه يحلى اللقيط بعينه ثم كتب ويجلى موش خوار معناه اكل الفيران
يعنى بذلك الأمير غدا لأن عرب البادية يأكلون اليربوع وهو شبه الفار وأمر باخراجهما
فجاءه النقباء ليخرجوه فأراد دخول داره ووداع أهله فترادف النقباء فى طلبه فخرج
باكيا وتوجهت حين ذلك إلى دار السلطان فبكت بها فسألتنى عن مبيتى بعض الامراء
فقلت له جئت لا تكلم مع الأمير سيف الدين حتى يرد ولا ينبنى فقال لا يكون ذلك فقلت
له والله لا يبتن بدار السلطان ولو بلغ مبيتى ما تلهيلة حتى يرد فباغ ذلك السلطان فامر
برده وأمره ان يكون فى خدمة الأمير ملك قبولة اللاهورى فأقام اربعة اعوام فى خدمته
يركب لركوبه ويسافر لسفره حتى نادى وتهذب ثم اعاده (س) إلى ما كان عليه أولا
واقطعه البلاد وقدمه على العساكر ورفع قدره .

(ذكر تزويج (س) بنتى وزيره لابن خداوندزاده قوام الدين الذى قد معنا عنيه)
ولما قدم خداوندزاد واعطاه (س) عطاء جزلا واحسن اليه احسانا عظيما وبالغ فى

اكرامه ثم زوج ولديه في بنتي الوزير خواجه جهان وكان الوزير إذ ذاك غائبا فأتى (س) إلى داره ليلا وحضر عقد النكاح كما أنه نائب عن الوزير ووقف حتى قرأ قاضي القضاة الصداق والقضاة والأمراء والمشايخ قعود وأخذ (س) بيده الأثواب والبدر فجعلها بين يدي القاضي ووالدي خدوا وندزاده وقام الأمراء وأبو أن يجعل (س) ذلك بين أيديهم بنفسه فامرهم بالجلوس وأمر بعض كبار الأمراء أن يقوم مقامه وانصرف

(حكاية في تواضع (س) وانصافه)

ادعى عليه رجل من كبار الهنود أنه قتل أخاه من غير موجب ودعاه إلى القاضي فحضر على قدميه ولا سلاح معه إلى مجلس القاضي فسلم وتقدم وكان قد أمر القاضي قبل ذلك أنه إذا جاءه مجلسه فلا يقوم له ولا يتحرك فصعد إلى المجلس ووقف بين يدي القاضي لحكم عليه أن يرضى خصمه من دم أخيه فارضاه (حكاية مثلبا)

وادعى على (س) مرة رجل من المسلمين أنه له قبلة حقا ماليا فتخاصما في ذلك عند القاضي فأصدر الحكم على (س) بأعطاء المال فاعطاه (حكاية مثلبا)

وادعى عليه صبي من أبناء الملوك أنه ضربه من غير موجب ورفع إلى القاضي لتوجيه الحكم عليه أن يرضيه بالمال أن قبل ذلك وإلا أمكنه من القصاص فشاهدته يومئذ وقد عاد لمجسه واستحضر الصبي وأعطاه عصا وقال له وحق رأسي لتضربني كما ضربتك فأخذ الصبي العصا ضربه بها إحدى وعشرين ضربة حتى رايت الكلاء (الكلام) قد طارت على رأسه (ذكر اشتداده في إقامة الصلاة)

وكان (س) شديدا في إقامة الصلاة أما بما يلزمها في الجماعات يعاقب على تركها أشد العقاب ولقد قتل في يوم واحد تسعة نفر على تركها كان أحدهم مغنيا وكان يبعث الرجال الموكلين بذلك إلى الأسواق فمن وجد بها عند إقامة الصلاة عوقب حتى انتهى إلى عقاب الستائر بين الذين يسكنون دواب الخدام على باب المشور إذا ضيعوا الصلاة وأمر أن يطلب الناس بعلم فرائض الوضوء والصلاة وشروط الإسلام فكانوا يسألون عن ذلك فمن لم يحسنه عوقب وصار الناس يتوارسون ذلك بالشور والأسواق ويكتبوننا

(ذكر اشتداده في إقامة أحكام الشرع)

وكان شديدا في إقامة الشرع ومما فعل في ذلك أن أمر أخاه مبارك خان أن يكون قعوده بالمشور مع قاضي القضاة كمال الدين في قبة مرتفعة هناك مغروشة بالبسط والقاضي بها مرتبة تحف بها الخاد كرتبة (س) ويقعد أخو (س) عن يمينه فمن كان عليه حق من

كبار الأمراء وامتنع من أدائه لصاحبه يحضره رجال أخى السلطان عند القاضي لينصف منه

﴿ ذكر وقعة البغارم والمظالم وعوده لانصاف المظلومين ﴾

ولما كان في سنة إحدى وأربعين أمر السلطان برفع المكوس عن بلاده وأن لا يؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر خاصة وصار يجلس بنفسه للنظر في المظالم كل يوم اثنين وخمسين برحبة أمام المشور ولا يقف بين يديه في ذلك اليوم إلا أمير حاجب وخاص حاجب وسيد الحجاب وشرف الحجاب لا غير ولا يمنع أحد ممن أراد الشكوى من الوقوف بين يديه وعين أربعة من كبار الأمراء يجلسون في الأبواب الأربعة من المشور لأخذ القصص من المشتكين والرابع منهم هو ابن عمه ملك فيروز خان أخذ صاحب الباب الأول الرفع من الشاكي فحسن والاأخذه الثاني أو الثالث أو الرابع وان لم يأخذه منه مضى به إلى صدر الجهان قاضي المماليك فإن أخذه منه والاشكى إلى السلطان فإن صح عنه أنه مضى به إلى أحد منهم فلم يأخذه منه ادبه وكل ما يجتمع من القصص في سائر الأيام يطالع به السلطان بعد العشاء الآخرة

﴿ ذكر إطعامه في الغلاء ﴾

ولما استولى القحط على بلاد الهند والسند واشتد الغلاء حتى بلغ من القمح الى ستة دنانير أمر السلطان ان يعطى لجميع أهل دهلي نفقة ستة اشهر من الخزن بحساب رطل ونصف من أرطال المغرب لكل انسان في اليوم صغير أو كبير حر أو عبد وخرج الفقهاء والقضاة يكتبون الأزمة بأهل الحارات ويحضرون الناس ويعطى لكل واحد عولة ستة اشهر يفتات بها

(ذكر فتكات هذا السلطان وما نقم من أفعاله)

وكان على ما قدمنا من تواضعه وانصافه ورفقه بالمساكين وكرمه الخارق للعادة كثير التجاسر على ارافة الدماء لا يخلو بابه عن مقتول الا في النادر وكنت كثيرا ما ارى الناس يقتلون على بابه ويطر حون هنالك ولقد جئت يوما فنفر بي الفرس ونظرت إلى قطعة بيضاء في الأرض فقلت ما هذه فقال بعض اصحابي هي صدر رجل قطع ثلاث قطع وكان يعاقب على الصغيرة والكبيرة ولا يحترم أحد من أهل العلم والصلاح والشرف وفي كل يوم يرد على المشور من المسلمين والمغلوين والمقيدين مؤون فمن كان للقتل أو للعذاب عذب أو للضرب ضرب وعادته ان يؤتى كل يوم بجميع من في سجنه من الناس إلى المشور ماعدا يوم الجمعة فانهم لا يخرجون فيه وهو يوم راحتهم يتنظفون فيه ويستريحون اعادنا الله من البلاء

(ذكر قتلة لأخيه)

وكان له أخ اسمه مسعود خان واه بهت السلطان علاء الدين وكان من أجمل صورة رأيته

في الدنيا فاتهمه بالقيام عليه وسأله عن ذلك فأقر خوفاً من العذاب فإنه من أنكر ما يدعيه عليه السلطان من مثل ذلك يعذب فيرى الناس أن القتل أهون عليهم من العذاب فأمر به فضربت عنقه في وسط السوق وبقي مطروحاً هنالك ثلاثة أيام على عادتهم وكانت أم هذا المقتول قد رجعت في ذلك الموضع قبل ذلك بسنتين لاعترافها بالزنا رجماً القاضى كما الدين.

﴿ ذكر قتله لثلاثمائة وخمسين رجلاً في ساعة واحدة ﴾

وكان مرة عين حصّة من العسكر تتوجه مع الملك يوسف بغرة إلى قتال الكفار ببعض الجبال المتصلة بحوز دهلي فخرج يوسف وخرج معه معظم العسكر وتخلف قوم منهم فسكتب يوسف إلى السلطان يعلمه بذلك فأمر أن يطاف بالمدينة ويقبض على من وجد من أولئك المتخلفين ففعل ذلك وقبض على ثلاثمائة وخمسين منهم فأمر بقتلهم أجمعين فقتلوا .

﴿ ذكر تعذيبه للشيخ شهاب الدين و قتله ﴾

وكان الشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجاه الخراساني الذي تنسب مدينة الجاه بخراسان إلى جده حسبما قصصنا ذلك من كبار المشايخ الصالحاء الفضلاء وكان يواصل أربعة عشر يوماً وكان السلطانان قطب الدين و تغلق يعظمانه ويزورانهم ويتبركان به فلما ولي السلطان محمد أراد أن يخدم الشيخ في بعض خدمته فإن عادته أن يخدم الفقهاء والمشايخ والصالحاء محتجاً أن الصدر الأول رضى الله عنهم لم يكونوا يستعملون إلا أهل العلم والصالحاء فامتنع الشيخ شهاب الدين من الخدمة وشافه السلطان بذلك في مجلسه العام فأظهر الأباية والامتناع فغضب السلطان من ذلك وأمر الشيخ الفقيه المعظم ضياء الدين السمناني أن ينتفح لحية فأنى ضياء الدين من ذلك وقال لا أفعل هذا فأمر السلطان بئنف لحيته كل واحد منهما فنئنف ونفى ضياء الدين إلى بلاد التلنك ثم ولاه بعد مدة قضاء ورنكل فمات بها ونفى شهاب الدين إلى دولة آباد فأقام بها سبعة أعوام ثم بعث عنه فأكرمه وعظمه وجعله على ديوان المستخرج وهو ديوان بقايا العمال يستخرجها منهم بالضرب والتسكيل ثم زاد في تعذيبه وأمر الأمر أن يأثروا للسلام عليه ويمثلوا أقواله ولم يكن أحد في دار (س) فوقه ولما انتقل (س) إلى السكفي على نهر السكك وبني هنالك القصر المعروف بـسرك دوار معناه شبه الجنة وأمر الناس بالبناء هنالك طلب منه الشيخ شهاب الدين أن يأذن له في الإقامة بالحضرة فاذاً إلى أرض موات على مسافة ستة أميال من دهلي فحفر بها كهفاً كبيراً صنع في جوفه البيوت والخازن والفرن والحمام

الأرض نهارا ويدخلون الغار ليلا ويستدونه على أنفسهم وأنعامهم خوف سراق الكفار لأنهم في جبل منيع هنالك ولما عاد (س) إلى حضرته استقبله الشيخ ولقيه على سبعة أميال منها فعظمه (س) وعانقه عند لقائه وعاد إلى غاره ثم بعث عنه بعد أيام فامتنع من إتيانه فبعث إليه مخلص الملك النذر بارى وكان من كبراء الملوك فتلطف له في القول وحذره بطش (س) فقال له لا أخدم ظالما أبدا فعاد مخلص الملك إلى (س) فأخبره بذلك فأمر أن يأتي به فأنى به فقال له أنت القائل إنى ظالم فقال نعم أنت ظالم ومن ظلمك كذا وكذا وعدد أمورا منها تخريبه لمدينة دهلي وإخراجه أهلها فأخذ (س) سيفه ودفعه لصدر الجهان وقال يثبت هذا إنى ظالم واقطع عنق بهذا السيف فقال له شهاب الدين ومن يريد أن يشهد بذلك فيقتل ولكن أنت تعرف ظلم نفسك وأمر بتسليمه للملك نكبية رأس الدويارية فقيده بأربع قيود وغل يديه وأقام كذلك أربعة عشر يوما مواعدا لا يأكل ولا يشرب وفي كل يوم منها يؤتى به إلى المشور ويجمع الفقهاء والمشايخ ويقولون له ارجع عن قولك فيقول لا ارجع عنه وأريد أن أكون في زمرة الشهداء فلما كان اليوم الرابع عشر بعث إليه (س) بطعام مع مخلص الملك فأبى أن يأكل وقال قد رفع رزقي من الأرض ارجع بطامك إليه فلما أخبر بذلك (س) أمر عند ذلك أن يطعم الشيخ خمسة أ斯塔ر (أساتير) من العذرة وهى رطالان ونصف من أرطال المغرب فأخذ ذلك الموكلون بمثل هذه الأمور وهم طائفة من كفار الهنود فدوه على ظهره وفتحوا فيه بالكبتين وحلوا العذرة بالماء وسقوه ذلك وفي اليوم الذى بعده أتى به إلى دار القاضى صدر الجهان وجمع الفقهاء والمشايخ ووجوه الاعزة فوعظوه واطلبوا منه أن يرجع عن قوله فأبى ذلك فضربت عنقه رحمه الله تعالى

﴿ ذكر قتله للفقهاء المدرسى عفيف الدين الكاسانى وفقهين معه ﴾

وكان (س) فى سنى القحط قد أمر بحفر آبار خارج دار الملك وأن يزرع هنالك زرع وأعطى الناس البذر وما يلزم على الزراعة من النفقة وكلفهم زرع ذلك المخزن فبلغ ذلك الفقيه عفيف الدين فقال هذا الزرع لا يحصل المراد منه فوشى به إلى (س) فسجنه وقال له لاى شيء تدخل نفسك فى أمور الملك ثم أنه سرحه بعد مدة فذهب إلى داره ولقيه فى طريقه إليها صاحبان له من الفقهاء فقالا له الحمد لله على خلاصك فقال الفقيه الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين وتفرقوا فلم يصلوا إلى دورهم حتى بلغ ذلك (س) فأمر بهم فأحضر ثلاثتهم بين يديه فقال اذهبوا بهذا يعنى عفيف الدين فأضربوا عنقه حمائل وهو

أن يقطع الرأس مع الذراع وبعض الصدر واضربوا أعناق الآخرين فقال له أما هو فيستحق العقاب بقوله وأمانحن فبأى جريمة تقتلنا فقال لما انكما سمعتما كلامه فلم تنسكرا فكانكما وافقتهما عليه فقتلوا جميعا رحمهم الله تعالى

(ذكر قتله أيضا لفقيهين من أهل السند كانا في خدمته)

وأمر السلطان هذين الفقيهين السنديين أن يمضيا مع أمير عينه إلى بعض البلاد وقال لهما إنما سلبت أحوال البلاد والرعية لكما ويكون هذا الأمير معكما يتصرف بما تأمرانه به فقالا له إنما نكون كالشاهدين عليه ونبين له وجه الحق ليتبعه فقال لهما إنما قصدكما أن تأكلا أموالا وتضيعاها وتنسبا ذلك إلى هذا التركي الذي لا معرفة له فقالا له حاشا لله يا خوند عالم ما قصدنا هذا فقال لهما لم تقصدا غير هذا اذهبا بهما إلى الشيخ زاده النهاوندی وهو الموكل بالعذاب فذهب بهما إليه فقال لهما السلطان يريد قتلكما فأقرا بما قولكما إياه ولا تعذبا أنفسكما فقال والله ما قصدنا إلا ما ذكرنا فقال لهما نيتهم ذوقهما بعض شيء يعنى من العذاب فبطحا على أقفالهما وجعل على صدر كل واحد منهما صفيحة حديد ثم قلعت بعد هزيمة فذهب بلحم صدورهما ثم أخذ البول والرماد فجعل على تلك الجراحات فأقر على أنفسهما أنهما لم يقصدا إلا ما قاله السلطان وأنهما مجرمان مستحقان للقتل فلاحق لهما ولا دعوى في دماهما دنيا ولا أخرى وكتبنا خطهما بذلك واعترفاه عند القاضي فسجل على العقد وكتب فيه أن اعترافهما كاعن غير كراه ولا إجبار ولو قال اكرهنا لعذاب أشد العذاب ورأيا أن تعجيل ضرب العنق خير لهما من الموت بالعذاب الأليم فقتلارحمهما الله تعالى

(ذكر قتله للشيخ هود)

وكان الشيخ زاده المسمى بهود حفيد الشيخ الصالح الولي ركن الدين بن بهاء الدين بن أبي زكريا الملقب بـ وجد الشيخ ركن الدين معظما عند السلطان وكذلك أخوه عماد الدين الذي كان شبيها بالسلطان وقتل قوم وقبيلة كشلوخان وسند كره ولما قتل عماد الدين أعطى السلطان لأخيه ركن الدين مائة قرية ليأكل منها ويطعم الصادر والوارد بزوايته فتوفي الشيخ ركن الدين وأوصى بمكانه من الزاوية لحفيدة الشيخ هود ونازعته في ذلك ابن أخى الشيخ ركن الدين وقال أنا أحق بميراث عمي فقدما على السلطان وهو بدولة آباد وبينهما وبين ملتان مائة يوم فأعطى السلطان المشيخة لهود وحسبها وأوصى له الشيخ وكان كهلًا وكان ابن أخى الشيخ فتى واكمه السلطان وأمر بتضييفه في كل منزل يحله وأن يخرج إلى لقاءه أهل كل بلد يمر به إلى ملتان وتصنع له فيه دعوة فلما وصل الأمر للحضرة خرج الفقهاء والقضاة والمشايخ

والاعيان للقائه وكنيت فيمن خرج إليه فتلقيناه وهو راكب في دولة يحملها الرجال وخيله
بجنوبة فسلمنا عليه وانكرت أناما كان من فعله في ركوبه الدولة وقلت إنما كان ينبغي له أن
يركب الفرس ويساير من خرج للقائه من القضاة والمشايخ فبلغه كلامي فركب الفرس
واعتذر بأن فعله أولاً كان بسبب ألم منعه من ركوب الفرس ودخل الحضرة وصنعت له بها
دعوة أنفق فيها من مال السلطان عدد كثير وحضر القضاة والمشايخ والفقهاء والاعزة
ومد السماط وأتوا بالطعام على العادة ثم أعطيت الدراهم لكل من حضر على قدر استحقاقه
فاعطى قاضي القضاة خمسمائة دينار وأعطيت أنامائتين وخمسين ديناراً وهذه عادة لهم في
الدعوى السلطانية ثم انصرف الشيخ هود إلى بلده ومعه الشيخ نور الدين الشيرازي
بعثه السلطان ليجلسه على سجادة جده بزاوريته ويصنع له الدعوة من مال السلطان هنالك
واستقر بزاوريته وأقام بها أعواماً ثم انعماد الملك أمير بلاد السند كتب إلى السلطان يذكر
أن الشيخ وقرابته يشتغلون بجميع الأموال وانفاقها في الشهوات ولا يطعمون أحداً بالزاورية
فنفذ الأمر بمطالبتهم بالأموال فطلبهم عماد الملك بها وسجن بعضهم وضرب بعضهم وصار
يأخذ منهم كل يوم عشرين ألف دينار مدة أيام حتى استخلص ما كان عندهم ووجد لهم
كثير من الأموال والذخائر من جملة ما نزل من صعدان بالجوهرو والياقوت ببيعاً بسبعة آلاف
دينار قيل انهما كانا لبيت الشيخ هود وقيل لسرية له فلما اشتد الحال على الشيخ هرب
يريد بلاد الأتراك فقبض عليه وكتب عماد الملك بذلك إلى السلطان فأمره أن يبعثه ويبعث
الذي قبض عليه كلاهما في حكم الثفاف فلما وصل إلى هرح الذي قبض عليه وقال للشيخ
هود أين أردت أن تفر فاعتذر بعذر فقال له السلطان إنما أردت أن تذهب إلى الأتراك
فتقول أنا ابن الشيخ بهاء الدين زكريا وقد فعل السلطان معي كذا وتأتى بهم لقتالنا
اضربوا عنقه فضربت عنقه رحمه الله تعالى

(ذكر سجنه لابن تاج العارفين وقتله لأولاده)

وكان الشيخ الصالح شمس الدين ابن تاج العارفين ساكناً بمدينة كول منقطعا للعبادة
كبير القدر ودخل السلطان إلى مدينة كول فذهب عنه فلم يأت به فذهب السلطان إليه ثم لما قارب
منزله انصرف ولم يره واتفق بعد ذلك أن أميراً من الأمراء خالف على السلطان ببعض
الجهات وبايعه الناس فتقل السلطان أنه وقع ذكر هذا الأمير بمجلس الشيخ شمس الدين
فأثنى عليه وقال أنه يصلح للملك فبعث السلطان بعض الأمراء إلى الشيخ فقيده وقيد
أولاده وقيد قاضي كول ومحتسبها لأنه ذكر انهما كانا حاضرين للمجلس الذي وقع فيه أثناء
الشيخ على الأمير المخالف وأمر بهم فسجنوا جميعاً بعد أن سمل عيني القاضي وعيني

المحتسب ومات الشيخ بالسجون وكان القاضي والمحتسب يخرجان مع بعض السجناء فيسألان الناس ثم يردان إلى السجن وكان قد بلغ السلطان أن أولاد الشيخ كانوا يخاطون كفار الهند وعصاتهم ويصحبونهم فلما مات أبوهم أخرجهم من السجن وقال لهم لا تعودوا إلى ما كنتم تفعلون فقالوا له وما فعلنا فاعتاد من ذلك وأمر بقتلهم جميعاً فقتلوا ثم استحضر القاضي المذكور فقال أخبرني بمن كان يرى رأي هؤلاء الذين قتلوا ويفعل مثل أفعالهم فأبلى أسماء رجال كثيرين من كفار البلد فلما عرض ما أملاه على السلطان قال هذا يجب أن يخرب البلد أضربوا عنقه فضربت عنقه رحمه الله تعالى .

(ذكر قتله للشيخ الحيدري)

وكان الشيخ علي الحيدري ساكناً بمدينة كنباية من ساحل الهند وهو عظيم القدر شهير الذكر بعيد المصيت ينذر له التجار بالبحر النذور والكثير وإذا قدموا بدوا بالسلام عليه وكان يكشف بأحوالهم وربما نذر أحدهم النذر وندم عليه فإذا أتى الشيخ للسلام عليه أعلمه بما نذر له وأمر بالوفاء به واتفق له ذلك مرات واشتهر به فلما خالف القاضي جلال الافغانى وقبيلته بتلك الجهات باخ السلطان ان الشيخ الحيدري دعا للقاضي جلال الدين واعطاه شاشيته من رأسه وذكر أيضاً أنه بايعه فلما خرج السلطان اليهم بنفسه وانهم القاضي جلال خلف السلطان شرف الملك أمير بخت احد الوافدين معنا عليه بكناية وأمره بالبحث عن أهل الخلاف وجعل معه فقهاء يحكم بقولهم فاحضر الشيخ علي الحيدري بين يديه وثبت أنه أعطى للقائم شاشيته ودعاه فحسبوا بقتله فلما ضرب به السيف لم يفعل شيئاً وعجب الناس لذلك وظنوا أنه يعني عنه بسبب ذلك فأمر سيفا آخر بضرب عنقه فضرب عنه فضربها رحمه الله تعالى

(ذكر قتله لطوغان وأخيه)

وكان طوغان الفرغانى وأخوه من كبار أهل مدينة فرغانى فوفدا على السلطان فأحسن إليهما وأعطاهما عطاء جزيلاً أقاما عنده مدة فلما طال مقامهما أرادا الرجوع إلى بلادهما وحاولا الفرار فوشى بهما أحد أصحابهما إلى السلطان فأمر بتوسيطهما فوسطا وأعطى للذى وشى بهما جميع مالهما وكذلك عادتهم بتلك البلاد إذا وشى أحد بأحد وثبت ما وشى به فقتل أعطى ماله .

(ذكر قتله لابن ملك التجار)

وكان ابن ملك التجار شاباً صغيراً لا نبات بهار ضيه فلما وقع خلاف بين الملك وقيامه وقتاله للسلطان كما سئد كرم غلب على ابن ملك التجار هذا فكان في جملة مقهورا فلما هزم عين وقبض الملك عليه وعلى أصحابه كان من جملة ابن ملك التجار وصهره بن قطب الملك فأمر

بهما فعلقا من أيديهما في حشب وأمر أبناء الملوك فرموهما بالنشاب حتى ماتا قل
الحاجب خواجه أمير على التبريزي لقاضي القضاة كال الدين ذلك مشاب لمحب عليه القتل
فبلغ ذلك (س) فقال هلاقلت هذا قبل موته وأمر به فضرب مائة مفرعة أو نحوها
وسجن واعطى جميع ماله لأمير السيفين فرأته في ثاني ذلك اليوم قد لبس ثيابه وجعل
قلنسوته على رأسه وركب فرسه نظنت أنه هو وأقام بالسجن شهورا ثم سرحه ورددته
ما كان عليه ثم غضب عليه ثانية ونفاه إلى خراسان فاستقر بهراة وكتب إليه يستمطعه
فوقع له على ظهر كتابه اكر بار آمدي (أي) معناه ان كنت تبت فارجع فرجع إليه
(ذكر ضربه الخطيب الخطباء حتى مات)

وكان قدولى خطيب الخطباء بدھلي النظر في خزانة الجواهر في السفر فاتفق ان جاء سرق
الكفار ليلا فضربوا على تلك الخزانة وذهبوا بشيء منها فأمر بضرب الخطيب حتى مات
رحمه الله تعالى

(ذكر تخريبه لدھلي وبنى أهلها وقتل الأعمى والمقعد)

ومن أعظم ما كان ينتقم على (س) اجلأؤه لاهل دھلي عنها وسبب ذلك أنهم كانوا يكتبون
بطائق فيها شتمه وسبه ويختمون عليها ويكتبون عليها وحق رأس خوند عالم ما يقرؤها
غيره ويرمونها بالمشور ليلا فإذا فاضها وجد فيها شتمه وسبه فعزم على تخريب دھلي واشترى
من أهلها جميع ادورهم ومنازلهم ودفع لهم ثمنها وأمرهم بالانتقال عنها إلى دولة آباد فأبوا
ذلك فنأدى مناديه ان لا يبقى بها أحد بعد ثلاث فانتقل معظمهم واختفى بعضهم في الدور
فأمر بالبحث عن بقى بها فوجد عبيده بازقنهار جلين أحدهما مقعد والآخر أعمى فأبوا
بهما فأمر بالمقعد فرمى به في المنجنيق وأمر أن يجر الأعمى من دھلي إلى دولة آباد مسيرة
أربعين يوما فتمزق في الطريق ووصل منه رجله ولما فعل ذلك خرج أهلها جميعا وتركوا
أثقالهم وأمتعتهم وبقيت المدينة خاوية على عروشها فحدثني من أثق به قال صعد (س)
ليلة إلى سطح قصره فنظر إلى دھلي وليس بها نار ولا دخان ولا سراج فقال الآن طاب
قلبي وتهدن خاطري ثم كتب إلى أهل البلاد ان ينتقلوا إلى دھلي ليعمروها فخربت بلادهم
ولم تعمر دھلي لا تساعها وضخامتها وهي من أعظم مدن الدنيا وكذلك وجدناها لما دخنا
إليها خالية ليس بها الا قليل عمارة وقد ذكرنا كثير من مآثر هذا (س) وما نقم عليه أيضا
فلنذكر جملا من الوقائع والحوادث السائدة في أيامه.

(ذكر ما افتتح به أمره أول ولايته من منه على بهادور)

ولما ولي (س) الملك بعد أبيه وبايعه الناس احضر (س) غياث الدين بهادور بوره

الذي كان أسره (س) تغلق فمن عليه وفك قيوده وأجزله العطاء من الأموال والخيل والفيلة وصرفه إلى مملكته وبعث معه ابن أخيه إبراهيم خان وعاهده على أن تكون تلك المملكة مشاطرة بينهما وتسكتب أسماؤهما معا في السكة ويخطب لهما وعلى أن يصرف غياث الدين ابنه محمد المعروف ببرباط يكون رهينة عند (س) فأنصرف غياث الدين إلى مملكته والتزم ما شرط عليه إلا أنه لم يبعث ابنه وادعى أنه امتنع وأساء الأدب في كلامه فبعث (س) العساكر إلى ابن أخيه إبراهيم وأميرهم دجلي التتري فقاتلوا غياث الدين فقتلوه وساقوا جلده وحشى بالتبن وطيف به على البلاد

ذكر ثورة ابن عمته وما اتصل بذلك

وكان (س) تغلق ابن اخت يسمى بهاء الدين كشتاسب (بضم الكاف وسكون الشين المعجم وتاء معلولة) واسب (بالسين المهملة والباء الموحدة مسكنين) فجعله أميرا ببعض النواحي فلما مات خاله امتنع من بيعة ابنه وكان شجاعا بطلا فبعث (س) إليه العساكر فيهم الأمراء الكبار مثل الملك مجير والوزير خواجة جهان أمير على الجمع فالتقى الفرسان واشتد القتال وصبر كلا العسكرين ثم كانت الكرة لعسكر (س) ففر بهاء الدين إلى ملك من ملوك السكفار يعرف بالراي كنبيلة والراي عندهم كمثل ما هو بلسان الروم عبارة عن (س) وكنبيلة اسم الأقليم الذي هو به وهو (بفتح الكاف وسكون النون وكسر الباء الموحدة وياء ولام مفتوحة) وهذا الراي له بلاد في جبال منيعة وهو من أكابر سلاطين السكفار فلما هرب إليه بهاء الدين اتبعه عساكر (س) وحصروا تلك البلاد واشتد الأمر على الكفار ونقد ما عندهم من الزرع وخاف أن يؤخذ باليد فقال لبهاء الدين إن الحال قد بلغت لما تراه وأنا عازم على هلاك نفسي وعيالي ومن تبعني فاذهب أنت إلى (س) فلان من السكفار وسماه لهم فاقم عنده فإنه سيسمك وبعث معه من أوصله إليه وأمر راي كنبيلة بنار عظيمة قاجيجت وأحرق فيها أمتعته وقال لنسائه وبناته إنني أريد قتل نفسي فمن أرادت موافقتي فلتفعل فكانت المرأة منهم تغتسل وتدهن بالصندل والمقاصري وتقبل الأرض بين يديه وترمي بنفسها في النار حتى هلكت جميعا وقتل وفعل مثل نساء أمرائه ووزرائه وأرباب دولته ومن أراد من سائر النساء ثم اغتسل الراي وادهن بالصندل ولبس السلاح ما عدا الدرع وفعل كفعله من أراد الموت معه من ناسه وخرجوا إلى عسكر (س) فقاتلوا حتى قتلوا جميعا ودخلت المدينة فأسرا أهلها وأسروا من أولاد الراي كنبيلة أحد عشر ولدا قاتل بهم (س) فأسلموا جميعا وجعلهم (س) أمراء وعظمهم لأصاوتهم وفعل أيهم

قرأيت عنده منهم نصراً وبختيار والمهردار وهو صاحب الخاتم الذي يختم به على الماء الذي يشرب (س) منه وكنيته أبو مسلم وكانت بيني وبينه صحبة ومودة ولما قتل راى كنبيلة توجهت عساكر (س) إلى بلد الكفار الذي لجأ إليه بهاء الدين وأحاطوا به فقال ذلك (س) أنا لا أقدر على أن أفعل ما فعله راى كنبيلة فقبض على بهاء الدين وأسلمه إلى عسكر (س) فقيدوه وغلوه وأنوا به فلما أتى به إليه أمر بإدخاله إلى قرابته من النساء فشتتمته وبصقن في وجهه وأمر بسلخه وهو نفيذ الحياة فساخ وطبخ لحمه مع الأرز وبعث لأولاده وأهله وجعل باقيه على صحيفة وطرح للقبيلة لتأكله فأبت أكله وأمر بجلده فحشى بالثبن وقرن بجلد بهادور بوره وطيف بهما على البلاد فلما وصلا إلى بلاد السند وأمير أمراثا يومئذ كشلو خان صاحب (س) تلغق ومعيته على أخذ الملك وكان (س) يعظمه ويخاطبه بالعم ويخرج لاستقباله إذا وفد من بلاده أمر كشلو خان بدفن الجلودين فبلغ ذلك (س) فشق عليه فعلة وأراد الفتك به .

(ذكر ثورة كشلو خان وقبلة)

ولما اتصل بالسلطان ما كان من فعله في دفن الجلودين بعث عنه وعلم كشلو خان أنه يريد عقابه فامتنع وخالف وأعطى الأموال وجمع العساكر وبعث إلى الترك والأفغان وأهل خراسان فأناهم منهم العدد الجهم حتى كافأ عسكره عسكر (س) أو أربى عليه كثرة وخرج (س) بنفسه لقتاله فكان اللقاء على مسيرة يومين من ملتان بصحراء أبهر وأخذ (س) بالحزم عند لقائه فجعل تحت الشطر عرضاً منه الشيخ عماد الدين شقيق الشيخ ركن الدين الملتان وهو حدثي هذا وكان شديداً به فلما حمى القتال انفرد (س) في أربعة آلاف من عسكره وقصد عسكر كشلو خان قصد الشطر معتقدين أن (س) تحته فقتلوا أعماد الدين وشاع في العسكر أن (س) قتل فاشتغلت عساكر كشلو خان بالنهب وتفرقوا عنه ولم يبق معه إلا القليل فقصدته (س) بمن معه فقتله وجزر رأسه وعلم بذلك جيشه ففروا ودخل (س) مدينة ملتان وقبض على قاضها كريم الدين وأمر بسلخه فساخ وأمر برأس كشلو خان فعلق على بابيه وقدرأيته معلقا لما وصلت إلى ملتان وأعطى (س) للشيخ ركن الدين أخى عماد الدين ولايته صدر الدين مائة قرية انعاماً عليهم لياكلوا منها ويطعموا بزاويتهم المنسوبة لجدهم بهاء الدين زكريا وأمر (س) وزيره خواجه جهان أن يذهب إلى مدينة كمال بوروي مدينة كبيرة على ساحل البحر وكان أهلها قد خالفوا فاخبرني بعض الفقهاء أنه حضر دخول الوزير لياها قال واحضر بين

يديه القاضي بها والخطيب فامر بساخ جلودهما فقال له اقتلنا بغير ذلك فقال لهما بما استوجبتهما القتال فقال بمخالفتنا أمر (س) فقال لهما فكيف أخالف أنا أمره وقد امرني أن اقتلكما بهذه القتلة وقال للمتولين لساخهما احفروا لهما حفرا تحت وجوههما يتنفسان فيها فانهم إذا سابخوا والعياذ بالله يطرحون على وجوههم ولما فعل ذلك تمهدت بلاد السند وعاد (س) إلى حضرته .

(ذكر الواقعة بجبل قراجيل على جيش السلطان)

(وأول اسمه قاف وجيم معقودة) وجبل قراجيل هذا جبل كبير يتصل مسيرة ثلاثة أشهر وبينه وبين دهلي مسيرة عشر وسلطانه من أكبر سلاطين الكفار وكان (س) بعث ملك نكبية رأس الدويدارية إلى حرب هذا الجبل ومعه مائة ألف فارس ورجاله سواهم كثير فملك مدينة جديدة وضبطها بكسر الجيم وسكون الدال المهمل وفتح الياء آخر الحروف وهي أسفل الجبل وملك ما يليها وسي وخرّب واحرق وفر الكفار إلى أعلى الجبل وتركوا بلادهم وأموالهم وخزائن ملكهم وللجبل طريق واحد وعن أسفل منه واد وفوقه الجبل فلا يجوز فيه إلا فارس منفرد وخلفه آخر فصعدت عساكر المسلمين على ذلك الطريق وتمسكوا مدينة رونسكل التي بأعلى الجبل (وضبطها) بفتح الواو والراء (وسكون النون وفتح الكاف) واحتلوا على ما فيها وكتبوا إلى (س) بالفتح فبعث اليهم قاضيا وخطيبا وأمرهم بالإقامة فلما كان وقت نزول المطر غلب المرض على العسكر وضعفوا ومات الخيل وانحلت القسي فكاتب الأمراء إلى (س) واستأذنه في الخروج عن الجبل والنزول إلى أسفله بخلال ما ينصرم فصل نزول المطر فيعودون فاذن لهم في ذلك فأخذ الأمير نكبية الأموال التي استولى عليها من الخزائن والمعادن وفرقها على الناس أيرفعوها ويوصلها إلى أسفل الجبل فعند ما علم الكفار بخروجهم قعدوا لهم بتلك المهاوى وأخذوا عليهم المضيق وصاروا يقطعون الأشجار العادية قطعا ويطرحونها من أعلى الجبل فلا تمر بأحد إلا أهالكته فملك الكثير من الناس وأسر الباقون منهم وأخذ الكفار الأموال والأمتعة والخيل والسلاح ولم يفلت من الجند إلا ثلاثة من الأمراء كبيرهم نكبية وبدر الدين الملك دولة شاه وثالث لهما لا أذكره وهذه الواقعة أثرت في جيش الهند أثرا كبيرا وأضعفته ضعفا بينا وصالح السلطان بعدها أهل الجبل على مال يؤدونه إليه لأن لهم البلاد أسفل الجبل ولا قدرة لهم على عمارتها إلا بإذنه

(ذكر ثورة الشريف جلال الدين ببلاد المعبر واتصل بذلك من قتل ابن أخت الوزير)
وكان السلطان قد أمر على بلاد المعبر وبينها وبين دهلي مسيرة ستة أشهر الشريف جلال

الدين أحسن شاه فخالف وادعى الملك لنفسه وقتل نواب السلطان وعماله وضرب الدنانير والدراهم باسمه وكان يكتب في إحدى صفحات الدينار سلالته ويس أبو الفقراء والمساكين جلال الدنيا والدين وفي الصفحة الأخرى الواثق بتأييد الرحمن أحسن شاه السلطان وخرج السلطان لما سمع بثورته يريد قتاله فنزل بموضع يقال له كشك زرم معناه قصر الذهب وأقام به ثمانية أيام لقضاء حوائج الناس وفي تلك الأيام يأتي أخت الوزير خواجه جهان وأربعة من الأمراء أو ثلاثة وهم مقيدون مغلولون وكان السلطان قد بعث وزيره المذكور في مقدمته فوصل إلى مدينة ظهار وهي على مسيرة أربع وعشر من دهلي وأقام بها أياما وكان ابن أخته شجاعاً بطلاً فاتفق مع الأمراء الذين أتى بهم على قتل خاله والحرب بما عنده من الخزائن والأموال إلى الشريف القائم ببلاد المعبر وعزموا على الفتك بالوزير عند خروجه إلى صلاة الجمعة فوشى بهم أحد من أدخلوه في أمرهم إلى الوزير وكان يسمى الملك نصره الحاجب وأخبر الوزير أن آية ما يرومونه لبسهم الدروع تحت ثيابهم فبعث الوزير عنهم فوجدهم كذلك فبعث بهم إلى السلطان وكنت بين يد (س) حين وصولهم فرأيت أحدهم وكان طوال اللحي وهو برعدو يتلو سورة يس فأمرهم فطرحوا للفيلة المعيلة لقتل الناس وأمر ابن أخت الوزير فرد إلى خاله ليقتله فقتله وسند كرك ذلك وتلك الفيلة التي تقتل تكسي أنيابها حديد مسنونه شبه سلك الحرث لها أطراف كالسكاكين ويركب الفيل على الفيل فاذا رمى الرجل بين يديه ألف عليه خرطومه ورمى به إلى الهواء ثم يلتفه بنا بيه ويطرحه بعد ذلك بين يديه ويجعل يده ويفعل به ما يأمره الفيل على حسب ما أمره (س) فان أمره بتقطيعه قطعه الفيل قطعاً بتلك الحداث وان أمره بتركه تركه مطروحاً فساخ وكذلك فعل بهؤلاء وخرجت من دار (س) بعد المغرب فرايت الكلاب تأكل لحومهم وقد ملئت جلودهم بالبن والعياذ بالله ولما تجهز (س) لهذه الحركة أمرني بالإقامة بالحضرة كما سئذكره ومضى في سفره إلى أن بلغ دولة آباد فتأرا الأمير هلاجون ببلاده وخرج ذلك وكان الوزير خواجه جهان قد بقي أيضاً بالحضرة لحشد الحشود وجمع العساكر

(ذكر ثورة هلاجون)

ولما بلغ (س) إلى دولة آباد وبعد عن بلاده تأرا الأمير هلاجون بمدينة الاهوار وادعى الملك وساعده الأمير قلجند على ذلك وصيره وزيراً له واتصل ذلك بالوزير خواجه جهان وهو بداهلي فحشد الناس وجمع العساكر وجمع الخراسانيين وكل من كان مقيماً من الخدام بداهلي اخذ اصحابه واخذ في الجملة اصحابي لاني كنت بهام قتيار اعانه (س) بأمرين كبيرين

احدهما قيران ملك صفدار ومعناه مرتب العساكر والثاني الملك تمور الشريدار وهو الساقى وخرج هلاجون بعساكره فكان اللقاء على ضفة احد الاودية الكبار فانهمز هلاجون وهرب وغرق كثير من عساكره في النهر ودخل الوزير المدينة فسلخ بعض اهلها وقتل آخرين بغير ذلك من انواع القتل وكان الذى تولى قتلهم محمد بن النجيب نائب الوزير وهو المعروف باجدر ملك ويسمى ايضا صك (سك) (س) والشك عندهم الكلب وكان ظالما قاسى القلب ويسميه (س) اسد الاسواق وكان ربما يعض ارباب الجنايات باسنانه شرها وعدوانا وبعث الوزير من نساء المخالعين نحو ثلاثمائة إلى حصن كاليور فسجن به ورايت بعضهم هنالك وكان احد الفقهاء له فهن زوجة فكان يدخل اليها حتى ولدت منه فى السجن

(ذكر وقوع الوباء فى عسكر (س))

ولما وصل (س) إلى بلاد التلنك وهو قاصد إلى قتال الشريف ببلاد المعبر نزل مدينة بدركوت (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وسكون الدال وفتح الراء وضم الكاف وواو وتاء معلولة) وهى قاعدة بلاد التلنك (وضبطها بكسر التاء المملوءة واللام وسكون النون وكاف معقودة) وبينها وبين بلاد المعبر مسيرة ثلاثة اشهر ووقع الوباء إذ ذاك فى عسكره فهلك معظمهم ومات العبيد والماليك وكبار الامراء مثل ملك دولة شاه الذى كان (س) يحاط به بالعموم مثل امير عبد الله الهورى وقد تقدمت حكايته فى السفر الاول وهو الذى امر (س) ان يرفع من الخزانة ما استطاع من المال فربط ثلاث عشرة خريطة باعضاده ورفعها ولما رأى (س) ما حل بالعسكر عاد إلى دولة آباد وخالفت البلاد وانقضت الاطراف وكاد الملك يخرج عن يده لولا ما سبق به القدر من استحكام سمادته

(ذكر الارجاف بموته وفرار الملك هوشنج)

ولما عاد (س) إلى دولة آباد مرض فى طريقته فارجف الناس بموته وشاع ذلك فنشأت عنه فتن عريضة وكان الملك هوشنج ابن الملك كمال الدين كرك بدولة آباد وكان بينه وبين (س) عهد ان لا يبايع غيره ابدا لا فى حياته ولا بعد موته فلما ارجف بموت (س) هرب إلى (س) كافر يسمى بربرة يسكن بجبال مانعة بين دولة آباد وكوكن تانه فعلم (س) بفراره وخاف وقوع الفتنة فجدا السير إلى دولة آباد واقتفى اثر هوشنج وحصره بالخيل وارسل الكافر ان يسلمه اليه فابى وقال لا اسلم دخيلى ولو آل فى الامر لما آل برأى كنبيلة وخاف هوشنج على نفسه فراسل (س) وعاهد على ان يرحل (س) إلى دولة آباد ويبقى هنالك قتلوخان معلم (س) ليستوثق منه هوشنج وينزل اليه على الامان فرحل (س)

ونزل هو شنج إلى قطلو خان وعاهده أن لا يقتله (س) ولا يحط منزله وخرج بماله وعياله وأصحابه وقدم على (س) فسر بقدمه وأرضاه وخلع عليه وكان قطلو خان صاحب عهد يستنيم الناس اليه ويقولون في الوفاء عليه ومنزلته عند (س) عليّة وتعظيمه له شديد ومتى دخل عليه قام له لإجلاله فكان بسبب ذلك لا يدخل عليه حتى يكون هو الذي يدعو له لئلا يتعبه بالقيام له وهو محب في الصدقات كثير لا يثار موالع بالاحسان للفقراء والمساكين

(ذكر ما هم به الشريف إبراهيم من الثورة ومآل حالة)

وكان الشريف إبراهيم المعروف بالخريطة دار وهو صاحب الكاغد والاقلام بدار (س) واليا على بلاد حانسي وسرستي لما تحرك (س) إلى بلاد المبروأبوه هو القائم ببلاد المبر الشريف أحسن شاه فلما أرجف بموت (س) طمع إبراهيم في السلطنة وكان شجاعا كر بما حسن الصورة وكنت متزوجا بأخته حورنسب وكانت صالحة تهجد بالليل لها أوراد من ذكر الله عز وجل وولدت مني بنتا ولا أدري ما فعل الله فيهما وكانت تقرا الكتب لا تسكت فلما هم إبراهيم بالثورة اجتاز به أمير من أمراء السند معه الأموال يحملها إلى دهلي فقال له إبراهيم ان الطريق مخوف وفيه القطع فأقم عندي حتى يصلح الطريق وأوصلك إلى المأمن وكان قصده أن يتحقق موت (س) فيستولي على تلك الأموال فلما تحقق حياته سرح ذلك الأمير وكان يسمى ضياء الملك بن شمس الملك ولما وصل (س) إلى الحضرة بعد غيبته سنتين ونصف وصل الشريف إبراهيم إليه فوشى به بعض غلمانه واعلم (س) بما كان هم به فأراد (س) ان يعجل بقتله ثم تأنى لمحبه فيه فاتفق ان اتي يوما إلى السلطان بنزال مذبح ينظر الى ذبحته فقال ليس يجيد الزكاة اطرحوه فراه إبراهيم فقال ان زكاته جيدة وأنا آكله فأخبر (س) بقوله فأسكر ذلك وجعله ذريعة الى أخذه فأمر به فقيد وغال ثم قرره على ماري به من أنه أراد أخذ الأموال التي مر بها ضياء الملك وعلم إبراهيم انه انما يريد قتله بسبب أبيه وانه لا تنفعه معذرة وخاف ان يعذب فرأى الموت خيرا له فأقر بذلك فأمر به فوسط وترك هنالك وعادتهم أنه متى قتل (س) احدا اقام مطروحا بموضع قتله ثلاثا فاذا كان بعد الثلاث اخذه طائفة من الكبار موكلون بذلك فحملوه الى خندق خارج المدينة يطرحونه به وهم يسكنون حول الخندق لئلا يأتي اهل المقتول فيعرفونه وربما اعطى بعضهم لهؤلاء الكفار مالا فتجافوا له عن قتيله حتى يدفنه وكذلك فعل الشريف إبراهيم رحمه الله تعالى

(ذكر خلاف نائب (س) ببلاد التلنك)

ولما عاد (س) من التلنك وشاع خبر موته وكان ترك تاج الملك نصرة خان تائباً عنه ببلاد التلنك وهو من قدماء خواصه بلغه ذلك فعمل عزاء (س) ودعا لنفسه وتابعه الناس بحضرة بدر كوت فبلغ خبره إلى (س) فبعث معاً قطلو خان في عساكر عظيمة فحصره بعد قتال شديد هلك فيه أمم من الناس واشتد الحصار على أهل بدر كوت وهي منيعة وأخذ قطلو خان في نقيبها فخرج إليه نصرة خان على الأمان في نفسه فأمته وبعث به إلى (س) وأمن أهل المدينة والعسكر

(ذكر انتقال (س) لنهر السكنك وقيام عين الملك)

ولما استولى القحط على البلاد انتقل (س) بعساكره إلى نهر السكنك الذي تخرج إليه الهنود على مسيرة عشرة من دهلي وأمر الناس بالبناء وكانوا قبل ذلك صنعوا خياماً من حشيش الأرض فكانت النار كثيراً ما تقع فيها وتؤذي الناس حتى كانوا يصنعون كهوفاً تحت الأرض فإذا وقعت النار رموا أمتعتهم بها وسدوا عليها بالتراب ووصلت أنا في تلك الأيام لحلة (س) وكانت البلاد التي بغربي النهر حيث (س) شديد القحط والبلاد التي بشرقيها خصبة وأميرها عين الملك بن ماهر ومنها مدينة عوض ومدينة ظفر آباد ومدينة السكنو وغيرها وكان الأمير عين الملك كل يوم يحضر خمسين ألف من منها قمح وأرز وحمص لعلف الدواب فأمر (س) أن تحمل الفيلة ومعظم الخيل والبغال إلى الجهة الشرقية لخصبه لترعى هنالك وأوصى عين الملك بحفظها وكان لعين الملك أربعة أخوة وهم شهر الله ونصر الله وفضل الله ولا أذكر اسم الآخر فاتفقوا مع أخيه عين الملك وهرب أن يأخذوا فيلة السلطان ودوابه ويبايعوا عين الملك ويقوموا على (س) وهرب إليهم عين الملك بالليل وكاد الأمر يتم لهم ومن عادة ملك الهند أنه يجعل مع كل أمير كبير أو صغير مملوك يكون عيناً له عليه ويعرفه بجميع حاله ويجعل أيضاً جوارى في الدور يكن عيوناً له على أمرائه ونسوة يسمين السكناسات يدخلن الدور بلا استئذان ويخبرهن الجوارى بما عندهن فيخبر السكناسات بذلك المخبرين فيخبر بذلك (س) ويدكرون أن بعض الأمراء كان في فراشه مع زوجته فأراد مماسها فخلقت برأس (س) أن لا يفعل فلم يسمع منها فبعث (س) صباحاً وأخبره بذلك وكان سبب هلاكه وكان للسلطان مملوك يعرف بابن ملك شاه هو عين على عين الملك المذكور فأخبر (س) بفراره وجوازه النهر فسقط في يده وظن أنها القاضية عليه لأن الخيل والفيلة والأزعر كل ذلك عند عين الملك وعساكر (س) مفترقة فأراد أن يقصد حضرة ويجمع العساكر وحينئذ يأتي لقتاله وشاور

أرباب الدولة في ذلك وكان أمراء خراسان والغرباء أشد الناس خوفاً من هذا القائم لأنه هندي وأهل الهند مبغضون في الغرباء لاظهار (س) لهم فكروا ماظهر له وقالوا ياخوند عالم إن فعلت ذلك بلغه الخبر فاشتد أمره ورتب العساكر وأشال عليه طلاب الشر ودعاة الفتن والأولى معالجته قبل استحكام قوته وكان أول من تكلم بهذا ناصر الدين مطهر الأوهري ووافقه جميعهم ففعل (س) بإشارتهم وكتب تلك الليلة إلى من قرب منه من الأمراء والعساكر فأرسلوا من حينهم وأدار في ذلك حيلة حسنة فكان إذا قدم على محلة مثلاً مائة فارس بعث الآلاف من عنده للقائهم ليلا ودخلوا معهم إلى المحلة كان جميعهم مددله وتحرك (س) مع ساحل النهر ليجمعل مدينة قنوج وراء ظهره ويتحصن بها لمنعتها وحصانتها وبينها وبين الموضع الذي كان ثلاثة أيام فرحل أول مرحلة وقد عبأ بجيشه للحرب وجعلهم صفاً واحداً عند نزولهم كل واحد منهم بين يديه سلاحه وفرسه إلى جانبه ومعه خباء صغير يأكل به ويتوضأ ويعود إلى مجلسه والمحلة الكبرى على بعد منهم ولم يدخل (س) في تلك الأيام الثلاثة خباء ولا استظل بظل وكنت في يوم منها بخباتي فصاح بي فتى من فنياني اسمه سنبل واستعجلني وكان معي الجوارى فخرجت إليه فقال إن (س) أمر الساعة أن يقتل كل من معه أمراً أنه أوجاريته فشفع عنده الأمراء فأمر أن لا تقي الساعة بالمحلة امرأة وأن يحملن إلى حصن هنالك على ثلاثة أميال يقال له كنبيل فلم تبقى امرأة بالمحلة ولا مع (س) وبتنا تلك الليلة على تعبئة فلما كان في اليوم الثاني رتب (س) عسكره أفواجا وجعل مع كل فوج الفيلة المدرعة عليها الأبراج فوفها المقاتلة وتدرع المسكر وتهيؤا للحرب وباتوا تلك الليلة على أهبة ولما كان اليوم الثالث بلغ الخبر بأن عين الملك الثائر جازال نهر نخاف (س) من ذلك وتوقع أنه لم يفعله إلا بعد مراسلة الأمراء الباقين مع (س) فأمر في الحين بقسم الخيل العتاق على خواصه وبعث لى حظاً منها وكان لى صاحب يسمى أمير أميران الكرمانى من الشجعان فاعطيته فرساناً منها اشهب اللون فلما حركه جمع به فلم يستطع امساكه ورماه عن ظهره فمات رحمه الله تعالى وجد (س) ذلك اليوم في مسيره فوصل بعد العصر إلى مدينة قنوج وكان يخاف أن يسبقه القائم إليها وبات ليلة تلك يرتب الناس بنفسه ووقف علينا ونحن في المقدمة مع ابن عمه ملك فيروز ومعنا الأمير غدا بن منهى والسيد ناصر الدين مطهر وأمراء خراسان فاضافنا إلى خواصه وقال انتم اعز على ينبغي أن تفارقوني وكان في عاقبة ذلك الخير فان القائم ضرب في آخر الليل على المقدمة وفيها الوزير خواجه جهان فقامت ضجة في الناس كبيرة فحينئذ امر

(س) أن لا يبرح أحدهم مكانه ولا يقاتل الناس إلا بالسيوف فاستل العسكر سيوفهم ونهضوا إلى أصحابهم وحملوا القتال وأمر (س) أن يكون شعار جيشه دهلي وغزاة فإذا لقي أحدهم فارسا قال له دهلي فإن أجابه بغزاة علم أنه من أصحابه والاقاتله وكان القائم انما تصد ان يضرب على موضع (س) فأخطأ به الدليل فقصد موضع الوزير فضرب عنق الدليل وكان في عسكر الوزير الاعاجم والترك والخراسانيون وهم أعداء الهنود فصدقوا القتال وكان جيش القائم نحو الحسين الفانهمزموا عند طلوع الفجر وكان الملك ابراهيم المعروف بالبنجي (بفتح الباء الموحدة وسكون النون وجيم) الترى قد اقطعه السلطان بلاد سنديلة وهي قرية من بلادعين الملك فاتفق معه على الخلاف وجعله نائبه وكان داود بن قطب الملك وابن ملك التجار على فيله (س) ونخيله فوافقاه ايضا وجعل داود حاجبه وكان داود هذا لما ضربوا على محلة الوزير يجهر بسبب (س) ويشتمه اقبح شتم (س) يسمع ذلك ويعرف كلامه فلما وقعت الهزيمة قال عين الملك لنائبه ابراهيم الترى ماذا ترى يا ملك ابراهيم قد فرا كثر العسكر وذو النجدة منهم فهل لك ان ننجوا بانفسنا فقال ابراهيم لأصحابه بلسانهم اذاراد عين الملك ان يفر فاني ساقبض على دبوقة فاذا فعلت ذلك فاضربوا انتم فرسه ليسقط الى الارض فنقبض عليه وناتى به الى (س) ليكون ذلك كفارة لذنب في الخلاف معه وسببا لخلاصى فلما اراد عين الملك الفرار قال له ابراهيم الى اين يا سلطان علاء الدين، وكان يسمى بذلك وامسك بدبوقة وضرب اصحابه فرسه فسقط على الارض ورعى ابراهيم بنفسه عليه فقبضه وجاء أصحاب الوزير لياخذوه فمنعهم وقال لا اتركه حتى اوصله للوزير أو أموت دون ذلك فتركوه فأوصله الى الوزير وكنت انظر عند الصبح الى الفيلة والاعلام يؤتى بها الى (س) ثم جاءنى بعض العراقيين فقال قد قبض على عين الملك واتى به الوزير فلم اصدقه فلم يمر الا يسير وجاءنى الملك تمور الشريدان فأخذ بيدي وقالوا ابشر فقد قبض على عين الملك وهو عند الوزير فتحرك (س) عند ذلك ونحن معه الى محلة عين الملك على نهر الكنك فنهبت العساكر ما فيها واقتحم كثير من عسكر عين الملك النهر فغرقوا واخذ داود بن قطب الملك وابن ملك التجار وخلق كثير معهم ونهبت الاموال والخيل والامتعة ونزل (س) على المجاز وجاء الوزير بعين الملك وقد اركب على ثور وهو عريان مستورا العورة بخرقه مربوطة بحبل وباقية في عنقه فوقف على باب السراجة ودخل الوزير الى (س) فأعطاه الشربة عناية به وجاء أبناء الملوك الى عين الملك فخلعوا يسبونونه ويصنعون في وجهه ويصفعون

أصحابه اليه وبعث (س) الملك الكبير فقال له ما هذا الذي فعلت فلم يجد جوابا فأمر به (س) ان يكسى ثوبا من ثياب الزمالة وقيد ياربعة كبول وغلت يدها إلى عنقه وسلم للوزير ليحفظه وسمح اخوته النهر هار بين ووصلوا مدينة غوض فأخذوا أهلهم وأولادهم وما قدروا عليه من المال وقالوا لزوجته أخيمهم عين الملك اخاصني بنفسك وبنيتك معنا فقالت أفلا أكون كنساء الكفار اللاتي يحرقن أنفسهن مع أزواجهن فانا أيضا موت لموت زوجي وأعيش لعيشه فتركوها وبلغ ذلك (س) فكان سبب خيرها وادركته هارقة وأدرك الفتى سميل نصر الله من أولئك الاخوة فقتله واتى (س) برأسه واتى بأم عين الملك وأخته وأمراته فسلبن إلى الوزير وجعلن في خباء بقرب خباء عين الملك فكان يدخل اليهن ويجلس معهن ويعود إلى محبسه ولما كان بعد العصر من يوم الهزيمة أمر (س) بسراح لفيف من الناس الذين مع عين الملك من الزمالة والسوقة والعبيد ومن لا يعنونه وأتى بملك ابراهيم البنجي الذي ذكرناه فقال ملك العسكر الملك نوايا خوند عالم اقتل هذا فإنه من المخالفين فقال الوزير انه قد فدى نفسه بالقائم فعفا عنه (س) وسرحه إلى بلاده .

ولما كان بعد المغرب جلس (س) ببرج الخشب وأتى باثنين وستين رجلا من كبار أصحاب القائم واتى بالفيلة فطرحوا بين أيديها جعلت تقطعهم بالحدائد الموضوعة على أنيابها وترمي ببعضهم إلى الهواء وتتلفعه والابواق والانفار والطبول تضرب عند ذلك وعين الملك واقف يمين مقتاتهم وي طرح منهم عليه ثم أعيد إلى محبسه .

وأقام (س) على جواز النهر أياما لكثرة الناس وقلة القوارب واجاز أمتعته ونحوائه على الفيلة وفرق الفيلة على خواصه ليجيزوا أمتعتهم وبعث إلى بفيل منها أخرجت عليه رحلي وقصد السلطان ونحن معه إلى مدينة هرايج (س) وضبط أسماها بفتح الهاء الموحدة وهاء مسكن وراء وألف وياه آخر الحروف مكسورة وجم وهى مدينة حسنة فى عدوة نهر السر وهو واد كبير شديد الانحدار واجازه (س) برسم زيارة قبر الشيخ الصالح البطل سالا رعود الذى فتح أكثر تلك البلاد وله أخبار عجيبة وغزوات شهيرة وتسكأثر الناس للجواز وتزاحوا حتى غرق مركب كبير كان فيه نحو ثلاثمائة نفس لم ينبج منهم اعرابي من أصحاب الأمير غداو كنار كبنا نحن مركب صغير فسلمنا الله تعالى وكان العربى الذى سلم من الغرق يسعى بسالم وذلك اتفاق عجيب .

وكان أراد أن يصعد معنا فى مركبنا فوجدنا قدر كبنا النهر فركب فى المركب الذى غرق فلما خرج ظن الناس أنه كان معنا فقامت ضجة فى أصحابنا وفى سائر الناس وتوهموا أننا غرقنا ثم لما رأونا بعد استبشروا بسلامتنا وذرنا قبر الصالح المذكور وهو فى قبة لم نجد سبيلا إلى

دخولها الكثرة الزحام وفي تلك الوجهة دخلنا غيضة قصب فخرج علينا منها الكركدن فقتل وأتى الناس براسه وهو دون الفيل ورأسه أكبر من رأس الفيل بإضعاف وقد ذكرناه

(ذكر عودة السلطان لحضرته ومخالفة علي شاه كر)

ولما ظفر (س) بعين الملك كما ذكرنا عاد إلى حضرته بعدم نيب عامين ونصف وعفا عن عين الملك وعفا أيضا عن نصره خان القائم ببلاد التلنك وجعلها معا على عمل واحد وهو النظر على بساتين (س) وكساهما واركبهما وعين لهما نفقة من الدقيق واللحم في كل يوم وبلغ الخبر بعد ذلك أن أحد أصحاب قطلو خان وهو علي شاه كر ومعنى كر الاطرش خالف على (س) وكان شجاعا حسن الصورة والسيرة فغلب على بدر كوت وجعلها مدينة مملكة وخرجت العساكر إليه وأمر (س) معلمه أن يخرج إلى قتاله فخرج في عساكر عظيمة وحصره بدر كوت ونقبت ابراجها واشتدت به الحال فطلب الامان فامنه قطلو خان وبعث به إلى (س) مقيدا فعفا عنه ونفاه إلى مدينة غزنة من طرف خراسان فاقام بها مدة ثم اشتاق إلى وطنه فاراد العودا اليه لما قضاه الله من حينه فقبض عليه ببلاد السند وأتى به (س) فقال له انما جئت لتبخر الفساد ثانية وامر به فضربت عنقه .

(ذكر فرار امير بخت واخذه)

وكان (س) قد وجد على امير بخت المقلب بشرف الملك أحد الذين وفدوا معنا على السلطان فخطم رتبته من أربعين ألفا إلى ألف واحد وبعثه في خدمة الرزير إلى دهلي فاتفق ان مات امير عبد الله الهروي في الوباء في التلنك وكان ماله عند اصحابه بدهلي فاتفقوا مع امير بخت على الهروب فلما خرج الوزير من دهلي إلى لقاء (س) هربوا مع امير بخت واصحابه ووصلوا إلى ارض السند في سبعة أيام وهو مسيرة اربعين يوما وكان معهم الخيل بخوبة وعزموا على ان يقطعوا نهر السند عوما ويركب امير بخت وولده ومن لا يحسن العوم في معديته قصب يصنعونها وكانوا قد أعدوا حبالا من الحرير برسم ذلك فلما وصلوا إلى النهر خافوا من عبوره بانعوم فبعثوا رجلين منهم إلى جلال الدين صاحب مدينة أوجة فقالا له ان هاهنا تجاراً أرادوا ان يعتبروا بالنهر وقد بعثوا إليك بهذا السرج لتبيح لهم الجواز فانكر امير ان يعطى التجار مثل ذلك السرج وامر بالقبض على الرجلين ففرا أحدهما ولحق بشرف الملك واصحابه وهم نيام لما لحقهم من الاعياء ومواصلة السير فاخبرهم الخبر فركبوا مذعورين وفروا وامر جلال الدين بضرب الرجل الذي قبض عليه فاعترف بقضية شرف الملك فامر جلال الدين نائبه فركب في العسكر وقصدوا نحوهم فوجدوهم قد ركبوا فاقتفوا اثرهم

فأدركوهم فرموا العسكر بالنشاب ورمى طاهر بن شرف الملك نائب الأمير جلال الدين
بسمهم فأثبتته في ذراعاه وغلب عليهم فأتى بهم إلى جلال الدين فقيدهم وغل أيديهم وكتب
إلى الوزير في شأنهم فامر الوزير أن يبعثهم إلى الحضرة فبعثهم إليها وسجنوا بها فمات طاهر في
السجن فامر (س) أن يضرب شرف الملك مائة مقرعة في كل يوم فبقي على ذلك مدة ثم عفا
عنه وبعث مع الأمير نظام الدين أمير نجلة إلى بلاد جنديري فانتهمت حاله إلى أن كان يركب
البقر ولم يكن له فرس يركبه وأقام على ذلك مدة ثم وفد ذلك الأمير على (س) وهو معه فجعله
(س) شاشنسكيرة (جاشنسكير) وهو الذي يقطع اللحم بين يدي (س) ويمشي مع الطعام
ثم إنه بعد ذلك نوه له ورفع مقداره وانتهت حاله إلى أن مرض فزاره (س) وأمره بوزنه
بالذهب وأعطاه ذلك وقد قدمنا هذه الحكاية في السفر الأول وبعد ذلك زوجه باخته وأعطاه
بلاد جنديري التي كان بها البقر في خدمة الأمير نظام الدين فسبحان مقلب الأرض ومحول
الأحوال

(ذكر خلاف شاه أفغان بأرض السند)

وكان شاه أفغان خائف على السلطان بأرض ملتان من بلاد السند وقتل الأمير بها وكان يسمى
به زاد وادعى السلطنة لنفسه وتجز (س) لقتاله فعلم أنه لا يقاومه فهرب ولحق لقومه
الأفغان وهم ساكنون بجبال منيعة لا يقدر عليها فاغتاز (س) مما فعله وكتب إلى عماله
أن يقبضوا على من وجدوه من الأفغان ببلاده فكان ذلك سببا لخلاف القاضي جلال

(ذكر خلاف القاضي جلال)

وكان القاضي جلال وجماعة من الأفغانيين قاطنين بمقربة من مدينة كنباية ومدينة
بلوذرة فلما كتب (س) إلى عماله بالقبض على الأفغانيين كتب إلى ملك مقبل نائب
الوزير ببلاد الجزرات ونهر والة أن يحتال في القبض على القاضي جلال ومن معه
وكانت بلاد بلوذرة أقطاعا لملك الحكماء وكان ملك الحكماء متزوجا بربيبة السلطان
زوجة أبيه تغلق ولها بنت من تغلق هي التي تزوجها الأمير غدا وملك الحكماء إذ ذاك
في صحبة مقبل لأن بلاده تحت نظره فلما وصلوا إلى بلاد الجزرات أمر مقبل ملك
الحكماء أن يأتي بالقاضي جلال وأصحابه فلما وصل ملك الحكماء إلى بلاده حذرهم في
خفية لأنهم كانوا من أهل بلاده وقال إن مقبلا طلبكم ليقبض عليكم فلا تدخلوا عليه
إلا بالأسلح فركبوا في نحو ثلاثمائة مدرع وأنوه وقالوا لا ندخل إلا جملة فظهر له أنه لا يمكن
القبض عليهم وهم مجتمعون وخاف منهم فامرهم الرجوع وأظهر تأمينهم فخلفوا عليه ودخلوا
مدينة كنباية ونهبوا خزائنه (س) بها وأموال الناس ونهبوا مال ابن السكومي التاجر وهو

الذي عمر المدرسة الحسنة باسكندرية وسند كره لآثر هذا وجاء ملك مقبل لقتالهم فهزموه هزيمة شنيعة وجاء الملك عزيز الخارو والملك جهان بنبل لقتالهم في سبعة آلاف من الفرسان فهزموه أيضا وتسامع بهم أهل الفساد والجرائم فانبثالوا عليهم وادعى القاضي جلال السلطنة وبايعه أصحابه وبعث (س) إليه العساكر فهزمها وكان بدولة أباد جماعة من الأفغان فخالفوا أيضا

(ذكر خلاف ابن الملك مل)

وكان ابن الملك مل ساكنا بدولة أباد في بعض من الأفغان فسكتب (س) إلى نائيه بها وهو نظام الدين أخو معلمه قطلو خان ان يقبض عليهم وبعث إليه بأعمال كثيرة من القيود والسلاسل وبعث بخلع الشتاء وعادة ملك الهند ان يبعث لكل امير على مدينة ولوجوه جنده خلعتين في السنة واحدة للشتاء والثانية للصيف وإذا جاءت الخلع يخرج الامير والجند للقاءها فاذا وصلوا إلى الآتي بها نزلوا عن دوابهم وأخذ كل واحد خلعتة وحملها على كتفه وخدم لجهة (س) وكتب (س) لنظام الدين إذا خرج الأفغان ونزلوا عن دوابهم لأخذ الخلع فاقبض عليهم عند ذلك وأتى الفرسان الذين أوصلوا الخلع إلى الأفغان فاخبرهم بما يراد بهم فكان نظام الدين ممن احتال فانعكست عليه فركب هو والأفغان معه حتى إذا لقوا الخلع ونزل نظام الدين عن فرسه حملوا عليه وأصحابه فقبضوا عليه وقتلوا كثيرا من أصحابه ودخلوا المدينة فاستولوا على الخزان وقدموا على أنفسهم ناصر الدين ابن ملك مل واثال عليهم المفسدون فقويت شوكتهم

(ذكر خروج السلطان بنفسه إلى كنباية)

ولما علم (س) ما فعله الأفغان بكنباية ودولة أباد خرج بنفسه وعزم أن يبدأ بكنباية ثم يعود إلى دولة أباد وبعث أعظم ملك البايدي صهره في أربعة آلاف مقدمة فاستقبله جند القاضي جلال فهزموه وحصلوه وقاتلوه بها وكان في جند القاضي جلال شيخ يسمى جلول وهو أحد الشجعان فلا يزال يفتك في الجند ويقتل ويطلب المبارزة فلا يتجاسر أحد على مبارزته واتفق يوما أنه دفع فرسه فسكبها به في حفرة فسقط عنه وقتل ووجدوا عليه درعين فبعثوا برأسه إلى (س) وحملوا جسده بسور بلو ذرة وبعثوا يديه ورجليه إلى البلاد ثم وصل (س) بجنده فلم يكن للقاضي جلال من ثبات ففر في أصحابه وتركوا أموالهم وأولادهم فذهب ذلك كله ودخلت المدينة وأقام بها (س) أياما ثم رحل عنها وترك بها صهره شرف الملك أمير بخت الذي قدمنا ذكره وقضية فراره واخذه بالسند وسجنه وما جرى له من الذل ثم من العز وأمره بالبحث عن مكان في طاعة

جلال الدين وترك معه الفقهاء ليحكم بأقوالهم فادى ذلك الى قتل الشيخ على الحيدري حسبا قدمناه ولما هرب القاضى جلال لحق بناصر الدين ملك مل بدولة اباد ودخل في جماعته فانى السلطان بنفسه اليهم واجتمعوا في نحو أربعين الفامن الأفغان والترك والهنود والمبيد وتحالفوا على ان لا يفروا وان يقاتلوا (س) وأتى (س) لقتالهم ولم يرفع الشطر الذى هو علامته فلما استبحر القتال رفع الشطر ولما عاينوه دهشوا وانهمزوا أقبح هزيمة ولما ابن ملك مل والقاضى جلال في نحو أربعمائة من خواصهما الى قلعة الدويقيير وبعث لهم ان ينزلوا لحكمه فابوا أن ينزلوا إلا على الأمان فابى (س) ان يؤمنهم وبعث لهم الأطمعة تهاونا بهم وأقام هنالك وهذا آخر عهدى بهم

(ذكر قتال مقبل وابن السكولى)

وكان ذلك قبل خروج القاضى جلال وخلافه وكان تاج الدين السكولى من كبار النجار فنزل على (س) من أرض الترك هدايا جلييلة منها المماليك والجمال والمتاع والسلاح والسياب فاعجب (س) فعله وأعطاه اثني عشر اسكا ويندكر أنه لم تكن قيمة هديته إلا اسكا واحدا وولاه مدينة كنباية وكانت لنظر الملك المقبل نائب الوزير ووصل اليها وبعث السفن الى بلاد الملبجار وجزيرة سيلان وغيرها وجاءته التحف والهدايا في السفن وعظمت حاله ولما لم يبعث أموال تلك الجهات الى الحضرة بعث الملك مقبل الى ابن السكولى ان يبعث ما عنده من الهدايا والأموال مع هدايا تلك الجهات على العادة امتنع ابن السكولى عن ذلك وقال أنا أحملها بنفسى أو أبعثها مع خدامى ولا حكم لنايب الوزير على ولا للوزير واغتر بما أولاه (س) من الكرامة والعطية فكتب مقبل الى الوزير بذلك فوقع له الوزير على ظهر كتابه ان كنت عاجز عن بلادنا فاتركها وارجع اليها

ولما وصله الجواب تجهز في جنده ومماليكه والتقى بظاهر كنباية فانهمز السكولى وقتل جملة من الفر يقين واستخفى ابن السكولى في دار الناخودة (الناخدا) الياس أحد كبار التجار .

ودخل مقبل المدينة فضرب رقاب جهد ابن السكولى وبعث له الأمان نظير أن ياخذ ما له المختص به ويترك مال (س) وهديته ومجى البلد وبعث مقبل بذلك كله مع خدامه الى (س) وكتب شاكيأ من ابن السكولى وكتب ابن السكولى شاكيأ منه وبعث (س) ملك الحكماء ليتنصف بينهما وبأثر ذلك كان خروج القاضى جلال الدين فذهب مال ابن السكولى وهرب ابن السكولى في بعض مماليكه ولحق بالسلطان .

(ذكر الغلاء الواقع بأرض الهند)

وفي مدة غياب السلطان عن حضرته إذ خرج يقصد بلاد المعبر وقع الغلاء واشتد الأمر وانتهى المن إلى ستين درهما ثم زاد على ذلك وضائق الأحوال وعظم الخطب ولقد خرجت مرة إلى لقاء الوزير فرأيت ثلاث نسوة يقطعن قطعاً من جلد فرس مات منذ أشهر وياً كله وكانت الجلود تطبيع وتباع في الأسواق وكان الناس إذا ذبحت البقر أخذوا دماها فأكلوها وحدثني بعض طلبية خراسان أنهم دخلوا بلدة تسمى أكروهة بين حانسي وسرستي فوجدوها خالية فقصدوا بعض المنازل ليبيتوا به فوجدوا في بعض بيوته رجلاً قد أضرم ناراً ويده رجل آدمي وهو يشويها في النار وياً كل منها والعياد بالله ولما اشتد الحال أمر السلطان أن يعطى لجميع أهل دهلي نفقة ستة أشهر فكانت القضاة والكتاب والأمراء يطوفون بالأزقة والحارات ويكتبون الناس ويعطون لكل أحد نفقة ستة أشهر بحساب رطل ونصف من أرطال المغرب في اليوم لكل واحد وكسبت في تلك المدة أطعم الناس من الطعام الذي أصنعه بمقبرة السلطان قطب الدين حسباً يذكر فكان الناس ينتعشون بذلك والله تعالى ينفع بالصدق فيه وإذ قد ذكرنا من أخبار السلاطين وما كان في أيامه من الحوادث ما فيه السكفاية فننعد إلى ما يخصنا من ذلك ونذكر كيفية وصولنا أولاً إلى حضرته وتنقل الحال إلى خروجنا عن الخدمة ثم خروجنا عن السلطان في الرسالة إلى الصين وعودنا منها إلى بلادنا إن شاء الله تعالى

(ذكر وصولنا إلى دار السلطان وعند قدومنا وهو غائب)

ولما دخلنا حضرة دهلي قصدنا باب السلطان ودخلنا الباب الأول ثم الثاني والثالث ووجدنا عليه النقباء وقد تقدم ذكرهم فلما وصلنا إليهم تقدم بنا نقيبهم إلى مشور عظيم متسع فوجدنا به الوزير خواجه جهان ينتظرنا فتقدم ضياء الدين خداوندزاده ثم تلا أخوه قوم الدين ثم أخوهما عماد الدين ثم تلوتهم ثم تلا في أخوهم برهان الدين ثم الأمير مبارك السمرقندي ثم قرن بغا التركي ثم ملك زاده ابن أخت خداوندزاده ثم بدر الدين الفصالح .

ولما دخلنا من الباب الثالث ظهر لنا المشور الكبير المسمى هزاراسظون (استون) ومعنى ذلك الف سارية وبه يجلس السلطان الجلوس العام نخدم الوزير عند ذلك حتى قرب رأسه من الأرض وخدمنا نحن بالركوع وأوصلنا أصابعنا إلى الأرض وخدمتنا لناحية سرير السلطان وخدم جميع من معنا فلما فرغنا من الخدمة صاح النقباء بأصوات عالية بسم الله وخرجنا .

(ذكر وصولنا لدار أم السلطان وذكر فضائلها)

وأم السلطان تدعى المخدومة جهان وهي من أفضل النساء كثيرة الصدقات عمرت زوايا كثيرة وجعلت فيها الطعام للوارد والصادر وهي مكفوفة البصر وسبب ذلك أنه لما ملك ابنها جاء إليها جميع الخواتين وبنات الملوك والأمراء في أحسن زى وهي على سرير المذهب المرصع بالجواهر فتخدمن بين يديها جميعاً فذهب بصرها للحين وعولجب بأنواع العلاج فلا ينفع وولدها أشد الناس برأ بها ومن بره أنها سافرت معه مرة فقدم السلطان قبائها بمدة فلما قدمت خرج لاستقبالها وترجل عن فرسه وقبل رجلها وهي في الحفة يبرأى من الناس أجمعين

ولمعد لما قصدناه فنقول ولما انصرفنا عن دار السلطان خرج الوزير ونحن معه إلى باب الصرف وهم يسمونه باب الحرم وهناك سكنى المخدومة جهان فلما وصلنا بابها نزلنا عن الدواب وكل واحد منا قد أتى بهدية على قدر حاله .

ودخل معنا قاضى قضاة المماليك كمال الدين بن البرهان فخدم الوزير والقاضى عند بابها وخدمنا كخدمتهم وكتب كاتب بابها هدايانا ثم خرج من الفتيان جماعة وتقدم كبارهم إلى الوزير فكلّموه سرا ثم عادوا إلى القصر ثم رجعوا إلى الوزير ثم عادوا إلى القصر ونحن وقوف ثم أمرنا بالجلوس في سقيف هنالك ثم أتوا بالطعام وأتوا بقلال من الذهب يسمونها السين (بضم السين والياء آخر الحروف) وهي مثل القدور ولها مرافع من الذهب تجلس عليها يسمونها السبك (بضم السين وضم الباء الموحدة) وأتوا بأقداح وطسوت وأباريق كلها ذهب وجعلوا الطعام سماطين وعلى كل سباط صنفان ويكون في رأس الصف كبير القوم الواردين .

ولما تقدمنا للطعام خدم الحجاب والنقباء وخدمنا لخدمتهم ثم أتوا بالشربة فشربنا وقال الحجاب بسم الله ثم أكلنا وأتوا بالفقاع والتنبول وقال الحجاب بسم الله فخدمنا جميعاً ثم دعينا إلى موضع هنالك فنخلع علينا حلل الحرير المذهبة وأتوا بنا إلى باب القصر تحت ثياب غير مخيطة من حرير وكتان فأعطى كل واحد منا نصيبه منها ثم أتوا بطيفور ذهب فيه الفاكهة اليابسة ويطيفور مثله فيه الجلاب ويطيفور ثالث فيه التنبول ومن عادتهم أن الذى يخرج له ذلك يأخذ الطيفور بيده ويجعله على كاهله ويخدمه بيده الثانية إلى الأرض فأخذ الوزير الطيفور بيده قصد أن يعاينى كيف أفعل ليناسأ منه وتواضعاً ومبرة جزاه الله الخير ففعلت كما فعل وانصرفنا إلى الدار المعدة لنزولنا بمدينة دهلي وبمقربة من داروازة بالم منها وبعث لنا الضيافة ،

(ذكر الضيافة)

ولما وصلت إلى الدار التي أعدت لنزولي وجدت فيها ما يحتاج اليه من فرش وبسط وحصر وأوان وسرير الرقاد وأسرتهم بالهند خفيفة الحمل يحمل السرير منها الرجل الواحد ولا بد لكل أحد أن يستصحب السرير في السفر يحمله غلامه على رأسه وهو أربع قوائم مخرطة يعرض عليها أربعة أعواد وتنسج عليها صفائر من الحرير والقطن فاذا نام الانسان عليه لم يحتاج إلى ما يربطه به لأنه يعطى الرطوبة من ذاته وجاءوا مع السرير بمضربين ومخدتين ولحاف كل ذلك من الحرير وعادتهم أن يجعلوا للمضربات واللحوف (اللحف) وجوها تغشيها من كتان أو قطن بيضاء فتى توضع تحت غسلوا الوجوه المذكورة وبقي ما في داخلها مصونا وأتوا تلك الليلة برجلين أحدهما الطاحوني ويسمونه الخراص والثاني الجزار ويسمونه القصاب فقالوا لناخذوا من هذا كذا وكذا من الدقيق ومن هذا كذا وكذا من اللحم لا وزن لا أذكرها الآن وعادتهم أن يكون اللحم الذي يعطون بقدر وزن الدقيق وهذا الذي ذكرناه ضيافة أم السلطان وبعدها وصلتنا ضيافة السلطان وسند كرها ولما كان من غير ذلك اليوم ركبنا إلى دار السلطان وسلمنا على الوزير فأعطاني بدرتين كل بدرة من ألف دينار دراهم وقال لي هذه سر ششتي (ششتي) ومعناه لغسل رأسك وأعطاني خلعاً من المرعز وكتب جميع أصحابي وخدامي وغلماني فجعلوا أربعة أصناف فالصنف الأول منها أعطى كل واحد منها مائتي دينار والصنف الثاني أعطى كل واحد منهم مائة وخمسين ديناراً والصنف الثالث أعطى كل واحد مائة دينار والصنف الرابع أعطى كل واحد خمسة وسبعين ديناراً وكانوا نحو أربعين وكان جملة ما أعطوه أربعة آلاف دينار ونيفاً وبعد ذلك عينت ضيافة السلطان وهي ألف رطل هندية من الدقيق ثلثها من الميرا وهو الدرملك وثلثها من الخشكار وهو المدهون وألف رطل من اللحم ومن السكر والسمن والسليق والفوقل أرطال كثيرة لا أذكر عددها والألف من ورق التنبول والرطل الهندي عشرون رطلاً من أرطال المغرب وخمسة وعشرون من أرطال مصر وكانت ضيافة خدوا نذاده أربعة آلاف رطل من الدقيق ومثلها من اللحم مع ما يناسبها بما ذكرناه .

(ذكر وفاة بنتي وما فعلوا في ذلك)

ولما كان بعد شهر ونصف من مقدمنا توفيت بنتي سنه دون السنة فاتصل خبر وفاتها بالوزير فأمر أن تدفن في زاوية بناها خارج دروازة بالم بقرب مقبرة هنالك لشيخنا إبراهيم القونوي فدفناها بها وكتب بخبرها إلى السلطان فأتاه الجواب في عشي اليوم الثاني وكان بين متصيد السلطان وبين الحضرة مسيرة عشرة أيام وعادتهم أن يخرجوا إلى قبر الميت

صبيحة الثالث من دفته ويفرشون جوانب القبر بالبسط وثياب الحرير ويجعلون على القبر الأزاهير وهي لا تنقطع هنالك في فصل من الفصول كالياسمين وقل شبهه (كل شبهو) وهي زهر أصفر وريبول وهو أبيض والنسرين وهو على صنفين أبيض وأصفر ويجعلون أغصان النارج والليمون بثارها وإن لم يكن فيها ثمار علقوا منها حبات بالخيط ويصبون على القبر الفواكه اليابسة وجوز النارجيل ويجتمع الناس ويؤتى بالمصاحف فيقرؤن القرآن فاذا ختموه أتوا بماء الجلاب فسقوه الناس ثم يصب عليهم ماء الورد صبا ويعطون التنبول وينصرفون .

ولما كان صبيحة الثالث من دفن هذه البنت خرجت الصبح على العادة وأعدت ما تيسر من ذلك كله فوجدت الوزير قد أمر بترتيب ذلك وأمر بسراجة فضربت على القبر وجاء الحاجب شمس الدين الفوشنجى الذى تلقانا بالسند والقاضى نظام الدين السكروانى وجملة من كبار أهل المدينة ولم أت إلا والقوم المذكورون وقد أخذوا بحالهم والحاجب بين أيديهم وهم يقرؤن القرآن فقمعدب مع أصحابي بمقربة من القبر فلما فرغوا من القراءة قرأ القراء بأصوات حسان ثم قام القاضى فقرأ رثاء فى البنت المتوفاة وثناء على السلطان وعند ذكر اسمه قام الناس جميعاً قياماً نخدموا ثم جلسوا ودعا القاضى دعاء حسناً ثم أخذ الحاجب وأصحابه براميل ماء الورد وصبوا على الناس ثم داروا عليهم بأقداح شربة الثبات ثم فرقوا عليهم التنبول ثم أتى باحدى عشرة خلعة لى ولأصحابي ثم ركب الحاجب وركبنا معه إلى دار السلطان فخدمنا للسريى على العادة وانصرفت إلى منزلى فما وصلت إلا وقد جاء الطعام من دار المخدمه جهان ماملا الدار ودور أصحابي وأكلوا جميعاً وأكل المساكين وفضلت الأقراص والحلواء والنبات فأقامت بقاياها أياماً وكان فعل ذلك كله بأمر السلطان وبعد أيام جاء الفتيان من دار المخدمه جهان بالدولة وهي المحمة التى يحمل فيها النساء ويركها الرجال وهي شبه السريى سطحها من صفائر الحرير أو القطن وعليها عود شبه الذى على البوجات عندنا معوج من القصب الهندى المغلوق ويحملها ثمانية رجال فى نوبتين تستريح أربعة ويحمل أربعة وهذه الدل كالخير بديار مصر عليها يتصرف أكثر الناس فمن كان له عبيد حملوه ومن لم يكن عبيد أكثرى رجالاً يحملونه وبالبلد منهم جماعة يسيرة يقفون فى الأسواق وعند باب السلطان وعند أبواب الناس للكرى وتسكون دول النساء مغطاة بغشاة حرير وكذلك كانت هذه الدولة التى أتى الفتيان بها من دار أم السلطان فحملوا فيها جاريتى هى أم البنت المتوفاة وبعثت أنا معها عن هدية جارية تركية فأقامت الجارية أم البنت عندهم ليلة وجاءت فى اليوم الثانى وقد أعطوها ألف دينار دراهم وأساور ذهب مرصعة وتهليلا من الذهب مرصعا وقيص

كتان مزركشا بالذهب وخلاعة حرير مذهبة وتختا بأثواب ولما جاءت بذلك أعطيت
لأصحابي وللتجار الذين لهم على الدين محافظة على نفسى وصونا لعرضى لأن المخبرين
يكتبون إلى السلطان بجميع أحوالى .

(ذكر إحسان السلطان والوزير فى أيام غيبة السلطان عن الحضرة)

وفى أثناء إقامتى أمر السلطان أن يعين لى من القرى ما يكون فائدة خمسة آلاف دينار
فى السنة فعيّن بها إلى الوزير وأهل الديوان وخرجت إليها ففها قرية تسمى بدلى (بفتح الباء
الموحدة وفتح الدال المهملة وكسر اللام) وقرية تسمى بسمى (بفتح الباء الموحدة والسين
المهملة وكسر الهاء) ونصف قرية تسمى بالمره (بفتح الباء الموحدة واللام والراء) وهذه
القرى على مسافة ستة عشر كروها وهو الميل بصدى يعرف بصدى هندبت والصدى
عندهم مجموع مائة قرية من قرى بلاد الهند واحواز المدينة مقسومة اصداء وكل
صدى له جوطرى وهو شيخ من كفار تلك البلاد ومتصرف وهو الذى يضم بجانيها
وكان قد وصل فى ذلك الوقت سبي من الكفار فيبعث الوزير إلى عشر جوار منه فأعطيت
الذى جاء بهن واحدة منهن فما رضى بذلك وأخذ أصحابي ثلاثا صغاراً منهن وباقيهن
لا اعرف ما اتفق لهن والسبي هنالك رخيص الثمن لأنهن قذرات لا يعرفن مصالح
الحضر والمعاملات رخيصات الأثمان فلا يفتقر أحد إلى شراء السبي والكفار ببلاد
الهند فى بر متصل وبلاد متصلة مع المسلمين والمسلمون غالبون عليهم وإنما يمتنع الكفار
بالجبال والأوعار ولهم غيضات من القصب وقصبهم غير مخوف ويعظم ويلتف
بعضها على بعض ولا تؤثر فيه النار وله قوة عظيمة فيسكنون تلك الغياض وهى لهم
مثل السور وبداخلها تسكون مواشهم وزروعهم ولهم فيها المياه مما يجتمع من ماء
المطر فلا يقدر عاينهم إلا بالعساكر القوية من الرجال الذين يدخلون تلك الغياض
ويقطعون تلك القصب بآلات معدة لذلك .

(ذكر العيد الذى شهدته أيام غيبة السلطان)

وأظل عيد الفطر والسلطان لم يعد بعد إلى الحضرة فلما كان يوم ركب الخطيب على
الفيل وقدمه له على ظهره شبه السرير وركزت أربعة أعلام أركانه الأربعة ولبس
الخطيب ثياب السواد وركب المؤذنون على الفيلة يكبرون أمامه وفقهه المدينة
وقضاتها وكل واحد منهم يستصحب صدقة يتصدق بها حين الخروج إلى المصلى ونصب على
المصلى صيوان قطن وفرش ببسط واجتمع الناس ذاكرين لله تعالى ثم صلى بهم الخطيب

وخطب وانصرف الناس إلى منازلهم وانصرفنا إلى دار السلطان وجعل الطعام فخره
الملوك والامراء والأعزة وهم الغرباء وأكلوا وانصرفوا .

﴿ ذكر قدوم السلطان ولقائنا له ﴾

ولما كان في رابع شوال نزل السلطان بقصر اسمه تلبت (بكسر التاء المعلومة الاولى
وسكون اللام وفتح الباء الموحدة ثم تاء كالأولى) وهي على مسافة سبعة أميال من الحضرة
فأمرنا الوزير بالخروج إليه فخرجنا ومع كل إنسان هديته من الخيل والجمال والفواكه
الخرسانية والسيوف المصرية والماليك والغنم المجلوبة من بلاد الأتراك فوصلنا إلى باب
القصر واجتمع جميع القادة فكانوا يدخلون إلى السلطان على قدر مراتبهم ويخلع عليهم
ثياب السكتان المزركشة بالذهب، ولما وصلت إلى النوبة دخلت فوجدته قاعدا على كرسي
قظنته أحد الحجاب حتى رأيت معه ملك الندماء ناصر الدين الكافي الهروي وكنت
عرفته أيام غيبة السلطان فقدم الحاجب فخدمت واستقبلني أمير حاجب وهو ابن عم
السلطان فيروز وخدمت ثانية لخدمته ثم قال لي ملك الندماء بسم الله مولانا بدر الدين
وكانوا يدعوني بأرض الهند بدر الدين وكل من كان من أهل الطلب إنما يقال له
مولانا فقربت من السلطان حتى أخذ بيدي وصافني وأمسك يدي وجعل يخاطبني بأحسن
خطاب ويقول لي بالفارسي حلت البركة قدومك مبارك اجمع خاطرك اعمل معك من
المراحم وأعطيك من الأنعام ما يسمع به أهل بلادك فيأتون اليك ثم سألتني عن بلادي
فقلت له بلاد المغرب فقال لي بلاد عبد المؤمن فقلت له نعم وكان كلما قال لي كلاما جيدا
قبلت يده حتى قبلتها سبع مرات وخلع علي وانصرف واجتمع الواردون فدخلهم سماط
ووقف على رؤوسهم قاضي القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمي وكان من كبار
الفقهاء وقاضي قضاة الماليك صدر الجهان كمال الدين الغزنوي وعماد الملك عرض الماليك
والملك جلال الدين السكيجي وجماعة من الحجاب والامراء وحضر لذلك خداه وندزاده
غياث الدين بن عم خداه وندزاده قوام الدين قاضي الترمذ الذي قدم معنا وكان السلطان
يعظمه ويخاطبه بالآخ وتردد إليه مرارا من بلاده والواردون الذين خلع عليهم في ذلك
هم خداه وندزاده قوام الدين واخوته ضياء الدين وعماد الدين وبرهان الدين وابن أخيه
أمير بخت ابن السيد تاج الدين وكان جده وجيه الدين وزير خراسان وكان خاله علاء الدين
أمير هند ووزيرا أيضا والأمير هبة الله ابن الفلكي التبريزي وكان أبوه نائب الوزير
بأعراق وهو الذي بنى المدرسة الفلاسكية بتبريز وملك كراي من أولاد بهرام جور
(جوبين) صاحب كسرى وهو من أهل جبل بدخشان الذي منه يجلب الياقوت البلخشي

واللازورد والامير مبارك شاه السمرقندى وأرون بغا البخارى ومملك زاده الترمذى وشهاب الدين الكازرونى التاجر الذى قدم تبريز بالهدية إلى السلطان فسلب فى طريقه .

(ذكر دخول السلطان إلى حضرته وما أمر لنا به من المراكب)

وفى الغد من يوم خروجنا إلى السلطان أعطى كل واحدنا فرسا من مراكب السلطان عليه سرج ولجام محليان وركب السلطان لدخول حضرته وركبنا فى مقدمته مع صدرالجهان وزينت الفيلة أمام السلطان وجعلت عليها الأعلام ورفعت عليها ستة عشر شطرا منها مزركشة ومنها مرصعة فوق رأسه شطرا منها وحملت أمامه الغاشية وهى ستارة مرصعة وجعل على بعض الفيلة رعادات صفار فلما وصل السلطان إلى قرب المدينة قذف فى تلك الرعادات بالدنانير والدرهم مختلطة بين يدي السلطان وسواهم ممن حضر يلتقطون ذلك ولم يزلوا يثرونها إلى أن وصلوا القصر وكان بين يديه آلاف من المشاة على الأقدام وصنعت قباب الخشب المكسوة بثياب الحرير وفيها المغنيات حسبما ذكرنا ذلك .

(ذكر دخولنا إليه وما أنعم به من الإحسان والولاية)

ولما كان يوم الجمعة ثانى يوم دخول السلطان أتينا باب المشورة فجلسنا فى سقائف الباب الثالث ولم يكن الإذن حصل لنا بالدخول وخرج الحاجب شمس الدين العوشنجى فأمر الكتاب أن يكتبوا أسماؤنا وأذن لهم فى دخولنا ودخول بعض أصحابنا وعين للدخول معى ثمانية فدخلنا ودخلوا معنا ثم جاؤا بالبدر والقبان وهو الميزان وقعد قاضى القضاة والكتاب ودعوا من الباب من الأعززة وهم الغرباء فعميتوا اسكل نصيبه من تلك البدر فحصل لى خمسة آلاف دينار وكان مبلغ المال مائة ألف دينار تصدقت به أم السلطان لما قدم ابنها وانصرفنا ذلك اليوم وكان (س) بعد ذلك يستدعينا للطعام بين يديه ويسأل عن أحوالنا ويخاطبنا بأجل الكلام ولقد قال لنا فى بعض الأيام انتم شرفتمونا بقدمكم فما نقدر على مكافأتكم فالكبير منكم مقام والدى والكل منكم مقام أخى والصغير مقام وادى وما فى ملكى أعظم من مدينتى هذه أعطيكم إياها فشكرناه ودعونا له .

ثم بعد ذلك أمر لنا بالمرتبات فعين لى اثنى عشر ألف دينار فى السنة وزادنى قريتين على الثلاث التى أمر لى بها قبل لحداهما قرية جوز والثانية قرية ملك بور فى بعض الأيام بعث لنا خذاوندزاده وغياث الدين وقطب الملك صاحب السند فقالا لنا ان خوند عالم يقول لكم من كان منكم يصلح للوزارة أو الكتابة أو الامارة أو القضاء أو التدريس أو المشيخة أعطيته ذلك فسكت الجميع لأنهم كانوا يريدون

تحويل الاموال والانصراف إلى بلادهم وتكلم أمير بخت ابن السيد تاج الدين الذي تقدم ذكره فقال أما الوزارة فيراثي وأما الكتابة فشغلي وغير ذلك لا أعرفه وتكلم هبة الله بن الفلسكي فقال مثل ذلك وقال لي خداوندزاده بالعربي ما تقول أنت. ياسيدي وأهل تلك البلاد ما يدعون العربي إلا بالتسويد وبذلك يخاطبه (س) تعظيما للعرب فقلت له أما الوزارة والكتابة فليست شغلي وأما القضاء والمشيشة فشغلي وشغل آبائي وأما الاماره فتعلمون أن الأعاجم ما سلمت إلا بأسياف العرب فلما بلغ ذلك (س) أعجبه كلامي وكان بهزار اسطون يأكل الطعام فبعث عنافا كلنا بين يديه وهو يأكل ثم انصرفنا إلى خارج هزار اسطون فقعد أصحابي وانصرفت بسبب دمل كان يمتعني الجلوس فاستدعانا (س) ثانية فحضر أصحابي واعتذروا له عني بعد صلاة العصر فصليت بالمشور المغرب والعشاء الآخرة ثم خرج الحاجب فاستدعانا فدخل خداوندزاده ضياء الدين وهو أكبر الاخوة المدكورين فجعله (س) أميرداد وهو من الامراء الكبار فجلس بمجلس القاضي فن كان له حق على أميراو كبير حضره بين يديه وجعل مرتبه على هذه الخطة خمسين ألف دينار في السنة عين له مجاشر فائدها ذلك المقدار فأمر له بمحسمين الفاعن يدوخلع عليه خلعة حرير مزركشة تسمى صورة الشير ومعناه صورة السبع لانه يكون في صدرها وظهرها صورة سبع وقد خيط في باطن الخلعة بطاقة بمقدار مازركش فيها من الذهب وأمر له بفرس من الجنس الاول والخيل عندهم أربعة أجناس وسروجهم كسروج أهل مصر ويكسون أعظمها بالفضة المذهبة ثم دخل أمير بخت فأمره أن يخلص مع الوزير في مشده ويقف على محاسبات الدواوين وعين له مرتبا أربعين ألف دينار في السنة أعطى مجاشر فائدها بمقدار ذلك وأعطى أربعين ألفا عن يدو أعطى فرسا بمحز اوخلع عليه كخلعة الذي قبله ولقب شرف الملك

ثم دخل هبة الله ابن الفلسكي فجعله رسول دار ومعناه حاجب الارسال وعين له مرتبا أربعين ألف دينار في السنة أعطى مجاشر يكون فائدها بمقدار ذلك وأعطى أربعة وعشرين الفاعن يدو أعطى فرسا بمحز اوخلع وجعل لقبه بهاء الملك ثم دخلت فوجدت (س) على سطح القصر مستندا إلى السرير والوزير خواجه جهان بين يديه والملك الكبير قبولة واقف بين يديه فلما سلمت عليه قال لي الملك الكبير انخدم فقد جعلك خوند عالم قاضي دار الملك دهلي وجعل مرتبك اثني عشر ألف دينار في السنة وعين لك مجاشر بمقدارها وأمر لك باثني عشر ألفا نقدا تأخذها من الخزانة غدا إن شاء الله واعطاك فرسا بسرجه ولجامه وأمر لك بخلعة محار بين وهي التي يكون في صدرها وظهرها شكل محراب فخدت (٦ - رحلة - ثاني)

وأخذ بيدي فتقدم بي إلى (س) فقال لي (س) لا تحسب قضاء دهلي من أصغر الأشغال هو أكبر الأشغال عندنا وكنت أفهم قوله ولا أحسن الجواب عنه وكان (س) يفهم العربي ولا يحسن الجواب عنه فقلت له يا مولانا أنا على مذهب مالك وهو لاء حنفية وأنا لا أعرف انسان فقال لي قد عينت بهاء الدين الملتاني وكمال الدين البخنوري ينوبان عنك ويشاورانك وتكون أنت تسجل على المقود وأنت عندنا بمقام الولد فقلت له بل عبدكم وخدمكم فقال لي باللسان العربي بل أنت سيدنا ونخدمنا تواضعا منه وفضلا وإيناسا ثم قال لشرف الملك أمير بخت إن كان الذي ترتب له لا يكفييه لأنه كثير الانفاق فإنا أعطيته زاوية إن قدر على إقامة حال المقرء. وقال قل له هذا بالعربي وكان يظن أنه يحسن العربي ولم يكن كذلك وفهم (س) ذلك فقال له بروويكجا بخصبي (بخصبي) وإن حكاية براو بكوي وتفهم كني (بكني) تافر ادا إن شاء الله ييش من بياني (و) جواب او بكري (بكوي) معناه امنوا الليلة فارقدوا موضع واحد وفهمه هذه الحكاية فاذا كان بالغدان شاء الله تجي إلى وتعلمي بكلامه فانصرفنا وذلك في ثلث الليل وقد ضربت النوبة والعادة عندهم اذا ضربت لا يخرج أحدا فتظرنا الوزير حتى خرج وخرجنا معه ووجدنا أبواب دهلي مسدودة فبتنا عند السيد أبي الحسن العبادي العراقي بزقاق يعرف بسر ابورخان وكان هذا الشيخ يتجر بمال (س) ويشترى له الاسلحة والامتعة بالعراق وخراسان ولما كان بالغد بعث عنا فقبضنا الاموال والخيل والخلع وأخذ كل واحد منا البكرة بالمال فجعلها على كاهله ودخلنا كذلك على (س) فخدمنا واتينا بالافراس فقبلنا حوافرها بعدان جمعنا عليها الخرق وقدناها بأنفسنا إلى باب دار (س) فركبتها وذلك كله عادة عندهم ثم انصرفنا وأمر (س) لأصحابه بألفي دينار وعشر خلع ولم يعط لأصحابي أحد سواي شيئا وكان أصحابي لهم رواء ومنظر فاعجبوا (س) وخدموا بين يديه وشكروهم

(ذكر عطاء ثان أمر لي به وتوقفه مدة)

وكنت يوما بالمشور بعد أيام من توليتي القضاء والاحسان إلى وأنا قاعد تحت شجرة هنالك وإلى جانبي مولانا ناصر الدين الترمذي العالم الواعظ. فأتني بعض الحجاب فدعى مولانا ناصر الدين فدخل إلى السلطان فخلع عليه وأعطاه مصحفا مكالاً بالجواهر ثم أتاني بعض الحجاب فقال اعطني شيئا وأخذ لك خط خرد باثني عشر ألفا أمر لك بها خوند عالم فلم اصدقه وظننته يريد الحيلة علي وهو يجد في كلامه فقال بعض الاصحاب انا اعطيه فاعطاه دينارين او ثلاثة وجاء بخط خرد ومعناه الخط الاصغر مكتوبا بتعريف الحاجب ومعناه امر خوند عالم ان

يعطى من الخزانة الموفورة كذا لفلان بقبليغ فلان أى بتعريفه ويكتب المبلغ اسمه ثم يكتب على تلك البراء ثلاثة من الأمراء وهم الخان الأعظم قطلو خان معلم (س) والخريطة دارو هو صاحب خريطة الكاغد والأقلام والأمير تكيبة الدوادار صاحب الدوات فإذا كتب كل واحد منهم خطه يذهب البراءة إلى ديوان الوزارة فينسخها كتاب الديوان عندهم ثم تثبت في ديوان الأشراف ثم تثبت في ديوان النظر ثم تكتب البراءة وهي الحكيم من الوزير للخازن بالعطاء ثم تثبتها الخازن في ديوانه ويكتب تلخيصا في كل يوما بمبلغ ما أمر به (س) ذلك اليوم من المال ويعرضه عليه فمن أراد التعميل بعطائه أمر بتعجيله ومن أراد التوقيف وقف له ولا يمكن لأحد من عطاء ذلك ولو طال المدة فقد توقفت هذه الأثنا عشر الماسة أشهر ثم أخذتها مخ غير حاجتها بآتي وعادتهم إذا امر (س) بإحسان لأحد بخط منه العشرة فمن أمر له مثلاً بمائة ألف أعطى تسعين ألفاً وب عشرة آلاف أعطى تسعة آلاف

(ذكر طالب الغرماء ما لهم قبلى ومدحى للسلطان وأمره بخلاص ديني وتوقف ذلك مدة)
وكنيت حسبا ذكرته قد استدلت من التجار مالا أنفقته في طريقى وما صنعت به الهدية
(س) وما أنفقته في إقامتى فلما أرادوا السفر إلى بلادهم الحواعلى في طالب ديونهم فمدحت
السلطان بقصيدة طويلة أولها
(طويل)

اليك أمير المؤمنين المبهجلا / اتينا نجد السير نحوك في العلا
فجئت محلا من علائك زائرا / ومغناك كهف للزيارة أهلا
فلوان فوق الشمس المجد رتبة / كنيت لأعلاها إماما مؤهلا
فانت الامام الماجد الاوحد الذى / سجاياه حتما ان يقول ويفعل
ولى حاجة من فيض جودك ارتجى / قضاها وقصدي عند مجدك سهلا
الذكرها ام قد كفانى حياؤكم / فان حياكم ذكره كان اجلا
فعجل لمن وائ محلك زائرا / قضا دينه ان الغريم تعجلا

فقدمتا بين يديه وهو قاعد على كرسي فجعلها على ركبته وامسك طرفها بيده وطرفها
الثانى بيدي وكنيت إذا اكملت بيتا منها لقاضى القضاة كال الدين الغزنوى بين معناه
لخوند عالم فيبنيه ويعجب (س) وهم يحبون الشعر العربى داما بلغت إلى قولى فعجل لمن
وافى البيت قال مرحمة ومغناه ترحمت عليك فاخذ الحجاب حينئذ بيدي لينذهبوا إلى
موقفهم واخدم على العادة فقال (س) اتركوه حتى يكملها فأكملها وخدمت وهناني
الناس بذلك واقمت مدة وكتبت رفعا وهم يسمونه غرض داشت فدفعته إلى قطب الملك

صاحب السند فدفعه للسلطان فقال له امض إلى خواجه جهان فقل له يعطى دينه فمضى إليه وأعلمه فقال نعم وأبطأ ذلك أياما وأمره (س) في خلالها بالسفر إلى دولة آباد وفي أثناء ذلك خرج (س) إلى الصيد وسافر الوزير فلم آخذ شيئا منها إلا بعد مدة والسبب الذي توقف به عطاؤها ذكره مستوفى وهو أنه لما عزم الذين كان لهم على الدين إلى السفر قلت لهم إذا أنا أتيت دار (س) فدر هربى على العادة في تلك البلاد لعلى ان (س) متى يعلم بذلك خلصهم وعادتهم أنه متى كان لأحد دين على رجل من ذوى العناية واعوزه خلاصه ووقف له بباب دار (س) فإذا أراد الدخول قال له دروهى وحق راس السلطان ما تدخل حتى تخلصنى فلا يمكنه ان يبرح من مكانه حتى يخلصه او يرغب اليه في تأخيره فاتفق يوما ان خرج (س) إلى زيارة قبر ابيه ونزل بقصر هنالك فقلت لهم هذا وقتكم فلما اردت الدخول وقفوا لى بباب القصر فقالوا لى دروهى (س) ما تدخل حتى تخلصنا وكتب كتاب الباب بذلك الى (س) فخرج حاجب قصة شمس الدين وكان من كبار الفقهاء فسألهم لى شيء درهمتموه فقالوا لنا عليه الدين فرجع الى (س) فاعلمه بذلك فقال له اسألهم كم مبلغ الدين فقالوا له خمسة وخمسون الف دينار فعاد اليه فاعلمه فأمره ان يعود اليهم ويقول لهم ان خوند عالم يقول لكم المال عندى وانا أنصفكم منه فلا تطلبوه به وأمر عماد الدين السمنانى وخداوندزاده غياث الدين ان يقعدوا بهزار اسطون ويأتى اهل الدين بعقودهم وينظروا اليها ويتحققوها ففعلا ذلك واتى الغرماء بعقودهم فدخل الى (س) وأعلماه بشيوت العقود فضحك وقال بما زحاً أنا أعلم أنه فاض جهاز شغله فيها ثم امر خداونداه ان يعطينى ذلك من الخزانة قطع فى الرشوة على ذلك وامتنع ان يكتب خط خرد فبعثت اليه مائتى تنكة فردها ولم ياخذها وقال لى عنه بعض خدامه أنه طلب خمسمائة تنكة فامتنعت من ذلك واعلمت عميد الملك بن عماد الدين السمنانى بذلك فأعلم به اباه وعلمه الوزير وكانت بينه وبين خداوندزاده عداوة فأعلم (س) بذلك وذكر له كثير من افعال خداوندزاده فغير خاطر (س) عليه فأمر بحبسها فى المدينة وقال لى شيء اعطاه فلان ما اعطاه ووقفوا ذلك حتى يعلم هل يعطى خداوندزاده شيئا اذا منعه او يمنعه إذا أعطيته فبهذا السبب توقف عطاء دينى

(ذكر خرج السلطان إلى الصيد وخروجى معه وما صنعت فى ذلك)

ولما خرج (س) إلى الصيد خرجت معه من غير تر بص وكنت قد أعددت ما يحتاج اليه وعملت ترتيب اهل الهند فاشتريت سراجه وهى افراج وضر بها هنالك مباح ولا بد منها السكبار

الناس وتمتاز سراجة السلطان بكونها حمراء وسواها بيضاء منقوشة بالأزرق واشترت الصيوان وهو الذى يظل به داخل السراجة ويرفع على عمودين كبيرين ويجعل ذلك الرجال على أعناقهم ويقال لهم اليكوانية والعادة هنالك أن يكثرى المسافر اليكوانية وقد ذكرناهم ويكثرى من يسوق له العشب لعصف الدواب لانهم لا يطعمونها التبن ويكثرى الكهارين وهم الذين يحملون أواني المطبخ ويكثرى من يحمله الدولة وقد ذكرناها ويحملها فارغة ويكثرى الفراشين وهم الذين يضربون السراجة ويفرشونها ويرفعون الاحمال على الجبال ويكثرى الدوادية وهم الذين يمشون بين يديه ويحملون المشاعل بالليل فاكثريت أنا جميع من له منهم وأظهرت القوة والهمة وخرجت يوم خروج (س) وغيرى أقام بعده اليومين والثلاثة فلما كان بعد العصر من يوم خروجه ركب الفيل وقصده أن يتطلع على أحوال الناس ويعرف من تسارع إلى الخروج ومن أبطأ وجلس خارج السراجة على كرسى الخشت وسلمت ووقفت في موقفى بالميمنة فبعث إلى الملك الكبير قبولة سرجا مدار وهو الذى يشرد الذباب عنه فأمرنى بالجلوس عناية بي ولم يجلس فى ذلك اليوم سوائى ثم أتى بالفيل وألصق به سلم فركب عليه ورفع شطرف فوق رأسه وركب معه الخواص وجال ساعة ثم عاد إلى السراجة وعادته إذا ركب أن يركب الأمراء أفواجا كل أمير بفوجه وعلاماته وطبوله وأنفاره وصرنياته ويسمون ذلك المركب أمام (س) إلا الحجاب وأهل الطرق والطبالة الذين يتقلدون الأبطال الصغار والذين يضربون الصرنيات ويكون عن يمين (س) نحو خمسة عشر رجلا وعن يساره مثل ذلك قضاة القضاة والوزير وبعض الأمراء الكبار وبعض الأعزة وكنت أنا من أهل ميمنته ويكون بين يديه المشاؤون والأدلاء ويكون خلفه علاماته وهى من الحرير المذهب والأطبال على الجبال وخلف ذلك مما ليك وأهل دخنته وخلفهم الأمراء وجميع الناس ولا يعلم أحد أين يكون النزول فإذا أمر (س) بمكان يعجبه النزول به أمر بالنزول ولا تضرب سراجته ثم يأتى الموكلون بالنزول فينزلون كل أحد فى منزله خلال ذلك ينزل (س) على نهر أو بين أشجار وتقدم بين يديه لحوم الأعناب والدجاج المسمنة والكراكي وغيرها من أنواع الصيد ويحضر أبناء الملوك فى يد كل واحد منهم سفود ويوقدون النار ويشترى ذلك ويؤتى بسراجة صغيرة فتضرب للسلطان ويجلس من معه من الخواص خارجها ويؤتى بالطعام ويستدعى من شاء فيأكل معه وكان فى بعض تلك الأيام وهو بداخل السراجة يسأل عن بخارجها فقال له السيد ناصر الدين مظهر الأهرى احد ندمائه ثم قلان المغربى وهو متغير فقال لماذا فقال

بسبب الدين الذى عليه وغرمائه يلجئون فى الطلب وكان خوند عالم قد أمر الوزير بإعطائه فسافر قبل ذلك فإن مولانا أن يصبر أهل الدين حتى يقدم الوزير أو أمر بانصافهم وحضر لهذا الملك دولة شاه وكان (س) يخاطبه باسم فقال ياخوند عالم كل يوم وهو يكلمنى بالعربية ولا أدرى مايقول ياسيدى ناصر الدين ماذا وقصد أن يكرر ذلك الكلام فقال يتكلم لاجل الدين الذى عليه فقال (س) إذا دخلنا دار الملك فامض أنت يا أومار ومعناه يا عم إلى الخزانة فاعطه ذلك المال وكان خنداوند زاده حاضرا فقال ياخوند عالم أنه كثير الاتفاق وقد رأيت به بلادنا عند السلطان طر مشيرين وبعد هذا الكلام استحضرنى (س) للطعام ولا علم عندى بما جرى فلما خرجت قال لى السيد ناصر الدين أشكر للملك دولة شاه وقال لى الملك دولة شاه أشكر لخدواند زاده وفى بعض تلك الأيام ونحن مع (س) فى الصيد وركب فى المحلة وكان طريقه على منزلى وأنا معه فى الميمنة وأصحابى فى الساقة وكان لى خبءا عند السراجة فوقف أصحابى عندها وسلموا على (س) فبعث عماد الملك ملك دولة شاه ليسألا من تلك الأخبية والسراجة فقييل لهما افلان فأخبراه بذلك فتبسما فلما كان بالغد نفذ الأمر أن أعود أنا وناصر الدين مطهر الأوهري وابن قاضى مصر وملك صبيح إلى البلد فخلع علينا وعدنا إلى الحضرة .

(ذكر الجمل الذى أهديته للسلطان)

وكان (س) فى تلك الأيام سأتى عن الملك الناصر هل يركب الجمل فقلت نعم يركب المهارى فى أيام الحج فيسير إلى مكة من مصر فى عشرة أيام واسكن تلك الجمال ليست كجمال هذه البلاد وأخبرته أن عندى جملا منها فلما عدت إلى الحضرة بعثت عن بعض عرب مصر فصور لى صورة الكور الذى تركب المهارى به من القير وأريتها بعض التجارين فعمل الكور وتفقنه وكسوته بالملف وصنعت له اكبار وجعلت على الجمل عباءة حسنة وجعلت له خطام حرير وكان عندى رجل من أهل اليمن يحسن عمل الحلواء فصنع منها ما يشبه التمر وغيره وبعثت الجمل والحلواء إلى (س) وأمرت الذى حملها أن يدفعها على يد ملك دولة شاه وبعثت له بفرس وجمالين فلما وصله ذلك على (س) وقال ياخوند عالم رأيت العجب قال وما ذلك قال فلان بعث جملا عليه سرج فقال أتتوا به فادخل الجمل داخل السراجة وأعجب به (س) وقال لى اركبه فركبه ومشاه بين يديه وأمر له بمائتى دينار دراهم وخلعه وعاد الرجل إلى فأعلمنى فسررنى ذلك وأهديت له جمالين بمسدد عودته إلى الحضرة .

(ذكر الجمالين اللذين أهديتهما إليه والحلواء وأمره بخلاص ديني وما تعلق بذلك)

ولما عاد إلى راجلي الذي بعثته بالجمال فأخبرني بما كان من شأنه صنعت كورين اثنين وجعلت
مقدم كل واحد ومؤخره مكسوا بصفايح الفضة المذهبة وكسوتها بالملف وصنعت رسنا
مصنفا بصفايح الفضة المذهبة وجعلت لها جلين مل زردخانة مبطنين بالسكتا وجعلت للجمالين
الخلاخيل من الفضة المذهبة وصنعت أحد عشر طيفورا وملاتها بالحلواء وغطيت كل
طيفور يمينديل حرير فلما قدم (س) من الصيد وقعد ثاني يوم قدومه بموضع جلوسه العام
غدوت عليه بالجمال فأمر بها فحركت بين يديه وهزولت فطار خلاخال أحدها فقال لهما الدين
ابن العلسكي بايل وراري معنى ذلك ارفع الخلاخال فرفعه ثم نظر إلى الطيا فير فقال جداري
(جبه داري) درآن طببقها حلوا امث معنى ذلك مامعك في تلك الاطباق حلواء هي فقلت
له نعم فقال للفقيه ناظر الدين الترمذي الواعظ ما أكلت أظ ولا رأيت مثل الحلواء التي
بعث إلينا ونحن بالمعسكر ثم أمر بتلك الطيا فران أن ترفع لموضع جلوسه فرفعت وقام
إلى مجلسه واستدعاني وأمر بالطعام فأكلت ثم سأني عن نوع من الحلواء الذي بعثت له
فقلت له ياخوند عالم تلك الحلواء انواعها كثيرة ولا أدري على أي نوع تسألون منها فقال
إيتوا بتلك الاطباق وهم يسمون الطيفور طبقا فأتوا بها وقدموها بين يديه وكشفوا عنها
فقال عن هذا سألتك وأخذ الصحن الذي هي فيه فقلت له هذه يقال لها المقرصة ثم أخذ نوعا
آخر فقال وما اسم هذه فقلت له هي لقييمات القاضي وكان بين يديه تاجر من شيوخ بغداد
يعرف بالسامري وينتسب إلى آل العباس رضى الله تعالى عنه وهو كثير المال ويقول له
(س) والدي فحسدني وأراد أن يخجناني فقال ليست هذه لقييمات القاضي بل هي هذه
وأخذ قطعة من التي تسمى جلد الفرس وكان بإزائه ملك الندماء ناصر الدين الكافي الهروي
وكان كثيرا ما يمازح هذا الشيخ بين يدي (س) فقال ياخواجه أنت تكذب والقاضي
يقول الحق فقال له (س) وكيف ذلك فقال ياخوند عالم هو القاضي وهي لقيماته فانه أتى
بها فضحك (س) وقال صدقت فلما فرغنا من الطعام أكل الحلواء ثم شرب الفقاع بعد
ذلك وأخذنا التنبول وانصرفنا فلم يكن غير هينة وأتاني الخازن فقال ابعث أصحابك
يقبضون المال فبعثتهم وعدت إلى داري بعد المغرب فوجدت المال بها وهو ثلاث بدر فيها
ستمائة آلاف ومائتان وثلاث وثلاثون تنكة وذلك صرف الخمسة والخمسين ألفا التي هي دين
على وصرف الاثني عشر ألفا التي مر لي بها فيما تقدم بعد حط العشر على عادتهم وصرف
التنكة ديناران ونصف دينار من ذهب المعرب . .

(ذكر خروج السلطان وأمره لي بالإقامة بالحضرة)

وفي تاسع جمادى الأولى خرج (س) برسم قصد بلاد المعبر وقتال القائم بها
وكنيت قد خلصت أصحاب الدين وعزمت على السفر وأعطيت مرتب تسعة أشهر
للكهارين والفراشين والسكياوية والدوادية وقد تقدم ذكرهم فخرج الأمر بإقامتي
في جملة ناس وأخذ الحاجب خطوطنا بذلك لتسكون حجة له وتلك عادتهم خوفاً من أن
ينكر المبلغ وأمر لي بستة آلاف دينار دراهم وأمر لابن قاضي مصر بعشرة آلاف
وكذلك كل من أقام من الأعرزة وأما البلديون فلم يعطوا شيئاً وأمر لي (س) أن أتولى
النظر في مقبرة (س) قطب الدين الذي تقدم ذكره وكان (س) يعظم تربته تعظيماً
شديداً لأنه كان خديماً له ولقد رأيته إذا أتى قبره يأخذ نعله فيقبله ويحمله فوق رأسه
وعادتهم أن يجعلوا نعل الميت عند قبره فوق متكأة وكان إذا وصل القبر خدماً له
كما كان يخدم أيام حياته وكان يعظم زوجته ويدعوها بالأخت ويجعلها مع حرمه
وزوجها بعد ذلك لابن قاضي مصر واعتنى به من أجلها وكان يمضي لزيارتها في كل
جمعة ولما خرج (س) بعث عنا للوداع فقام ابن قاضي مصر فقال أنا لا أودع ولا أفارق
خوند عالم فكان له في ذلك الخير فقال له (س) أمض فتجهز للسفر وقدمت بعد
للوداع وكنيت أحب الإقامة ولم تسكن عاقبتها محمودة فقال مالك من حاجة فاخرجت
بطاقة فيها ست مسائل فقال لي تسكلم بلسانك فقلت له أن خوند عالم أمر لي بالقضاء
وما قعدت لذلك بعد وليس مرادى من القضاء إلا حرمة فأمرني بالعودة للقضاء
وقعود النائبين معي ثم قال لي أيه فقلت وروضة (س) قطب الدين فإذا أفعل بها فيها
فاني ربت فيها أربع مائة وستين شخصاً ومحصول أوقافها لا يفي بمرتباتهم وطعامهم
فقال للوزير ينجاة هزار ومعناه خمسين ألفاً ثم قال لا بد لك من غلة بديعة يعنى اعطه
مائة ألف من المغلة وهى القمح والأرز ينفقها في هذه السنة حتى تاتي غلة الروضة
والمن عشرون رطلاً مغربية ثم قال لي ماذا أضافت أن أصحابي سجنوا بسبب القرى
التي أعطيتهموني فاني عوضتها بغيرها فطلب أهل الديوان ما وصلني منها أو الاستظهار
بأمر خوند عالم أن يرفع عني ذلك فقال كم وصلك منها فقلت خمسة آلاف دينار فقال هي أنعام
عليك فقلت له ودارى التي أمرتم لي بها مفتقرة إلى البناء فقال للوزير عمارة كنيدي
معناه عمروها ثم قال لي ديكر نمائد فقلت له معناه هل بقي لك كلام فقال لي وصية
ديكر هست معناه أوصيك أن لا تأخذ الدين لئلا تطلب فلا تجد من يبلغ خبرك إلى انفق
على قدر ما أعطيتك قال الله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط
وكلوا واشربوا ولا تسرفوا والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً

فأردت أن أقبل قدمه فنهني وأمسك رأسي بيده فقبالتها وانصرفت وعدت إلى الحضرة فاشتغلت بعمارة دارى وأنفقت فيها أربعة آلاف دينار أعطيت منها من الديوان ستمائة دينار وزدت عليها الباقي وبنيت بإزائها مسجدا واشتغلت بترتيب مقبرة السلطان قطب الدين وكان قد أمرني أن تبني عليه قبة يكون ارتفاعها في الهواء مائة ذراع بزيادة عشرين ذراعا على ارتفاع القبة المبنية على قازان ملك العراق وأمر أن تشتري ثلاثون قرية تكون وقفها عليها وجعلها بيدي على أن يكون لي العشر من فائدها على العادة

(ذكر ما فعلته في ترتيب المقبرة)

وعادة أهل الهند أن يرتبوا لأموالهم ترتيباً كترتيبهم بقاء الحياة ويؤتى بالفيلة والخيول فنربط عند باب التربة وهي مزينة فترتب أنا في هذه التربة بحسب ذلك ورتبت من قراء القرآن مائة وخمسين وهم يسمونهم الختميين ورتبت من الطلبة ثمانين ومن المعبددين ويسمونهم المسكردين ثمانية ورتبت لها مدرسا ورتبت من الصوفية ثمانين ورتبت الإمام والمؤذنين والقراء بالأصوات الحسان والمداحين وكتاب الغيبة والمعرفين وجميع هؤلاء يعرفون عندهم بالأرياب ورتبت صنفا آخر يعرفون بالحاشية وهم الفراشون والطباخون والدوادية والأبدارية وهم السقاؤون والشربدارية الذين يسقون الشربة والتنبول دارية الذين يعطون التنبول والساحدارية واليزدارية والطشت دارية والحجاب والنقباء فيكان جميعهم أربع مائة وستين وكان السلطان أمر أن يكون الطعام بها كل يوم اثني عشر منا من الدقيق ومثلها من اللحم فرأيت أن ذلك قليل والزرع الذي أمر به كثير فسكرت أنفق كل يوم خمسة وثلاثين منا من الدقيق ومثلها من اللحم مع ما يتبع ذلك من السكر، النبات، السمن، التنبول وكرنت. أطعم المرتبين وغيرهم من صادر ووارد وكان الغلاء شديدا فارتفق الناس بهذا الطعام وشاع خبره وسافر الملك صبيح إلى (س) بدولة آباد فسأله عن حال الناس فقال له لو كان بدهلي اثنان مثل فلان لماشكا الجهد فأعجب ذلك السلطان وبعث إلى بخلة من ثيابه وكرنت أصنع في المواسم وهي العيدين والمولد الكريم ويوم عاشوراء وليلة النصف من شعبان ويوم وفاة السلطان قطب الدين مائة من الدقيق ومثلها لحما فيأكل منها الفقراء والمساكين وأما أهل الوظيفة فيجعل أمام كل إنسان منهم ما يخصه ولذا ذكر عاداتهم في ذلك .

(ذكر عاداتهم في إطعام الناس في الولايم)

وعاداتهم ببلاد الهند وبلاد السرا أنه إذا فرغ من أكل الطعام في الولايم جعل أمام كل إنسان من الشرفاء والفقهاء والمشايخ والقضاة وعاء شبه المهدله أربع قوائم منسوج سطحه

من الخوص وجعل عليه الرقاق ورأس غنم مشوى وأربعة أقراص معجونة بالسمن مملوءة بالحلواء الصابونية مغطاة بأربع قطع من الحلواء كأنها الآجر وطبقاً صغيراً مصنوعاً من الجلد فيه الحلواء والسموسك ويغطي ذلك الوعاء بثوب قطن جديد ومن كان دون من ذكرناه جعل أمامه نصف رأس غنم ويسمونه الزلة ومقدار النصف مما ذكرناه ومن كان دون هؤلاء أيضاً جعل أمامه مثل الربع من ذلك ويرفع رجال كل أحد ما جعل أمامه وأول ما رأيته يصنعون هذا بمدينة السرا حضرة السلطان أوزبك فامتنت أن يرفع رجالى ذلك إذ لم يكن لى به عهد وكذلك يبعثون أيضاً لدار كبراء الناس من طعام الولائم

(ذكر خروجى إلى هزار أمروها)

وكان الوزير قد أعطانى من مغله المأمور بها للزاوية عشرة آلاف ونعملى الباقى فى هزار أمروها وكان والى الخراج بها عزيز الخمار وأميرها شمس الدين الهندخشانى فبعثت رجالى فأخذوا بعض الإحالة وتشكوا من تعسف عزيز الخمار فخرجت بنفسى لاستخلاص ذلك وبين دهلى وهذه العمالة ثلاثة أيام وكان ذلك فى أوان نزول المطر فخرجت فى نحو ثلاثين من أصحابى واستصحبت معى أخوين من المغنيين المحسنين يغنيان لى فى الطريق فوصلنا إلى بلدة بجنور وضبط اسمها (بكسر الباء الموحدة وسكون الجيم وفتح النون وآخره راء) فوجدت بها أيضاً ثلاثة إخوة من المغنيين فاستصحبتهم فسكانوا يغنون لى نوبة والآخران نوبة .

ثم وصلنا إلى أمرها وهى بلدة صغيرة حسنة فخرج عمالها للقاءى وجاء قاضىها الشريف أمير على وشيخ زاويتها وأضافانى معا ضيافة حسنة وكان عزيز الخمار بموضع يقاله افغان بور على نهر السرو وبيننا وبينه النهر ولا معدية فيه فأخذنا الأثقال فى معدية صنعناها من الخشب والنبات وجزنا فى اليوم الثانى وجاء نجيب أخو عزيز فى جماعة من أصحابه وضرب لنا سراجهم ثم جاء أخوه إلى والى وكان معروفاً بالظلم وكان فى القرى التى فى عمالته ألفاً وخمسمائة قرية وجباها ستون لكافى السنة له فيها نصف العشر ومن عجائب النهر الذى نزلنا عليه أنه لا يشرب منه أحد فى أيام نزول المطر ولا تسقى منه دابة ولقد أقمنا عليه ثلاثاً فما غرف منه أحد غرفة ولا كدنا فقرب منه لأنه ينزل من جبل قراجيل التى بها معادن الذهب ويمر على الخشاش المسمومة فمن شرب منه مات وهذا الجبل متصل مسيرة ثلاثة أشهر وينزل منه إلى بلاد تبت حيث غزلان المسك وقد ذكرنا ما اتفق على جيش المسلمين بهذا الجبل وبهذا الموضع جاء إلى جماعة من الفقراء الحيدرية وعملوا السماع وارقدوا النيران فدخلوها ولم تضرهم وقد ذكرنا ذلك

وكانت قد نشأت بين أمير هذه البلاد شمس الدين البندخشاني وبين والها عزيز الخمار
منازعة وجاء شمس الدين لقتاله فامتنع منه بداره وبلغت شكايه أحدهما الوزير وإلى
الملك شاه أمير المماليك بأمرها وهم أربعة آلاف مملوك للسلطان وإلى شهاب الدين
الرومي أن ننظر في قضيتها فن كان على الباهل بعثاه منقفا إلى الحضرة فاجتمعوا جميعا
بمنزلي وادعى عزيز شمس الدين دعاوى منها أن خديماً له يعرف بالرضي المتاني نزل
بدار خازن عزيز المذكور فشرّب بها الخمر وسرق خمسة آلاف دينار من المال الذي
عند الخازن فاستفهمت الرضى عن ذلك فقال لي ما شربت الخمر منذ خروجي من ملتان
وذلك ثمانية أعوام فقلت له أو شربتها بملتان قال نعم فأمرت بجلده ثمانين وسجنته
بسبب الدعوى لوث ظهر عليه وانصرفت عن أمرها فكانت غيبى نحو شهرين
وكنيت في كل يوم أذبح لأصحابي بقرة وترك أصحابي ليأتوا بالزرع المنفذ على
عزيز وحمله عليه فوزع على أهل القرى التي لنظره ثلاثين ألف من يحملونها على ثلاثة آلاف
بقرة وأهل الهند لا يحملون إلا على البقر وعليه يعرفون أنقاهم في الأسفار وركوب
الخمر عندهم عيب كبير وحميرهم صغار الاجرام يسمونها اللاشة وإذا أرادوا إشهار
أحد بعد ضربه أركبوه الحمار

﴿ ذكر مكرمة لبعض الاصحاب ﴾

وكان السيد ناصر الدين الاوهرى قد ترك عندي لما سافر ألفا وستين تنكة فتصرفت فيها
فلما عدت إلى دهلي وجدته قد أحال في ذلك المال خداه نذزاده قوام الدين وكان قد قدم نائباً
على الوزير فاستقبححت أن أقول له تصرفت في المال فأعطيته نحو ثلثه وأقت بداري أياما
وشاع أنى مرضت فأنى ناصر الدين الخوارزمي صدر الجهان ازيارنى فلما رآنى قال
ما أرى بك مرض فقلت له أنى مريض القلب فقال لي عرفنى بذلك فقلت له ابعث إلى
نائبك شيخ الاسلام أعرفه به فبعثه فأعلمته فعاد إليه فأعلمه فبعث إلى بألف دينار دراهم
وكان له عندي قبل هذا ألفا ثانيا ثم طلب منى بقية المال فقلت في نفسى ما يخصنى منه إلا
صدر الجهان المذكور لأنه كثير المال فبعث إليه بفارس مسرج قيمته وقيمة سرجه ألف
وستمائة دينار وبفارس ثان قيمته وقيمة سرجه ثمانمائة دينار وبغلاتين قيمتهما ألف ومائتا
دينار وبتركش فضة وبسيفين غمداهما مخشيان بالفضة وقلت لها انظر قيمة الجميع وابعث
إلى ذلك فأخذ ذلك وعمل لجميعه قيمة ثلاثة آلاف دينار فبعث إلى ألفا واقتطع الألفين
فتغير خاطرى ومرضت بالحصى وقلت لنفسى ان شكوت به إلى الوزير افتضحت فأخذت خمسة
أفراس وجاريتين ومملوكين وبعثت الجميع للملك مغيث الدين محمد بن ملك الملوك عماد الدين

السمناني وهو فقي مسن فرد على ذلك وبعث إلى ماتي تنكة واغزرو خلصت من ذلك المال
فشتان بين محمد ومحمد .

(ذكر خرجي من محلة السلطان)

وكان السلطان لما توجه إلى بلاد المعبر وصل إلى التلنك ووقع الوباء بعسكره فعاد إلى
دولة آباد ثم وصل إلى نهر السكنك فنزل عليه وأمر الناس بالبناء وخرجت في تلك الأيام
إلى محلاته وانفق ما سردناه من مخالفة عين الملك ولازمت السلطان في هذا اليوم وأعطاني
من عتاق الخيل لما قسمها على خواصه وجعلني فيهم وحضرت معه الوقعة على عين الملك
والقبض عليه وجزت معه نهر السكنك ونهر السرو ولزيارة قبر الصالح البطل سالار عود
(مسعود) وقد استوفيت ذلك كله وعدت معه إلى دهلي لما عاد إليها .

(ذكر ما هم به السلطان من عقابي وما تداركني من لطف الله تعالى)

وكان سبب ذلك أني ذهبت يوماً لزيارة الشيخ شهاب الدين ابن الشيخ الجلام بالغار الذي
احتفراه خارج دهلي وكان قصدي رؤية ذلك الغار فلما أخذه السلطان سأل أولاده عن
كان يزوره فذكروا أناساً نام من جملة من فأمروا السلطان أربعة من عبيده بملازمتي بالمشور وعادته
أنه متى فعل ذلك مع أحد قلمها يتخاص فكان أول يوم من ملازمتهم لي يوم الجمعة فألهمني
الله تعالى إلى تلاوة قوله حسبنا الله ونعم الوكيل فقرأتها ثلاثة وثلاثين ألف مرة وبنت
بالمشور وواصلت إلى خمسة أيام في كل يوم منها أختم القرآن وأفطر على الماء خاصة ثم
انفطرت بعد خمس وواصلت أربعاً وتخلصت بعد قتل الشيخ والحمد لله تعالى

(ذكر انقباض عن الخدمة وخروجي عن الدنيا)

ولما كان بعد مدة انقبضت عن الخدمة ولازمت الشيخ الامام العالم العابد الزاهد
الخاصع الورع فريد الدهر ووحيد العصر كمال الدين عبد الله الغاري وكان من الأولياء وله
كرامات كثيرة فقد ذكرت منها ما شاهدته عند ذكر اسمه وانقطعت إلى خدمة هذا الشيخ
ووهبت ما عندي للفقراء والمساكين وكان الشيخ يواصل عشرة أيام وربما يواصل
عشرين فكنت أحب أن أواصل فكان ينهاني ويأمرني بالرفق على نفسي في العبادة ويقول
لي أن المنبت لا أرضا قطع ولا أبقى وظهر لي من نفسي تكاسل بسبب شيء بقي معي فخرجت
عن جميع ما عندي من قليل وكثير وأعطيته ثياب ظمير فقير ولبست ثياباً به ولزمت
هذا الشيخ خمسة أشهر والسلطان إذ ذاك غائب ببلاد السند

(ذكر بعث السلطان عني ولم ياتي عن الرجوع إلى الخدمة واجتهادي في العبادة)

ولما بلغه قبل قبل خروجي عن الدنيا استدعاني وهو يومئذ بسوستان فدخلت عليه في

زى الفقراء فكلمنى أحسن كلام وأطفه وارادنى الرجوع إلى الخدمة فأبيت وطلبت منه الإذن فى السفر إلى الحجاز فأذن لى فيه وانصرفت عنه ونزلت بزواية تعرف بالنسبة إلى الملك بشير وذلك فى أواخر جمادى الثانية سنة ثنتين وأربعين فاعتسكت بها شهر رجب وعشرة من شعبان وانتهيت إلى مواصلة خمسة أيام وفطرت بعدها على قليل أرز دون إدام وكنت أقرأ القرآن كل يوم وأتهجد بما شاء الله وكنت إذا أكلت الطعام أذانى فاذا طرخته وجدت الراحة وأقت كذلك أربعين يوما ثم بعث عنى ثانية .

(ذكر ما أمرنى به من التوجه إلى الصين فى الرسالة)

ولما كملت لى أربعون بعث إلى (س) خيلا مسرجة وجوارى وغلانا وثيابا ونفقة فلبست ثيابا به وقصدته وكانت لى قبة قطن زرقاء مبطنة لبستها أيام اعتكفى فلما جردتها ولبست ثياب (س) انكرت نفسى وكنت متى نظرت إلى تلك الجبة أجد نورافى باطنى ولم تزل عندى إلى أن سلبنى السكفار فى البحر ولما وصلت إلى (س) زاد فى إكرامى على ما كنت أعده وقال لى إنما بعثت اليك لتوجه عنى رسولا إلى ملك الصين فأتى أعلم حبك فى الأسفار والجولان فجهزنى بما أحتاج له وعين للسفر معى من يذكر بعد

(ذكر سبب الهدية للصين وذكر من بعث معى وذكر الهدية)

وكان ملك الصين قد بعث إلى (س) مائة مملوك وجارية وخمسمائة ثوب من السكخا منهما مائة من التى تصنع بمدينة الزيتون ومائة من التى تصنع بمدينة الخنسا وخمسة أمان من المسك وخمسة أثواب مرصعة بالجواهر ومثاهم من التراكش مزر كشه ومثاهم سيوف وطلب من (س) أن يأذن له فى بناء بيت الأصنام بناحية جبل قراجيل المتقدم ذكره ويعرف الموضع الذى هو به بسهميل (بفتح السين المهمل وسكون الميم وفتح الهاء) واليه يحج أهل الصين وتغلب عليه جيش الإسلام بالهند فخر به وسابوه ولما وصلت هذه الهدية إلى (س) كتب إليه بأن هذا المطلب لا يحوز فى ملة الإسلام اسعافه ولا يباح بناء كنيسة بأرض المسلمين إلا لمن يعطى الجزية فان رضيت باعطائها أبخنا لك بناءه والسلام على من اتبع الهدى وكافأه على هديته بخير منها وذلك مائة فرس من الجياد مسرجة ملجمة ومائة مملوك ومائة جارية من كفار الهند مخنيات ورواقص ومائة ثوب بيرمية وهى من القطن ولا نظير لها فى الحسن قيمة الثوب منها مائة دينار ومائة شقة من ثياب الحرير المعروفة بالجز (بضم الجيم وزاى) وهى التى يكون حرير أحداها مصبوغا بحمسة ألوان وأربعة ومائة ثوب من الثياب المعروفة بالصلاحية ومثاهم من الشيرين باف ومثاهم من الشان باف وخمسمائة

ثوب من المرعز منها سود ومائة بيض ومائة حمر ومائة خضر ومائة زرق ومائة شقة من
السكتان الرومي ومائة فضلة من الملف وسراجة وست من القباب وأربع حسك من ذهب
وست حسك من فضة منبيلة وأربع طسوت من الذهب ذات أباريق كمثلها وست طسوت من
الفضة وعشر خلع من ثياب السلطان مزر كشة وعشر شواش من لباسه إحداها مرصعة بالجواهر
وعشرة تراكش وأحدها مرصع بالجواهر وعشرة من السيوف أحدها مرصع النعمد
بالجواهر ودشت بان (دستبان) وهو قفاز مرصع بالجواهر وخمسة عشر من الفتيان وعين
(س) للسفر معي بهذه الهدية الأمير ظهير الدين الزنجاني وهو من فضلاء أهل العلم والفقه
كافور الشريدار واليه سلمت الهدية وبعث معنا الأمير محمد الهروي في ألف فارس ليوصلنا
إلى الموضع الذي نركب منه البحر وتوجه صحبتنا أرسار ملك الصين وهم خمسة عشر رجلاً
يسمى كبيرهم ترسي وخدامهم نحو مائة رجل وانفصلنا في جمع كبير ومحلة عظيمة وأمر
لنا (س) بالضيافة مدة سفرنا ببلاده

وكان سفرنا في السابع عشر لشهر صفر سنة ثلاث وأربعين وهو اليوم الذي اختاروه
للسفر لأنهم يختارون للسفر من أيام الشهر ثمانية أو سابعة أو الثاني عشر أو السابع
عشر أو الثاني والعشرين أو السابع والعشرين فكان نزولنا في أول مرحلة بمنزل تلبت
على مسافة فرسخين وثلاث من حضرة دهلي .

ورحلنا منها إلى منزل هيلوور ورجلنا منه إلى مدينة بيانة (وضبط اسمها بفتح الباء
الموحدة وفتح الياء آخر الحروف مع تخفيفها وفتح النون) وهي كبيرة حسنة البناء
مليحة الأسواق ومسجدها الجامع من أبداع المساجد وحيطانه وسقفه حجارة والأمير
بها مظفر بن الداية وأمه هي داية للسلطان وكان بها قبله الملك مجير بن أبي الرجاء أحد كبار
الملوك وقد تقدم ذكره وهو ينتسب إلى قریش وفيه تجبر وله ظلم كثير قتل من أهل هذه
المدينة جملة ومثل بكثير منهم .

ولقد رأيت من أهلها رجلاً حسن الهيئة قاعداً في اسطوان منزله وهو مقطوع
اليدين والرجلين وقدم السلطان مرة على هذه المدينة فتشكى الناس من الملك مجبر المذكور
فأمر (س) بالقبض عليه وجعلت في عنقه الجامعة بإرضائهم فأرضاهم بالأموال ثم
قتله بعد ذلك ومن كبار أهل هذه المدينة الامام عز الدين الزبيرى من ذرية الزبير
ابن العوام رضى الله عنه أحد كبار الفقهاء الصالحاء لقيته بكاليور عند الملك عز الدين البنتاني
المعروف بأعظم ملك ثم رحلنا من بيانة فوصلنا إلى مدينة كول (وضبط اسمها بضم
الكاف) مدينة حسنة ذات بساتين وأكثر أشجارها العنبا ونزلنا بتخارجها في بسيط

افصح ولقينا بها الشيخ الصالح العابد شمس الدين المعروف بابن العارفين وهو مكفوف البصر معمر وبعد ذلك سجنه السلطان ومات في سجنه وقد ذكرنا حديثه .

(ذكر غزوة شهدناها بكول)

ولما بلغنا إلى مدينة كول بلغنا أن بعض كفار الهند حاصروا بلدة الجلالى واحاطوا بها وهى على مسافة سبعة من كول قصدناها والكفار يقتلون أهلها وقد اشرفوا على التلغ ولم يعلم الكفار بنا حتى صدقنا الحملة عليهم وهم فى نحو الف فارس وثلاثة آلاف راجل فقتلناهم عن آخرهم واحتويناه على خيلهم وأساستهم واستشهد من اصحابنا ثلاثة وعشرون فارساً وخمسة وخمسون راجلاً واستشهد الفتى كافور الساقى الذى كانت الهدية مسلمة بيده فسكتبنا إلى السلطان بخبره واقمنا فى انتظار الجواب وكان الكفار فى اننا ذلك ينزلون من جبل هناك منيع فيغيرون على نواحي بلدة الجلالى وكان اصحابنا يركبون كل يوم مع امير تلك الناحية لعينوه على مدافعهم .

(ذكر محنتى بالاسر وخلاصى منه وخلاصى من شدة بعده على يدولى من اوليا الله تعالى)
وفى بعض تلك الايام ركبت فى جماعة من اصحابى ودخلنا بستانا ثقيلاً فيه وذلك فصل القيظ فسمعنا الصياح فركبنا ولحقنا كفار اغاروا على قرية من قرى الجلالى فاتبعناهم فتفرقوا وتفرق اصحابنا فى طلبهم وانفردت فى خمسة من اصحابنا فخرج علينا جملة من الفرسان والرجال مزغينة هناك ففررنا منهم لكثرتهم واتبعنى نحو عشرة منهم ثم انقطعوا عني إلا ثلاثة منهم ولا طريق بين يدي وتلك الارض كثيرة الحجارة فثبت يدا فرسى بين الحجارة فنزلت عنه واقتلعت يده وعدت إلى ركوبه والعادة بالهند ان يكون مع الانسان سفيان أحدهما معلق بالسراج ويسمى الركابى والآخر فى الزكش فسقط سيفى الركابى من غمده وكانت حلية ذهباً فنزلت فأخذته ونقلته وركبت وهم فى اثرى ثم وصلت إلى خندق عظيم فنزلت ودخلت فى جوفه فكان اخر عهدي بهم .

ثم خرجت إلى واد فى وسط شعراء ملغته فى وسطها طريق فمشيت عليه ولا أعرف منها فبينما أنا فى ذلك خرج على نحو اربعين رجلاً من الكفار بايديهم القسي فأخذوني وخففت ان يرموني رمية رجل واحد ان فررت منهم وكنت غير متدرع فالتقيت بنفسى إلى الارض واستأسرت وهم لا يقتلون من فعل ذلك فأخذوني وسلبوني جميع ما على غير جبة وقميص وسروال ودخلوا إلى تلك الغابة فأنهوا إلى موضع جلوسهم منها على حوض ماء بين تلك الأشجار واتوني بخبز ماش وهو الجلبان فأكلت منه وشربت من الماء وكان معهم مسلمان كلياً بالفارسية وسألانى عن شأنى فأخبرت بما ببعضه

وكتمتهمما انى من جهة (س) فقالا لى لا بد أن يقتلك هؤلاء أو غيرهم ولكن هذا مقدمهم وأشاروا الى رجل منهم فكلمته بترجمة المسلمين وتلطفت له فوكل بى ثلاثة منهم احدهم شيخ ومعه ابنه والآخر أسود خبيث وكلمنى أولئك الثلاثة ففهمت منهم أنهم أمروا بقتلى واختملونى عشى النهار الى كهف وساطع الله على الأسود منهم حتى مر عدة فوضع رجلى على ونام الشيخ وابنه فلما أصبح تسكلموا فيما بينهم وأشاروا الى بالنزول معهم الى الحوض وفهمت أنهم يريدون قتلى فكلمت الشيخ وتلطفت اليه فرق لى وقطعت كى قيصى وأعطيته أياهما لى لا يأخذه أصحابه فى ان فررت .

ولما كان عند الظهر سمعنا كلاما عند الحوض فظنوا أنهم أصحابهم فأشاروا الى بالنزول معهم فنزلنا ووجدنا قوما آخرين فأشاروا عليهم أن يذهبوا فى صحبتهم فابوا وجلس ثلاثهم أمامى وأنا مواجهم لهم ووضعوا حبل قنب كان معهم بالأرض وأنا أنظر اليهم وأقول فى نفسى بهذا الحبل يربطونى عند القتل وأقت كذلك ساعة ثم جاء ثلاثة من أصحابهم الذين اخذونى فتسكلموا معهم وفهمت أنهم قالوا لهم لى شيء ما قتلتموه فأشار الشيخ الى الأسود كأنه اعتذر بمرضه وكان أحد هؤلاء الثلاثة شابا حسن الوجه فقال لى أتريد أن أسرحك فقلت نعم فقال أذهب فاخذت الجبة التى كانت على فأعطيته إياها وأعطانى منيرة بالية عنده وأرانى الطريق فذهبت وخفت أن يبدو لهم فيدركونى فدخلت غيضة قصب واخفيت فيها الى أن غابت الشمس .

ثم خرجت وسلكت الطريق التى أراها الشاب فافضت بى الى ماء فشربت منه وسرت الى ثلث الليل فوصلت الى جبل فتمت تحته فلما أصبحت سلكت الطريق فوصلت ضحى الى جبل من الصخر عال فيه شجر أم غيلان والسدر فكنت أجنى النبق فاكله حتى أثر الشوك فى ذراعى آثارا هى باقية به حتى الآن ثم نزلت من ذلك الجبل الى أرض مزروعة قطناً وبها أشجار الخروع وهنالك باين والباين عندهم بئر متسعة جداً مطوية بالحجارة لها درج ينزل عليها الى ورد الماء وبعضها يكون فى وسطه وجوانبه القباب من الحجر والسقائف والمجلس ويتفاخر ملوك البلاد وأمرأؤها بعمارتها فى الطرقات التى لاماء بها وسندكر بعض ماراينا منها فيما بعد ولما صلت الى البايين شربت منه ووجدت عليه شيئاً من عسل يسج الخردل قد سقطت لمن غسلها فاكلت منها وأدخرت باقها ونمت تحت شجرة خروع فبينما أنا كذلك إذورد البايين نحو أربعين فارساً مدرعين فدخل بعضهم الى المزرعة .

ثم ذهبوا وطمس الله ابصارهم دونى ثم جاء بعدهم نحو خمسين فى السلاح ونزلوا الى البايين وأتى أحدهم الى شجرة لزاء الشجرة التى كنت تحتها فلم يشعر بى ودخلت إذ ذاك فى مزرعة القطن واقمت بها بقية نهارى وأقاموا على البايين

يغسلون ثيابهم ويلعبون فلما كان الليل هدأت أصواتهم فعلمت أنهم قد مروا أو ناموا فخرجت حينئذ واتبعته أثر الخيل والليل مقعر وسرت حتى انتهيت إلى باين آخر عليه قبة فنزلت إليه وشربت من مائه وأكلت من عساليج الخردل التي كانت عندي ودخلت القبة فوجدتها مملوءة بالعشب مما يجمعه الطير فنمت بها وكنت أحس حركة حيوان في تلك العشب أظنه حية فلا أبالي بها لما بي من الجهد فلما أصبحت سلكت طريقا وسعة تفضي إلى قرية خربة وسلكت سواها فكانت كمثلها وأقمت كذلك أياما وفي بعضها وصلت إلى أشجار ملتفة بينها حوض ماء وداخلها شبه بيت وعلى جوانب الحوض نبات الأرض كالنجيل وغيره فأردت أن أقعد هناك حتى يبعث الله من يوصلني إلى العمارة ثم اتى وجدت يسير قوة فنهضت على طريق وجدت بها أثر البقر ووجدت ثورا عليه بردعة ومنجل فاذا نلك الطريق تفضي إلى قرية الكفار فاتبعته طريقا أخرى فانتهيت إلى قرية خربة ورأيت بها أسودين عريانين نخفتما وأقمت تحت أشجار هناك فلما كان الليل دخلت القرية ووجدت دارا في بيت من بيوتها شبه خابية كبيرة يصنعونها لاختزان الزرع وفي أسفلها نقب يسع منه الرجل فدخلتها ووجدت داخلها مفروشا بالبن وفيه حجر جعلت رأسي عليه ونمت وكان فوقها طائر يرفرف بجناحيه أكثر الليل وأظنه كان يخاف فاجتمعنا خائفين .

وأقمت على تلك الحال سبعة أيام من يوم أسرت وهو يوم السبت وفي السابع منها وصلت إلى قرية للكفار عامرة وفيها حوض ماء ومنابت خضر فسألتهم الطعام فأبوا أن يعطوني فوجدت حول بئر بها أوراق فجعل فأكلته وجئت القرية فوجدت جماعة كفار لهم طليعة فدعاني طليعتهم فلم أجبه وقعدت إلى الأرض فأتى أحدهم بسيف مسلول ورفع ليضربني به فلم ألتفت إليه لعظم ما بي من الجهد ففتشني فلم يجد عندي شيئا فأخذ القميص الذي كنت أعطيت كميته للشيخ الموكل بي .

ولما كان في اليوم الثامن اشتد بي العطش وعدمت الماء ووصلت إلى قرية خراب فلم أجد بها حوضا وعادتهم بتلك القرى أن يصنعوا أحواضا يجتمع به ماء المطر فيشربون منه جميع السنة فاتبعته طريقا فافضت بي إلى بئر غير مطوية عليها حبل مصنوع من نبات الأرض وليس فيه آنية يستقي بها فربطت خرقه كانت على رأسي في الحبل وامتصصت ما تعلق بها من الماء فلم تروني فربطت خفي واستقيت به فلم يروني فاستقيت به ثانيا فانقطع الحبل ووقع الخنف في البئر فربطت الخنف الآخر وشربت حتى رويت ثم قطعت فربطت أعلاه على رجلي بحبل البئر وبخرق وجدتها هناك فبينما أنا أربطها وأفكر في حال إذ لاح لي شخص فنظرت إليه فاذا رجل أسود اللون بيده أبريق وعكاز وعلى كاهله جراب فقال لي سلام

عليكم فقلت له عليكم السلام ورحمة الله وبركاته فقال لي بالفارسية جيكس (جه كسي) معناه من أنت فقلت له أنا ناته فقال لي وأنا كذلك ثم ربط إبريقه بحبل كان معه واستقى ماء فأردت أن أشرب فقال لي اصبر ثم فتح جرابه فأخرج منه غرقة حمص أسود مقلوم مع قليل أرز فأكلت منه وشربت وتوضأ وصلى ركعتين وتوضأت أنا وصليت وسألني عن اسمي فقلت له محمد وسألته عن اسمه فقال لي القلب الفارح فتفاءلت بذلك وسررت به ثم قال لي بسم الله ترافقني فقلت نعم فمشيت معه قليلاً ثم وجدت فتوراً في أعضائي ولم أستطع الهوض فقمعدت فقال لي ماشاً نك فقلت له كنت قادر على المشي قبل أن ألقاك فلما لقيتك عجزت فقال سبحانه الله اركب فوق عنقي فقلت له انك ضعيف ولا تستطيع ذلك فقال يقويني الله لا بد لك فركبت على عنقه وقال لي أكثر من قراءة حسبن الله ونعم الوكيل فأكثر من ذلك .

وغلبتني عيني فلم أفق إلا لسقوطي على الأرض فاستيقظت ولم أر للرجل أثراً وإذا أنا في قرية عامرة فدخاتها فوجدتها لرعية الهنود وحاكها من المسلمين فاعلموه بي فجاء إلى فقلت له ما اسم هذه القرية فقال لي تاج بوره ويدها وبين مدينة كول حيث أصحابنا فرسخان وحماني ذلك الحالك إلى بيته فأطعمني طعاماً سخناً واغتسل وقال لي عندي ثوب وعمامة أودعهما عندي رجل عربي مصري من أهل المحلة التي بكول فقلت له هاتهما ألبسهما إلى أن أصل إلى المحلة فأتي بهما فوجدتهما من ثيابي كنت قد وهبتهما لذلك العربي لما قدمنا كول فطال تعجبي من ذلك .

وفكرت في الرجل الذي حملني على عنقه فتذكرت ما أخبرني به ولي الله تعالى أبو عبد الله المرشدي حيثما ذكرناه في السفر الأول إذ قال لي سيدخل أرض الهند وتلقى بها أخى ويخلصك من شدة تقع فيها وتذكرت قوله لما سأله عن اسمه فقال القلب الفارح وتفسيره بالفارسية دلسا فعلمت أنه هو الذي أخبرني ببقائه وأنه من الأولياء ولم يحصل لي من صحبته إلا المقدار الذي ذكر وأتيت تلك الليلة إلى أصحابي بكول معلماً لهم بسلامتي فجاؤا إلى بغرس ونياب واستبشروا بي ووجدت جواب السلطان قد وصلهم وبعث بفتي يسمى بسنبيل الجامدار عوضاً من كافور المستشهد وأمرنا أن نتمادي على سفارنا ووجدتهم أيضاً قد كتبوا للسلطان بما كان من أمرى وتشاءوا بهذه السفرة لما جرى فيها على وعلى كافور وهم يريدون أن يرجعوا فلما رأيت تأكيد السلطان في السفر أكدت عليهم وقوى عزمي فقالوا ألا ترى ما اتفق في بداية هذه السفرة والسلطان يعذرك فلنرجع إليه أو نقيم حتى يصل جوابه فقلت لهم لا يمكن المقام وحيث ما كننا أدركنا الجواب فرحلنا من كول

ونزلنا برج بوره وبه زاوية حسنة فيها شيخ حسن الصورة والسيرة يسمى بمحمد العريان
لأنه لا يلبس عليه إلا ثوباً من سترته إلى أسفل وباقي جسده مكشوف وهو تلميذ الصالح الولي
محمد العريان القاطن بقرافة مصر نفع الله به

(حكاية هذا الشيخ)

وكان من أولياء الله تعالى قائماً على قدم التجرد يلبس تنورة وهو ثوب يستر من سترته إلى
أسفل ويذكر أنه كان إذا صلى العشاء الآخرة أخرج كل ما بقي بالزاوية من طعام وادام وماء
وفرق على المساكين ورعى بفتيلة السراج وأصبح على غير معلوم وكانت عادته أن يطعم
أصحاباً به عند الصباح خبزاً وفولاً فكان الخبازون والفوالون يستبقون إلى زاويته فيأخذ منهم
مقدار ما يكفي الفقراء ويقول لمن أخذ منه ذلك أقعد حتى يأخذ أول ما يفتح به عليه في
ذلك اليوم قليلاً أو كثيراً ومن حكاياته أنه لما وصل قازان ملك التتر إلى الشام بعساكره وملك
دمشق ما عدا قلعتها وخرج الملك الناصر إلى مدافعته ووقع اللقاء على مسيرة يومين من
دمشق بموضع يقال له قشحب والملك الناصر إذ ذاك حديث السن لم يعمد الوقائع وكان
الشيخ العريان في صحبته فنزل وأخذ قيداً فقيده به فرس الملك الناصر لئلا يتزحزح عند
اللقاء لحداثة سنه فيسكون ذلك سبب هزيمة المسلمين فثبت الملك الناصر وهزم التتر هزيمة
شنعاء قتل منهم فيها كثير وغرق كثير بما أرسل عليه من المياه ولم يعد التتر إلى قصد بلاد
الاسلام بعدها وأخبرني الشيخ محمد العريان المدكر تلميذ هذا الشيخ أنه حضر هذه الواقعة
وهو حديث السن ورحلنا من برج بوره ونزلنا على الماء المعروف باب سياه ثم رحلنا
مدينة قنوع (وضبط اسمها بكسر القاف وفتح النون وواو ساكن وجيم) مدينة كبيرة حسنة
العمارة حصينة رخيصة الاسعار كثيرة السكر ومنها يحمل إلى دهلي وعليها سور عظيم وقد
تقدم ذكرها وكان بها الشيخ معين الدين الباخري أضافنا بها وأمير هافيروز البدخشاني من
خرية بهرام جور (جوبين) صاحب كسرى وسكن بها جماعة من الصالحاء الفضلاء المعروفين
بمكارم الأخلاق يعرفون بأولاد سرف جهان وكان جدهم قاضي القضاة بدولة آباد وهو من
المحسنيين المتصدقين وانتهت الرئاسة ببلاد الهند إليه

(حكاية)

يذكر أنه عزل مرة عن القضاء وكان له أداء فادعى أحدهم عند القاضي الذي ولي بعده أن
له عشرة آلاف دينار قبله ولم تكن له بينة وكان قصده أن يحلفه فبعث القاضي له فقال
لرسوله بم ادع على فقال بعشرة آلاف دينار فبعث إلى مجلس القاضي عشرة آلاف وسلمت
للمدعى وبلغ خبره السلطان علاء الدين وصح عنده بطلان تلك الدعوى فأعاد إلى القضاء
وأعطاه عشرة آلاف وأقمنا بهذه المدينة ثلاثاً ووصلنا فيها جواب السلطان في شأنه بأن
لم يظهر لفلان أثر فيتوجه وجيه الملك قاضي دولة آباد عوضاً منه ثم رحلنا من هذه المدينة

فبرز لنا بمنزل هنول ثم بمنزل وزير بور ثم بمنزل البجالة ثم وصلنا إلى مدينة موري (وضبط اسمها بفتح الميم وواو وراء) وهي صغيرة ولها أسواق حسنة ولقيت بها الشيخ الصالح المعمر قطب الدين المسمى بحيدر القرغاني وكان بحال مرض فدعاني وزودني رغيف شعير وآخر في أن عمره ينيف على مائة وخمسين وذكر لي أصحابه أنه يصوم الدهر ويواصل كثيراً ويكثر الاعتكاف ورما أقام في خلوته أربعين يوماً يقتات فيها بأربعين تمرّة في كل يوم واحدة وقد رأيت بداهلي الشيخ المسمى برجب البرقي دخل الخلوة بأربعين تمرّة فأقام بها أربعين يوماً ثم خرج وفضل معه منها ثلاث عشرة تمرّة ثم رحلنا ووصلنا إلى مدينة مرة وضبط اسمها (بفتح وسكون الراء وهاء) وهي مدينة كبيرة أكثر سكانها كفار تحت الذمة وهي حصينة وبها القمح الطيب الذي ليس مثله بسواها ومنها يحمل إلى دهلي وحبوبه طوال شديدة الصفرة ضخمة ولم أرقم حماً مثله إلا بارض الصين وتنسب هذه المدينة إلى المأمورة (بفتح اللام) وهي قبيلة من قبائل الهنود كبار الأجسام عظام الخلق حسان الصور لنسائهم الجمال الفائق وهن مشهورات بطيب الخلوة ووفرة الحظ من اللذة وكذا نساء المرهنة ونساء جزيرة ذببة المهمل ثم سافرنا إلى مدينة علابور (وضبط اسمها بفتح العين ولام والف وباء موحدة مضمومة وواو وراء) مدينة صغيرة أكثر سكانها الكفار تحت الذمة وعلى مسيرة يوم منها سلطان كافر اسمه قتم (بفتح القاف والتاء المعلوّة) وهو سلطان جنجيل (بفتح الجيم وسكون النون وكسر الباء الموحدة وياء مد ولام) الذي حاصر مدينة كياليير وقتل بعد ذلك .

(حكاية)

كان هذا السلطان الكافر قد حاصر مدينة رابري وهي على نهر اللجون كثيرة القرى والمزارع وكان أميرها خطاب الأفغان وهو أحد الشجعان واستعان السلطان الكافر بسلطان كافر مثله يسمى رجو (بفتح الراء وضم الجيم) وبلده يسمى سلطان بور وحاصر مدينة رابري فبعث خطاباً إلى السلطان يطلب منه الإعانة فأبأ عليه المدد وهو على مسيرة أربعين من الحضرة فخاف أن يتغلب الكفار عليه فجمع من قبيلة الأفغان نحو ثلاثمائة وثلثمائة من المماليك ونحو أربع مائة من سائر الناس وجعلوا العمام في أعناق خيلهم وهي عادة أهل الهند إذا أرادوا الموت وباعوا نفوسهم من الله تعالى وتقدم خطاب وقبيلته وتبعهم الناس وفتحوا الباب عند الصبح وحملوا على الكفار حملة واحدة وكانوا نحو خمسة عشر ألفاً فزموهم بإذن الله وتلوا سلطانهم قتم ورجو وبعثوا برأسيهما إلى السلطان ولم ينبج من الكفار إلا الشريد .

(ذكر أمير علابور واستشهاده)

وكان أمير علابور بدر الحبشي من عبيد السلطان وهو من الأبطال الذين تضرب بهم

الأمثال وكان لا يزال يغير على الكفار منفردا بنفسه فيقتل ويسبي حتى شاع خبره واشتهر أمره وها به الكفار .

وكان طويلا ضخما يأكل الشاة عن آخرها في اكلة وأخبرت أنه كان يشرب نحو رطل ونصف من السمن بعد غذائه على عادة الحبشة ببلادهم وكان له ابن يدانيه في الشجاعة فاتفق أنه أغار مرة في جماعة من عبيده على قرية للكفار فوقع به الفرس في مطمورة واجتمع عليه أهل القرية فضربه أحدهم بقتارة والقتارة (بقاف معقود وتام معلومة) حديدة شبه سكة الحرث يدخل الرجل يده فيها فتسكسوا ذراعه ويفضل منها مقدار ذراعين وضربتها لا تبقى فقتله بتلك الضربة ومات فيها وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وقاتل عبيده أشد القتال فتغلبوا على القرية وأخرجوا الفرس من المطمورة سالما فأثروا به ولده فكان من الاتفاق الغريب أنه ركب الفرس وتوجه إلى دهلي فخرج عليه الكفار فقاتلهم حتى قتل وعاد الفرس إلى أصحابه فدفعوه إلى أهله فركبه صهر له فقتله الكفار عليه أيضا ثم سافرا إلى مدينة كاليور (وضبط اسمها بفتح الكاف المعقود وكسر اللام وضم الياء آخر الحروف وواو وراء) ويقال فيه أيضا كيا لير وهي مدينة كبيرة لها حصن منيع منقطع في رأس شاهق على بابه صورة فيل وفيال من الحجارة وقد مر ذكره في اسم السلطان قطب الدين وأمير هذه المدينة أحمد بن سيرخان فاضل كان يكرمني أيام إقامتي عنده قبل هذه السفارة ودخلت عليه يوما وهو يريد توسيط رجل من الكفار فقلت له بالله لا تفعل ذلك فاني مارأيت أحدا قط يقتل بمحضري فأمر بسجنه وكان ذلك سبب خلاصه في رحلتنا من مدينة كاليور إلى مدينة برون (وضبط اسمها بفتح الباء المعقودة وسكون الراء وفتح الواو وآخره نون) مدينة صغيرة للمسلمين بين بلاد الكفار أميرها محمد بن بيرم التركي الأصل والسباع بها كثيرة وذكر لي بعض أهلها أن السبع كان يدخل إليها ليلا وأبوابها مغلقة فيفترس الناس حتى قتل من أهلها كثيرا وكانوا يمجبون في شأن دخوله

وأخبرني محمد التوفيزي من أهلها وكان جارا لي بها أنه دخل داره ليلا وافترس صديقا من فوق السرير وأخبرني غيره أنه كان مع جماعة في دار عرس فخرج أحدهم لحاجة فافترسه أسد فخرج أصحابه في طلبه فوجدوه مطرحا بالسوق وقد شرب دمه ولم ياكل لحمه وذكروا أنه كذلك فعله بالناس ومن العجب أن بعض الناس أخبرني أن الذي يفعل ذلك ليس بسبع وإنما هو آدمي من السحرة المعروفين بالجوكية يتصور في صورة سبع ولما أخبرت بذلك أنكرته وأخبرني به جماعة وإن ذكر بعضا من أخبار هؤلاء السحرة .

﴿ ذكر السحرة الجوكية ﴾

وهؤلاء الطائفة تظهر منهم العجائب منها أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الأرض وتبنى عليه فلا يترك له إلا موضع يدخل منه الهواء ويقيم بها المشهور وسمعت أن بعضهم يقيم كذلك سنة ورأيت بمدينة منجور رجالا من المسلمين ممن يتعمم منهم قد رفعت له طيلة وأقام بأعلاها لا يأكل ولا يشرب مدة خمسة وعشرين يوما وتركته كذلك فلا أدري كم أقام بعدى والناس يذكرون أنهم يركبون حبوبا يا كانوا الحبة منها لأيام معلومة وأشهر فلا يحتاج في تلك المدة إلى طعام ولا شراب ويخبرون بأمور مغيبة والسلطان يعظمهم ويجالسهم ومنهم من يقتصر في أكله على البقل ومنهم من لا يأكل اللحم وهم إلا كثرون والظاهر من حالهم أنهم عودوا أنفسهم الرياضة ولا حاجة لهم في الدنيا وزينتها ومنهم من ينظر إلى الإنسان فيقع ميتا من نظرته وتقول العامة أنه إذا قتل بالنظر وشق عن صدر الميت وجد دون قلب ويقولون أكل قلبه واكثر ما يكون هذا في النساء والمرأة التي تفعل ذلك تسمى كفتار

(حكاية)

لما وقعت المجاعة العظمى ببلاد الهند بسبب القحط والسلطان ببلاد التللك نفذ أمره أن يعطى لأهل دهلي ما يقوتهم بحساب رطل ونصف للواحد في اليوم فجمعهم الوزير ووزع المساكين منهم على الأمراء والقضاة ليتولوا إطعامهم فكان عندي منهم خمسمائة نفس فعمرت لهم سقائف في وادي وأسكنتهم بها وكنت أعطيهم نفقتهم خمسة أيام فلما كان في بعض الأيام أتوني امرأة منهم وقالوا إنها كفتارة وقد أكلت قلب صبي كان إلى جانبها وأتوا بالصبي ميتا فأمرتهم أن يذهبوا بها إلى نائب السلطان فأمر بإحراقها وذلك بأن ملوا أربع جرات بالماء وربطوها بيديها ورجليها وطارحوها في نهر الجون فلم تغرق فعلم أنها كفتار ولو لم تطف على الماء لم تكن بكفتار فأمر بإحراقها بالنار وأتوا بأهل البلد رجالا ونساء فأخذوا رمادها وزعموا أنه من تنجز به أمن في تلك السنة من سحر كفتار

(حكاية)

بعث إلى السلطان يوما وأنا عنده بالحضرة فدخلت عليه وهو في خلوة وعنده بعض خواصه ورجلان من هؤلاء الجوكية وهم يلهوون بالملاحف ويعطون رؤسهم لأنهم ينتفونها بأرماذ كما ينتف الناس آباطهم فأمرني بالجلوس فجلست فقال لهما إن هذا العزيز من بلاد بعيدة فأرياه ما لم يره فقال نعم فتربع أحدهما ثم ارتفع عن الأرض حتى صار في الهواء فوقنا متر بعا فعجبت منه وأدركني الوهم فوقع على الأرض فأمر السلطان أن أسقي دواء عنده فأفقت وقعدت وهو على حاله متربع فأخذ صاحبه نعلاله من شكارة كانت معه فضرب بها الأرض

كالمتناظ فصعدت إلى أن علت فوق عنق المتربع وجعلت تضرب في عنقه وهو ينزل قليلا قليلا حتى جالس معنا فقال السلطان أن المتربع هو تلييند صاحب النعل ثم قال لولا أنى أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت فأنصرفت عنه وأصابني الحفقان ومرضت حتى أمر لي بشربة أذهبت ذلك عني .

ولنعد لما كنا بسبيله فنقول سافرنا من مدينة برون إلى منزل أمواري ثم منزل كجرا وبه حوض عظيم طوله نحو ميل وعليه الكنائس فيها الأصنام قد مثل بها المسلمون وفي وسطه ثلاث قباب من الحجارة الحجر على ثلاث طباق وعلى أركانه الأربع قباب ويسكن هنالك جماعة من الجوكية وقد لبسوا شعورهم وطالت حتى صارت في طولهم وغلبت عليهم صفرة الألوان من الرياضة ، وكثير من المسلمين يتبعونهم ليعلموا منهم ويذكرون أن من كانت به عاهة من برص أو جذام يأوى اليهم مدة طويلة فيبرأ باذن الله تعالى وأول ما رأيت هذه الطائفة بمحلة السلطان طرمشيرين ملك تركستان وكانوا نحو الخمسين فحفر لهم غارا تحت الأرض وكانوا مقيمين به لا يخرجون إلا لقضاء حاجة ولهم شبه القرن يضربونه أول النهار وآخره وبعد العتمة وشأنهم كله عجب ومنهم الرجل الذي صنع للسلطان غياث الدين الدمغانى سلطان بلاد المعبر حبوبا يأكلها تقويه على الجماع وكان من اخلاطها برادة الحديد فأعجبه فعلمها فأكل منها أزيد من مقدار الحاجة فمات وولى ابن أخيه ناصر الدين فأكرم هذا الجوكى ورفع قدره

ثم سافرنا إلى مدينة جنديرى (وضبط اسمها بفتح الجيم المعقود وسكون النون وكسر الدال المهمل وياء مد وراء) مدينة عظيمة لها أسواق حافلة يسكنها أمير أمراء تلك البلاد عز الدين الزبيرى والعقبيه العالم ووجه الدين البيانى نسبة إلى مدينة بيانه التى تقدم ذكرها والعقبيه القاضى المعروف بقاضى خاصة وأمامهم شمس الدين وكان النائب عنه على أمور المخزن يسمى قهر الدين وناثبه على أمور العسكر سعادة التلنكى من كبار الشجعان وبين يديه تعرض العساكر وأعظم ملك لا يظهر إلا فى يوم الجمعة أو فى غيرها نادراً ثم سرنا من جنديرى إلى مدينة ظهار (وضبط اسمها بكسر الظاء المعجم) وهى مدينة المالوة أكبر عمار تلك البلاد وزرعها كثير خصوصاً القمح ومن هذه المدينة تحمل أوراق التنبول إلى دهلى وبينهما أربعة وعشرون يوماً وعلى الطريق بينهما أعمدة منقوش عليها عدد الأميال فيما بين كل عمودين فإذا أراد المسافر أن يعلم عدد ما سار فى يومه وما بقى له إلى المنزل وإلى المدينة التى يقصدها قرأ النقش الذى فى الأعمدة فعرفه ومدينة ظهار لإقطاع للشيخ إبراهيم الذى من أهل ذيبة المهمل

حكاية

كان الشيخ إبراهيم قدم على هذه المدينة ونزل بخارجها فأحيا أرضا مواتا هنالك وصار يزرعها بطيخا فتأتى فى الغابة من الحلاوة ليس بتلك الأرض مثلها ويزرع الناس بطيخا فيما يجاوره فلا يكون مثله وكان يطعم الفقراء والمساكين فلما قصد السلطان إلى بلاد المهر أهدى إليه هذا الشيخ بطيخا فقبله واستطابه وأقطعه مدينة ظهار وأمره أن يعمر زاوية بربرة يشرف عليها فعمرها أحسن عمارة وكان يطعم بها الوارد والصادر وأقام على ذلك أعواما ثم قدم على السلطان وحمل إليه ثلاثة عشر لكا فقال هذا فضل مما كنت أطعمه الناس ويبت المال أحق به فقبضه منه ولم يعجب السلطان فعله لسكونه جمع المال ولم ينفق جميعه فى إطعام الطعام وبهذه المدينة أراد ابن أخت الوزير خواجه جهان أن يفتك بخاله ويستولى على أمواله ويسير إلى القائم ببلاد المهر فتسمى خبره إلى خاله فقبض عليه وعلى جماعة من الأمراء وبعضهم إلى السلطان فقتل الأمراء ورد ابن أخته إليه فقتله الوزير .

(حكاية)

ولما رد ابن أخت الوزير إليه أمر به أن يقتل كما قتل أصحابه وكانت له جارية يحبها فاستحضرها وأطعمها التنبول وأطعمته وعانقها مودعا ثم طرح للفيلة وساخ جلده وملأه تبنا فلما كان من الليل خرجت الجارية من الدار فرمت بنفسها فى بئر هنالك تقرب من الموضع الذى قتل فيه فوجدت ميتة من الغند فاخرجت ودفن لجمه معها فى قبر واحد وسمى قبور (كور) عاشقا وتفسير ذلك بلسانهم قبر العاشقين ثم سافروا من مدينة ظهار إلى مدينة اجين (وضبط اسمها بضم الهمزة وفتح الجيم وياء ونون) مدينة حسنة كثيرة العمارة وكان يسكنها الملك ناصر الدين بن عين الملك من الفضلاء الكرماء العلماء استشهد بحزيرة سندابور حين افتتاحها وقد زرت قبره هنالك وسنذكره وبهذه المدينة كان سكنى الفقيه الطيب جمال الدين المغربى الغرناطى الأصل ثم سافروا من مدينه اجين إلى مدينة دولة آباد وهى المدينة الضخمة العظيمة الشأن الموازية لحضرة دهلى فى رفعة قدرها واتساع خطتها وهى منقسمة ثلاثة أقسام أحدها دولة آباد وهو يختص بسكنى السلطان وعساكره والقسم الثانى اسمه السكتكة (بفتح الكافين والتاء المعلو التى بينها) والقسم الثالث قلعته التى لا مثل لها ولا نظير فى الحصانة وتسمى الدويقر (بضم الدال المهملة وفتح الواو وسكون الياء وقاف معقود مكسور وياء مد وراء) وبهذه المدينة سكنى الخان الأعظم قطلوخان معلم السلطان بها وببلاد صاغر وبلاد التملك

وما أضيف الى ذلك وعمالتها مسيرة ثلاثة أشهر عامرة كلها بالحكمة ونوايه فيها. وقلعة
الدويقير التي ذكرناها في قطعة حجر في بسيط من الأرض قد نحت وبنى بأعلاها قلعة
يصعد اليها بسلم مصنوع من جلود ويرفع ليلا ويسكن بها المفردون وهم الزماميون
بأولادهم وفيها سجن أهل الجرائم العظيمة في جبوب بها وبها فيران ضخام أعظم من
القطوط والقطوط تهرب منها ولا تطيق مدافعتها لأنها تغلبها ولا تصاد إلا بحبل تدار
عليها وقد رأيتها هناك فمجببت منها

(حكاية)

اخبرني الملك خطاب الافغانى انه سجن مرة في جب بهذه القلعة يسمى جب الفيران
قال فكانت تجتمع على ليلا لتأكلنى فأقالتها والقى من ذلك جهد ثم لنى رأيت فى النوم
قائلا يقول لى اقر سورة الإخلاص مائة ألف مرة ويفرج الله عنك قال فقرأتها فلما اتممتها
اخرجت وكان سبب خروجى ان ملك مل كان مسجوننا فى جب يحاورنى فمرض وأكلت
الفيران صابعه وعينيه فمات فباع ذلك السلطان فقال اخرجوا خطابا لئلا ينفق له مثل ذلك
والى هذه القلعة لجأ ناصر الدين بن ملك مل المذكور والقاضى جلال حين هزمهما السلطان
واهل بلاد دولة آبادهم قبيل المهرته الذين خص الله نساءهم بالحسن وخصوصا فى الانوف
والحواسب ولهن من طيب الخلوة والمعرفة بحركات الجماع ما ليس لغيرهن وكفار هذه
المدينة اصحاب تجارا واكثر تجارتهم فى الجواهر وأموالهم طائلة وهم يسمون الساهة
واحدهم ساه باهمال السنين وهم الاكارم بديار مصر وبدولة آباد العنب والمان ويشمران
مرتين فى السنة وهى من اعظم البلاد بحى وأكبرها خراجا لكثرة عمارتها واتساع
عمالتها واخبرت أن بعض الهنود التزام مغارمها وعمالتها جميعا وهى كما ذكرناها مسيرة
ثلاثة اشهر بسبعة عشر كرورا والسكرور مائة واللك مائة ألف دينار واسكنه لم يف
بذلك فقى عليه بقية واخذ مائة وساخ جلده

(ذكر سوق المغنيين)

وبمدينة دولة آباد سوق للمغنيين والمغنيات تسمى سوق طرب آباد من أجل الاسواق
وأكبرها فيه الدكاكين الكثيرة كل دكان له باب يفضى إلى دار صاحبه وللدار باب سوى
ذلك والمناوت مزينة بالفرش وفي وسطه شكل مهد كبير تجلس فيه المغنية أو ترقد وهى
متزينة بأنواع الحلى وجواربها يحركن مهدها وفي وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة
يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من كل يوم خميس وبين يديه خدامه ومالكة
وتأتى المغنيات طائفة بعد أخرى فيغنين بين يديه ويرقصن إلى وقت المغرب ثم ينصرف
وفى تلك السوق المساجد للصلاة ويصلى الأئمة فيها التراويح فى شهر رمضان وكان بعض
سلاطين السكفار بالهند إذا مر بهذه السوق ينزل بقبتها ويغنى المغنيات بين يديه وقد فعل

ذلك بعض سلاطين المسلمين أيضا ثم سافرنا إلى مدينة نذر بار (وضبط اسمها بنون وبذال معجم مفتوحين وراء مسكن وباء موحدة مفتوحة وألف وراء) مدينة صغيرة يسكنها المرهته وهم أهل الاتقان في الصنائع والأطباء والمنجمون وشرفاء المرهته هم البراهمة وهم الكتريون أيضا وأكلهم الأرز والخضر ودهن السمسم ولا يرون بتعذيب الحيوان ولا ذبحه ويغتسلون للأكل كغسل الجنابة ولا ينسكحون في أقاربهم إلا فيمن كان بينهم سبعة أجداد لا يشربون الخمر وهي عندهم أعظم المعائب وكذلك هي ببلاد الهند عند المسلمين ومن شربها من مسلم جلد ثمانين جلدة وسجن في مطمورة ثلاثة أشهر لا تفتح عليه إلا حين طعامه .

ثم سافرنا من هذه المدينة إلى مدينة صاغر (وضبط اسمها بفتح الصاد المهمل وفتح الغين المعجم وآخره راء) وهي مدينة كبيرة على نهر كبير يسمى أيضا صاغر كما سمعنا وعليه النواعير والبساتين فيها العنب والموز وقصب السكر وأهل هذه المدينة أهل صلاح ودين وأمانة وأحوالهم كلها مرضية ولهم بساتين فيها الزوايا للوارد والصادر وكل من ينفي زاوية يجلس البستان عليها ويجعل النظر فيه لأولاده فإن انقرضوا عاد النظر للقضاة والعمارة بها كثيرة والناس يقصدونها للتبرك بأهلها ولكونها محرة من المغارم والوظائف .

ثم سافرنا من صاغر المذكورة إلى مدينة كنباية (وضبط اسمها بكسر الكاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة وألف وياء آخر الحروف مفتوحة) وهي على خور من البحر وهو شبه الوادي تدخله المراكب وبه المد والجزر وعايذت المراكب به مرساة في الوحل حين الجزر فإذا كان المدعامت في الماء وهذه المدينة من أحسن المدن في اتقان البناء وعمارة المساجد وسبب ذلك أن أكثر سكانها التجار الغرباء فهم أبدأ يبنون بها الديار الحسنة والمساجد العجيبة ويتنافسون في ذلك ومن الديار العظيمة بها دار الشريف السامري الذي أتفقت لي معه قضية الحلواء وكذبه ملك الندماء ولم أرقط اصنخم من الخشب الذي رايت به هذه الدار وبابها كأنه باب مدينة وإلى جانبها مسجد عظيم يعرف باسمه ومنها دار ملك التجار الكازروني وإلى جانبها مسجده ومنها دار التاجر شمس الدين كلاه وزو معناه خياط الشواشي .

(حكاية)

ولما وقع ما قدمناه من مخالفة القاضي جلال الأفغاني أراد شمس الدين المذكور والناخودة الياس وكان من كفار أهل هذه المدينة وملك الحكماء الذي تقدم ذكره على أن يمتنعوا منه بهذه المدينة وشرعوا في حفر خندق عليها إذ لا سور لها فتغاب عليهم ودخلها واختفى الثلاثة المذكورون في دار واحدة وخافوا أن يتطالع عليهم فانفقوا على أن يقتلوا أنفسهم

فضرب كل واحد منهم صاحبه بقتارة وقد ذكرنا صفتها فمات اثنان منهم ولم يمت ملك الحكماء وكان من كبار التجار أيضا بها فنجم الدين الحبلاني وكان حسن الصورة كثير المال وبني بهادارا عظيمة ومسجدا ثم بعث السلطان عنه وامره عليها وأعطاه المراتب فكان ذلك سبب تلف نفسه وماله وكان أمير كنباية حين وصلنا إليها مقبل التتسكي وهو كبير المنزلة عند السلطان وكان في صحبته الشيخ زاده الاصبهاني نائبا عنه في جميع أموره وهذا الشيخ له أموال عظيمة وعنده معرفة بأمور السلطنة ولا يزال يبعث الأموال إلى بلاده ويتحيل في الفرار وبلغ خبره إلى السلطان وذكر عنه أنه يروم الهروب فكتب إلى مقبل أن يبعثه فبعثه على البريد وأحضر بين يدي السلطان ووكل به والعادة عنده أنه متى وكل باحد فقلبا ينجو فاتفق هذا الشيخ مع الموكل به على مال يعطيه إياه وهو با جميعاً وذكر لي أحد الثقات أنه رآه في ركن مسجد بمدينة قلهاة وأنه وصل بعد ذلك إلى بلادهم فحصل على أمواله وآمن مما كان يخافه .

(حكاية)

وأصافنا الملك مقبل يوما بداره فكان من النادر ان يجلس قاضي المدينة وهو أعور العين اليمنى وفي مقبلته شريف بغدادى شديد الشبه به في صورته وعوره إلا أنه أعور اليسرى فجعل الشريف ينظر الى القاضي ويضحك فزجره القاضي فقال له لا تزجرني فاني أحسن منك قال كيف ذلك قال لانك أعور اليمنى وأنا أعور اليسرى فضحك الأمير والحاضرون وخجل القاضي ولم يستطع ان يرد عليه والشرفاء ببلاد الهند مظمون أشد التعظيم وكان بهذه المدينة من الصالحين الحاج ناصر من أهل ديار بكر وسكناه بقبة من قباب الجامع دخلنا إليه واكلنا من طعامه واتفق له لما دخل القاضي جلال مدينة كنباية حين خلا به أنه أتاه وذكر للسلطان انه دعا له فهرب لئلا يقتل كما قتل الحيدري وكان بها أيضا من الصالحين الناجر خواجه اسحاق وله زاوية يطعم فيها الورد والصادر وينفق على الفقراء والمساكين وماله على هذا ينمو ويزيد كثرة وسافرنا من هذه المدينة إلى بلد كاوى وهى على خور فيه المد والجزر من بلاد الرى جالنسى الكافر وسنذكره وسافرنا منها إلى مدينة قندهار (وضبط اسمها بفتح القاف وسكون النون وفتح الدال المهمل وهاء والفاء وراء) وهى مدينة كبيرة للسكفار على خور من البحر .

(ذكر سلطانها)

سلطان قندهار كافر اسمه جالنسى (بفتح الجيم واللام وسكون النون وكسر السين المهمل) وهو تحت حكم الإسلام ويعطى للملك الهندية كل عام لما وصلنا إلى قندهار خرج إلى استقبالنا وأعظمنا أشد التعظيم وخرج عن قصره فانزلنا به وجاء اليينا من عنده من كبار

المسلمين كاولاد خواجه بهره ومنهم الناخوده ابراهيم له ستة من المراكب مختصة له ومن هذه المدينة ركبتنا البحر .

(ذكر ركوبنا البحر)

وركبنا في مركب لابراهيم المذكور تسمى الجاكر (بفتح الجيم والكاف المعقودة) وجعلنا فيه من خيل الهدية سبعين فرسا وجعلنا باقيا مع خيل اصحابنا في مركب لاختى ابراهيم المذكور يسمى منورت (بفتح الميم ونون وواو مد وراء مسكن وتاء معلوة) وأعطانا جاليسى مركبا جعلنا فيه ظهير الدين وسنبل واصحابهما وجهزه لنا بالماء والزاد والعلف وبعث معنا ولدا في مركب يسمى الكيرى (بضم العين المهملة وفتح الكاف وسكون الياء وراء) وهو شبه الخراب إلا أنه أوسع منه وفيه ستون مجذافا ويسقف حين القتال حتى لا ينال الجذافين شيء من البسهم ولا الحجارة وكان ركوبنا في الجاكر وكان فيه خمسون راميا وخمسون من المقاتلة الحبشة وهم زعماء هذا البحر وإذا كان بالمركب أحد منهم تحاماه اصوص الهنود وكفارهم ووصلنا بعد يومين إلى جزيرة بيرم (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وسكون الياء وفتح الراء) وهي خالية وبينها وبين البر أربعة أميال فنزلنا بها واستقمنا الماء من حوض بها وسبب خرابها ان المسلمين دخلوها على الكفار فلم تعمروا بعد وكان ملك التجار الذي تقدم ذكره أراد عمارتها وبني سورها وجعل بها المجانيق واسكن بها بعض المسلمين .

ثم سافرنا منها ووصلنا في اليوم الثاني إلى مدينة قوكة وهي (بضم القاف الأولى وفتح الثانية) وهي مدينة كبيرة عظيمة الاسواق فرسينا على أربعة أميال منها بسبب الجزر ونزلت في عشاري مع بعض اصحابي حين الجزر لا دخل إليها فوحد العشاري في الطين وبقي بيننا وبين البلد نحو ميل فسكنت لما نزلنا في الوحد اتوكا على رجلين من اصحابي وخوفني الناس من وصول المد قبل وصولي إليها وأنا لا أحسن السباحة ثم وصلت إليها وطفقت بأسواقها ورأيت بها مسجدا ينسب للخضر والياس عليهما السلام صليت به المغرب ووجدت به جماعة من الفقراء الحيدرية مع شيخ لهم ثم عدت إلى المركب .

(ذكر سلطانها)

وسلطانها كافر يسمى دنكول (بضم الدال المهملة وسكون النون وضم الكاف وواو ولام) وكان يظهر الطاعة للملك الهند وهو في الحقيقة عاص ولما اقلعنا عن هذه المدينة ووصلنا بعد ثلاثه أيام إلى جزيرة سندابور (وضبط اسمها بفتح السين المهملة وسكون النون وفتح الدال المهملة والفاء براء موحده وواو مد وراء) وهي جزيرة في وسطها ست وثلاثون قرية ويدور بها خروا إذا كان الجزر فاقوا عذب طيب وإذا كان المد فهو ملح أجاج وفي وسطها مدينتان أحدهما قديمة من بناء الكفار والثانية بناها المسلمون عند استفتاحهم لهذه الجزيرة الفتح

الأول وفيها مسجد جامع عظيم يشبه مساجد بغداد عمره الناحودة حسن والد السلطان جمال الدين محمد الطنوري وسيأتي ذكره وذكر عند حضوري معه لفتح هذه الجزيرة الفتح الثاني ان شاء الله وتجاوزنا هذه الجزيرة لما مررنا بها ورسينا على جزيرة صغيرة قريبة من البر فيها كنيسة وبستان وحوض ماء ووجد بها أحد الجوكية .

(حكاية هذا الجوكي)

ولما نزلنا هذه الجزيرة الصغرى وجدنا بها جوكيا مستندا إلى حائط بدخانة وهي بيت الاصنام وهو فيما بين صنمين منها وعليه أثر المجاهدة فكلمناه فلم يتكلم ونظر ناهل معه طمام فلم أر معه طعاما وفي حين انظرنا صاح صيحة عظيمة فسقطت عند صياحه جوزة من جوز النار جيل بين يديه ودفعها لنا فمجبنا من ذلك ودفعنا لدنانير ودرهم فلم يقبلها واتيناه بزاد فرده وكانت بين يديه عبادة من صوف الجبال مطروحة فقلبتها بيدي فدفعها لي وكانت بيدي سبيحة زيلع فقلبتها في يدي فاعطيته أياها ففركها بيده وشمها وقبلها وأشار إلى السماء ثم إلى سمت القبلة فلم يفهم أصحابي اشارته ففهمت أنا عنه انه أشار انه مسلم يخفي إسلامه من أهل تلك الجزيرة ويتعيش من تلك الجوز ولما ودعناه قبلت يده فانكر أصحابي ذلك ففهم انكارهم فأخذ يدي وقبلها وتبسم وأشار لنا بالانصراف فانصرفنا .

وكنت آخر أصحابي خروجا فجذب ثوبي فرددت رأسي إليه فأعطاني عشرة دنانير فلما خرجنا عنه قال لي أصحابي لم جذبك فقلت لهم أعطاني هذه الدنانير وأعطيتم لظهير الدين ثلاثة منها ولسنبل ثلاثة وقلت لهما الرجل مسلم ألا ترون كيف أشار إلى السماء يشير إلى أنه يعرف الله تعالى وأشار إلى القبلة يشير إلى معرفة الرسول عليه السلام وأخذ السبيحة يصدق ذلك فرجعا لما قلت لهما ذلك إليه فلم يجداه وسافرنا تلك الساعة وبالغد وصارنا إلى مدينة هنور (وضبط اسمها بكسر الهاء وفتح النون وسكون الواو وراء) وهي على خور كبير تدخله المراكب السكبار والمدينة على نصف ميل من البحر وفي أيام البشكال وهو المطر يشتد هيجان هذا البحر وطغيانه فيبقى مدة أربعة أشهر لا يستطيع أحد ركوبه إلا للتصيد فيه وفي يوم وصولنا إليها جاءني أحد الجوكية من الطنود في خلوة وأعطاني ستة دنانير وقال لي البرهمي بعثها إليك يعني الجوكي الذي أعطيته السبيحة وأعطاني الدنانير فأخذتها منه وأعطيته ديناراً منها فلم يقبله وانصرف واخبرت أصحابي بالقضية وقلت لهما ان شئتما فخذنا نصيبكما منها فابيا وجملا يعجبان من شأنه وقال لي أن الدنانير الستة التي أعطيتها أياها جعلناها معها مثلها وتركنا بين الصنمين حيث وجدناها فطال عجي من أمره واحتفظت بتلك الدنانير التي أعطانيها وأهل مدينة هنور شافعيه المذهب لهم صلاح ودين وجهاد في الحرب وقوة وبذلك عرفوا حتى أذهم الزمان بعد فتحهم اسناد بور

وسندكر ذلك ولقيت من المتعبدین بهذه المدينة الشيخ محمد الناقورى اضافنى براوئته وكان يطبخ الطعام بيده استقذاراً للجارية والغلام ولقيت بها الفقيه اسماعيل معلم كتاب الله تعالى وهو ورع حسن الخلق كريم النفس والقاضى بها نور الدين عليا والخطيب لا أذكر اسمه ونساء هذه المدينة وجميع هذه البلاد الساحلية لا يلبسن المخيط وإنما يلبسن ثيابا غير مخيطة تحتزم إحداهن بأحد طرفى الثوب وتجعل باقيه على رأسها وصدرها ولهن جمال وعفاف وتجعل إحداهن خرص ذهب فى انفها ومن خصائصهن انهن جميعا يحفظن القرآن الكريم ورأيت بالمدينة ثلاثة عشر مكتبة لتعليم البنات وثلاثة وعشرين لتعليم الأولاد ولم أر ذلك فى سواها ومعايش أهلها من التجار فى البحر ولا زرع لهم وأهل بلاد المليبار يعطون للسلطان جمال الدين فى كل عام شيئا معلوما خوفا منه لقوته فى البحر وعسكره نحو ستة آلاف بين فرسان ورجالة .

(ذكر سلطان هنور)

وهو السلطان جمال الدين محمد بن حسن من خيار السلاطين وكبارهم تحت حكم سلطان كافر يسمى هريب سذكروه والسلطان جمال الدين مواظب للصلاة فى الجماعة وعادته أن يأتى إلى المسجد قبل الصبح فيتلو فى المصحف حتى يطلع الفجر فيصلى أول وقت ثم يركب إلى خارج المدينة ويأتى عند الضحى فيركع فيه ثم يدخل فيه ثم يدخل إلى قصره وهو يصوم الأيام البيض وكان أيام اقامتى عنده يدعونى للافطار . فاحضر لذلك ويحضر الفقيه على والفقيه اسماعيل فتوضع أربع كرسي صغار على الأرض فيعقد على أحداها ويقعد كل واحد منا على كرسى .

(ذكر ترتيب طعامه)

وترتيبه ان يؤتى بمائدة نحاس يسمونها خوخة ويجعل عليها طبق نحاس يسمونه الطالم (بفتح الطاء المهمل وفتح اللام) وتأتى جارية حسنة ملتحفة بثوب حرير فتقدم قدور الطعام بين يديه ومعها مغرفة نحاس كبيرة فتغرف بها من الأرض مغرفة واحدة وتجعلها فى الطالم وتصب فوقها السمن وتجعل مع ذلك عنقايد الفلفل المملوح والزنجبيل الأخضر والليمون المملوح والعنبا فى كل الإنسان لقمة ويتبعها بشيء من تلك الموالح فإذا تمت الغرفة التى جعلها فى الطالم غرفت غرفة أخرى من الأرض وأفرغت دجاجة مطبوخة فى سكرجه فيؤكل كل بها الأرض أيضا فإذا تمت الغرفة الثانية وغرفت وأفرغت لونا آخر من الدجاج تؤكل به فإذا تمت ألوان الدجاج أتوا بالوان من السمك فىأكلون بها الأرض أيضا فإذا فرغت ألوان السمك أتوا بالخضر مطبوخة بالسمن والألالباب فىأكلون بها الأرض فإذا فرغ ذلك كله أتوا بالكوشان وهو اللبن الرائب وبهذا يختمون طعامهم فإذا وضع علم أنه لم يبق شيء .

يؤكل بعده ثم يشربون على ذلك الماء الساخن لأن الماء البارد يضرهم في فصل نزول المطر ولقد أقمت عند هذا السلطان في كرة أخرى أحد عشر شهر المآكل خبزاً أنم طعامهم الأرض وبقيت أيضاً بجزائر المهل وسيلان وبلاد المعير والمليبار ثلاث سنين لا آكل فيها إلا الأرض حتى كنت لا استسيغها إلا بالماء واللباس هذا السلطان ملاحف الحرير والسكتان الرقاق يشد في وسطه فوطه ويلتحف ملحمتين أحدهما فوق الأخرى ويقص شعره ويلف عليه عمامة صغيرة وإذا ركب لبس قباء والتحف بملحمتين فوقه وتضرب بين يديه طبول وأبواق يحملها الرجال وكانت أقامتنا عنده في هذه المرة ثلاثة أيام وزودونا وسافونا عنه .

وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى بلاد المليبار (بضم الميم وفتح اللام وسكون الياء آخر الحروف وفتح الباء الموحدة والفاء وراء) وهي بلاد الفلفل وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من سندابور إلى كولم والطريق في جميعها بين ظلال الأشجار وفي كل نصف ميل بيت من الخشب فيه دكاكين يقعد عليها كل ورد وصادر من مسلم وكافر وعند كل بيت منها بئر يشرب ورجل كافر موكل بها فن كان كافراً سقاء في الأواني ومن كان مسلماً سقاء في يديه ولا يزال يصب له حتى يشير له أو يكف وعادة الكفار ببلاد المليبار أن لا يدخل المسلم دورهم ولا يطعم في أوانهم فإن طعم فيها كسروها وأعطوها للمسلمين وإذا دخل المسلم موضعاً منها لا يكون فيه دار للمسلمين طبخوا له الطعام وصبوه له على أوراق الموز وصبوا عليه الأدام وما فضل عنه ياكلونه الكلاب والطيور وفي جميع المنازل بهذا الطريق ديار المسلمين ينزل عندهم المسلمين فيبيعون منهم جميع ما يحتاجون إليه ويطبخون لهم الطعام ولولا هم لما سافر فيه مسلم وهذا الطريق ذكرنا أنه مسيرة شهرين ليس فيه موضع شبر فما فوقه دون عمارة وكل انسان بستانه على حدة وداره في وسطه وعلى الجميع حائط خشب والطريق يمر في البستانين فإذا انتهى إلى حائط بستان كان هنالك درج خشب يصعد عليها ودرج آخر ينزل عليها إلى البستان الآخر هكذا مسيرة الشهرين .

ولا يسافر أحد في تلك البلاد بدابة ولا تكون الخيل الا عند السلطان وأكثر ركوب أهلها في دولة على رقاب العبيد أو المستأجرين ومن لم يستطع أن يركب ركب في دولة مشى على قدميه كائناً من كان ومن كان له رحل أو متاع من تجارة وسواها أكثرى رجالاً يحملونه على ظهورهم فترى هنالك التاجر ومعه المائة فنادونها أو فرقها يحملون امتعته ويبدل واحد منهم عود غليظ له زج حديد وفي أعلاها خفاف حديد فإذا أعياء لم يجدد كانه يستريح عليها ركن عوده بالأرض وعلق حمله منه فإذا استراح أخذ حمله من غير معين ومضى به ولم أر طريقاً آمن من هذا الطريق وهم يقتلون السارق

على الجوزة الواحدة فاذا سقط شيء من الثمار لم يلتقطه أحد حتى يأخذه صاحبه وأخبرت أن بعض الهنود مروا على الطريق فالتقط أحدهم جوزة وبلغ خبره إلى الحاكم فامر بعوده فركب في الأرض ويرى طرفه الأعلى وأدخل في لوح خشب حتى يرضه ومد الرجل على اللوح وركب في العود وهو على بطنه حتى خرج من ظهره وترك عبرة للناظرين ومن هذا العيدان على هذه الصورة بتلك الطرق كثيرا أيراها الناس فيتمظروا ولقد كنا نلقى الكفار بالليل في هذه الطريق فاذا رأونا تنحوا عن الطريق حتى تجوزوا والمسلمون أعز الناس بها غير أنهم كما ذكرنا لا يواكونهم ولا يدخلونهم دورهم وفي بلاد المليبار اثني عشر سلطانا من الكفار منهم القوي الذي يبالغ عسكري خمسين ألفا ومنهم الضعيف الذي عسكري ثلاثة آلاف ولا فتنة بينهم البته ولا يطمع القوي منهم في انتزاع ما بيد الضعيف وبين بلاد أحدهم وصاحبه باب خشب منقوش فيه اسم الذي هو مبدأ أعماله ويسمونه باب أمان فلان وإذا فر مسلم أو كافر بسبب جنائية من بلاد أحدهم ووصل إلى بلاد أمان الآخر أمن على نفسه ولم يستطع الذي هرب عنه أخذه وإن كان القوي صاحب العدد والجيش وسلاطين تلك البلاد يورثون ابن الاخت ما سلكهم دون أولادهم ولم أر من يفعل ذلك إلا مسوفة أهل التلم (الشم) وستذكرهم فيما بعد إذا أراد السلطان من أهل بلاد المليبار منع الناس من البيع والشراء امر بعض غلبانه فعلق على الحوائث بعض أغصان الأشجار بأوراقها فلا يبيع أحد ولا يشتري ما دامت عليها تلك الأغصان

(ذكر الفلفل)

وشجرات الفلفل شبيهة بدوالي العنب وهم يفرسونها إزاء النار جيل فتصعد فيها كصعود لدوالي ليس لها عسلوج وهو الغزل كما للدواالي وأوراق شجره تشبه آذان الخيل بعضها يشبه أوراق العليق ويشعر عناقيد صغارا حبها كحب أبي قنينة إذا كانت خضراء وإذا كان أوان الخريف قطفوه وفرشوه على الحصر في الشمس كما يصنع بالعنب عند تزيينه ولا يزالون يقلبونه حتى يستحكم يسه ثم يبيعونه من التجار والعامه ببلادنا أنهم يقولونه بالنار وبسبب ذلك يحدث فيه التكريش وليس كذلك وإنما يحدث ذلك فيه بالشمس ولقد رأيت بمدينة القوط يصب للسكر كالذرة ببلادنا أول مدينة دخلناها من بلاد المليبار مدينة أبي سرور (بفتح السين) وهي صغيرة على خور كبير كثيرة أشجار النار جيل وكبير المسلمين بها الشيخ جمعه المعروف بأبي ستة أحد الكرماء أنفق أمواله على الفقراء والمساكين حتى نفدت وبعد يومين منها وصلنا إلى مدينة فاكشور (وضبط اسمها بفتح الفاء والكاف والنون وآخره را) مدينة كبيرة على خور بها قصب السكر الكثير الطيب الذي لا مثيل له بتلك

البلاد وبها جماعة من المسلمين يسمى كبيرهم بحسين السلاط وبها قاض وخطيب وعمرها
حسين المذكور مسجدا لإقامة الجمعة .

(ذكر سلاطانها)

وسلاطان فاكنور كافر اسمه باسدو (بفتح الباء الموحدة والسين المهملة والدال المهملة
وسكون الواو) وله نحو ثلاثين مركبا حربية قائدها مسلم يسمى لولا وكان من المفسدين
يقطع بالبحر ويسلب التجار ولما ارسينا على فاكنور وبعث سلاطانها إلينا ولده فأقام بالمركب
كالرهينة ونزلنا إليه فأضافنا ثلاثا بأحسن ضيافة تعظيما لسلاطان الهند وقيامه بحقه رغبة
فيما يستفيد في التجارة مع أهل مراكبنا ومن عادتهم هنالك أن كل مركب يمر ببلد فلا بد
من إرسائه بها وإعطائه هدية إلى صاحب البلد يسمونها حق البندرو ومن لم يفعل ذلك خرجوا
في اتباعه بمراكبهم وادخلوه المرسى قهرا وضاعفوا عليه المغرم ومنعوه عن السفر ما شاؤا
وسافرنا منها فوصلنا بعد ثلاثة أيام إلى مدينة منجروور (وضبط اسمها بفتح الميم وسكون
النون وفتح الجيم وضم الراء وواو وراء ثانيه) مدينة كبيرة على خور يسمى خور الدنب
(بضم الدال المهملة وسكون النون وياء موحدة) وهو أكبر خور ببلاد الملايبار وبهذه
المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن والغفل والزنجيل بها كثير جدا .

(ذكر سلاطانها)

وهو أكبر سلاطين تلك البلاد واسمه رام دو (بفتح الراء والميم والدال المهملة وسكون
الواو وبها نحو أربعة آلاف من المسلمين يسكنون ربضا بناحية المدينة ربما وقعت الحرب
بينهم وبين أهل المدينة فيصالح بينهم لحاجته إلى التجار وبها قاض من الفضلاء الكرماء
شافعي المذهب يسمى بدر الدين المعيري وهو يقرى العلم صعد إلينا إلى المركب
ورغب منا في النزول إلى بلده فقلنا حتى يبعث ولده يقيم بالمركب فقال إنما يفعل ذلك
سلاطان فاكنور لأنه لا قوة للمسلمين في بلده وأما نحن فالسلاطان يخافنا فأبينا عليه إلا أن
بعث السلاطان ولده كما فعل الآخر ونزلنا إليهم فأكرمونا أكراما عظيما وأقنأه ثلاثة
أيام ثم سافرنا إلى مدينة هيلي فوصلناها بعد يومين (وضبط اسمها بهاء مكسورة وياء
مدولام مكسور) وهي كبيرة حسنة العمارة على خور عظيم تدخله المراكب الكبار وإلى هذه
المدينة تنهى مراكب الصين لا تدخل إلا مرساها ومرسى كولم وقاقوط ومدينة هيلي
معظمة عند المسلمين والكفار بسبب مسجدتها الجامع فإنه عظيم البركة مشرق النور وركاب
البحر ينزرون له الذنور الكثيرة وله خزنة مال عظيمة تحت نظر الخطيب حسين وحسن
الوزان كبير المسلمين وبهذا المسجد جماعة من الطلبة يتعلمون العلم ولهم مرتبات من مال المسجد
وله مطبخة يصنع فيها الطعام للوارد والصادر ولإطعام الفقراء من المسلمين بها ولقيمت بهذا
(٨ — رحلة — ثاني)

المسجد فقيها صالحا من أهل مقدشو يسمى سعيدا حسن اللقاء والخلق يسرد الصوم وذكر أنه جاور بمكة أربع عشر سنة ومثلها بالمدينة وأدرك الأمير بمكة إبانى والأمير بالمدينة منصور ابن جواز وسافر في بلاد الهند والصين ثم سافرا من هيلي مدينة جرفتن (وضبط اسمها بضم الجيم وسكون الراء وفتح الفاء وفتح التاء المعلوة وتشديد ها وآخره نون) وبينه وبين هيلي ثلاثة فراسخ ولقيت بها فقيها من أهل بغداد كبير القدر يعرف بالصرصرى نسبة إلى بلدة على مسافة عشرة أميال من بغداد في طريق السكوفة واسمها كاسم صرصر التي عندنا بالمغرب وكان له أخ بهذه المدينة كثير المال له أولاد صغار أوصى إليهم بهم وتركته آخذنا في حملهم إلى بغداد وعادة أهل الهند كمادة السودان لا يتعرضون لمال الميت ولو ترك الآلاف إنما يبقى ماله بيد كبير المسلمين حتى يأخذوه مستحقته شرعا

(ذكر سلطانها)

وهو يسمى بكويل (بضم الكاف على لفظ التصغير) وهو من أكبر سلاطين المليبار وله مراكب كثيرة تسافر إلى عمان وفارس واليمن ومن بلاده فتن وبدفتن وسندكر هما ورسنا من جرفتن إلى مدينة ده فتن (بفتح الدال المهملة وسكون الهاء) وقد ذكرنا ضبط فتن وهي مدينة كبيرة على خور كثيرة البساتين وبها النارجيل والفلفل والفوفل والتنبول وبها القلماص الكثير ويطبخون به اللحم وأما الموز فلم أر في البلاد أكثر منه ولا أرخص ثمنا وفيها البايين الأعظم طوله خمسمائة خطوة وعرضه ثلاثمائة خطوة وهو مطوى بالحجارة الحجر المنحوتة وعلى جوانبه ثمان وعشرون قبة من الحجر في كل قبة أربع مجالس من الحجر وكل قبة يصعد إليها على درج حجارة وفي وسطها قبة كبيرة من ثلاث طبقات في كل طبقة أربع مجالس وذكر لي أن والده هذا (س) كويل هو الذي عمر هذا البايين وبازائه مسجد جامع المسلمين وله أدراج ينزل منها إليه فيتوضأ منه الناس ويغتسلون وحدثني الفقيه حسين أن الذي عمر المسجد والباي أيضا هو أحد أجداد كويل وأنه كان مسلما ولاسلامه خبر عجيب نذكره.

(ذكر الشجرة العجيبة الشأن التي بازاء الجامع)

ورأيت أنا بازاء الجامع شجرة خضراء تشبه أوراقها أوراق التين الا أنها لينة وعليها حائط يطيف بها وعندها محراب صلوات فيه ركعتين واسم هذه الشجرة عندهم درخت الشهادة ودرخت (بفتح الدال المهملة والراء وسكون الخاء المعجم وتاء معلولة) واخبرت هنالك أنه إذا كان زمان الخريف من كل سنة تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة بعد أن يستحيل لونها إلى الصفرة ثم إلى الحمرة ويكون فيها مكتوبا بقلم القدرة لا اله الا الله محمد

رسول الله وأخبرني الفقيه حسين وجماعة من الثقات انهم عاينوا هذه الورقة وقرأوا المكتوب الذي فيها وأخبرني أنه إذا كانت أيام سقوطها قد تحتها الثقات من المسلمين والكفار فإذا سقطت أخذ المسلمون نصفها وجعل ونصفها في خزانة (س) الكافروهم يستشفون بها للمرضى وهذه الشجرة كانت سبب إسلام جد كويل الذي عمر المسجد والباين فإنه كان يقرأ الخط العربي فلما قرأها وفهم ما فيها أسلم وحسن إسلامه وحكايته عندهم متواترة وحدثني الفقيه حسين أن أحداً ولاده كفر بعد أبيه وطفى وأمر باقتلاع الشجرة من أصلها فاقتلعت ولم يترك لها أثر ثم نبئت بعد ذلك وعادت كأحسن ما كانت عليه وهلك الكافر سريعاً ثم سافرنا إلى مدينة بدفتن وهي مدينة كبيرة على خور كبير وبخارجها مسجد بمقربة من البحر يأوي إليه غرباء المسلمين لأنه لا مسلم بهذه المدينة ومرسأها من أحسن المراسى وماؤها عذب والفوفل بها كثير ومنها يحمل للهند والصين وأكث أهلها براهمة وهم معظمون عند الكفار مبغضون في المسلمين ولذلك ليس بينهم مسلم

﴿ حكاية ﴾

أخبرت أن سبب تركهم هذا المسجد غير مهذوم أن أحد البراهمة خرب سقفه ليصنع منه سقفاً لبيته فاشتعلت النار في بيته فأحرق هو وأولاده ومتاعه فاحترقوا هذا المسجد ولم يبق من ضوا له بسوء بعدها وخدموه وجعلوا بخارجها الماء يشرب منه الصادر والوارد وجعلوا على بابه شبكة لئلا يدخله الطير ثم سافرنا من مدينة بدفتن إلى مدينة فندرينا (وضبط اسمها بفاء مفتوح ونون ساكن ودال مهملة وراء مفتوحة وياء آخر الحروف) مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأسواق وبها للمسلمين ثلاث محلات في كل محلة مسجد في الجامع بها على الساحل وهو عجيب له مناظر ومجالس على البحر وقاضيهما وخطيبها رجل من أهل عمان وله أخ فاضل وبهذه البلدة تشتو مراكب الصين ثم سافرنا منها مدينة قالقوط (وضبط اسمها بقافين وكسر اللام وضم القاف الثاني وآخره طاء مهملة) وهي إحدى البنادر العظام ببلاد المليبار يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل وأهل اليمن وفارس ويجتمع بها تجار الآفاق ومرسأها من أعظم مراسى الدنيا .

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وسلطانها كافر يعرف بالسامري شيخ مسن يحلق لحيته كما يفعل طائفة من الروم رأيت بها وسند كره إن شاء الله وأمير التجار بها إبراهيم شاه بنذر من أهل البحرين فاضل ذو مكارم يجتمع إليه التجار ويأكلون في سماطه وقاضيهما نحر الدين عثمان فاضل كريم وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازروني وله تعطى النذور التي ينذر بها أهل الهند والصين

للشيخ أبي إسحاق الكازروني نفع الله به وبهذه المدينة الناخودة مثقال الشهير الاسم صاحب الأموال الطائلة والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس ولما وصلنا إلى هذه المدينة خرج إلينا إبراهيم شاه بندر والقاضي والشيخ شهاب الدين وكبار التجار ونائب (س) الكافر والمسمى بقلاج (بضم القاف وآخره حيم) ومعهم الأطباء والأفكار والأبواق والأعلام في مراكبهم ودخلنا المرسى في بروز عظيم مارأيت مثله بتلك البلاد فكانت فرحة تتبعها ترحة وأقمنا بمرساها وبه يومئذ ثلاثة عشر من مراكب الصين وازلنا بالمدينة وجعل كل واحد منا في دار وأقمنا ننتظر زمان السفر إلى الصين ثلاثة أشهر ونحن في ضيافة الكافر وبحر الصين لا يسافر فيه إلا بمراكب الصين ولذا ذكر ترتيبها

(ذكر مراكب الصين)

ومراكب الصين ثلاثة أصناف الكبار منها تسمى الجنوك واحدتها جنك (بحجم معقود مضموم ونون ساكن) والمتوسطة اسمها الزو (بفتح الزاي وواو) والصغار اسم أحدها السكم (بكافين مفتوحين) ويكون في المركب الكبير منها اثنا عشر قداما فدونها إلى ثلاثة وألمها من قضبان الخيزران منسوجة كالخصر لا تحطأ بدا ويديرونها بحسب دوران الرياح وإذا أرسوا تركوها واقفة في مهب الرياح ويخدم في المركب منها ألف رجل منهم البحرية ستائة ومنهم أربعائة من المقاتلة تسكون فيهم الرماة وأصحاب الدرق والجرخية وهم الذين يرمون بالنقط ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة النصف والثلاثي والربعي ولا تصنع هذا المراكب إلا بمدينة الزيتون من الصين أو بصين كلان وهي صين الصين وكيفية انشاؤها أنهم يصنعون حائطين من الخشب يصلون ما بينهما بخشب ضخم موصولة بالأرض والطول بمسامير ضخام طول المسار منها ثلاثة أذرع فإذا التأم الحائطان بهذه الخشب صنعوا على أعلاهما فرش الأسفل ودفعهما في البحر وأتموا عمله وتبقى تلك الخشب والحائطان موالية الماء ينزلون فيختمسلون ويقضون حاجتهم وعلى جوانب تلك الخشب يكون مجاذيفهم وهي كبار كالصواري يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلا ويجذفون وقوفاً على أقدامهم ويجعلون للمركب أربعة ظمور ويكون فيه البيوت والمصارى والغرف للتجار والمصرية منها يكون فيه البيوت والسنداس وعليها المفتاح يسدها صاحبها ويحمل معه الجوارى والنساء وربما كان الرجل في مصريته فلا يعرف به غيره ممن يكون بالمركب حتى يتلاقيا إذا وصلا بعض البلاد والبحرية يسكنون فيه أولادهم ويذرعون الخضر والبقول والزنجبيل في أحواض خشب ووكيل المركب كأنه أمير كبير وإذا نزل إلى الرمشث الرماة والخبشة بالحرا ب

والسيوف والاطبال والابواق والانتقام امامه وإذا وصل إلى المنزل الذي يقيم به ركزوا
رماحهم عن جانبي بابه ولا يزالون كذلك مدة إقامته ومن أهل الصين من تكون له المراكب
الكثيرة يبعث بها وكلاءه إلى البلاد وليس في الدنيا أكثر أموالاً من أهل الصين

﴿ ذكر أخذنا من السفر إلى الصين ومنتهى ذلك ﴾

ولما حان وقت السفر إلى الصين جهز لنا السلطان السامري جنكاً من الجنوك الثلاث
عشر التي يمرسى بالقووط وكان وكيل الجنك يسمى بسليمان الصفدي الشامي وبني وبنيه
معرفة فقلت له أريد مصرية لا يشاركني فيها أحد لأجل الجوارى ومن عادتني أن لأسافر
إلا بهن فقال أن تجار الصين قد أكثروا المصارى ذاهبين وراجهين ولصهرى مصرية
أعطيتها لسكرتها لاسنداس فيها وعسى أن تمكن معاوضتها فأمرت أصحابي فأوسقوا ما عندي
من المتاع وصعد العبيد والجوارى إلى الجنك وذلك في يوم الخميس وأقمت لأصلي الجمعة
وألحق بهم وصعد الملك سنبل وظهير الدين مع الهدية ثم انفتح لي يسمى بهلال أتاني غدوة
الجمعة فقال أن المصرية التي أخذناها بالجنك ضيقة لا تصلح فذكرت ذلك لناخودة فقال
ليست في ذلك حيلة فإن أحببت أن تكون في السكم ففيه المصارى على اختيارك فقلت
نعم وأمرت أصحابي فنقلوا الجوارى والمتاع إلى السكم واستقروا به قبل صلاة الجمعة وعادة
هذا البحر أن يشتد هيجانه كل يوم بعد العصر فلا يستطيع أحد ركوبه وكانت الجنوك
قد سافرت ولم يبق منها إلا الذي فيه الهدية وجنك عزم أصحابه على أن يشتروا فنديرنا
والسكم المذكور فبقينا ليلة السبت على الساحل لاستطيع الصعود إلى السكم ولا يستطيع
من فيه النزول اليئس ولم يكن بقي معي إلا بساط افترشه وأصبح الجنك والسكم يوم السبت
على بعد من المرسى ورعى البحر بالجنك الذي كان أهله يريدون فنديرنا فتكسر ومات
بعض أهله وسلم بعضهم وكانت فيه جارية لبعض التجار عزيزة عليه فرغب في إعطاء عشرة
دنانير ذهباً لمن يخرجها وكانت قد التزمت خشبة في مؤخر الجنك فانتدب لذلك بعض
البحرية الهرميين فأخرجها وأبى أن يأخذ الدنانير وقال إنما فعلت ذلك لله تعالى ولما كان
الليل رمى البحر بالجنك الذي كانت فيه الهدية فمات جميع من فيه ونظرنا عند الصباح
إلى مصارعهم ورأيت ظهير الدين قد انشق رأسه وتناثر دماغه والملك سنبل قد ضرب
مسماراً في أحد صدغيه ونفذ من الآخر وصلينا عليهما ودفنناهما ورأيت الكافر سلطان
القووط في وسطه شقة بيضاء كبيرة قد لفها من سترته إلى ركبته وفي رأسه عمامة صغيرة
وهو حافي القدمين والشطر بيد غلام فوق رأسه والنار توقد بين يديه في الساحل وزبائنه

يضرّبون الناس لئلا ينهبوا ما يرمى البحر وعادة بلاد المليبار أن كل ما انسكر من مركب يرجع ما يخرج منه للخزن إلا في هذا البلد خاصة فان ذلك يأخذه أربابا به ولذلك عمرت وكثر تردد الناس اليها ولما رأى أهل السككم ما حدث على الجنك رفعوا قلعهم وذهبوا ومعهم جميع متاعى وغلماى وجوارى وبقيت منفردا على الساحل ليس معى إلا فتى كنت أعتقته فلما رأى ما حل بى ذهب عنى ولم يبق عندى إلا العشرة الدنانير التى اعطانيها الجوكى والبساط التى كنت افترشه واخبرنى الناس ان ذلك السككم لا بد له أن يدخل مرسى كولم فعزمت على السفر إليها وبينهما مسيرة عشر فى البر أو فى النهر أيضا لمن أراد ذلك فسافرت فى النهر واكتريت رجلا من المسلمين يحمل لى البساط وعادتهم إذا سافروا فى ذلك النهر أن ينزلوا بالاعشى فيبيتوا بالقرى التى على حافته ثم يعودوا إلى المركب بالغدو فكنّا نفعل ذلك ولم يسكن بالمركب مسلم إلا الذى اكتريته وكان يشرب الخمر عند الكفار اذا نزلنا ويعربد على فيزيد خاطرى ووصلنا فى اليوم الخامس من سفرنا الى كنجى كرى (وضبط اسمها بكاف مضموم ونون ساكن وجيم وياء مد وكاف مفتوح وراء مكسور وياء) وهى باعلى جبل هنالك يسكنها اليهود ولهم أمير منهم ويؤدون الجزية لسلطان كولم

﴿ ذكر القرقة والبقم ﴾

وجميع الأشجار التى على هذا النهر أشجار القرقة والبقم وهى حطبهم هنالك ومنها كنا نقدر النار لطبخ طعامنا فى ذلك الطريق وفى اليوم العاشر وصلنا إلى مدينة كولم (وضبط اسمها بفتح الكاف واللام وبينهما واو) وهى أحسن بلاد المليبار وأسواقها حسان وتجارها يعرفون بالصولييين (بصم الصاد) لهم أموال عريضة يشتري أحدهم المركب بما فيه ويوسقه من داره بالسلع وبها من التجار المسلمين جماعة كبيرهم علاء الدين الاوجى من أهل آواة من بلاد العراق وهو رافضى ومعه اصحاب له على مذهبه وهم يظهرون ذلك وقاضيهافاضل من أهل قزوين وكبير المسلمين بها محمد شاه بندروله أخ فاضل كريم اسمه تقي الدين والمسجد الجامع بها عجيب عمره التاجر خواجه مهذب وهذه المدينة أول ما يوالى الصين من بلاد المليبار إليها يسافر أكثرهم والمسلمون بها اعزة محترمون

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وهو كافر يعرف بالتيرورى بكسر التاء المعلو وياء مدورا وواو مفتوحين وراء مكسورة وياء) وهو معظم للمسلمين وله أحكام شديدة على السراق والدعار

﴿ حكاية ﴾

وبما شاهدت بكولم ان بعض الرماة العراقيين قتل آخر منهم وفر الى دار الاوجى وكان له ماله كثير واراد المسلمون دفن المقتول فنهضهم نواب والسلطان من ذلك وقالوا لا يدفن حتى تدفوا

لثاقاله فيقتل به وتركوه في تابوته على باب الأوجى حتى أتت وتغير فسكنهم الأوجى من القتال ورغب منهم أن يعطيهم أمواله ويتركوه حياً فأبوا ذلك وقتلوه وحينئذ دفن المقتول ﴿حكاية﴾ أخبرت أن (س) كولم ركب يوماً إلى خارجها وكان طريقه فيما بين البساتين ومعه صهره زوج بنته وهو من أبناء الملوك فأخذ حبة واحدة من العنبة سقطت من بعض البساتين وكان (س) ينظر إليه فأمر به عند ذلك فوسط وقسم نصفين وصاب نصفه عن يمين الطريق ونصفه الآخر عن يساره وقسمت حبة العنبة نصفين فوضع على كل نصف منه نصف منها وترك هنالك عبرة للناظرين

(حكاية)

ومما اتفق نحو ذلك بقا لقوط أن ابن أخى النائب عن سلطانها غصب سيفاً لبعض تجار المسلمين فشكا بذلك إلى ابن عمه فوعده بالنظر في أمره وقعد على باب داره فإذا بابن أخيه متقلداً ذلك السيف فدعاه فقال هذا سيف المسلم قال نعم قال اشتريته منه قال لا فقال لا عوانه امسكوه ثم أمر به فضربت عنقه بذلك السيف وأقت بكولم مدة بزاية الشيخ فخر الدين ابن الشيخ شهاب الدين الكازرونى شيخ زاوية قال قوط فلم أتعرف لكم خبر او فى أثناء مقامى بها دخل اليها ارسال ملك الصين الذين كانوا معنا وكانوا مع احد تلك الجنود فانسكروا ايضا فكساهم تجار الصين ودعادوا إلى بلادهم ولقيتهم بها بعد وأردت أن أعود من كولم إلى (س) لأعلمه بما اتفق على الهدية ثم خفت أن يتعقب فعلى ويقول لم فارقت الهدية فعزمت على العودة إلى (س) جمال الدين الهنورى وأقيم عنده حتى أتعرف خبر الحكم فعدت إلى قال قوط ووجدت بها بعض مراكب (س) فبعث فيها أميراً من العرب يعرف بالسيد أبى الحسن وهو من البرددارية وهم خواص البوابين بعثه (س) بأموال يستجلب بها من قدر عليه من العرب من أرض هرمز والقطيف لمحجته في العرب فتوجهت إلى هذا الأمير ورأيت عازماً على أن يشتوبقا لقوط وحينئذ يسافر إلى بلاد الغرب فشاورة في العودة إلى (س) فلم يوافق على ذلك فسافرت بالبحر من قال قوط وذلك آخر فصل السفر فيه فكنا نسير نصف النهار الأول ثم نرسوا إلى الغدولقينا في طريقنا أربعة أجفان غزويين فحفظنا منها ثم لم يتعرضوا لنا بشروا وصلنا إلى مدينة هنور فنزلت إلى (س) وسلمت عليه فأزلى بدار ولم يكن لي خديم وطالب منى أن أصلى معه الصلوات فكان أكثر جلوسى في مسجده وكنت أختتم القرآن كل يوم ثم كنت أختتم مرتين في اليوم أبتدىء القراءة بعد صلاة الصبح فأختتم عند الزوال واجدد الوضوء وابتدىء القراءة فأختتم الختمة الثانية عند الغروب ولم أزل كذلك مدة ثلاثة أشهر واعتكفت فيها أربعين يوماً

(ذكر توجهنا الى الغزو وفتح سندابور)

وكان السلطان جمال الدين قد جهز المئين وخمسين مركبا وسفرت به برسم غزو سندابور وكان وقع بين سلاطنتها وولده خلاف فكتب ولده الى (س) جمال الدين أن يتوجه لفتح سندابور ويسلم الولد المذكور ويزوجه (س) أخته فلما تجهزت المراكب ظهر لي أن أتوجه فيها الى الجهاد ففتحت المصحف انظر فيه فكان في أول الصفحة يذكر فيه اسم الله كثيرًا ولينصرن الله من ينصره فاستبشرت بذلك واتى (س) الى صلاة العصر فقلت له إني أريد السفر فقال فأنت إذا تكون أميرهم فأخبرته بما خرج لي في أول الصفحة فاعجبه ذلك وعزم على السفر بنفسه ولم يكن ظهر له ذلك قبل فركب مركبا منها وأنامعه وذلك في يوم السبت فوصلنا عشي الاثنين الى سندابور ودخلنا خورها فوجدنا أهلها مستعدين للحرب وقد نصبوا المجانيق فبثنا عليها تلك الليلة فلما أصبح ضربت الطبول والانفاز والابواق وزحفت المراكب ورمت عليها بالمجانيق فلما رأيت حجارة أصاب بعض الواقفين بمقربة من (س) ورمى أهل المراكب أنفسهم في الماء وبأيديهم الترس والسيوف ونزل (س) الى العكيري وهو شبه الشاير ورمى بنفسه في الماء في جملة الناس وكان عندنا طريدتان مفتوحان المواخير فيها الخيل وهي بحيث يركب الفارس فرسه في جوفها ويتدح ويخرج ففعلوا ذلك واذن الله في فتحها وأزل النصر على المسلمين فدخلنا بالسيوف ودخل معظم الكفار في قصر سلطانها فرمينا النار فيه فخرجوا وقبضنا عليهم ثم أن (س) أمرهم ورد لهم نساءهم وأولادهم وكانوا نحو عشرة آلاف وأسكنهم برض المدينة وسكن (س) القصر وأعطى الديار بمقربة منه لأهل دولته وأعطاني جارية منهن تسمى بلسكي فسميتها مباركة وأراد زوجها فداءها فأبيت وكساني فرجية مصرية وجدت في خزائن الكافر وأقمت عنده بسندابور من يوم فتحها وهو الثالث عشر لجمادى الأولى الى منتصف شعبان وطابت منه الاذن في السفر فأخذ على العهد في العودة اليه وسافرت في البحر الى هنور ثم الى فاكنور ثم الى منجور ثم الى هيلي ثم الى جرفتن ردهفن وبدفن وفندرينا وقالقوط وقد تقدم ذكر جميعها ثم الى مدينة الشاليات (وهي بالشيخين المعجم والف ولام وياء آخر الحروف والف وراء معلوة) مدينة من حسان المدن تصنع بها الشياب المنسوبة لها وأقمت بها اطفال مقامى فعدت الى قالقوط ووصل اليها غلامان كانا لي بالسككم فأخبراني ان الجارية التي كانت حاملا وبسببها كان تغير خاطري توفيت وأخذ صاحب الجاوة سائر الجوارى واستوائت الايدي على المتاع وتفرق أصحابي إلى الصين والجاوة بنجالة فعدت ولما تعرفت هذا إلى هنور ثم الى سندابور فوصلنا في آخر المحرم وأقمت بها

الى الثاني من شهر ربيع الآخر وقدم سلطانهم الكافر الذي دخلنا عليه برسم أخذها وهرب
اليه الكفار كلهم وكانت عساكر (س) متفرقة في القرى فانقطعوا عنها وحصرنا الكفار
وضيقوا علينا ولما اشتد الحال خرجت عنها وتركتها محصورة وعدت إلى القوط وعزمت
على السفر إلى ذيبه المهمل وكنت اسمع باخبارها فبعد عشر أيام من ركوبنا البحر بقا القوط
وصلنا جزائر ذيبه المهمل وديبة على لفظ مؤنث الذيب والمهل (بفتح الميم والهاء) وهذه
الجزائر إحدى عجائب الدنيا وهي نحو ألف جزيرة ويكون منها مائة فيما دونها مجتمعات
مستديرة كالحلقة لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب الا منه وإذا وصل المركب إلى
أحداها فلا بد له من دليل من أهلها يسير به إلى سائر الجزائر وهي من التقارب بحيث تظهر
رؤس النخل التي بأحداها عند الخروج من الأخرى فإن أخطأ المركب سمتها لم يمكنه دخولها
وحملته الريح إلى المبر أو سيلان وهذه الجزائر أهلها كلهم مسلمون ذوديانة وصالح وهي
منقسمة إلى أقاليم على كل إقليم وال يسمونه الكردوبي ومن أقاليمها إقليم بالبور (وهو
ببائين معقودتين وكسر اللام وآخره زاء) ومنها كنلوس (بفتح الكاف والذون مع تشديدها
وضم اللام وواو وسين مهمل) ومنها إقليم المهمل وبه تعرف الجزائر كلها وبها يسكن
سلاطينها ومنها إقليم تلاديب (بفتح التاء المعلو واللام والف ودال مهمل وباء مدوباء
موحدة) ومنها إقليم كرايدو (بفتح الكاف وسكون الباء المسفولة وضم الدال المهمل
وواو) ومنها إقليم التيم (بفتح التاء المعلو وسكون الياء المسفولة) ومنها إقليم التيمتي (بفتح التاء
المعلو الأول واللام وضم الدال المهمل وفتح الميم وتشديدها وكسر التاء الأخرى وياء
ومنها إقليم هلمتي وهو مثل اللفظ الذي قبله إلا أن الهاء أوله ومنها إقليم برويدو (بفتح الباء
الموحدة والراء وسكون الياء وضم الدال المهمل وواو) ومنها إقليم كندكل (بفتح الكافين
والدال المهمل وواو) ومنها إقليم ملوك (بضم الميم ومنها إقليم السويد (بالسين المهمل) وهو
أقصىها وهذه الجزائر كلها لا زرع بها إلا أن في إقليم السويد منها زرع يشبه النخيل ويجلب منه إلى
المهل وإنما أكل أهلها سمك يشبه الليرون يسمونه قلب الماس (بضم القاف) ولحمه أحمر ولا
زفر له إنما يحمى كريح لحم الأنعام وإذا اصطادوه قطعوا السمكة منه أربع قطع وطبخوه
يسير أثم جعلوه في مكائيل من سعف النخل وعلقوه للدخان فاذا استحكمت يده أكلوه ويحمل
منها إلى الهند والصين واليمن ويسمونه قلب الماس (بضم القاف)

(ذكر أشجارها)

ومعظم أشجار هذه الجزائر النارجيل وهو من أقواتهم مع السمك وقد تقدم ذكره

وأشجار النار جيل شأنها عجيب وتثمر النخل منها اثني عشر عذقا في السنة يخرج في كل شهر عذق فتكون بعضها صغيرا وبعضها كبيرا وبعضها يابس وبعضها أخضر هكذا أبدا يصنعون منها الخايت والزيت والعسل حسبا ذكرنا لك في السفر الاول يصنعون من عسله الحلواء فيأكلونها مع الجوز اليا بس منه ولذلك كله وللسمك الذي يختزن به قوة عجيبة في الباءة لا نظيرها ولاهل هذه الجزائر عجب في ذلك ولقد كان لي بها أربع نسوة وجوار سواهن فكنت أطوف على جميعهن كل يوم وأبيت عندهن تكون لي ليلتها وأقمت بها سنة ونصف أخرى على ذلك ومن أشجارها الجوح والارج والليمون والقلقاص وهم يصنعون من اصوله دقيقا يعملون منه شبه الاطرية ويطبخونها بحليب النار جيل وهي من اطيب طعام كنت استحسنها كثيرا وأكلها

(ذكر اهل هذه الجزائر وبعض عوائدهم وذكر مساكنهم)

وأهل هذه الجزائر اهل صلاح وديانة وإيمان صحيح ونية صادقة أكلهم حلال دعاؤهم مجاب وإذا رأى الانسان احدهم قال له الله ربى ومحمد نبي وأنا أمى مسكين وابدانهم ضعيفة ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة وسلاحهم الدعاء ولقد أمرت مرة بقطع يد سارق بها فغشى على جماعة منهم كانوا بالجلس ولا تفرقهم لصوص الهند ولا تدعهم لانهم جربوا ان من اخذهم شيئا أصابته مصيبة عاجلة وإذا اتت اجفان العدو الى ناحيتهم اخذوا من وجدوا من غيرهم ولم يتعرضوا لاحد منهم بسوء وان اخذ احدا الكفار ولوليمونة عافيه امير الكفار وضربه الضرب المبرح خوفا من عاقبة ذلك ولو لاهذا اسكانوا اهون الناس على قاصدهم بالقتال اضعف بنيتهم وفي كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة واكثر عمارتهم بالخشب وهم اهل نظافة وتنزه عن الاقدار واكثرهم يغتسلون مرتين في اليوم تنظفا لشدة الحر بها وكثرة العرق ويكثرون من الادهان العطرية كالصندلية وغيرها ويتلطفون بالغالية المجلوبة من مقدشوا ومن عادتهم انهم اذا صلوا الصبح اتت كل امرأة الى زوجها وابنتها بالمسكحلة وماء الورد ودهن الغالية فيكحل عينيه ويدهن بماء الورد ودهن الغالية فتصقل بشرته وتزيل الشحوب عز وجهه واباسهم فوط يشدون الفوطة منها على اوساطهم عوض السراويل ويجعلون على ظهورهم ثياب الوبان (بكسر الواو وسكون اللام وياء وهي شبه الاحاريم وبعضهم يجعل عمامة وبعضهم منديل صغيرا عوضا منها واذا لقي احدهم القاضي او الخطيب وضع ثوبه عن كتفيه وكشف ظهره ومضى معه كذلك حتى يصل الى منزله ومن عوائدهم انه اذا تزوج الرجل منهم ومضى الى دار زوجته بسطت له ثياب

القطن من باب دارها إلى باب البيت وجعل عليها غرفات من الودع عن يمين طريقه إلى البيت وشماله وتسكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره فإذا وصل إليها رمت على رجله ثوبا يأخذه خدامه وإن كانت المرأة هي التي تأتي إلى منزل الرجل بسطت داره وجعل فيها الودع ورمت المرأة عند الوصول إليه الثوب على رجله وكذلك عادتهم في السلام على (س) عندهم لا بد من ثوب يرمى عند ذلك وسند كره

وبنيانهم بالخشب ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الأرض توقيعا من الرطوبات لأن أرضهم ندية وكيفية ذلك أن ينحتوا حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين أو ثلاثة ويجعلونها صفوفًا ويعرضون عليها خشب النارجيل ثم يصنعون الحيطان من الخشب ولهم صناعة عجيبة في ذلك ويبنون في اسطوان الدار بيتا يسمونه المالم (بفتح اللام) يجلس الرجل مع أصحابه ويكون له بابان أحدهما إلى جهة الاسطوان يدخل منه الناس والآخر إلى جهة الدار يدخل منه صاحبها ويكون عند هذا البيت خابية مملوءة ماء ولها مستقى يسمونه الواج (بفتح الواو واللام وسكون النون وجيم) هو من قشر جوز النارجيل وله نصاب طوله ذراعان وبه يسقون الماء من الآبار لقربها وجميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضع وأزقتهم مكنوسة نقية تظللها الأشجار فالماشى بها كإنه في بستان ومع ذلك لا بد لكل داخل إلى الدار أن يغسل رجله بالماء الذي في الخابية بالمالم ويمسحها بحصير غليظ من الليف يكون هنالك ثم يدخل بيته وكذلك يفعل كل داخل إلى المسجد

ومن عوائدهم إذا قدم عليهم مركب أن تخرج إليه الكنادر وهي القوارب الصغار واحدها كندة (بضم الكاف والدال) وفيها أهل الجزيرة معهم التنبول والسكر نبيه وهي جوز النارجيل الأخضر فيعطى الانسان منهم ذلك لمن شاء من أهل المركب ويكون نزله ويحمل امتعته إلى داره كأنه بعض اقربائه ومن اراد التزوج من القادمين عليهم تزوج فإذا حان سفره طلق المرأة لأنهن لا يخرجن عن بلادهن ومن لم يتزوج فالمرأة التي ينزل بدارها تطبخ له وتخدمه وتزوده إذا سافر وترضى منه في مقابلة ذلك بأيسر شيء من الاحسان وفائدة الخزن ويسمونه البندر ان يشتري من كل سلعة بالمركب حظا بسوم معلوم سواء كانت السلعة تساوى ذلك أو أكثر منه ويسمونه شرع البندر ويكون للبندر بيت في كل جزيرة من الخشب يسمونه البجنصار (بفتح الباء الموحدة والجيم وسكون النون وفتح الصاد المهمل وآخره راء) يجمع به الوالى وهو السكر دورى جميع سلعه ويبيع بها ويشترى وهم يشترون الفخار اذا جلب اليهم بالدجاج فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست وتحمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذى ذكرناه وجوز النارجيل والفوط والوليان والعائم وهي

من القطن ويحملون منها أواني النحاس فانها عندهم كثيرة ويحملون الودع ويحملون القنبر (بفتح القاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة والراء) وهو ليف جوز النار جيل وهم يدبغونه في حفر على الساحل ثم يضربونه بالمرازب ثم يغزله النساء وتصنع منه الحبال لحياطة المراكب وتحمل إلى الصين والهند واليمن وهو خير من القنبر وهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن لان ذلك البحر كثير الحجارة فان كان المركب مسمرا بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسروا وإذا كان مخيطا بالحبال أعطى الرطوبة فلم ينكسر وصرف أهل الجزائر الودع وهو حيوان يلتقطونه في البحر ويضعونه في حفر هناك فيذهب لحمه ويبقى عظمه أبيض ويسمون المائة منه سياه (سين مهمل وياء آخر الحروف) ويسمون السبعائة منه الفال (بالفاء) ويسمون الاثني عشر الفامنه السكتي (بضم الكاف وتشديد التاء المملوءة) ويسمون المائة الف منه بستو (بضم الباء الموحدة والتاء المملوءة بينهما سين مهمل) ويبيع بها بقيمة أربعة بساتي بدینار من الذهب وربعه حتى يباع عشر بساتي منه بدینار ویدیعونه من اهل بنجالة بالارزو وهو ايضا صرف اهل بلاد بنجالة ویدیعونه من اهل اليمن فيجعلونه عوض الرمل في مراكبهم وهذا الودع ايضا هو صرف السودان في رايته يباع بمالي وجوجو بحساب الف وخمسين للدينار الذهبي

(ذكر نساها)

ونسأوها لا يخطين رؤسهن ولا سلطانتهن تغطي راسها ويمشطن شعورهن ويجمعنها الى جهة واحدة ولا يلبس اكثرهن إلا فوطه واحدة تسترها من السرة إلى اسفل وسائر اجسادهن مكشوفة وكذلك يمشين في الأسواق وغيرها ولقد جهدت الماوليت القضاء بها ان اتطع تلك العادة وآمرهن باللباس فلم استطع ذلك فسكرت لا تدخل إلى منهن امرأة في خصومة إلا مسترة الجسد وما عدا ذلك لم تكن عليه قدرة ولباس بعضهن قمص زائدة على الفوطه وقمصن قصار الا يكام عراضها وكان لي جوار كسوتهن لباس اهل دهلي يخطين رؤسهن فعابهن ذلك اكثر مما زانهن اذ لم يتعودنه وحلبن الاساور وتجعل المرأة منها جملة في ذراعها بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق وهي من الفضة ولا يجعل اساور الذهب الانساء السلطان واقاربها ولهن الخلا خيل ويسموننها البایل (بباء موحدة والفاء وياء آخر الحروف مكسورة) وقلائد ذهب يجعلنها على صدورهن ويسموننها البسد (بالباء الموحدة وسكن السين المهمل وفتح الدال المهمل والراء) ومن عجيب افعالهن انهن يؤجرن انفسهن للخدمة بالديار على عدد معلوم من خمسة دنانير فما دونها على مستاجرهن نفقتن ولا يرين ذلك عيبا ويفعلها كشر

بناتهم فتجد في دار الإنسان الغنى مئتين العشرة والعشرين وكل ما تكسره من الأواني
 يحسب عليها قيمته وإذا أرادت الخروج من دار إلى دار أعطاها أهل الدار التي تخرج إليها
 العدد الذي هي مرتبة فيه فتدفعه لأهل الدار التي خرجت منها ويبقى عليها الآخرين وأكثر
 شغل هؤلاء المستأجرات غزل القنبر والتزويج بهذه الجزائر سهل لنزارة الصداق وحسن
 معاشرة النساء وأكثر الناس لا يسمى صداقا إنما تقع الشهادة ويعطى صداق مثلها وإذا
 قدمت المرأة كبتزوج أهلها النساء فإذا أودوا السفر طلقوهن وذلك نوع من نكاح المتعة
 وهن لا يخرجن عن بلادهن أبدا ولم أر في الدنيا أحسن معاشرة منهن ولا تكل المرأة عندهم
 خدمة زوجها لسواها بل هي تأتية بالطعام وترفعه بين يديه وتغسل يده وتأتيه بالماء
 للوضوء وتغمر رجليه عند النوم ومن عوائدهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها ولا يعلم الرجل
 ما تأكله المرأة ولقد تزوجت بها نسوة فأكل معي بعضهن بعد محاولة وبعضهن لم
 تاكل معي ولا استطعت أن أراها تاكل ولا نفعتني حيلة في ذلك .

(ذكر السبب في إسلام هذه الجزائر)

(وذكر العفاريات من الجن التي تضربها في كل شهر)

حدثني الثقات من أهلها كالفقيه عيسى بن أبي النجاشي والفقيه المعلم علي والقاضي عبد الله وجماعة
 سواهم أن هذه الجزائر كانوا كفاراً وكان يظهر لهم في كل شهر عفريت من الجن يأتي
 ناحية البحر كأنه مركب مملوء بالقناديل وكانت عادتهم إذا رأوه أخذوا جارية بكراً
 فزبنوها وأدخلوها إلى بدخانة وهي بيت الأصنام وكان مبنياً على ضفة البحر وله طاق
 ينظر إليه ويتركونها هنالك ليلة ثم يأتون عند الصباح فيجدونها مفتضة ميتة ولا يزالون
 في كل شهر يقتربون بينهم فمن أصابته القرعة أعطى بنته ثم أنه قدم عليهم مغربي يسمى
 بأبي البركات البربري وكان حافظاً للقرآن العظيم فنزل بدار عجوز منهم بجزيرة المهمل فدخل
 عليها يوماً وقد جمعت أهلها وهن يبيكين كانهن في مأتم فاستفهمن عن شأنهن فلم يفهمنه
 فأتى ترجمان فأخبره أن العجوز كانت القرعة عليها وليس لها إلا بنت واحدة يقتلها العفريت
 فقال لها أبو البركات أنا أتوجه عوضاً منك بالليل وكان سناها لالحية فاحتلوه تلك
 الليلة وأدخلوه إلى بدخانة وهو متوضئ وأقام يتلو القرآن ثم ظهر له العفريت من الطاق
 فتداوم التلاوة فلما كان منه بحيث يسمع القراءة غاص في البحر وأصبح المغربي وهو يتلو
 على حاله فجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة ليستخرجوا البنت على عادتهم فيحرقوها
 فوجدوا المغربي يتلو فمضوا به إلى ملكهم وكان يسمى شنوارازة (بفتح الشين المعجم

وضم النون ووار وراء والفاء وزاى وهاء) وأعلموه بخبره فعجب وعرض المغربى عليه الإسلام ورغبه فيه فقال له أقم عندنا إلى الشهر الآخر فان فعلت كفعلك ونجوت من العفرية أسلمت فاقام عندهم وشرح الله صدر الملك ناسلام فاسلم قبل تمام الشهر وأسلم أهله وأولاده وأهل دولته ثم حمل المغربى لما دخل الشهر إلى بدخانة ولم يأت العفرية فجعل يتلو حتى الصباح وجاء السلطان والناس معه فوجدوه على حاله من التلاوة فسكسروا الأصنام وهدموا بدخانة وأسلم أهل الجزيرة وبعثوا إلى سائر الجزائر فاسلم أهلها وأقام المغربى عندهم معظما وتمذهبوا بمذهبه مذهب الامام مالك رضى الله عنه وهم إلى هذا العهد يعظمون المغاربة بسببه وبني مسجدا هو معروف باسمه وقرأت على مقصورة الجامع منقوشا فى الخشب أسلم السلطان أحمد شنوارزة على يد ابى البركات البربرى المغربى وجعل ذلك السلطان ثاب مجاى الجزائر صدقة على أبناء السبيل إذ كان إسلامه بسببهم فسمى على ذلك حتى الآن بسبب هذا العفرية خرب من هذه الجزائر كثير قبل الإسلام .

ولما دخلناها لم يكن لى علم بشأنه فبينما أنا ليلة فى بعض شانى إذ سمعت الناس يحجرون بالتهليل والتكبير ورأيت الأولاد وعلى رؤسهم المصاحف والنساء يضربن فى الطسوت وأوتى النحاس فعمجت من فعلهم وقلت ماشانكم فقالوا ألا تنظر إلى البحر فنظرت فاذا مثل المركب الكبير وكأنه مملوء سرجا ومشاعل فقالوا ذلك العفرية وعادته أن يظهر مرة فى الشهر فاذا فعلنا مارأيت انصرف عنا ولم يضرنا .

(ذكر سلطنة هذه الجزائر)

ومن عجائبا أن سلطانتها امرأة وهى خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر بن السلطان صلاح الدين صالح البينجالى وكان الملك لجدها ثم لا يها فلما مات أبوها ولى أخوها شهاب الدين وهو صغير السن فتزوج الوزير عبد الله بن محمد الحضرمى أمه وغالب عليه وهو الذى تزوج أيضا هذه السلطنة خديجة بعد وفاة زوجها الوزير جمال الدين كما سند كره فلما بلغ شهاب الدين مبلغ الرجال أخرج ربيبه الوزير عبد الله ونفاه إلى جزائر السويد واستقل بالملك واستوزر أحد مواليه ويسمى على كلسم ثم عزله بعد ثلاثة أعوام ونفاه إلى السويد وكان يذكر عن السلطان شهاب الدين المذكور أنه يختلف إلى حرم أهل دولته وخواصه بالليل فقاموه لذلك ونفوه إلى إقليم هلدنى وبعثوا من قتله بها ولم يكن بقى من بيت الملك إلا أخواته خديجة الكبرى ومريم وفاطمة فقدموا خديجة سلطنة وكان متزوجة لخطيبهم جمال الدين فصار وزيرا وغالبا على الأمر وقدم ولده محمد للخطابة عوضا منه واسكن الأوامر

لأنما تنفذ باسم خديجة وهم يكتبون الأوامر في سقف النخل بحديدة معوجة شبه السكين ولا يكتبون في السكاغدا لا المصاحف وكتب العلم ويذكرونها الخطيب يوم الجمعة وغيرها فيقول اللهم انصر أمرك التي اخترتها على علم على العالمين وجعلتها رحمة لسكان المسلمين ألا وهي السلطنة خديجة بنت السلطان جلال الدين ابن السلطان صلاح الدين ومن عادتهم إذا قدم الغريب عليهم ومضى إلى المشور وهم يسمونه الدار فلا بد له أن يستصحب ثوبين فيخدم لجهة هذه السلطنة ويرمى باحدهما ثم يخدم لوزيرها وهو روجها جمال الدين ويرمى بالثاني وجندها نحو ألف نفر من الغرباء وبعضهم بلديون ويأتون كل يوم إلى الدار وخدموا وقالوا للوزير بلغ عنا الخدمة واعلم باننا أتينا نطلب مرتبنا فيؤمر لهم بها عند ذلك ويأتي أيضا إلى الدار كل يوم القاضي وأرباب الخطط وشم الوزراء عندهم فيخدمون ويبلغ خدمتهم للفتيان وينصرفون

(ذكر أرباب الخطط وسيرهم)

وهم يسمون الوزراء الأكراب النائب عن السلطنة كذلك (بفتح الكاف الأولى واللام) ويسمون القاضي فنديرا قالوا (وضبط ذلك بفاء مفتوح ونون مسكن ودال مهملة مفتوح وياء آخر الحروف والفاء وراء وقاف والفاء ولام مضموم) وأحكامهم كلها راجعة إلى القاضي وهو أعظم عندهم من الناس أجمعين وأمره كأمر السلطان وأشد ويجلس على بساط في الدار وله ثلاثة جزائر يأخذ مجباها لنفسه عادة قديمة جراها السلطان أحمد شنورازة ويسمون الخطيب هندي جري (بفتح الهاء وسكون النون وكسر الدال وياء مد وجيم مفتوح وراء وياء) ويسمون صاحب الديوان الفاملداری (بفتح الفاء والميم والدال المهملة) واسم صاحب الأشغال ما فا كلوا (بفتح الميم والكاف وضم اللام) واسم الحاكم فتنايك (بكسر الفاء وسكون التاء المعلو وفتح النون والفاء وياء آخر الحروف مفتوحة أيضا وكاف) واسم قائد البحر مانا بك (بفتح الميم والنون والياء) وكل هؤلاء يسمى وزيرا ولا سجن عندهم بتلك الجزائر لأنما يحبس أرباب الجرائم في بيوت خشب هي معدة لأمته التجار ويجعل أحدهم في خشبة كما يفعل عندنا بأسارى الروم

(ذكر وصولي إلى هذه الجزائر وتنقل حال بها)

ولما وصلت إليها نزلت بجزيرة كنلوس وهي جزيرة حسنة فيها المساجد الكثيرة ونزلت بدار رجل من صلحائها وأضافني بها الفقيه على وكان فاضلا له أولاد من طلبة العلم لقيت بها

رجلا اسمه محمد من أهل ظفار الخوض فأضافني وقال لي ان دخلت جزيرة المهمل أمسكك الوزير بها فانهم لا قاضى عندهم وكان غرضي ان أسافر منها إلى المعبر وسرنديب بنجاله ثم إلى الصين وكان قدومى عليها في مركب الناخوذة عمر الهنورى وهو من الحجاج الفضلاء ولما وصلنا كنلوس أقام بها عشرا ثم اكترى كندرة يسافر فيها إلى المهمل بهدية للسلطنة وزوجها فأردت السفر معه فقال لا تسعك الكندرة أنت وأصحابك فان شئت السفر منفردا عنهم فدونك فأبيت ذلك وسافر فلعبت به الريح وعاد اليينا بعد أربعة أيام وقد لقي شدائد فاعتذرتلى وعزم على السفر معه بأصحابى فسكرنا نرحل غدوة فنزل في وسط النهار لبعض الجزائر ونرحل فنييت بأخرى .

ووصلنا بعد أيام إلى إقليم التيم وكان السكرودى يسمى بها هلالا فسلم على وأضافني وجاء إلى ومعه أربعة رجال وقد جعل اثنان عابهم عودا على أكتافهما وعلقا منه أربع دجاجات وجعل الآخران عودا مثله وعلقا منه نحو عشر من جوز النارجيل فعجبت من تعظيمهم لهذا الشيء الحقير فأخبرت انهم صنعوه على جهة السكرامة والاحلال ورسلنا عنهم فنزلنا في اليوم السادس بجزيرة عثمان وهو رجل فاضل من خيار الناس فأكرمنا وأضافنا وفي اليوم الثامن نزلنا بجزيرة الوزير ويقال له التلمذى وفي اليوم العاشر وصلنا إلى جزيرة المهمل حيث السلطنة وزوجها وأرسلنا بمرسأها وعادتهم ان لا ينزل أحد من المرسى إلا باذنهم فأذنوا لنا بالنزول وأردت التوجه إلى بعض المساجد فتمنى الخدام الذين بالساحل وقالوا لا بد من الدخول إلى الوزير .

وكنت أوصيت الناخوذة أن يقول إذا سئل عنى لا أعرفه خوفا من امساكهم إياى ولم أعلم أن بعض أهل الفضول قد كتب اليهم معرقا بخبرى وانى كنت قاضيا بدهلى فلما وصلت إلى الدار وهو المشهور ونزلنا في سقائف على الباب الثالث منه وجاء القاضى عيسى اليمنى فسلم على وسلمت على الوزير وجاء الناخوذة ابراهيم بعشرة أثواب نخدم لجهة السلطنة ورمى بثوب منها ثم خدم للوزير ورمى بثوب آخر ورمى بجميعها وسئل عنى فقال لا أعرفه ثم أخرجوا التنبول وماء الورد وذلك هو السكرامة عندهم وأنزلنا بدار وبعث اليينا الطعام وهو قصعة كبيرة فيها الأرز وتدور بها صحاف فيها اللحم الخايسع والدجاج والسمن والسمن ولما كان بالغد مضيت مع الناخوذة والقاضى عيسى اليمنى لزيارة زاوية في طرف الجزيرة عمرها الشيخ الصالح نجيب وعدنا ليلا وبعث الوزير إلى صديحة تملك الليلة كسوة وضيافة فيها الأرز والسمن والخايسع وجوز النارجل والعسل المصنوع منها وهم يسمونه القربانى (بضم القاف وسكون الراء وفتح الباء الموحدة والفاء ونون وياء) ومعنى ذلك ماء السكر وأتوا بمائة ودعة للنفقة وبعد عشرة أيام قدم مركب من سيلان فيه فقراء

من العرب والمجتم يعرفون فقر فوا خدام الوزير بامرهم فزاد اغتبا على وبعث عنى عند استهلال رمضان فوجدت الأمراء والوزراء وأحضر الطعام في مواعيد يجتمع على المائدة طائفة فاجلسنى الوزير إلى جانبه ومعه القاضى عيسى والوزير الفاملدارى والوزير عمر دهرى ومعناه مقدم العسكر وطعامهم الارز والدجاج والسمن والسمنك والخلع والموز المطبوخ ويشربون بعده غسل النارجيل مخلوطا بالافاوية وهو يهضم الطعام وفى التاسع من شهر رمضان مات صهر الوزير زوج بنته وكانت قبله عند (س) شهاب الدين ولم يدخل بها أحد منها لصغرها فردها أبوها الدار وأعطانى دارها وهى من أجمل الدور واستأذنته فى ضيافة الفقراء القادمين من زيارة القدم فاذن لى فى ذلك وبعث إلى خمساً من الغنم وهى عزيزة عندهم لأنها مجلوبة من المعبر والمليبار ومقدشو وبعث الارز والدجاج والسمن والاباير فبعثت ذلك كله إلى دار الوزير سليمان مانايك فطبخ لى بها فاحسن فى طبخه وزاد فيه وبعث الفرش وأوانى النحاس وأطربنا على العادة بدار السلطنة مع الوزير واستأذنته فى حضور بعض الوزراء بتلك الضيافة فقال لى وأنا أحضراً يضاف شكرته وانصرفت إلى دارى فاذا به قد جاء ومعه الوزراء وأرباب الدولة فجلس فى قبة خشب مرتفعة وكان كل من يأتى من الأمراء والوزراء يسلم على الوزير ويرمى بثوب غير مخيط حتى اجتمع مائة ثوب أو نحوها فأخذها الفقراء وقدم الطعام فأكلوا ثم قرأ القراء بالأصوات الحسان ثم أخذوا فى السماع والرقص وأعددت النار فكان الفقراء يدخلونها ويطؤونها بالأقدام ومنهم من يأكلها كما تؤكل الحلواء إلى أن نمت

(ذكر بعض إحسان الوزير لى)

ولما تمت الليلة انصرف الوزير ومضيت معه فمررنا ببستان للمخزن فقال لى الوزير هذا البستان لك وسأعمر لك فيه داراً لسكنائك فشكرت فعله ودعوت له ثم بعث لى من الغد بجاريه وقال لى خديمه يقول لك الوزير ان اعجبك هذه هى لك وإلا بعثت لك جارية مرهتية وكانت الجوارى المرهتيات تعجبني فقلت له إنما أريد المرهتية فبعثها لى وكان اسمها قلستان ومعناه زهر البستان وكانت تعرف اللسان الفارسى فاعجبني وأهل تلك الجزائر لهم لسان لم أكن أعرفه ثم بعث لى فى غد ذلك بجارية معبرية تسمى عنبرى ولما كانت الليلة بعدها جاء الوزير إلى بعد العشاء الأخيرة فى نفر من أصحابه فدخل الدار ومعه غلامان صغيران فسلمت عليه وسألنى عن حالى فدعوت له وشكرته فألقى أحد الغلامين بين يديه لقشة (بقشة) وهى شبه السبئية وأخرج منها ثياب حرير وحققا فيه جوهر

(٩ — رحلة — ثانى)

فاعطاني ذلك وقال لي اوبعته لك مع الجارية لقالته هو مالي جئت به من دار مولاي والآن هو مالك فاعطه إياه فدعوت له وشكرته وكان اهلا للشكر رحمه الله

(ذكر تخيره وما اردته من الخروج ومقامي بعد ذلك)

وكان الوزير سليمان ما نايك قد بعث إلى أن تزوج بنته فبعثت إلى الوزير جمال الدين مستأذنا في ذلك فعاد إلى الرسول وقال لم يعجبه ذلك وهو يحب أن يزوجه بك بنته إذا انقضت عدتها فابيت أنا ذلك وخفت من شؤمها لأنها مات تحتها زوجان قبل الدخول وأصابني ذلك حتى مرضت بها ولا بد لكل من يدخل تلك الجزيرة أن يحمم فنوى عزمي على الرحلة عنها فبعثت بعض الحلبي بالودع واكثرت مركبا أسافر فيه لينجأ له فلما ذهبت لوداع الوزير خرج إلى القاضي فقال الوزير يقول لك ان شئت السفر فاعطنا ما أعطيناك وسافر فقلت له ان بعض الحلبي اشترى به الودع فشأنكم وإياه فعاد إلى فقال يقول انما أعطيناك الذهب ولم نعطك الودع فقلت له أنا أبيععه وآتيكم بالذهب فبعث إلى التجار ليشتروه مني فأمرهم الوزير أن لا يفعلوا وقصده بذلك كله أن لا أسافر عنه ثم بعث إلى أحد خواصه وقال الوزير يقول لك أقم عندنا ولك كل ما أحببت فقلت في نفسي أنا تحت حكمهم وان لم أقم مختارا أقمت مضطرا فالأقامة باختيارى أولى وقلت لرسوله نعم أنا أقيم معه فعاد إليه ففرح بذلك واستدعاني فلما دخلت إليه قام إلى وعانقني وقال نحن نريد قربك وانت تريد البعد عنا فاعتذرت له فقبل عذري وقلت له ان أردتم مقامي فانا اشتري عليكم شروطا فقال نقبلها فاشتري فقلت له ان لا استطيع المشي على قدمي ومن عادتهم ان لا يركب احد هنالك الا الوزير ولقد كنت لما أعطاني الفرس فركبته يتبعني الناس رجالا وحميلا نا يعجبون مني حتى شكوت له فضربت الدنقرة وبرح في الناس ان لا يتبعني احد والدنقرة (بضم الدال المهمل وسكون النون وضم القاف وفتح الراء) شبه الطست من النحاس تضرب بحديد يده فيسمع لها صوت على البعد فاذا ضربوها حينئذ يبرح في الناس بما يراد فقال لي الوزير ان أردت أن تركب الدولة والاف عندنا حصان ورمكة فاختر ايها شئت فاخترت الرمكة فاتوني بها في تلك الساعة وأتوني بكسوة فقلت له وكيف اصنع بالودع الذي اشتريته فقال ابعث أحد أصحابك ليبيعه لك لينجأ له على ان تبعث انت من يمينه على ذلك فقال نعم فبعث حينئذ رفيقي ابا محمد بن فرحان وبعثوا معه رجلا يسمى الحاج عليا فاتفق ان هال البحر فرموا بكل ما عندهم حتى الزاد والماء والصاري والقربة واقاموا ست عشرة ليلة لا قاع لهم ولا سكان ولا غيره ثم خرجوا ثم إلى جزيرة سيلان بعد جوع وعطش وشدة

وقدم على صاحبي أبو محمد بعد سنة وقد زار القدم وزار هامة ثانية معي

(ذكر العيد الذي شاهدته معهم)

ولما تم شهر رمضان بعث الوزير الى بكسوة وخرجنا الى المصلى وقد زين الطريق التي يمر
الوزير عليها من داره الى المصلى وفرشت الثياب فيها وجعلت كتاني الودع يمنة ويسرة وكل
من له على طريقه دار من الأمراء والكبار قد غرس عندها النخل الصغار من النار جيل
وأشجار الفوفل والموز ومد من شجر الى أخرى شرائط وعلق منها الجوز الأخضر ويقف
صاحب الدار عند بابها فاذا أمر الوزير رمى على رجليه ثوب من الحرير أو القطن فيأخذها
عبيده من الودع الذي يجعل على طريقه أيضا والوزير ماش على قدميه وعليه فرجية مصرية
من المرعز وعمامة كبيرة وهو متقلد فوطه حرير وفوق رأسه أربعة شطور وفي رجليه
النعل وجميع الناس سواء حفاة والأبواق والأنفار والأطبال بين يديه والعساكر أمامه
وخلفه وجميعهم يكبرون حتى أتوا المصلى فخطب ولده بعد الصلاة ثم أتى بمحفة فركب فيها
الوزير وخدم الأمراء والوزراء ورموا بالثياب على العادة ولم يكن ركب في المحفة قبل
ذلك لأن ذلك لا يفعله إلا الملوك ثم رفعه الرجال وركبت فرسى ودخلنا القصر فجلس
بموضع مرتفع وعنده الوزراء والأمراء ووقف العبيد بالترسة والسيوف والعصى ثم أتى
بالطعام ثم الفوفل والتنبول ثم أتى بصحفة صغيرة فيها الصندل المقاصري فاذا أكلت جماعة
من الناس تاطخوا بالصندل ورأيت على بعض طعامهم يومئذ حوتا من السردين ملحوا
غير مطبوخ أهدى لهم من كواهم وهو من بلاد المليبار كثير فأخذ الوزير سردينه وجعل
يأكلها وقال لي كل منه فإنه ليس ببلادنا فقلت كيف آكله وهو غير مطبوخ فقال أنه مطبوخ
فقلت أنا أعرف به فإنه ببلادى كثير

(ذكر تزوجى وولائى القضاء)

وفي الثاني من شوال اتفقت مع الوزير سليمان مانايك على تزوج بنته فبعثت الى الوزير
جمال الدين أن يكون عقد النكاح بين يديه بالقصر فأجاب الى ذلك وأحضر التنبول على
العادة والصندل وحضر الناس وأبطأ الوزير سليمان فاستدعى فلم يأت ثم استدعى ثانية
فاعتذر بعرض البنت فقال لي الوزير سرا أن بنته امتنعت وهى مالهكة أمر نفسها والناس
قد اجتمعوا فهن لك أن تزوج بربيعة (س) زوجة أبيها وهى التى ولده متزوج بنتها
فقلت له نعم فاستدعى القاضى والشهود ووقع الشهادة ودفع الوزير الصداق ورفعت الى
بعد أيام فكانت من خيار النساء وبلغ حسن معاشرتها أنها كانت اذا تزوج عليها تطيبني

وتبخر اثوابي وهي ضاحكة لا يظهر عليها تغير ولما تزوجتها كرهني الوزير على القضاة وسبب ذلك اعتراضى على القاضى لكونه كان يأخذ العشر من التركات اذا قسمها على اباريها فقلت له انما لك اجرة تنفق بهامع الورثة ولم يكن يحسن شيئا فلما وليت اجتهدت جهدى فى اقامة رسوم الشرع وليست هنالك خصومات كما هي ببلا دننا فأول ما غيرت من عوائد السوء مكث المطلقات فى ديار المطلقين وكانت احداهن لا تزال فى دار المطلق حتى تتزوج غيره فحسنت علة ذلك واتى إلى بنحو خمسة وعشرين رجلا ممن فعل ذلك فضربتهم وشهرتهم بالاسواق واخرجت النساء عنهم ثم اشتدت فى اقامة الصلوات وامرت الرجال بالمبادرة الى الارزقة والاسواق اثر صلاة الجمعة فن وجدوه لم يصل ضربته وشهرته والزمتم الائمة والمؤذنين اصحاب المرتبات المواظبة على ما هم بسبيله وكتبت إلى جميع الجزائر بنحو ذلك وجهدت ان اكسو النساء فلم اقدر على ذلك

(ذكر قدوم الوزير عبد الله بن محمد الخضرى الذى نفاه (س) شهاب الدين)

(الى السويد وما وقع بيني وبينه)

كنت قد تزوجت ريبيته بنت زوجته واحببتها حبا شديدا ولما بعث الوزير عنه ورده الى جزيرة المهل بعث له التجف وتلقيته ومضيت معه الى القصر فسلم على الوزير وانزله فى دار جيدة فكنت ازوره بها واتفق ان اعتكفت فى رمضان فزارنى جميع الناس الا هو وزارنى الوزير جمال الدين فدخل هو ومعه بحكم الموافقة فوعدت بيننا الوحشة فلما خرجت من الاعتكاف شكا الى اخوال زوجته ريبيته اولاد الوزير جمال الدين السنجرى فان اباهم اوصى عليهم الوزير عبد الله وأن ما لهم باق بيده وقد خرجوا عن حجره بحكم الشرع وطلبوا احضاره بمجالس الحكم وكانت عادتي اذا بعثت عن خصم من الخصوم ابعث له قطعة كاغدا مكتوبة فعند ما يقف عليها يبادر الى مجالس الحكم الشرعى والاعاقبة فبعثت اليه على العادة فاغضبه ذلك وحقد هالى وأضر عداوتى ووكلى من يتكلم عنه وبلغنى عنه كلام قبيح وكانت عادة الناس من صغير وكبير ان يخدموا له كما يخدمون للوزير جمال الدين وخدمتهم ان يوصلوا السبابة الى الارض ثم يقبلونها ويضعونها على رؤسهم فامرت المنادى فنادى بدار (س) على رؤس الاشهاد انه من خدم للوزير عبد الله كما يخدم للوزير الكبير لزمه العقاب الشديد واخذت عليه ان لا يترك الناس لذلك فزادت عداوته وتزوجت ايضا زوجة أخرى بنت وزير معظم عندهم كان جده (س) داود حفيد (س) احمد شنوازة ثم تزوجت زوجة كانت تحت (س) شهاب الدين وعمرت

ثلاث ديار بالبستان الذى أعطانيه الوزير وكانت الرابعة هى ربيبة الوزير عبد الله تسكن فى دارها وهى أحبهن لى قلما صاهرت من ذكرته ها بنى الوزير وأهل الجزيرة وتحوفوا منى لأجل ضعفهم وسعوا بينى وبين الوزير بالنائم وتولى الوزير عبد الله كبر ذلك حتى تمكنت الوحشة .

﴿ ذكر انفصالي عنهم وسبب ذلك ﴾

واتفق فى بعض الأيام أن عبدا من عبيد السلطان الذى شكته زوجته لى الوزير وأعلمته أنه عند سريره من سرارى السلطان يزنى بها فبعث الوزير الشهود دخلوا دار السرية فوجدوا الغلام نائما معها فى فراش واحد وحبسوها فلما أصبحت وعلمت بالخبر توجهت لى المشور وجلست فى موضع جلوسى لم أتكلم فى شىء ومن أمرها خرج لى بعض الخواص فقال يقول لك الوزير أنك حاجة فقلت لا وكان قصده أن أتكلم فى شأن السرية والغلام إذ كانت عادتى أن لا تقطع قضية الاحكامت فيها فلما وقع التغير والوحشة قصرت فى ذلك فانصرفت الى دارى بعد ذلك وجلست بموضع الاحكام فاذا ببعض الوزراء فقال الوزير يقول لك أنه وقع البارحة كيت وكيت لقضية السرية والغلام فاحكم فيهما بالشرع فقلت له هذه قضية لا ينبغي الحكم أن يكون فيها الا بدار السلطان فعدت اليها واجتمع الناس وأحضرت السرية والغلام فأمرت بضربهما فى الخلوة وأطلقت سراح المرأة وحبست الغلام وانصرفت الى دارى فبعث الوزير الى جماعة من كبراء ناسه فى شأن تسريح الغلام فقلت لهم أشفعون فى غلام زنجى يهتك حرمة مولاى وأتم بالأمس خلعت السلطان شهاب الدين وقتلتموه بسبب دخوله لدار غلام له وأمرت بالغلام عند ذلك فضرب بقصبان الخيزران وهى أشد وقعا من السياط وشهرته بالجزيرة وفى عنقه حبل فذهبوا الى الوزير فأعلموه فقام وقعد واستشاط غضبا وجمع الوزراء ووجوه العسكر وبعث عنى فجئة وكأنت عادتى أن أخدم له فلم أخدم وقلت سلام عليكم ثم قلت للحاضرين اشهدوا على أنى قد عزلت نفسى عن القضاء لعجزى عنه فكلمنى الوزير فصعدت وقعدت بموضع أقبله فيه وجاوبته أغلظ جواب وأذن مؤذن المغرب فدخل الى داره وهو يقول ويقولون انى سلطانوها أنا ذا طلبته لا غضب عليه فغضب على وانما كان اعترازى عليهم بسبب سلطان الهند لأنهم تحققوا مكانى عنده وان كانوا على بعد منه فخوفه فى قلوبهم متمكن فلما دخلنا الى داره بعث الى القاضى المعزول وكان جرى اللسان فقال لى أن مولانا يقول لك كيف هتكت حرمة على رؤس الاشهاد ولم تخدم له فقلت له انما كنت أخدم له حين كان قلبى له طيبا فلما وقع التغير تركت ذلك وتحية المسلمين انما هى السلام وقد سلمت فبعثته الى ثائية فقال انما غرضك الرحيل عنا فاعطى صدقات النساء

واديون الناس وانصرف إذ شئت فخدمت له على هذا القول وذهبت إلى واري فخلصت مما
على من الدين وقد أعطاني في تلك الأيام فرش دار وجهازها من أواني نحاس وسواها وكان
يغطيني كل ما أطلبه ويحبنى ويكرمنى ولسكنه غير خاطره وخوف منى فلما عرف أنى قد خلصت
الدين وعزمت على الرحيل ندم على ما قاله وتلكانى الأذنلى فى الرحيل خلفت بالايان المخلصة
أن لا بد من رحيلى ونقلت ما عندى إلى مسجد على البحر وطلقت إحدى الزوجات وكانت
احداهن حاملا فجعلت لها اجلا تسعة أشهر أن عدت فيها وإلا فأمرها بيدها وحملت معى
زوجتى التي كانت امرأة السلطان شهاب الدين لأسلمها لآبها بجزير ملوك وزوجتى الأولى
التي بنتها أخت السلطانة وتوافقت مع الوزيرة عمردود الوزير حسن قائد البحر على أن
أمضى إلى بلاد المعبر وكان ملكها سلفى فاني منها بالعساكر لترجع الجزائر إلى حكمه وأوب
أناعته فيها وجعلت بينى وبينهم علامة رفع أعلام بيض فى المراكب فإذا رآوها ناروا فى البحر
ولم أكن حدثت نفسى بهذا قط حتى وقع ما وقع من التغير وكان الوزير خائف منى يقول للناس
لا بد لهذا أن يأخذ الوزارة إما فى حياتى وإما بعدماتى ويكثر السؤال عن حالى ويقول سمعت
أن ملك الهند بعث إليه الأموال ليشورها على وكان يخاف من سفرى لئلا آتى بالجيوش من
بلاد المعبر فبعث إلى أن أقيم حتى يحملى مركبا فأبيت وشكت أخت السلطانة لئلا يسفرا معها
معى فأرادت منعها فلم تقدر على ذلك فلما رأت عزمها على السفر قالت لها أن جميع ما عندك
من الحلى هو من مال البندرفان كن لك شهود بأن جلال الدين وهبه لك وإلا فرده وكانت حليها
له خطر فردته إليهم وأنا فى الوزراء والوجوه وأنا بالمسجد وطلبوا منى الرجوع فقلت لهم
لولا أنى خلفت لعدت فقالوا تذهب إلى بعض علماء الجزائر ليبر قسمك وتعود فقلت لهم نعم
ارضاء لهم فلما كانت الليلة التى سافرت فيها أتيت لوداع الوزير فعانقنى وبكى حتى قطرت
دموعه على قدمى وبات تلك الليلة يحترس الجزيرة بنفسه خوفا أن يشور عليه اصهارى وأصحابى
ثم سافرت ووصلت إلى جزيرة الوزير على فأصابت زوجتى أوجاع عظيمة وأحببت
الرجوع فطلقتها وتركتها هنالك وكتبت للوزير بذلك لأنها أم زوجة ولده وطلقت التى
كنت ضربت لها الأجل وبعثت عن جارية كنت أحبها وسرنا تلك الجزائر من إقليم
إلى إقليم

(ذكر النساء ذوات الشدى الواحد)

وفى بعض تلك الجزائر رأيت امرأة لها ثدى واحد فى صدرها ولها ابنتان
احدهما كمثلها ذات ثدى واحد والأخرى ذات ثدين إلا أن أحدهما كبير فيه اللبن والآخر
صغير لا لبن فيه فعجبت من شأنهن ووصلنا إلى جزيرة من تلك الجزائر ليس بها إلا

دار واحدة فيها رجل حائك له زوجة وأولاد وتخيلات نار جبل وقارب صغير يصطاد فيه السمك ويسير به إلى حيث أراد من الجزائر وفي جزيرته أيضا شجيرات مور ولم نرا فيها من طيور البر غير غرابين خرجا إلينا لما وصلنا الجزيرة وطافا بمركبنا فغبطت والله ذلك الرجل وودت أن لو كانت تلك الجزيرة لي فانقطعت فيها إلى أن يأتيني اليقين ثم وصلت إلى جزيرة ملوك حيث المركب الذي لناخوذة ابراهيم وهو الذي عرمت على الرحيل فيه إلى المعبر فجاء إلى ومعه أصحابه وأضافوني ضيافة حسنة وكان الوزير قد كتب لي أن أعطي بهذه الجزيرة مائة وعشرين بستوا من الكودة وهي الودع وعشرين قدحا من الأطوان وهي عسل النارجيل وعددا معلوما من التنبول والفوفل والسمك في كل يوم وأقيمت بهذه الجزيرة سبعين يوما وتزوجت بها امرأتين وهي من أحسن الجزائر وخضرة نضرة رأيت من عجائبها أن الغصن يقطع من شجرها ويركز الأرض أو الحائط فيورق ويصير شجرة ورأيت الرمان بها لا ينقطع له ثمر بطول مافي السنة وخاف أهل هذه الجزيرة من الناخوذة ابراهيم أن ينهبهم عند سفره فأرادوا أمساك مافي مركبه من السلاح حتى يوم سفرة ف وقعت المشاجرة بسبب ذلك وعدنا إلى المهمل ولم ندخلها وكتبت إلى الوزير معلما بذلك فكتب أن لاسبيل لأخذ السلاح وعدنا إلى ملوك وسافرنا منها في نصف وبيع الثاني عام خمسة وأربعين وفي شعبان من هذه السنة توفي الوزير جمال الدين رحمه الله وكانت السلطنة حاملا منه فولدت أثر وفاته وتزوجها الوزير عبد الله وسافرنا ولم يكن معنا رئيس عارف ومسافة ما بين الجزائر والمعبر ثلاثة أيام فسرنا نحو تسعة أيام وفي التاسع منها خرجنا إلى جزيرة سييلان ورأينا جبل سرنديب فيها ذاهبا في السماء كأنه عمود دخان ولما وصلناها قال البحرية ان هذا المرسى ليس في بلاد السلطان الذي يدخل التجار إلى بلاده آمين إنما هذا مرسى في بلاد السلطان ايرى شكروني وهو من العتاة المفسدين وله مراكب تقطع في البحر فخفنا أن ننزل بمرساه ثم اشتدت الريح فخفنا العرق فقلت لناخوذة نزلي إلى الساحل وأنا آخذ لك الأمان من هذا السلطان ففعل ذلك وأنزاني بالساحل فأنا السكفار فقالوا اما أنتم فأخبرتهم أني سالف سلطان المعبر وصاحبه جئت لزيارته وان الذي في هذا المركب هدية له فذهبوا إلى ساطانهم فأعلموه بذلك فاستدعاني فذهبت له إلى مدينه بطالة (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة والطاء المهمل وتشديدها) وهي حضرته مدينة صغيرة حسنة عليها سور خشب وأبراج خشب وجميع سواحلها مملوءة بأعواد القرقة تأتي بها السيول فتجتمع بالساحل كأنها الروابي ويحملها أهل المعبر والمليباردون ثم الا أنهم يهدون للسلطان في مقابلة ذلك الثوب ونحوه وبين بلاد المعبر وهذه الجزيرة مسيره يوم وليلة وبها أيضا من

خشب البقم كثير ومن العود الهندي المعروف بالسكلخي إلا أنه ليس كالقمارى والقاقلى
وسنذكره

(ذكر سلطان سيلان)

واسمه ايرى شكر وتى (بفتح الهمزة وسكون اليا وسكون الراء ثم ياء وشين معجم مفتوح وكاف
مثله وراء مسكنة وواو مفتوح وتاء معلوة مكسورة وياء) وهو سلطان قوى فى البحر رأيت
مرة وأنا بالمعبر مائة مركب من مرا كبه بين صغار وكبار وصلت الى هناك وكانت بالمرسى
ثمانية مراكب للسلطان برسم السفر الى اليمن فأمر السلطان بالاستعداد وحشد الناس لحاية
أجفانه فلما يئسوا من انتهاز الفرصه فيها قالوا إنا جئنا لحاية مراكب لنا تسير أيضا الى
اليمن ولما دخلت على هذا السلطان الكافر قام الى وأجلسنى الى جانبى وكلبنى بأحسن كلام
وقال ينزل أصحابك على الأمان ويكونول فى ضيافتى الى أن يسافروا فإن سلطان المعبر يبنى
وبينه الصحبة ثم أمر بانزالى فأقمت عنده ثلاثة أيام فى كرام عظيم متزايد فى كل يوم وكان
يفهم اللسان الفارسى ويعجبه ما أحدثه به عن الملوك والبلا ودخلت عليه يوما وعنده جواهر
كثيرة أنى بها من مغاص الجواهر الذى بيلاده وأصحابه يميزون النفيس منها من غيره فقال
لى هل رأيت مغاص الجواهر فى البلاد التى جئت منها فقلت له نعم رأيت بحيرة قيس وبحيرة
كش التى لابن السواملى فقال سمعت بها ثم أخذت منه حبات فقال أ يكون فى تلك الجزيرة
مثل هذه فقلت له رأيت ما هو دونها فأعجبه ذلك وقال هى لك وقال لى لا تستحى وأطلب
منى ما شئت فقلت له ليس مرادى من ذلك وصلت هذه الجزيرة الا لزيارة القدم الكريمة قدم آدم
عليه السلام وهم يسمونه (بابا) ويسمون حواء (ماما) قال هذا هين نبعث معك من
يوصلك فقلت ذلك أريد ثم قلت له وهذا المركب الذى جئت به يسافر امننا الى المعبر واذا
عدت أنا بعثتنى ن مراكبك فقال نعم فلما ذكرت ذلك لصاحب المركب قال لى لا أسافر حتى
تعود ولو أقمت سنة بسببك فأخبرت السلطان بذلك فقال يقيم فى ضيافتى حتى تعود
فأعطانى دولة بحملها عبيده على أعناقهم وبعث معى أربعة من الجوكرية الذين عادتهم السفر
كل عام الى زيارة القدم وثلاثة من البراهمة وعشرة من سائر أصحابه وخمسة عشر رجلا يحملون
الزاد واما الماء فهو بتلك الطريق كثير ونزلنا ذلك اليوم على واد جزناه فى معدية مصنوعة
من قصب الخيزران ثم رحلنا من هنالك الى منار مندى (وضبط ذلك بفتح الميم والنون
وألف وراء مسكنة وميم مفتوح وتون مسكن وذال مهمل مفتوح ولام مكسورة وياء)
مدينة حسنة هى آخر عمالة السلطان اضافنا اهلها ضياقة حسنة وضيافتهم عجول الجواميس
بصطادونها بغابة هنالك وياتون بها احياء وياتون بالارز والسمن والحوت والدجاج والابن

و ليس بالمدينة مسلما غير رجل خراساني انقطع بسبب مرضه فسا فر معنا ورحلنا إلى بتلاوات
 (وضبطه بفتح الباء الموحدة وسكون النون وفتح الدال المهمل وسكون الراء وفتح السين
 المهمل واللام والواو والف وتاء معلولة) بلدة صغيرة وسافرنا منها في أوعار كثير المياه وبها
 القليلة الكثيرة إلا أنها لا تؤذى الزوار والغرباء وذلك ببركة الشيخ أبي عبد الله بن خفيف رحمه
 الله وهو أول من فتح هذا الطريق إلى زيارة القدم وكان هؤلاء الكفار يمنعون المسلمين من ذلك
 ويؤذونهم ولا يؤاكلونهم ولا يبايعونهم فلما اتفق للشيخ أبي عبد الله ما ذكرنا في السفر الأول
 من قتل القليلة لأصحابه وسلامته من بينهم وحمل الفيل له على ظهره صار الكفار من ذلك العهد
 يعظمون المسلمين ويدخلونهم دورهم ويطعمون معهم ويطعمون لهم بأهلهم وأرلادهم وهم
 إلى الآن يعظمون الشيخ المذكور أشد تعظيم ويسمون الشيخ الكبير ثم وصلنا بعد ذلك إلى
 مدينة كينسكار (وضبط اسمها بضم الكاف الأول وفتح النون والكاف الثانية وآخره راء)
 وهي حضرة السلطان الكبير بتلك البلاد وبنائها في خندق بين جبلين على خور كبير يسمى
 نخور الياقوت لأن الياقوت يوجد به وبخارج هذه المدينة مسجد الشيخ عثمان الشيرازي
 المعروف بشاوش (بشيئين معجمين بينهما واو مضموم) وسلطان هذه المدينة وأهلها
 يزورونه ويعظمونه وهو كان الدليل إلى القدم فلما قطعت يده ورجله صار الأدلاء أولاده
 وغلبانه وسبب قطعه أنه ذبح بقرة وحكم كفار الهنود أنه من ذبح بقرة ذبح كثلها أو جعل في
 جلدها وحرق وكان الشيخ عثمان معظما فقطعوا يده ورجله وأعطوه بجي بعض الاسواق
 (ذكر سلطانها)

وهو يعرف بالكينار (بضم الكاف وفتح النون وألف وراء) وعنده الفيل الأبيض ولم
 أر في الدنيا فيلا أبيض سواه يركبه في الأعياد ويجعل على جبهته أحجار الياقوت العظيمة
 واتفق له أن قام عليه أهل دولته وسموا عينيه وولوا والده وهو هنالك اعمى

(ذكر الياقوت)

والياقوت العجيب البهرمان إنما يكون بهذه البلدة فمنه ما يخرج من الخور وهو عزيز عندهم
 ومنه ما يحفر عنه وجزيرة سيلان يوجد الياقوت في جميع مواضعها وهي متملكة فيشتري
 الانسان القطعة منها ويحفر عن الياقوت فيجد أحجارا بيضاء مشعبه وهي التي يتكون
 الياقوت في أجوافها فيعطى الحكاكين فيحكونها حتى تنفلق عن أحجار الياقوت فمنه
 الأحمر ومنه الأصفر ومنه الأزرق ويسمونه النيلم (بفتح النون واللام وسكون الياء آخر
 الحروف) وعادتهم أن ما بلغ ثمنه من أحجار الياقوت إلى مائة فتم (بفتح الفاء والنون)

فهو للسلطان يعطى ثمنه ويأخذه وما نقص عن تلك القيمة فهو لأصحابه وصرف مائة فتم ستة
ذناير من الذهب وجميع النساء بخزيرة سيلان هن القائد من الياقوت الملون ويحمله في
أيديهن وأرجلهن عوضاً من الاسورة والخلخال وجوارى السلطان يصنعن منه شبكة
يحملها على رؤسهن ولقد رأيت على جبهة الفيل الأبيض سبعة أحجار منه كل حجر أعظم من
بيضة الدجاج ورأيت عند السلطان ايرى شكروتي سكرجة على مقدار الكف من الياقوت
فيها دهن العود فعملت أعجب منها فقال ان عندنا ما هو أضخم من ذلك ثم سافرنا من كركار
فتزلنا بمغارة تعرف باسم اسطاحمود اللورى (بضم اللام) وكان من الصالحين واحترق تلك
المغارة في سفح جبل عند خور صغير هنالك ثم رحلنا عنها ونزلنا بالخور المعروف بخور
بوزنه (بالباء الموحدة وواو وزاي ونون وهاء) وبوزنه هي القروود

﴿ ذكر القروود ﴾

والقروود بتلك الجبال كثيرة جداً وهي سود الالوان لها أذنان طوال ولذ كورها لحي كما
هي اللادميين وأخبرني الشيخ عثمان وولده وسواهما ان هذه القروود لها مقدم تتبعه كما أنه
سلطان يشد على رأسه عصا من أوراق الاشجار يتوكأ على عصي ويكون عن يمينه ويساره
أربعة من القروود ولها عصي بأيديها وانه إذا جلس القرد المقدم تقف القروود الاربعة على
رأسه وتأتي أنثاه وأولاه فتقعد بين يديه كل يوم وتأتي القروود فتقعد على بعد منه ثم
يكلمها أحد القروود الاربعة فتصرف القروود كلها ثم يأتي كل فرد منها بموزة أو ليمونة أو
شبه ذلك فيأكل القرد المقدم وأولاه والقروود الاربعة وأخبرني بعض الجوكية انه رأى
القروود الاربعة بين يدي مقدمها وهي تضرب بعض القروود بالعصى ثم انتفت وبرد بعد
ضربه وذكر لي الثقات انه إذا ظفر قرد من هذه القروود بصببية لا تستطيع الدفاع عن نفسها
جامها وأخبرني بعض أهل هذه الجزيرة انه كان بداره قرد منها فدخلت بنت له بعض
البيوت فدخل عليها فصاحت به فغلبها قال ودخلنا عليها وهو بين رجلها فقتلناه ثم كان رحيلنا
إلى خور الخيزران ومن هذا الخور أخرج أبو عبد الله بن خفيف الياقوتين اللتين اعطاهما
لسلطان هذه الجزيرة حسباً ذكرناه في السفر الاول ثم رحلنا إلى موضع يعرف بببيت
العجوز وهو آخر العبارة ثم رحلنا إلى مغارة بابا طاهر وكان من الصالحين ثم رحلنا إلى
مغارة السبيك (بفتح السين المنهمل وكسر الباء الموحدة وياء مد وكاف) وكان السبيك من
سلاطين السكفار وانقطع للعبادة هنالك

(ذكر العلق الطيار)

وبهذا الموضع رأينا العلق الطيار ويسمونه لزلو (بضم الزاي واللام) ويكون بالاشجار والحشائش التي تقرب من الماء فاذا قرب الانسان منه وثب عليه فخيثا وقع من جسده خرج منه الدم الكثير والناس يستعدون له الليمون يعصرونه عليه فيسقط عنهم ويجردون الموضع الذي يقع عليه بسكين خشب معه لذلك ويندكر ان بعض الزوار مر بذلك الموضع فتعلقت به العلق فاظهر الجلد ولم يعصر عليها الليمون فتزف دمه ومات وكان اسمه باباخوزي (بالخاء المعجم الممضوم والزاي وهناك مغارة تنسب اليه ثم رحلنا اليه السبع مغارات ثم الى عقبة اسكندر ثم مغارة الاصفهاني وعين ماء وقلعة غير عامرة تحتها خور يعرف بغوطة كاه عارفان وهناك مغارة النارنج ومغارة السلطان وعندها دروارة الجبل اى بابه

(ذكر جبل سرنديب)

وهو من اعلى جبال الدنيا رأينا من البحر وبيننا وبينه مسيرة تسعة ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل قد حال بيننا وبينه وبين رؤية اسفله وفيه كثير من الاشجار التي لا يسقط لها ورق والازهار الملونة والورد الاحمر على قدر الكف ويزعمون ان في ذلك الورد كتابة يقرأ منها اسم الله تعالى واسم رسوله عليه الصلاة والسلام وفي الجبل طريقان الى القدم احدهما يعرف بطريق (بابا) والآخر بطريق (ماما) يعنون آدم وحواء عليهما السلام فاما طريق ماما فطريق سهل عليه يرجع الزوار اذا رجعوا ومن مضى عليه فهو عندهم ممن لم يزر واما طريق بابا فصعب وعمر المرتقى وفي اسفل الجبل حيث دروازته مغارة تنسب ايضا للاسكندر وعين ونحت الاولون في الجبل شبه درج يصعد عليها وغرزوا فيها او تاد الحديد وعلقوا منها السلاسل لئتمسك بها من يصعده وهي عشر سلاسل ثلثان في اسفل الجبل الى حيث الدروازة وسبع متوالية بعدها والعاشرة هي سلسة الشهادة لان الانسان اذا وصل اليها ونظر الى اسفل الجبل ادركه الوهم خوف السقوط ثم اذا جاوزت هذه السلسلة وجدت طريقا مهملة ومن السلسلة العاشر الى مغارة الخضر سبعة اميال وهي في موضع فسيح عندها عين ماء تنسب اليه ايضا ملأى بالحوت ولا يصطاده احد وبالقرب منها حوضان منحوتان في الحجارة عن جنبتي الطريق وبمغارة الخضر يترك الزوار ما عندهم ويصعدون منها ملأين الى اعلى الجبل حيث القدم

(ذكر القدم)

واثر القدم السكرية قدم ابينا آدم صلى الله عليه وسلم في صخرة سوداء مرتفعة بموضع فسيح وقد غاصت القدم السكرية في الصخرة حتى عاد موضعها منخفضا وطولها احد عشر

شبراوأتى اليها أهل الصين قديما فقطعوا من الصخرة موضع الإبهام وما يليه وجعلوه في كنيسة بمدينة الزيتون ويقصدونها من اقصى البلاد وفي الصخرة حيث القدم تسع حفر منحوتة يجعل الزوار من الكفار فيها الذهب والياقوت والجواهر فترى الفقراء إذا وصلوا مغارة الخضر يتسابقون منها لاخذ ما بالحفر ولم نجد نحن بها الا سير حجيرات وذهب اعطيناها الدليل والعادة ان يقيم الزاور بمغارة الخضر ثلاثة أيام يأتون فيها الى القدم غدوة وعشيا وكذلك فعلنا

ولما تمت الايام الثلاثة عدنا على طريق ما لانزلنا بمغارة شيم وهو شيت ابن آدم عاينهما السلام ثم الى خور السمك ثم الى قرية كرملة (بضم الكاف وسكون الراء وضم الميم) ثم الى قرية جبر كاوان (بفتح الجيم والباء الموحدة وسكون الراء وفتح الكاف والواو وآخره نون) ثم الى قرية دل دينوة (بدالين مهملين مكسورين بينهما لام مسكن وياء مدونون مفتوح وواو مفتوح وتاء تأنيث) ثم الى قرية آت فلنجة (بهمزة مفتوحة وتاء مشاة مسكنة وقاف ولام مفتوحين ونون مسكن وجيم مفتوح وهنالك (كان) يشقى الشيخ أبو عبدالله بن خفيف وكل هذه القرى والمنازل هي بالجبل وعند أصل الجبل في هذا الطريق درخت روان ودرخت هي (بفتح الدال المهمل والراء وسكون الحاء المعجم وتاء معلوة) وروان (بفتح الراء والواو والفاء ونون) وهي شجرة عادية لا يسقط لها ورق ولم أر من رأى ورقها ويعرفونها أيضا بالماشية لان الناظر اليها من أعلى الجبل يراها بعيدة منه قريبة من أسفل الجبل والناظر اليها من أسفل الجبل يراها بعكس ذلك ورأيت هنالك جملة من الجوكرين ملازمين أسفل الجبل ينتظرون سقوط ورقها وهي بحيث لا يمكن التوصل اليها البتة ولهم كاذيب في شأنها من جملتها ان من اكل من اوراقها عاد له الشباب ان كان شيخا ذلك باطل وتحت هذا الجبل الخور العظيم مذى يخرج منه الياقوت وماؤه يظهر في رأى العين شديد الزرقة

ورحلنا من هنالك يومين الى مدينة دينور (وضبط اسمها بدال مهمل مكسور وياء مدونون وواو مفتوحين وراء) مدينة عيظمه على البحر يسكنها التجار وبها الصنم المعروف بدينور في كنيسة عظيمة فيها نحو الف من البراهمة والجوكرية ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود وينمنين كل ليلة عند الصنم ويرقصن والمدينة ومجاهاها وقف على الصنم وكل من بالكنيسة ومن يرد عليها يا كلون ذلك والصنم من ذهب على قدر الأدنى وفي موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان اخبرت انها تضئتان بالليل كالقنديل ثم رحلنا الى مدينة قالى (بالقاف وكسر اللام) وهي صغيرة على ستة فراسخ من دينور وبها رجل من المسلمين يعرف بالناخودة ابراهيم أضافنا بموضعه

ورحلنا إلى مدينة كلنبو (بفتح الكاف واللام وسكون النون وضم الباء الموحدة وواو) وهي من أحسن بلاد سرنديب وأكبرها وبها يسكن الوزير حاكم البحر جالسنى ومعه نحو خمسمائة من الخبشة ثم رحلنا فوصلنا بعد ثلاثة أيام إلى بطالة وقد تقدم ذكرها ودخلنا إلى سلطانها الذى تقدم ذكره ووجدت الناخودة ابراهيم فى انتظارى فسافرننا بقصد بلاد المعبر وقويت الريح وكاد الماء يدخل فى المركب ولم يكن لنا رئيس عارف ثم وصلنا إلى حجارة كداد المركب ينسكر فيها ثم دخلنا بحراً قصيراً فجلس المركب ورأينا الموت عياناً ورمى الناس بما معهم وتوادعوا و قطعنا صارى المركب فرمينا به وصنع البحرية معدية من الخشب وكان بيننا وبين البحر فرسخان فأردت أن أنزل فى المعدية وكان لى جاريتان وصاحبان من أصحابى فقال أنزل وتتركنا فأثرتهما على نفسى وقلت أنزلا أتما والجارية التى أحبها فتمالت الجارية أنى أحسن السباحة فأعلن بحبل المعدية واعوم معهم فنزل رفيقائى واحدهما محمد بن فرحان التوزرى والآخر رجل مصرى والجارية معهم والأخرى تموم وربط البحرية فى المعدية حبلاً وسبحوا بها وجمعت معهم ما عز على من المتاع والجواهر والعنبر فوصلوا إلى البرسالمين لأن الريح كانت تساعدهم وأقامت بالمركب ونزل صاحبه إلى البر على الدقة وشرع البحرية فى عمل أربع من المعادى فجاء الليل قبل تمامها ودخل معنا الماء فصعدت إلى المؤخر وأقامت به حتى الصباح وحينئذ جاء إلينا بعض السكفار فى قارب لهم ونزلنا معهم إلى الساحل ببلاد المعبر فأعلمناهم أننا من أصحاب سلطانهم وهم تحت ذمته فكتبوا إليه بذلك وهو على مسيرة يومين فى الغزو كتبت أنا إليه بما اتفق على وأدخلنا أولئك السكفار إلى غيضة عظيمة فأثروا بفأكة تشبه البطيخ بشمرها شجره المقل وفى داخلها شبه قطن عليه عسلية يستخرجونها ويصنعون منها حلواء يسمونها النل وهى تشبه السكر وأثروا بسمك طيب وأقمنا ثلاثة أيام ثم وصل من جملة السلاطان أمير يعرف بقصر الدين معه جماعة من فرسان ورجال وجاؤا بالدولة وب عشرة خيول ركبت وركب أصحابى وصاحب المركب وإحدى الجاريتين وحملت الثانية فى الدولة ووصلنا إلى حصن هر كاتو (وضبط اسمه بفتح الهاء وسكون الراء وفتح الكاف والفاء وتاء معالوة مضمومة وواو) وبتنا وتركنا فيه الجوارى وبعض الغلمان والأصحاب ووصلنا فى اليوم الثانى إلى محلة السلطان

(ذكر سلطان بلاد المعبر)

هو غياث الدين الدامغانى وكان فى أول أمره فارساً من فرسان الملك مجير بن أبى الرجا أحد خدام السلطان محمد ثم خدم الأمير حاجى بن السيد السلطان جلال الدين ثم ولى

الملك وكان يدعى سراج الدين قبله فلما ولي تسمى غياث الدين وكانت بلاد المعبر تحت حكم السلطان محمد ملك دهلي ثم صار بها صهرى الشريف جلال الدين أحسن شاه وملك بها خمسة أعوام ثم قتل وولى أحد أمرائه وهو علاء الدين اديجي (بضم الهمزة وفتح الدال المهملة وسكون الياء آخر الحروف وكسر الجيم) فملك سنة ثم خرج إلى غزوالسكفار فأخذ لهم أموالا كثيرة وغنائم واسعة وعاد إلى بلاده وغزاهم في السنة الثانية فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة واتفق يوم قتله لهم أن رفع المغفر عن رأسه ليشرب فأصابه سهم فمات من حينه فولوا صهره قطب الدين ثم لم يحمدوا سيرته فقتلوه بعد أربعين يوما وولى بعده السلطان غياث الدين وتزوج بنت السلطان الشريف جلال الدين التي كانت متزوجة أختها بدهلي

(ذكر وصولي إلى السلطان غياث الدين)

ولما وصلنا إلى قرب من منزله بعث بعض الحجابات لئلا ينادوا وكان قاعدا في برج خشب وعادتهم بالهند أن لا يدخل أحد على السلطان دون خوف ولم يكن عندي خوف فأعطاني بعض السكفار خفا وكان هنالك من المسلمين جماعة فمعجبت من كون الكافر كان أنتم مروءة منهم ودخلت على السلطان فأمرني بالجلوس ودعا القاضي الحاج صدر الزمان بهاء الدين وأنزاني في جواره ثلاثة من أخبية وهم يسمونها الخيام وبعث بالعرش وبطعامهم وهو الارز واللحم وعادتهم هنالك أن يسقوا اللبن الرائب على الطعام كما يفعل ببلادنا ثم اجتمعت به بعد ذلك والقيت له أمر جزائر ذبيبة المهمل وإن يبعث الجيش إليها فأخذ في ذلك بالاعزم وعين المراكب لذلك وعين الهدية لسلطانها والخلع للوزراء والأمراء والعطايا لهم وفوض إلى في عقد نكاحه مع أخت السلطنة وأمر بوثق ثلاثة مراكب بالصدقة الفقراء الجزائر وقال لي يكون رجوعك بعد خمسة أيام فقال له قائد البحر خواجه سرلك لا يمكن السفر إلى الجزائر إلا بعد ثلاثة أشهر من الآن فقال لي السلطان أما إذا كان الأمر هكذا فامض إلى فن حتى تقضى هذه الحركة وتعود إلى حضرتنا مترة ومنها تكون الحركة فأقمت معه بخلال ما بعثت عن الجوارى والأصحاب .

(ذكر ترتيب رحيله وشنيع فعله في قتل النساء والولدان)

وكانت الأرض التي نسلكتها غيضة واحدة من الأشجار والقصب بحيث لا يسلكها أحد فأمر السلطان أن يكون لكل واحد من الجيش من كبير وصغير قاذوم لقطع ذلك فاذا نزلت المحلة ركب إلى الغابة والناس معه فقطعوا تلك الأشجار من غدوة النهار إلى الزوال ثم يوثق بالطعام فيها كل جميع الناس طائفة بعد أخرى ثم يعودون إلى قطع الأشجار إلى العشي وكل من وجدوه من السكفار في الغيضة أسروه وصنعوا خشبة محددة الطرفين فجعلوها على كتفيه

يحملها ومعه امراته واولاده ويؤتى بهم إلى المحلة وعادتهم ان يصنعوا على المحلة سورا من خشب يكون له اربعة ابواب ويسمونه السكتكر (بفتح الكافين وسكون التاء المعلوة وآخره راء) ويصنعون على دار (س) كتكرا ثانيا ويصنعون خارج السكتكر الاكبر مصاطب ارتفاعها نحو نصف قامة ويوقدون عليها النار بالليل ويبعث عندها العبيد والمشاؤون ومع كل واحد منهم حزمة من رقيق القصب فاذا اتى احدى الكفار ليضربوا على المحلة ليل او قد كل واحد منهم الحزمة التي بيده فعاد الليل شبه النهار لسكثرة الضياء وخرجت الفرسان في اتباع الكفار فاذا كان عند الصباح قسم الكفار الماسورون بالامس اربعة اقسام واتى الى كل باب ابواب السكتكر بقسم منهم فركزت بالخشب التي كانوا يحملونها بالامس عنده ثم ركزوا فيها حتى تنفذهم ثم تدبج نساؤهم ويربطن بشعورهن الى تلك الخشاب ويدبج الاولاد الصغار في حجورهن ويتركون هنالك وتترك المحلة ويشغلون بقطع غيضة اخرى ويصنعون بمن اسروه كذلك وذلك امر شنيع ما علمته لاحد من الملوك وبسببه عجل الله حينه ولقد رأيت يومه والقاضى عن يمينه واباعن شماله وهو يأكل معنا وقد اتى بكافر معه امراته وولد سنه سبع فأشار إلى السيافين بيده ان يقطعوا رأسه ثم قال لهم وزن أو بسر او معناه وابنه وزوجته فقطعت رقابهم وصرفت بصرى عنهم فلما قت وجدت رؤسهم مطروحة بالارض وحضرت عنده يوما وقد اتى برجل من الكفار فتكلم بما لم افهمه فاذا بجماعة من الزبانية قد استلوا سكاكينهم فبادرت القيام فقال لى الى اين فقلت اصلى العصر ففهم عنى وضحك وامر بقطع يديه ورجليه فلما عدت وجدته متشحطافى دماؤه

(ذكر هزيمته للكفار وهى من اعظم فتوحات الاسلام)

وكان فيما يجاور بلاده سلطان كافر يسمى بلاديو (بفتح الباء الموحدة ولام والفاء ولام ثانية ودال مهمل مكسور وياء اخر الحروف مفتوحة وواو مسكن) وهو من كبار سلاطين الكفار يزيد عسكره على مائة الف ومعه نحو عشرين الفا من المسلمين اهل الدعارة وذوى الجنائيات والعبيد الفارين فطمع فى الاستلاء على بلاد المعبر وكان عسكر المسلمين بهاستة الاف منهم النصف من الجياد والنصف الثانى لاخير فيهم ولا غناء عندهم فلقوه بظاهر مدينة كبان فهزمهم ورجعوا الى حضرة مترة ونزل الكافر على كبان وهى من اكبر مدنها واحصنها وحاصرها عشرة اشهر ولم يبق لهم من الطعام الا قوت اربعة عشر يوما فبعث لهم الكافر ان يخرجوا على الامان ويتركوا له البلد فقالوا له لا بد من مطالعة سلاطنتنا بذلك فوعدهم الى تمام اربعة عشر يوما فسكتب الى السلطان غياث الدين بامرهم فقرأ كتابهم

على الناس يوم الجمعة فبكوا وقالوا نبيع انفسنا من الله فان الكافر ان اخذ تلك المدينة انتقل الى حصارنا فالموت تحت السيوف أولى بنا فتعاهدوا على الموت وخرجوا من الغد ونزعوا العمائم عن رؤسهم جعلوها في اعناق الخيل وهي علامة من يريد الموت وجعلوا ذوى النجدة والابطال منهم في المقدمة وكانوا ثلاثمائة وجعلوا على الميمنة سيف الدين بهادور وكان فقيها ورعا شجاعا وعلى الميسرة الملك محمد السلحدار وركب السلطان في القلب ومعه ثلاثة الاف وجعل الثلاثة الالف الباقين ساقة لهم وعليهم اسد الدين كيخسرو الفارسي وقصدوا محلة الكافر عند القايلة واهلها على غرة وخيلهم في المرعى فاغاروا عليها وظن الكفار انهم سراق فخرجوا اليهم على غير تعبئة وقاتلوه فوصل السلطان غياث الدين فانهزم الكفار شر هزيمة واراد سلطانهم ان يركب وكان ابن ثمانين سنة فادركه ناصر الدين بن اخي السلطان الذي ولي الملك بعده فأراد قتله ولم يعرفه فقال له احد غلماناه هو السلطان فأسره وحمله الى عمه فأكرمه في الظاهر حتى حبي منه الاموال والفيلة الخيل وكان يعده السراح فلما استصفي ما عنده ذبحه وسلخه وملا جلده بالثبن فعلق على سور مترة ورأيت به معلقا وانعد الى كلامنا فنقول ورحلت عن المحلة فوصلت الى مدينته فتن (بفتح الفاء والتاء والمثناة المشددة ونون) وهي كبيرة حسنة على الساحل ومرساها عجيب قد صنعت فيه قبة خشب كبيرة قائمة على الخشب الضخام يصعد اليها على طريق خشب مسقف فاذا جاء العدو وضمو اليها الاجفان التي تكون بالمرسى وصعدوا الرجال والرماة فلا يصيب العدو وفرصة وبهذه المدينة مسجد حسن مبني بالحجارة وبها العنب الكثير والارمان والطيب ولقيت الشيخ الصالح محمد النيسابوري احد الفقراء المولاهين الذين يسدلون شعورهم على اكتافهم ومعه سبع رباه يأكل مع الفقراء ويقعد معهم وكان معه نحو ثلاثين فقيرا لاحد هم غزاة تكون مع الاسد في موضع واحد فلا يعرض لها واقمت بمدينة فتن وكان السلطان غياث الدين قد صنع له احد البجوكية حبوبا للقوة على الجماع وذكروا ان من جملة اخلاطها براده الحديد فأكل منها فوق الحاجة فمرض ووصل الى فتن فخرجت الى لقائه واهدت له هدية فلما استقر بها بعث عن قائد البحر خواجة سرور فقال له لا تشتغل بسوى المراكب الميمنة للسفر الى الجزائر واراد ان يعطيني قيمة الهدية فابيت ثم ندمت لانه مات فلم اخذ شيئا وأقام بفتن نصف شهر ثم رحل الى حضرته واقمت انا بعده نصف شهر ثم رحلت الى حضرته وهي مدينة مترة (بضم الميم وسكون التاء المعلو وفتح الراء) مدينة كبيرة متسعة الشوارع واول من اتخذها حضرة صهرى السلطان الشريف جلال الدين

أحسن شاه وجعلها شبيهة بدهلي وأحسن بناءها ولما قدمتها وجدت بها وباء يموت منه الناس موتاً ذريعاً فمن مرض مات من ثاني يوم مرضه أو ثالثة وإن أبطأ موته فالى الرابع فسكنت إذا خرجت لأرى إلا مريضاً أو ميتاً واشتريت بها جارية على أنها صحيحة فماتت فى يوم آخر ولقد جاءت إلى فى بعض الايام امرأة كان زوجها من وزراء السلطان أحسن شاه ومعه ابن لهاسنه ثمانية أعوام نبيل كيس فطن فشكت ضعف حالها فاعطيتها نفقة وهما صحيحان سوياً فلما كان من الغد جاءت تطلب لولدها المذكور كفناً وإذا به قد توفى من حينه وكنت أرى بمشور السلطان حين مات الميتين من الخدم اللاتي أتى بهن لدق الارز المعمول منه الطعام لغير السلطان وهن مريضات قد طرحن أنفسهن فى الشمس ولما دخل السلطان متراً وجد أمه وامرأته وولده مرضى فاقام بالمدينة ثلاثة أيام ثم خرج إلى نهر على فرسخ منها كانت عليه كنيسة للكفار وخرجت اليه فى يوم خميس فامر بانزالى الى جانب القاضى فلما ضربتلى الاخبية رأيت الناس يسرحون ويموج بعضهم فى بعض فمن قائل ان السلطان مات ومن قائل ان ولده هو الميت ثم تحقق ذلك فكان الولد هو الميت ولم يكن له سواه فكان موته مما زاد فى مرضه وفى الخميس بعده توفيت أم السلطان

(ذكر وفاة السلطان وولاية ابن أخيه وانصرافى عنه)

وفى الخميس الثالث توفى السلطان غياث الدين وشعرت بذلك فبادرت الدخول إلى المدينة خوفاً للفتنة ولقيت ناصر الدين ابن أخيه الوالى بعده خارجاً إلى المحلة قد وجهه عنه إذ ليس للسلطان ولد فطلبى فى الرجوع معه فابيت واثرت ذلك فى قلبه وكان ناصر الدين هذا خديماً بدهلي قبل أن يملك عمه فلما ملك عمه هرب فى زى الفقراء اليه فكان من القدر ملكه بعده ولما بويع مدحته الشعراء فاجزل لهم العطايا أول من قام مقام منشد القاضى صدر الزمان فأعطاه خمسمائة دينار وخلعة ثم الوزير المسمى بالقاضى فأعطاه ألفى دينار دراهم وأعطانى أنا ثلاثمائة دينار وخلعة وبعث الصدقات فى الفقراء والمساكين ولما خطب الخطيب أول خطبة خطبها باسمه نثرت عليه الدنانير والدراهم فى اطباق الذهب والفضة وعمل عزاء السلطان غياث الدين فكانوا يختتمون القرآن على قبره كل يوم ثم يقرأ العشرون ثم يؤتى بالطعام فيأكل الناس ثم يعطون الدراهم كل انسان على قدره واقاموا على ذلك اربعين يوماً ثم يفعلون ذلك فى مثل يوم وفاته من كل سنة وأول ما بدا به السلطان ناصر الدين ان عزل وزير عمه وطلبه بالاموال وولى الوزارة الملك بدر الدين الذى بعشه عمه إلى وانا بهتان ليتلقانى فتوفى سريعاً فولى الوزراء خواجه سرور قائد البحر وأمران يخاطب بخواجه

جهان كما يخاطب الوزير بدهلي ومن خاطبه بغير ذلك غرم دنانير معلومة ثم ان السلطان ناصر الدين قتل ابن عمته المتزوج بنت السلطان غياث الدين وتزوجها بعده وبلغه ان الملك مسعودا زاره في محبسه قبل موته فقتله أيضا وقتل الملك بهادور وكان من الشجعان الكرماء الفضلاء وامر لي بجميع ما كان عينه عمه من المراكب برسم الجزائر ثم أصابني الحمى القاتلة هنالك فظننت أنها القاضية والهعفى الله إلى التمر الهندي وهو هنالك كثير فأخذت نحو رطل منه وجعلته في الماء ثم شربته فاستماني ثلاثة أيام وعافاني الله من مرضي فسكرت تلك المدينة وطلبت الاذن في السفر فقال لي السلطان كيف تسافر ولم يبق الايام السفر الى الجزائر غير شهر واحد اقم حتى نعطيك جميع ما أمر لك به خوند عالم فايت وكتب لي الى فتن لاسافر في أى مركب اردت وعدت إلى فتن فوجدت ثمانية من المراكب تسافر الى اليمن فسافرت في احدها ولقينا اربعة اجفان فقاتلنا يسيرا ثم انصرفنا ووصلنا الى كولم وكان في بقية مرض فاقمت ثلاثة اشهر ثم ركبت في مركب بقصد السلطان جمال الدين الهنوري فخرج علينا الكفار بين هنور وفا كنور

﴿ ذكر سلب الكفار لنا ﴾

ولما وصلنا الى الجزيرة الصخرى بين هنور وفا كنور خرج علينا الكفار في اثني عشر مركبا حربية وقاتلونا قتلا شديدا وتغلبوا علينا فاخذوا جميع ما عندي مما كنت ادخره للشدائد واخذوا الجواهر والياقيات التي أعطاها ملك سيلان واخذوا ثيابي والزادات التي كانت عندي مما اعطانيه الصالحون والاولياء ولم يتركوا لي سائر اخلا السر او يلواخذوا ما كان لجميع الناس وانزلونا بالساحل فرجمت إلى القلوط فدخلت بعض المساجد فبعثت الى أحد الفقهاء بشوب وبعث القاضي بعمامة وبعث بعض التجار بشوب آخر وتعرفت هنالك بزواج الوزير عبد الله بالسلطنة خديجة بعد موت الوزير جمال الدين وبان زوجتي التي تركتها حاملا ولدت واداذكر انخطر لي السفر الى الجزائر وتذكرت العداوة التي بيني وبين الوزير عبد الله ففتحت المصحف فخرج لي تنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا فاستخرت الله وسافرت فوصلت بعد عشرة أيام الى جزائر ذبيبة المهمل ونزات منها بكنوس فاكرمني واليها عبد العزيز المقدشاوي وأضافني وجهز لي كندرة ووصلت بعد ذلك الى هल्ली وهي الجزيرة التي تخرج السلطنة واخوتها اليها برسم التفرج والسياحة ويسمون ذلك التفجر ويلعبون في المراكب ويبعث لها الوزراء والامراء بالهدايا والتحف متى كانت بها وجدت بها اخت السلطنة وزوجها الخطيب محمد بن الوزير جمال الدين وامها التي كانت زوجتي فجاء الخطيب

إلى وأتوا بالطعام ومر بعض أهل الجزيرة إلى الوزير عبد الله فأعلموه بقدمي فسأل عن حال
وعمن قدم معي وأخبر أني جئت برسم حمل ولدي وكان سنه نحو عامين وأنه أمه تشكو من
ذلك فقال لها أنا لا أمنع من حمل ولده وصادرتني في دخول الجزيرة وأنزاني بدار تقابل برج
قصره ليتطالع علي حالي وبعث إلى بكسوة كاملة وبالتنبول وماء الورد على عاداتهم وجئت
بثوبي حرير الرمي عند السلام فأخذوهما ولم يخرج الوزير إلى ذلك اليوم وأتى إلى بولدي
فظهر لي أن إقامته معهم خير له فرددته إليهم واقمت خمسة أيام وظهر لي أن تعجيل السفر أولى
فطلبت الاذن في ذلك فاستدعاني الوزير ودخلت عليه وأتوني بالثوبين اللذين أخذوهما مني
فرميتهما عند السلام على العادة وأجاسني إلى جانبه وسألني عن حالي وأكلت معه الطعام
وغسلت يدي معه في الطست وذلك شيء لا يفعله مع أحد وأتوا بالتنبول وانصرفت
وبعث إلى بآثواب وبساتي من الودع وأحسن أفعاله وأجمل وسافرت فأقمت على ظهر البحر
ثلاثاً وأربعين ليلة ثم وصلنا إلى بلاد بنجالة (وضبطها بفتح الباء الموحدة وسكون النون
وجيم معقودة وألف ولام مفتوح) وهي بلاد متسعة كثيرة الارز ولم أر في الدنيا أرخص
أسعاراً منها لكنها مظلمة وأهل خراسان يسمونها دوزخست (دوزخ) بور (بر) نعمة
معناه جنتهم ملأى بالنعم رأيت الارز يباع في أسواقها خمسة وعشرين رطلاً ذهلياً بدينار
فضي والدينار الفضي هو ثمانية دراهم ودرهمهم كالدرهم النقرة سواء والرطل الذهلي
عشرون رطلاً مغربية وسمعتهم يقولون أن ذلك غلاء عندهم وحدثني محمد المصمودي
المغربي وكان من الصالحين وسكن هذا البلد قديماً ومات عندهم بدهلي أنه كانت له زوجة
ونخادم فكان يشتري قوت ثلاثهم في السنة بثمانية دراهم وأنه كان يشتري الارز في قشره
بحساب ثمانين رطلاً ذهلياً بثمانية دراهم فإذا دفعه خرج منه خمسون رطلاً صافية وهي عشرة
قناطير ورأيت البقرة تباع بها اللحم بثلاثة دنانير فضة وبقرة الجواميس ورأيت الدجاج
السمان تباع بحساب ثمان بدرهم واحد وفراخ الحمام يباع خمسة عشر بدرهم ورأيت السكبش
السمين يباع بدرهمين ورطل السكر بأربعة دراهم وهو رطل ذهلي ورطل الجلاب بثمانية
دراهم ورطل السمن بأربعة دراهم ورطل السيرج بدرهمين ورأيت ثوب القطن الرقيق
الجيد الذي ذرعه ثلاثون ذراعاً يباع بدينارين ورأيت الجارية المليحة للفراش تباع بدينار
من الذهب واحد وهو ديناران ونصف دينار من الذهب المغربي واشتريت بنحو هذه
القيمة جارية تسمى عاشورة وكان لها جمال بارع واشترى بعض أصحابي غلاماً صغير السن
حسناً اسمه أواق بدينارين من الذهب وأول مدينة دخاناً من بلاد بنجالة مدينة سدكاو أن

وضبط اسمها (بضم السين وسكون الدال المهملين وفتح السكاف والواو وآخره نون)
وهي مدينة عظيمة على ساحل البحر الأعظم ويجمع بها نهر السكنك الذي يحج إليه
الهنود ونهر الجون ويصبان في البحر ولهم في النهر مراكب كثيرة يقاتلون بها أهل
بلاد اللكنوتي

(ذكر سلطان بنجاله)

وهو السلطان نحر الدين الملقب بفخره (بالفاء والخاء المعجم والراء) سلطان فاضل
محب في الغرباء وخصوصا الفقراء والمتصوفة وكانت مملكة هذه البلاد للسلطان ناصر
الدين بن السلطان غياث الدين بلبن وهو الذي ولي والده معز الدين الملك بدهلي فتوجه
لقتاله والتقى بالنهر وسمى لقاؤهما لقاء السعدين وقد ذكرنا ذلك وأنه ترك الملك لولده
وعاد إلى بنجاله فأقام بها إلى أن توفي وولى ابنه شمس الدين إلى أن توفي فولى ابنه شهاب
الدين إلى أن غلب عليه أخوه غياث الدين بهادور بور فاستنصر شهاب الدين بالسلطان
غياث الدين تغلق فنصره وأخذ بهادور بور أسيرا ثم أطلقه ابنه محمد لما ملك على أن
يقاسمه ملكه فنكث عليه فقاتله حتى قتل وولى على هذه البلاد صهرا له فقتله العسكر
واستولى على ملكها على شاه وهو إذ ذاك ببلاد اللكنوتي فلما رأى نحر الدين أن الملك
قد خرج عن أولاد السلطان ناصر الدين وهو وولى لهم خالف بسدكاوان وبلاد بنجاله
واستقل بالملك واشتدت الفتنة بينه وبين على شاه فاذا كانت أيام الشتاء والوحد أغار
فخر الدين على بلاد اللكنوتي في البحر لقوته فيه وإذا عادت الأيام التي لا مطر فيها
أغار على شاه على بنجاله في البر لقوته فيه

(حكاية) *

وانتهى حب الفقراء بالسلطان فخر الدين إلى أن جعل أحدهم نائبا عنه في الملك
بسدكاوان وكان يسمى شيذا (بفتح الشين المعجم والدال المهمل بينهما ياء آخر
الحروف) وخرج إلى قتال عدوله خالف عليه شيذا وأراد الاستبداد بالملك وقتل
ولد السلطان نحر الدين ولم يكن له ولد غيره فعلم بذلك فسكر عائدا إلى حصرتة ففر
شيذا ومن اتبعه إلى مدينة ستركاوان وهي منيعة فبعث السلطان بالعساكر إلى حصاره
فخاف أهلها على أنفسهم فقبضوا على شيذا وبعثوه إلى عسكر السلطان فكتبوا إليه
بأمره فأمرهم أن يبعثوا له رأسه فبعثوه وقتل بسببه جماعة كبيره من الفقراء ولما
دخلت سدكاوان لم أر سلطانها ولا لقيته وأنه خالف على ملك الهند فتخفت عاقبة ذلك
وسافرت من سدكاوان بقصد جبال كامرو وهي (بفتح السكاف والميم وضم الراء)
وبينهما وبين سدكاوان مسيرة شهر وهي جبال متسعة متصلة بالصين وتتصل أيضا
ببلاد التبت حيث غزلان المسك وأهل هذا الجبل يشبهون الترك ولهم قوة على الخدمة
والغلام منهم يساوى أضعاف ما يساويه الغلام من غيرهم وهم مشهورون بمعاونة السحر

والاشتغال به وكان قصدي بالمشير إلى هذه الجبال لقاء ولي من الاولياء وهو الشيخ جلال الدين التبريزي

(ذكر الشيخ جلال الدين)

وهذا الشيخ من كبار الاولياء وأفراد الرجال له الكرامات الشهيرة والمآثر العظيمة وهو من المعمرين أخبرني رحمه الله أنه أدرك الخليفة المستعصم بالله العباسي ببغداد وكان بها حين قتله وأخبرني أصحابه بعد هذه المدة أنه مات وهو ابن مائة وخمسين وأنه كان له نحو أربعين سنة يسرد الصوم ولا يفطر إلا بعد مواصلته عشرة وكانت له بقرة يفطر على حليبها ويقوم الليل كله وكان نحيف الجسم طويلا خفيف العارضين وعلى يديه أسلم أهل تلك الجبال ولذلك أقام بينهم

(كرامة له)

أخبرني بعض أصحابه أنه استدعاهم قبل موته بيوم واحد وأوصاهم بتقوى الله وقال لهم إنني أسافر عنكم غدا إن شاء الله وخليفتي عليكم الله الذي لا إله إلا هو فلما صلى الظهر من الغد قبضه الله في آخر سجدة منها ووجدوا في جانب الغار الذي كان يسكنه قبرا محفورا عليه الكفن والحنوط فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه به رحمه الله تعالى

(كرامة له أيضا)

ولما قصدت زيارة هذا الشيخ لقيني أربعة من أصحابه على مسيرة يومين من موضع سكنه فأخبروني أن الشيخ قال للفقراء الذين معه قد جاءكم سائح من المغرب فاستقبلوه وانهم أتوا ذلك بأمر الشيخ ولم يكن عندهم علم من أمرى وإنما كوشفت به وسرت معهم إلى الشيخ فوصلت زاويته خارج الغار ولا عمارة عندها وأهل تلك البلاد من مسلم وكافر يقصدون زيارته ويأتون بالهدايا والتحف فيأكل منها الفقراء والواردون وأما الشيخ فقد اقتصر على بقرة يفطر على حليبها بعد عشر كما قدمناه ولما دخلت عليه قام إلى وعائتي وسألني عن بلادي وأسفاري فأخبرته فقال لي أنت مسافر العرب فقال له من حضر من أصحابه والعجم ياسيدنا فقال والعجم فأكرموه فاحتملوني إلى الزاوية وأضافوني ثلاثة أيام

(حكاية عجيبة في ضمنها كرامات له)

ولما كان يوم دخولي إلى الشيخ رأيت عليه فرجية مرعز فأعجبته وقلت في نفسي ليت الشيخ أعطانها فلما دخلت عليه للوداع قام إلى جانب الغار وجرد الفرجية والبنيتها مع طاقيه من رأسه ولبس مرقعة فأخبروني الفقراء أن الشيخ لم تكن عادته أن يلبس تلك الفرجية وإنما لبسها عند قدومي وأنه قال لهم هذه الفرجية يطلبها المغربي ويأخذها منه سلطان كافر ويعطها لأخيئنا برهان الدين الصاغر جي وهي له وبرسمه كانت فلما أخبرني

الفقراء بذلك قلت لمن لقد حصلت لي بركة الشيخ بأن كساني لباسه وأنا لا أدخل بهذه
الفرجية على سلطان كافر ولا مسلم وانصرفت عن الشيخ فاتفق لي بعد مدة طويلة أني
دخلت بلاد الصين وانتهيت الى مدينة الخنسا فافترق مني أصحابي لكثرة الزحام وكانت
الفرجية على قبينا أنا في بعض الطرق إذا بالوزير في موكب عظيم فوقع بصره على فاستدعاني
وأخذ بيدي وسأني عن مقدمي ولم يفارقني حتى وصلت الى دار السلطان معه فأردت
الانفصال فنهني وأدخلني على السلطان فسأني عن سلاطين الاسلام فأجبتته ونظر الى
الفرجية فاستحسنها فقال لي الوزير جردها فلم يمكني خلاف ذلك فأخذها وأمر لي بعشر خلع
وفرس مجهز ونفقة وتغير خاطري لذلك ثم ذكرت قول الشيخ انه يأخذها سلطان كافر فطال
عجبي من ذلك ولما كان في السنة الأخرى دخلت دار ملك الصين بخان باق فقصدت
زاوية الشيخ برهان الدين الصاغري فوجدته يقرأ والفرجية عليه بعينها فعجبت من
ذلك وقلبتها بيدي فقال لي لم تقبلها وأنت تعرفها فقلت له نعم هي التي أخذها مني سلطان
الخنسا فقال لي هذه الفرجية صنعها أخى جلال الدين برسمي وكتب الى ان الفرجية تصلك
على يد فلان ثم اخرج لي الكتاب فقرأته وعجبت من صدق يقين الشيخ وأعلته بأول
الحكاية فقال لي أخى جلال الدين اكبر من ذلك كله وهو يتصرف في الكون وقد انتقل
الى رحمة الله تعالى .

ثم قال بلغني انه كان يصلي الصبح كل يوم بمكة وانه يحج كل عام لأنه يخيب عن
الناس يومى عرفة والعيد فلا يعرف أين ذهب ولما وادعت الشيخ جلال الدين سافرت
الى مدينة حنق (وضبط اسمها بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة وسكون النون وقاف)
وهي من أكبر المدن وأحسنها يشقها النهر الذي ينزل من جبال كامر ويسمى النهر
الأزرق ويسافر فيه الى بنجالة وبلاد السكنوتى وعليه النواوير والبساتين والقرى
يمنة ويسرة كما هي على نيل مصر وأهلها كسفارت تحت الذمة يؤخذ منهم نصف ما يزدرون
وظائف سوى ذلك وسافرتنا في هذا النهر خمسة عشر يوما بين القرى والبساتين فكاننا
نمشي في سوق من الأسواق وفيه من المراكب ما لا يحصى كثرة وفي كل مركب
منها طبل فاذا التقى المركبان ضرب كل واحد طبله وسلم بعضهم على بعض وأمر
السلطان نحر الدين المذكور أن لا يأخذ بذلك النهر من الفقراء نول وان يعطى الزاد لمن
لا زاد له منهم وإذا وصل الفقير الى مدينة أعطى نصف دينار وبعد خمسة عشر يوما من
سفرنا في النهر كما ذكرناه وصلنا الى مدينة سنركاوان وسنر (بضم السين المهملة والنون
وسكون الراء) وهي المدينة التي قبض أهلها على الفقير شيئا عندما لجأ اليها ولما وصلنا
وجدنا بها جنكا يريد السفر الى بلاد الجاوة وبينهما أربعون يوما فركبنا وفيه وصلنا بعد

خمسة عشر يوما إلى بلاد البرهنكار الذين أفواههم كأفواه الكلاب (وضبطها بفتح الباء الموحدة والراء والنون والكاف وسكون الهاء) وهذه الطائفة من الهمج لا يرجعون إلى دين الهند ولا إلى غيره وسكناهم في بيوت مسقفة بحشيش الأرض على شاطئ البحر وعندهم من أشجار الموز والفوفل والتنبول كثير ورجالهم على مثل صورتنا إلا أفواههم كأفواه الكلاب وأما نساؤهم فلسن كذلك ولهن جمال بارع ورجالهم عرايا لا يستترون إلا أن الواحد يجعل ذكره وأنثيه في جمعة من القصب منقوشة معلقة في بطنه ويستتر نساؤهم بأوراق الشجر ومعهن جماعة من المسلمين من أهل بنجالة والجاوة ساكنون في حارة على حدة أخبرونا أنهم يتناكحون كالبهاائم لا يستترون بذلك ويكون للرجل منهم ثلاثون امرأة فما دون ذلك أو فوقه وأنهم لا يزنون وإذا نارجل منهم أخذ الرجل أن يصاب حتى يموت أو يؤتى صاحبه أو عبده فيصاب عوضا منه ويسرح هو وحواله المرأة أن يأمر السلطان جميع خدامه فينكحونها واحدا بعد واحد بحضوره حتى تموت ويرمون بها في البحر ولأجل ذلك لا يتركون أحدا من أهل المراكب ينزل إليهم إلا أن كان من المقيمين عندهم وإنما يبايعون الناس ويشارونهم على الساحل ويسوقون إليهم الماء على الفيلة لأنه بعيد من الساحل ولا يتركونهم لاستقامته خوفا على نساؤهم لأنهم يطعمون إلى الرجال الحسان والفيلة كثيرة عندهم ولا يسعها أحد غير سلطانهم ثم يشتري منهم بالاثوب ولهم كلام غريب لا يفقه إلا من ساكنهم وأكثر التردد إليهم ولما وصلنا إلى ساحلهم أتوا إلينا في قوارب صغار كل قارب من خشبة واحدة منحوتة وجاؤا بالموز والأرز والتنبول والفوفل والسملك

(ذكر سلطانهم)

وأتى إلينا سلطانهم راكبا على فيل عليه شبه بردعة من الجلود ولباس السلطان ثوب من جلود المعز وقد جعل الوبر إلى خارج وفوق رأسه ثلاث عصائب من الحرير ملونات وفي يده حربة من القصب ومعه نحو عشرين من أقاربهم على الفيلة فيبعثنا إليه هدية من الفلفل والزنجبيل والقرقة والحوت الذي يكون بجزائر ذببة الممل وأثوابا من بنجالة وهم لا يلبسونها إنما يكسونها الفيلة في أيام عيدهم ولهذا السلطان على كل مركب ينزل ببلاده جارية ومملوك وثياب الكسوة الفيل وحلى ذهب تجعله زوجته في محزمها وأصابع رجلها ومن لم يعط هذه الوظيفة صنعوا له سحرا يهيج به البحر فيهلك أو يقارب الهلاك

(حكاية)

واتفق في ليلة من ليالي إقامتنا بمرساهم أن غلاما لصاحب المركب ممن تردد إلى هؤلاء

الطائفة نزل من المركب ليلا وتواعد مع امرأة أحد كبرائهم إلى موضع شبه الغار على الساحل وعلم بذلك زوجها فجاء في جمع من أصحابه إلى الغار فوجدهما به فحملا إلى سلطانهن فأمر بالغلالم فقطعت أنثياه وصلب وأمر بالمرأة فجامعها الناس حتى ماتت ثم جاء السلطان إلى الساحل فاعتذر عما جرى وقال أنا لا نجد بدا من أمضاء أحكامنا وهب لصاحب المركب غلاما عوض الغلام المطلوب ثم سافرنا عن هؤلاء وبعد خمسة وعشرين يوما وصلنا إلى جزيرة الجاوة (بالجيم) وهي التي ينسب إليها اللبان الجاوي رأيناها على مسيرة نصف يوم وهي خضرة نضرة وأكثر أشجارها النارجيل والفوقل والقرنفل والعود الهندي والشكى والبركي والعنبة والجنون والنارنج الحلو وقصب الكافور وبيع أهلها وشرأهم بقطع قصدير وبالذهب الصيني التبر غير المسبوك والكثير من أفويه الطيب التي يبلاد الكفار إنما هو منها وأما يبلاد المسلمين فهو أقل من ذلك ولما وصلنا المرسى خرج إلينا أهلها في مراكب صغار ومعهم جوز النارجيل والموز والعنبة والسّمك وعادتهم أن يهدوا ذلك للتجار فيكافئهم كل واحد على قدره وصعد إلينا أيضا نائب صاحب البحر وشاهد من معنا من التجار وأذن لنا في النزول إلى البر فنزلنا إلى البندر وهي قرية كبيرة على ساحل البحر بها دوراسمها السرحى (بفتح السين المهمل وسكون الراء وفتح الحاء المهمل) وبينها وبين البلد أربعة أميال ثم كتب إلى بهرو نائب صاحب البحر إلى (س) فعرفه بقدمي فأمر الأمير دواسته بلقائي والقاضي الشريف أمير سيد الشيرازي وتاج الدين الأصفهاني وسواهم من الفقهاء فخرجوا لذلك وجاؤا بفرس من مراكب (س) وأفراس سواه فركبت وركب أصحابي ودخلنا إلى حضرة (س) وهي مدينة سمطرة (بضم السين المهمل والمم وسكون الطاء وفتح الراء) مدينة حسنة كبيرة عليها سور خشب وأبراج خشب .

(ذكر سلطان الجاوة)

وهو السلطان الملك الظاهر من فضلاء الملوك شافعي المذهب يحب في الفقهاء يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة وهو كثير الجهاد والغزو ومتواضع يأتي إلى صلاة الجمعة ماشيا على قدميه وأهل بلاده شافعية يحبون في الجهاد يخرجون معه تطوعا وهم غالبون على من يلبسهم من الكفار والكفار يعطونهم الجزية على الصالح .

(ذكر دخولنا إلى داره وإحسانه إلينا)

ولما قصدنا إلى دار (س) وجدنا بالقرب منه رماحمر كوزة على جانبي الطريق وهي علامة

على نزول الناس فلا يتجاوزها من كان راكباً فنزلنا عندها ودخلنا المشور فوجدنا نائب السلطان وهو يسمى عمدة الملك فقام إلينا وسلم علينا وسلامهم بالمصالحة وقدم معنا وكتب بطاقة إلى السلطان يعلمه بذلك وختمها ودفعها لبعض الفتيان فأتاه الجواب على ظهرها ثم جاء أحد ببقشة والبقشة (بضم الباء الموحدة وسكون القاف وفتح الشين المعجم) هي السبئية فأخذها النائب بيده وأخذ بيدي وأدخلني إلى دويرة يسمونها قردخانة على وزن زردخانة (الا أن أولها فاء) وهي موضع راحته بالنهار فإن العادة أن يأتي السلطان إلى المشور بعد الصبح ولا ينصرف إلا بعد العشاء الآخرة وكذلك الوزراء والأمراء الكبار وأخرج من البقشة ثلاث فوط أحداها من خالص الحرير والأخرى حرير وقطن وأخرى حرير وكتان وأخرج ثلاثة أثواب يسمونها التختا نيات من جنس الفوط وأخرج ثلاثة من الثياب مختلفة الاجناس تسمى الوسطا نيات وأخرج ثلاثة أثواب من الأرمك أحداها أبيض وأخرج ثلاث عمامة قلبست فوطه منها عوض عن السراويل على عاداتهم وثوبا من كل جنس وأخذ أصحابي ما بقي منها .

ثم جاؤا بالطعام أكثره الأرز ثم أتوا بنوع من الفقاع ثم أتوا بالنبول وهو علامة الانصراف فأخذناه وقمنا وقام النائب لقيامنا وخرجنا عن المشور فركبنا وركب النائب معنا وأتوا بنا إلى بستان عليه حائط خشب وفي وسطه دار بناؤها بالخشب مقروشة بقطائف قطن يسمونها الخملات (بالميم والخاء المعجم) ومنها مصبوغ وغير مصبوغ

وفي البيت اسرة من الخيزران فوقها مضربات من الحرير ولحف خفاف ومخاد يسمونها البوالشت تجلسنا بالدار ومعنا النائب ثم جاء الأمير دواسة بحاريتين وخادمين وقال لي يقول لك السلطان هذا على قدرنا لا على قدر السلطان محمد ثم خرج النائب وبقي الأمير دواسة عندي وكانت بيني وبينه معرفة لأنه كان ورد رسولا على السلطان بدهلي فقلت له متى تسكون رؤية السلطان فقال لي إن العادة عندنا أن لا يسلم القادم على السلطان إلا بعد ثلاثة ليذهب عنه تعب السفر ويثوب إليه ذهنه فأقمنا ثلاثة أيام يأتي إلينا الطعام ثلاث مرات في اليوم وتأتينا الفواكه والطرف مساء وصباحا فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة أتاني الأمير دواسة فقال لي يكون سلامك على (س) بمقصورة الجامع بعد الصلاة فأتيت الجامع وصليت به الجمعة مع حاجبه قيران (بفتح القاف وسكون الياء آخر الحروف الراء) ثم دخلت إلى (س) فوجدت القاضي أمير سيدو الطلبة عن يمينه وشماله فصاحني وسلمت عليه وأجلسني عن شماله وسألني عن (س) محمد وعن أسفاري فأجبته وعاد إلى المذاكرة في الفقه على مذهب الإمام الشافعي ولم يزل كذلك إلى صلاة العصر فلما صلاها دخل

بيتا هنالك فنزع الثياب التي كانت عليه وهي ثياب الفقهاء وبها يأتي الجامع يوم الجمعة ماشيا ثم لبس ثياب الملك وهي الأقبية من الحرير والقطن

(ذكر انصرافه إلى داره وترتيب السلام عليه)

ولما خرج من الجامع وجد الفيلة والخيل على بابها والعادة عندهم أنه إذا ركب (س) الفيل ركب من معه الخيل وإذا ركب الفرس ركبوا الفيلة ويكون أهل العلم عن يمينه فركب ذلك اليوم على الفيل وركبنا الخيل وسرنا معه إلى المشور فنزلنا حيث العادة ودخل (س) راكبا وقد اصطف في المشور الوزراء والأمراء والكتاب وأرباب الدولة ووجوه العسكر صفوفا فأول الصفوف صف الوزراء والكتاب ووزرائه أربعة فسلموا عليه وانصرفوا إلى موضع وقوفهم ثم صف الأمراء فسلموا ومضوا إلى مواضعهم وكذلك تفعل كل طائفة ثم صف الشرفاء والفقهاء ثم صف الندماء والحكماء والشعراء ثم صف وجوه العسكر ثم صف الفتيان والمماليك ووقف (س) على فيله ازاء قبة الجلوس ورفع فوق رأسه شطر مرصع وجعل عن يمينه خمسون فيلا مزينة وعن شماله مثلهما وعن يمينه أيضا مائة فرس وعن شماله مثلهما وهي خيل النوبة ووقف بين يديه خواص الحجاب ثم أتى أهل الطرب من الرجال فغنوا بين يديه وأتى بخيل بحلة بالحرير لها خلائل ذهب وأساو وحرير مزركشة فرقصت الخيل بين يديه فعجبت من شأنها وكنت رأيت ذلك عند ملك الهند ولما كان عند الغروب دخل (س) إلى داره وانصرف الناس إلى منازلهم

﴿ ذكر خلاف ابن أخيه وسبب ذلك ﴾

وكان له ابن أخ متزوج بنته فولاه بعض البلاد وكان الفتي يتعشق بنتا لبعض الأمراء ويريد تزوجها والعادة هنالك أنه إذا كانت لرجل من الناس أميرة أو سوقي أو سواه بنت قد بلغت مبلغ النكاح فلا بد أن يستأمر للسلطان في شأنها وبعث (س) من النساء من تنظر إليها فإن أعجبه صفتها تزوجها والا تركها يزوجها أولياؤها ممن يشاؤون والناس هنالك يرفعون في تزوج السلطان بناتهم لما يحوزون به من الجاه والشرف ولما استأمر والد البنت التي تعشقها ابن أخى السلطان بعث السلطان من نظر إليها وتزوجها واشتد شغف الفتي بها ولم يجد سبيلا إليها ثم أن السلطان خرج إلى الغزو وبينه وبين الكفار مسيرة ابن أخيه إلى سمطرة ودخلها إذ لم يكن عليها سور حينئذ وادعى الملك وبايعه بعض الناس وامتنع آخرون وعلم عمه بذلك فتمفل راجعا عائدا إليها فأخذ ابن أخيه ما قدر عليه من الأموال والذخائر وأخذ

الجارية التي تعشقها وقصد بلاد الكفار بمل جاوه ولهذا في عمه السور على سمطرة وكانت اقامتي عنده بسمطرة خمسة عشر يوماً ثم طلبت منه السفر إذ كان أوانه ولا يتبها السفر إلى الصين في كل وقت فجهز لنا جنكا وزودنا وأحسن وأجمل جزاء الله خيراً وبعث معنا من أصحابه من يأتي لنا بالضيافة إلى الجنة وسافرنا بطول بلاده إحدى وعشرين ليلة ثم وصلنا إلى مل جاوة (بضم الميم) وهي بلاد الكفار وطولها مسيرة شهرين وبها الآفاوية العطرة والعود الطيب القافلي والقماري وقافلة قنارة من بعض بلادها وليس ببلاد السلطان الظاهر بالجاوة إلا اللبان والكافور وشيء من القرنفل وشيء من العود الهندي وإنما معظم ذلك بمل جاوه وأتذكر ما شهدناه منها ووقفنا على أعيانه وحققناه

(ذكر اللبان)

وشجرة اللبان صغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى مادون ذلك وأغصانها كأغصان الخرشف وأوراقها صغار رفاق وربما سقطت فبقيت الشجرة منها دون ورقة واللبان صمغية تكون في أغصانها وهي في بلاد الإسلام أكثر منها في بلاد الكفار

(ذكر الكافور)

وأما شجر الكافور فهي قصب كقصب بلادنا إلا أن الأنايب منها أطول وأغلظ ويكون الكافور داخل الأنايب فإذا كسرت القصب وجد في القصبه داخل الأنبوب مثل شكله من الكافور والسر العجيب فيه أنه لا يتكون في تلك القصب حتى يذبح عند أصولها شيء من الحيوان وإلا لم يتكون شيء منه والطيب المتناهي في البرودة الذي يقتل منه وزن الدرهم بتجميد الروح وهو المسمى عندهم بالخردلة هو الذي يذبح عند قصبه الآدمي ويقوم مقام الآدمي في ذلك الفيلة الصغار

(ذكر العود الهندي)

وأما العود الهندي فشجره يشبه شجر البلوط إلا أن قشره رقيق وأوراقه كأوراق البلوط سواء ولا ثمر له وشجرته لا تعظم كل العظم وعرقه طويلة وفيها الرائحة العطرة وأما عيدان شجرته وورقها فلا عطرية فيها وكل ما ببلاد الإسلام من شجره فهو ممتلك وأما الذي في بلاد الكفار فأكثره غير ممتلك والممتلك منه ما كان بقافلة وهو أطيب العود وكذلك القماري هو أطيب أنواع العود ويبيعونه لأهل الجاوة بالاثواب ومن القماري صنف يطبخ عليه كالشمع وأما العطاس فإنه يقطع العرق منه ويدفن في التراب أشهراً

فتبقى فيه قوته وهو من أعجب أنواعه

(ذكر القر نفل)

وأما أشجار القر نفل فهي عادية ضخمة وهي ببلاذالكفار أكثر منها ببلاذالإسلام وليست بتملكة لكثرتها والمجلوب إلى بلادنا منها هو العيدان والذي يسميه أهل بلادنا نور القر نفل هو الذي يسقط من زهره وهو شبيه بزهر النارج وثمر القر نفل هو جوزبوا المهرقة في بلادنا بجوزة الطيب والزهر المتكون فيها هو البسياسة رأيت ذلك كله وشاهدته ووصلنا إلى مرسى قافلة فوجدناه به جملة من الجنوك معد للسرقة ولمن يستعصى عليهم من الجنوك فإن لهم على كل جنك وظيفة ثم نزلنا من الجنك إلى مدينة قافلة (وهي بقافين آخرها مضموم ولامها مفتوح) وهي مدينة حسنة عليها سور من حجارة منحوتة عرضه بحيث تسير فيه ثلاثة من الفيلة وأول ما رأيت بخارجها الفيلة عليها الاحمال من العود الهندي يوقدوه في بيوتهم وهو بقيمة الخطب عندنا أو أرخص ثمننا هذا إذا ابتاعوا فيها بينهم وأما التجار فيبيعونه الحمل منه بثوب من ثياب القطن وهي أغلى عندهم من ثياب الحرير والفيلة بها كثيرة جدا عليها يركبون ويحملون كل إنسان يربط فيلته على بابه وكل صاحب حانوت يربط فيله عنده يركبه إلى داره وتحمل وكذلك جميع أهل الصين والخطا على مثل هذا الترتيب

(ذكر سلطان مل جاوه)

وهو كافر رأيت خارج قصره جالساً على قبة ليس بينه وبين الأرض بساط ومعه أرباب دولته والعساكر يعرضون عليه مشاة ولا خيل هنالك إلا عند السلطان وإنما يركبون الفيلة وعليها يقفون فمررت شأني فاستدعاني فجئت وقلت السلام على من اتبع الهدى فلم يفقهوا إلا لفظ السلام فرحب بي وأمر أن يفرش لي ثوب أقعد عليه فقلت للترجمان كيف أجلس على الثوب والسلطان جالس على الأرض فقال هكذا أعادته يقعد على الأرض تواضعاً وأنت ضيف وجئت من سلطان كبير فيجب إكرامك فجلست وسألتني عن السلطان فأوجز في سؤاله وقال لي تقيم عندنا في الضيافة ثلاثة أيام وحينئذ يكون انصرافك

(ذكر عجيبة رأيها بمجلسه)

ورأيت في مجلس هذا السلطان رجلاً بيده سكين شبه سكين المسفر قد وضعه على رقبة نفسه وتسكلم بكلام كثير لم أفهمه ثم أمسك السكين بيده معاً وقطع عنق نفسه فوق رأسه لحدة السكين وشدة امساكه بالأرض فمجبت من شأنه وقال لي السلطان أيفعل أحد هذا عندكم فقلت ما رأيت هذا قط فضحك وقال هؤلاء عبيدنا يقتلون أنفسهم في محبتنا وأمر به فرقع وأحرق وخرج لآخره النواب وأرباب الدولة والعساكر والرعايا وأجرى

الرزق الواسع على اولاده واهله واخوانه وعظمو والاجل فعله واخبرني من كان حاضرا في ذلك المجلس أن الكلام الذي تكلم به كان تقرير المحبته في السلطان وانه يقتل نفسه في حبه كما قتل ابوه نفسه في حب ابيه وجده نفسه في حب جده ثم انصرفت عن المجلس وبعث الى بضيافة ثلاثه أيام وسافرنا في البحر فوصلنا بعد اربعة وثلاثين يوما الى البحر الكاهل وهو الراكد وفيه حمزة زعموا انها من تربة ارض تجاوره ولا ريح فيه ولا موج ولا حركة مع الساعه ولأجل هذا البحر تتبع كل جنك من جنوك الصين ثلاثة مراكب كما ذكرناه تجذب به فتجره ويكون في الجنك مع ذلك نحو عشرين مجذافا كبارا كالصواري يجمع على المجذاف منها ثلاثون رجلا أو نحوها ويقرمون فيأما صفين كل صف يقابل الآخر وفي المجذاف حبلان عظيم كالطوايس فتجذب إحدى الطائفتين الحبل ثم تتركه وتجذب الطائفة الأخرى وهم يغنون عند ذلك بأصواتهم الحسان واكثرهم ما يقولون اعلى اعلى واقمنا على ظهر هذا البحر سبعة وثلاثين يوما وعجبت البحرية من التسميل فيه فانهم يقيمون فيه خمسين يوما إلى أربعين وهي انهي ما يكون التيسير عليهم ثم وصلنا إلى بلاد طوالسي وهي (بفتح الطاء المهمل والواو وكسر السين المهمل) وملكها هو المسمى بطوالسي وهي بلاعريضة وملكها ايضا هي ملك الصين وله الجنوك الكثيرة يقاتل بها اهل الصين حتى يصالحوه على شيء وأهل هذه البلاد عبدة اوثان حسان الصور اشبه الناس بالترك في صورهم والغالب على الوانهم الحمره ولهم شجاعة ونجدة و نساؤهم يركبن الخيل ويحسن الرماية ويقاتلن كالرجال سواء وأرسيينا من مراسيمهم بمدينة كيلو كرى (وضبطها بكاف مفتوح وياه آخر الخروف مسكنة ولام مضموم وراء مكسور) وهي من أحسن مدنها وأكبرها وكان يسكن بها ابن ملكهم فلما أرسينا بالمروسي جاءت عساكرهم ونزل الناخودة اليهم ومعه هدية لابن الملك فسألهم عنه فاخبروه أن أباه ولأه بلدا غيرهم وولى بنته بتلك المدينة (واسمها أردجا بضم الهجره وسكون الراء وضم الدال المهمل وجيم)

(ذكر هذه الملكة)

ولما كان في اليوم الثاني من حلولنا بمروسي كيلو كرى استدعت هذه الملكة الناخودة صاحب المركب والكواني وهو السكاتب والتجار والرؤساء والتنديل وهو مقدم الرجال ونباه سالار وهو مقام الرماة لضيافة صنعته لهم على عاداتها ورغب الناخودة

منى ان احضر معهم فايئت لانهم كفار لا يجوز أكل طعامهم فلما حضروا عندها قالت لهم هل بقي احد منكم لم يحضر فقال لها الناخودة لم يبق الا رجل واحد يخشى وهو القاضى باسائهم وبخشى (بفتح الباء الموحدة وسكون الحاء وكسر الشين المعجمين) وهو لا يأكل طعامكم فقالت ادعوه فجاء جنادرتها واصحات الناخودة فقالوا أجب الملكة فاتيها وهي بمجلسها الاعظم وبين يديها نسوة بآيديهن الازمة يعرضن ذلك عليها وحولها النساء القواعدون وزيراتها وقد جلسها تحت السرير على كراسى الصندل وبين يديها الرجال وجلسها مفرش بالحريز وعليه ستور حرير وخشبة من الصندل وعليه صفائح الذهب وبالمجلس مساطب خشب منقوش عليها اواني ذهب كثيرة من كبار وصغار كالخوابى القلال والبواقل أخبرني الناخودة انها مملوءة بشراب مصنوع من السكر مخلوط بالافاويه يشربونه بعد الطعام وأنه عطر الرائحة حلوا المطعم ويطيب النكهة ويهضم ويعين على الباءة فلما سلمت على الملكة قالت لى بالتركية حسن مسن يخشى مسن (خوشميس يخشميمسن) معناه كيف حالك كيف انت واجلستنى على قرب منها وكانت تحسن الكتاب العربى فقالت لبعض خدامها دواة وبتك كاتور (كتور) معناه الدواة والكاغدة فأتى بذلك فكتبت فيه بسم الله الرحمن الرحيم فقالت ما هذا فقلت لها تنضرى (تنكرى) نام وتنضرى (بفتح التاء المملوءة وسكون النون وفتح الضاد وراء وياء) ونام (بنون والف وميم) ومعنى ذلك اسم الله فقالت خشن (خوش) ومعناه نجيد ثم سألتنى من أى البلاد قدمت فقلت لها من بلاد الهند فقالت بلا الفلفل فقلت نعم فقسأتنى عن تلك البلاد وأخبارها فاجبتها

فقالت لا بد ان اغزوها وأخذها لنفسى فأتى يعجبني أكثر ما لها وعساكرها فقلت لها افعلى وامرت لى باثواب وحمل فيلين من الارزوبجا وموسين وعشر من الضان وأربعة أرطال جلاب وأربعة مرطبات وهى ضخمة مملوءة بالزنجبيل والفلفل والليمون والعنبا كل ذلك مملوح مما يستعد للبحر وأخبرني الناخودة ان هذه الملكة فى عسكرها نسوة وخدم وجوار يقاتلن كالرجال وانها تخرج فى العساكر من رجال ونساء فتغير على عدوها وتشاهد القتال وتبارز الابطال وأخبرني انها وقع بينها وبين بعض اعدائها قتال شديد وقتل كثير من عسكرها وكادوا ينزفون فدفعت بنفسها وخرقت الجيوش حتى وصلت إلى الملك الذى كانت تقاتله فطعنته طعنة كان فيها حتفه فمات وانهمزمت عساكره وجاءت برأسه على رمح فافتكه اهله منها بمال كثير فلما عادت إلى ابنيها ملكها تلك

المدينة التي كانت بيد اخيها واخبرني ان ابناء الملوك يخطبونها فتقول لا أتزوج إلا من يبارزني فيغلبني فيتحامون مبارزتها خوف المعرة ان غلبتهم ثم سافرنا عن البلاد طوال السبب فوصلنا بعد سبعة عشر يوما والرياح مساعدة لنا ونحن نسير بها اشد السير واحسنه الى بلاد الصين واقليم الصين متسع كثيرا الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة لا يضاهايه في ذلك اقليم من اقالم الارض ويخترقه النهر المعروف باب حيات معنى ذلك ماء الحياة ويسمى ايضا نهر السبر (السرو) كاسم النهر الذي بالهند ومنبعه من جبال بقرب مدينة خان بالق تسمى كودبوزنه معناه جبل القروديمر في وسط الصين مسيرة ستة اشهر الى ان ينتهي الى صين الصين وتسكنه القرى والمزارع والبساتين والاسواق كنيل مصر الا ان هذا اكثر عمارة عليه النواعير الكثيرة وبلاد الصين السكر الكثير مما يضاهاى المصرى بل يفضلها والاعناب والاجاص كمنت اظن ان الاجاص العثماني الذي بدمشق لا نظير له حتى رايت الاجاص الذي بالصين وبها البطيخ العجيب يشبه بطيخ خوارزم واصفهان وكل ما ببلادنا من الفواكه فانها ما هو مثله واحسن منه والقمح بها كثير جدا ولم ارقح اطيب منه وكذلك العدس والحمص

(ذكر الفخار الصيني)

واما الفخار الصيني فلا يصنع منه الا بمدينة الزيتون وبصين كلان وهو من تراب جبال هنالك تقذف فيه النار كما الفحم وسند كرك ذلك ويضيفون اليه حجارة عندهم ويوقدون النار عليها ثلاثة ايام ثم يصبون عليها الماء فيعود الجميع ترابا ثم يخمرونه فالجيد منه ما خمر شهرا كاملا ولا يزداد على ذلك والدون ما خمر عشرة ايام وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا او ارفع ثمننا ويحمل الى الهند وسائر الاقاليم حتى يصل الى بلادنا بالمغرب وهو ابدع انواع الفخار

(ذكر دجاج الصين)

ودجاج الصين وديوكها ضخمة جدا أضخم من الاوز عندنا وبيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الاوز عندنا واما الاوز عندهم فلا ضخامة لها ولقد اشترينا دجاجة فاردنا طبخها فلم يسع لحما في برمة واحدة فجعلناها في برمتين ويكون الديك بها على قدر النعامة وربما نتلف ريشها فيبقى بضعة حمراء واول ما رايت الديك الصيني بمدينة كولم فظننته نعامة وعجبت منه فقال لي صاحبه ان بلاد الصين ما هو اعظم منه فلما وصلت الى الصين.

رأيت مصداق ما أخبرني به من ذلك

(ذكر بعض من اهالى الصين)

وأهل الصين كفار يعبدون الاصنام ويخرقون موتاهم كما تفعل الهنود وملك الصين ترى من ذرية تنكيز خان وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعيات وسواها وهم معظمون محترمون وكفار الصين ياكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في اسواقهم وهم أهل رفاهة وسعة عيش الا انهم لا يحتفلون في مطعم ولا ملبس وترى التاجر الكبير منهم الذى لا تحصى اماله كثرة وعليه جبه قطن خشنة وجميع أهل الصين انما يحتفلون في اوانى الذهب والفضة والسكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه في المشى ويقولون هو الرجل الثالثة والحرير عندهم كثير جدا لان الدود تتعلق بالثمار وتاكل منها فلا تحتاج الى كثير مؤنة ولذلك كثر وهو لباس الفقراء والمساكين هاولوا للتجار لما كانت له قيمة ويبيع الثمن الواحد من القطن عندهم بالاثواب الكثيرة من الحرير وعادتهم ان يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعاً تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه ومادونه ويجعل ذلك على باب داره ومن كان له خمس قطع منها جعل اصبعه خاتماً ومن كانت له عشر جعل خاتمين ومن كان له خمس عشرة سمويه السقي (بفتح السين المهمل وكسر التاء المعلو) وهو بمعنى الكارمى بمصر ويسمون القطعة الواحدة منها بركالة (بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الكاف واللام)

(ذكر دراهم الكاغد التى بها يبيعون ويشترون)

وأهل الصين يتبايعون بدينار ولا درهم وجميع ما يتصحل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعاً كما ذكرناه وإنما يبيعهم وشراؤهم بقطع كاغد كل قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها بالاشت (بباء موحدة والفاء ولام مكسور وسين معجم مسكن وتاء معلو) وهى بمعنى الدينار عندنا وإذا تمزقت تلك الكواغد فى يد انسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا فاخذ عوضها جديداً ودفع تلك ولا يعطى على ذلك اجرة ولا سواها لان الذين يتولون عملها لهم الارزاق الجارية من قبل السلطان وقد وكل بتلك الدار امير من كبار الامراء وإذا مضى الانسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شئ لم ياخذ منه ولا يلتفت عليه حتى يصرفه بالبالشت ويشترى به ما اراد

(ذكر التراب الذى يوقدونه مكان الفحم)

وجميع اهل الصين والخطا إنما فحمهم تراب عندهم منعقد كالطفل عندنا ولونه لون الطفل تأتى القيلة بالاحمال منه فيقطعونه قطعاً على قدر قطع الفحم عندنا ويشعلون النار فيه فيقد كالفحم وهو أشد حرارة من نار الفحم وإذا صار رماداً عجنوه بالماء ويدسوه وطبخوا به ثانية ولا يزالون يفعلون به كذلك إلى أن يتلاشى ومن هذا التراب يصنعون أواني الفخار الصيني ويضيفون اليه حجارة سواء كما قلنا

(ذكر ما خصوا به من أحكام الصناعات)

وأهل الصين أعظم الأمم احكاماً للصناعات وأشدهم إتقاناً فيها وذلك مشهور من حالهم قد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في احكامه من الروم ولا من سواهم فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك انى ما دخلت قط مدينة من مدنها ثم عدت اليها إلا ورأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة في الحيطان والكواغدم وضوغة في الأسواق .

ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فررت على سوق النقاشين ووصلت إلى قصره مع أصحابى ونحن على زى العراقيين فلما عدت من القصر عشيّاً مررت بالسوق المذكور فرأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة في كاغذ قد الصقوه بالحائط فجعل الواحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطيء شيئاً من شبهه .

وذكر لى أن السلطان أمرهم بذلك وأنهم أتوا إلى قصر ونحن به فجعلوا ينظرون إلينا ويصورون صورنا ونحن لم نشعر بذلك وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمر بهم وتنتهى حالهم في ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعث صورته إلى البلاد وبحث عنه فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ قال ابن جزى هذا مثل ما حكاه أهل التاريخ من قضية سابور ذى الأكتاف ملك الفرس حين دخل إلى بلاد الروم متنكراً وحضر وليمة صنعها ملكهم وكانت صورته على بعض الأواني فنظر إليها بعض خدام قيصر فانطبعت على صورة سابور فقال للملك ان هذه الصورة تخبرنى أن كسرى معناني هذا المجلس فكان الأمر على ما قاله وجرى فيه ما هو مسطور في الكتب

(ذكر عادتهم في تقييد ما فى المراكب)

وعادة أهل الصين إذا أراد جنك من جنوكهم السفر صعد اليه صاحب البحر وكتابه وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدم والبحرية وحينئذ يباح لهم السفر فإذا عاد الجنك (١١ - رحلة - ثانى)

إلى الصين معدوا إليه أيضا وقبلوا ما قيدوه بأشخاص الناس فإن فقدوا أحدا ما قيدوه طابوا صاحب الجنتك فأما من يأتي ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك مما يحدث عليه والاخذ فيه فإذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يملئ عليهم تفصيلا بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها ثم ينزل من فيه ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم فإن عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد الجنتك بجميع ما فيه مالا للمخزن وذلك نوع من الظلم ما رأيت به بلاد الكفار ولا المسلمين إلا بالصين اللهم إلا أنه كان بالهند ما يقرب منه وهو أن من عثر على سلعة له قد غاب على مغرمها أغرم أحد عشر مغرما ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغارم .

(ذكر عاداتهم في منع التجار عن الفساد)

وإذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين خير في النزول عند تاجر من المسلمين المتوطنين معين الفساد أو الفندق فإن أحب النزول عند التاجر حصر ماله وضمنه التاجر المستوطن وأنفق عليه منه بالمعروف فإذا أراد السفر بحث عن ماله فإن وجد شيء منه قد ضاع أغرمه التاجر المستوطن الذي ضمنه وإن أراد النزول بالفندق سلم ماله لصاحب الفندق وضمنه وهو يشتري له ما أحب ويحاسبه فإن أراد التسري اشترى له جارية وأسكنه بدار يكون بابها في الفندق وأنفق عليهما والجواري رخيصات الأثمان إلا أن أهل الصين أجمعين يبيعون أولادهم وبناتهم وليس يبيعا عندهم غير أنهم لا يجبرون على السفر مع مشتريهم ولا يمنعون أيضا منه أن اختاروه وكذلك إن أراد الزوج تزوج وأما انفاق ماله في الفساد فشيء لا سبيل له إليه ويقولون لا نريد أن يسمع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا فإنها أرض ضلال

(ذكر حفظهم للمسافرين في الطرق)

و بلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالا للمسافرين فإن الواحد يظل منفردا مسيرة تسعة شهور وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها وترتيب ذلك أن لهم في كل منزل ببلادهم فندقا عليه حاكم يسكن به في جماعة من الفرسان والرجال فإذا كان بعد المغرب أو العشاء جاء الحاكم إلى الفندق ومعه الكاتب لكتابة أسماء جميع من يبيت به المسافرين وختم عليها واقفل باب الفندق عليهم فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه فد كل واحد باسمه وكتب به تفصيلا وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل الثاني له ويأتيه ببراءة من حاكمه إن الجميع قد وصلوا إليه وإن لم يفعل طلبه بهم وهكذا العمل في كل منزل ببلادهم من الصين

الصين إلى خان بالق وفي هذه الفنادق جميع ما يحتاج إليه المسافر من الازواد وخصوصا الدجاج والأوز وأما الغنم فهي قليلة عندهم ولتعد إلى ذكر سفرنا فنقول لما قطعنا البحر أول مدينة وصلنا إليها مدينة الزيتون وهذه المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد أهل الصين والهند ولكنه اسم وضع عليها وهي مدينة عظيمة كبيرة تصنع بها ثياب الكفا والأطلس وتعرف بالنسبة إليها وتفضل على الثياب الخنساوية والخنباغية ومرساها من أعظم مراسي الدنيا أو هو أعظمها رأيت نحو مائة جنك كبار وأما الصغار فلا تحصى كثرة وهو خور كبير من البحر يدخل في البر حتى يختلط بالنهر الأعظم وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للانسان بها البستان والأرض ودارة في وسطها كمثل ما هي بلدة سجلماسة ببلادنا وبهذا عظمت بلادهم والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة وفي يوم وصولي إليها رأيت بها الأمير الذي توجه إلى الهندرسولا بالهدية ومضى في صحبتنا وغرق به الجنك فسلم على وعرف صاحب الديوان بي فأتراني في منزل حسن وجاء إلى قاضي المسلمين تاج الدين الاردوبلي وهو من الأفاضل الكرماء وشيخ الاسلام كمال الدين عبد الله الأصفهاني وهو من الصالحاء وجاء إلى كبار التجار فيهم شرف الدين التبريزي أحد التجار الذين استدنت منهم حين قدومي على الهند واحسنهم معاملة حافظ القرآن مكثر للتلاوة وهؤلاء التجار سكنناهم في بلاد الكفار وإذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح وقالوا جاء من أرض الإسلام وله يعطون زكوات أموالهم فيعود غنيا كواحد منهم وكان بها من المشايخ الفضلاء برهان الدين الكازروني له زاوية خارج البلد واليه يدفع التجار النذور التي يندرونها للشيخ أبي إسحق الكازروني ولما عرف صاحب الديوان أخباري كتب إلى القان وهو ملكهم الأعظم يخبره بقدومي من جهة ملك الهند فطلبته منه أن يبعث معي من يوصلني لبلاد الصين (صين الصين) وهم يسمونه صين كلان لأشاهد تلك البلاد وهي في عمالته بخلال ما يعود جواب القان فأجاب إلى ذلك وبعث معي من أصحابي من يوصلني وركبت في النهر في مركب يشبه اجفان بلادنا الغزوية إلا أن الجذافين يجذفون فيه قياما وجميعهم في وسط المركب والركاب في المقدم والمؤخر ويظلون على المركب بثياب تصنع من نبات بلادهم يشبه الكتان وليس به وهو أرق من القنب .

وسافرنا في هذا النهر سبعة وعشرين يوما وكل يوم نرسو عند الزوال بقربة نشترى بها ما نحتاج إليه ونصلي الظهر ثم نزل بالعشي إلى أخرى وهكذا إلى أن وصلنا مدينة صين كلان (بفتح الكاف) وهي مدينة صين الصين وبها يصنع الفخار والريتون أيضا وهناك يصب نهر آب حياة في البحر يسمونه بجمع البحرين وهي من أكبر المدن وأحسنها أسواقا ومن أعظم أسواقها سوق الفخار ومنها يحمل إلى سائر بلاد الصين

والهند والآن وفي وسط هذه المدينة كنيسة عظيمة لها تسعة أبواب داخل كل باب اسطوان ومصاطب يقعد عليها الساكنون بها وبين البابين الثاني والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العميان وأهل الزمانات ولكل واحد منهم نفقته وكسوته من أوقاف الكنيسة وكذلك فيما بين الأبواب كلها وفي داخلها المارستان للرضى والمطبخة لطبخ الأغذية وفيها الأطباء والخدام وذكر لي أن الشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسب لهم نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة وكذلك الأيتام والأرامل من لا مال لهم وعمر هذه الكنيسة بعض ملوكهم وجعل هذه المدينة وما يليها من القرى والبساتين وقفاً عليها وصور ذلك الملك مصورة بالكنيسة المذكورة وهم يعبدونها وفي بعض جهات هذه المدينة بلدة المسلمين لهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق ولهم قاض وشيخ ولا بد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الاسلام تكون أمور المسلمين كلها راجعة اليه وقاض يقضى بينهم وكان عند نزولي عند أوجد الدين السنجاري وهو أحد الفضلاء الأكابر ذو الاموال الطائلة وأقامت عنده أربعة عشر يوماً وتحف القاضى وسائر المسلمين تنزل الى على وكل يوم يصنعون دعوه جديدة ويأتون اليها بالعشارين الحسان والمغنين وليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكفار ولا للمسلمين وبينها وبين سد يأجوج ومأجوج ستون يوماً فيما ذكر لي يسكنها كفار رحالة يأكلون بني آدم إذا ظفروا بهم — — — — — ولذلك لا تسلك بلادهم ولا يسافر اليها ولم أر بتلك البلاد من رأى السد ولا من رأى من رآه

(حكاية عجيبة)

ولما كنت بصين كلان سمعت أن بها شيخاً كبيراً قد أناف على مائتي سنة وأنه لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ولا يباشر النساء مع فوته الثامنة وأنه ساكن في غار بخارجها يتعبد فيه فتوجهت إلى الغار فرأيت على بابه وهو نحيف شديد الحرارة عليه أثر العبادة ولا لحية له فسلمت عليه فامسك يدي وشمها وقال للترجمان هذا من طرف الدنيا كما نحن من طرفها الآخر ثم قال لقد رأيت عجباً أن ذكر يوم قدومك الجزيرة التي فيها الكنيسة والرجل الذي كان بين الاصنام وأعطاك عشرة دنانير من الذهب فقلت نعم فقال أنا هو فقبضت يده وفكر ساعة ثم دخل الغار فلم يخرج اليها وكأنه ظهر منه الندم على ما تسكلم به فتهجمنا ودخلنا الغار عليه فلم نجده ووجدنا بعض أصحابه ومعه جملة بوالشت من الكاغد فقال هذه ضيافتكم فانصرفوا فقلنا له ننتظر الرجل فقال لو أقمت

عشر سنين لم تروه فان عادته إذا اطلع أحد على سر من أسرارهِ لا يراه بعده ولا تحسب أنه غاب عنك بل هو حاضر معك فعجبت من ذلك وانصرفت فاعامت القاضي وشيخ الإسلام وأحمد الدين السنجاوي بقضيته فقالوا كذلك عادته مع من يأتي اليه من الغرباء ولا يعلم أحد ما ينتحله من الأديان والذي ظننتموه أحد أصحابه هو هو وأخبروني أنه كان غاب عن هذه البلاد نحو خمسين سنة ثم قدم عليها منذ سنة وكان السلاطين والأمراء والكبراء يأتونه زائرين فيعطيه التحف على أقدارهم ويأنيه الفقراء كل يوم فيعطى لسكل أحد على قدره وليس في الغار الذي هو به ما يقع عليه البصر وأنه يحدث عن السنين الماضية ويذكر النبي ﷺ ويقول لو كنت معه لنصرته ويذكر الخليفين عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب بأحسن الذكر ويثنى عليهما ويلعن يزيد بن معاوية ويقع في معاوية وحدثوني عنه بأمور كثيرة وأخبرني أحمد الدين السنجاوي قال دخلت عليه الغار فأخذ بيدي فحبل إلى اني في قصر عظيم وأنه قاعد فيه على سرير وفوق رأسه تاج وعن جانبيه الوصائف الحسان والفواكه تتساقط في أنهار هناك وتخيلات إلى اخذت تفاحة لا كلها فإذا أنا بالغار وبين يديه وهو يضحك مني وأصابني مرض شديد لازمني شهورا فلم أعد إليه وأهل تلك البلاد يعتقدون أنه مسلم لكن لم يراه أحد يصلي أما الصيام فهو صائم أبداً وقال لي القاضي ذكرت له الصلاة في بعض الأيام فقال لي اتدري أنت ما اصنع ان صلاتي غير صلاتك واخباره جميعها غريبه وفي اليوم الثاني من لقائه سافرت راجعا إلى مدينة الزيتون .

ثم بعد وصولي إليها بإيام جاء أمر القان بوصولي إلى حضرته على البر والكرامة ان شئت في النهر ولما في البر فاخبرت السفر في النهر فجزوا إلى مركبا من المراكب المعدة لركوب الامراء وبعث الأمير معنا اصحابه ووجه لنا الأمير والقاضي والتجار المسلمون أزوادا كثيرة ثم سرنا في الضيافة تتغذى بقرية ونعشا باخرى فوصلنا بعد سفر عشرة ايام إلى مدينة قنجنفو (وضبط اسمها بفتح القاف وسكون النون وفتح الجيم وسكون النون الآخر وضم الفاء وواو) مدينة كبيرة حسنة في بسيط افيج والبساتين محدة بها فكاها غوطه دمشق وعند وصولنا خرج إلينا القاضي وشيخ الإسلام والتجار معهم الاعلام والطبول والانفار وأهل الطرب وأتوا بالخيل فركبنا ومشوا بين أيدينا ولم يركب معنا غير القاضي والشيخ وخرج أمير البلد وخدامه وضيف السلطان عندهم معظم أشد التعظيم دخلنا المدينة ولها أربعة أسوار يسكن ما بين السور الاول والثاني عبيد السلطان من حراس المدينة وسمارها يسمون البصوانان (الباسوانان) بفتح الباء الموحدة

وسكون الصاد المهمل وواو وألف ونون) ويسكن ما بين السور الثاني والثالث الجنود
المركبون والأمير الحاكم على البلد ويسكن داخل الثالث المسلمون وهناك نزلنا عند
شيخهم ظهير الدين القرلاقي (بضم القاف وسكون الراء) ويسكن داخل السور الرابع
الصينيون وهو أعظم المدن الأربعة ومقدار ما بين كل باب منها والذي يليه ثلاثة
أميال وأربعة واسكن لإنسان كما ذكرنا بستانه وداره وأرضه

(حكاية)

وبينا أنا يوما في دار ظهير الدين القرلاقي إذا بمركب عظيم لبعض الفقهاء المعظمين
عندهم فاستؤذن له علي وقالوا مولانا قوام الدين السبكي فعميت من اسمه ودخل إلى فلما
حصلت المؤانسة بعد التحية سئمت لي أن أعرفه فأطلت النظر إليه فقال أراك تنظر إلى نظر
من يعرفني فقلت له من أي البلاد أنت فقال من سبته فقلت له وأنا من طنجة جدد السلام على
وبكى حتى بكيت لبكائه فقلت له هل دخلت بلاد الهند فقال لي نعم دخلت حضرة في دهلي
فلما قال لي ذلك تذكرت له وقلت أأنت البشري قال نعم وكان وصل إلى دهلي مع
خاله أبي القاسم المرسى وهو يومئذ شاب لا نبات بعارضيه من حذاق الطلبة يحفظ
الموطأ وكنت أعلمت سلطان الهند بأمره فأعطاء ثلاثة آلاف دينار وطالب منه الإقامة
عنده فاني وكان قصده في بلاد الصين فعظم شأنه بها واكتسب الأموال الطائلة أخبرني
أن له نحو خمسين غلاما ومثلهم من الجوارى وأهدى إلى منهم غلامين وجاريتين وتحفا
كثيرة ولقيت أخاه بعد ذلك ببلاد السودان فيما بعد ما بينهما وكانت إقامتي بطنجنتو
خمس عشرة يوما .

وسافرت منها إلى بلاد الصين على ما فيها من الحسن لم تكن تعجبني بل كان خاطري شديد التغير
بسبب غلبة الكفر عليها فمضى خرجت عن منزلي رأيت المانكير الكثيرة فاقتنى ذلك حتى
كنت أأزحم المنزل فلا أخرج إلا اضرورة وكنت إذا رأيت المسلمين بها فكأنني لقيت أهلي وأقاربي
ومن تمام فضيلة هذا الفقيه البشري أن سافر معي لما رحلت عن قنجنقوار بعة أيام حتى وصلت
إلى مدينة بيوم قطلوا (وهي بياض موحدة مفتوحة وياض آخر الحروف ساكنة وواو مفتوحة
وميم وقاف مضموم وطاء مسكنة ولام مضموم وواو) مدينة صغيرة يسكنها الصينيون من
جند وسوقة وليس بها للمسلمين إلا أربعة من أهل الدور أهلها الفقيه المذكور نزلنا بدار أحدهم
واقمنا عنده ثلاثة أيام ثم ودعت الفقيه وانصرفت فركبت النهر على العادة نتغدى بقرية
وتعشى بأخرى إلى أن وصلنا بعد سبعة عشر يوما من مدينة الخنساء واسمها على نحو اسم الخنساء

الشاعرة ولا أدري إعرابي هو ام وافق العربي وهذه المدينة أكبر مدينة رأيتها على وجه الأرض طولها مسيرة ثلاثة أيام يرحل المسافر فيها وينزل وهي على ما ذكرناه من ترتيب عمارة الصين كل واحد له بستانه وداره وهي منقسمة إلى ست مدن سند كرها وعند وصولنا لمجاها خرج إلينا قاضيها نحر الدين وشيخ الإسلام بها وأولاد عثمان بن عفان المصري وهم كبار المسلمين بها ومعهم علم أبيض والاطبال والانفار والأبواق وخرج أميرها في موكبه ودخلنا المدينة وهي ست مدن على كل مدينة سور ومحدد بالجميع سور واحد فأول مدينة منها يسكنها حراس المدينة وأميرهم حدثني القاضي وسواء أنهم اثنا عشر ألفاً في زمام العسكرية وبتنا ليلة دخولنا في دار أميرهم وفي اليوم الثاني دخلنا المدينة الثانية على باب يعرف بباب اليهود ويسكن بها اليهود والنصارى والترك عبدة الشمس وهم كثير وأمير هذه المدينة من أهل الصين وبتنا عنده الليلة الثانية .

وفي اليوم الثالث دخلنا المدينة الثالثة ويسكنها المسلمون ومدينتهم حسنة واسواقهم مرتبة كترتيبها في بلاد الإسلام وبها المساجد والمؤذنون سمعناهم يؤذنون بالظهر عند دخولنا ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عفان المصري وكان أحد التجار السكبار استحسن هذه المدينة فاستوطنها وعرفت بالنسبة إليه ووارث عقبه به الجاه والحرمة على ما كان عليه من الايثار على الفقراء والأعانة للمتحتاجين ولهم زاوية تعرف بالعثمانية حسنة العمارة لها أوقاف كثيرة وبها طائفة من الصوفية وبني عثمان المذكور المسجد الجامع بهذه المدينة ووقف عليه وعلى الزاوية أوقافا عظيمة وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير.

وكانت إقامتنا عندهم خمسة عشر يوما فسكننا كل يوم وليلة في دعوة جديدة ولا يزالون يختلفون في اطعمتهم ويركبون معنا كل يوم للزهوة في اقطار المدينة وركبوا معي يوما فدخلنا إلى المدينة الرابعة وهي دار الإمارة وبها سكنى الأمير الكبير قرطى ولما دخلنا من بابها ذهب عنى أصحابي ولقينى الوزير وذهب بى إلى دار الأمير الكبير قرطى فكان من أخذه الفرجية النى أعطانيها ولى الله جلال الدين الشيرازى ماقد ذكرته وهذه المدينة منفردة لسكنى عبيد السلطان وخدامه وهي من أحسن المدن الست ويشقها أنهار ثلاثة أحدها خليج يخرج من النهر الأعظم وتأتى فيه القوارب الصغار إلى هذه المدينة بالمرافق من الطعام واحجار الوقود وفيه السفن للزهوة والمشور في وسط هذه المدينة وهو كبير جدا ودار الإمارة في وسطه وهو يحف بها من جميع الجهات وفيه سقائف فيها الصنائع يصنعون الشياب النفيسة وآلات الحرب أخبرنى الأمير قرطى أن عددهم ألف وستمائة معلم كل واحد منهم يتبعه الثلاثة والأربعة من المتعلمين وهم اجمعون عبيد القان وفي أرجلهم

القيود ومساكنهم خارج القصر ويباح لهم الخروج إلى أسواق المدينة دون الخروج على بابها ويعرضون كل يوم على الأمير مائة مائة فإن نقص أحدهم طلب به أميره وعادتهم أنه إذا خدم أحدهم عشرين فك عنه قيده وكان يخير في النظرين أما أن يقيم في الخدمة غير مقيد وأما أن يسير حيث شاء من بلاد القان ولا يخرج عنها وإذا بلغ سنه خمسين عاما اعتق من الأشغال وأنفق عليه كذلك ينفق على من بلغ هذه السن أو نحوها من سواهم ومن بلغ ستين سنة عدوه كالعبي فلم تجر عليه الأحكام والشيوخ بالصين يعظمون تعظيما كثيرا ويسمى أحدهم آطارو معناه الوالد .

(ذكر الأمير الكبير قرطى)

وضبط اسمه (بضم القاف وسكون الراء وفتح الطاء المهمل وسكون الياء) وهو أمير امراء الصين أضافنا بداره وصنع الدعوة ويسمونهم الطوى (بضم الطاء المهمل وفتح الواو) وحضرها كبار المدينة واتي بالطباخين المسلمين فذبجوا وطبخوا الطعام وكان هذا الأمير على عظمتهم يناولنا الطعام بيده ويقطع اللحم بيده واقمنا في ضيافته ثلاثة أيام وبعث ولده معنا إلى الخليج فركبنا في سفينة تشبه الحراقة وركب ابن الأمير في أخرى ومعه أهل الطرب وأهل الموسيقى وكانوا يغنون بالصيني وبالعربي وبالفارسي وكان ابن الأمير معجبا بالغناء الفارسي فغنوا شعرا منه وأمرهم بتكريره مرارا حتى حفظته من أفواههم وله تلحين عجيب وهو

تاذل بمحنت دادم در بحر فکرا فتادیم
جن (جون) در نمازا ستادتم قوى بمجرب اندری اندریم

واجتمعت بذلك الخليج من السفن طائفة كبيرة لهم القلاع الملونة ومظلات الحرير وسفنهم منقوشة ابداع نقش وجعلوا يتحاملون ويترامون بالنار رنج والليمون وعدنا بالعشى إلى دار الأمير فبتنا بها وحضر أهل الطرب فغنوا بأنواع من الغناء العجيب .

(حكاية المشعوذ)

وفي تلك الليلة حضر أحد المشعوذة وهو من عبيد القان فقال له الأمير أرنا من عجائبك فأخذ كرة خشب لها ثقب فيها سيور طوال فرمى بها إلى الهواء فارتفعت حتى غابت عن الأبصار ونحن في وسط المشور أيام الحر الشديد فلما لم يبق من السير في يده إلا يسير أمر متعلبا له فتعلق به وصعد في الهواء إلى أن غاب عن أبصارنا فدعاه فلم يجبه ثلاثا فأخذ سكيننا بيده كالمتحاذ

وتعلق بالسير إلى أن غاب أيضا ثم رمى بيد الصبي إلى الأرض ثم رمى برجله ثم بيده الأخرى ثم برجله الأخرى ثم بجسده ثم برأسه ثم هبط وهو يتفخ ونيا به ملطخة بالدم فقبل الأرض بين يدي الأمير وكلمه بالصيني وأمر له الأمير بشيء.

ثم أنه أخذ أعضاء الصبي فالصق بعضها ببعض وركضه برجله فقام سويا فعجبت منه وأصابني خفقان القلب كمثل ما كان أصابني عند ملك الهند حين رأيت مثل ذلك فسقوني دواء أذهب عني ما وجدت وكان القاضي أخو الدين إلى جاني فقال لي والله ما كان من صعود ولا نزول ولا قطع عضو وإنما ذلك شعوذة وفي غد تلك الليلة دخلنا من باب المدينة الخامسة وهي من أكبر المدن يسكنها عامة الناس وأسواقها حسان وبها الحذاق بالصنائع وبها تصنع الثياب الخنساوية ومن عجيب ما يصنعون بها أطباق يسمونها الدست وهي من القصب وقد الصقت قطعه أبداع الصاق ودهنت بضبع أحمر مشرق وتسكون هذه الأطباق عشرة واحداً في جوف آخر لطورفتها تظهر لرائيها كأنها طبق واحد ويصنعون غطاء يغطي جميعها ويصنعون من هذا القصب صحافاً ومن عجائبها أن تقع من العلو فلا تنكسر ويجعل فيها الطعام الساخن فلا يتغير صباغها ولا يحول وتجلب من هنالك إلى الهند وخراسان وسواها .

ولما دخلنا هذه المدينة بتنا ليلة في ضيافة أميرها وبالفرد دخلنا من باب يسمى كشتي وإنان إلى المدينة السادسة ويسكنها البحرية والصيادون والجلاطة والنجارون ويدعون دودكران (دودكران) والأصباكية وهم الرماة والبيادة وهم الرجالة وجميعهم عبيد السلطان ولا يسكن معهم سواهم وعددهم كثير وهذه المدينة على ساحل النهر الأعظم بتنا بها ليلة في ضيافة أميرها وجعل لنا الأمير قرطى مركبا بما يحتاج إليه من زان وسواه وبعث معنا أصحابه برسم التضييف .

وسافرنا من هذه المدينة وهي آخر أعمال الصين ودخلنا إلى بلاد الخطا (بكسر الخاء المعجم وهاء مهمل) وهي أحسن بلاد الدنيا عمارة ولا يكون في جميعها موضع غير معمور فانه ان بقي موضع غير معمور طلب أهله أو من يواليهم بخراجه والبساتين والقرى والمزارع منتظمة بجانب هذا النهر من مدينة الخنسا إلى مدينة خان بالق وذلك مسيرة أربعة وستين يوما وليس بها أحد من المسلمين إلا من كان حاضرا غير مقيم لأنها ليست بدار مقام وليس بها مدينة مجتمعة إنما هي قرى ويسائط فيها الزرع والفواكه والسكر ولم أرفى الدنيا مثلها غير مسيرة أربعة أيام من الأنبار إلى عانة وكنا كل ليلة ننزل بالقرى لأجل الضيافة حتى وصلنا إلى مدينة خان بالق (وضبط أسمها بخاء معجم والـف و نون مسكن و باء معقود والـف و لام مكسور و وقف) وتسمى أيضا خانقو

(بخاء معجم ونون مكسور وقاف وواو) وهى حضرة القان والقان هو ساطا نهم أعظم الذى مملكته بلاد الصين والخطأ ولما وصلنا اليها أرسينا على عشرة أميال منها على العادة عندهم وكتب إلى أمراء البحر يخبرنا فأذنوا لنا فى دخول مرساها فدخلناه ثم نزلنا إلى المدينة وهى من أعظم مدن الدنيا وليست على ترتيب بلاد الصين فى كون البساتين داخلها إنما هى كسائر البلاد والبساتين بخارجها ومدينة السلطان فى وسطها كالقصبية حسبما ذكره ونزلت عند الشيخ برهان الدين الصاغر جى وهو الذى بعث إليه ملك الهند بأربعين ألف دينار واستدعاه فاخذ الدنانير وقضى بها دينه وأبى أن يسير إليه وقدم على بلاد الصين فقدمه القان على جميع المسلمين الذين بيلاده وخاطبه بصدر الجمان .

(ذكر سلطان الصين والخطا الملقب بالقان)

والقان عندهم سمة لكل من بلى الملك الأقطار كمثل ما يسمى كل من ملك بلاد اللورباتاك واسمه باشاى (بفتح الباء المعقودة والشين المعجمة وسكون الياء) وليس للكفار على وجه الأرض مملكة من مملكته .

(ذكر قصره)

وقصره فى وسط المدينة المختصة بسكناها وأكثر عمارته بالخشب المنقوش وله ترتيب عجيب وعليه سبعة أبواب فالباب الأول منها يجلس به السكوتال وهو أمير البوابين وله مصاطب مرتفعة عن يمين الباب ويساره فيها المماليك البرد دارية وهم حفاظ باب القصر وعددهم خمسمائة رجل وأخبرت أنهم كانوا فيما تقدم ألف رجل والباب الثانى يجلس عليه الاصباهية وهم الرماة وعددهم خمسمائة والباب الثالث يجلس عليه النزارية (بالنوز والزاى) وهم أصحاب الرماح وعددهم خمسمائة والباب الرابع يجلس عليه التغدارية (بالتاء المشناة والغين المعجم) وهم أصحاب السيوف والترسة والباب الخامس فيه ديوان الوزارة وبه سقائف كثيرة فالسقيفة العظمى يقعد بها الوزير على مرتبة هائلة مرتفعة ويسعون ذلك الموضع المسند وبين يدي الوزير دواة عظيمة من الذهب وتقابل هذه السقيفة سقيفة كاتب السروعن يمينها سقيفة كتاب الرسائل وعن يمين سقيفة الوزير سقيفة كتاب الاشغال وتقابل هذه السقائف سقائف أربع احداها تسمى ديوان الاشراف يقعد بها المشرف والثانية سقيفة ديوان المستخرج أو أميرها من كبار الامراء والمستخرج هو ما يبقى قبل العمال وقبل الامراء من اقطاعاتهم والثالثة ديوان الخوثة ويجلس فيها أحد الامراء الكبار ومعه الفقهاء والكتاب فمن لحقه مظلمة استغاث بهم والرابعة ديوان البريد يجلس فيها امير الاخبار بين

والباب السادس من ابواب القصر يجلس عليه الجندارية وأميرهم الأعظم والباب السابع يجلس عليه الفتيان ولهم ثلاثة سقائف احداها سقيفة الحبشان منهم والثانية سقيفة الهنود والثالثة سقيفة الصينيين واسكل طائفة منهم أمير من الصينيين .

(ذكر خروج القان لقتال ابن عمه وقتله)

ولما وصلنا حضرة خان باقى وجدنا القان غائباً عنها إذ ذاك وخرج للقاء ابن عمه فيروز القائم عليه بناحية قراقرم وبش بالغ من بلاد الخطا وبينها وبين الحضرة مسيرة ثلاثة اشهر عامرة واخبرني صدر الجمان برهان الدين الصاغرجي ان القان لما جمع الجيوش وحشد الحشود اجتمع عليه من الفرسان مائة فوج كل فوج منها من عشرة الاف فارس وأميرهم يسمى أمير طومان وكان خواص السلطان وأهل دخلته خمسين ألفاً زائداً الى ذلك وكانت الرجالة خمسمائة ألف ولما خرج خالف عليه أكثر الأمراء وانفقوا على خلعهم لأنه كان قد غير أحكام اليساق وهي الأحكام التي وضعها تنكين خان جدهم الذي خرب بلاد الإسلام فمضوا الى ابن عمه القائم وكتبوا الى القان أن يخلع نفسه وتكون مدينة الخنساء اقطاعاً له فأبى ذلك وقاتلهم فانهمزموه وقتل وبعد أيام من وصولنا الى حضرته ورد الخبر بذلك فزينت المدينة وضربت الطبول والأبواق والأناقر واستعمل اللعب والطرب مدة شهر .

ثم جرى بالقان المقتول وبنحو مائة من المقتولين بني عمه واقاربه وخواصه فحفر للقان ناوس عظيم وهو بيت تحت الأرض وفرش وجعل فيه القان بسلاحه وجعل معه ما كان في داره من اواني الذهب والفضة وجعل معه اربع من الجوارى وستة من خواص الممالك معهم اواني الشرب وبني باب البيت وجعل فوقه التراب حتى صار كالتل العظيم .

ثم جاؤا بأربعة افراس فأجروها عند قبره حتى وقفت ونصبوا خشباً على القبر وعلقوها عليه بعد أن أدخلوا في دبر كل فرس خشبة حتى خرجت من فيه وجعل أقارب القان المذكرون واويس ومعه سلاحهم واواني دورهم وصلبوا على قبور كبارهم وكانوا عشرة ثلاثة من الخيل على كل قبر وعلى قبور الباقيين فرسافرساً وكان هذا اليوم يوماً مشهوداً لم يتخلف عنه أحد من الرجال ولا النساء المسلمين والكفار وقد لبسوا أجمعون ثياب العزاء وهي الطيالة البيضاء للكفار والثياب البيض للمسلمين وأقام خواتين القان وخواصه في الاخبية على قبره اربعين يوماً وبعضهم يزيد على ذلك الى سنة وصنعت هناك سوق يباع فيه ما يحتاجون اليه من طعام وسواهم هذه الأفعال لا أذكر ان أمة تفعلها سواهم في هذا القصر فاما الكفار من

الهنود وأهل الصين فيحرقون موتاهم وسواهم من الأمم يدفنون الميت ولا يجعلون معه أحدا لكن أخبرني الثقات ببلاد السودان أن الكفار منهم إذامات ملكهم صنعوا له ناووسا وأدخلوا معه بعض خواصه وخدامه وثلاثين من أبناء كبارهم وبناتهم بعد أن يكسروا أيديهم وأرجلهم ويجعلون معهم أواني الشراب وأخبرني بعض كبار مسوفة بمن يسكن بلاد كوبر مع السودان واختصه سلطانهم أنه كان له ولد فلما مات سلطانهم أرادوا أن يدخلوا ولده مع من أدخلوه من أولادهم قال فقلت لهم كيف تفعلون ذلك وليس على دينكم ولا من ولدكم فديته منهم بمال عريض ولما قتل القان كما ذكرنا واستولى ابن عمه فيروز على الملك اختار أن تكون حضرته مدينة قراقم (وضبطها بفتح القاف الأول والراء وضم الثانية وضم الراء الثانية) لقرىها من بلاد بني عمه ملوك تركستان وما وراء النهر ثم خالفت عليه الأمراء معن لم يحضر لقتل القان وقطعوا الطرق وعظمت الفتن .

(ذكر رجوعى إلى الصين ثم إلى الهند)

ولما وقع الخلاف وتسمرت الفتن أشار على الشيخ برهان الدين وسواه أن أعود إلى الصين قبل تمكن الفتن ووقفوا معى إلى نائب السلطان فيروز فبعث معى ثلاثة من أصحابه وكتب لى بالضيافة وسرنا من حدرين فى النهر إلى الخنساء ثم إلى قنجنغو ثم إلى الزيتون فلما وصلتها وجدت الجنوك على السفر إلى الهند وفى جماعتها جنك للملك الظاهر صاحب الجاوة أهله مسلمون وعرفنى وكيله وسر بقدمى وصادفنا الريح الطيبة عشرة أيام فلما قاربنا بلاد طوالسى تغيرت الريح وأظلم الجو وكثر المطر واقفنا عشرة أيام لا نرى الشمس ثم دخلنا بحرا لا نعرفه وخاف أهل الجنك فارادوا الرجوع إلى الصين فلم يتمكن ذلك واقفنا اثنين وأربعين يوما لا نعرف فى أى البهار نحن .

(ذكر الرخ)

ولما كان فى اليوم الثالث والأربعين ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل فى البحر بيننا وبينه نحو عشرين ميلا والريح تحملنا إلى صوبه فعجب البحرية وقالوا لنا بقرب من البر ولا يعهد فى البحر جبل وإن اضطرتنا الريح لآليه ملكنا فلجأ الناس إلى التضرع والاختلاص وجدوا التوبه وابتهلنا إلى الله بالدعاء توسلنا بنبيه صلى الله عليه وسلم وبذر التجار الصدقات الكثيرة وكتبتهما لهم فى زمام بخطى وسكنت الريح بعض سكون ثم رأينا ذلك الجبل عند

طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر فعجبنا من ذلك ورايت البحر يهكون ويودع بعضهم بعضا فقلت ما شأنكم فقالوا أن الذي تخيلناه جبلا هو الرخ وإن رأنا اهلكنا وبيننا وبينه إذ ذاك أقل من عشرة أميال ثم أن الله تعالى من علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبه فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا الجاوة ونزلنا إلى سمطرة فوجدنا سلطانها الملك الظاهر قد قدم من غزاة له وجاء بسبي كثير فبعث إلى جاريتين وغلامين وأنزاني على العادة وحضرت أعراض ولده مع بنت أخيه .

(ذكر أعراس ولد الملك الظاهر)

وشاهدت يوم الجلوة فرأيتهم قد نصبوا في وسط المشور منبرا كبيرا وكسوه بثياب الحرير وجاءت العروس من داخل القصر على قدميها بادية الوجه ومعهما نحو أربعين من الخواتين يرفعن أذيالها من نساء السلطان وأمرائه ووزرائه وكلهن باديات الوجوه ينظر اليهن كل من حضر من رفيع أو وضيع وليست تملك بمادة هن إلا في الأعراس خاصة وصعدت العروس المنبر وبين يديها أهل الطرب رجالا ونساء يلعبون ويغنون ثم جاء الزوج على فيل مزين على ظهره سرير وفوقه قبة شبيهة البوابة والتاج على رأس العروس المذكور عن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك وأمرام قد لبسوا البياض وركبوا الخيل المزيينة وعلى رؤوسهم الشواشي المرصعة وهم أتراب العروس ليس فيهم ذولحية ونثرت الدنانير على الناس عند دخوله وقعد السلطان بمنظرة له يشاهد ذلك ونزل أبنته فقبل رجله وصعد المنبر إلى العروس فقامت إليه وقبلت يده وجلس إلى جانبها والخراطين يروحون عليها وجاؤا بالفوفل والتنبول فاخذ الزوج بيده وجعل منه في فمها ثم أخذت هي بيديها وجعلت في فمها ثم أخذ الزوج بقمة ورقة تنبول وجعلها في فمها وذلك كله على أعين الناس ثم فعلت هي كفعلة ثم وضع عليها الستر ورفع المنبر وهما فيه إلى داخل القصر وأكل الناس وانصرفوا ثم لما كان من الغد جمع الناس وأجرى له أبوه ولاية العهد وبايعه الناس وأعطاهم العطاء الجزل من الثياب والذهب وأقامت بهذه الجزيرة شهرين ثم ركبت في بعض الجنوك .

وأعطاني السلطان كثيرا من العود والكافور والقرنفل والصندل وزودني وسافرت عنه فوصلت بعد أربعين يوما إلى كولم فنزلت بها في جوار القزويني قاضي المسلمين وذلك في رمضان وحضرت بها صلاة العيد في مسجد الجامع وعادتهم أن يأتوا المسجد

ليلا فلا يزالون يذكرون الله إلى الصبح ثم يذكرون إلى حين صلاة العيد ثم يصونون
ويخطب الخطيب وينصرفون ثم سافرنا من كوفل إلى قائلقوط وأقمنا بها أياما وأردت
العودة إلى دهلي ثم خفت من ذلك فركبت البحر فوصلت بعد ثمان وعشرين ليلة إلى
طهار وذلك في محرم سنة ثمان وأربعين ونزلت بدار خطيبها عيسى بن طاهة .

(ذكر سلطانها)

ووجدت سلطانها في هذه "سكرة" لذلك الناصر ابن المنك المغيث الذي كان مسكها حين
وصولي إليها فيما تقدم وناثبه سيف الدين عمر أمير جندو التركي الأصل وأنزاني هذا السلطان
وأكرماني ثم ركبت البحر فوصلت إلى مسقط (بفتح الميم) وهي بلدة صغيرة بها
السكك الكثير المعروف بقصب الماس ثم سافرنا إلى مرسى القريبات (وضبطها بضم
القاف وفتح الراء والياء آخر الحروف وألف وتاء مشناة) ثم سافرنا إلى مرسى شبة
(وضبط اسمها بفتح الشين المعجم وفتح الباء الموحدة وتشديدها) ثم إلى مرسى كلبة
ولفظها على لفظ مؤنثة السكب ثم إلى قبات وقد تقدم ذكرها وهذه البلاد كلها من
عمالة هرمز وهي محسوبة من بلاد عمان ثم سافرنا إلى هرمز وأقمنا بها ثلاثا وسافرنا
في البر إلى كورستان ثم إلى اللار ثم إلى خنج بال وقد تقدم ذكر جميعها ثم سافرنا
إلى كازي (وضبط اسمها بفتح الكاف وسكون الراء وكسر الزاي) وأقمنا
بها ثلاثا .

ثم سافرنا إلى جمان (وضبط اسمها بفتح الجيم والميم والسكاف وآخره نون) ثم
سافرنا منهم إلى ميين (ضبط اسمها بفتح الميمين وبينها ياء آخر الحروف مسكنة وآخره
نون) ثم سافرنا إلى بسا (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة والسين المهمل مع تشديدها) ثم
إلى مدينة شيراز فوجدنا سلطانها أبا إسحاق على ملكه إلا أنه كان غائبا عنها ولقيت بها شيخنا
الصالح العالم مجد الدين قاضي القضاة وهو قد كف بصره نفعه الله ونفع به ثم سافرت إلى
ماين ثم إلى يزد خاص ثم إلى كليل ثم إلى كشك زر ثم إلى اصبهان ثم إلى تستر ثم إلى الخوين ثم
إلى البصرة وقد تقدم ذكر جميعها وزرت بالبصرة القبور الكريمة التي بها وهي قبر الزبير بن
العوام وطهحة بن عبد الله وحليمة السعدية وأبي بكر وأنس بن مالك والحسن البصري وثابت
البناني ومحمد بن سيرين ومالك بن دينار ومحمد بن واسع وحبيب العجمي وسهل بن عبد الله
التستري رضي الله تعالى عنهم أجمعين ثم سافرنا من البصرة فوصلنا إلى مشهد على بن أبي
طالب رضي الله عنه وزرناه ثم توجهنا إلى الكوفة فزرنا مسجدنا المبارك ثم إلى الحلة حيث
مشهد صاحب الزمان واتفق في بعض تلك الأيام أن زلها بعض الأمراء فمنع أهلها من التوجه

على عادتهم إلى مسجد صاحب الزمان وانتظاره هناك ومنع عنهم الدابة التي كانوا يأخذونها كل ليلة من الأمير فأصابته ذلك الوالى علة مات منها سر يعافز اد ذلك في فتنة الرافضة وقالوا لما اصابه ذلك لأجل منعه الدابة فلم تمتنع بعد ثم سافرت إلى صرصر ثم إلى مدينة بغداد وصالتها في شوال سنة ثمان وأربعين ولقيت بها بعض المغاربة فعرفني بكاتبة طريف واستيلاء الروم على الخضره جبر الله صدع الاسلام في ذلك

(ذكر سلطانها)

وكان سلطان بغداد والعراق في عهد دخولي إليها في التاريخ المذكور الشيخ حسن ابن عمه (س) أبي سعيد رحمه الله ولما مات أبو سعيد استولى على ملكه بالعراق وتزوج بزوجته دلشاد بنت دمشق خواجه ابن الأمير الجوبان حسبها كان فعله (س) أبو سعيد من تزوج زوجة الشيخ حسن وكان (س) حسن غائبا عن بغداد في هذه المدة متوجها لقتال (س) انا بك افراسياب صاحب بلاد اللور ثم رحلت من بغداد فوصلت إلى مدينة الانبار ثم إلى هيت ثم إلى الحديثة ثم إلى عانة وهذه البلاد من أحسن البلاد وأخصبها والطريق فيما بينها كثير العماره كان الماشى في سوق من الأسواق وقد ذكرنا لنا لم نر ما يشبه البلاد التي على نهر الصين الا هذه البلاد ثم وصلت إلى مدينة الرحبة وهي التي تنسب إلى مالك بن طوق ومدينة الرحبة أحسن بلاد العراق وأول بلاد الشام ثم سافرنا إلى السخنة وهي بلدة حسنة أكثر سكانها الكفار من النصارى وإنما سميت السخنة لحرارة مائها وفيه بيوت الرجال وبيوت للنساء يستحمون فيها ويستقون الماء ليلا ويجعلونه في السطوح ليبرد ثم سافرنا إلى تدمر مدينة نبي الله سليمان عليه السلام التي بنتها له الجن كما قال النابغة

(بسيط) * يبنون تدمر بالصفا والعمد *

ثم سافرنا منها إلى مدينة دمشق الشام وكانت مدة مغيبى عنها عشرين سنة كاملة وكنت تركت بها زوجة لي حاملا وتعرفت وأنا ببلاد الهند أنها ولدت ولدا ذكرا فبعثت حينئذ إلى جده اللام وكان من أهل مكناسة المغرب أربعين دينار ذهباً هندياً فحين وصولي إلى دمشق في هذه السكرة لم يكن لي هم إلا السؤال عن ولدي فدخلت الجامع فوفق لي نور الدين السخاوى امام المالكية وكبيرهم فسلمت عليه فلم يعرفني فعرفته بنفسى وسألته عن الولد فقال مات منذ ثنتي عشر سنة وأخبرني أن فقيهاً من أهل طنجة يقيم بالمدرسة الظاهرية فسرت إليه لاسأله عن والدي وأهلى فوجدته شيخاً كبيراً فسلمت عليه وأنتسبت له فأخبرني أن والدي توفي منذ خمس عشرة سنة وأن الوالدة بقيت بالحياة وأقامت بدمشق الشام بقيه العام

والعلاء شديد والخبز قد انتهى إلى قيمة سبع أواق بدرهم نقرة وأوقيتهم أربع أواق مغربية وكان قاضى قضاة الماسكية إذ ذاك جمال الدين المسلاق وكان من أصحاب الشيخ علاء الدين القونوى وقدم معه دمشق فعرف بهائم ولى القضاء وقاضى قضاة الشافعية تقي الدين بن السبكي وأمير دمشق ملك الأمراء إرعون شاه

(حكاية)

ومات في تلك الأيام بعض كبار دمشق وأوصى بمال المساكين فكان المتولى لإفاد الوصية يشتري الخبز ويفرقه عليهم كل يوم بعد العصر فاجتمعوا في بعض الليالي وتزاحوا واختطفوا الخبز الذي يفرق عليهم ومدوا أيديهم إلى خبز الخبازين وبلغ ذلك الأمير أرغون شاه فأخرج زبانية فكانوا حيث ما لقوا أحدا من المساكين قالوا له تعال تأخذ الخبز فاجتمع منهم عدد كثير فحبسهم تلك الليلة وركب من الغدوا أحضرهم تحت القلعة وأمر بقطع أيديهم وأرجلهم وكان أكثرهم براء عن ذلك وأخرج طائفة الحرافيش عن دمشق فانتقلوا إلى حمص وحماء وحلب وذكر لي أنه لم يعيش بعد ذلك الا قليلا وقتل ثم سافرت من دمشق إلى حمص ثم حماه ثم المرة ثم سرمين ثم إلى حلب وكان أمير حلب في هذا العهد الحاج رضى (بضم الراء وسكون الغين المعجم وفتح الطاء الممل وياء آخر الحروف مسكنة)

(حكاية)

واتفق في تلك الأيام أن فقيرا يعرف بشيخ المشايخ وهو ساكن في جبل خارج مدينة عنتاب والناس يقصدونه ويتبركون به وله تلميذ ملازم له وكان متجردا عزبا لازوجة له قال في بعض كلامه أن النبي ﷺ كان لا يصبر عن النساء وأنا أصبر عنهن فشهد عليه بذلك وثبت عند القاضى ورفع أمره إلى ملك الأمراء وأتى به بتلميذه الموافق له على قوله فافقى القضاة الأربعة وهم شهاب الدين الماسكى وناصر الدين العديم الحنفى وتقى الدين الصائغ الشافعى وعز الدين الدمشقى الحنبلى بقتلها معا فقتلا وفي أوائل شهر ربيع الأول عام تسعة وأربعين بلغنى الخبر فى حلب الوباء وقع بغزة وأنه انتهى عدد الموتى فيها إلى زائد على الألف فى يوم واحد فسافرت إلى حمص فوجدت الوباء قد وقع بها ومات يوم دخولى إليها نحو ثلثمائة انسان ثم سافرت إلى دمشق ووصلتها يوم الخميس وكان أهلها قد صاموا ثلاثة أيام وخرجوا يوم الجمعة إلى جامع الأقدام حسبا ذكرناه فى السفر الأول فخفف الله الوباء عنهم فأنهى عدد الموتى عندهم إلى ألفين وأربعمائة فى اليوم ثم سافرت إلى عجلول ثم إلى بيت المقدس ووجدت الوباء قد ارتفع عنهم ولقيت خطيبة عن الدين بن جماعة بن

عم عز الدين قاضي القضاة بمصر وهو من الفضلاء الكرماء ومرتبته على الخطابة ألف درهم في الشهر

(حكاية)

وصنع الخطيب عز الدين يوما دعوة ودعاني فيمن دعا إليهما فسألته عن سببها فأخبرني أنه نذر أيام الوباء إنه إن ارتفع ذلك ومر عليه يوم لا يصلي فيه على ميت صنع الدعوه ثم قال لي وما كان بالأمس لم أصل على ميت فصنعت الدعوه التي نذرت ووجدت من كنت أعهده من جميع الأشياخ بالقدس قد انتقلوا إلى جوار الله تعالى رحمهم الله فلم يبق منهم إلا القليل مثل المحدث العالم الإمام صلاح الدين خليل بن كيكلي العلاني ومثل الصالح شرف الدين الحنفي شيخ زاوية المسجد الأقصى ولقيت الشيخ سليمان الشيرازي فأضافني ولم أبق بالشام ومصر من وصل إلى قدم آدم عليه السلام سواه .

ثم سافرت عن القدس ورافقتي الواعظ المحدث شرف الدين سليمان الملياني وشيخ المغاربة بالقدس الصوفي الفاضل طامحة العبد الوادي فوصلنا إلى مدينة الخليل عليه السلام وزرناه ومن معه من الأنبياء عليهم السلام ثم سرنا إلى غزة فوجدنا معظمها خاليا من كثرة من مات بها في الوباء وأخبرنا قاضيها أن العدول بها كانوا ثمانين فبقى منهم الربع وأن عدد الموتي بها انتهى إلى ألف ومائة في اليوم ثم سافرنا في البر فوصلنا إلى دمياط ولقيت بها قطب الدين النفثواني وهو صائم الدهر ورافقتي منها إلى فارسكور وسمنود ثم إلى أبي صير (بكسر الصاد المهمل وياء وراء) ونزلنا في زاوية لبعض المصريين بها

(حكاية)

وبينما نحن بتلك الزاوية إذ دخل علينا أحد الفقراء فسلم وعرضنا عليه الطعام فأبى وقال إننا قصدت زيارتكم ولم يزل ليلته تلك ساجدا وراكما ثم صلينا الصبح واشتغلنا بالذكر والفقير بركن الزاوية فجاء الشيخ بالطعام ودعاه فلم يجبه ففضى إليه فوجده ميتا فصلينا عليه ودفعناه رحمة الله عليه ثم سافرت إلى المحسلة الكبيرة ثم إلى نحارارية ثم إلى أبيار ثم إلى دمنهور ثم إلى الاسكندرية فوجدت الوباء قد خف بها بعد أن بلغ عدد الموتي إلى ألف وثمانين في اليوم ثم سافرت إلى القاهرة وبلغني أن

عدد الموتي أيام الوباء انتهى فيها إلى واحد وعشرين ألفا في اليوم ووجدت جميع من كان بها من الشايخ الذين أعرفهم قد ماتوا رحمهم الله تعالى

(ذكر سلطانها)

وكان ملك ديار مصر في هذا العهد الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون وبعد ذلك خلع عن الملك وولى أخوه الملك الصالح ولما وصلت القاهرة وجدت قاضي القضاة عز الدين ابن قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة قد توجه إلى مكة في ركب عظيم يسمونه الرجبى لسفرهم في شهر رجب وأخبرت أن الوباء لم يزل معهم حتى وصلوا إلى عقبة أيلة فارتفع عنهم ثم سافرت من القاهرة إلى بلاد الصعيد وقد تقدم ذكرها إلى عيذاب وركبت منها البحر فوصلت جدة ثم سافرت منها إلى مكة شرفها الله تعالى وكرمها فوصلتها في الثاني والعشرين لشعبان سنة تسع وأربعين ونزلت في جوار أمام المالكيه الصالح الوالى الفاضل أبى عبد الله محمد بن عبد الله المدعو بخليل فصمت شهر رمضان بمكة وكنت أعتز كل يوم على مذهب الشافعى ولقيت من أ عهد من أشياخها شهاب الدين الحنفى وشهاب الدين الطبرى وأبا محمد اليافعى ونجم الدين الأصفهونى والحرازى وحججت تلك العام ثم سافرت مع الركب الشامى إلى طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وزرت قبره المكرم زاده الله طيبا وتشريفنا وصليت في المسجد الكريم طهره الله وزاده تعظيما وزرت من بالبقيع من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم ولقيت من الأشياخ أبا محمد بن فرحون ثم سافرنا من المدينة الشريفة إلى العلا وتبوك ثم إلى بيت المقدس ثم إلى مدينة الخليل صلى الله عليه وسلم ثم إلى غزة ثم إلى منازل الرمل وقد تقدم ذكر ذلك كله ثم إلى القاهرة وهناك تعرفنا أن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين أبا عنان أيده الله تعالى قد ضم الله به نشر الدولة المريضية وشفى ببركته بعد اشفاؤها البلاد المغربية وأفاض الاحساس على الخاص والعام وغمر جميع الناس بسابغ الانعام فتشوقت النفوس إلى المثول ببابه وأملت أن ركابه فعند ذلك قصدت القدوم على حضرته العلية مع تذكار الأوطان والحنين إلى الأهل والخلان والمحبة إلى بلادى التى لها الفضل عندى على البلدان

بلادها نيظت على تمامى وأور أرض مس جلدى تراها

فركبت البحر في قرقورة ابعض التونسيين صغيرة وذلك في صفر سنة خمس وخمسين وسرت حتى نزلت بحربة وسافر المركب المذكور إلى تونس فاستولى العدو عليه ثم سافرت في مركب صغير إلى قابس فنزلت في ضيافة الأخوين الفاضلين أبي مروان وأبي العباس أبي مكي أميري جربة وفارس وحضرت عندهما مولد رسول الله ﷺ ثم ركبت في مركب إلى سفاقس ثم توجهت في البحر إلى بليانة ومنها سرت في البر مع العرب فوصلت بعد مشقات إلى مدينة تونس والعرب محاصرون لها

(ذكر سلطانها)

وكانت تونس في أيالة مولانا أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين علم الأعلام وأوحد الملوك الكرام أسد الآساد وجواد الأجواد القانت الأبواب الخاشع العادل أبي الحسن ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ناصر دين الاسلام الذي سارت الأمثال بحجوده وشاع في الاقطار أثر كرمه وفضله ذي المناقب والمفاخر والفضائل والمآثر الملك العادل الفاضل أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين قاهر الكفار ومبيدها ومبدي آثار الجهاد ومعيدها ناصر الإيمان الشديد السطوة في ذات الرحمان ، العابد الزاهد الراكع الساجد الخاشع الصالح أبي يوسف ابن عبد الحق رضي الله عنهم أجمعين وأبقى الملك في عقبهم إلى يوم الدين ولما وصلت تونس قصدت الحاج أبا الحسن الناميسي لما بيني وبينه من مودات القرابة والبلدية فانزلني بداره وتوجه معي إلى المشور فدخلت المشور الكريم وقيلت يد مولانا أبي الحسن رضي الله عنه وأمرني بالقمود فقعدت وسألني عن الحجاز الشريف وسلطان مصر فأجبته وسألني عن ابن تيفراجين فأخبرته بما فعلت المغاربة معه وإرادتهم قتله بالاسكندرية ومالني من اذائهم انتصارا منهم لمولانا أبي الحسن رضي الله عنه وكان في مجلسه من الفقهاء الامام أبو عبد الله السطى والامام أبو عبد الله محمد بن الصباغ ومن أهل تونس قاضيا أبو علي عمر بن عبد الرفيع وأبو عبد الله بن هارون وانصرفت عن المجلس الكريم فلما كان بعد العصر استدعاني مولانا أبو الحسن وهو ببرج يشرف على موضع القتال ومعه الشيوخ

الجللة أبو عمر وعثمان بن عبد الواحد التنالفتي وأبو حسون زيان بن أمريون العلوي
وأبو زكرياء يحيى بن سليمان العسكري والحاج أبو الحسن الناميسي فسألني عن ملك
الهند فأجبته عما سأل

ولم أزل أتردد إلى مجلسه الكريم أيام إقامتي بتونس وكانت ستة وثلاثين يوما
ولقيت بتونس إذ ذاك الشيخ الامام خاتمة العلماء وكبيرهم أبا عبد الله الابلي وكان في
فراش المرض وباحثن عن كثير من أمور رحلت

ثم سافرت من تونس في البحر مع القطلانيين فوصلنا إلى جزيرة سردانية من جزر
الروم ولها مرسى عجيب عليه خشب ككبار دائرة به وله مدخل كأنه باب لا يفتح
إلا بأذن منهم وفيها حصون دخلنا أحدها وبه أسواق كثيرة ونذرت لله تعالى أن
خلصنا الله صوم شهرين متتابعين لأننا تعرفنا أن أهلها عازمون على اتباعنا إذا
خرجنا عنها لياسرونا

ثم خرجنا عنها فوصلنا بعد عشر إلى مدينة تنس ثم إلى مازونة ثم إلى مستغانم ثم إلى
تلمسان فقصدت العباد وزرت الشيخ أبيامدين رضى الله عنه ونفع به ثم خرجت عنها
على طريق مدرومة وسلكت طريق أختندقان وبت بزاوية الشيخ إبراهيم ثم سافر نامنها
فبينما نحن بقرب أزغنغان إذا خرج علينا رجلا وفارسان وكان معي الحاج ابن قريعات
الطنجي وأخوه محمد المستشهد بعد ذلك في البحر فعز منا على قتالهم ورفعنا عليا ثم
سالموا وسالمناهم والحمد لله ووصلت إلى مدينة تازي وبها تعرفت خبر موت والدتي
بالوفاء رحمها الله تعالى .

ثم سافرت عن تازي فوصلت يوم الجمعة في أواخر شهر شعبان المكرم من عام
خمسین وسبعمائة إلى حضرة فاس فثلت بين يدي مولانا الأعظم الإمام
الأكرم أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين أبي عنان وصل الله علوه
وكبت عدوه فأنستني هيئته هيبة سلطان العراق وحسنة حسن ملك الهند وحسن
أخلاقه حسن خلق ملك اليمن وشجاعته شجاعة ملك الترك وحلمه حلم ملك
الروم وديانته ديانة ملك تركستان وعلمه علم ملك الجاوة وكان بين يديه وزيره الفاضل
ذو المسكارم الشهيرة والمآثر الكثيرة أبو زيان ابن ودرار فسألني عن الديار
المصرية إذ كان قد وصل إليها فأجبته عما سأل وغمرني من إحسان مولانا أبده الله تعالى بما
أعجزني شكره والله ولي مكافأته وألقيت عصي التسيار ببلاذه الشريفة بعد أن تحققت
بفضل الانصاف أنها أحسن البلدان لأن الفواكه بها متيسرة والمياه والاقوات غير

معتنذره وكل إقليم يجمع ذلك ولقد أحسن من قال (بحث)

الغرب أحسن أرض ولي دليل عليه
البدر يرقب منه والشمس تسعى إليه

ودراهم الغرب صغيرة وفوائدها كثيرة وإذا تأملت أسعارهم مع أسعار ديار مصر والشام ظهر لك الحق في ذلك ولا ح فضل بلاد المغرب فاقول أن لحوم الأغنام بديار مصر تباع بحساب ثمان عشرة أوقية بدرهم نقرة والدرهم النقرة ستة دراهم من دراهم المغرب وبالمغرب يباع اللحم إذا غلا سعره ثمانية عشر أوقية بدرهمين وهما ثلث النقرة وأما السمن فلا يوجد بمصر في أكثر الأوقات والذي يستعمله أهل مصر من أنواع الأدام لا يلتفت إليه بالمغرب ولأن أكثر ذلك العدس والحمص يطبخونه في قدور راسيات ويجعلون عليه السيرج والبسلا وهو صنف من الجلبان يطبخونه ويجعلون عليه الزيت والقرع يطبخونه ويخاطونه باللبن والقلناس يطبخونه وهذا كله متيسر بالمغرب لكن أعنى الله عنه بكثرة اللحم والسمن والزبد والعسل وسوى ذلك وأما الخضر فهي أقل الأشياء ببلاد مصر وأما الفواكه فأكثرها بجلبانة من الشام وأما العنب فإذا كان رخيصا يبيع عندهم ثلاثة أرطال من أرطالهم بدرهم نقرة ورطالهم ثنتا عشرة أوقية وأما بلاد الشام فالفواكه بها كثيرة إلا أنها ببلاد الغرب أرخص منها ثمانية أرطال يباع بها بحساب رطل من أرطالهم بدرهم نقرة ورطالهم ثلاثة أرطال مغربية وإذا رخص ثمنه يبيع بحساب رطلين بدرهم نقرة والاجاص يباع بحساب عشر أواق بدرهم نقرة وأما الرمان والسفرجل فتباع الحبة منه بثمانية قلووس وهي درهم المغرب وأما الخضر فيباع بالدرهم النقرة منها أقل مما يباع في بلادنا بالدرهم الصغير وأما اللحم فيباع فيها الرطل منه من أرطالهم بدرهمين ونصف درهم نقرة فإذا تأملت ذلك كله تبين لك أن بلاد المغرب أرخص البلاد أسعارا وأكثرها خيرات وأعظمها مرافق وفوائد ولقد زاد الله بلاد المغرب شرفا إلى شرفها وفضلا إلى فضلها بامامة مولانا أمير المؤمنين الذي مد ظلال الأمن في أقطارها وأطلع شمس العدل في أرجائها وأفاض سبحانه الإحسان في باديها وحاضيتها وطهرها من المفسدين وأقام بها رسوم الدنيا والدين وأنا أذكر ما عاينته وتحققته من عدله وحلمه وشجاعته واشتغاله بالعلم وتفقهه وصدقته التجارية ورفع المظالم

(ذكر بعض فضائل مولانا أيده الله)

أما عدله فأشهر من أن يسطر في كتاب فمن ذلك جلوسه للمشتكين من رعيته وتخصيصه يوم الجمعة للمساكين منهم وتقسيمه ذلك اليوم بين الرجال والنساء وتقديمه النساء لضعفهن فتقرأ قصصهن بعد صلاة الجمعة إلى العصر ومن وصلت توبتها نودي باسمها ووقعت بين يديه الكريمتين يكلمهما دون واسطة فإن كانت متظلمة عجل انصافها أو طالبة إحسان وقع إسعافها ثم إذا صلب العصر قرأت قصص الرجال وفعل مثل ذلك فيهم ويحضر المجاس الفقهاء والقضاة فيرد إليهم ما تعلق بالاحكام الشرعية وهذا شيء لم أر في الملوك من يفعله على هذا التمام ويظهر فيه مثل هذا العدل فإن ملك الهندعين بعض أمرائه لأخذ القصص من الناس وتلخيصها ورفعها إليه دون حضور أربابها بين يديه وأما حله فقد شاهدت منه العجائب فإنه أيده الله عفا عن الكثير ممن تعرض لقتال عساكره والمخالفة عليه وعن أهل الجرائم السكار التي لا يعفو عن جرائمهم إلا من وثق بربه وعلم علم اليقين معنى قوله تعالى والعافين عن الناس قال ابن جزى من أعجب ما شاهدته من حلم مولانا أيده الله أنى منذ قدومي على باب الكريمية في آخر عام ثلاثة وخمسين إلى هذا العهد وهو أوائل عام سبعة وخمسين لم أشاهد أحداً من بقتله إلا من قتله الشرع في حد من حدود الله تعالى قصاص أو حراً بهذا على اتساع المملكة وانفساح البلاد واختلاف الطوائف

ولم يسمع بمثل ذلك ما تقدم من الأعصار وفيما تباعد من الاقطار وأما شجاعته فقد علم ما كان منه في المواطن الكريمة من الثبات والاقدام مثل يوم قتال بني عبيد الوادي وغيرهم ولقد سمعت خبر ذلك اليوم ببلاد السودان وذكر ذلك عند سلطانهم فقال هكذا وإلا فلا

قال ابن جزى لم يزل الملوك الاقدمون تتفاخر بقتل الآساد وهزائم الاعادي ومولانا أيده الله قتل الأسد عليه أهون من قتل الشاة على الأسد فإنه لما خرج الأسد على الجيش بوادي النجارين من المعصورة بحوز سلاوتحامته الابطال وفرت أمامه الفرسان والرجال برزاليه مولانا أيده الله غير محتفل به ولا متهيّب منه فطعمته بالريح ما بين عينيه طعنة خربها صريعا لليدين وللقيم وأما هزائم الاعادي فإنها اتفقت للملوك بثبوت جيوشهم وإقدام فرسانهم فيكون حفظ الملوك الثبوت والتحرّض على القتال وأما مولانا أيده الله فإنه أقدم على عدوه منفرداً بنفسه الكريمة بعد عليه بفرار الناس وتحققه أنه لم يبق معه من يقاتل فعند ذلك وقع الرعب في قلوب الاعداء وانهمزوا أمامه فكان من العجائب قرار

الأمم أمام واحد وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والعاقبة للمتقين وما هو إلا ثمرة ما يمتن به أعلى مقامه من التوكل على الله والتفويض اليه وأما اشتغاله بالعلم فها هو أيده الله تعالى يعقد مجالس العلم في كل يوم بعد صلاة الصبح ويحضر لذلك أعلام الفقهاء ونجباء الطلبة بمسجد قصره الكريم فيقرأ بين يديه تفسير القرآن العظيم وحديث المصطفى ﷺ وفروع مذهب مالك رضي الله عنه وكتب المتصوفة وفي كل علم منها له القدح المعلى يحلو مشكلاته بنور فهمه ويلقى نكته الرائقة من حفظه وهذا شأن الأئمة المهتدين والخلفاء الراشدين .

ولم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم إلى هذه النهاية فقد رأيت ملك الهند يتذاكر بين يديه بعد صلاة الصبح في العلوم المعقولات خاصة ورأيت ملك الجاوة يتذاكر بين يديه بعد صلاة الجمعة في الفروع على مذهب الشافعي وكنت أعجب من ملازمة ملك تركستان لصلاتي العشاء الآخرة والصبح في الجماعة وقيام رمضان والله يختص برحمته من يشاء

قال ابن جزى لو أن عالما ليس له شغل إلا بالعلم ليلا ونهارا لم يكن يصل إلى أدنى مراتب مولانا أيده الله في العلوم مع اشتغاله بأمور الأمة وتديره لسياسة الأقاليم النائية . ومباشرة من حال ملوك ما لم يباشروا أحد من الملوك ونظروا بنفسه في شكايات المظلومين ومع ذلك كله فلا تقع بمجلسه الكريم مسألة علم في أي علم كان إلا جلا مشكلها وباحث في دقائقها واستخرج غوامضها واستدرك على علماء مجلسه ما فاتهم من مخلفاتها ثم سما أيده الله إلى العلم الشريف التصوفي ففهم إشارات القوم وتخلف بأخلاقهم وظهرت آثار ذلك في تواضعه مع رفعة وشفقته على رعيته ورفقه في أمره كله وأعطى الآداب حظا جزيلًا من نفسه فاستعمل أحسنها منزعا وأعظمها موقعا وصارت عنه الرسالة الكريمة والقصيدة اللتان بعثهما إلى الروضة الشريفة المقدسة الطاهرة روضة سيد المرسلين وشفيع المذنبين رسول الله ﷺ وكتبهما بخط يده الذي ينجل الروض حسنا .

وذلك شيء لم يتعاط أحد من ملوك الزمان لإنشاء ولا رام إدراكه ومن تأمل التوقيعات الصادرة عنه أيده الله تعالى وأحاط علما بمحصولها لاح له فضل ما وهب الله لمولانا من البلاغة التي فطره عليها وجمع له بين الطبيعي والمكتسب منها وأما صدقاته الجارية وما أمر به من عمارة الزوايا بجميع بلاده لإطعام الطعام للوارد والصادر

فذلك ما لم يفعله أحد من الملوك غير السلطان أتاك أحمد وقد زاد عليه مولانا أيده
الله بالتصدق على المساكين بالطعام كل يوم والتصدق بالزرع على المتسشرين من
أهل البيوت .

كان ابن جزى اخترع مولانا أيده الله في السكرم والصدقات أمورا لم تخطر في الأوهام
ولا اهتدت إليها أنسلطين فنها لإجراء الصدقات على المساكين بكل بلد من بلاده على
الدوام ومنها تعيين الصدقة الوافرة في جميع البلاد أيضا ومنها كون تلك الصدقات
خبرا مخبوزا متيسرا للانتفاع به وكسوة المساكين والضعفاء والعجائز والمشايخ
والملازمين للمساجد بجميع بلاده وتعيين الضحايا لهؤلاء الأصناف في عيد الأضحى
والتصدق بما يجتمع في مجابى أبواب بلاده يوم سبعة وعشرين من رمضان إكراما
لذلك اليوم الكريم وقيامما بحقه وإطعام الناس في جميع البلاد ليلة المولد الكريم
 واجتماعهم لإقامة رسمه ومنها إعداد اليتامى من الصبيان وكسوتهم يوم عاشوراء ومنها
صدقته على الزمنى والضعفاء بأزواج الحرث يقيمون بها أودهم وصدقته على المساكين
بحضرته بالطنافس الوثيرة والقطائف الجياد يفتشونها عند رقادهم

وتلك مكرمة لا يعلم لها نظير ومنها بناء المرستانات في كل بلد من بلاده وتعيين
الأوقاف الكثيرة لمؤن المرضى وتعيين الأطباء لمعالجتهم والتصرف في طلبهم إلى غير
ذلك مما أبدع فيه من أنواع المكاره وضروب المآثر كفا الله أياديه وشكر نعمه وأما
رفعه للمظالم عن الرعية فمنها الرتب التي كانت تؤخذ بالطرق أمر أيده الله بمحو
رسمها وكان لها مجي عظيم فلم يلتفت اليه وما عند الله خير وأبقى وأما كفه أيدي الظلام
فأمر مشهور وقد سمعته أيده الله يقول لهاله لا تظلموا الرعية ويؤكد تلك الوصية .

قال ابن جزى ولو لم يكن رفق مولانا أيده الله برعيته إلى رفعه التصنيف الذي
كانت عمال الزكاة وولاة البلاد تأخذ من الرعايا لسكنى ذلك أثرا في العدل ظاهرا
ونورا في الرفق باهرا فكيف وقد رفع من المظالم وبسط من المرافق ما لا يحيط به
الحصر وقد صدر في أيام تصنيف هذا من أمره الكريم في الرفق بالمسجونين ورفع
الوظائف الثقيلة التي كانت تؤخذ منهم ما هو اللائق باحسانه والمعهود من رأفته وشمل
الأمر بذلك جميع الأقطار وكذلك صدر من التشكيل بمن ثبت جورهم من القضاة
والحكام ما فيه زجر الظلمة وردع المعتدين .

وأما فعله في معاونة أهل الأندلس على الجهاد ومحافظة على إمداد الثغور بالأموال والآفات والسلاح وفته في عضد العدو بإعداد العدد وإظهار القوة فذلك أمر شهير لم يعب علمه عن أهل المغرب والمشرق ولا سبق إليه أحد من الملوك .

قال ابن حزمى حسب المتشوف إلى علم ما عند مولانا أيده الله من سداد الفطر إلى المسلمين ودفاع القوم الكافرين ما فعله في فداء مدينة طرابلس أفريقية فإنها لما استولى العدو عليها ومد يد العدوان إليها ورأى أيده الله أن بعث الجيوش إلى نصرتها لا يتأتى لبعث الاقطار كتب إلى خدامه ببلاد أفريقية أن يفدوها بالمال ففديت بخمسين ألف من الذهب العين فلما بلغه خبر ذلك قال الحمد لله الذي استرجعها من أيدي الكفار بهذا النذر اليسير وأمر للحين يبعث ذلك العدد إلى أفريقية وعادت المدينة إلى الإسلام على يده ولم يخطر في الأوهام أن أحدا تكون عنده خمسة قناطير من الذهب نزار يسيرا حتى جاء بها مولانا أيده الله مكرمة بعيدة ومأثرة فائقة قل في الملوك أمثالها وعز عليهم أمثالها وبما شاع من أفعال مولانا أيده الله في الجهاد لإنشاء الاجفان بجميع السواحل واستكثاره من عدد البحر وهذا في زمان الصلح والمهادنة اعدادا لا يام الغزاة وأخذ بالحزم في قطع اطماع الكفار واكد ذلك بتوجهه بنفسه إلى جبال جنانة في العام الفارط ليباشر قطع الخشب لإنشاء ويظهر قدر ماله بذلك من الاعتناء ويتولى بذاته أعمال الجهاد مترجيا ثواب الله تعالى وموقنا بحسن الجزاء .

(رجع) ومن أعظم حسناته أيده الله عمارة المسجد الجديد بالمدينة البيضاء دار ملكه العلى وهو الذى امتاز بالحسن واتقان البناء وإشراق النور وبديع الترتيب وعمارة المدرسة الكبرى بالموضع المعروف بالقصر مما يحاور قصبة فاس ولا نظير لها في المعمورة اتساعا وحسنا وإبداعا وكثرة ماء وحسن وضع ولم أر في مدارس الشام ومصر والعراق وخراسان ما يشبهها وعمارة الزاوية العظمى على غدير الحص خارج المدينة البيضاء فلا مثل لها أيضاً في عجب وضعها وبديع صنعها وأبداع زاوية رأيها بالشرق زاوية سرياقص (سرياقص) التي بناها الملك الناصر وهذه أبداع منها وأشد إحكاما وإتقاناً والله سبحانه ينفع مولانا أيده الله بمقاصده الشريفة ويكافئ فضائله المنيفة ويدعم الإسلام والمسلمين أيامه وينصر ألوته المظفرة وأعلامه .

ولنعد إلى ذكر الرحلة فنقول ولما حصلت لى مشاهدة هذا المقام الكريم وعمى فضل إحسانه العميم قصدت زيارة قبر الوالدة فوصلت إلى بلدة طنجة وزرتها وتوجهت إلى مدينة سبتة فأقامت بها اشهرًا وأصابني المرض ثلاثة أشهر ثم عافاني الله فأردت أن

يكون لي حظ من الجهاد والرباط فركبت البحر من سبته في شطى لاهل أصيلا فوصلت إلى بلاد الأندلس حرسها الله تعالى حيث الأجر موفور للساكن والثواب مذخور للمقيم والظاعن وكان ذلك أثر موت طاغية الروم الفونس وحصاره الجبل عشرة أشهر وظنه أنه يستولى على ما بقى من بلاد الأندلس للمسلمين فأخذه الله من حيث لم يحتسب ومات بالوباء الذي كان أشد الناس خوفا منه وأول بلد شاهده من البلاد الأندلسية جبل الفتح فلقيت به خطيبه الفاضل أبا زكريا يحيى بن السراج الرندى وقاضيه عيسى البربرى وعنده نزلت وتطوقت معه على الجبل فرأيت عجائب ما بنى به مولانا أبو الحسن رضى الله عنه وأعد فيه من العدد وما زاد على ذلك مولانا أيده الله ووددت أن لو كنت ممن رابط به إلى نهاية العمر .

قال ابن جزى جبل الفتح هو معقل الاسلام المعترض شجى في حلق عبدة الاصنام حسنة مولانا أبى الحسن رضى الله عنه المنسوبة اليه وقريته التى قدمها نورا بين يديه محل عدد الجهاد ومقر آساد الأجناد والثغر الذى افتر عن نصر الايمان وأذاق أهل الأندلس بعد مرارة الخوف حلاوة الأمان ومنه كان مبدأ الفتح الاكبر وبه نزل طارق ابن زياد مولى موسى بن نصير عند جوازه فنسب اليه فيقال له جبل طارق وجبل الفتح لأن مبدأه كان منه وبقايا السور الذى بناه ومن معه باقية إلى الآن تسمى بسور العرب شاهدها أيام إقامتي به عند حصار الجزيرة أعادها الله ثم فتحه مولانا أبو الحسن رضوان الله عليه واسترجعه من أيدي الروم بعد تملكهم له عشرين سنة ونيفاً وبعث إلى حصاره ولده الأمير الجليل أبا مالك وأيده بالأموال الطائلة والعساكر الجرارة وكان فتحه بعد حصار ستة أشهر وذلك في عام ثلاثة وثلاثين وسبعائه ولم يكن حينئذ على ما هو الآن عليه فبنى به مولانا أبو الحسن رحمة الله عليه المائرة العظمى بأعلى الحصن وكانت قبل ذلك برجا صغيرا تهدم بأحجار المجانيق فبناها مكانه وبنى به دار الصناعة ولم يكن به دار صنعة وبنى السور الأعظم المحيط بالتربة الجراء الآخذ من دار الصنعة إلى القرمدة ثم جدد مولانا أمير المؤمنين أبو عنان أيده الله عهد تحصينه وبحسنة وزاد بها بناء السور بطرف الفتح وهو أعظم أسواره غناء وأعمها نفعا وبعث اليه العدد الوافرة والافوات والمرافق العامة وعامل الله تعالى فيه بحسن النية وصدق الانخلاص ولما كان في الاشهر الأخيرة من عام ستة وخمسين وقع بجبل الفتح ما ظهر فيه أثر يقين مولانا أيده الله وثمرة توكله في أموره على الله وبأن مصداق ما اطرده من السعادة الكافية وذلك أن عامل الجبل الخائن الذى ختم له بالشقاء عيسى بن الحسن بن أبى منديل نزع يده المغولة

ثم استمر في قصيدته على مدح عبد المؤمن بن علي قال ابن جزي ولنعبد إلى كلام
الشيخ أبي الطاعة وفارق عصمة الجماعة وأظهر النفاق وجمع في الغدر والشقاق وتعاطى
ما ليس من رجاله وعمى عن مبدء حاله السيئ وماله وتوهم الناس إن ذلك مبدء فتنة
تنفق على إطفائها كرائم الأموال ويستعد لا تقاؤها بالفرسان والرجال فحكمت سعادة
مولانا أيده الله ببطلان هذا التوهم وقضى صدق يقينه بانخراق العادة في هذه الفتنة فلم
تكن إلا أيام يسيرة وراجع أهل الجبل بصائرهم وثاروا على الثائر وخالفوا الشقي
المخالف وقاموا بالواجب من الطاعة وقبضوا عليه وعلى ولده المساعد له في النفاق
وأتى بهما مصفدين إلى الحضرة العلية فنفذ فيهما حكم الله في المحاربين وأراح الله من
شرهما ولما خمدت نار الفتنة أظهر مولانا أيده الله من العناية ببلاد الاندلس ما لم يكن
في حساب أهلها وبعث إلى جبل الفتح ولده الأسعد المبارك الأرشد أبا بكر المدعو
من السجدة السلطانية بالسعيد أسعده الله تعالى وبعث معه أنجاد الفرسان ووجوه القبائل
وكفأة الرجال وأدر عليهم الارزاق ووسع لهم الاقطاع وحرر بلادهم من المغارم
وبذل لهم جزيل الإحسان وبلغ من اهتمامه بأمور الجبل المذكور فثل فيه أشكال
أسواره وأبراجه وحصنه وأبوابه ودار صنيعته ومساجده ومخازن عدده وأهربية زرعه
وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء فصنع ذلك بالمشور السعيد فكان عجيبا
أفقته الصناع إتقاناً يعرف قدره من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال وما ذلك إلا لتشوقه
أيده الله إلى استطلاع أحواله وتهمة بتحسينه وإعداده والله تعالى يجعل نصر الاسلام
بالجزيرة الغربية على يديه ويحقق ما يؤمله في فتح بلاد الكفار وشت شمل عباد
الصليب وتذكرت حين هذا التقييد قول الأديب البليغ المفلح أبي عبد الله محمد بن غالب
الرصافي البانسي رحمه الله في وصف هذا الجبل المبارك من قصيدته الشهيرة في مدح
عبد المؤمن بن علي التي أولها

(بسيط)

لوجئت نارا لهذي من جانب الطور قبست ماشئت من علم ومن نور
وفيها يقول في وصف الجبل وهو من البديع الذي لم يسبق إليه بعد وصفه
السفن وجوازاها.

حتى رمت جبل الفتحين من جبل معظم القدر في الاجيال مذكور
من شاخ الانف في سحنائه طلس له من الغيم جيب غير مزور
تمسى النجوم على تسكيل مفرقه في الجو خاتمه مثل الدنانير
فرمسا مسحته من ذوائبها بكل فضل على فوديه بحرور

وادرر من ثناياه بما أخذت منه معاجم أعواد الدهارير
 محنك حلب الأيام أشطرها وساقها سوق حادي العير للغير
 مقيد الخطو جوال الخواطر في عجيب أمره من ماض ومنظور
 قد واصل الصمت والاطراق مفتكرا يادى السكينة معفر الأسرارير
 كأنه مكمد بما تعبده خوف الوعيدين من ذلك وتسيير
 اخلاق به وجبال الأرض راجفة أن يطمن غدا من كل محذور

عبد الله قال ثم خرجت من جبل الفتح إلى مدينة رندة وهي من أمشع معاقل المسلمين وأجملها وضعا وكان قائدها إذذاك الشيخ أبو الربيع سليمان بن داود العسكري وقاضها ابن عمى الفقيه أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطه ولقيت بها الفقيه القاضي الأديب أبا الحجاج يوسف بن موسى المنتشاقرى وأضافني بمنزله ولقيت بها أيضاً خطيبها الصالح الحاج الفاضل أبا إسحاق إبراهيم المعروف بالشندرخ المتوفى بعد ذلك بمدينة سلا من بلاد المغرب ولقيت بها جماعة من الصالحين منهم عبد الله الصغار وسواه وأقيمت بها خمسة أيام .

ثم سافرت منها إلى مدينة مريلة والطريق فيما بينهما صعب شديد الوعرة ومريلة باليدة حسنة خصبة ووجد بها جماعة من الفرسان متوجهين إلى مالقة فأردت التوجه في صحبتهم ثم إن الله تعالى عصمني بفضله فتوجهوا قبلي فأسروا في الطريق كما ستذكره ونخرجت في أثرهم فلما تجاوزت حوز مريلة ودخلت في حوز سهيل مررت بغرس ميتة في بعض الخنادق ثم مررت بقفة حوت مطروحة بالأرض فرأيت ذلك وكان أمامي برج الناظور فقلت في نفسي لو ظهر هاهنا عدو لا نذر به صاحب البرج ثم تقدمت إلى دار هنالك فوجدت عليه فرسا مقتولا فبينما أنا هنالك إذ سمعت الصياح من خلفي وكنت قد تقدمت أصحابي فعدت إليهم فوجدت معهم قائد حصن سهيل فاعلمت أن أربعة أجفان للعدو ظهرت هنالك ونزل بعض عمارتها إلى البر ولم يكن الناظور بالبرج فربهم الفرسان الخارجون من مريلة وكانوا اثني عشر فقتل النصاري أحدهم وفر واحد وأسر العشرة وقتل معهم رجل حوات وهو الذي وجدت قفته مطروحة بالأرض وأشار على ذلك القائد بالمبيت في موضعه ليواصلني منه إلى مالقة فبيت عنده بحصن الرابطة المنسوبة إلى سهيل والأجفان المذكورة مرساة عليه وركب معي بالغد فوصلنا إلى مدينة مالقة إحدى قواعد الأندلس وبلادها الحسان جامعة بين مرافق البر والبحر كثيرة الخيرات والفواكه رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب

ثم انية أرطال بدرهم صغير ورماتها المرسى الياقوتى لا نظير له فى الدنيا وأما التين واللوز
فيمجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب قال ابن جزى وإلى ذلك أشار
الخطيب أبو محمد عبد الوهاب بن على المالى فى قوله وهو من مليح التجنيس (سريع)

مالقة حيت يأتينها فالملك من أجلك يأتينها
نهى طبيبي عنك فى علة ما لطبيبي عن حياتى نسا

وذيلها قاضى الجماعة أبو عبد الله بن عبد الملك بقوله فى قصد المجانسة (سريع)

وحص لا تنس لها تينها واذكر مع التين زياتينها

(رجع) وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب ويحجى منها إلى أقاصى البلاد ومسجدها
كبير الساحة شهير البركة وصحنه لا نظير له فى الحسن فيه أشجار النارج البعيدة ولما
دخلت مالقة وجدت قاضى الخطيب الفاضل أبا عبد الله ابن خطيبها الفاضل أبى جعفر
ابن خطيبهاولى الله تعالى أبى عبد الله الطنجالى قاعدا بالجامع الأعظم ومعه الفقهاء ووجوه
الناس يجمعون مالا برسم فداء الاسارى الذى تقدم ذكرهم فقلت له الحمد لله الذى عافانى
ولم يجعلنى منهم واخبرته بما اتفق لى بعدهم فعجب من ذلك وبعث لى بالضيافة رحمه الله
واضافنى ايضا خطيبها أبو عبد الله الساحلى المعروف بالمعهم .

ثم سافرت منها إلى مدينة بلش وبينهما أربعة وعشرون ميلا وهى مدينة حسنة بها
مسجد عجيب وفيها الأعشاب والفواكه والذين كمثل ما بمالقه ثم سافرنا منها إلى الحق وهى
بلدة صغيرة لها مسجد بديع الوضع عجيب البناء وبها العين الحسنة على صفة واديا
وبينها وبين البلد ميل أو نحوه وهناك بيت لاستحمام الرجال وبيت لاستحمام النساء .

ثم سافر منها إلى مدينة غرناطة قاعدة بلاد الأندلس وعروس مدنها وخارجها
لا نظير له فى بلاد الدنيا وهو مسيرة أربعين ميلا يخترقه نهر شذيل المشهور وسواه من الأنهار
الكثيرة والبساتين والجنان والرياضات والقصور والسكر ومحدقة بها من كل جهة ومن عجيب
مواضعها عين الدمع وهو جبل فيه الرياض والبساتين لا مثل لها بسواها قال ابن جزى لولا
خشيت ان أنسب إلى العصبية لأطلت القول فى وصف غرناطة فقد وجدت مكانه
ولكن ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لاطالة القول فيه والله در شيخنا أبى بكر محمد بن
احمد بن شيرين البستى نزيل غرناطة حيث يقول . (طويل)

رعى الله من غرناطة متبوا يسر حزينا أو يحير طريدا
تبرم منها صاحبي عند ماراى مسارحها بالثلج عدن جليدا

هي الثغر صان الله من أهلت به وما خير ثغر لا يكون برودا

(رجع ذكر سلطانها)

وكان ملك غرناطة في عهد دخولي اليها السلطان ابو الحجاج يوسف بن السلطان ابي الوليد اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بين يوسف بن نصر ولم القه بسبب مرض كان به وبمشت الى والدته الحرة الصالحة الفاضلة بدنانير ذهب ارتفعت بها ولقيت بغرناطة جملة من فضلائها منهم قاضي الجماعة بها الشريف البليغ أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسيني السبتي ومنهم فقيها المدرس الخطيب العالم أبو عبد الله محمد بن ابراهيم البياني ومنهم قاضي ومنهم عالمها ومقرئها الخطيب أبو سعيد فرج بن قاسم الشهير بابن لب الجماعة نادرة العصر وطرفة الدهر أبو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم السلي البليغي قدم عليها من المربة في تلك الأيام فوقع الاجتماع به في بستان الفقيه أبو القاسم محمد ابن الفقيه الكاتب الجليل أبي عبد الله بن عاصم وأقمنا هنالك يومين وليلة .

قال ابن جزى كنت معهم في ذلك البستان ومتعنا الشيخ أبو عبد الله بأخبار رحلته وقيدت عنه أسماء الأعلام الذين لقينهم فيها واستفدنا منه الفوائد العجيبة وكان معنا جملة من وجوه أهل غرناطة منهم الشاعر المجيد الغريب الشأن أبو جعفر أحمد بن رضوان بن عبد العظيم الجذامي ولهذا الفتى أمر عجيب فانه نشأ بالبادية ولم يطلب العلم ولا مارس الطلبة ثم انه نبغ بالشعر الجيد الذي يندر وقوعه من كبار البلغاء وصدور الطلبة مثل قوله (رمل)

يا من اختار فؤادي منزلا باباه العين التي ترمقه
فتح الباب سهادي بعدكم فابعثو طيفكم يغلقه

(رجع) ولقيت بغرناطة الشيوخ والمتصوفين بها الفقيه أبا علي عمر بن الشيخ الصالح الولي أبي عبد الله محمد بن المحروق وأقامت أياما بزاويته التي بخارج غرناطة وأكرمني أشد الإكرام

وتوجهت معه الى زيارة الزاوية الشهيرة البركة المعروفة برابطة العقاب جبل مطل على خارج غرناطة وبينهما نحو ثمانية أميال وهو مجاور لمدينة الثيرة الخربة ولقيت أيضا ابن الفقيه أبا الحسن علي بن أحمد بن المحروق بزاويته المنسوبة للجام بأعلى ربض نجد من خارج غرناطة المتصل بجبل السبيكة وهو شيخ المسلمين من الفقهاء . وبغرناطة جملة من فقهاء العجم استوطنوها اشبهها ببلادهم منهم الحاج أبو عبد الله السمرقندي والحاج أحمد التبريزي والحاج ابراهيم القونوي والحاج حسين الخراساني والحاجان علي ورشيدى الهنديان وسواهم .

ثم رحلت من غرناطة الى الحمة ثم الى بلش ثم الى ماققة ثم الى حصن ذكوان وهو حصن حسن

كثير المياه والأشجار والغواكه ثم سافرت منه إلى رفدة ثم إلى قرية بني رياح فأنزلني شيخنا أبو الحسن علي سليمان الرياحي وهو أحد كرماء الرجال وفضلاء الأعيان يطعمهم الصادر والوارد وأضافني ضيافة حسنة ثم سافرت إلى جبل الفتح وركبت البحر في الجفن الذي جزت فيه أولا وهو لأهل أصيلا فوصلت إلى سبته وكان قائدها إذ ذاك الشيخ أبو مهدي عيسى بن سليمان بن منصور وقاضها الفقيه أبو محمد الزجندري ثم سافرت منها إلى أصيلا وأقيمت بها شهورا ثم سافرت منها إلى مدينة سلا فوصلت إلى مدينة مراکش وهي من أجمل المدن فسيحة الأرجاء متسعة الأفطار كثيرة الخيرات بها المساجد الضخمة كمسجدها الأعظم المعروف بمسجد الكتبيين وبها الصومعة الهائلة العجيبة صعدتها وظهر لي جميع البلد منها وقد استولى عليه الخراب فما شبهته إلا ببغداد إلا أن أسواق بغداد أحسن .

وبمراكش المدرسة العجيبة التي تميزت بحسن الوضع وإتقان الصنعة وهي من بناء الإمام مولانا أمير المسلمين أبي الحسن رضوان الله عليه قال ابن جزى في مراکش يقول قاضها التاريخي أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسي (بسيط)

لله مراکش الغراء من بلد وحبذا أهلها السادات من سكن
ان حاهها نازح الأوطان مغترب اسلوه بالأنس عن أهل وعن وطن
بين الحديث بها أو العيان لها ينشأ التحاسد بين العين والأذن

(رجع) ثم سافرنا من مراکش صحبة الركاب العلي ركاب مولانا أيده الله فوصلنا إلى مدينة سلا ثم إلى مدينة مكناسة العجيبة الخضره النضرة ذات البساتين والجنات المحيطة بها بحاثر الزيتون من جميع نواحيها ثم وصلنا إلى حضرة فاس حرسها الله تعالى فوادعت بها مولانا أيده الله وتوجهت برسم السفر إلى بلاد السودان فوصلت إلى مدينة سجلماسة وهي من أحسن المدن وبها التمر الكثير الطيب وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر لكن تمر سجلماسة أطيب إرار منه لا نظير له في البلاد ونزلت منها عند الفقيه أبي محمد البشري وهو الذي لقيت أخاه بمدينة قنجنفو من بلاد الصين فيأشد ما تباعدا فأكرمني غاية الإكرام واشتريت بها الجمال وعلقتها أربعة أشهر .

ثم سافرت في غرة شهر الله المحرم سنة ثلاث وخمسين في رفقة مقدمها أبو محمد يندكان المسوفي رحمه الله تعالى وفيها من تجار سجلماسة وغيرهم فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوما إلى تغازي وضبط اسمها (بفتح التاء المثناة والغين المعجم والف وزاي مفتوح) أيضا وهي قرية لاخير فيها ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة

الملح وسقفها من جلود الجمال ولا شجر بها إنما هي رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض يحمل الجمل منها لوحين ولا يسكنها إلا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح ويتعيشون بما يجلب إليهم من تمر درعة وسجلباسة ومن لحوم الجمال ومن انلى المجلوب من بلاد السودان ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح ويبيع الجمل منه بايوالاتن بعشرة مثاقيل إلى ثمانية وبمدينة مالى بثلاثين مثقالا إلى عشرين وربما انتهى إلى أربعين مثقالا .

وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعاً ويتبايعون به وقرية تغازى على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر وأقنبا بها عشرة أيام في جهد لأن ماءها زعاق وهي أكثر المواضع ذباباً ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التي بعدها وهي مسيرة عشرة لأماء فيها إلا في النادر ووجدنا نحن بهاماء كثيراً في غدران أبقاها المطر ولقد وجدنا في بعض الأيام غديراً بين تلين من حجارة ماؤه عذب فتروينا منه وغسلنا ثيابنا والسكاة بتلك الصحراء كثير ويكثر القمل بها حتى يجعل الناس في أعناقهم خيوطاً فيها الزئبق فيقتلها .

وكنّا في تلك الأيام نتقدم أمام القافلة فاذا وجدنا مكاناً يصلح للراحة رعيننا الدواب به ولم نزل كذلك حتى ضاع في الصحراء رجل يعرف بابن زيرى فلم أتقدم بعد ذلك ولا تأخرت وكان ابن زيرى وقعت بينه وبين ابن خاله ويعرف بابن عدى منازعة ومشاتمة فتأخر عن الرفقة فضل فلما نزل الناس لم يظهر له خبر فأشرت على ابن خاله بان يكثرى من مسوفة من يقصر أثره لعله يجده فأبى وانتدب في اليوم الثاني رجل من مسوفة دون أجرة اطلبه فوجد أثره وهو يسلك الجادة طورا ويخرج عنها تارة ولم يقع له على خبر ولقد لقينا قافلة في طريقنا فأخبرونا أن بعض رجال انقطعوا عنهم فوجدنا أحدهم ميتاً تحت شجيرة من أشجار الرمل وعليه ثيابه وفي يده سوط وكان الماء على نحو ميل منه ثم وصلنا إلى تاسر هلا (بفتح التاء المثناة والسين المهمل والراء وسكون الهاء) وهي احساء ماء تنزل القوافل عليها ويقيمون ثلاثة أيام فيستريحون ويصلحون سقيتهم ويملأونها بالماء ويخيطون عليها التلايس خوف الريح ومن هنالك يبعث التاكشيف .

(ذكر التاكشيف)

التاكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكثر به أهل القافلة فيتقدم إلى ايوالاتن يكتب الناس إلى أصحابهم بها ليكثروا لهم الدور ويخرجون للقائهم بالماء مسيرة أربع

ومن لم يكن له صاحب بأيوالاتن كتب إلى من شهر بالفضل من التجار بها فيشاركه في ذلك وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء فلا يعلم أهل أيوالاتن بالقافلة فيهلك أهلها أو الكثير منهم وتلك الصحراء كثيرة الشياطين فإن كان التكشيف منفردا لعبت به واستهوته حتى يضل عن قصده فيهلك إذا لطريق يظهر بها ولا أثر إنما هي رمال تسفيها الرياح فترمى جبالا من الرمل في مكان ثم تراها قد انتقلت إلى سواه والدليل هنا لك من كثرة تردده وكان له قلب ذكي ورأيت من العجائب أن الدليل الذي كان لنا هو أعور العين الواحدة مريض الشانية وهو أعرف الناس بالطريق وأكثرنا التكشيف في هذه السفرة بمائة مثقال من الذهب وهو من مسوفة وفي ليلة اليوم السابغ رأينا أن الذين خرجوا للقائنا فاستبشرنا بذلك وهذه الصحراء منيرة مشرقة ينشرح الصدر فيها وتطيب النفس وهي آمنة من السراق والبقر الوحشية بها كثير يأتي القطيع منها حتى يقرب من الناس فيصطادونه بالكلاب والنشاب لكن لحما يولدا كله العطش فيتجأه كثير من الناس لذلك ومن العجائب أن هذه البقرة إذا قتلت وجد في كروشها الماء ولقد رأيت أهل مسوفة يعصرون السكرش منها ويشربون الماء الذي فيه والحيات أيضا بهذه الصحراء كثيرة

(حكاية)

وكان في القافلة تاجر تلمساني يعرف بالحاج زيان ومن عادته أن يقبض على الحيات ويعبث بها وكانت انهاء عن ذلك فلا ينتهي فلما كان ذات يوم أدخل يده في حجر ضب ليخرجه فوجد مكانه حية فأخذها بيده وأراد الركوب فلسعته في سبابته اليمنى وأصابه وجع شديد فسكوت يده وزاد ألمه عشى النهار ففجر جملا وأدخل يده في كرشه وتركها كذلك ليلة ثم تناثر لحم أصبعه فقطعها من الأصل وأخبرنا أهل مسوفة أن تلك الحية كانت قد شربت الماء قبل أسبوعه ولو لم تكن شربت لقتلته ولما وصل إلينا الذين استقبلونا بالماء شربت خيلنا ودخلنا صحراء شديدة الحر ليست كالتى عهدنا وكنا نرحل بعد صلاة العصر ونسرى الليل كله ونزوعند الصباح وتأتى الرجال من مسوفة وبردامة وغيرهم بأحمال الماء للبيع ثم وصلنا إلى مدينة أيوالاتن في غرة شهر ربيع الأول بعد شهرين كاملين من سجلةاسة وهى أول عمالة السودان ونائب السلطان بها فربا حسين وفربا بفتح الفاء وسكون الواو وفتح الباء الموحدة ومعناه النائب ولما وصلنا جعل التجار أمتعتهم في رحبة وتسكفل السودان بحفظها وتوجهوا إلى القربا وهو جالس على بساط في سقيف وأعوانه بين يديه

(١٣ — رحلة — ثانى)

بأيديهم الرماح والقسي وكبراء مسوفة من ورائه ووقف التجار بين يديه وهو يكلمهم
 بترجمان على قريهم منه احتقار لهم فعند ذلك تدمت على قدومي بلادهم لسوء أدبهم
 واحتقارهم للابيض وقصدت دار ابن بداء وهو رجل فاضل من أهل سلا كنت كتبت
 له أن يكتري لي دارا ففعل ذلك ثم أن مشرف ايوالاتن ويسمى منشاجوا (بفتح الميم
 وسكون النون وفتح الشين المعجم والـف وجيم مضموم وواو) استدعى من جاء في
 القافلة إلى ضيافته فأبيت من حضور ذلك فعزم الأصحاب على أشد العزم فتوجهت فيمن
 توجه ثم أتى بالضيافة وهي جريش انلى مخلوطا بيسير عسل وابن قد وضعوه في نصف
 قرعة صبروه شبه الجفنة فشرب الحاضرون وانصرفوا فقلت لهم ألهذا دعانا الأسود
 قالوا نعم وهي الضيافة الكبيرة عندهم فأيقنت حينئذ أن لاخير يرتجى منهم وأردت أن
 أسافر مع حجاج ايوالاتن ثم ظهر لي أن أتوجه لمشاهدة حضرة ملكهم وكانت إقامتي
 بأيوالاتن نحو خمسين يوما وأكرمني أهلها وأضافوني منهم قاضيا محمد بن عبد الله بن
 ينومر وأخوه الفقيه المدرس يحيى وبلدة ايوالاتن شديدة الحر وفيها يسير نخيلات
 يزرعون في ظلالها البطيخ وماؤه من إحسانها ولحم الضأن كثير بها وثياب أهلها حسان
 مصرية وأكثر السكان بها مسوفة والنساء الجمال الفائق وهن أعظم شأننا من الرجال

(ذكر مسوفة الساكنين بأيوالاتن)

وشأن هؤلاء القوم عجيب وأمرهم غريب فأما رجالهم فلا غير لديهم ولا ينتسب أحدهم
 إلى أبيه بل ينتسب لخاله ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه وذلك شيء مارأيته
 الدنيا إلا عند كفار بلاد المليبار من الهند وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات
 وتعلم الفقه وحفظ القرآن وأما نساؤهم فلا يحتشم من الرجال ولا يحتجب مع
 مواظبتهم على الصلوات ومن أراد الزوج منهن تزوج لبيكنهن لا يسافرن مع الزوج
 ولو أرادت إحداهن ذلك لمنعهما أهلها والنساء هنالك يكون لهن الاصدقاء والأصحاب
 من الرجال الأجانب وكذلك الرجال صواحب من النساء الاجنبيات ويدخل أحدهم
 داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك

﴿ حكاية ﴾

دخلت يوما على القاضي بأيوالاتن بعد اذنه في الدخول فوجدت عنده امرأة صغيرة السن
 بديعة الحسن فلما رأيتها ارتبت وأردت الرجوع فضحككت مني ولم يدركها خجل وقال لي

القاضي لم ترجع انها صاحبتى فعجبت من شأنهما فإنه من الفقهاء الحجاج وانبرت أنه استأذن السلطان في الحج في ذلك العام مع صاحبتيه لأدري أهى هذه أم لا فلم يأذن له

حكاية نحوها

دخلت يوما على أبي محمد يندكان المسوفى الذى قدما في صحبته فوجدته قاعدا على بساط وفي وسط داره سرير مظلل عليه امرأة معمار رجل قاعد وهما يتحدثان فقلت له ماهذه المرأة فقال هى زوجتى فقلت وما الرجل الذى معها فقال هو صاحبها فقلت له أترضى بهذا وأنت قد سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع فقال لى مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة لاتهمة فيها ولسن كنساء بلادكم فعجبت من دعوته وانصرفت عنه فلم أعد اليه بعدها واستدعانى فى مرات فلم أجبه ولما عزم على السفر الى مالى وبين ايوالاتن مسيرة اربعة وعشرين يوما للمجد اكرت دليلا من مسوفة إذ لا حاجة الى السفر فى رفقة إلا من تلك الطريق وخرجت فى ثلاثة من أصحابى وتلك الطريق كثيرة الأشجار وأشجارها عادية ضخمة تستظل القافلة بظل الشجرة منها وبعضها لا أغصان لها ولا ورق ولكن ظل جسدتها بحيث يستظل به الانسان وبعض تلك الأشجار قد استأسن داخلها واستنقع فيه ماء المطر فكانها بئر ويشرب الناس من الماء الذى فيها ويكون فى بعضها النحل والعسل فيشتاره الناس منها ولقد مرت بشجرة منها فوجدت فى داخلها رجلا حائكا قد نصب بها مرمته وهو ينسج فعجبت منه قال ابن جزى ببلاد الاندلس شجرتين من شجر القسطل فى جوف كل واحدة منها حائك ينسج الثياب إحداها بسندادى آس والأخرى ببشارة غرناطة

(رجع) وفى أشجار هذه العابة التى بين ايوالاتن ومالى ما يشبه شجرة الاجاص والتفاح والخوخ والمشمش وليست بها وفيها أشجار ثمر شبه الفقوس فإذا طاب انفاق عن شىء شبه الدقيق فيطبخونه ويأكلونه ويبيع بالاسواق ويستخرجون من هذه الارض حببات كالقول فيقاولونها ويأكلونها وطعمها كطعم الحمص المقلو وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الاسفنج وقلوه بالغرق والغرقى (بفتح الغين المعجم وسكون الراء وكسر التاء المثناة) وهو ثمر كالاجاص شديد الحلاوة مضر بالبيضان إذا أكلوه ويدق عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع فمنها انهم يطبخون به ويسرجون السرج ويقولون به هذا الاسفنج ويدهنون

به ويخلطونه بتراب عندهم ويسطحونه الدور كما تسطح بالجير وهو عندهم كثير متيسر
ويحمل من بلد في قرع كبار تسع القرعة منها قدر ما تسعه القلة ببلادنا والقرع ببلاد
السودان يعظم ومنه يصنعون الجفان يقطعون القرعة نصفين فيصنعون منها جفنين
وينقشونها نقشا حسنا وإذا سافر أحدهم يتبعه عبيده وجواريه يحملون فرشته وأوانيها التي يأكل
ويشرب فيها وهي من القرع

والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زادا ولا إداما ولا دينارا ولا درهما إنما يحمل قطع
الملح وحلى الزجاج الذي يسميه الناس النظم وبعض السلع العطرية وأكثر ما يعجبهم
منها القرنفل والمصطكى وتاسر غنت وهو بخورهم فإذا وصل قرية جاء نساء السودان
بأبلى واللبن والدجاج ودقيق النبق والأرز والفوتى وهو كحب الخردل يصنع من الكسكسو
والعصيدة ودقيق اللوبيا فيشتري منهم ما أحب من ذلك إلا أن الأرض يضرا كله بالبيضان
والفوتى خير منه وبعد مسيرة عشرة أيام من أيوالاتن وصلنا إلى قرية زاغرى (وضبطها
بفتح الزاى والغين المعجم وكسر الراء) وهي قرية كبيرة يسكنها تجار السودان ويسعون
ونجراته (بفتح الواو وسكون النون وفتح الجيم والراء والـ ف وتاء مشناة وتاء تأنيث)
ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الاباضية من الخوارج ويسعون صغغو
(بفتح الصاد المهمل والغين المعجم الأول والنون وضم الغين الثاني وواو) والسنيون
المالكيون من البيض يسعون عندهم توري (بضم التاء المشناة وواو وراء مكسورة)

ومن هذه القرية يجلب أبلى إلى أيوالاتن ثم سرنا من زاغرى فوصلنا إلى النهر الأعظم
وهو النيل وعليه بلدة كارسخو (بفتح الكاف وسكون الراء وفتح السين المهمل وضم الخاء
المعجم وواو) والنيل ينحدر منها إلى كبرة (بفتح الباء الواحدة والراء) ثم إلى زاغة (بفتح
الزاي والغين المعجم) وكبرة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالى وأهل زاغة قدماء
في الاسلام لهم ديانة وطلب للعلم ثم ينحدر النيل من زاغة إلى تلبكو ثم إلى كوكو وسند كرها
ثم إلى بلدة مولى (بضم الميم وكسر اللام) من بلاد الليميين وهي آخر عمالة مالى ثم إلى يوفى
واسمها (بضم الياء آخر الحروف وواو مكسورة) وهي من أكبر بلاد السودان وسلطانها
من أعظم سلاطينهم ولا يدخلها إلا بيض من الناس لأنهم يقتلونه قبل الوصول إليها ثم ينحدر
إلى بلاد النوبة وهم على دين النصرانية ثم إلى دنقلة وهي أكبر بلادهم (وضبطها بضم الدال
والقاف وسكون النون بينهما وفتح اللام) وسلطانها يدعى بابن كتنز الدين أسلم على أيام الملك
الناصر ثم ينحدر إلى جنادل وهي آخر عمالة السودان وأول عمالة أسوان من صعيد مصر

ورأيت التمساح بهذا الموضع من النيل بالقرب من الساحل كأنه قارب صغير ولقد نزلت يوما إلى النيل لقضاء حاجة فاذا بأحد السودان قد جاء ووقف فيما بيني وبين النهر فعجبت من سوء أدبه وقلة حياته وذكر ذلك لبعض الناس فقال إنما فعل ذلك خوفا عليك من التمساح فقال يذكرك ويذكرك ثم سرنا من كارسخو فوصلنا إلى نهر صنصرة (بفتح الصادين المهملين والراء وسكون النون) وهو على نحو عشرة أميال من مالي وعادتهم أن يمنع الناس من دخولها إلا بأذن وكسنت كتبت قبل ذلك لجماعه البيضان وكبيرهم محمد بن الفقيه الجزولي وشمس الدين بن النقويش المصري ليكتبوا لي دارا فلما وصلت إلى النهر المذكور جزت في المعديه ولم يمنعني أحد فوصلت إلى مدينة مالي حضرة ملك السودان فنزلت عند مقبرتها ووصلت إلى محلة البيضان وقصدت محمد بن الفقيه فوجدته قد اكترى لي دارا أزم داره فتوجهت إليها وجاء صهره الفقيه المقرئ عبد الواحد بشمعة وطعام ثم جاء ابن الفقيه إلى من الغد شمس الدين بن النقويش وعلى الزودي المراكشي وهو من الطائفة والقيت القاضي بمالي عبد الرحمن جاءني وهو من السودان حاج فاضله مكارم اخلاق بعث إلى بقرة في ضيافته ولقيت الترجمان دوغا (بضم الدال وواو وغين معجم) وهو من افاضل السودان وكبارهم وبعث إلى بشور وبعث إلى الفقيه عبد الواحد عرارين من الفوتى وقرعة من الغرقى وبعث إلى ابن الفقيه الارز والفوتى وبعث إلى شمس الدين ضيافة وقاموا بحقي انم قيام شكرا لله حسن افعالهم وكان ابن الفقيه متزوجا ببنت عم السلطان فكانت تتقدنا بالطعام وغيره واكلنا بعد عشرة أيام من وصولنا عصيدة تصنع من شيء شبه القلقاس يسمى القسافي (بقاف والفاء) وهي عندهم مفضلة على سائر الطعام فاصبحنا جميعا مرضى وكنا ستة فأت احدنا وذهبت انا لصلاة الصبح فغشي على فيها وطلبت من بعض المصريين دواء مسهل فأتني بشيء يسمى بيدر (بفتح الباء الموحدة وتسكين الياء) آخر الحروف وفتح الدال المهمل وراء وهو عروق نبات وخطاه بالانيسون والسكر ولته بالماء فشرهته وتقيأت ما أكلته مع صفراء كثيرة وعافاني الله من الهلاك ولما كنتى مرضت شهرين

(ذكر سلطان مالي)

وهو السلطان منسى سليمان ومنسى (بفتح الميم وسكون النون وفتح السين المهمل) ومعناه السلطان وسليمان اسمه وهو ملك بخيل لا يرجى منه كبير عطاء واتفق انى اقامت هذه المدة

ولم أره بسبب مرضي ثم صنع له طعاما برسم غذاء مولانا أبي الحسن رضي الله عنه واستدعى
الامراء والفقهاء والقاضي والخطيب وحضرت معهم فاتوا بالربعات وختم القرآن ودعوا
لمولانا أبي الحسن رحمه الله ودعوا لمنسى سليمان ولما فرغ من ذلك تقدمت فسلمت على
منسى سليمان واعلمه القاضي والخطيب وابن الفقيه بحالي فاجابهم بلسانهم فقالوا الى يقول لك
السلطان اشكر الله فقلت الحمد لله والشكر على كل حال

(ذكر ضيافتهم التافهة وتعظيمهم لها)

ولما انصرفت بعث الى الضيافة فوجهت الى دار القاضي وبعث بها مع رجاله الى دار
ابن الفقيه فخرج الفقيه من داره مسرعاً حافي القدمين فدخل على وقال قم قد جاءك قماش
السلطان وهديته فقمته وظننت انها الخلع والاموال فاذا هي ثلاثة اقراص من الخبز وقعدة
لحم بقري مقلوباً لغرتي وقرعة فيها لبن رائب فعندما رأيتهما ضحكك وطال تعجبي من ضعف
عقولهم وتعظيمهم لهذا الشيء الحقير

(ذكر كلامي للسلطان بعد ذلك واحسانه الى)

واقمت بعد بعث هذه الضافية شهرين لم يصل الى فيهما شيء من قبل السلطان ودخل
شهر رمضان وكنت خلال ذلك اتردد الى المشور واسلم عليه وأقدم مع القاضي والخطيب
فتكلمت مع دوغا الترجمان فقال تكلم عنده وانا أعبر عنك بما يجب فجالس في اوائل رمضان
وقمت بين يديه وقلت له اني سافرت بلاد الدنيا ولقيت ملوكها ولى ببلادك اربعة اشهر ولم
تضفني ولا اعطيتني شيئاً فها اقول عنك عند السلاطين فقال اني لم ارك ولا علمت بك فقام
القاضي وابن الفقيه فردا عليه وقالوا انه قد سلم عليك وبعثت اليه الطعام فامر لي عند ذلك بدار
انزل بها ونفقة تجرف على ثم فرق على القاضي والخطيب والفقهاء ما لا ليلة سبع وعشرين من
رمضان يسمونه الزكاة وأعطاني معهم ثلاثة وثلاثين مثقالاً وثلاثاً واحسن الى عند سفري
بمائة مثقال ذهباً

(ذكر جلوسه بقبته)

وله قبة مرتفعة بابها بداخل داره يقعد فيها اكثر الاوقات ولها من جهة المشور طيقان
ثلاثة من الخشب مغطاة بصفائح الفضة وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب او هي فضة
مذهبة وعليها ستور ملف فاذا كان يوم جلوسه بالقبعة رفعت الستور فعلم انه يجلس فاذا جلس

أخرج من شباك إحدى الطاقات شرا بة حرير قدر بطفيها منديل مصري مرقوم فاذا رأى الناس المنديل ضربت الاطبال والابواق ثم يخرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد فى أيدي بعضهم القسي وفى ايد بعضهم الرماح الصغار والدرق فيقف أصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة ويجلس أصحاب القسي كذلك ثم يؤتى بفرسين مسرجين ملجمين ومعهما كبشان يذكرون أنهما ينفعان من العين

وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين فيدعون نائبة قنجا موسى وتأتى القرارية (بفتح الفاء) وهم الامراء ويأتى الخطيب والفقهاء فيقعدون أمام السلحدارية يمنة وميسرة فى المشور ويقف دوغا الترجمان على باب المشور وعليه الثياب الفاخرة من الزردخانة وغيرها وعلى رأسه عمامة ذات حواشى لهم فى تعميمها صنعة بدیعة وهو متقلد سيفاً غمدته من الذهب وفى رجليه الخلف والمهاميز ولا يلبس أحد ذلك اليوم خفا غيره ويكون فى يده ربحان صغيران أحدهما من ذهب والآخر من فضة واستنهما من الحديد

ويجلس الاجناد والولاة والفتيان ومسوفة وغيرهم خارج المشور فى شارع هنالك متسع فيه أشجار وكل فرارى بين يديه أصحابه بالرماح والقسي والاطبال والابواق بوقاتهم من أنياف الفيلة وآلات الطرب المصنوعة من القصص والقرع وتضرب بالسطاعة ولها صوت عجيب وكل فرارى له كنانة قد علقها بين كتفيه وقوسه بيده وهو راكب فرسه وأصحابه بين مشاة وركبان ويكون بداخل المشور تحت الطيقان رجل واقف فمن أراد أن يكلم السلطان كلم دوغا ويكلم دوغا لذلك الواقف ويكلم الواقف السلطان (ذكر جلوسه بالمشور)

ويجلس أيضاً فى بعض الأيام بالمشور هنالك مصطبة تحت شجرة لها ثلاث درجات يسمونها البني (بفتح الباء المعقود الاولى وكسر الثانية وسكون النون بينهما) وتفرش بالحرير وتجعل الخاد عليها ويرفع الشطر وهو شبه قبة من الحرير وعليه طائر من ذهب على قدر البازي ويخرج السلطان من باب فى ركن القصر وقوسه بيده وكنانته بين كتفيه وعلى رأسه شاشة ذهب مشدودة بعصابة ذهب لها أطراف مثل السكاكين رفاق طولها أزيد من شبر وأكثر لباسه جبة حمراء موبرة من الثياب الرومية التى تسمى المطنفس ويخرج بين يديه المغنون بايديهم قنابر الذهب والفضة وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد أصحاب السلاح ويمشى مشيارويداويكشر الثانى ور بما وقف ينظر فى الناس ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب

المنبر وعند جلوسه تضرب الطبول والابواق والاتفاق والاتقار ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين فيدعون النائب والفرارية فيدخلون ويجلسون ويؤتى بالفرسين والسكبيشين معهما ويقف ذوغا على الباب وسائر الناس في الشارع تحت الاشجار

(ذكر تذال السودان لملسكهم وتربيمهم له وغير ذلك من أحوالهم)

والسودان أعظم الناس تواضعا لملسكهم وأشد هم تذالا له ويخلفون باسمه فيقولون منسى سليمان كى فاذا دعا باحدهم عند جلوسه بالقبة التى ذكرناها نزع المدعو ثيابه ولبس ثيابا باخلقة ونزع عمامته وجعل شاشية وسخا ودخل رافعا ثيابه وسراويله إلى نصف ساقه وتقدم بذلة ومسكنة وضرب الارض بمرققيه ضربا شديدا ووقف كالرا كع يسمع كلامه

ولذا كلم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه كشف ثيابه عن ظهره ورمى بالتراب على رأسه وظهره كما يفعل المغتسل بالماء وكنت أعجب منهم كيف لا تعنى أعينهم وإذا تكلم السلطان فى مجلسه بكلام وضع الحاضرون عمامتهم عن رؤسهم وأنصتوا للكلام وربما قام أحدهم بين يديه فينه كر أفعاله فى خدمته ويقول فعلت كذا يوم كذا فيصدقه من علم وتصديقهم ان ينزع أحدهم وترقوسه ثم يرسلها كما يفعل إذا رمى فاذا قال له السلطان صدقت أو شكره نزع ثيابه وترب وذلك عندهم من الادب قال ابن جزى وأخبرنى الصاحب العلامة الفقيه أبو القاسم بن رضوان أعزه الله انه لما قدم الحاج موسى النجراتى رسولا عن منسى سليمان إلى مولانا أبى الحسن رضى الله عنه كان إذا دخل المجلس الكريم حمل بعض ناسه معه قفة تراب فيترب متهما قال له مولانا كلاما حسنا كما يفعل ببلاد

(ذكر فعله فى صلاة العيد وأيامه)

وحضرت بمالى عيد الاضحى والفطر فخرج الناس إلى المصلى وهو بمقربة من قصر السلطان وعليهم الثياب الحسان وركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان والسودان لا يلبسون الطيلسان إلا فى العيد ما عدا القاضى والخطيب والفقهاء فانهم يلبسونه فى سائر الايام وكانوا يوم العيد بين يدى السلطان وهم يمللون ويكبرون وبين يديه العلامات الحرم من الحرير ونصب عند المصلى خباء فدخل السلطان اليها وأصلح من شأنه ثم خرج إلى المصلى فقضيت الصلاة والخطبة ثم نزل الخطيب وقعد بين يدى السلطان وتكلم بكلام كثير وهناك رجل بيده رمح يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب وذلك وعظ وتذكير وثناء على السلطان

وتحريض على لزوم طاعته وأداء حقه ويجلس السلطان في أيام العيدين بعد العصر على
البنبي ويأتي الساجدة بالأسلحة العجيبة من تراكش الذهب والفضة والسيوف المحلاة
بالذهب وأغادها منه ورماح الذهب والفضة ودبابيس البلور ويقف على رأسه أربعة
من الأمراء يشردون الذباب وفي أيديهم حاية من الفضة تشبه ركاب السرج ويجلس
الفرارية والقاضي والخطيب على العادة ويأتي دوغا الترجمان بنسائه الأربع وجواربه
وهن نحو مائة عليهن الملابس الحسان وعلى رأسهن عصائب الذهب والفضة فيها تماثيل
ذهب وفضة وينصب لدوغا كرسي يجلس عليه ويضرب بالآلة التي هي من قصب وتحتها
قريعات ويغنى بشعر يمدح السلطان فيه ويندكر غزواته وأفعاله ويغنى النساء والجواري
معه ويلعبن بالقسي ويكون معه نحو ثلاثين من غلمانهم عليهم جباب الملف والحر وفي
رؤوسهم الشواشي البيضاء وكل واحد منهم متقلد طبله يضربه ثم يأتي أصحابه من
الصبيان فيلعبون ويتقاربون في الهواء كما يفعل السندي ولهم في ذلك رشاقة وخفة بديعة
ويلعبون بالسيوف أجمل لعب ويلعب دوغا بالسيوف لعبا بديعا وعند ذلك يأمر
السلطان له بالاحساس فيأني بصره فيها مائتا مثقال من التبر ويندكر ما فيها على رؤوس
الناس وتقوم الفرارية فينزعون في قسيهم شكرا للسلطان وبالغد يعطى كل واحد منهم
لدوغا عطاء على قدره وفي كل يوم جمعة بعد العصر يفعل دوغا مثل هذا الترتيب الذي
ذكرناه

(ذكر المضحكة في إنشاد الشعراء للسلطان)

وإذا كان يوم عيد وأتم دوغا لعبه جاء الشعراء ويسمون الجبلا (بضم الجيم) وأحدهم
جلى وقد دخل كبل واحد منهم في جوف صورة مصنوعة من الريش تشبه الشقشاق
وجعل لها رأس من الخشب لها منقار أحمر كأنه الشقشاق ويقفون بين يدي السلطان
بتلك الهيئة المضحكة فينشدون أشعارهم وذكر لي أن شعرهم نوع من الوعظ يقولون
فيه للسلطان أن هذا البني الذي عليه جالس فوقه من الملوك فلان وكان من أحسن أفعاله كذا
وفلان كان من أفعاله كذا فافعل أنت من الخير ما يندكر بعدك ثم يصعد كبير الشعراء على
درج البني ويضع رأسه في حجر السلطان ثم يصعد إلى أعلى البني فيضع رأسه على كتف
السلطان الأيمن ثم على كتفه الأيسر وهو يتكلم بالسانهم ثم ينزل وأخبرت أن هذا
الفعل لم يزل قديما عندهم قبل الإسلام فاستمروا عليه .

(حكاية)

وحضرت مجلس السلطان في بعض الأيام فأتى أحد فقهاءهم وكان قدم من بلاد بعيدة وقام بين يدي (س) وتكلم كلاما كثيرا فقام القاضي فصدقه ثم صدقهما (س) فوضع كل واحد منهم عمامته عن رأسه وترب بين يديه وكان الى جانبي رجل من البيضان فقال أتعرف ما قالوه فقلت لا أعرف فقال أن الفقيه قد أخبر أن الجراد وقع ببلادهم فخرج أحد صلحاءهم إلى موضع الجراد فهاله أمرها فقال هذا جراد كثير فأجابته جرادة منها وقالت أن البلاد التي يكثُر فيها الظلم يبعثنا الله لفساد زرعها فصدقها القاضي والسلطان وقال عند ذلك للأمراء أتى برىء من الظلم ومن ظلم منكم عاقبته ومن علم بظلم ولم يعلمني به فذنوب ذلك الظالم في عنقه والله حسيبه وسأله ولما قال هذا الكلام وضع الفرارية عما تمهم عن رؤوسهم وتبرؤا من الظلم

(حكاية)

وحضرت الجمعة يوما فقام أحد التجار من طلبة مسوفة ويسمى بأبي حفص فقال يا أهل المسجد أشهدكم أن مديني سليمان في دعوتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قال ذلك خرج إليه جماعة رجال من مقصورة (س) فقالوا له من ظلمك من أخذ لك شيئا فقال من شأجو أيواتن يعني مشرفها أخذ مني ما قيمته ستائة مشقال وأراد أن يعطيني في مقابلته مائة مشقال خاصة فبعث (س) عنه للحين فحضر بعد أيام وصرفها للقاضي فثبت للتاجر حقه فأخذه وبعد ذلك عزل المشرف عن عمله

(حكاية)

واتفق في يوم لإقامتي بمالي أن (س) غضب على زوجته الكبرى بنت عمه المدعوة بقاسا ومعنى قاسا عندهم المملكة وهي شريكته في الملك على عادة السودان ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر وسجنها عند بعض الفرارية وولى في مكانها زوجته الأخرى بنجو ولم تكن من بنات الملوك فأكثر الناس الكلام في ذلك وانكروا فعله ودخل بنات عمه على بنجو بهيئتها بالمملكة فجعلن الرماد على أذرعهن ولم يتربن رؤوسهن ثم أن (س) سرح قاسا من ثقافها فدخل عليها بنات عمه يهنئنها بالسرّاح وتربن على العادة فشكت بنجو إلى (س) بذلك فغضب على بنات عمه فخفن منه واستجرن بالجامع فعفا عنهن واستدعاهن وعادتهن إذا

دخلن على السلطان أن يتجردن عن ثيابهن ويدخلن عرايا ففعلان ذلك ورضى عنهن وصرن يأتين باب السلطان غدو أو عشيا مدة سبعة أيام وكذلك يفعل كل من عفا عنه السلطان وسارت قاسا تركب كل يوم في جواربها وعبيدها وعلى رؤسهم التراب وتقف عند المشور منتقبة لا يرى وجهها وأكثر الأمراء الكلام في شأنها فجمعهم السلطان في المشور وقال لهم دوغا على لسانه انكم قد أكثرتم الكلام في امر قاسا وأنها أذنبت ذنبا كبيرا

ثم أتى بجارية من جواربها مقيدة مغلولة فقبل لها تسلمى بما عندك فاخبرت أن قاسا بعثها إلى جاطل ابن عم السلطان الهارب عنه إلى كنبرتي واستدعته ليخلع السلطان عن ملكه وقالت له أنا وجميع العساكر طوع أمرك فلما سمع الأمراء ذلك قالوا ان هذا ذنب كبير وهي تستحق القتل عليه فخافت قاسا من ذلك واستجارت بدار الخطيب وعادتهم أن يستجبروا هنالك بالمسجد وإن لم يتمكن فبدار الخطيب وكان السودان يكرهون منسى سليمان لبعثه وكان قبله قنسى مغا وفيل منسى مغامنى موسى وكان كريما فاضلا يحب البيضان ويحسن اليهم وهو الذى أعطى لآنى إسحاق الساحلى في يوم واحد أربعة آلاف مثقال واخبرني بعض الثقات أنه أعطى لمدرک بن فقوص ثلاثة آلاف مثقال في يوم واحد وكان جده سارق جاطه أسلم على يدي جد مدرک هذا .

(حكاية)

واخبرني الفقيه مدرک هذا إن رجلا من أهل تلمسان يعرف بابن شيخ اللبن كان قد أحسن إلى السلطان منسى موسى في صغره بسبعة مثاقيل وثلاث وهو يومئذ صبى غير معتبر ثم اتفق أن جاء اليه في خصومة وهو سلطان فعرفه وأدناه منه حتى جلس معه على البنى ثم قرره على فعله معه وقال للأمراء ما جزاء من فعل ما فعله من الخير فقالوا له الحسنه بعشر أمثالها فأنطه سبعين مثقالا فأعطاه عند ذلك سبعمائة مثقال وكسوة وعبيدا وخداما وأمره أن لا ينقطع عنه واخبرني بهذه الحكاية أيضا ولد ابن شيخ اللبن المذكور وهو من الطائفة يعلم القرآن بمالى .

(ذكر ما استحسنته من أفعال السودان وما استقبحته منها)

فمن أفعالهم الحسنه قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحدا في شئ منه ومنها شمول الأمن في بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة إنما

يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذوه مستحقه ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها في الجماعات وضرهم أولادهم عليها وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام ومن عاداتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجاده فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب إلى المسجد وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ولا ثمر له ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه فلا تفك عنهم حتى يحفظوه .

ولقد دخلت على القاضي يوم العيد وأولاده مقيدون فقلت له ألا تسرحهم فقال لا أفعل حتى يحفظوا القرآن ومررت يوما بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفي رجله قيد ثقيل فقلت لمن كان معي ما فعل هذا اقبل ففهم عنى الشاب وضحك وقيل لي إنما قيد حتى يحفظ القرآن ومن مساوي أفعالهم كون الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرون للناس عرايا بادياب العورات ولقد كنت أرى في رمضان كثيراً منهم على تلك الصورة فإن عادة الفرارية أن يفطروا بدار (س) ويأتى كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فما فوقهن من جوار به وهن عرايا ومنها دخول النساء على (س) عرايا غير مستترات وتعري بناته ولقد رأيت في ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره عرايا ومعهن بناتان له ناهدان ليس عليهما ستر ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤسهم تادبا ومنها ما ذكرته من الاضحوكة في إنشاد الشعراء ومنها أن كثيراً منهم يأكلون الجيف . والكلاب والحمير .

﴿ ذكر سفرى عن مالى ﴾

وكان دخولى اليها فى الرابع عشر لجمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين وخروجى عنها فى الثانى والعشرين لمحرم سنة أربع وخمسين ورافقنى تاجر يعرف بأبى بكر بن يعقوب وقصدنا طريق ميممة وكان لى جمل أركبه لأن الخيل غالية الاثمان يساوى أحدها مائة مثقال فوصلنا إلى خليج كبير يخرج من النيل لا يجاز إلا فى المراكب وذلك الموضع كثير البعوض فلا يمر أحد به إلا بالليل ووصلنا الخليج ثلث الليل والليل مقمر

﴿ ذكر الخيل التى تكون بالنيل ﴾

ولما وصلنا الخليج رأيت على ضفته ست عشر دابة ضخمة الخلقة فعجبت منها وظننتها فيلة

لكشرتها هنالك ثم انى رأيتها دخلت فى النهر فقلت لأبى بكر بن يعقوب ما هذه الدواب فقال هى خيل البحر خرجت ترعى فى البر وهى اغلظ من الخيل ولها أعراف وأذنان ورؤوس الخيل وأرجلها كرجل الغيلة ورأيت هذه الخيل مرة أخرى لما ركبنا النيل من تنبكتو إلى كوكو وهى تعوم فى الماء وترفع رأسها وتنفخ وخاف منها أهل المركب فقربوا من البر لثلاث خرقهم ولهم حيلة فى صيدها حسنة وذلك أن لهم رماحا مشقوبة قد جعل فى ثقبها شرائط وثيقه فيضربون الفرس منها فان صادفت الضربة رجله أو عنقه انفذته وجذبوه بالحبل حتى يصل إلى الساحل فيقتلونه وبأكلون لحمه ومن عظامها بالساحل كثير وكان نزولنا عند هذا الخليج بقرية كبيرة عايتها حاكم من السودان حاج فاضل يسمى فرامغا (بفتح الميم والغين المعجم) وهو ممن حج مع (س) منسى موسى لما حج .

(حكاية)

أخبرنى فرامغا ان منسى موسى لما وصل إلى هذا الخليج كان معه قاض من البيضان يكنى بابى العباس ويعرف بالدكالى فاحسن اليه بأربعة آلاف مثقال لنفقاته فلما وصلوا إلى ميمية شكا إلى (س) بان الأربعة آلاف مثقال سرقت له من داره فاستحضر (س) أمير ميمية وتوعده بالقتل ان لم يحضر من سرقها وطلب الأمير السارق فلم يجد أحداً ولا سارق يكون بتلك البلاد فدخل دار القاضى واشتد على خدامه وهددهم فقالت له إحدى جواريه ما ضاع له شيء انما دفنها بيده فى ذلك الموضع وأشارت له إلى الموضع فاخرجها الأمير وأتى بها (س) وعرفه الخمر فمضب على القاضى ونفاه إلى بلاد الكفار الذين ياكون بنى آدم فاقام عندهم أربع سنين ثم رده إلى بلده وانما لم يأكله الكفار لبياضه لانهم يقولون ان أكل الأبيض مضر لانه لم ينضج والأسود هو النضج بزعمهم

(حكاية)

قدمت على (س) منسى سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بنى آدم معهم أمير لهم وعادتهم ان يجعلوا فى آذانهم اقراطا كبار أو تكون فتحة القرط منها نصف شبر ويلتحفون فى ملاحف الحرير وفى بلادهم يكون معدن الذهب فاكرمهم (س) واعطاهم فى الضيافة خادمة فذبحوها وأكلوها ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمها وأتوا (س) شاكرين وأخبرت ان عادتهم متى ما وفدوا عليه ان يفعلوا ذلك وذكرلى عنهم انهم يقولون

ان اطيب ما فى لحوم الادميات الكف والشدى ثم رحلنا من هذه القرية التى عند الخليج فوصلنا إلى بلدة قرى منسا وقرى (بضم القاف وكسر الراء) ومات لى بها الجمل الذى كنت أركبه فاخبرنى راعيه بذلك فخرجت لا نظرا ليه فوجدت السودان قد أكلوه كما دنتهم فى أكل الجيف فبعثت غلامين كنت استأجرتهم على خدمتى ليشتريا لى جملا بزغرى وهى على مسيرة يومين وأقام معى بعض أصحاب أبى بكر بن يعقوب وتوجه هو لينظرنا بميمة فأقمت سبعة أيام اضافنى فيها بعض الحجاج بهذه البلدة حتى وصل الغلامان بالجمل

(حكاية)

وفى أيام أقامتى بهذه البلدة رأيت ليلة فيما يرى النائم كأن إنسانا يقول لى محمد بن بطوطة لماذا لا يقرأ سورة يس فى كل يوم فمن يومئذ ما تركت قراءتها كل يوم فى سفر ولا حضر ثم رحلت الى بلدة ميمة (بكسر الميم الأول وفتح الشانى) فنزلنا على أبار بخارجها .

ثم سافرنا منها الى مدينة تذبسكتو (وضبط اسمها بضم التاء المعلو وسكون النون وضم الباء الموحدة وسكون الكاف وضم التاء المعلو الثانية وواو) وبينها وبين النيل أربعة أميال وأكثر سكانها مسوفة أهل اللثام وحاكها يسمى قربا موسى حضرت عنده يوما وقد قدم أحد مسوفة أميرا على جماعة فجعل عليه ثوبا وعمامة وسروالا كلها مصبوغة واجلسه على درقة ورفع كبراء قبيلته على رؤوسهم وهذه البلدة قبر الشاعر المغلق أبى إسحاق الساحلى الغربا على المعروف ببلده بالطويجن وبها قبر سراج الدين بن الكويك أحد كبار التجار من أهل الاسكندرية

(حكاية)

كان (س) منسى موسى لما حج نزل بروض لسراج الدين هذا ببركة الحبش خارج مصر وبها ينزل (س) واحتاج الى مال فتسلفه من سراج الدين وتسلف منه امرأه أيضا وبعث معهم سراج الدين وكيله يقتضى المال فأقام بمالى فتوجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله ومعه ابن له فلما وصل تذبسكتو أضافه أبو إسحاق الساحلى فسكان من القدر موته تلك الليلة فتكلم الناس فى ذلك وانهموا أنه سم فقال لهم ولده لى أكلت معه ذلك الطعام بعينه فلو كان فيه سم لقتلنا جميعا لكنه اتقضى اجاله ووصل الوالى الى مالى واقتضى ماله وانصرف الى ديار مصر ومن تذبسكتو ركب التيل فى مركب صغير منهجوت من خشبة واحدة وكنا ننزل كل ليلة بالقرى فنشترى ما نحتاج اليه من الطعام والسمن والملح وبالعطريات

وبحلى الزجاج ثم وصلت إلى بلد أنسيت اسمه له أمير فاضل حاج يسمى قربا سليمان مشهور بالشجاعة والشدة لا يتعاطى أحد النزاع في قوسه ولم أر في السودان أطول منه ولا أضخم جسما واحتجب بهذا البلدة إلى شيء من الذرة فجئت إليه وذلك يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه وسألني عن مقدمي وكان معه فقيه يكتب له فأخذت لوحا كان بين يديه وكتبت فيه يافقيه قل لهذا الأمير إنا نحتاج إلى شيء من الذرة للزاد والسلام وناولت الفقيه اللوح يقرأ ما فيه سرا ويحكم الأمير في ذلك بلسانه فقرأه حهرا وفهمه الأمير فأخذ بيدي وأدخلني إلى مشوره وبه سلاح كثير من الدرق والقسي والرماح ووجدت عنده كتاب المدهش لابن الجوزي فجعلت أقرأ فيه .

ثم أتى بمشروب لهم يسمى الدقنو (بفتح الدال المهمل وسكون القاف وضم النون وواو) وهو ماء فيه جريش الذرة مخلوط بيسير عسل أو لبن وهم يشربونه عوض الماء لأنهم ان شربوا الماء خالصا أضربهم وإن لم يجدوا الذرة خلطوه بالعسل أو اللبن ثم أتى ببطيخ أخضر فأكلنا منه ودخل غلام خماسي فدعاه وقال لي هذا ضيافتك وأحفظه لئلا يفر فأخذته وأردت الانصراف فقال أقم حتى يأتي الطعام وجاءت إلينا بجارية له دمشقية عربية فسلمتني بالعربي فبينما نحن في ذلك إذ سمعنا صراخا بداره فوجه الجارية لتعرف خبر ذلك فعادت إليه فأعلمته أن بنتا له قد توفيت فقال إني لأحب البكاء فتعالى نمش إلى البحر يعنى النيل وله على ساحله ديار فأتى بالفرس فقال لي أركب فقلت لا أركبه وأنت ماش فمشينا جميعا ووصلنا إلى دياره على النيل وأتى بالطعام فأكلنا وودعته وانصرفت

ولم أر في السودان أكرم منه ولا أفضل والغلام الذى أعطانيه باق عندي إلى الآن ثم سرت إلى مدينة كوكو وهى مويئة على النيل من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها فيها الأرض الكثير واللبن والدجاج والسمك وبها الفقوس العناني الذى لا نظير له وتعامل أهلها في البيع والشراء بالودع وكذلك أهل مالى وأقامت بها نحو شهر وأضافني بها محمد بن عمر من أهل مكناسة وكان ظريفا مزاحا فاضلا وتوفي بها بعد خروجي عنه وأضافني بها الحاج محمد الوجدى التازى وهو من دخل اليمن والفقيه محمد الفيلالى إمام مسجد البيضان .

ثم سافرت منها برسم تسكدا في البر مع قافلة كبيرة للغدامسيين دليهم ومقدمهم الحاج وجين (بضم الـ و وتشديد الجيم المقودة) ومعناه الذئب بلسان السودان وكان

وكان لي جمل لركوبي وناقة لحمل الزاد فلما رحلنا أول مرحلة وقفت الناقة فأخذ الحاج وجين ما كان عليها وقسمه على أصحابه فتوزعوا حملة وكان في الرفقة مغربي من أهل تادلي فأبى أن يرفع من ذلك شيئا كما فعل غيره وعطش غلامى يوما فطالبت منه الماء فلم يسمح به ثم وصلبا إلى بلاد بردامة وهي قبيلة من البربر (وضبطها بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الدال المهمل وميم مفتوح وتاء تأنيث) ولا تسير القوافل إلا في غربة الشمل ويقيمون أعواد من الخشب ويصنعون عليها الحصر وفوق ذلك أعواد متشبكة وفوقها الجلود أو ثياب القطن ونساؤهم أتم النساء جمالا وأبدعن صوراً مع البياض الناصع والسمن ولم أر في البلاد من يبلغ مبلغهن في السمن وطعامهن حليب البقر وجريش الذرة يشربنه مخلوطا بالماء غير مطبوخ عند المساء والصباح ومن أراد الزواج ممن سكن بهن في أقرب البلاد إليهن ولا يتجاوز بهن كوكو ولا أيوالا تن وأصابني المرض في هذه البلاد لاشتداد الحر وغلبة الصفراء واجتهدنا في السير إلى أن وصلنا إلى مدينة تسكدا (وضبطها بفتح التاء المعلوة والكاف المعقودة والدال المهمل مع تشديده) ونزلت بها في جوار شيخ المغاربة سعيد بن علي الجزولي وأضافني قاضيها أبو إبراهيم إسحاق الجاناقي وهو من الأفاضل وأضافني جعفر بن محمد المسوفي وديار تسكدا مبنية بالحجارة الحجر وماؤها يجرى على معادن النحاس فيتغير لونه وطعمه بذلك ولا زرع بها إلا يسير من القمح يأكله التجار والغرباء ويبيع بحساب عشرين مدا من أمدادهم بمئقال ذهب ومدهم ثلث المسد ببلادنا ونباع الذرة بحساب تسعين مدا بمئقال ذهب وهي كثيرة العقارب وعقاربها تقتل من كان صبيا لم يبلغ وأما الرجال فقلما تقتلهم

ولقد لدغت يوما وأنا بها ولدا للشيخ سعيد ابن علي عند الصبح فمات لحينه وحضرت جنازته ولا شغل لأهل تسكدا غير التجارة يسافرون كل عام إلى مصر ويحلبون كل ما بها من حسان الثياب وسواها ولأهلها رفاهية وسعة حال ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم وكذلك أهل مال وأيوالا تن ولا يبيعون المعلومات منهم إلا نادرا وبالثمن الكثير

(حكاية)

أردت لما دخلت تسكدا شراء خادم معلمة فلم أجدها ثم بعثت إلى القاضي أبو إبراهيم بخادم لبعض أصحابه فاشتريتها بخمسة وعشرين مثقالا ثم إن صاحبها ندم ورغب في الأقاله فقلت له إن

دللتني على سواها أقلتك فداني على خادم لعل أغبول وهو المغربي التادلي الذي أبي أن يرفع شيئاً من أسباني حين وقعت ناقتي وأبي أن يستقي غلامى الماء حين عطش فاشتريتها منه وكانت خيراً من الأولى وأقلت صاحبي الأولى ثم ندم هذا المغربي على بيع الخادم ورغب في الافالة وألح في ذلك فأبيت إلا أن أجازيه بسوء فعله فكاد أن يخن أويملك أسفا ثم أقلت بهد .

· (ذكر معدن النحاس) ·

ومعدن النحاس بخارج تسكدا يحفرون عليه في الأرض ويأتون إلى البلد فيسكبونه في دورهم ويفعل ذلك سبيدهم وخدمهم فاذا سكبوه نحاساً أحمر صنعوا منه قضباناً في طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ فتباع الغلاظ منها بحساب أربعائة قضيت بمثقال ذهب وتباع الرقاق بحساب سبعمائة وسبعمائة بمثقال وهي صرفهم يشترون برقاقها اللحم والخطب ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح ويحملون النحاس منها إلى مدينة كوبر من بلاد السكفار وإلى زغاري وإلى بلاد برنوا وهي على مسيرة أربعين يوماً من تسكدا وأهلها مسلمون لهم ملك اسمه ادريس لا يظهر للناس ولا يكلمهم إلا من وراء حجاب :

ومن هذه البلاد يؤتى بالجوارى الحسنان والفتيان وبالثياب المجسدة ويحمل النحاس أيضاً منها إلى جوجرة وبلاد الموريتين وسواها .

· (ذكر سلطان تسكدا) ·

وفي أيام إقامتي بها توجه القاضي أبو ابراهيم والخطيب محمد والمدرس أبو حفص والشيخ سعيد بن علي إلى سلطان تسكدا وهو بربري يسعى أزار (بكسر الهمزة وزاى والف وراء) وكان على مسيرة يوم منها وقعت بينه وبين التسكر كرى وهو من سلاطين البربر أيضاً منازعة فذهبوا إلى الإصلاح بينهما فأردت أن ألقاه فاكثريت دليلاً وتوجهت إليه وأعلمته المذكورون بقدومي فجاء إلى راكبا فرسا دون سرج وتلك عادتهم .

وقد جعل عوض السرج طئفسه حمراء بدية وعليه ملحفة وسراويل وعمامة كلها زرق ومعه أولاد أخته وهم الذين يرثون ملكه فقمنا إليه وصالحناه وسأل عن حاله ومقدمي فاعلم بذلك وأنزاني ببیت من بيوت السناطين وهم كالوصفان عندنا وبعث برأس غنم مشوى في السفود وقعب من حليب البقر وكان في جوارنا بيت أمه واخته فجاءنا السنا وسلمنا علينا وكانت أمه تبعث لنا الحليب

بعد العتمة وهو وقت حليبهم ويشربونه ذلك الوقت وبالنحو وأما الطعام فلا يأكلونه ولا يعرفونه وأقامت عندهم ستة أيام وفي كل يوم يبعث بكباشين مشويين عند الصباح والمساء وأحسن إلى بناقة وعشرة مثاقيل من الذهب وانصرفت عنه وعدت إلى تسكدا

(ذكر وصول الأمر الكريم إلى)

ولما عدت إلى تسكدا وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجلعاسي بأمر مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين أمر إلى الوصول إلى حضرته العلية فقبلته وامتنعته على الفور .

واشتريت جملين لركوبي بسبعة وثلاثين مثقالا وثلاث وقصدت السفر إلى توات ورفعت زاد سبعين ليلة اذ لا يوجد الطعام فيما بين تسكدا وتوات انما يوجد اللحم واللبن والسمن يشتري بالأثواب وخريجت من تسكدا يوم الخميس الحادى عشر لشعبان سنة أربع وخمسين فى رفقة كبيرة فيهم جعفر التوانى وهو من الفضلاء ومعهما الفقيه محمد بن عبد الله قاضى تسكدا وفى الرفقة نحو ستائة خادم فوصلنا إلى كاهر من بلاد السلطان السكر كرى وهى أرض كثيرة الأعشاب يشتري بها الناس من برابرها الغنم ويقعدون لحما ويحمله أهل توات إلى بلادهم ودخلنا منها إلى برية لاعمارة بها ولا ماء وهى مسيرة ثلاثة أيام .

ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوما فى برية لاعمارة بها الا أن بها الماء . ووصلنا إلى الموضع الذى يفترق به طريق غات الآخذ إلى ديار مصر وطريق توات وهناك احساء ماء يجرى على الحديد فإذا غسل به الثوب الأبيض اسود لونه

وسرنا من هنالك عشرة أيام ووصلنا إلى بلاد هكار وهم طائفة من البربر ماشمون لاخير عندهم ولقينا أحد كبارهم فحبس القافلة حتى غرموا له أثوابا وسواها وكان وصولنا إلى بلادهم فى شهر رمضان وهم لا يعتبرون فيه ولا يعترضون القوافل وإذا وجد سراقها المتاع بالطريق فى رمضان لم يعرضوا له وكذلك جميع من هذه الطريق من البرابر وسرنا فى بلاد هكار شهرا وهى قليلة النبات كثيرة الحجارة طريقها وعرو ووصلنا يوم عيد الفطر إلى بلاد برابر أهل لثام كهؤلاء فأخبرونا بأخبار بلادنا وأعلمونا أن أولاد خراج وابن يعمور خالفوا وسكنوا تسابيت من توات فخاف أهل القافلة من ذلك ثم وصلنا إلى بواد (بضم الباء الموحدة) وهى من أكبر قرى توات وأرضها رمال وسبخ وعمرها كثير ليس بطيب لكن أهلها يفضلونه على ثمر سجلعاسة ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت

وانما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب وأكل أهلها التمر والجراد وهو كثير عندهم
يختزنونه كما يختزن التمر ويقاتلون به ويخرجون الى صيده قبل طلوع الشمس فانه
لا يطير إذ ذاك لأجل البرد وأقمنا ببودا أياما في قافلة ووصلنا في أوسط ذى القعدة
الى مدينة سجلماسة وخرجت منها في ثانی ذی الحجة وذلك أوان البرد الشديد ونزل
بالطريق ثلج ولقد رأيت الطرق الصعبة والثلج الكثير بينخاري وسمرقند وخراسان
وبلاد الأتراك فلم أر أصعب من طريق أم جنيبة ووصلنا ليلة عيد الأضحى الى
دار الطمع فأقمت هنالك يوم عيد الأضحى ثم خرجت فوصلت الى حضرة فارس
حضرة مولانا أمير المؤمنين أيده الله فقبلت يده الكريمة وتيمنت بمشاهدة وجهه
المبارك وأقمت في كنف احسانه بعد طول الرحلة والله تعالى يشكر ما أولانيه
من جزيل احسانه وسابغ امتنانه ويديم أيامه ويمتع المسلمين بطول بقائه وههنا
انتهت الرحلة المسماة تحفة النظار . في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . وكان
الفراغ من تقييدها في ثالث ذی الحجة عام ستين وخمسين وسبعمائة
والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى



(قال ابن جزى)

انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بطوطه اكرمه الله ولا يخفى على
 ذى عقل أن هذا الشيخ هو رجال العصر ومن قال رجال هذه الملة لم يبعد ولم
 يجعل بلاد الدنيا للرحلة واتخذ حضرة فارس قرا ومستوطننا بعد طول جولانه الا
 الماء لما تحقق أن مولانا ايداه الله اعظم ما وكها شأننا وأعمهم فضائل واكرمهم احسانا
 وأشدهم بالواردين عليه عناية وأتمهم بمن ينتمى الى طالب العلم حماية فيجب على مثلى أن
 يحمده الله تعالى لأن وفقه في أول حاله وترحاله لاستيطان هذه الحضرة التي اختارها
 هذا الشيخ بعد رحله خمسة وعشرين عاما انها لنعمة لا يقدر قدرها ولا يوفي شكرها
 والله تعالى يرزقنا الاعانة على خدمة مولانا أمير المؤمنين ويبقى علينا ظل حرمة
 ورحمته ويحزيه غنامعشر الغرباء المنقطعين اليه أفضل جزاء المحسنين * اللهم
 وكما فضله على الملوك بفضيلتي العلم والدين . وخصصته بالحلم والعقل
 الرصين فمد لملكه أسباب التأييد والتسكين وعرفه عوارف
 النصر العزيز والفتح المبين وأجعل الملك في عقبه
 الى يوم الدين . وأره قرّة العين في نفسه
 وبنيه وملسكه ورعايته يا أرحم الراحمين
 وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا
 محمد خاتم النبيين . وامام
 المرسلين والحمد لله
 رب العالمين

﴿ وكان الفراغ من تأليفها في شهر صفر عام سبعة وخمسين وسبعمائة ﴾

(يقول مصححه العبد الفقير * الراجي عفوره به القدير)

حمداً لمن شرح صدور الأجلة الألباء . لاستكشاف ما في الاصقاع من العادات
وجميل الأنباء . وصلاة وسلاماً على من أطلعه الله على كان . وأرسله الى
الثقلين من انس وجان . وبعد فقد تم طبع هذا السفر المشتمل على معرفة
عوائد الاقطار المسمى (تحفة النظار * في غرائب الامصار * وعجائب
الاسفار) تأليف الإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف
بابن بطوطه رحمه الله . وذلك بمكتبة حضرة الوجيه الفاضل
الحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الكبرى
بشارع محمد علي بمصر المحمية . وقد وافق التمام أوائل
شهر رجب المعظم من عام ١٣٧٧ هجرية عليه
وعلى آله وأصحابه أتم صلاة
وأزكى تحية
آمين

(فهرست الجزء الأول من كتاب رحلة ابن بطوطة)

صحيفة	صحيفة
٦١ ذكر ارباض دمشق	٢ خطبة الكتاب
— « قاسيون ومشاهده المباركة	٧ ذكر سلطان تونس
٦٢ « الربوة والقرى التي تواليها	٩ « أبواب الإسكندرية ومرساها
٦٣ « الأوقاف بدمشق وبعض فضائل	— « المنار
أهلها وعوائدهم	— « عمود السواري
٦٥ « سماعى بدمشق ومن أجازنى	١٠ « بعض علماء الإسكندرية
من أهلها	٢٠ « مسجد عمرو بن العاص
٦٩ طيبة مدينة رسول الله ﷺ وشرف	٢١ « قرافة مصر ومزاراتها
وكرم	— « نيل مصر
— ذكر مسجد رسول الله ﷺ	٢٢ « الأهرام والبرابي
وروضته الشريفة	٢٣ « سلطان مصر
٧٠ ذكر ابتداء بناء المسجد الكريم	٢٤ « بعض قضاة مصر وأمرائها
٧٢ « المنبر الكريم	٢٥ « « علماء مصر وأعيانها
٧٣ « الخطيب والإمام بمسجد رسول	٢٦ « يوم الحمل بمصر
الله ﷺ	٣٣ « المسجد المقدس
— « خدام المسجد الشريف	— « قبة الصخرة
والمؤذنين به	٣٤ « ذكر بعض المشاهد المباركة
٧٤ « المجاورين بالمدينة الشريفة	بالقدس الشريف
٧٥ « أمير المدينة الشريفة	— « بعض فضلاء القدس
— « بعض المشاهد الكريمة بخارج	٥٢ « جامع دمشق المعروف بجامع
المدينة الشريفة	بنى أمية
٨٠ « مدينة مكة المعظمة	٥٦ « الأئمة بهذا المسجد
— « المسجد الحرام	— « المدرسين والعلمين به
٨١ « الكعبة المعظمة الشريفه زاداها	٥٧ « قضاة دمشق
الله تعظيما وتكريما	٥٨ « مدارسها
٨٢ « الميزاب المبارك	٥٩ « أبوابها
	٥٩ « بعض المشاهد والمزارات بها

صحيفة	صحيفة
١٠٣ ذكر عاداتهم في شوال	٨٣ ذكر الحجر الأسود
١٠٤ » إحرار الكعبة	— » المقام الكريم
— » شعائر الحج وأعماله	٨٤ » الحجر والمطاف
١٠٦ » كسوة الكعبة	— » زمزم المباركة
— » الانفصال عن مكة شرفها الله	٨٥ » أبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفة
١٠٩ » الروضة والقبور التي بها	٨٦ » الصفا والمروة
١١٠ » نقيب الأشراف	٨٧ » الجبانة المباركة
١١٤ » مدينة واسط	— » بعض المشاهد خارج مكة
١١٥ » » البصرة	٨٨ » الجبال المطيفة بمكة
١١٦ » المشاهد المباركة بالبصرة	٩١ » اميرى مكة
١٢١ » ملك اينج وتستر	— » أهل مكة وفضائلهم
١٣٠ » سلطان شيراز	٩٢ » قاضى مكة وخطيبها وإمام الموسم وعلمائها وصلحائها
١٣٣ » بعض المشاهير بشيراز	٩٤ » المجاورين بمكة
١٣٧ » مدينة الكوفة	٩٨ » عادة أهل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهم
١٣٩ » مدينة بغداد	٩٩ » عاداتهم في الخطبة وفي صلاة الجمعة
١٤١ » الجانب الغربى من بغداد	١٠٠ » » في استهلال الشهور
— » الجانب الشرقى منها	— » » في شهر رجب
١٤٢ » قبور الخلفاء بها ، وقبور بعض العلماء والصالحين	١٠١ » عمرة رجب
١٤٣ » سلطان العراقين وخراسان	١٠٢ » عاداتهم في ليلة النصف من شعبان
١٤٥ » التغلبين على الملك بعد موت السلطان أبى سعيد	— » » في شهر رمضان العظم
١٤٨ » مدينة الموصل	
١٥٠ » سلطان ماردين في عهد دخولى إليها	

صحيفة	صحيفة
١٩٧ ذكر سلطان برصى	١٥٥ ذكر سلطان جزيرة سواكن
٢٠١ » » كرى بولى	١٥٦ » » حلى
٢٠٣ » » قسطمونية	١٥٨ » » اليمين
٢٠٧ » العجلات التى يسافر عليها	١٦٠ » » مقدشو
حضرة السلطان محمد اوزبك	١٦٣ » » كلوا
بهذه البلاد	١٦٦ » » التنبول
٢١٢ » السلطان محمد اوزبك خان	١٦٧ » » النارجيل
٢١٤ » الخواتين وترتيبهن	١٦٨ » » سلطان ظفار
٢١٥ » الخاتون الكبرى	١٦٩ » » ولى لقيناه بهذا الجبل
» » التى تلى الملكة	١٧٢ » » سلطان عثمان
٢١٦ » » الثالثة	١٧٤ » » هرmez
» » الرابعة	١٧٦ » » لار
» » بنت السلطان المعظم اوزبك	١٧٧ » » مناص الجواهر
٢١٧ » » ولى السلطان	١٨٠ » » سلطان العاليا
» » السفر إلى مدينة البلغار	١٨١ » » الأئمة الفتيان
» » أرض الظمة	١٨٢ » » سلطان أنطاكية
٢١٨ » » ترتيبهم فى العيد	١٨٣ » » اكريدور
٢٢١ » » السفر إلى القسطنطينية	» » قل حصار
٢٢٤ » » سلطانها	١٨٥ » » لأذق
٢٢٦ » » المدينة	١٨٦ » » ميلاس
» » الكنيسة العظمى	١٨٧ » » اللارندة
٢٢٧ » » المانستارات بها	١٩١ » » بركى
٢٢٨ » » الملك المترهب جرجيس	١٩٥ » » منيسية
٢٢٩ » » قاضى القسطنطينية	» » برغمة
» » الانصراف عنها	١٩٦ » » بلى كسرى

صحيفة	صحيفة
٢٤٧ ذكر سلطان هراة	٢٣٣ ذكر أمير خوارزم
٢٤٨ « حكاية الرافضة	٢٣٥ « بطيخ خوارزم
٢٥٥ « تمة هذا الجزء	٢٣٧ « أولياء التتر، وتخريبهم بخارى
٢٥٦ تذييل	وسواها
	٢٣٩ « سلطان ما وراء النهر

تمت فهرست الجزء الأول

فهرست الجزء الثانى من كتاب رحلة ابن بطوطة

صحيفة	صحيفة
٢٢ ذكر السلطان ناصر الدين ابن السلطان شمس الدين	٢ الخطبة
٢٣ » السلطان غياث الدين بلبن	ذكر البرية
٢٤ » السلطان معز الدين بن ناصر الدين	٤ » الكر كدن
٢٥ » السلطان جلال الدين	٦ » السفن فى نهر السند وترتيب ذلك
٢٦ » السلطان علاء الدين محمد شاه الخلاجى	٧ » غريبة رأيها بخارج مدينة لاهورى
٢٧ » ابنة السلطان شهاب الدين	٩ » أمير ملتان وترتيب حاله
٢٨ » السلطان قطب الدين ابن علاء الدين	» من اجتمعت به فى هذه المدينة من الغرباء الوافدين على حضرة ملك الهند
٢٩ » السلطان خسرو خان ناصر الدين	١١ ذكر أشجار بلاد الهند وفواكهها
٣٠ » » غياث الدين تغلق شاه	١٢ » الحبوب التى يزرعها أهل الهند ويقتاتون بها
٣٢ » مارامه ولده من القيام عليه فلم يتم له ذلك	١٣ ذكر غزوة لسا بهذا الطريق وهى أول غزوة شهدتها ببلاد الهند
٣٣ » مسير تغلق إلى بلاد اللكنوتى وما اتصل بذلك إلى وفاته	١٤ ذكر أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار
٣٤ » السلطان أبى المجاهد محمد شاه ابن السلطان غياث الدين تغلق شاه ملك الهند والسند الذى قدمنا عليه وذكر وصفه إلى آخر ما ذكر	١٦ ذكر وصف مدينة دهلى
٣٥ » أبوابه ومشوره وترتيب ذلك	١٧ » سور دهلى وأبوابها
— ذكر ترتيب جلوسه للناس	» جامع دهلى
٣٦ » دخول الغرباء وأصحاب الهدايا إليه	١٨ » الخوئين العظمين بخارجها
٣٧ » دخول هدايا عماله إليه	١٩ » بعض مزارتها
	» بعض علمائها وصلاحائها
	٢٠ » فتح دهلى ومن تداولها من الموك
	٢١ » السلطان شمس الدين للمش
	٢٢ » السلطان ركن الدين ابن السلطان شمس الدين
	٢٣ ذكر السلطنة رضية

صحيفة	صحيفة
٣٧ ذكر خروجه للعديد وما يتصل بذلك	— « فتكات هذا الساطان وما تقم من
٣٨ « جلوس يوم العيد وذكر السرير	ذكر قتله لأخيه أفعاله
الأعظم والمبخرة العظمى	٥٤ « قتله لثلاثمائة وخمسين رجلا في
٤٠ « ترتيبه إذا قدم من سفره	ساعة واحدة
— « ترتيب الطعام الخاص	— « تعذيبه للشيخ شهاب الدين وقتله
— « « « العام	٥٥ « قتله للفقير المدرسي عفيف الدين
٤١ « بعض أخباره في الجود والكرم	الكساني وفقيرين معه
٤١ « « إلى عطائه آخر ما ذكر	٥٦ « قتله أيضا لفقيرين من أهل السند
٤٣ « عطائه لشيخ الشيوخ ركن الدين	كانا في خدمته
٤٣ « « للواعظ الترندي ناصر الدين	٥٦ ذكر قتله للشيخ هود
٤٤ « « لعبد العزيز الأردويكي	٥٧ « سجنه لابن تاج العارفين وقتله
٤٤ « « لشمس الدين الأندكاني	لاولاده
٤٤ « « لعبد الدين الشنكاري	٥٨ « قتله للشيخ الحيدري
٤٤ « « للقاضي محمد الدين	— « « لطوغان وأخيه
٤٤ « « لبرهان الدين الصاغرجي	— « « لابن ملك التجار
٤٤ « « لحاجي كاون وحكاياته	٥٩ « ضربه لخطيب الخطباء حتى مات
٤٥ « قدوم ابن الخليفة عليه وأخباره	— « تخريبه لدهلي ونفي أهلها وقتل
٤٩ « تزوج الأمير سيف الدين غدا	الأعمى والمقعد
باخت السلطان	— « ما افتتح به أمره أول ولايته
٥٠ « سجن الأمير غدا	من منه على بهادور بوره
٥٢ « حكاية في تواضع السلطان وأنصافه	٦٠ « ثورة ابن عمته عليه وما اتصل
— « اشتداده في إقامة الصلاة	بذلك
— « اشتداده في إقامة أحكام الشرع	٦١ « ثورة كشلوخان وقتله
٣٣ « رفعه للمغارم والمظالم وعوده	٦٢ « ذكر الواقعة بجبل قراجيل على
لأنصاف المظلومين	جيش السلطان
— « إطعامه في الغلاء	

صحيفة	صحيفة
٧٥ » وصولنا لدار أم السلطان وذكر فضائلها	٦ ذكر ثورة الشريف جلال الدين ببلاد المعبر، وما اتصل بذلك من قتل ابن أخت الوزير
٧٦ » الضيافة	٦ » ثورة هلاجون
— » وفاة ابنتي وما فعلوا في ذلك	٦ » وقوع الوباء في عسكر السلطان
٧٨ » إحسان السلطان والوزير إلى في أيام غيبة السلطان عن الحضرة	٦ » الإرجاف بموته وفرار الملك هوشنج
— » العيد الذي شهدته أيام غيبته	٦ » ما هم به الشريف إبراهيم من الثورة ومآل حاله
٨٩ » قدوم السلطان ولقائنا له	٦ » خلاف نائب السلطان ببلاد التلنك
٨٠ » دخول السلطان إلى حضرته، وما أمر لنا به من المراكب	٦ » انتقال السلطان لنهر الكنك وقيام عين الملك
— » دخولنا إليه، وما أنعم به من الإحسان	٧ » عودة السلطان لحضرته ومخالفته على شاه كر
٨٢ » عطاء ثان أمر لي به، وتوقفه مدة	» فرار أمير بخت وأخذه
٨٣ » طلب الغرماء ما لهم قبلي ومدحى للسلطان وأمره بخلاص ديني وتوقف ذلك مدة	٧١ » خلاف شاه أفغان بأرض السند
٨٤ » خروج السلطان إلى الصيد وخروجه معه وما صنعت في ذلك	» خلاف القاضي جلال
٨٦ » الجمل الذي أهديته له إلى آخر ما ذكر	٧٢ » خلاف ابن الملك مل
٨٧ » ذكر الجملين اللذين أهديتهما له	» خروج السلطان بنفسه إلى مدينة كنباية
٨٨ » خروجه وأمره لي بالإقامة بالحضرة	٧٣ » قتال مقبل وابن الكولبي
	٧٤ » الغلاء الواقع بأرض الهند
	» وصولنا إلى دار السلطان عند قدومنا وهو غائب

صحيفة	صحيفة
١٤٩ » الشيخ جلال الدين	١٣٠ » تغيره ولا أردته من الخراج
١٥١ » سلطان البرهنكار	ومقامى بعد ذلك
١٥٢ » » الجارة	١٣١ » العيد الذى شاهدته معهم
— » دخولنا إلى داره وإحسانه إلينا	— » تزوجى وولايتى القضاء
١٥٤ » إنصرافه إلى داره وترتيب السلام عليه	١٣٢ » قدوم الوزير عبد الله بن محمد
— » ذكن خلاف ابن أخيه وسبب ذلك	الحضرى الذى نفاه السلطان شب
١٥٥ » ذكر اللبان والكافور والعود والقرنفل	الدين إلى السويدوما وقع بينى وبينه
١٥٦ » سلطان مل جاوة	١٣٣ » انفصالى عنهم وسبب ذلك
— » عجيبيه رأيته بمجلسه	١٣٤ » النساء ذوات الثدي الواحد
١٥٧ » هذه الملكة	١٣٦ » سلطان سيلان
١٥٩ » الفخار الصينى والدجاج	١٣٧ » » مدينه كنكار
— » بعض من أحوال أهل الصين	— » الياقوت
١٦٠ » دراهم الكاغذ الذى بها يتعاملون	١٣٨ » » القروود
— » التراب الذى يوقدونه مكان الفحم	— » العلق الطيار
— » ماخصوا به من أحكام الصناعات	١٣٩ » » جيل سرنديب
١٦١ » عاداتهم فى تقييد ما فى المراكب	» القدم
— » عاداتهم فى منع التجار عن الفساد	١٤١ » سلطان بلاد المعبر
١٦٢ » حفظهم للمسافرين فى الطرق	١٤٢ » وصولى إلى السلطان غياث الدين
١٦٧ » الأمير الكبير قرطى	— » ترتيب رحيله وشئيع فعله فى
١٧٠ » سلطان الصين والخطا المقلب بالقان وذكر قصره	قتل النساء والولدان
١٧١ » خروج القان لقتال ابن عمه وقتله	١٤٣ » ذكر هزيمة الكفار وهى من أعظم
١٧٢ » رجوعى إلى الصين ثم إلى الهند	فتوحات الإسلام
» الرخ	١٤٥ » وفاة السلطان وولاية ابن أخيه
	١٤٦ » سلب الكفار لنا
	١٤٨ » سلطان بنجالة

صحيفة	صحيفة
١٩٩ » جلوسه بالمشور	١٧٣ » أعراس ولد الملك الظاهر
» تذلل السودان للمكهم وتربهم	١٧٤ » سلطان ظفار
له وغير ذلك من أحوالهم	» » —
٢٠٠ » فعله في صلاة العيد وأيامه	١٧٨ » » القاهرة
٣٠١ » الأخوكة في إنشاد الشعراء	١٧٩ » » مدينة تونس
للسلطان	١٨٢ » بعض فضائل مولانا أيده الله
٢٠٤ » ما أستحسنه من أفعال السودان	١٩٢ » » التكشيف
» سفرى عن مالى	١٩٤ » مسوفة الساكنين بايوالاتن
» الخيل التي تكون بالنيل	١٩٧ » سلطان مالى
٢٠٩ » معدن النحاس	١٩٨ » ضياقتهم النافهة وتعظيمهم لها
» سلطان تكدا	— » كلامى للسلطان بعد ذلك
٢١٠ » وصول الأمير الكريم إلى	» وإحسانه إلى

تمت فهرست الجزء الثانى

